عَظَمَةُ بابل

هاري ساغز

عَظَمَةُ بابل

ترجمة

خالد أسعد عيسى

أحمد غسان سبانو

عَظَمَةُ بابل

تأليف: هاري ساغز

ترجمة: خالد أسعد عيسى / أحمد غسان سبانو

الطبعة الأولى: ٢٠٠٨.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي

دار رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف:٥٦٢٧٠٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

فاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

المقدمة

ليس هناك في اللغة الإنكليزية حسب معرفتي أي مؤلف يقدم معلومات تفصيلية حديثة حول حضارة بابل وأشور ككل ولهذا فقد حاولتُ في هذا الكتاب التعويض عن هذا النقص موجهاً اهتمامنا إلى القارئ العادي وإلى الطلاب في آخر سنة دراسية لهم في مدارسهم أو في أول سنة جامعية لهم. هذا وليس لدينا أية معلومات سابقة عن هذا الموضوع الذي يستطيع أي قارئ لديه اهتمام بالمظاهر العريضة للتاريخ البشري امتلاكها غير المعلومات التوراتية.

ليس من الضروري الإشارة إلى أنه ينبغي حذف كثير من الاهتمامات الجانبية أو المرور بها مرور الكرام عند إيراد مقدمة لمثل هذا الموضوع الواسع المتصل بالأنشطة البشرية، وإذ إنني حاولت تأكيد بعض مظاهر هذا الموضوع عند اختيار موضعين كالمظاهر الاقتصادية والإدارية التي قلما تطرقت إلى ذكرها المؤلفات الماضية وقمت بحذف أو إهمال بعض القضايا التي سبق أن عولجت بشكل كافٍ. وهكذا فقد اختصرت بعض المواضيع ببضع صفحات عند معالجة فنون منطقة ما بين النهرين حيث نجد فيها معلومات نيرة حول هذا الموضوع في كتاب هـ. فرانكفورت H. Frankfort (الفنون وفن العمارة في أقطار الشرق القديمة) الذي صدر عام ١٩٥٤ وكما كان هذا الموضوع بحث لبعض المؤلفات المتأخرة. بينما حذفت بشكل كلي تلك التواريخ المبهرة الآسرة للحفريات التي حدثت هناك نظراً لكثرة الكتب الممتازة التي عالجت هذا الموضوع ابتداءً من كتاب هـ . لايارد H . Layard (نينوى وآثارها) الذي صدر عام ١٨٤٩ وكتاب مالوين Mallowan (خمسة وعشرون عاماً في اكتشاف منطقة ما بين النهرين) الذي صدر عام ١٩٥٦.

ليس هناك مجال للاعتذار عن تخصيص فصلين طويلين من فصول هذا الكتاب الأربعة عشر لشرح الشؤون الدينية التي ربما اعتبرت مستهجنة لدى ابناء عصرنا العلماني. إذ إنني أعتقد أن هذه القضايا الدينية لا تزال تمثل نسبة قوامها أقل مما ينبغي بالنسبة لحياة العالم القديم. وكذلك فقد حَذفت بعض المواضيع خوفاً من

زيادة حجم هذا الكتاب ولكني كنت أود وبكل سرور إبقاءها وأخص بالذكر منها عدة مواضيع دينية ، مثلاً طقوس الكفن وأفكارها بعد الموت ومشاكل الوجدانية المشوبة البدائية وهي تشمل عبادة إله واحد مع عدم وجوب إنكار وجود آلهة أخرى وكذلك تلك النزعة العلمانية التي ناقشها المؤلف صُودن W. Von Soden في مقالةٍ حديثة وكذلك بعض القضايا المختلفة كالأعمال الزراعية والتقنيات المعدنية وتكتيكات الجيوش الآشورية في ميادين القتال.

لا ينبغي أن ينخدع القارئ بوجود تلك الثقة الظاهرة التي قدمت بها بعض التواريخ الدقيقة بالنسبة لعدة نقاط ابتداءً من منتصف الألف الثالث ق.م فصاعداً. والحقيقة أن تواريخ منطقة ما بين النهرين لا تزال موضوعاً مثيراً للجدل. وبالنسبة للالف الثالث والثاني ق. م هناك ثلاثة أنظمة تاريخية رئيسية سائدة ، فالتواريخ التي ذكرتها إنما تمثل محاولة لتوحيد الأنظمة التي بدأها الاستاذ سدني سميث Sidney Smith وأقتبسها بشكل جزئي م. ب بوتون M. B. Powton على ضوء بحثٍ متأخر. وعلينا أن نؤكد أنه من المأمول أن تكون التواريخ المعطاة صحيحة نسبياً أي متناسقة بعضها مع بعض إلا أن هناك خطأ ممكناً في التواريخ المطلقة بواقع قدره قرن من الزمن بالنسبة لبداية الألف الثالث ولكن هذا الخطأ يبدأ بالتناقص ليصبح حوالي عشر سنوات عند نهاية الألف الثاني. أما معظم التواريخ بالنسبة للألف الأول فمن الممكن أن تصبح بواقع قدره سنة واحدة (وذلك كما سوف يذكر خلال هذا الكتاب).

كلمة توضيح لا بد من ذكرها حول ترجمة أسماء العَلَم فقد استخدمنا الأشكال الكلاسيكية والتوراتية السائدة والمتكررة. أما بالنسبة للحالات الأخرى فلكي نوفر على القارئ غير المختص الوقوع في حالةٍ من الارتباك عند مصادفة سلسلة من العلامات الصوتية المتميزة التي توضع فوق الحرف أو تحته. فقد أتبعتْ الكلمات الإنكليزية القديمة المأخوذة من التوراة بوضع حرف و Ş أو Š أو Ţ أو H بأحرف S أو Sh أو T وفي معظم الأحوال H بالتوالي.. وفي حذف الوقفة الصادرة من الحلق (الوقفة المزمارية) عدا المواضع التي يؤدي حذفها إلى لفظ خاطئ.

ولقد قبلت بعض الهفوات عند ترجمة حرف h إلى حرف ع وليس (هـ) في أسماء مثل Arrapha تُلفظ أرابخا. ولكن حيث ترك اسم العلم أي شك بالنسبة للترجمة فإن الشكل الصحيح يعطى بشكل مربع بين قوسين في فهرست أسماء العلم حسب الشكل المستخدم في النص.

إن ترجماتي هذه ما هي إلا نتيجة قراءاتي للنصوص الأصلية ونقلها إلى اللغة الإنكليزية. وأمل أن تكون متفقة مع الاستعمالات الاصطلاحية، ولكن قد أهملت الكلمات أو الحقائق المعادة التي لا شك في لفظها. وإن وجدت أقواس مستديرة حول الترجمة فهذا يدل أن هذه الكلمات قد استعملت ولكنها ليست ممثلة في الأصل بينما إذا استعملت الأقواس المربعة فهي تحتوي على ملاحظات تفسيرية. وأما علامات الاستفهام الموضوعة بين قوسين فهي تدل على وجود عنصر من عناصر الشك بالنسبة لترجمة الكلمات الموجودة.

أما المقتطفات التوراتية فقد أخذت من النسخة المنقحة مع أنه وفي بعض الحالات حيث أهمل المراجعون من زمن الملكة فكتوريا بشكل عشوائي المصطلحات الإنكليزية للنسخة المنقحة دون إيراد أية معالجة دقيقة. عندها فإن الترجمة القديمة هي التي اتبعت.

هاري ساغز

الجــزء الأول

التاريخ العام والتاريخ السياسي

الفصل الأول

منطقة ما بين النهرين قبل عام ٢٠٠٠ ق.م

إن إحدى الصعوبات التي تظهر عند مناقشة حضارة منطقة ما بين النهرين القديمة تكمن في معالجة المصطلحات الفنية الجغرافية. وبالنسبة لآراء بعض المطلعين على العمليات البريطانية في الشرق الأدنى خلال الحرب العالمية الأولى فإن منطقة ما بين النهرين نفسها هي منطقة غامضة، فهي تعني المنطقة الواقعة ما بين وحول نهري الفرات ودجلة ابتداءً من الخليج العربي حتى الموصل. أما بالنسبة لآخرين قد سكنوا هناك وتعاملوا مع القضايا الكلاسيكية، فهي تعني المنطقة الواقعة إلى الشمال الغربي من تلك. ولكننا سوف نتعامل مع منطقة ما بين النهرين طبقاً للمفهوم الأول. أما العراق فهو لا يقلُّ غموضاً عن تلك. إذ من الممكن استعمالها (كما هو الحال في هذا الكتاب) بشكل ينطوي على مفارقة تاريخية بالنسبة للأزمنة القديمة لتعني اشتمالها على المنطقة بأجمعها والتي أصبحت تدعى حديثاً بهذا الاسم ولكن وبالنسبة للمؤرخين من العرب فإن لها معنى أكثر تحديداً. فبلاد بابل وبلاد أشور هما مصطلحان متلائمان، فهما يدلان أصلاً على المملكتين الرئيسيتين الشمالية والجنوبية في المنطقة ذات العلاقة ابتداءً من الألف الثاني ق.م فصاعداً. ولكنهما غالباً ما استعملا بشكل غير دقيق لتعينها المناطق الشمالية والجنوبية دون الرجوع إلى الأوضاع السياسية للدلالة على زمن يقع قبل أن توجد بابل. فقد كان الاسم السائد هو سومر وهو يعني القسم الجنوبي وأكاد وهو يعني القسم الشمالي من منطقة بابل.

وفي بعض الفقرات في هذا الكتاب وخصوصاً في أوائل أبحاث التاريخ الثقافي. هناك القليل من المبررات إن لم تكن المبررات المنطقية معدومة لمعالجة الحوادث في

العراق بمعزل عن المناطق المحيطة به فقد أمكن اعتبار المسافات والأمكنة على التحديد العام للمنطقة بشكل مقيَّد. وهكذا أصبح من الممكن إلقاء نظرة عابرة على الحوادث والتطورات في المناطق المحيطة.

في العراق (وكما هو الحال في بعض المناطق من أوروبا وآسيا) فقد أصبح الآن مُمكناً تقصي الوجود والاستيطان البشري بالرجوع إلى مرحلة من التطور تدعى العصر الحجري القديم حيث كان قوام الغذاء البشري فيه منحصراً بالصيد وتجميع مواد الطعام قبل البدء بالمعيشة في مستوطنات مستقرة وقبل السيطرة على عملية تجميع المواد الغذائية عن طريق ترويض ورعي المواشي وإكثار الحيوانات وإنماء الحبوب. ولكن الشواهد الموجودة في العراق والتي تدل على هذه المرحلة ليست شاملة كونها منحصرة في مواقع قليلة في الأراضي المرتفعة. ولكن ومع أن الشواهد قليلة، إلا أنه يكفينا أن نقرر زمن وجود الإنسان في العراق (كما في المناطق المحيطة به) ابتداءً من فترة تقريبية ما بين مئة ألف عام ومئة وخمسين ألف عام مضى.

وفي تلك الفترة كان القسم الشمالي من العراق يمثل أراضي وحيوانات مختلفة عن ما هو موجود في تلك المنطقة في الوقت الحاضر.

ففي خلال الأزمنة التاريخية كانت المنطقة التي تشمل العراق ولا تزال تفتقر إلى هطول الأمطار مما جعل بعضها غير قابل للعيش فعلاً، وهي المناطق البعيدة عن أودية الأنهار. ولكن لم تكن هذه الحالة هي السائدة دوماً، إذ إنه وقبل مئة ألف عام مضى وعندما كانت الكتل الجليدية تغطي مساحات واسعة من أوربا الشمالية، كانت المنطقة ما بين الساحل الأطلسي وعبر شمال أفريقيا والشرق الأوسط وصولاً إلى إيران تتمتع بقدر أكبر بكثير من الهطولات المطرية وكانت المنطقة بأجمعها تُمثل نوعاً من الحدائق الغناء ذات الحياة النباتية الكافية لترعى فيها تلك الأعداد الكبيرة والواسعة من المواشي وغيرها من الحيوانات. ومن بين هذه الحيوانات كان هناك مخلوق نادر من جامعي الأطعمة يمشي على قدمين وهو المعروف باسم رجل العصر الحجري القديم، وقد وجدت شواهد تدل على الاستيطان

البشري في العراق في تلك الفترة القديمة ومنها كهف واقع في مكان يدعى باردا بالكا Barda Balka حيث اكتشفت فيه أدوات حجرية من أنواع وجدت في بعض الأماكن في آسيا وأفريقيا. وإلى جانب تلك الأدوات هناك بقايا حيوانات كالفيل والغزال الكبير التي كانت أكثر وجوداً في تلك المنطقة من الإنسان نفسه.

هذا وإن الاستيطان البشري في العراق حوالي نهاية فترة جامعي الغذاء كان يُمثل ببعض البقايا التي وجدت في كهوف زارزي Zarzi وهازار ميرد Hazar Merd في التلال في لواء السليمانية يرافقها بعض المصنوعات الصوانية التي توصف بكونها من العهد الأوريجانسي والموستيري Aurignacian and Mousterian [1].

وهي عبارة عن ثالث موقع متوضع في كهف. وهناك موقع باليجاورا Palegawra في نفس المنطقة ولكن ربما كان هذا الموقع أحدث عهداً. وتُظهر نتائج فحوص عظام الحيوانات التي وجدت في هذا الموقع أنه أثناء ذلك الزمن الواقع تماماً قبل تلك التغيرات الاجتماعية الاقتصادية المدعوة الآن بثورة العصر الحجري الحديث، لقد أصبح الانسان الآن يتغذى عن طريق صيد الحيوانات اللبونة الكبيرة الحجم وعلى مقياس واسع وكانت فرائسه تشمل الخيول البرية والخنازير والأغنام والماعز والغزلان والأيائل. وفي هذا الزمن عرف الإنسان استعمال النار وهكذا لم يعد يأكل اللحم نيئاً.

وحتى حين تظهر تحاليل الكربون ١٤ أو تظهر أية تقنيات أخرى أو دلالات أخرى أكثر وضوحاً حول تحديد الزمن، فإننا نقرر أن أقدم فترة حدث فيها الاستيطان البشري في تلك الكهوف المذكورة آنفاً وبثقة، هي أزمنة تزيد على

١ - العهد الأور انسي وا وستـ ي: يعود للعهد ا وستري ويدل على فترة من ثقافة العصر ا جري القد و ي باسم مغارة وجدت فـي فرنسا على ضفاف ر Veseri. وتدل هذه الفترة على اية عنصر النياندرتال فـي العا القد (ا ترجم).

ألوف السنين. ومن الممكن تحديد التاريخ التقريبي لوجود تلك المجتمعات البشرية المتمثلة في تلك المواقع بأنه عام ١٠,٠٠٠ ق.م.

هذا وإن الانتقال إلى الاقتصاد المؤسس على زراعة وجني المحاصيل الزراعية وخصوصاً الحبوب مع ما تبعه من تدجين الحيوانات لابد أنه قد بدأ في تلك الفترة وذلك طبقاً لما يمكن أن نحكم به بناءً على الشواهد الحاضرة في منطقة الشرق الأدنى وذلك في الألف الثامن ق.م في المنطقة الواقعة ما بين فلسطين وسلسلة جبال زاغروس Zagros.

ولكن وبعد انحسار كتل الثلوج عن أعالي المنطقة القطبية الشمالية والذي حدث في نهاية العصر الجليدي الأخير مسبباً تحرك رياح المحيط الأطلسي الماطرة شمالاً مما سبب الجفاف في منطقة الشرق الأدنى بشكل متزايد. وهكذا نما وكثر القمح والشعير، ووجدت عندها الأجيال المتوحشة للكلاب والماعز والأغنام والمواشي والخنازير.

وهكذا أجبر الإنسان الذي كان يعيش في تلك المنطقة أن يعمل في إنتاج مواد الطعام حفظاً لبقائه. فانحدر من المناطق الجبلية تدريجياً حيث أصبحت النباتات البرية الصالحة للأكل نادرة نوعاً ما. وكذلك لم تعد الطرائد التي كان يصطادها كافية لقوته حسب عملية جمع الطعام البسيطة السابقة. وكشأن جميع الثورات التالية، كان ذلك التغيير مؤلماً بالنسبة لأولئك المعنيين بالأمر. وقد انعكس هذا الوضع على تلك القصص الخرافية التي كانت تُندد بفقدان ذلك العصر الذهبي، ومن أهم تلك القصص، قصة العهد القديم في التوراة التي تتحدث عن طرد آدم وحواء من جنة عدن حين اضطر الإنسان الذي كانت جميع المخلوقات والثمرات والأشجار مسخرة لأمره ولخدمته وإطعامه، عندها أصبح ذلك الإنسان عاجزاً ومضطراً لتناول الخبز فحسب ولكن من عرق جبينه. لقد بلغت فترة ما يدعى بثورة العصر الحجري الحديث عدة ألوف من السنين.

وبالنسبة للشرق الأدنى حيث بدأت هذه الثورة، نستطيع أن نلملم معلوماتنا من ذلك العدد الكبير من المواقع الممتدة من فلسطين حتى بلاد فارسومن الأناضول حتى جنوب بلاد العرب. وإذا اعتبرنا طبيعة حب التغيير في الإنسان، فإن هذه المواقع لابد وأنها لم تعد عبارة عن كهوف تصلح للعيش (مع أن إنسان العصر الحجري الحديث وربما ظل مستمراً في استخدام الكهوف في بعض الظروف كما يفعل بعض الأكراد في نفس المنطقة في هذه الأيام). لكن وبالنسبة للمواقع المكشوفة: ابتداءً من مجموعات أوضاعهم المفضلة وميل الناس للمحافظة على القديم، فقد حدث أن كانت بعض هذه المواقع مأهولة بالسكان لعدة مئات أو ألوف السنوات. وقد ظل الحال على هذا المنوال حتى الأزمنة التاريخية في بعض الأحوال وحتى الأزمنة الحاضرة في أكثر من موقع، بحيث أن أصبحت بقايا العصر الحجري المتأخر تشكل الطبقة السفلى من ركام مرموق يحتوي على أنقاض تدل على وجود استيطان بشري. وإن مثل هذا الركام المؤلف من بقايا تعود إلى فترات مختلفة من الاحتلال داخل طبقات أرضية متراكمة بعضها فوق بعض وتدعى هذه طبقاً للغة المستعملة في تلك المناطق **بالتل**. ونظراً لصعوبة وكثرة تكاليف فتح تل رئيس للوصول إلى عمق مناطق العصر الحجري الحديث لذلك فإن القسم الأعظم من المعلومات المتوقعة حتى الآن قد أتت من مواقع غير مسكونة خلال الأزمنة التاريخية.

ولكن هناك استثناء فريد لهذه القاعدة وهو موقع بلدة أريحا (وتدعى تل السلطان) التي تعتبر إحدى أقدم المستوطنات في العصر الحجري الحديث. أي إذا سلمنا بالتواريخ التي افترضها القائمون بالحفريات من رجال علم الآثار، مع أن هناك بعض من يشكون بصحة أقوال هؤلاء. ولكن وطبقاً لأقوال القائمين بالحفريات (وعلى أساس تحاليل الكربون ١٤ المُشع المأخوذة من عينتين) فقد تقرر أن تاريخ ذلك الموقع يعود إلى عام ٧٥٠٠ق.م وأن ذلك الموقع قد توسع وأصبح يشكل بلدة صغيرة حوالي عام ٦٨٠٠ق.م. تبلغ مساحتها حوالي عشرة فدادين وعدد سكانها حوالي ألفي نسمة وكانت بيوتها مبنية من آجر الطين وأرضيات البيوت من الطين المطروق وربما كانت السقوف مصنوعة من أغصان الأشجار المطلية بالطين. وكان

الموتى يدفنون تحت أرض الغرفة في طقوس مهيبة. وكانت رؤوس الموتى تقطع وتحفظ ملامحها في قوالب من الجص (ولا تزال هذه العادة مستعملة في بعض أجزاء ماليزيا حتى الأزمنة الحديثة مع أنه ليس هناك من علاقة مباشرة بين البلدين) وبعد ذلك كان الرأس يدفن بشكل منفصل عن الجثة.

وبعد انتشار الزراعة وجني المحاصيل المستعملة للطعام وبعد تدجين الحيوانات ووجود الأراضي غير المحدودة، عندها أصبحت هناك إمكانية زيادة عدد السكان بشكل مرموق فانتشرت المجتمعات القروية، حيث اتحدت العائلات وتعاونت في عملية إنتاج مواد الطعام والدفاع عن النفس. وهكذا فإن تأمين الحصول على مواد الطعام سبب طبعاً حدوث بعض أوقات الفراغ التي كان لها نتائج عميقة بالنسبة للأنشطة الإنسانية التالية فقد ملأ الإنسان هذا الفراغ بإحداث بعض أنواع التخصص ولقد ظهر هناك مظهران من مظاهر هذا التخصص، كان أحدهما التطور في الفنون من جهة وظهور مجموعات اجتماعية محترفة تهتم بالتجاوب الديني للإنسان مع النموذج المفروض في الحياة من قبل الدورة الزراعية من جهة أخرى.

وهناك شاهد على بداية أعمال حصاد الحبوب وقد أتى من منطقة جبل الكرمل من بعض مواقع الكهوف هناك وذلك من حوالي زمن نهاية العصر الحجري. فقد وجدت هناك بعض المناجل المؤلفة من أسنان من الصوان موضوعة في مقبض حجري استعمله شعب يدعى النطوفيون. وتدل تلك الشفرات الصوانية على استعمالها لقص سيقان الحبوب ومن الممكن أن يشمل هذا قص سيقان القمح والشعير البري الموجود في المنطقة وليس من الضروري أن يكون إشارة إلى بداية مواسم الحصاد الحقيقية. ومن المؤكد أنه لم يكن لدى هؤلاء النطوفيين حيوانات مدجنة مستعملة للطعام مع أن هناك شاهداً على أن هؤلاء النطوفيين قد دجنوا الكلاب.

وما لم تثبت نهائياً تلك التواريخ القديمة التي تزعم وجود الاستيطان في العصر الحجري الحديث في أريحا فإن أقدم شاهد على حدوث تغيرات أكيدة ابتداءً من التغير من اقتصاد جمع مواد الطعام حتى عملية إنتاج مواد الطعام إنما قد أتت من

موقع مفتوح مساحته حوالي فدانين وهو موجود في كارم شاهير Karim Shahir (إلى الشرق من كركوك) وكان مسكوناً لوقت قصير حوالي عام ٧٠٠٠-٦٠٠٠ق.م. وكانت نصف العظام التي وجدت من أنواع من الماعز والغنم والخنازير وبعض الخيول. التي إذا لم تكن قد دُجنت بعد فإنها سوف تُدجن بعد وقت قصير. وبالإضافة إلى شفرات المناجل وجدت أيضاً مجارش أي مطاحن يدوية ومعازق أي مجارف يدوية مما يدل على وجود بعض العمليات الزراعية مع أنه لم يكتشف وجود حبوب في ذلك الموقع. وقد وجدت بعض البلاطات الحجرية وحجارة تصلح لعمل المواقد وكما يبدو أنه قد حُفرت أماكن لخزن المواد. ولم يؤكد بعد وجود بعض التفاصيل حول الشؤون الزراعية ولم توجد أي تفاصيل معمارية تدل على إنشاء نوع من البيوت توضع فيها هذه الأشياء. يشكل موقع كارم شاهير مرحلة انتقالية مبكرة، إلا أننا لا نستطيع اعتبار هذا الموقع قرية من قُرى العصر الحجري الحديث. فالحقيقة أنه ليس لدينا ما يُثبت أن الاستيطان فيها لم يكن أكثر من استيطان مؤقت، موسمي. ولكن هناك ثغرة ينبغي ملؤها في قضية تتابع الثقافات ومضي الزمن ما بين هذا الموقع وموقع جارمو (وهو واقع شرقي كركوك أيضاً) والذي حُدد تاريخه عن طريق تحليل الكربون ١٥ وذلك بعام ٥٠٠٠ق.م وبعد ذلك بقليل.

هذا وإن أولئك الذين قبلوا تاريخ ٧٥٠٠ق.م كمؤشر صحيح بالنسبة للاستيطان في أريحا سوف يقبلون تاريخ جارمو وهو ٦٠٠٠ق.م (رغم تقارير تحاليل الكربون ١٤). هذا وقد وجدت في هذا الموقع منازل مبنية بشكل خطوط مستقيمة تتألف من غرف عديدة وكانت الجدران وأراضي الغرف مصنوعة من الصلصال المضغوط وكانت أسس الأبنية مصنوعة من الحجر. كما وجدت أفران مصنوعة من الصلصال وهي ذات مداخن من الصلصال أيضاً. وكان هناك تماثيل صغيرة من الصلصال (ومعظمها غير مشوي) تُمثل بعض الحيوانات وبصورة خاصة الآلهة الأم. ويبدو أن تماثيل الأم الكثيرة العدد كانت هي الشكل الرئيسي في ديانة العصر الحجري الحديث، حيث كان الخصب والوفرة يمثلان المكانة الأولى بالنسبة

للمجتمع. وبالإضافة إلى ذلك وجدت هناك طاسات حجرية ناعمة الملمس مصنوعة من حجر الكلس وكذلك بعض أدوات الزينة (بشكل أساور وخرز بصورة رئيسية) وكذلك بعض الأدوات الصوانية الصغيرة الحجم وهي من حجم صناعات العصر الحجري الحديث. ولكن لم يوجد الفخار إلا في المراحل المتأخرة من استيطان جارمو. وإن غياب أي أثر للمراحل الأولى من صناعة الفخار في هذا المكان ما هو إلا دحض لأي افتراض أن هذا التطور الهام أي صناعة الفخار قد بدأ هنا في جارمو، ولكن هذا الشاهد السلبي ليس شاملاً لأن علينا أن نتذكر أن المراحل الأولى لصناعة الفخار تتألف من وجود بطانة من الصلصال في السلال التي كان يوضع فيها الفتيل عند الإضاءة ومن الصعب أن تنجو هذه السلال من عاديات الزمن.

أما عظام الحيوانات التي وجدت في جارمو فهناك حوالي ٩٠٪ تمثل حيوانات مدجنة أو قابلة للتدجين مثلاً الماعز المدجن (وهو متميز عن الماعز البري الجبلي بأشكال قرونه) وكذلك الأغنام والخنازير والمواشي والخيول. ولقد قيل إنه نظراً لبداية العهد الزراعي ينبغي عند ذلك أن يكون الثور قد استعمل لجر المحراث في جارمو. ولكن هناك رأي معاكس وهو أن هناك قد وجد على بعض الأختام الأسطوانية التي كانت تعود ألفي عام متأخرة صُور رجال من البشر وهم يجرون المحراث البدائي وعلى الأقل نوعان من الحبوب قد استعملت في جارمو وهي (حبوب Einkorn) والتي تمت معالجتها بالكربون وأحد أجداد القمح Emmer فضلا عن نوع من البازيلاء البرية وقد استنتج وجود الحبوب من وجود المجارش وهي المستعملة في جرش وطحن الحبوب وكذلك المهاون وبعض الصواني المستعملة للعجين أما الشعير الذي أصبح ذا أهمية فيما بعد في منطقة ما بين النهرين، إلا أنه لم يظهر في جارمو. ومن الممكن أن يكون قد ظهر استعماله فيما بعد بشكل نوع من الأعشاب النامية في حقول القمح شأنه شأن الشوفان والجودار في فترات متأخرة.

وكانت الحبوب المستعملة في جارمو تُحمص تحميصاً خفيفاً داخل الأفران. وبعد ذلك تُطحن وتؤكل بشكل عصيده توضع على هيئة عجين بشكل بسكويت. هذا وقد صُنعت البيرة من تخمر العصيدة الحامضة الطعم. ولا شك أن بقايا جارمو

هي بقايا قرية قديمة فقد كان هناك تتابع من ثمانية مستويات من الأبنية مما يدل على دوام السكن فيها خلال حوالي ثمانية أجيال على الأقل. وهناك موقع آخر في العراق يعود إلى العصر الحجري الحديث وهو موقع مولافا Mulaffa ما بين الموصل واربيل وهو يزيد في بدائيته عن جارمو وخصوصاً في البقايا الثقافية المادية.

ومن المرجح أنه أقدم عهداً ولكنه يمثل موقع قرية كاملة الأوصاف. موقع (جردعَلي اَغا) Gird Ali Agha إلى الشمال من أربيل وهو أحدث عهداً من جارمو ولكنه لم يُظهر أيَّة صِلة واضحة مع أول المراحل الثقافية المعروفة وهي موقع حسونة Hassuna .

وما بين مرحلة التطور البشري التي تمثلها جارمو والحضارة المتقدمة نسبياً والتي يرجع تاريخها إلى حوالي بداية الألف الثالث ق.م، يجد المرء تقدماً تقنياً مرموقاً بالنسبة لنواح عدة من الأنشطة. وهناك بعض علماء الآثار الذين يعتنقون وجهة النظر التي مفادها أنه ليس من الممكن ضغط التطورات الواسعة والشاملة بحيث تشمل حوالي ألفي عام على أكثر تقدير. ويقول هؤلاء إنه إذا كان توقيت الكربون ١٤ للاستيطان في جارمو أمراً لا شك فيه، فإن المستوطنة نفسها لابد أنها كانت عبارة عن موضع خلفي منعزل أو في حالة ركود بالنسبة لمجرى التطورات الرئيسية التي تمثل مرحلة ثقافية قد بطلت وزالت قبل حوالي ألف عام بالنسبة للأماكن الأخرى. ومقابل وجهة النظر هذه هناك ظاهرة وجود الزجاج البركاني في جارمو حيث تعتبر الأناضول المصدر الأقرب لهذا الحجر وهي على بعد مئات من الأميال عن جارمو وهكذا نستنتج أنه كان هناك أنواع من العلاقات التجارية مع العالم الخارجي، مما يستبعد فكرة الانعزال الثقافي في مجالات أخرى. وهكذا يُضطر الإنسان إلى الاستنتاج أن التطورات الثقافية كانت أسرع مما كان يُفترض حتى الآن.

فإذا تحولنا من جارمو نجد أن أقدم نوع من الاستيطان في ذلك المجرى الرئيسي للتطور الثقافي في العراق في فترة ما قبل التاريخ هو ما يدعى موقع حسونة Hassuna وهو يحمل اسم نفس الموقع إلى الغرب من نهر دجلة قريباً من الموصل.

وبالإضافة إلى ذلك الموقع الذي سميت تلك الحضارة باسمه فقد وجدت بعض المستوطنات التي تشكل جزءاً من نفس تلك المرحلة المبكرة وهي مستوطنات مطره Matarrah (جنوب كركوك) ونينوى Nineveh وعرباشيه Arpachiyah وغيرها.

هذا ومن الممكن تمييز عدة وجوه من ثقافة حسونه إذ إنه قد تطورت أول مستوطنة في حسونة نفسها بعد المراحل الأولى لإنتاج مواد الطعام. ويظهر هذا من وجود المجاريش (جمع مجرشة) وهي الأداة المستعملة لجرش وطحن الحبوب وبعض الأدوات الحجرية مثلاً المجارف ثم وجود الفخار لصنع الجرار المستخدمة لخزن الذرة. ولكن هذه المنطقة بقيت محافظة على هويتها الحجرية الحديثة. وما عدا استيرادها لأحجار الزجاج البركاني Obsidian فقد بقيت عبارة عن وحدة اقتصادية منغلقة تعيل نفسها بنفسها وفوق ذلك فلا تعتبر من عهد العصر الحجري الحديث فحسب، بل من العهد الحجري الحديث المبكر وذلك نظراً لوجود الكتل الصلصالية المستعملة في المقلاع مما يدل على أن الصيد لا يزال يلعب دوراً رئيسياً في تأمين حاجات الطعام.

وتدل الأدوات المكتشفة أن الأشكال المستخلصة كانت تلك المعروفة باسم ثقافة الفأس والمجرفة. ونظراً لأن تلك العملية تنهك التربة بسرعة مما يجبر السكان على تغيير أمكنتهم وإقامتهم من وقت لآخر. لهذا فمن المحتمل أن تكون مجتمعات حسونه القديمة مجتمعات بَداوة إلى حد ما.

وبعد هذا الطور الأول من الاحتلال المؤقت في مواقع حسونة تبع ذلك وقت طويل من الاحتلال المستمر مما يوحي بأن بعض الأساليب الزراعية الفعالة قد بدأت واستعملت وخصوصاً فترة إراحة الأرض وتركها من غير زرع رغبة في إراحتها مما يمنع التخريب السريع لخصوبة الأرض. ولقد تبع ذلك بعض التطورات في بناء البيوت الشرقية النموذجية. فأصبح البيت يتألف من عدد من الغرف المتجمعة حول باحة مركزية. ولا تزال هناك بيوت من هذا النوع موجودة في العراق حتى الآن. وفي هذه

الفترة صُنعت الأحجار المجنوفة التي كانت الأبواب تدور على محورها. وكذلك فقد وجدت بعض الأفران الصلصالية (الفخارية) لصنع الخبز.

وبالنسبة لحصاد نبات الذرة فقد وجدت هناك مناجل تتألف من رقائق من الصوان متوضعة في قواعد خشبية وملتصقة بواسطة البيتومين. ولكن لم تظهر في هذه الفترة أية استعمالات للمعادن بعد.

ولقد ظهرت أصول الفخار المزين في فترة حسونة هذه، ولم يكن هذا الفخار ضرورياً لأسباب جمالية فحسب، بل لأنها كانت تؤلف السابقة المناسبة للثقافة المرتبطة بها. هذا وقد وجدت أوان فخارية مشابهة لأواني حسونة القديمة المزينة في عموق Amuq في سوريا ومرسيين على سواحل كليكية مما يدل أن مستوطنات حسونة ومُنذ بدايتها كانت جزءاً من تلك المجموعة الثقافية الواسعة الانتشار. وقد وجدت بعض أدوات شبيهة في بلاد فارس وبالتالي الصلات مع إيران تصبح موضوعاً للنقاش.

ولقد تطورت التجارة حقاً خلال هذه الفترة بالإضافة إلى الزجاج البركاني Obsidan، كما استوردت عدة أحجار كريمة أخرى مثل الفيروز والمكيت المستعملة في عمل الخرز والتعاويذ ولا شك أن هذه المواد كانت ترافقها بعض البضائع القابلة للتلف من أنواع تغيب عن ملاحظة علماء الآثار، وأما القضايا الدينية بالنسبة لحسونه فهي تنعكس بوجود بعض التماثيل الصلصالية الصغيرة فضلاً عن الجرار التي كان يُدفن بها الأطفال وهم الضحايا البشرية التي كانت توضع في أسس البنايات، وبالنسبة لوجود بعض الأواني المرافقة للمدفونين والتي من الممكن أنها كانت تحتوي بعض الأطعمة والمياه، ربما تشير من طرف خفي إلى اعتقاد غامض بالحياة بعد الموت.

وتعاصر الجزء الأخير من الثقافة الحسونية بعض الأدوات الفخارية التي تحمل إشارات هندسية وصور حيوانات وهذه تدعى فخار سمارة Samarra وقد أخذ هذا الاسم من الموقع الشهير في منتصف نهر دجلة والذي اكتشف عام ١٩١١ وقد عرف

ذلك الفخار منذ ذلك الوقت في مواقع أخرى قليلة في منتصف منطقة نهر الفرات وفي الشمال بما فيها نينوى (المستوى ٢ ب) ولا يزال هناك كثير من الشك بالنسبة لموضعها التاريخي وبالنسبة لتتابع الثقافات، بينما هناك تضارب في الآراء بين علماء الآثار بالنسبة لما يشمله فخار سماره. فلا يُعلم إذا كان هذا الفخار عائداً إلى بعض المظاهر المتميزة من نواحي نشاط علم الهندسة المعمارية أو هندسة المعادن.

هذا ويلاحظ بريدوود R. J. Braidwood أن فخار سمارة لا يمثل أية ثقافة ولا حتى خليطاً منقى من الثقافات، لأنه يقول إن فخار سمارة ما هو إلا فجر وأسلوب من أساليب الفخار المزخرف. ومع هذه التحفظات يمكننا أن نذكر أن هناك بعض علماء الآثار الذين يرون بعض العلاقة ما بين ثقافة فخار سمارة والحضارة الفارسية .

وفي المقام الأول هناك عوامل مشتركة ما بين زخارف فخار سمارة وبين بعض الفخار الموجود في بعض المواقع الإيرانية وكذلك فمع أن الشواهد المأخوذة من طقوس الدفن قليلة وطفيفة إلا أنها تؤيد النظرية القائلة بوجود علاقة ما بين بلاد فارس والشعوب المتصلة بفخار سمارة ويظهر أن هؤلاء كانوا يدفنون موتاهم في وضع الاستلقاء أي على الظهر. وقد مارس هذه العادة الشعب الذي كان ينتمي إلى ثقافة عبيد Ubaid ومن المعروف أنهم كانوا ينتمون إلى أصل فارسي. وهناك رأي مخالف يدعي عدم وجود أيَّة صلة ما بين ثقافتي سماره وعبيد. فقد كان بناؤو الأسوار في سمارة يستخدمون قطعاً كبيرة من الطوب غير المشوى وهذا مخالف للأبنية التي تقود إلى ثقافات ما قبل التاريخ. وبخصوص ديانة شعب سماره فإن كل ما نستطيع قوله هو أنه شأن جميع ثقافات ما قبل التاريخ فإن هذه الشواهد القليلة النادرة تدل على أن تلك الديانات كانت مهتمة بطقوس الخصب ذات العلاقة بالإلهة الأم المستغرقة في قضايا السحر.

وهناك نوع جديد وجميل من الفخار الأصفر البرتقالي ذي الزخارف باللون الأحمر والأبيض والأسود وهذا يشير إلى دخول ثقافة حلف. وقد سُميت هذه الثقافة باسم حلف على نهر الخابور حيث وُجدت. ويبدو أنه كان من الواضح أن الشعب الذي صنع ذلك الفخار البديع قد جلب بعض التحسينات الأخرى والتقنيات. فقد

استعملت أعداد أكثر من أنواع الحبوب والحيوانات المدجنة. بينما نرى أن وجود المغازل هو دلالة على وجود صناعة الأقمشة. وبينما بقيت الحجارة المواد الطبيعية لصناعة الأدوات، إلا أنه قد ظهر الآن الخرز والدبابيس وحتى بعض الأدوات المصنوعة من النحاس. هذا وإن البراعة التي يتم بها صُنع الفخار يؤكد وجود الآتون، حيث يمكن الوصول إلى درجات حرارة عالية جداً. والحقيقة أنه قد وجدت بقايا تلك الأتونات في عرباشية وكركميش. ومن الممكن وبالنظر إلى تلك المهارة التقنية اللازمة لصنع تلك الأتونات أن صانع الفخار كان من الحرفيين المتمرنين تمريناً كافياً.

إنه ومن المحتمل أن يعود تاريخ اختراع دولاب الخزاف إلى فترة حلف ويدل على هذا تلك الحقيقة التي مفادها أن ما يظهر بأنه عربة ما هو إلا إحدى الرسوم المدهونة على إحدى مزهريات حلف.

وبالنسبة إلى الدين فقد كان هناك بالتأكيد نوع من الاعتقاد بالحياة الأخرى نظراً لوجود بعض الأواني المدفونة مع الميت وكذلك الزخارف والأدوات التي كان يُقصد بها استعمال الميت لها في الدار الآخرة. وأما التماثيل الصغيرة الخاصة بالآلهة فهي شاهد على ممارسة طقوس الخصب.

وهناك شواهد بسيطة تدل على وجود التجارة ما بين تلك المجتمعات في تلك الفترة فقد كانت تلك المجتمعات التي كانت تعود إلى ثقافة حلف، مشغولة في استخراج الزجاج البركاني Obsidian في موقع قرب بحيرة فان. وكان هذا الزجاج البركاني يستعمل بصورة واسعة في جميع قرى حلف. وفوق ذلك ففي إحدى مستوطنات حلف في تشاجار بازار Chagar Bazar على الخابور وجدت إحدى أصداف المحار تعود في أصلها إلى الخليج العربي. ففي قرى حلف التي من الممكن أن ندعوها الآن بلدات صغيرة هناك شوارع مبلطة. ولا يعرف إلا القليل عن التطورات في فن المعمار المنزلي. فهناك بعض الأبنية المرموقة ذات السقوف المقببة مع وجود حجرات مستطيلة ملتصقة وهي تدعى ثوليو Tholio. ولكن ومهما كانت فوائد ووظائف تلك البيوت إلا أنه قلما يجوز لنا وصفها بالبيوت الخاصة. فالبيوت المدعوة

بثولوي Tholoi هي ذات وضع معماري خاص، إذ يظهر أن شعب حلف قد أجاد تشييد القباب. وباستثناء تيب جاورا Tepe Gawra ، حيث استمرت عملية تشييد أبنية ما يدعى بفترة عُبيد إلا أنها لم تعد تستعمل بعد فترة حلف. ونظراً لاستمرار النظرة المحافظة بالنسبة للشؤون الدينية، فإن هذا يعني أن هناك دلاله على أن هذه الأبنية كانت ذات أغراض علمانية أكثر منها دينية ومن الممكن أنه كان لها وظائف دينية. ولكن اختفاءها النهائي لا يمكن تفسيره إلا بالافتراض أنها كانت مرتبطة مع أحد الطقوس التي قد نبذها وتركها أحفاد شعب عبيد الذين عاشوا بعد ذلك. هذا وإن اختلاف شعب عبيد اختلافاً شديداً بالنسبة للقضايا الدينية عن أجدادهم إنما يظهر عندما نرى أنهم قد نبذوا في فنونهم جميع آثار تمثيل البشر أو الحيوانات، مع أن ذلك التمثيل كان موجوداً بشكل واضح في الثقافات الماضية التي سبقتهم. ربما ظهرت ثقافة حلف في بلاد آشور حيث من الممكن تتبعها خلال عدد من المراحل، ففي أكمل وأقصى مداها لقد وصلت تلك الثقافة إلى سواحل سوريا وكليكيا وارمينيا وجنوباً حتى سمارة ولكن هناك حقيقة مفادها أن تلك الثقافة قد تشكلت واختلفت مع بعض المظاهر من ثقافات أخرى، إلا أن هذه الحقيقة تظهر أن ليس هناك أية واحدة من هؤلاء مرشحة لتكون المكان الأصلي لمنشأ هذه الثقافة.

وهناك شاهد سلبي بالنسبة لمكان منشأ وأصل شعب حلف يشير إلى أنه لم يكتشف أي أثر لهذا الشعب في إيران. ولكن ومع ذلك فإن هذه القضية تثير مجالاً خصباً للتخمين فلم يكن شعب حلف شعباً غازياً مهدداً للثقافات السابقة، فقد كان توزيع ثقافتهم كما هو معلوم اليوم مشابهاً لتوزيع ثقافة شعب حسونة وهذا يدل على أن العلاقات ما بين المستوطنات عبر تلك المنطقة لم تتأثر سلباً بوصول هذا الشعب إلى تلك المنطقة.

وحوالي هذه الفترة بدأ استيطان جنوب العراق. وهناك شواهد متوفرة تعود إلى فترة ما قبل التاريخ تدل على وجود عدد من شرائح السكان تتميز بما خلفته من الآثار مثل الفخار وأساليب الدفن وأنظمة البناء. وعندما يُنير لنا التاريخ بعد وقت

قصير من بداية الألف الثالث ق.م بعض الغموض عندها من الممكن أن نُمَيز ثلاثة عناصر على الأقل من العناصر العرقية والثقافية في بابل.

وكان المتصدر في الأهمية من وجهة نظر التطورات الأخيرة هم السومريون الذين يُعزى إليهم أصول حضارة ما بين النهرين بشكل عام. وكذلك كان هناك الساميون الذين زاد نفوذهم العرقي والثقافي باستمرار، وذلك أما بشكل سلمي أو أحياناً مجرى مُتفجراً بشكل عنيف بالنسبة لأولئك الساميين الآتين من الغرب. وبالإضافة إلى ذلك هناك عنصر ثالث يستدل على وجوده من إن أسماء بعض المدن السومرية تنتمي إلى لغة لا هي بالسومرية ولا هي بالسامية. بينما هناك عدد لا بأس به من الكلمات المستعملة في اللغة السومرية ولكنها ليست ذات أصل سومري ولا أصل سامي. ولهذا فقد أصبح هناك نوع من التحدي عند محاولة معرفة هوية هذه المجموعات المختلفة أو إلحاقها بتلك المجموعات المختلفة من فترة ما قبل التاريخ والتي كان من الممكن تقصي آثارها عند فحص الفخار في جنوب العراق ابتداءً من الألف الرابع. ولم يتوصل المؤرخون في الوقت الحاضر إلى تحديد استنتاجات مقبولة حول هذه القضية.

وحتى أزمنة حديثة كان من المعتقد أن منطقة جنوب العراق جميعها وحتى شمال بغداد قد تشكلت منذ العصر الحجري القديم وذلك من طبقات الطمي السنوية التي يجلبها ويقذفها نهرا دجلة والفرات. وأما المنطقة في أقصى الجنوب ابتداءً من أور وأريدو إلى الجنوب الشرقي فقد كان من المعتقد أنها قد أصبحت آهلة بالسكان في العصر الحجري الحديث فحسب. ولكن بعض الجيولوجيين يخالفون هذا الرأي. فهم يقولون إن حوض دجلة والفرات يتعرض للانخفاض بنفس النسبة تقريباً التي تتعرض لها طبقات الطمي هناك. ولكن خلال فترة البلاستوسيه تراجعت هذه الطبقات إلى منطقة أبعد من الخليج الفارسي. فقد امتدت باتجاه شمالي غربي بعد أن غطت تلك المنطقة التي كانت أرضاً يابسة. ومهما كان الأمر، فإن استيطان جنوب العراق كان متأخراً نسبياً بالمقارنة مع الأجزاء الأخرى من الشرق الأدنى. هذا وليس هناك أي أثر لاستيطان في عهد العصر الحجري الحديث. ولقد وجدت

مكتشفات تعود إلى العصر الحجري القديم في قعر بحيرة قديمة قرب كربلاء. ولكن هذه القطعة ربما تكون قد جرفتها مياه نهري دجلة والفرات في الأزمنة القديمة. ولقد كان إنسان العصر الحجري يُفضل المناطق الجبلية حيث تقدم له الكهوف الطبيعية للمأوى في جوار المراعي، حيث من الممكن أن يجد الحيوانات والطرائد. بينما لم يتوغل إنسان العصر الحجري الحديث في السهول ذات المستنقعات سوى في المناطق التي كان هطول المطر فيها وافياً وكافياً للأغراض الزراعية. ولا يزال هناك نقاط خلاف حول إمكانية أو عدم إمكانية ظاهرة زيادة عدد السكان في الشمال في التأثير على استيطان منطقة بابل وذلك باضطرار بعض الفلاحين الشماليين على الانتقال إلى أماكن أبعد في تلك المنطقة. ويعتقد بعض الثقات أنه من الأكثر احتمالاً أن الهجرات الأصلية قد أتت من بلاد فارسحيث كانت الأحوال المناخية وحتى الألف الرابع ق.م. تقترب من الأحوال في جنوب منطقة ما بين النهرين أكثر مما هو الحال الآن. فلم تكن بلاد فارسفي ذلك الوقت قد تحولت إلى منطقة صحراوية مالحة جافة بل كان فيها أنهار داخلية لا تصب في البحر وهي تؤلف مستنقعات ليست بعيدة الشبه عن مستنقعات جنوب العراق ولا تزال.

إن أقدم مستوطنة واقعة جنوب بابل في موقع دعاه السومريون بأسم اريدو Eridu بعد حوالي ألف عام بعد (أنما) تتوافق زمنياً مع فترة حلف وسمارة إلى الشمال. ولقد كشف العاملون بالحفريات في أريدو تسع عشرة طبقة أرضية حدث بها استيطان قديم. وقد وجدوا أن أقدم طبقة وهي التاسعة عشرة (كانت مبنية على أرض بكر. وبالنسبة للفخار وفن العمارة فقد اعتبروا الطبقات ما بين الطبقة التاسعة عشرة والخامسة عشرة بأنها تمثل وجهاً واحداً من الوجوه الثقافية التي سموها أريدو.

إن المصدر الأصلي لمستوطني أريدو الأوائل قد بقي مفتوحاً للمناقشة فإذا كانوا كما يقول البعض حقيقة من السومرين الصميمين، فإن التقاليد السومرية تدل على أنهم قد أتوا من المنطقة الجنوبية الشرقية فليس هناك (في الوقت الحاضر على

الأقل) أية شهادة أثرية تدعم وجهة النظر هذه مع أن هناك من يدعي أن هناك بقايا حضارة قديمة قد توضحت من الصور المأخوذة من الجو أسفل النهاية الشمالية للخليج العربي وقد تكون هذه هي الحلقة المفقودة. وهناك بعض الثقات -كما ذكرنا سابقاً- من الذين يربطون شعب أريدو بمرتفعات عيلام بينما يعتبرها البعض الآخر على أساس المصاهرات والصفات الروحية التي يظهرها الفخار في حلف وسمارة يعتبرونها هجرات جنوبية لثقافة فلاحي حلف وسمارة.

ولقد اعتبر الأستاذ غوردون تشايلد Gordon Childe أن ثقافة أريدو هي أقدم شكل من أشكال حضارة عُبيد التالية. ولقد حدثت أبحاث مُفصلة تفيد أن أساليب صنع الفخار، بالإضافة إلى العادات والتقاليد الدينية، تُظهر ذلك الاستمرار ابتداءً من أريدو حتى عُبيد، بحيث لم يعد هناك من ضرورة لإبراز أية فترة من الانقطاع بين الثقافتين.

ومن البداية نقول إن مستوطني أريدو قد أسسوا المجتمع دون شك، ولكن الأحوال المناخية لابد وأنها قد أجبرت هؤلاء القادمين الجدد أن يشتغلوا في عمليات تصريف المياه وصنع الأقنية وأعمال الري. وكان لهذه الأعمال نتائج باهرة وبالغة الأهمية نظراً لأنها جعلت من الضروري تعاون المجتمع والناس بشكل وحدات أكبر من وحدات القرية النموذجية في العصر الحجري الحديث. وهكذا فقد مهدوا الطريق لظهور تلك الدول - المدينة في الألف الثالث ق.م.

ولقد بنى مستوطنو أريدو القدماء بأنفسهم مزاراً صغيراً مصنوعاً من الطوب غير المشوي وهكذا اكتسبت تلك البقعة صفة من صفات القداسة فبنوا حولها اثني عشر معبداً في فترة ما قبل التاريخ وذلك على نفس الموقع. وفي الفترة التاريخية بنيت معابد أخرى على نفس الموقع.

وقد ظهرت ثقافة أخرى في عهد ما قبل التاريخ (أو كما يفضل البعض تجمعات ثقافية) في جنوب العراق. ولقد فُسرت هذه الكلمة بأشكال مختلفة منها أسم ثقافة حاجي محمد وجد فيه الفخار المتميز لهذه الثقافة. وقد تم تمييز هذه

الثقافة في عدد من المواقع الجنوبية ومن المحتمل أن تكون هذه الثقافة هي المرحلة المبكرة لظهور ثقافة عُبيد التي تلتها.

تؤلف ثقافة عُبيد وجهاً جديداً وهاماً بالنسبة لتاريخ منطقة ما بين النهرين الأصلي مع أن هذه الثقافة قد توسعت وبشكل مرموق ووصلت إلى الشمال حتى أعالي نهر دجلة والخابور حيث حلت محل ثقافة حلف ويظهر أنها وصلت إلى أوجها وتطورها في منطقة جنوب بابل.

وكانت هذه الثقافة عبارة عن اقتصاد فلاحي عالي الفعالية مؤسس على أساليب الري وقد استعملت المواد الخام الأكثر شيوعاً –أعني الصلصال- بانتظام لصنع بعض الأشياء مثل شفرات المناجل والمسامير والطوب. ولكن بقي الحجر مستعملاً في صنع الأدوات وبعض الأواني في قضايا مختصة بالدين حيث كانت هذه الأواني تستخدم في الطقوس الدينية. ولكن هناك سؤال مطروح وهو هل استعملت المعادن يا ترى؟ ولقد ظهرت أجوبة ووجهات نظر متناقضة ولكن ورغم وجود بعض الآراء التي تذكر أن الفؤوس المصنوعة من الصلصال المشوي إنما كانت نماذج لأدوات مصنوعة من النحاس والتي اختفت كلها بسبب التربة الرطبة. ولكن وجد الكثير من هذه الأدوات الصلصالية بأعداد كبيرة بحيث أصبح من المؤكد أن تلك الأدوات لم تكن عبارة عن نماذج بل كانت أدوات حقيقية. وهنا يمكننا القول أن شعب ثقافة عُبيد لم يتعرف على المعادن في مكان منشأه (الذي يعتقد أنه إيران) أو أنهم لم يستطيعوا تنظيم التجارة الضرورية للحصول على المعادن في أماكن المنشأ بعد أن هاجروا إلى وطنهم الجديد. ومع ذلك فإن الأدوات الصلصالية المشوية ربما ظهرت بشكل كافٍ لتنفيذ بعض الأغراض اللازمة لشعب عبيد وذلك لأن صلصال بابل البديع يصعب كسره حتى بالمطرقة.

يشار إلى دوام ثقافة عبيد بوجود ستة أو سبعة معابد متتالية في تلك الفترة في بلدة إيريدو ولكن إذا أردنا تحويل ذلك إلى فترة زمنية محددة لابد وأن نصطدم بعدة افتراضات. فالأبنية المصنوعة من الطين لابد بأنها تتشقق بسرعة وتنهار هذا وإن افتراض الأستاذ غوردون تشايلد بأن العُمر الوسطي لكل معبد هو قرن من الزمان

فلا شك أن هذا الافتراض مبالغ فيه. وذلك أنه حتى وبالنسبة للمعابد المشيدة في الألف الأول ق.م فإننا نجد أن بعض المعابد كانت تنهار خلال أربعين عاماً. وهكذا فإن إعطاء رقم ستمائة عام التي خصصها الأستاذ غوردون للزمن الذي استمرت فيه ثقافة عبيد من الضروري إنقاصه إلى النصف.

وفي بلدة إيريدو وجد المعبد الذي لا يزال متواجداً على الموقع الذي اختاره أوائل المستوطنين في ايريدو لم يكن المعبد سوى بناية مدعومة مبنية فوق منصة. وحول صحن المعبد المستطيل هناك بعض الغرف وهي متناسقة مع المعابد السومرية. وإذا أردنا الحكم عن طريق وجود بقايا عظام الأسماك في حرم المعبد في إيريدو حيث كانت التقدمات من الأسماك تقدم إلى الإله. هذا وإن تقديم الأسماك إلى الإله ما هو إلا دلالة على أهمية صيد السمك في الاقتصاد إما في ذلك الوقت أو في فترة أقدم. هذا وإن تقديم الأسماك يشير أيضاً إلى أن الإله إيريدو كان إلهاً مائياً في فترة عُبيد شأنه في الأزمنة التاريخية. وهذه إشارة إلى أن بعض مظاهر الثقافة السومرية المتأخرة كانت موجودة من قبل. والحقيقة أن تطورات المعابد بصورة عامة في زمن ثقافة عبيد تدل على أن أشكال المجتمع المتميزة في أواخر عهد سومر تؤكد أن الإله هو ملك الأرض وإن معبده هو بؤرة المجتمع. هذه المفاهيم قد بدأت بالظهور ووجدت فِعلاً.

لقد كان انتشار ثقافة (عُبيد) شمالاً سريعاً كما ابتدأ سريعاً وشاملاً. نظراً لأن فنون (حلف) قد انحسرت وبمرور الأيام اضمحلت وهي في أوج نشاطها. فقد اختفت بعض الصور الدينية من الفنون فجأة دون وجود فترة تدل على بدء الانحطاط. ومع ذلك فلم يُحذف أو يُلغَ وجود شعب حلف تماماً، نظراً لأنه وفي موقع تيب غاورا Tepe Gawra(قرب الموصل) وهو أحد الأماكن التي شوهد فيها بعض مظاهر التوسع الشمالي لثقافة عبيد، في هذا الموقع وجدت بعض أبنية الثولوي: Tholoi المتميزة لشعب حلف. وأيضاً ورغم غياب فنون عبيد بصورة عامة وهي المحصورة بصور البشر والحيوانات، إلا أنه كان هناك صور حيوانات وصور بشرية في الزخارف الفخارية في تيب غاورا وذلك في نهاية عصر عبيد.

وما عدا ما ذكر أعلاه فإن جميع آثار التماثيل البشرية والحيوانات في الزخارف الفخارية في فترة عبيد كانت مفقودة زمنياً ومكانياً.

هذا وهناك اقتراح بوجود نوع من التحريم بالنسبة لتمثيل التشابه البشري أو الحيواني. هذا وكان هناك اختلاف ما بين شعوب (حلف) و(عُبيد) بالنسبة لاستعمال التعاويذ والحجب والتماثيل الصغيرة التي تمثل الإله الأم والتي كانت شائعة في ثقافة (حلف) ومن مواقع (سمارة) ولكنها قليلة بل معدومة كلياً في مستويات (عُبيد) في (إيريدو) مع أنها قد شوهدت في بعض مواقع (عُبيد).

إن مثل هذه الحقائق التي تدل على وجود بعض الفروق الصارخة في المفاهيم الدينية وهي مضادة بشكل قوي لأي اقتراح يؤكد أن شعب عبيد الأصلي كانوا عبارة عن مهاجرين قادمين من ثقافة (حلف) و(سمارة).

ومع أن ثقافة (عُبيد) كانت تمثل أول حضارة موحدة شاملة لجميع منطقة ما بين النهرين والأراضي المحيطة بها مع وجود علاقات من الممكن تقصيها ابتداء من وادي الهندوس حتى مصر مع مجتمعات أخرى ذات نماذج متشابهة، إلا أن هذه الحضارة بقيت عبارة عن مجتمع فلاحي يعيش داخل قرى مبنية من الطوب غير المشوي. أما الحجارة فكانت نادرة جداً ولم تستعمل إلا لبناء بوابات الأبنية والبلاط والمواقد. هذا وقد وجدت مصارف للمياه مغطاة بالحجارة أيضاً.

لقد دلت القبور على المفاهيم الدينية لشعب (عُبيد) إذ كانت تجهيزات هذه القبور تعكس بعض المعتقدات بالنسبة للحياة الآخرة وكذلك التماثيل الصغيرة التي وجدت في القبور وكانت تلك التماثيل (ومعظمها تمثل الإناث) على نوعين فبعضها ذات رؤوس بشرية والأخرى كانت مشوشة ربما تعني الاعتقاد بوجود الشياطين.

كانت حضارة (عُبيد) هي المرحلة الأولى للتطورات في فترة ما قبل التاريخ التي يمكن اعتبارها كثقافة موحدة في جميع منطقة ما بين النهرين، إذ إن وجود الحضارات التي تبعتها تظهر بعض الفروق الظاهرة من التطورات التي حدثت في الشمال والجنوب. ويعتبر بعض الباحثين أن ثقافة شعب (عُبيد) هي أقدم شاهد على

وجود السومريين في الألف التالي. ولكن هناك صعوبة تعترض قبول هذا الرأي، وهي أن السومريين وكما نعرفهم لم يحتلوا أبداً أية منطقة تشمل ثقافة (عُبيد).

وفي جنوب العراق وهي منطقة سومر المتأخرة حدثت بعض التغيرات الثورية وهي نشوء المدن، وعند وصف هذه المرحلة علينا أن نمر مرور الكرام بالتطورات في الشمال. فقد كان الفضل في تجميع المجتمعات في الجنوب وتحويلها إلى مدن إنما يعود إلى وجود الأنهار، إذ إن السيطرة الفعلية والجمع ما بين المدن بشكل فعال إنما تحتاج إلى التعاون على مقياس واسع فلا تستطيع القرى المنفصلة عن بعضها تأمين ذلك.

ولقد حدثت تطورات مشابهة في حضارة منطقتي نهرين آخرين وهما نهر النيل ونهر الهندوس. ولكن هناك دلائل أثرية حديثة تظهر أن ثقافة ما بين النهرين قد سَبقت هاتين الثقافتين وأن بعض المظاهر التابعة للتقدم الحالي انتشرت من منطقة ما بين النهرين شرقاً وغرباً. والوجه الذي نحن بصدده المعروف باسم أوروك Uruk قد عُرف في (ورقة) Warka (التي كان اسمها القديم أوروك وهي إيرش Erech المذكورة في التوراة) وتلو Tello وهي لاغاش القديمة، والتي أصبحت يمثلها إيريدو، وأور، وتل أوكير Tell Uker (على بعد حوالي أربعين ميلا شمال بغداد) هذا وتعتبر (ورقة) Warka وهي الموقع الذي بفضله عرفت تلك الأوجه من المواقع الهامة بالنسبة للحفريات وذلك لسببين مختلفين: الأول بظهورها كمركز من مراكز الحضارة السومرية القديمة، وثانياً لقد كانت الحفريات هناك هي الحفريات المثالية في العراق (حين كانت أبحاث علم الآثار المعترف بها عبارة عن محاولة لاصطياد الكنوز وإضافتها إلى المتاحف ذات المظاهر الأثرية العلمية). ويعود الفضل في إتباع الأسلوب العلمي المثالي لعلم الآثار لبعض العلماء الألمان الذين عملوا واحداً بعد الآخر ونخص منهم بالذكر الدكتور هـ. لنتزن H. Lenzen.

وبالنسبة لحفريات علم الآثار تذكر طبقات الأرض بشكل عددي من الأعلى إلى الأسفل بحيث تمثل الأعداد السفلى الفترات المتأخرة والأعداد العليا تمثل الأحدث والأبكر. أما في (ورقة) Warka فإن أبكر الفترات وهي الطبقة ١٨ حتى

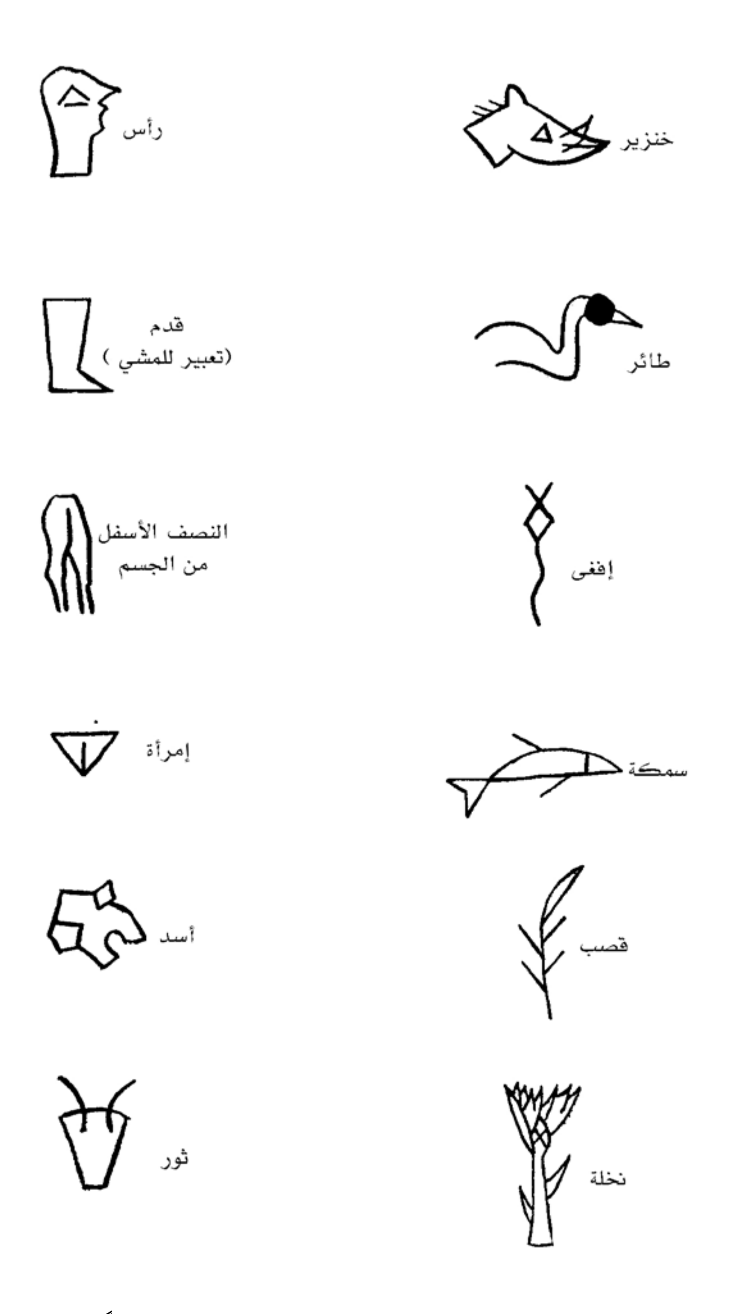
١٥ وهي تمثل فترة استيطان عُبيد (وبشكل أكثر دقة عُبيد واحد) وفي نهاية هذه الفترة عُرف استعمال الطوب المشوي للبناء ولكن ليس بصورة شاملة. أما الفخار في الطبقة ١٤ حتى ٤ (بعض العلماء يرسمون الخط وصولاً للرقم ٥ أو ٦) وهو يشكل مجموعة متناسقة بحيث تعتبر هذه الطبقة بشكلها الكلي ممثلة لفترة متميزة للتاريخ الأصيل لمنطقة ما بين النهرين وتدعى أوروك. ولكن لا يظهر أن فترة أوروك هذه تمثل وجود طبقة جديدة كلياً من السكان الذين أضيفوا إلى سكان عبيد نظراً لأن معابد أوروك المبكرة كانت مستمرة في اتباع التقاليد المعمارية السابقة لفترة عبيد. وفوق ذلك فإن الشواهد الآتية من (ورقة) نفسها تظهر أنه قد وجدت هناك طفرة. فقد ظهر الفخار النموذجي في فترة عبيد في الطبقات ١٢ - ٧ مع أنه لم يعد يحتل المركز الرئيسي، إذ إن هذا الفخار العبيدي المتأخر يشار إليه باسم عبيد رقم ٢ وكما تظهر شواهد إيريدو فإن اقدم المعابد من فترة أوروك كانت حسب تقاليد البناء المعروفة في عبيد السابقة وكانت تستعمل الطوب المجفف بالشمس. وبالتدريج تطورت معابد أوروك بالنسبة للحجم والعظمة والفخامة. ففي نهاية فترة أوروك أصبحت هذه المعابد من المظاهر الملفتة للنظر في منطقة ما بين النهرين فقد كانت ظاهرة للعيان من مسافات بعيدة عبر سهول سومر وهي تظهر كفخر عظمة وثروة إله المدينة. ولقد أضيفت الألوان إلى تلك المؤثرات المدهشة فقد زينت جدران وأعمدة المعابد في الطبقة السادسة المسامير من الصلصال وكانت رؤوسها مدهونة باللون الأحمر والأبيض أو الأسود في نماذج من الفسيفساء، ويظهر في أحد المعابد الواقع في الطبقة رقم (٥) بعض البدع الهامة فقد بُني هذا المعبد فوق أساسات من قطع من الحجر الكلسي على أرض من الصلصال المدكوك. وقد فسرت هذه الظاهرة بقدوم بعض الشعوب الجبلية المتمكنة من تقنيات الصناعات الحجرية. وهناك شاهد آخر يدل على تسرب أجنبي وذلك لأن فترة أوروك قد جلبت عدداً من البدع بما فيها أشكال جديدة من الأواني الفخارية وكذلك دولاب الخزاف والقوس والنشاب، ومع أن استعمال المعادن كان معروفاً لدى شعب وثقافة حلف، إلا أن المعادن لم تستعمل بصورة عامة حتى فترة أوروك فقد وجدت أدوات من

النحاس من الطبقة رقم (١١) فصاعداً. فإذا كانت هذه التغيرات قد حدثت بسبب التسربات الأجنبية فإن هذا يشير إلى عنصرين جديدين على الأقل. فالعنصر الرئيسي هو إعطاء اللون لفترة أوروك ككل. والعنصر الثاني وصول شعب جبلي ظهرت آثاره في بناء المعبد من الحجر الكلسي في الطبقة رقم (٥). وكذلك اختراع الكتابة في الطبقة ٤ أ ، ٤ ب ولكن اختلفت وجهات النظر بالنسبة لهذه القضية. فقد اقترح على أساس العلاقة ما بين فخار أوروك الجديد وبعض الأنواع التي وجدت في فلسطين وسورية. وإن العنصر العرقي الجديد كان عنصراً سامياً ولكن هذا الاستنتاج مع أنه لم يثبت بطلانه إنما يتجاوز الشاهد الحاضر، فالعنصر الجبلي ربما كان ذلك الشعب الذي عُرف فيما بعد باسم السومريين ولكن لم تثبت هذه الحقيقة نهائياً أيضاً.

إن الفترة التي تمثلها طبقة أوروك رقم (٤) ذات أقسام ثانوية ابتدعها بعض الجيولوجيين وهي ٤أ و ٤ ب و ٤ ج حسب الأعمار وهذه الفترة لها أهمية خاصة نظراً لأنه من خلالها نقابل أعظم ابتكار تأثيراً في البشرية وهو الكتابة. إذ إن اختراع الكتابة إنما يمثل تقدماً حقيقياً حضارياً بينما لا تمثل التغيرات في فنون الفخار شيئاً من ذلك ولهذا السبب فإن اصطلاح الأدب الأصيل Prote Literat قد أصبح الآن مستخدماً للإشارة إلى الفترة بكاملها التي حدث فيها اختراع الكتابة، ويستعمل هذا الاصطلاح في هذا الكتاب عند عدم وجود أي غموض، ولكن عظمة هذا الابتكار تظهر عندما نجد علماء مختلفين يطلقون على هذا الابتكار معاني مختلفة وإن جميع هؤلاء العلماء يقرنون هذا الابتكار مع طبقة أوروك رقم ٣، ولكن هناك أولئك الذين يقولون إن كتابة أوروك لها مراجع غير معروفة لدينا. ولكن هذا الكلام ليس شاملاً وليس مُقنعاً ولهذا فلن نعالجه بعد الآن. ولقد كان أصل الكتابة بسيطاً ومنخفضاً. فلم تظهر الكتابة لخدمة الدين (عدا أحوال غير مباشرة) ولم تكن الكتابة أداة لنقل التاريخ أو الأدب أو الأفكار النبيلة بل كانت لخدمة علاقة عاديَّة وهي حفظ حسابات المعبد. فقد درست صور المواد ذات العلاقة مع علامات تمثل الارقام ورسمت بشكل عشوائي بواسطة قصبة على قطعة من

الصلصال اللين وهو المادة المتوفرة في منطقة ما بين النهرين. ولقد وجدت عدة أمثلة عن هذه الكتابة في الطبقة رقم (٤) في أوروك. وكانت ماهية المواد المستعملة ظاهرة وهي مؤسسة على صور الأشياء مبدئياً أي مرحلة الصور وفوق ذلك فقد كان عدد لا بأس به من تلك الصور يُمثل بعض الأشياء مثلاً الوحوش البرية التي لم يكن لها من لزوم عند جرد موضوعات المعبد وهذا يدل على أن بعض الأثارات كانت تُمثل معاني أخرى غير المواد المصورة ويظهر في الصفحة المقابلة أمثلة عن هذه الأشياء.

ولقد بقي الصلصال دوماً في ثقافة ما بين النهرين هو أكثر المواد شيوعاً في الكتابة بينما كانت القصبة هي المرافقة للكاتب. ونظراً لأن الصلصال يصبح صلباً وغير قابل للتلف عندما يكون جافاً أو مشوياً بالفرن، لذلك فإن أرض العراق مملوءة بأكوام من الصلصال المكتوب خصوصاً في الفترة ما قبل عام ٣٠٠٠ق.م، واستمرت هذه الأساليب في الكتابة حتى حوالي زمن المسيح. هذا وعن شكل وحجم تلك الألواح الصلصالية المكتوبة التي تدعى بالألواح المسمارية مع أن أقدم أنواع الكتابة قد اتخذ هذا الاسم، مع أنه، وبالنسبة لأقدم أنواع الكتابة، فإن الاسم (مسماري) ليس مناسباً تماماً.



الكتابات الصورية البدائية (الأكثر قدماً)

بينما كان شكل بعض الألواح الصلصالية القديمة بيضوياً أو مستديراً كأنه كعكة مسطحة، إلا أن الألواح المتأخرة أصبحت مستطيلة تقريباً وكانت الأبعاد تختلف من حجم علبة الكبريت حتى حجم ورقة النشاف مع أنه كان من العادة أن يكون اللوح صغيراً جداً. بحيث يمكن حمله باليد الواحدة.

ونظراً لأن الأشكال الأولى للكتابة كانت تصويرية أي بشكل صور، ونظراً لأنه ليس من الممكن تحليل اللغة المكتوبة، ما لم تمثل الكتابة عناصر لغوية أو قواعدية بالإضافة إلى الصور. فمن المستحيل أن نعلم علم اليقين ما هو نوع اللغة التي كان يتكلم بها مخترعو كتابة أوروك ففي الوقت الذي تطورت فيه الكتابة إلى المرحلة التي أصبحت عناصر القواعد اللغوية فيها معروفة فإنه لا شك أن اللغة المكتوبة كانت هي اللغة السومرية.

لقد أظهر فن العمارة في فترة أوروك المتأخرة بعض التطورات الممتعة ولكنها سببت حصول بعض المشاكل ويذكر في هذا المقام المعبد الحجري في الطبقة رقم (٥) في أوروك. هذا وإن فترة الطبقة السادسة والرابعة في أوروك تظهر تطوراً مرموقاً مثلاً بداية بناء الزقورات والأبراج المدرجة التي كانت تعلو فوق مدن منطقة ما بين النهرين والتي ذكرت في التوراة باسم برج بابل. هذا وإن أقدم مثال من أوروك يتألف من مصطبة مرتفعة تبلغ مساحتها حوالي الفدان وهي مبنية من البيزي Pise والطوب غير المشوي. وكانت زواياها موجهة نحو الشمال الشرقي والجنوب الغربي وارتفاعها يبلغ حوالي أربعين قدماً فوق السهل. وكان الوصول إلى القمة يتم عبر أدراج أو عن طريق التسلق. وعلى قمة المصطبة هناك معبد مطلي بالجص الأبيض وهو يدعى بالمعبد الأبيض (انظر اللوحة رقم ١) وكان التصميم والتخطيط الرئيسي للمعبد الأبيض عبارة عن حجرة مستطيلة تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي مع وجود نوافذ تفتح على الجانبين الطويلين. وتتكسر الرتابة الموجودة في الجدران الخارجية بوجود سلسلة من الفجوات العامودية وهذا يؤلف شكلاً من أشكال الزينة أصبحت تقليدية في معابد منطقة ما بين النهرين. وهناك معبد مشابه وهو متوضع فوق مصطبة عالية (وفي هذه الحالة ذات مرحلتين) وهو يعود إلى نفس

الفترة ويتواجد في تل أوقير Tell Uqair بينما نجد أن الزقورة Ziggurat في (أور) (انظر اللوحة ٣ أ) يظهر أن أصلها يعود إلى فترة (أوروك). ولقد بُذلت مساعدات قيمة عند تخمين المساحة الفعلية لمثل هذه الأبنية وذلك ليس فقط عن طريق بقايا الأساسات بل أيضاً عن طريق قطع الحجارة المتناثرة لبعض نماذج الأبنية التي وجدت في (ورقة) Warka.

وهناك عدد من المعابد الأخرى في (ورقة) تعود إلى فترات أوروك الرابعة الثالثة والثانية (جمدت نصر) ولكن لا يُعرف إلا القليل عن الأشكال الحقيقية للعبادة في ذلك الزمن. وكان أحد المعابد المرموقة عبارة عن بناء ذي مخطط داخلي بشكل الصليب يحتوي على ثلاثة أجزاء محجوبة منفصلة عند رأس الصليب والتي ربما دلت على عبارة نوع من الثالوث الإلهي ولكن ليس هناك أي مذبح أو مائدة لتقديم الضحايا والذبائح أو أية منصة عالية ولقد أشار الدكتور هـ. لنزن H. Lenzen أنه خلال الفترة المتأخرة من تاريخ (أوروك) كانت المعابد تبنى بشكل زوجين مما يدل على عبادة إلهين مُقدسين. وخلال جميع الفترة التاريخية كان الإله الأعظم في (أوروك) هو (انين) Innin. وتعني هذه الكلمة باللغة السومرية سيدة السماء. وحالة استعمال هذا الاسم في فترة (أوروك) ولكن بصيغة أخرى فإن هذا الأمر مثير للجدل. ففي الفترة التاريخية كان اسم هذه الإلهة مقترناً باسم والدها آن Ann ولكن من الشائع أن أسمها كان مقترناً مع اسم دوموزي (تموز) وقد اشتهر هذا الإله بكونه إله النباتات والخضرة منذ الأزمنة القديمة ومع أن الاسم الحقيقي دوموزي لم يظهر حتى الألف الثالث ق.م إلا أنه كان هناك إله آخر اعتبر رأس الإلهة في اقدم الطقوس. ولهذا أصبحت هناك إمكانية أن يتألف الزوج المقدس الذي عُبد في (ورقة) في فترة (أوروك) المتأخرة من إلهي الخصب اللذين أصبحا فيما بعد يعرفان باسم دوموزي وانين Innin.

ومع ذلك ومع أنه من الممكن معرفة بعض الأمور حول الدين المعاصر في فترة (أوروك) وذلك من ملاحظة الأساليب المعمارية المستعملة في المعابد فضلاً عن العادات والتقاليد الدينية التي لم تعد موجودة ابتداءً من نهاية هذه الفترة بكونها

الإشارة الوحيدة المرموقة. ولكننا من الممكن أن نتعلم شيئاً آخر أيضاً من اختراع آخر يُعزى لشعب (أوروك) وهو اختراع الأختام الإسطوانية وهذا الاختراع الذي انتشر بشكل واسع في حضارة منطقة ما بين النهرين المتأخرة قد تقدم زمنياً وسبق اختراع الكتابة إذ إن أصله يعود إلى فترة أوروك الخامسة. أما الختم العادي المعروف منذ فترة (حلف)، فقد استبدل بالختم الإسطواني وهو الاختراع الجديد. ولم يكن هذا الختم الإسطواني الذي كان بشكل اسطوانة صغيرة مصنوعة من بعض الحجارة شبه الكريمة، أكبر من إبهام الإنسان وقد نُقش عليه تصميم أو تخطيط يُظهر ماهيته عندما يُدَحرج الختم فوق الصلصال اللين. وللتعرف على أمثلة من الفترات المتأخرة أنظر اللوحة رقم ٢٧ أ و ٥٠ أ و ٥٠ب. وكان المقصد الأصلي لهذه اللوحات هو حماية الممتلكات فالأشياء الثمينة كانت تُحفظ في أوانٍ مغطاة بالقماش أو الجلد المثبت بخيط وكانت تنتشر طبقة من الصلصال فوق الخيط. وبعدها يُدحرج الختم الأسطواني فوقها وبهذه العمليات يُظن أن المقدرة السحرية للطقوس الدينية أو المشاهد الخرافية يتم إنجازها. ومن الواضح أنه لا يجوز التلاعب بالإناء دون معرفة مالكه. ولكن ربما كان هذا اعتباراً ثانوياً. هذا وقد حدث اختراع الختم الأسطواني في (ورقة) نفسها نظراً لأنه لم يكتشف وجود مثل هذا الختم في أي موقع آخر عدا موقع ثقافة (أوروك) وذلك قبل فترة (جمدت نصر) Jemdet Nasr ومع أن المشاهد الموجودة على الأختام الأسطوانية التي كانت تعود إلى فترة أوروك الخامسة والرابعة، إنما تقدم بعض الشواهد حول الديانة المعاصرة، إلا أنه ليس من السهل تقرير ماهية هذه الشواهد فقد وجدت صور حيوانات كانت تمثل رموزاً دينية مثلاً هناك أحد الأختام وجدت عليه صور تيس ومعه ثعابين متشابكة ونسر ذو أجنحة مطوية وكل هذه الصور موجودة معاً وهذا لا يمثل مشهداً حقيقياً بالطبع وربما كان المشهد الشائع المألوف هو بعض مناظر خضراء مع وجود حيوانين مرسومين بشكل متقابل أحدهما على كل جانب، وهذا يمثل النشاط الإخصابي للإله دوموزي الذي تُعزى إليه الرموز الأخرى العائدة إلى تلك الفترة. وهناك أيضاً رمز للإله الأم. وفي الأختام الأخرى العائدة إلى تلك الفترة هناك تمثيل لبعض المشاهد

الطقوسية التي تشمل تقاديم الفواكه والخضروات واللحم للإله أو تمثل بعض الأنشطة التي لها علاقة بقطعان المواشي المقدسة بالنسبة للإله.

إن فترة جمدت نصر Jemdet Nasr التي تعود إلى الطبقة رقم ٣ ورقم ٢ في (ورقة) (الوركاء) لا تزال تتبع فترة أوروك التي وجدت فيها الكتابة لأول مرة. ويعتبر بعض العلماء أن الفترة المتأخرة ما هي إلا توسع مباشر للفترة الأقدم فقد كان ذلك العصر عصر التوسع. ففي داخل القسم الجنوبي من منطقة ما بين النهرين (أي منطقة بابل) حدث ذلك النمو المتسارع من القرية إلى المدينة في أقصى الجنوب (سومر) ابتداءً من فترة عبيد فصاعداً، وقد عرفت صحة هذا القول من (إيريدو) و(آور) و(إيديش) وفي أثناء (أوروك) لوحظ هذا التطور في سومر. ومع ذلك وحتى زمن طبقة أوروك الرابعة بقيت الحدود الشمالية لهذا التطور تبدو وكأنها هي أوروك نفسها. أما في الأجزاء الوسطى والشمالية من مواقع المجتمعات البابلية (مع بعض الاستثناءات المحدودة) كانت هذه الأجزاء مستمرة في المعيشة في قرى صغيرة. ولكن تغيرت الأمور في فترة جمدت نصر Jemdet Nasr وربما كان ذلك نتيجة لحدوث بعض التحسينات في تقنيات الري وكذلك بداية تطور المدن في منطقة بابل الوسطى والشمالية أيضاً. وكانت (نيبور) و(كيش) و(ايشنونا) Eshnunna, Kish, Nippur على نهر ديالا أمثلة على ذلك.

ولقد وجد هناك معبد من نوع معابد جمدت نصر شمالاً في (تل براك) Tell Brack على الخابور، مع أنه نظراً لأن المواقع المعاصرة الأخرى الواقعة شمالاً متطرقة من منطقة ما بين النهرين لم يظهر فيها أي أثر لفخار جمدت نصر، إلا أن البقايا في (تل براك) ربما قد أتت من المستعمرة التي أتت من الجنوب نتيجة للتوسع الثقافي على وجه العموم.

ولقد وجد شاهد آخر يدل على النفوذ الثقافي لمنطقة ما بين النهرين في هذه المرة في مصر فقد وجدت الأختام الأسطوانية التي هي اختراع من منطقة ما بين النهرين في مصر بالإضافة إلى طرق بناء الطوب التي كانت غريبة بالنسبة إلى مصر ولكنها أساسية في ثقافة جمدت نصر. وفي مصر أيضاً وجدت رسوم متكررة من

منطقة ما بين النهرين وبعض الأشياء المتمثلة بالفنون ومنها مثال واضح وهو صورة قارب من نوع قوارب ما بين النهرين وُجد محفوراً على قبضة سكين (انظر لوحة ٦٤ وقارن الزوارق في الصورة رقم ٢ب و ٣٣ب) وهناك بعض الأواني المصرية الغريبة التي تظهر نفوذ منطقة ما بين النهرين بينما نجد مبدأ الكتابة (وليس تقنية الكتابة) قد أخذ بالتأكيد من منطقة ما بين النهرين من قِبَل المصريين. هذا وإن النقطة الظاهرة التي التقى فيها المصريون مع منطقة ما بين النهرين هي سوريا ولكن هناك معارضة لهذا الرأي من قبل علماء الآثار وهي أن سوريا لم تظهر في ذلك الوقت أي أثر للنفوذ المصري أو نفوذ منطقة ما بين النهرين. ويبدو أنه من المحتمل أن تقابل التجار المصريون مع تجار منطقة ما بين النهرين إما في جنوب بلاد العرب أو في الصومال في ذلك العهد وربما كان ذلك طلباً للبخور اللازم لأداء الطقوس الدينية.

لقد أثر التوسع الثقافي في فترة (جمدت نصر) على المناطق إلى الشرق والشمال من منطقة ما بين النهرين. وهناك وجد في هذا الزمن بعض الألواح المنقوشة في (سوزه) Susa و(سيالك) Sialk في إيران وهي تظهر تأثير منطقة ما بين النهرين. بينما وجدت الأختام الإسطوانية في مناطق بعيدة مثل طروادة وفي موقع تيب هزار Tepe Hissar قرب الزاوية الجنوبية الشرقية لبحر الخزر أما في جنوب منطقة ما بين النهرين نفسها فإن الأختام الإسطوانية التي أصبحت وافرة العدد هناك كانت تقدم معلومات تصويرية وافرة حول الطقوس تفوق المعلومات المتوفرة حول الفترة السابقة، مع أن هناك اختلافاً حول تفسير تلك المعلومات. والنقطة الرئيسية المتداولة هي المدى الذي ينبغي أن يعتبر به الإله دوموزي Dumuzi مصدراً للخصب والنماء أما الإلهة انين Innin وهي إلهة الخصب المؤنثة وبصورة خاصة إلهة مدينة أوروك، فقد أصبحت الآن ممثلة على الأختام الأسطوانية دون أن تخلع الصفات البشرية على الإلهة كما كان الحال في تماثيل الإلهة الأم في الأزمنة القديمة بل عن طريق وجود رموز معروفة من الفترة التاريخية بأنها مرافقة وملازمة لها.

وبالإضافة إلى العدد الوافر من الأختام الإسطوانية من فترة (جمدت نصر) كان هناك عدد من الأشياء التي تحمل مشاهد نافرة تقدم لنا بعض الاستبصارات حول

الشؤون الدينية في تلك الأزمنة السحيقة في القدم وهناك شيء ذو أهمية بالغة في هذا الخصوص. وهو عبارة عن مزهرية من المرمر علوُّها أكثر من ثلاثة أقدام وقد وجدت في (ورقة) وعليها مناظر محفورة بشكل نافر في أربعة لوائح تتناقص في حجمها من الأعلى إلى الأسفل (انظر اللوحة رقم ٨ أ) ويُصور الشريطان السفليان سنابل الشعير وشجر النخيل والأغنام وتيوس الماعز أي النباتات والحيوانات التي كان يعتمد عليها الإنسان المتحضر والتي من خلالها أظهرت إلهة الخصب كرمها ومعروفها. وأما الشريط التالي فيظهر فيه الرجال العراة بشكل مناسب لوقفة الإنسان أمام الإله. وكان هؤلاء يحملون معهم بعض التقاديم والأضحيات للإله.

وأما أعلى وأعرض شريط من الصور النافرة فهو يُظهر الإلهة والكاهنة التي تمثل الإلهة وهي واقفة لابسة ثوباً وعلى رأسها لباس رأس غريب وهي واقفة أمام تلك الرموز التي عرفت في الأزمنة المتأخرة بأنها تمثل إلهة الخصب أنين Innin وترى الإلهة أو من يمثلها وهي تستلم سلة من الفواكه وخلفها هناك هدايا أخرى ولقد فسرت تلك السلسلة الكاملة بأنها تشير إلى الزواج المقدس في عيد السنة الجديدة الذي يعتمد عليه أحوال خصب البلاد. وبينما يتطرق الشك بالنسبة لتلك المشاهد إلا أنه لا مجال للشك أن جميع تلك المشاهد متصلة ولها علاقة بطقوس الإخصاب.

ويصدق هذا القول على المشهد المحفور بالشكل النافر على حوض أو جرن حجري يعود إلى فترة (جمدت نصر) (انظر اللوحة ٩ أ) وهنا يبدو البيت وكأنه كوخ طقوس مقدس بالنسبة إلى أنين Innin وذلك لأن الأشياء البارزة من كل جانب من جوانب الكوخ والشيء الموجود إلى أقصى اليمين للصور النافرة ما هي إلا رموز لإلهة الخصب ويرتبط المشهد بكامله بالطقوس التي يُقصد بها تقوية الإخصاب لقطيع المواشي.

وبالنسبة للثقافة المادية فليس لدينا المعلومات الكافية نظراً لأن معظم الحفريات التي حدثت في تلك الفترة كانت منحصرة بمنطقة المعابد فلم تظهر والحالة هذه كثير من الأدوات أو المواد المنزلية، هذا وقد زادت كميات المعادن المستعملة بحيث أصبحت تشمل الذهب والفضة والرصاص والنحاس. وقد قيل إنه قد وجدت قطعة

مـن الأدوات المـصنوعة مـن الحديـد ولكـن لم تـصل لنـا أيـة معلومـات أخـرى. وأمـا الأسلحة المستعملة فكانت تشمل القـوس والـرمح وقد وجد رأس رمـح نحاسـي يعـود إلى تلك الفترة فـي (اور) ووجدت شفرة خنجر نحاسية فـي (فـارة) Fara. ومـن بـين الأشـياء المعدنيـة الـتي وجدت، وهـي تعـود إلى تلـك الفـترة، هـي مـا توصـف بأنهمـا ملعقتان نحاسيتان لهما مقابض طويلة (ربمـا كانت للزينـة) وكان مقبض إحداهما معوجـاً ووجـدت كـذلك أداة نحاسـية ذات شـعبتين مثبتـة بمقـبض خـشبي ووجـدت كـذلك صُنارة لـصيد الـسمك ومـسامير وأزاميـل وأدوات مختلفـة غـير معروفـة الهويـة وكلها مصنوعة من النحاس وقد استعمل النحاس أيضاً لعمل بعض الأواني ومعظمهـا طاسات مسطحة.

هذا وقد استعمل القماش المنسوج فـي هذه الفترة، فقد وجدت آثـار مـن القمـاش فـي إحدى التعاويذ الحيوانية المصنوعة من النحاس.

إن هذا الوصف المختصر لفترتـي أوروك (وجمـدت نـصر) ينطبق فقط علـى تلـك التطـورات الـتي بـدأت فـي جنـوب الـبلاد فيمـا سـوف يـدعى منطقـة سـومر فيمـا بعـد وكذلك قسم من أكاد. ومـن الواضـح أن شمـال الـبلاد لم يكـن ذا دور أساسـي فـي هذه الأمور المتقدمة المرموقة والتي وصلت إلى هناك إما عـن طريق الاسـتيطان (كمـا كـان الحـال فـي (تـل بـراك) Tell Brak وهـو الموقـع الـشمالي الوحيـد الـذي يُظهـر علاقة وثيقة مع الجنوب فـي هـذه الفـترة) أو كـان وصـولها بـبطء عـن طريق الانتـشار الثقافي. ولم تظهر الكتابة خلال تلك الفترة فـي أي موقـع إلى الـشمال مـن نهـر دبـالا بينما لم يكـن نوع الفخار المعروف باسم (جمدت نصر) معروفاً ويبدو أنه مـن الغريـب أن تكـون عملية توسع (جمدت نصر) التي كان لها تأثيرهـا فـي مصر وإيـران، قلمـا لامست منطقة ما بين النهرين الشمالية. وربمـا كـان تفسير ذلك أنه كـان هنـاك ثقافـة منافسة فـي الـشمال. وذلـك لأنـه وجـد فـي ذلـك الوقـت نـوع مـن الفخـار المُتميـز الـذي كـان منتشراً فـي الـشمال ولكـن لم يكـن هـذا الفخـار موجـوداً فـي الجنـوب. وفـوق ذلك يظهر أن الأشكال الدينية في الشمال كانت تختلف عنها فـي الجنـوب. وذلـك

لأنه وفي المواقع الشمالية يشير وجود عدد من الأماكن المقدسة إلى وجود مجمع من الآلهة بعكس وجود زوج من الآلهة كما كان المعتقد في (أوروك).

وهناك حقيقة هامة خطيرة وهي أن أحد المعابد وهو المعبد الغربي من مستوى (٨ج) في (تيب غاورا) Tepe Gawra، وهو من المواقع الشمالية الرئيسية، كان مستعملاً لأغراض علمانية، فقد استعمل كمستودع، ويبدو أن هذا حادث فريد في تاريخ الديانة في منطقة ما بين النهرين وربما بدا أن موقع (تيب جاورا) قد انتقلت السيطرة عليه من مجموعة من السكان إلى مجموعة أخرى وكانت ذات ثقافة مشابهة، إلا أن كل مجموعة كان لها تقاليد دينية. وهكذا فقد خلدت أو أدانت تدنيس البناية المرتبطة بطقس من الطقوس الدينية المهزومة.

ويتبع فترة الأدب الأصيل Protoliterate فترة معروفة باسم الفترة الأسرية الأولى وهي تقسم إلى أقسام ثانوية ٣، ٢، ١ (ويعتبر الرقم (١) الأقدم ويستعمل هذا الاصطلاح ليعني الزمن الذي ازدهرت فيه الدول - المدن خلال منطقة بابل وهو يبدأ عند نهاية فترة (جمدت نصر) عندما أصبحت الكتابة مفهومة وهي تغطي فترة تُقدر ما بين ثلاثة وستة قرون وتنتهي بظهور الإمبراطورية الأولى أي إمبراطورية سرجون الآكادي، ففي الفترة الأسرية الأولى برز على السطح شعب يدعى السومريون وقد كان لهؤلاء الفضل في ظهور الدول - المدن. وبالنسبة لأصول هؤلاء هناك انقسام في الرأي بين العلماء بالنسبة للسؤال وهو إلى أي من الثقافتين السابقتين في الفترة الأولى يعود ظهورهم لأول مرة. وتمثل الفترة الأولى ازدهار ثقافات (أوروك) و(جمدت نصر).

ولما كان من الممكن رؤية بعض المظاهر الاقتصادية والدينية للحضارة السومرية المتأخرة في (جمدت نصر) إلا أن هناك علماء قلائل لديهم بعض الشكوك في أن ثقافة (جمدت نصر) كانت ثقافة سومرية سائدة. وهناك خط قوي من قوة الاستمرار يفصل ما بين ثقافة جمدت نصر وثقافة أوروك بحيث تدعى الثقافة الأخيرة بالثقافة السومرية. ففي الفترة السابقة لهذه عندما استبدلت الثقافة العبيدية بثقافة أوروك بدأت المحاولات بالتبدل. وذلك لأن فترة أوروك كما رأينا قد

حصلت على بعض التقدم على ثقافة عبيد ولكن ومع ذلك فإن هناك نوعاً من الاستمرارية في بعض المسائل مثلاً فنون عمارة المعابد وربما الطقوس نفسها. وهكذا فإن تلك الجماعة من الثقات إما أنهم يعتبرون أن فترة أوروك هي التي تخبرنا عن وصول السومريين المتطفلين المعتدين إلى بلاد كانت تتمتع بحضارة عبيد الناجحة أو أنهم قد عاملوا هؤلاء كجزء من التطور داخل ثقافة عبيد التي كانت تعتبر حينذاك أنها من خلق وإنشاء أجداد السومرين التاريخيين. وهناك نقطة تدعم النظرية الأخيرة وهي أن عدداً من المدن السومرية التي تأسست قبلاً أثناء فترة عبيد كانت تحمل أسماء غير سومرية وتعتبر لاكاش Lagash وشيربورلا Shirpurla (وهي تلو الحديثة) أمثلة على هذه الفرضية، وهناك نظريات كثيرة ولكنها غير مؤكدة بالنسبة للوطن الأصلي للسومريين وذلك لأن صعوبة وغموض لغتهم المؤلفة من عناصر مختلفة ملونة قد أدت إلى مقارنتها مع عدة دزينات من اللغات الأخرى ابتداءً من الصينية والتبْتية الدرافيديه والهنغارية وصولاً إلى اللغات البعيدة في القارة الأفريقية، ثم إلى لغات الهنود الأمريكيين وجزر المحيط الهادي. هذا ولم ننسَ لغة الباسك، بينما نجد أن أحد الباحثين اليهود الذي لم يستطيع أن يتخلص من ذلك الضعف اليهودي المتميز بالتحيز العنصري البغيض فقد وضع هذا الباحث اللغة السومرية في مستوى الفولابوك* Volapuk بالادعاء أن اللغة السومرية لم توجد أبداً كلغة طبيعية حية بل كانت من اختراعات بعض الكهنة البابليين الساميين.

ولكن الحقيقة أن تلك اللغة لا تعود إلى أصل سامي ولا إلى أصل هندو-أوروبى، فهي ملونة في بُنيتها وربما كانت مرتكزة على الأنغام. ولكن لقد تأكد الآن أنه ليس هناك من علامة أساسية بين اللغات والأصول العرقية. وليس هناك من عالم أو باحث ذي شهرة يسعى أن يحل مشكلة الأصول السومرية على أساس اللغة فحسب.

ويقدم لنا علم الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) الفيزيائي بعض الشواهد المؤسسة على بقايا الجماجم ولكن تفسير هذه الشواهد لا يزال موضع خلاف.

* فولابوك: أي لغة عا ية وصيغة مبنية على لغة أخرى.

هـذا وإن مناقـشة مكـان وأصـل الـسومرين يبـدأ دومـاً بـالقول إنـه حيثمـا كـان مكـانهم الأول، فـإن هـذا المكـان لم يكـن سـومر. ولكـن حـدثت بعـض التحـديات لهذا الرأي إلا أن ذلك التحدي لم يكن مدعوماً بأية مناقشة منطقية فلم يكـن فـي أرض سـومر بالحقيقـة أي سـكان مختلفـة الأعـراق مـع أن الفرضـية القديمـة كـان مفادها أن أرض سومر لم ترتفع من منطقة الخليج العربي حتى الألـف الخـامس ق.م. ولكن هذه الفرضية تعتبر الآن فرضية خاطئة. فالحقائق العلمية الأثرية التي لا مجال للشك فـي صحتها تـذكر أنـه لم يكـن هنـاك أية بقايـا للثقافـة البـشرية فـي جنـوب منطقـة بابـل فـي زمـن سـابق لفـترة إيريـدو وهـي تعـود إلى حـوالي ٤٥٠٠ ق.م أو تـاريخ متأخر عن هذا التاريخ قليلاً.

وبالنـسبة للوجهـة الـتي أتـى منهـا الـسومريون فقـد كـثرت النظريـات حـول هـذه النقطة فالأساطير القديمة المنقولة عن طريق اليونان تتحدث عن رجل يشبه الـسمكة يـدعى أونـيس Oannes قـد سـبح حتـى وصـل إلى الخلـيج العربـي حـاملاً معـه بعـض العطايا والهدايا الحضارية. وهذه القصة تنطبـق علـى الأفكـار الـسومرية الـتي تعرفنـا عليها مـن الوثـائق المـسمارية نظـراً لأن إلـه الحكمـة (انكـي) وهـو اسمـه الـذي كـان يحمله فـي النصوص السومرية ولكـن إيا Ea هـو إلـه إيريـدو وهـي مدينـة قديمـة علـى ضفاف إحـدى البحيرات الـضحلة فـي الخلـيج العربـي الـتي ذكـرت مـن قبـل كـأحد المواقع الـتي احتلتهـا بابـل القديمـة فـي اقـدم الأزمنـة وطبقـاً للوثـائق الـسومرية كانـت هذه المدينة أول المدن الخمس التي وجدت قبل الطوفان وإن جميع هذه القصص تـشير إلى الأسـتيطان في سـومر. وفـوق ذلـك فـإن تلمـون* Tilmun الواقعـة في البحـرين هـي ذات أهمية عظيمة كأقدم طبقة من الطبقات السومرية الدينية. ولقـد قيـل إنهـا تمثـل مركزاً من مراكـز الثقافة السومرية وهي أقدم حتى مـن إيريـدو Erido. ويـدل هـذا أيضاً أن السومرين قد دخلوا منطقة ما بين النهرين عن طريق الخليج العربي، ولكـن لـيس هنـاك أي شـاهد مـن علـم الآثـار يـدعم مثـل هـذه النظريـة مـع أن هنـاك حفريـات تجري الآن فـي البحـرين ولابد أن تقدم لنـا القـول الفصل فـي هذه القـضية.

* تلمون: اللفظ الأدق هو د ون وهو الاسم القد زيرة البحرين.

إن وجهة النظر السائدة والمؤسسة على ذلك الخضم من التقاليد والقصص المتواجدة في الأدب السومري القديم (وبصورة خاصة الملاحم) وبالصلات الثقافية الواسعة بين سومر وبلاد فارس(وبصورة خاصة عيلام) في فترة ما قبل التاريخ وهي أن السومرين قد أتوا إلى منطقة بابل الجنوبية من الجهة الشرقية أو الجهة الشمالية الشرقية. هذا وإن أهمية الزقورات في الديانة السومرية قد اتخذت كشاهد أن الوطن الأصلي للسومرين هو الجبال ولكن هذه فكرة يعوزها البرهان، نظراً لأن الزقورات كانت تمثل الجبال الكونية ولم تتبع منطقة معينة بل إلى الكون المعروف بأجمعه في العالم القديم مع وجود بعض التعديلات ابتداءً من مصر حتى بلاد الصين.

وقد حاول بعضهم إرجاع أصل السومريين إلى ثقافة وادي الهندوس المبكرة وإلى جنوب بلوخستان أو كليهما. ولكن ثقافة وادي الهندوس التي تدعى حرابا Harappa التي لم يكشف النقاب عن كتابتها بعد من الممكن أن تعود إلى أسلاف شعب الدرافيدين الهندو-آريين وهم متواجدون الآن في جنوب الهند. هذا وإن النظرية التي تقول بوجود صلات عرقية حقيقية بين السومرين وشعب حرابا لها انجذاب خاص بالنسبة لأولئك الذين يؤمنون بوجود علاقة لغوية ما بين السومرين والدرافيديين، ولكن هناك شواهد لا يتطرق لها الشك وهي بشكل مواد وفنون متميزة في إحدى الحضارات وجدت في مواقع الحضارة الأخرى على وجود علاقات تجارية في الألف الثالث ق.م ما بين السومريين وشعوب وادي الهندوس وبلوخستان. وفوق ذلك هناك بعض مشاهد طقوسية تشمل العجول الهندية ذات السنام وجدت في أور وسوزا وهذه تشير إلى وجود مقاطعات أو بلاد كان يسكنها التجار الهنود في جنوب منطقة ما بين النهرين وبلاد فارسمن الذين كانوا متمسكين بدياناتهم. ومن هذا الشاهد الذي يعود إلى الألف الثالث ق.م نشأت نظرية تقول بوجود علاقة ما بين السومريين والدارفيديين، يبدأ تاريخها من فترة أوروك وتعود إلى صلات لغوية وعرقية. وهذه بالحقيقة وجهة نظر ممتعة ولكنها تفتقر إلى البرهان.

لقد بذلت محاولة لجمع جميع القصص والشواهد من علم الآثار ووضعها في نظرية واحدة وذلك عن طريق تخيُل وجود موجتين من السومريين آتيتين من الشرق إحداهما سافرت بحراً إلى الخليج العربي والأخرى عن طريق البر عن طريق بلاد فارسومعها مجموعة أخرى من شعوب أخرى هاجرت إلى وادي الهندوس، بينما من المستحيل أن نؤكد أنه من غير الممكن حدوث تحركات عرقية على هذه الخطوط حيث ليس هناك من شاهد في الوقت الحاضر للبرهنة على وجود صلات مبكرة قديمة مع الهند وكذلك مع مصر والتي من الممكن تفسيرها بالنسبة للعلاقات التجارية والتي ليس من الضروري أن تتطلب مقداراً واسعاً من الحركات العرقية، بينما لم يكتشف أي أصل مشترك للدرافيديين والسومريين أو حتى أية علاقة وثيقة بينهما. وإن أكثر ما يستطيع المرء استنتاجه بشكل صحيح في الوقت الحاضر هو أن السومريين قد أتوا من مكان ما إلى الشرق من بابل.

إن فترة السلالات المبكرة هي الفترة التي مع أنها قليلة بل نادرة التوثيق وغالباً ما ينقصها الدقة في الترجمة. إلا أننا من الممكن اعتبار أننا قد مررنا من مرحلة ما قبل التاريخ إلى المرحلة التاريخية وهنا وفي هذه المرحلة تظهر تلك الخصائص المتميزة للدول - المدن السومرية لتصل إلى أقصى حالات التطور وأخيراً تبدأ بالانحلال والفناء. بينما تظل التقاليد ملتصقة ليس بدول – مدن معينة بل بالمرحلة التاريخية ككل بالنسبة للقيمة النسبية لمختلف أنواع الشهادات حول هذا الزمن فإن الشاهد الأكثر موثوقية هو شاهد علم الآثار ولكنه يصعب تفسيره وغالباً هو نادر في اكثر النقاط حساسية "فالتقاليد السومرية واضحة بالنسبة للأسر في سومر في الألف الثالث ق.م مع أن الذي رتب هذه الأسر كان محكوماً بفكرة خاطئة وهي أن كل أسرة من هؤلاء قد كانت تحكم جميع منطقة سومر وأكاد، وقد ابتدأت كل أسرة وانتهت عن طريق انتصار عسكري أو انكسار. وقد احتفظت بعض القصص والتقاليد السومرية الأدبية الأخرى ببعض الذكريات ذات القيمة النسبية لأحداث وشخصيات تعود إلى الألف الثالث ق.م.

وهنـاك عمـل قـام بـه الكـاهن البـابلي بيروسـوس Berossos ذكـر فيـه تلـك التقاليد التي نقلت إلى الأدب اليوناني فـي القرن الثالث ق.م ولكن تلك التقاليـد الـتي ذكرها لا تصلح لتكون مصدراً مستقلاً.

لقـد كـان لـدى السومريين شـأن العبرانيين (الـذين اسـتعاروا القـصة مـن بابـل) كان لهؤلاء السومريين تقاليـد وقصص عـن حـادث الطوفـان، وتـذكر قائمـة الملوك السومريين أسماء خمس مدن كانت موجودة قبل حدوث الطوفـان وهـي: إيريـدو وبـاد تيـبيرا Bad Tibira ولاراك Larak وسـيبار Sippar وشـوروباك Shuruppak. وكـانت ايريدو دون شك وكما رأينا ذات تاريخ قديم وأما شورو بـاك فربمـا تعـود إلى فترة عبيد وكـانت سيبار هي المذكورة في جميع الألـواح أكثر منهـا مدينـة حفريـات أثريـة. ولا يعـرف أي شـيء بالتحديـد بعـد عـن مـستوياتها الأولى. أمـا لاراك فلـم تحـدد هويتهـا بعـد بينمـا تعتـبر بـادتيبرا هـي بالحقيقـة مدينـة تـل مدينـة Tell Medena الحديثة وقد جَرت فيها بعض الحفريات. ويبدأ الحديث الفعلي الذي ذكر فـي قائمـة الملوك بخصوص هذه المدن كما يلي:

عنـدما نزلـت الملكيـة مـن الـسماء بـدأت مملكـة إيريـدو. فقـد أصـبح أليلـيم Alulim ملكـاً وحكـم حـوالي ٢٨,٨٠٠ عـام وأمـا آلاغـار Alagar، فقـد حكـم ٣٦٠٠٠عاماً وقد حكم ملكان مدة ٦٤,٨٠٠عام. وإني أترك هنا موضوع إيريـدو فقـد انتقلت الملكية إلى باد تيبيرا وتستمر هذه القصة طبقاً لهذا النسق. وكان أحد ملـوك بـادتيبيرا اسمـه دومـوزي Dumuzi وهـو أحـد الرعـاة وحكـم مـدة ٣٦٠٠٠عـام وإن العلاقة بـين هـذا الحـاكم الغـامض وبـين إلـه الخـصب والمراعـي مـن نفس الاسـم هـي علاقـة مبهمـة غامـضة. إنمـا كـل مـا هـو واضـح هـو أن إلـه الخـصب والمراعـي كـان معبوداً لمدة طويلة قبل أن يطلق عليـه اسـم دومـوزي بـشكل رئيـسي. وفـي نهايـة قـصة المدن الخمس التي كـانت موجودة قبل الطوفان تختتم قائمة الملوك السومرين حديثها كما يلي:

كـانت هذه المدن عددهـا خمسة وقد حكـم ثمانية ملوك مدة ٢٤٠,٢٠٠ عـام وقـد جرفها الطوفان جميعها.

يمكننا هنا ذكر حقيقة أن الجزء الأبكر من هذا التقليد والمتعلق بإيريدو من المحتمل أنه يعود إلى زمن ما قبل فترة الأسر الأولى كما عرفناها. ويبدو أن هذا الاستنتاج كان ضرورياً بالنسبة لعلم الآثار الذي يُظهر أنه لم يكن أي استيطان هام (لإيريدو) بعد فترة (أوروك) وبعد فترة (عُبيد) بوقت قصير.

وكانت أول سلالتين حكمتا بعد حدوث الطوفان عندما نزلت من السماء الإرادة بإعادة الملكية، كانتا وطبقاً لقائمة الملوك السومريين هما مملكة (كيش) Kish في شمال بابل ومملكة (إيريش) Erech في الجنوب. ولقد ذكرت الشواهد الأثرية قضية تغير مركز الحكم من (ايريدو) وهي أقدم مدينة إلى (إيريش) والتي أصبحت المركز الرئيسي للحضارة في الجنوب، نظراً لأن (إيريدو) كانت قد هجرت منذ زمن طويل وربما كان سبب هجرها تَملُّح التربة نتيجة لاستعمال طرق وتقنيات خاطئة في الري. هذا وإن هذا التغير الذي حصل من (ايريدو) إلى (أيريش) قد انعكس أيضاً في إحدى القصص الخرافية التي مفادها أن إنين Innin إلهة إيريش قد ذهبت في زيارة إلى ابزو Abzu وهو مزار والدها انكي Inki في (ايريدو) حيث قدم لها إنكي الضيافة المناسبة وقد شرب انكي كثيراً من الخمر طبقاً للأسلوب السومري حتى أصبح ثملاً عندها أظهر كرمه الفائق فأفاض على إنين هباته التي زادت على مئة هبة تتألف من المفاهيم السومرية الأساسية وثقافتها وتشمل هذه الهبات أشياء كثيرة كالملكية والعدالة والصدق والكذب والزنا الطقوسي والموسيقى وعدد من الحرف والحكمة والفهم. ولقد حملت أنين جميع هذه الهدايا ووضعتها في قارب، ورغم محاولة انكي استرجاع هذه الهدايا بعد أن زال تأثير الخمر عنه، إلا أن أنين نجحت في نقل هذه الهدايا إلى مدينة (إيديسن) بأمان.

وطبقاً لما تؤكده معلومات علم الآثار كانت إيريش ذات أهمية عظيمة ولكن هذه الشواهد إنما تخبرنا عن نواح عامة فحسب. إذ عند وصولنا إلى فترة الأسر الأولى يساعدنا الحظ في التعرف على صورة ظليلية للحوادث الفعلية التي حدثت في إيريش وجميع منطقة ما بين النهرين إلى حد ما. إذ إننا مدينون إلى تلك الحقيقة التي

مفادها أن مدرسة من الكتاب البطوليين قد ظهرت في إيريش والتي كانت قصائدهم المعروفة تعود إلى الألف الثاني وهي تشمل التقاليد القديمة لتلك المدينة وحكامها. وهذه القصائد البطولية تعود إلى الأسرة الثانية القديمة أو بداية الأسرة الثالثة.

ويشير مصدر آخر بأسلوب خيالي إلى فترة أقدم من تلك وهي فترة القصص الخرافية وقصص سلوك مغامرات الآلهة التي يُظن بأنها تعكس الحالة الاجتماعية وذلك الزمن الذي توطدت فيه أحوال المجتمع السومري في الدول - المدن أي وطبقاً للاصطلاحات الأثرية الأسر الأولى القديمة أو حتى (جمدت نصر).

ولقد استخدم جاكوبسين Jacobsen من شيكاغو في دراستين عميقتين هذه القصص الخرافية البطولية لربط الشواهد الأثرية وذلك لتقديم صورة عن المنطقة سياسياً واجتماعياً وعن التطورات في سومر أثناء فترة الأُسَر الأولى. وللأسف هناك أساليب وطرازات خاصة في دراسة المجتمع العام كما هو الحال في كل شيء آخر. وإن وجهة نظر جاكوبسين عن المجتمع السومري القديم الذي حكم تقريباً دون منازع مدة عقدين من الزمن، إلا أنه انتقد لكونه غير كفؤ مع أنه لم يظهر أي شخص آخر ينقص آراء جاكوبسين ككل ولم يظهر إلى النور أي شاهد جديد هام وهكذا فقد أصبحت أساليبه مقبولة الآن وطبقاً لأراء ومحاولات جاكوبسين بالنسبة للمجتمع السومري القديم كانت السيادة المطلقة تنحصر في الجمعية العامة التي تشمل جميع المواطنين وربما أنها كانت تشمل النساء أيضاً فضلاً عن الرجال الذين كانوا يتجمعون لتقرير ما ينبغي عمله في حالة الطوارئ. وكان باستطاعة جميع المواطنين التكلم ولكن إرادة كبار السن كانت تؤخذ بعين الاعتبار أكثر من آراء الآخرين ولقد تستمر المناقشات حتى يتم الاتفاق بالإجماع. ولم يكن هناك مشكلة عمل لتصويت وأخذ آراء الأكثرية فقد كان القرار الأخير يُعلن رسمياً من قبل مجموعة صغيرة تدعى صانعي القانون ومن بين القرارات العتيدة التي كان من واجب الجمعية العامة اتخاذها اختيار موظف طقوسي يدعى باللغة السومرية أين En وهذه الكلمة أصبحت مرادفة لكلمة لورد

فيما بعد. ففي فترة الأسر الأولى كان هذا الشخص موظفاً طقوسياً طبقاً لحالة ما إذا كان للمدينة إله مذكر أو إلهة مؤنثة. وكان هذا الإله يعيش في منطقة تدعى ايجبار Egipar وتدعى باللغة الأكادية جبارو Giparu وكان مقام الإله أو الآلهة ملحقاً بالمعبد. وكان الإين En هو الذي يلعب الدور الرئيسي في حفلات الزواج المقدس التي كانت تعتمد عليها خصوبة أراضي الدولة - المدينة. ففي المدن مثل إيريش التي كان الاين En فيها ذكراً كانت وظائفها الثانوية والإدارية المتصلة بأراضي المعبد تقدم له أهمية سياسية مما جعله في إحدى المراحل يصبح هو الحاكم. وهناك مثال على هذا اسم الاين En جلجامش. هذا وقد حدثت في الأزمنة المبكرة بعض الخلافات والتقسيمات ما بين وظائف الاين En الكهنية ووظائفه العلمانية وفي حوالي منتصف فترة الأسر الأولى أصبح مسكن الاين En في قصر خاص به، حيث سرعان ما اتخذ لنفسه بطانة تشمل الكتبة والطباخين وسُقاة الخمر والحرفيين والموسيقيين وموظفي البلاط العاديين. وفي نهاية الفترة الأسرية الأولى لم يعد الحاكم الحقيقي (كما يظهر في نصوص لاغاش) هو الاين En بل موظف آخر كان مهتماً بالشؤون الزراعية وكان يحمل لقب إنسي Ensi. أما الوظائف الطقوسية الأخرى فقد عُهد بها إلى كاهن خاص أو كاهنة خاصة.

وفي حالة تعرض المملكة إلى هجوم خارجي كان على الجمعية العامة اختيار زعيم حربي أو ملك (وهو يسمى بالسومرية لوجال Lugal أي الرجل العظيم أو من يدير شؤون البيت العظيم) ولم يكن مكان إقامة هذا في المعبد وربما كان يعتبر موظفاً علمانياً ولم تكن وظيفة الاين En أو اللوجال Lugal وراثية أو دائمة بل كانت وظيفة اللوجال تنحصر في أوقات الشدة والاضطراب فحسب.

يعتبر جاكوبسين أن هذا النموذج الذي يدعى بالديمقراطية البدائية قد امتد من الدول - المدن حتى بلاد سومر حيث أصبحت هذه الحالة تعتبر كينونة سياسية. وإن أسباب جاكوبسين الخاصة هي المركز الغريب الذي كانت تتمتع به (نيبور) وهي مدينة الإله (إنليل) فقد كان لهذه المدينة أهمية خاصة، نظراً لأنه وخلال التاريخ السومري كان ملوك الدول المختلفة ينالون سلطتهم من الاعتراف ليس بإله

مدينتهم بل بإنليل إله (نيبور). وكان الاسم السومري لكلمة سومر يدل على اسم نيبور ويمكن تفسير مثل هذه الحقائق لو أن (نيبور) قد أصبحت هي المهيمنة على جميع منطقة سومر ولكن ليس هناك من برهان على هذا الوضع وذلك لأن القصص والتقاليد وكذلك الشواهد من علم الآثار لا تشير إلى شيء من ذلك. ولذلك فقد اقترح أن نيبور قد حصلت على هذا الواقع الخاص لكونها قد أصبحت المكان المقدس الذي كان يهرع إليه جميع النبلاء والعظماء في المدن السومرية لكي ينتخبوا لهم سيداً للحرب في أوقات الشدة والحروب.

ولا شك أن مثل هذه المرحلة التي تدخل في تطور المنظمات السياسية معروفة في بعض الثقافات الأخرى وأن التاريخ الذي وجدت فيه ربما حدث بعد ارتفاع مكانة (نيبور) لتصبح مدينة كبيرة قد نشأت في فترة (جمدت نصر) وليس في زمن أبعد من أوائل الأسرة الثانية عندما شوهد وجود أسوار عالية للمدينة الأمر الذي يدل أن المدن السومرية قد انتابها الشعور أنها قد أصبحت في عداء متبادل، أو أنها قد أصبحت تبذل محاولات لعمل ترتيبات دفاعية ضد عدو خارجي. ويعزو جاكوبسين إنشاء عصبة نيبور المقترحة إلى خطط الساميين الغزاة الذين اتجهوا شمالاً حيث الأماكن الضعيفة الدفاع. ودعماً لهذه الفرضية هناك شواهد وافرة تدل على الاحتلال الأكادي (وهو احتلال سامي) في منطقة نهر ديالا ابتداءً من فترة الأسرة الثانية فصاعداً. ومن الممكن أن تكون هذه الموجة من الموجات السامية قد ظهرت في بابل في أوائل فترة الأسرة الأولى.

ويشير جاكوبسين أنه عند تعيين الاين En أو اللوجال Lugal فإن أياً منهما سوف يتجاوز الحدود التي مُنحت له حتى بعد انتهاء فترات الشدة والحرب وإن وظيفة الاين En واللوجال Lugal تمنح لنفس الرجل وإن هذا الميل لنشوء فكرة الملكية الدائمة قد ظهر في تلك الأسطورة التي تصف الإله المحارب نينوترا وهو يقود مجموعة من الجنود كان يصطحبهم للغزو في أماكن تقع فيما وراء حدود دولته بينما في داخل الدولة فهو يتخذ وضع المدافع عن المظلومين وهو لا يتحمل وجود أي

شخص معارض لسلطته وتقول الأسطورة إنه عندما تقابلت النباتات لاختيار ملك لها فإن نينوترا قد تغلب على منافسه وسَحَقه في المعركة وقضى على المعارضة.

ومع ذلك وعندما جُعل الاين En أو اللوجال Lugal وظيفة كل منهما دائمة لم يكن أي منهما حاكماً مستبداً. مثلاً فإن جلجامش وهو اين En ايريش عندما رغب في إعلان الحرب على آغا Agga من كيش فقد استشار الشيوخ أولاً والذين كانوا يوصفون بأنهم مستشارون وكانوا هم بالفعل رؤساء المجموعة القبلية وعندما عارضه هؤلاء قام جلجامش بدعوة جمعية عامة تتألف من جميع المواطنين الذكور (لم يُذكر عن اشتراك الإناث) وبذلك حصل على الموافقة وعندها أصبح قادراً على تنفيذ الإجراءات التي خطط لها.

إن المرحلة التي أصبح فيها الاين En حاكماً بشكل دائم ولكن ليس حاكماً مستبداً ربما تعود إلى أوائل فترة السلالة الثالثة أو بداية الفترة الثالثة التي تعود إليها معظم القصص البطولية السومرية. وبينما كانت الأساطير تتركز حول الآلهة، إلا أن الأساطير البطولية كانت تتركز في الكائنات البشرية أو شبه البشرية من الأبطال مثلاً اينمركار Enmerkar وهو اين En ايريش أن يبني ويزين أحد الأضرحة التابعة لحاميته وهي الإلهة انين Innin باللازورد وقد كانت هذه الإلهة عمته وإن العلاقة الحميمة بين هذا البطل والإلهة توحي أن هذه القصة قد أتت من أوائل فترة الأشعار البطولية. وللدلالة على نواياه الطيبة أرسل اينمركار رسالة إلى حاكم (أراتا) Aratta التي تقع على بعد سبعة سلاسل من الجبال شرقاً طلب منه إرسال كمية من اللازورد والخشب وأرسل له مقابل ذلك قافلة من الحمير محملة بالشعير الذي كان متوفراً في أرض سومر. وكان منظر قافلة الحمير المحملة بالشعير وهي تسير خلال الجبال يشبه أسراباً من النمل الخارجة من جحورها. ولقد أدعى اين أراتا Aratta أيضاً أنه واقع تحت حماية أنين Innin وهكذا تعكس القصيدة إحدى التقاليد العائدة إلى ثقافة دينية واقتصادية عامة تغطي أخبار جميع تلك المنطقة ابتداء من الفرات حتى جبال بلاد فارس ولقد أيد وجهة النظر هذه بعض الشهادات من علم الأثار حول ثقافة هذه المنطقة في ذلك الزمن. ومن المهم أن نقول

إنه ومن خلال الخصام الذي حدث ما بين أينمركار Enmerkar واين اراتا Arata لم تكن الحرب هي الحل الأخير بالنسبة لهذه المشكلة. وهذا يتفق مرة ثانية مع الشواهد من علم الآثار نظراً لأنه لم يحدث حتى أوائل الأسرة الثانية أن انتشرت فكرة تحصين المدن الأمر الذي يدل على وجود فكرة الحروب ما بين الدويلات الداخلية. ولقد وُظِف هذا التطور في قصيدة بطولية أخرى تعود إلى أحد خلفاء اينمركار وهو ثالث حفيد ويدعى جلجامش باني السور الخارجي العظيم في ايريش ومع أن أراضي إيريش (طبقاً للقصائد البطولية) قد غزاها البدو من الساميين منذ عهد اينمركار إلا أنه لم يحدث حتى عهد جلجامش أن بدأت شؤون الحصار بين المدن تطفو على السطح وتظهر. وقد كان الظرف الحقيقي كما نعلم من قصة بطولية أخرى كان أن هوجمت مدينة جلجامش المسورة من قبل آغا Agga ملك كيش.

لقد كانت (كيش) وطبقاً لقائمة الملوك السومريين مركز السلالة الأولى في شمال بابل بعد حادثة الطوفان. لقد حدثت الحفريات في هذه المدينة حتى الأرض البكر. حتى بعض البقايا من العصر الحجري الحديث الذي لم تكن له أية علاقة بأي ثقافة من ثقافات منطقة ما بين النهرين، إلا أن أول عهد من عهود الاستيطان كان في فترة (جمدت نصر) فقد استؤنف السكن في ذلك الموقع الذي يعود تاريخه إلى العصر الحجري الحديث، وربما كان ذلك خلال التوسع السومري الناتج عن التقدم التقني في فترة (أوروك) مع أنه من الملاحظ أن الخلفية الثقافية في (كيش) لم تكن سومرية صرفة، حتى إن بعض الحكام الأوائل في كيش كانوا يحملون أسماء سامية، بينما كان هناك ملامح من الفنون والعمارة المدنية، الأمر الذي يدل على وجود تقاليد مشتقة من تلك التي كانت سائدة في المدن الجنوبية. ومن الممكن تفسير تلك الحقائق بالافتراض أنه وفي حوالي نهاية فترة (جمدت نصر)، أتت موجة من الساميين من بلاد العرب أو سوريا وأسست مدينة (كيش) ومدينة (ماري) وكانت في أواسط منطقة الفرات ولدينا شواهد حقيقية عن وجودها. وقد ذُكر هؤلاء الغزاة الساميون في الأدب البطولي حيث ذُكر أن

أمريكار اين Enemrkar وهو الـ En لمدينة ايريش قد ضايقه شعب المارتو Martu (وهم شعب من الساميين أتوا من الغرب) وأطلق عليهم هذا الاسم السومري وكان هؤلاء يهاجمون البلاد ومع ذلك فقد تم استيعابهم في المجتمع السومري وذلك لاتصالهم بالسكان الأصليين المتحضرين، ولذلك فقد أطلق على الحكام الأواخر في كيش أسماء سومرية وكانت فترة الاستيعاب وربما الاحتفار والإزدراء الذي أظهره سكان المدن السومرية المتحضرة تجاه أولئك البرابرة الذين هاجموا البلاد ولكن قدر لهم أن يعرفوا ثقافتها، انعكس كل ذلك في الأساطير السومرية وتقول إحدى هذه الأساطير إن الإله مارتو Martu الذي كان يحمل الاسم الذي يعرف به البدو الساميون، قد طلب الزواج من الفتاة من كازالو Kazallu وهي مدينة سومرية شمالية وتقول القصة إن أحد أقارب هذه الفتاة قال لها إن مارتو يأكل اللحم النيئ وليس له منزل يعيش فيه وبعد موته سوف يظل مطروحاً دون أن يُدفن، ولكن ورغم هذه التحذيرات فقد قبلت الفتاة الزواج من مارتو لأنها لم تخشَ شيئاً. وهكذا تم الزواج وهذه القصة تدل على تمازج الأعراق.

كانت (كيش) بالتأكيد أهم مركز في منطقة شمال بابل في فترة الأسرة الأولى وبعد ذلك وحتى وبعد أن توقفت عن أن تكون عاصمة أسرية، بقي اسمها مذكوراً في القاب أي حاكم كان يدعي الهيمنة على جميع منطقة بابل.

ويقدم جاكوبسين اقتراحاً ممتعاً وهو أن آغا Agga ملك كيش قد أصبح في وضع قوي استطاع فيه أن يمارس بعض السلطات على الدول - المدن باتجاه الجنوب وأنه وفي أثناء الحروب ما بين آغا وجلجامش كان الأخير أي جلجامش يعتبر تابعاً متمرداً. هذا وإن محاولة خلق وحدة سياسية متفوقة على الدولة - المدينة، كانت نتيجة لازدياد السلطة الملكية. فقد كان لدى الملك بطانة وأتباع عن مختلف المدن حيث كان الخدم والموظفون مدينين بالطاعة للملك وليس للمدينة التي خدموا فيها. وهناك شاهد مؤيد لهذه النظرية وذلك من بعض الوثائق الاقتصادية الكافية لحبك بعض التفاصيل حول الحياة المعاصرة وقد وجدت ألواح قديمة في عدد من المواقع نذكر أهمها من الأقدم حتى الأحدث.

١. الطبقة ٤أ في ايريش وهي طبقة أوروك الرابعة ويعاصر هذه الطبقة لوح من الحجر الكلسي في كيش.

٢. الطبقة الثالثة والثانية في ايريش وجدت فيها ألواح تعود إلى مواقع (جمدت نصر) وتل عقير uqair.

٣. ألواح من أور (فترة الأسرة الأولىI)

٤. الطبقة الأولى من ايريش. ألواح من فارى Fara (فترة الأسرة الأولى III)

وهناك بعض الشكوك بالنسبة للصياغة اللغوية وخصوصاً بالنسبة لألواح أوروك ٤أ وحتى هنا فإن الكتابة التصويرية تجعل من السهل تقديم تخمينات مقبولة بالنسبة للمحتويات في بعض الحالات. هذا وإن أقدم الكتابات التي من الممكن البرهنة على أنها سومرية قد أتت من مجموعة (جمدت نصر) وهي مجموعة مؤلفة من ثلاثة إشارات يمكن تمثيلها بالأحرف x,y,z والإشارتان x,y كانتا تقرآن وكأنهما سومرية نظراً لأن كلمة إنليل هي ترجمة حرفية لجملة تدل وبنفس الإشارات على حرف z وهي تدل في لغات أقدم من هذه على صورة سهم ولكن هناك نصوص قليلة كان فيها سهم يدل على سيد الهواء. ولهذا ينبغي على المرء أن يفتش عن لغة يكون فيها كلمة سهم لها معنى مناسب. وإن مثل هذه اللغة هي سومرية فيها الأحرف ti والتي تمثل تمثيلاً مختلفاً في فترات متأخرة وهي مشتقة من الأحرف المصورة التي دعوناها Z وهي تعني كلمة سهم أو كلمة حياة أو يعيش. فإذا قرأنا الإشارة Z بشكل Ti فإن ذلك يعطينا جملة ذات معنى نظراً لأن إنليل يعطي الحياة وهو يمثل اسم علم معروف خلال الحضارة السومرية والبابلية. وإن مجموعة x,y,z تقرأ باللغة السورية بشكل En. Lil. Ti وهذه تشبه لغة النصوص في فترة (جمدت نصر).

هذا وإن الألواح المفهومة من هذا الزمن فصاعداً هي على نوعين. ومن الممكن تفسيرها باسم اقتصادي أو أدبي وإن اسم أدبي في هذه المرحلة هو اسم رنان نظراً

لأن الألواح من هذا النوع تتألف من قوائم من الأشياء مثلاً أنواع من السمك أو الطيور أو الحيوانات أو النباتات أو الآلهة التي تشكل أشكالاً بدائية.

إن المصدر الرئيسي لمثل هذه الألواح (الأدبية) كان من فارا Fara وهو موقع شوروباك Shuruppak القديم وهي الوطن البابلي لنظير نوح. ولكن لا يعرف إلا القليل من هذه الأنواع في المواقع الأخرى. ولذلك ليست النصوص الأدبية بل الاقتصادية هي التي تكشف شواهد معاصرة لفترة الأسرة الثالثة. وبعض هذه النصوص هي سجلات وجدت في قصر فارا وقد ذكر فيه أشخاص من الموظفين من جميع الأنواع. وكما يشر جاكوبسين فإن الأعداد كبيرة بشكل لا يُصدق فهناك مثلاً ١٤٤ من سقاة الخمر و٦٥ طباخاً وهذا يشبه وضع فرق عسكرية منظمة بشكل منازل وبيوت وقد تأكد هذا التفسير بالحقيقة التي مفادها أن السجلات في هذا العصر تحتوي أيضاً على مراجع فيها ذكر لاصطلاح العربات الحربية وقوائم من الفرق العسكرية الذاهبة إلى ميدان القتال. وهذا يؤيد ذلك الاستنتاج الذي مفاده أنه في أوائل الأسرة الثالثة تطور الملوك بحيث أصبحوا يحتفظون بحاميات متواجدة عندهم في المدن الرئيسية. ومن الواضح أيضاً أنه وكما يظهر في الملحمة البطولية لجلجامش وآغا Agga إن ميزان القوة بالنسبة للملك كان متقلقلاً مشكوكاً فيه وإنه كان من الممكن لأية مدينة أن تتحدى الملك. ومن الزمن الذي بدأت فيه أول النقوش التاريخية (حوالي منتصف فترة السلالة الثالثة) يلاحظ فشل محاولة كيش لإنشاء قوة ملكية واسعة النطاق وهكذا بقيت سومر مؤلفة من عدد من الممالك المستقلة والدول - المدن.

وفي داخل الدول - المدن السومرية والتي نقابلها لأول مرة في النقوش التاريخية كان لكل دولة حاكمها الخاص بها ويدعى الأنسي Ensi ويبدو أن هذا اللقب كان يدل على القائد المسؤول عن تنظيم السكان للعمل في المواسم الزراعية ولم يكن لقب لوجال Lygal يُطلق إلا على الملك الذي تتجاوز سلطته حدود بلاده لتصل إلى مدن أخرى. وتعرف أسماء كثير من حكام هذه الدويلات - المدن من قائمة الملوك السومريين ومن النقوش التي تصف الإهداءات التي كانت ترسل للمعابد من

الملوك أنفسهم. ولكن المدينة التي تمت لنا معرفة أحوالها بشكل أفضل من هذه الناحية هي مدينة لاغاش Lagash حيث نعرف الكثير من مجرى الأمور في هذه المدينة مما يعطينا فكرة عن الحياة السومرية وتاريخها بأجمعه اعتباراً من منتصف الألف الثالث ق.م فصاعداً.

إن موقع لاغاش المعروف الآن باسم تلو Tello لا يزال في منطقة شديدة الخصب تحتوي على شبكات من قنوات الري التي تغذيها قناة شط الحي Shatt-el- Hai والتي تصل دجلة بالفرات وكانت هذه القناة في الزمن القديم بالإضافة إلى قناة أخرى كانت تدعى لوما جيرنون Lumma girnun تؤمن للاغاش ليس المحاصيل الوافرة فحسب، بل كانت توفر لها تجارة نهرية ناجحة وبالنتيجة توفر لها الرخاء والازدهار الاقتصادي. وإن مثل هذا الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي قد وفر لهذه الأسرة التي أنشأها شخص يدعى أورنانشي Ur Nanshe الذي استطاع أن يستمر في الحكم مع أحفاده دون انقطاع خلال ستة ملوك لمدة تزيد عن القرن.

وهناك مدينة مجاورة تدعى أوما Umma وهي واقعة أيضاً على شط الحي Shatt-el-Hai وهي واقعة إلى شمال لاغاش من الجانب الآخر من لوما جرنون .Lumma girnun

ولما كان اتجاه مجرى شط الحي Shutt-el-Hai من الشمال إلى الجنوب فقد أصبحت أوما Umma هي المتحكمة بموارد الماء إلى لاغاش. وهذا هو سبب نشوء الخصام ما بين المدينتين في عدة مناسبات وإن الوثائق هي التي سجلت الظروف التي أحاطت بمثل تلك الحوادث وهي التي تقدم القصص الأولى الحقيقة التي تبدأ في الفترة بعد عام ٢٥٠٠ق.م بقليل. وإن أقدم تلك الوثائق هي بعض النقوش التي تعود إلى ايناتوم Eannatum وهو ثالث حاكم من تلك السلالة. وهو عبارة عن نقش نافر حجري نُصب لتخليد انتصاره على أوما Umma ويعرف ذلك النصب باسم مسلة الطيور الجارحة وهي تذكر تلك التفاصيل الدموية التي تُظهر بعض الطيور الجارحة التي كانت تتقاتل للحصول على أحشاء القتلى في المعركة التي قاد فيها ايناتوم مدينته إلى النصر. وبعد زمن قليل وجد نقش مخروطي لانتيمينا Entemena حيث

يقدم ابن أخ ايناتوم تاريخاً وحيد الجانب يصف النزاع ما بين أوما ولاغاش والذي استمر عدة أجيال. إن مثل هذه السجلات تقدم تلميحاً يصف المظاهر الواسعة للتنظيمات السياسية السومرية وهي تحل محل ما نعرفه من قائمة الملوك السومريين من نصوص أدبية واقتصادية. وإن النقوش الخاصة بكل من ايناتوم Eannatum وانتمينا En temena تذكر حادثة لنزاع اشترك فيه مي سيلم Me Silim ملك كيش بصفته الحكم وهو الذي وضع شروط السلام وبنى سوراً فاصلاً بين أراضي المدينتين. ومن الواضح أنه قد مارس نوعاً من الهيمنة ولا يعرف التاريخ الدقيق لمي سليم ولكنه كان بالتأكيد شخصية تاريخية ربما كان قبل قرن أو أكثر من انياتوم ولم يذكر اسمه وذلك لأسباب تاريخية أو بسبب عدم ورود اسمه في قائمة الملوك السومرية. ولكن من المؤكد أن مي سيلم Me Silm كان ملك كيش نفسها في زمن محاولة تلك المدينة السيطرة على جميع أراضي سومر الأكثر احتمالاً أنه كان ملكاً لدولة مدينة أخرى سيطرت على الأقل على جزء من منطقة (أكاد) ونتيجة لذلك فقد وهبه الإله إنليل إله نيبور ذلك اللقب القديم المرموق وهو ملك كيش. وربما دل هذا على محاولات ناجحة لغرض السيطرة على جميع أراضي سومر وذلك بعد انقضاء حكم آغا Agga في كيش.

هناك مدينة أخرى ربما قد مارست بعض الهيمنة المؤقتة وهي مدينة أور وهناك إحدى سلالات أور وهي مذكورة في قائمة الملوك السومريين في إحدى الفترات الزمنية المقابلة للسلالة الثالثة بالنسبة للمصطلحات الفنية الأثرية. وإن بعض حكام هذه السلالة التي يشار إليها بأنها أولى سلالات أور معروفون من النقوش المعاصرة. وتأتي من بداية هذه الفترة (القبور الملكية) في أور وهي التي تشتهر بمحتوياتها والمهمة بالنسبة لدراسة تاريخ الأديان، مع أنها ليست ذات أهمية لنا بالنسبة لمعارفنا السياسية والاجتماعية.

كانت الحكومة في الدول - المدن السومرية في ذلك الوقت ثيوقراطية دينية. فقد كانت جميع أراضي المدينة تقريباً تخص المعبد. وكان الأنسي Ensi وهو مساعد مأمور التنفيذ أو ما يسمى بالشريف بالنسبة لآلهة المدينة. وكان هذا

الشريف وعائلته يديرون أملاك المعبد مع نخبة من الموظفين الذين كانوا يتعاقبون في العمل بالوراثة. ومن المحتمل أن يُنتخب الأنسي من قبل المواطنين الأحرار. ولكن وفي منتصف الألف الثالث ق.م أصبحت هذه الوظيفة وراثية في لاغاش على الأقل.

كانت أراضي المعبد مُقسمة إلى ثلاث فئات سوف نقدم لها وصفاً فيما بعد ، وقد تألفت إحدى هذه الفئات من الأراضي التي تؤجر على أساس الحصص ويدفع الإيجار بقيمة ثلث المنتوج وكان سدس هذا المبلغ يُدفع بالعملة الفضية والباقي بشكل سلع وليس نقداً ومع أن الملكية الخاصة للأراضي كانت نادرة جداً حتى نهاية الألف الثالث ق.م. إلا أن هذا النظام قد سمح بتراكم الثروة لدى بعض الأفراد. وبنفس الوقت لقد عملت المغامرات العسكرية في لاغاش تحت إدارة ايناتوم Eannatum على تقوية سلطة (الأنسي) وكذلك فقد زادت هيبة وقوة ايناتوم Eannatum نفسه بحيث أصبح عضواً في مجمع الآلهة السومرية ولقد قلبت هذه الأعمال التوازن في الاقتصاد فحدثت بعض التغيرات التي اعتبرها بعض الناس نوعاً من المساوئ.

ونظراً لأن النظام كان مركباً من عناصر اشتراكية وعناصر رأسمالية فإنه من الممكن أن ننظر لهذه الميادين كنتيجة لهذين العنصرين ولكن تقدمت بعض الشكاوى الرئيسية ومنها شكوى تقول أن الأنسي كان يتعامل مع أراضي المعبد وممتلكات الإله كأنها أملاكه الخاصة وأصبح المواطنون يرزحون تحت عبء الضرائب الباهظة التي كان يجمعها الأنسي وموظفو المعبد لتشمل جميع مظاهر الحياة والموت.

وكانت الضرائب تجبى عن المواشي ومصائد الأسماك، والأغنام والطلاق ومراسم الدفن، وهكذا فقد ظهرت طبقة من الأغنياء الذين اغتنوا بسبب تحسن الحالة الاقتصادية وقد استطاع هؤلاء استغلال الفقراء خاصة عندما كان هؤلاء الفقراء يستدينون منهم. فكان الغني يُقدم قرضاً للفقير وفي وقت غير مناسب كان هذا الغني يطالب باسترداد ديونه وعندها يسوق الحيوانات التي يريدها ويأخذ الأغراض الموجودة لدى الفقير المدين مما يزيد كثيراً عن قيمة الديون التي عليه.

ومن الممكن أنه وكنتيجة لتمزق الوضع الاقتصادي في لاغاش فقد انقرضت وانتهت أسرة أور ـ نانشي Ur-Nanshe وفي حوالي زمن نهايتها ظهرت قوة علمانية متميزة عن السلطات الدينية. وقد انعكس هذا على التطورات السياسية، فقد حدث نضال ما بين الكهنة والارستقراطية بسبب محاولة تملك أملاك المعبد فقد حاول انسي Ensi تقوية سيطرته من خلال الاستيلاء على أملاك المعبد.

ولقد حاول يوروكاغينا Urukagina وهو أحد من استلم السلطة في هذه الفترة أي بعد نهاية أسرة أور ـ نانشي أن يقوم ببعض الخطوات لمعالجة المخازي والفساد الذي حدث ولإعادة الأحوال إلى ما كانت عليه. وهو يسجل في أحد النقوش بعض الإجراءات التي قرر إجراءها وخصوصاً إنقاص الضرائب الظالمة وظلم الضعفاء والفقراء وكانت تلك الإجراءات كما يلي:

ـ لا يجوز لأي كاهن دخول حديقة أحد الفلاحين أو قطع أشجارها أو نزع ثمارها.

ـ إذا كان لدى الفلاح أتان ووراءها فلوها وأراد السيد الحامي شراء تلك الأتان، عندها ينبغي على الفلاح أن يحدد الثمن بالفضة ويقبض الثمن. أما إذا رفض الفلاح بيع الأتان فلا يجوز للسيد أن يضربه.

ـ إذا كان لدى الفلاح بركة سمك فلا يجوز لأي واحد من الأسياد أن يأخذ البركة أو أن يأخذ السمك من بركة الفلاح.

وفي فقرة أخرى من تلك التنظيمات منع المراقبون لأحوال المواشي ومصائد الأسماك من استيفاء مدخول مباشر من منتوجات الفلاحين أصبح عليهم أن يأخذوا مدخولهم من إدارة شؤون المعبد. ولقد ذكرت الأرقام المطلوبة لإنقاص مبالغ الضرائب بالنسبة لشؤون الزواج والطلاق ومراسم الدفن ولقد وضع إصلاح مالي بالنسبة لتربية المواشي. ومع ذلك فلم تستطع هذه القوانين إحداث التحسين الاقتصادي والتوازن والاستقرار وهكذا فقد سقط يوروكاغينا UruKagina كضحية بسبب تلك المنافسات التي كانت متواجدة دوماً ما بين لاغاش ومدينة أوما

المجاورة والتي استطاع ملكها لوجال زاغيسي Lugal-zagesi التغلب على لاغاش وتدميرها بعد عام ٢٤٠٠ ق.م. ولقد اتبع لوجال زاغيسي Lugal-zagesi هذا سياسة متسمة بالانتصارات العسكرية بحيث أصبحت منطقة سومر جميعها تحت قبضة يده، بعد أن أصبحت ايريش عاصمة له فلم يكن السيد المطلق في سومر فقط ولكن انتشر نفوذه إلى خارج حدوده ابتداءً من الخليج العربي بمحاذاة نهر الفرات ودجلة حتى البحر الأبيض المتوسط، حتى أن جميع الحكام المستقلين في سومر والانسي Ensis في جميع البلدان المستقلة كانوا ينحنون إجلالاً لحكمه في ايريش. ويشير جاكوبسين إلى أنه ربما كانت هذه الصورة مثالية وليس من الضروري أن تكون متوافقة كلياً مع الحقائق السياسية، إلا أنها تدل على أن الحالة المثالية تنحصر في إحلال السلم الداخلي تحت حكم ملك يمتلك تلك القوة الكافية لردع جميع المنافسين وأن يتوفر السلم خارجاً من خلال حاكم ذي نفوذ يؤهله ليصبح مقبولاً بشكل يصبح به وسيطاً لدى العالم بأجمعه ولكن توسعات لوجال زاغيسي السياسية كانت لا شك لا تمثل ظاهرة جديدة فحسب، فقد كان هناك منذ زمن آغا Agga من كيش محاولات لفرض الهيمنة والسيطرة على مناطق واسعة. فقد مارس أحد حكام أور المعاصرين لأورنانشي Ur-Nanshe السيطرة على بعض المدن الواقعة على الأقل حتى نيبور، بينما هناك شواهد أنه خلال حكم اينانتوم Eannatum قامت جيوش مملكة ماري الواقعة في أواسط حوض الفرات باختراق المنطقة جنوباً حتى لاغاش. وهكذا حاول لوجال زاغيسي الحصول على السيطرة المباشرة وعلى جميع منطقة بابل وذلك بإخضاع كيش التي أصبحت مرة ثانية المدينة البارزة المتفوقة في شمال منطقة بابل وكان من الممكن أن ينجح بشكل مؤقت نظراً لأن قائمة الملوك السومريين تمثل أعماله وكأنها تغييرات في الأسرة ولكن الحقيقة أنه هو نفسه قد هُزم بعد وقت قصير على يد شاروم كِن Sharrum-Kin (سرجون) الذي كان الوزير السابق لأحد ملوك كيش.

إن اسم شاروم كِن هو اسم سامي وكانت الأسرة التي أسسها أسرة سامية وهناك مثل عربي مفاده أن الصحراء هي مهد العرب والعراق هي قبر العرب وهذا

المثل يعرفنا بتلك الحقيقة وهي أنه من خلال مراحل التاريخ تتابعت أمواج متتالية من الساميين من الصحراء قد سبقت أو أجبرت على المجيء إلى الوديان الخصيبة في الشمال الشرقي حيث تمثلت هذه الأقوام واختلطت بالشعوب المستقرة. ولقد أشير إلى هذه العملية في وقت أقدم في الألف الثالث ق.م وكانت هذه العملية تحدث دوماً في زمن حكم شاروم ـ كن (٢٣٧١- ٢٣١٦ق.م) ولقد تصدى الكتاب القدماء لذكر التطورات التالية واعتبارها مصادمات عرقية ما بين الساميين والسومريين ولكن هذا لا يتفق مع الحقائق. وتحتوي النصوص التي تعود إلى ما قبل زمن شاروم كن قوائم من الأسماء الشخصية كان نصفهم سومريين ونصفهم ساميين وهذا يدل على أن الجماعتين العرقيتين كانتا تعيشان بسلام جنباً إلى جنب. وليس هناك من شاهد في ذلك الوقت يدل على حدوث أية غزوه سامية فالساميون الذين أتوا من الصحراء إنما قد أتوا بشكل عائلات منفصلة وأقاموا في المدن السومرية وتشربوا بالثقافة السومرية بسرعة ودانوا بالولاء للدول - المدن التي التصقوا بها وسكنوا فيها. ولأسباب جغرافية نجد أن نفوذ الساميين الذين حضروا بهذا الشكل كان أقوى تأثيراً في الجزء الشمالي من البلاد من الجزء الجنوبي فلقد شعر الناس بالنفوذ الاجتماعي واللغوي للسامين في أقرب وقت. وهكذا فإن بعض حكام كيش والبعض فقط، قد حملوا أسماء سامية، بينما كان آخر ملوك كيش الذي كان وزيره شاروم كن السامي يحمل اسماً سومرياً، وكشاهد قوي على عدم وجود أي نوع من التحيز العنصري يمكننا أن نذكر أن تمثال الملك السومري لوجال زاغيسي Lugal Zagesi الموجود في معبد الإله السومري إنليل في أقدس المدن السومرية نيبور قد نقشت نقوشه وتمت ليس باللغة السومرية بل باللغة السامية الأكادية.

وكانت مدينة شاروم كن الخاصة هي آغاد Agade (لم يتم تحديدها بعد) وهو الذي أسس هذه المدينة وذلك عندما كان موظفاً إدارياً تحت إمرة ملك كيش. وعندما تذكر قائمة الملوك السومرية هذه المدينة وتذكر علاقتها بانتصار شاروم كن وكسره للوجال زاغيستي Lugal Zagesi فإن قائمة الملوك هذه تذكر أن

أوروك قد ضُربت بالسلاح وقد نقلت مركز الملكية إلى آغاد دون اقتراح عمل أي تغيير عدا نقل السلطة من إحدى الدول - المدن إلى مدينة أخرى.

ويدعي شاروم كن نفسه أن إنليل الإله السومري العظيم هو الذي حكم وقرر هذه القضية بينه وبين لوجال زاغيسي Lugal Zagesi بينما نلاحظ أن ألقاب شاروم كن تظهر أن الإلهة الرئيسية التي لها علاقة متينة بشاروم كن ما هي إلا إلهة سومرية.

إن الأسرة التي أسسها شاروم كن (وهذا يشار له غالباً باسم سرجون اغادو) مع أنها قد حكمت مدة تزيد قليلاً فقط عن قرن من الزمن (٢٣٧١- ٢٢٣٠) ق.م إلا أنها قد تركت آثاراً واضحة على تاريخ منطقة ما بين النهرين. وكان سرجون آغادو يهدف في سياسته إلى هدم جميع أسوار المدن الواقعة ضمن منطقة بابل وبذلك يحرم وجود أية حركات من التمرد أو اية مواقع تدعم هذه الحركات وهكذا يصبح بمقدوره تعيين مواطنين من آغاد في مناصب عالية في الإدارة تدعمها حاميات معتمد عليها، وكان يهدف أيضاً لأخذ بعض أفراد العائلات الحاكمة وجلبهم إلى عاصمته كرهائن. وبذلك استطاع إضعاف الحكم الذاتي لبعض الدول – المدن وهيأ الطريق ومهدها للسيطرة المركزية على البلاد فيما بعد.

ولم يستطيع سرجون آغادو نفسه السيطرة على جميع منطقة سومر وأكاد وحسب، بل على مناطق كبيرة من الشرق الأدنى أيضاً. ولقد ازدهرت التجارة العالمية تحت حكمه وامتدت على الأقل من شواطئ البحر الأبيض المتوسط حتى الخليج الفارسي. وهناك قصص ظهرت فيما بعد تؤكد سيطرة سرجون آغادو على امبراطورية واسعة تشمل آسيا الصغرى وهناك نص معروف يشير إلى حدوث حملة حربية قام بها سرجون لحماية إحدى مستعمراته التجارية الموجودة في بوروش خانده BurushKhanda من اعتداء أحد الملوك في منطقة البحر الأبيض المتوسط.

ولقد تدخلت النصوص الأدبية بشكل قوي ليس بشؤون سرجون وحسب بل بشوؤون خليفته الثالث وحفيده المدعو نارام سن Naram Sin (٢٢٩١- ٢٢٥٥ق.م)

الذي ذكر ليس في القصص الأدبية وحسب بل أيضاً في عدد من الأمثال الشعبية التي يحتوي أحدها على ما يلي:

إن الرياح الشرقية هي رياح الازدهار والنجاح وهي صديقة نارام سن الإلهي.

وبالنسبة لهذا الحاكم أيضاً هناك شواهد أثرية بالإضافة إلى النقوش التي خلفها نارام سن بنفسه تقدم دعماً للقصص والتقاليد الأدبية المذكورة وطبقاً، للنقوش التي خلفها نارام سن فقد أنزل هذا الملك الهزيمة العسكرية بماني Mani ملك ماجان Magan وهذا الادعاء يدل على أنه قد سيطر على جميع السواحل الغربية للخليج العربي حتى عمان على الأقل. وهناك بعض القصائد الشعرية التي ظهرت بعد قرون تمجد زمن حكم نارام سن عندما تتكلم عنه بما يلي:

لقد وُجدت الفيلة الهائلة والقرود الكبيرة الآتية من الأراضي البعيدة كلها متجمعة في الساحة العظمى لعاصمته.

وهذا يوحي بوجود علاقات تجارية مع الهند . فقد قام نارام سن بحملة عسكرية كبيرة وبذلك فقد أخضع القبائل الجبلية التي كانت تعرف باسم لولو Lullu حيث وضع هناك أثراً تذكارياً من النقوش النافرة المحفورة على وجه الصخرة التي لا تزال موجودة حتى الآن مع أنه قد تطرق إليها بعض

الأضرار (انظر اللوحة ١٦أ) ولقد بنى نارام سن قلعة عظيمة في تل براك لحراسة الطريق الذاهبة إلى آسيا الصغرى. ومن المحتمل وجود حامية حربية أخرى في نينوى فقد وجدت مسلة تحمل اسمه في ديار بكر شمالاً على حدود أرمينيا وهناك شواهد تدل على أن هذا الحاكم القادر قد عمل على إنشاء إدارة مركزية في إمبراطورية مؤلفة من مجموعة من الدول - المدن ونذكر بعض التقاليد والقصص الأدبية أن البضائع الثمينة كانت تنصب على (آغاد) من جميع الأنحاء بينما كان الحكام المحليون في المدن يرسلون الجزية الشهرية أو السنوية.

لقد كانت نزعة نارام سن الاستبدادية هي التي أدت حسب آراء السومريين وحسب الواقع إلى سقوط أسرته. فالقصص الأدبية متناقضة بالنسبة لنارام سن، فقد

عومل ليس لكونه بطلاً عظيماً وحسب بل كحاكم سيء الحظ. إذ تذكر النقوش الخاصة بنارام سن عن حدوث عصيان عام في المدن الرئيسية في سومر وأكاد بما فيها كيش وأوروك وسيبار Sippar بينما تذكر القصص أن الإلهة انين Innin قررت هجران العاصمة آغاد ولكن السبب المباشر لانسحاب العطف الإلهي عنه أصبح الآن معروفاً فهناك نص سومري تم جمعه من قطع متناثرة موجودة في عدة متاحف يصف هذا النص في أوائل سطوره ازدهار وعظمة وثروة آغاد Agade التي كان يهرع إليها الناس والشعوب من جميع الأنحاء ويقدمون الجزية ولكن أعمال نارام سن العامة وغير التقية سببت إنهاء هذا الازدهار وذلك لأنه سمح لجنوده بتدنيس ونهب وسلب معبد ايكور Ekur وهو معبد الإله الأعظم إنليل المتواجد في أقدس المدن السومرية نيبور. وهكذا فقد انتهت عظمة نارام سن وآغاد. وذلك أن أنليل الغاضب أرسل من تلال تلك الأراضي الخصبة شعباً بربرياً متوحشا هم الجوتيان gutians ولقد خرب هذا الشعب المتوحش المواصلات والتجارة وخرب أنظمة الري التي كانت تتطلب دوماً العناية والاهتمام الدائم وسبب المجاعة والموت خلال البلاد.

لم تكن نتائج سياسة نارام سن عند إنشاء الحكومة المركزية في اغاد سريعة وكارثية كما تدعي الأشعار السومرية. ومع أن غارات شعب الجوتيان Gutian على منطقة ما بين النهرين قد بدأت أثناء حكم نارام سن، إلا أن انهيار الحكم والسلطة المركزية لم تتم إلا في عهد ابنه ووريثه شاركا ليشاري SharkaLisharri.

ولقد قيل أيضاً إنه بالحقيقة لم يكن شعب الجوتيان Gutian هم العامل الوحيد في سقوط أسرة آغاد. إذ إنه وبرعاية أولئك الحكام ابتداءً من سرجون حتى نارام سن، لقد ظهرت مفاخر آغاد الثقافية والعسكرية وشعر بها السكان ابتداءً من شواطئ البحر الأبيض المتوسط وآسيا الصغرى عبر جميع منطقة الشرق الأدنى حتى سوزه Susa وعمان، بينما امتدت العلاقات الاقتصادية إلى مدى أبعد، فقد امتدت غرباً حتى قبرص وشرقاً حتى الهند. ولم تكن هناك من دلائل في النقوش المعاصرة تفيد أن شعب الجوتيان Gutian كان شعباً يهدد بشكل كافٍ بالتخريب والقضاء على هذا الوضع المزدهر ولا يمكن أن يكون هذا الخراب سبباً لإخفاء

الحقائق عمداً نظراً لأن الخصومات مع الدول - المدن المتمردة وشعب لولو قد ذكرت كلها بشكل صريح لا خفاء فيه. أما انوبانيني Anubanini وهو ملك شعب اللولو الذي قيل عنه إنه السوط المسلط على تلك البلاد فقد كانت قواه كافية لوضع مسلة تذكر انتصاراته الخاصة وقد كتب النقوش على هذه المسلة باللغة الأكادية وهذا يدل على انتشار ثقافة إمبراطورية آغاد حتى بين أعدائها.

وكانت هناك شعوب غير سومرية وغير سامية تشهد الحوادث في ذلك الزمن وبصورة خاصة الحوريون الذين ازدادت أهميتهم فيما بعد أي في منتصف الألف الثاني وقد كان هناك عمال حوريون في نيبور في فترة حكم سرجون وكانوا يعملون في صناعة الملابس وربما كانوا من أسرى الحرب الذين أخذوا من جبال زاغروس وقد سكنوا في شمال منطقة ما بين النهرين حيث ربما قد مارسوا بعض الضغط على المناطق الجنوبية ولقد نشأ ائتلاف من عدة شعوب في الغرب وقد اشتبكوا في خصومات عسكرية مع نارام سن مما سبب له انكساراً ذريعاً.

إن هذه المجموعة من الضغوط هي التي هزمت الإدارة المركزية في آغاد وتركت البلاد عاجزة عن صد الغزاة القادمين من التلال وقد تلا ذلك فترة من الفوضى وانعدام السلطة التي تلخصها قائمة ملوك السومريين بالكلمات التالية: من هو الملك؟ ومن هو الذي ليس ملكاً؟

لا شك أن انهيار الحكومة المركزية الإدارية يعود إلى حكام المدن الذين كانوا قادرين في بعض الحالات على حكم مناطق أكبر من أراضيهم الخاصة بهم ومثال على ذلك ايريش التي تعزو إليها قائمة الملوك السومريين نشوء سلالة قصيرة العمر حكمت في الزمن ما بين آغاد والجوتيان وتذكر قائمة الملوك السومريين حوالي واحد وعشرين ممن يدعون بالملوك في فترة الجوتيان ولكن نظراً لقصر مدد حكمهم، فقد حكم واحد منهم فقط مدة تزيد على السبع سنوات وقد حكم نصفهم مدداً تبلغ ثلاث سنوات أو أقل. ومن الممكن أنهم كانوا عبارة عن زعماء عُينوا لمدد محددة وتُشير القصص فيما بعد إلى همجيتهم وبربريتهم، وإذا كان نظامهم الاجتماعي بدائياً فمن المحتمل أن الملكية كنظام متطور لم تظهر بعد

بينهم وهناك بعض الأسماء بينهم هي أسماء سامية وهذا يعني أنه قد بدأ اندماجهم في المجتمع وتشير بعض النقوش التي تمثل تقاليدهم الطقوسية أنهم قد اعتنقوا الطقوس الدينية للبلاد. هذا وقد انتهت فترة الجوتيان التي بدأت حوالي عام ٢٢٥٠ق.م أي بعد حكم نارام سن مباشرة وانتهت في عام ٢١٢٠ق.م.

يتذكر شعب بابل المتحضر فترة هيمنة الجوتيان بالحقد والكراهية. ويتذكرون عهدهم بأنه كان زمناً بربرياً لم تحترم فيه الآلهة ونُهبت المعابد ولم تحترم النساء والأطفال ولم تُوفر، ولقد شعر سكان الجزء الشمالي من البلاد بفداحة أعمال الجوتيان وهي منطقة أكاد، بينما وفي سومر فإن عدداً كبيراً من الدول - المدن القديمة قد بقيت في حالة فعلية من الاستقلال مع أنهم ربما قد قاسوا من أضرار فعلية من جراء الموجه الأولى من غزوات الجوتيان البربرية. وكانت إحدى المدن التي أصابها جزء طفيف من الضرر هي لاغاش إذ إن هذه المدينة التي حطمها لوجال زاغيسي في أوائل صعوده إلى السلطة في سومر قد أعيد بناؤها وترميمها خلال أيام الازدهار الذي حدث خلال حكم أسرة أغاد ولا شك أنها قد استعادت قسماً كبيراً من أهميتها كمرفأ نهري، فقد استطاعت الآن أن تستعيد جزءاً كبيراً من بهائها وخصوصاً بعد تحطم قوة أغاد الخصم العنيد لها والتي كانت المنافس الرئيسي في تجارتها عبر الخليج الفارسي. وفي أثناء غياب الحكومة المركزية القوية استطاع حكام لاغاش أن يُوسعوا سلطتم إلى ما وراء مدينتهم وشكلوا بذلك أسرة جديدة عُرفت بالتفصيل من خلال النقوش التي صنعها الحكام بأنفسهم مع أنها ظلت مجهولة بالنسبة لقائمة الملوك السومريين. وكان أفضل حاكم ظهر في هذه الأسرة هو الرابع واسمه غوديا Gudea الذي وصلتنا معلومات كثيرة عن أنشطته وذلك من النقوش الكثيرة التي خلفها ولقد امتدت سلطة غوديا إلى ما وراء لاغاش ولقد ادعى أنه كان سيداً لنيبور وايريش لدرجة أنه قام بحملة عسكرية قصد بها نهب مدينة أنشان Anshan العيلامية. ومع أن نقوشه كانت تهتم بأعمال التقوى وبناء وترميم المعابد وإتمام واجباته الدينية تجاه الآلهة، إلا أنها كانت تحتوي إشارات حملاته التجارية فقد ادعى أن مدن ماغان وميلوحا وغوبي

وتلمون قد قدمت له الجزية، وإن سفنهم وصلت إلى لاغاش وهي تحمل الأخشاب والحجارة والبتامين والجبس اللازمة لبناء هيكل نينجرسو Ningirsu بينما كانت البضائع الأخرى التي جُلبت من الخارج تشمل الصخور البركانية المتبلورة من ماغان Magan وخشب الأرز من لبنان والنحاس من كيماش Kimash والذهب من هاهو Hahu وربما كانت المدينة الأخيرة واقعة في آسيا الصغرى وكيماش ربما كانت واقعة في جبال بلاد فارسالغريبة.

لقد تلا غوديا ابنه ثم حفيده ولكن وخلال الفترة المتأخرة من حكمهم أصبحت لاغاش خاضعة لحكم دول - مدن أخرى كانت تتقوى لتصبح دولاً مستقلة.

ولقد قام اوتو هنغال Utu-Hengal ملك ايريش ٢١٢٠-٢١١٤ق.م بالقضاء على أواخر الحكام الجوتيان وقد اعترف به نتيجة لذلك في نيبور بلقب ملك المناطق الأربعة وكان أول من اتخذ هذا اللقب هو نارام سن وقد ذكر هذا اللقب في قائمة الملوك السومريين. وهذا يدل على إعادة ظهور نظام الحكومة المركزية التي جسدها نارام سن فقد كانت الدول - المدن الخاضعة يحكمها حكامها الذين كانوا يعترفون باوتو ـ هنغال سيداً لهم وكان أحد هؤلاء الحكام يدعى اورنامو Ur-Nammu حاكم أور الذي أصبح فيما بعد حاكماً مستقلاً (٢١١٣-٢٠٩٦ق.م) ولقد أسس هذا الحاكم أسرة شهيرة نشأت منها إمبراطورية في غاية التنظيم وكانت أكثر تماسكاً من امبراطورية سرجون وقد دامت مدة تزيد على القرن (٢١١٣-٢٠٠٦ق.م).

تُظهر فترة الأسرة الثالثة في أور الحضارة السومرية في أبهى أشكالها. ومع أنه قد عُرفت أعداد هائلة من الألواح التي تعود إلى الأسرة الثالثة في أور والتي يبلغ عددها في المنطقة خمسة عشر ألف لوح وهي تمثل وثائق قانونية وإدارية واقتصادية وقد نشرت جميعها وربما كان هناك حوالي مئة ألف لوح أو أكثر قد تم اكتشافها ضمن الحفريات ولكنها لم تنشر. ولكن معرفتنا بها ليست مفصلة نظراً لأن تلك الوثائق قد كتبت بأشكال مكثفة وهي مملوءة بالكلمات الفنية التي لم يستطع العلماء فهمها إلا بشكل عام. وتشهد الشواهد الأثرية المباشرة على وجود ازدهار

فعلي في ذلك الزمن حيث إنه تشاهد في كل مكان آثار أنشطة البناء فقد بنى أور ـ نامو Ur-Nammu نفسه وهو مؤسس تلك الأسرة أو رمَّم عدة معابد في مدن قديمة كثيرة بما فيها ايريش ولاغاش ونيبور واريدو ولكن أعظم عمل قد سجل له كان عاصمته (أور) إذ إنه أعاد ترميم الزقورة على شرف إله القمر نانا Nanna وكانت الزقورة هذه عبارة عن برج قائم مستطيل الشكل ومدرج (على ثلاث مراحل وبعضهم يقول إنه كان على مرحلتين أبعاده حوالي مئتي قدم في مئة وخمسين قدماً عند القاعدة وربما كان ارتفاعه سبعين قدماً مع وجود مزار على قمته ولقد جدد هذه الزقورة بعض الملوك المتأخرين وأخيراً كشف عنها الغطاء ابتداءً من عام ١٩٢٣ فصاعداً السير ليونارد وولي Leonard Woolley ولا تزال ماثلة كشاهد على تقوى الملك أور نامو (انظر اللوحة ٣أ). ولقد قام خلفاء أور نامو بأعمال البر والتقوى. ومن الممكن بعد إلقاء نظرة عجلى على الألواح التي ظهرت في تلك الفترة وأن تجرى بعض الحسابات الممتعة بالنسبة إلى أحد المعابد. والمعبد الخاص الذي نقصده قد بني أثناء حكم الخليفة الثالث لأور نامو وهو شو سوين Shu- suen وقد بني ذلك المعبد تكريماً للإله شارا Shara في أوما Uma ومع أن ذلك المعبد لم يكن أكبر معبد في سومر، إلا أن بناءه استغرق سبع سنوات على الأقل ولقد استعملت حوالي تسعة ملايين قطعة من الطوب الكبير وسبعة عشر مليوناً من الطوب الصغير في بنائه. ويخبرنا أحد الألواح أن باستطاعة العامل أن يضع ثمانين طوبة في اليوم ولهذا فقد حسب أن صنع هذه الطوبات فقط يستغرق عمل ألف رجل لمدة سنة على الأقل.

لم تكن أنشطة أور نامو مقتصرة على الترميم فحسب فقد حفر أور نامو عدة أقنية وذلك تشجيعاً لنجاح الزراعة والتجارة وأعاد العلاقات التجارية مع ماغان Magan وقد أدعى أنه قد قام بمنجزات ذات تأثير مباشر وهي إعادة النظام والأمان في البلاد، ذلك النظام الذي كان مفقوداً في زمن الغزاة الجوتيان الذين عملوا على تخريب النظام القديم. ولقد ثبتت ادعاءات أور نامو عندما وجدت شظايا من مجموعة من القوانين التي نشرها وقد استعيدت هذه القوانين.

ولقد ساعد ذلك النظام الإداري الذي ساد أثناء حكم تلك السلالة على تقليل خطر وقوع أي عصيان وذلك بسبب زيادة سيطرة الأنسيين Ensis الذين أصبحوا عبارة عن حكام حقيقيين بدلاً من كونهم أمراء محليين ولكن حرموا من السيطرة على الحاميات العسكرية، بينما قل خطر استيلاء الحاكم على السلطة المطلقة من خلال الروابط المحلية وذلك بوجود نظام المراسلين الملكيين بينما تأمنت العلاقات الخارجية مع الأمراء خارج الإمبراطورية عن طريق وجود ممثلين دبلوماسيين.

لقد خلف أور نامو ابنه شولجي Shulgi (٢٠٩٥-٢٠٤٨ق.م) الذي زادت في عهده مساحة الإمبراطورية وهيبتها خلال حكمه الطويل فقد حدثت حملات عسكرية إلى خارج بابل، وكانت نتيجتها أن أصبحت عيلام وآشور ضمن سيطرته الاقتصادية. وقد أجبرت شعوب الحدود الشرقية على الالتزام بالنظام نتيجة لقيام حملات تأديبية وتحالفات تصاهرية بالزواج ما بين الأميرات السومريات والحكام المحليين ولقد عمل شولجي Shulgi كما عمل والده وحلفاؤه في بناء المعابد ولقد خلفه اثنان من أولاده وهما عمار سوين Amar-suen (٢٠٤٧-٢٠٣٩ق.م) وشوسوين Shu-sueu (٢٠٣٨-٢٠٣٠ق.م) وقد خدم هذان الولدان حاكمين لبعض المدن خلال حياة والدهما وفي أثناء حكم هؤلاء بدأت موجة جديدة من التسربات السامية من الغرب وفي هذه المرة لم تتخذ هذه الموجات أشكال عائلات مسالمة من المهاجرين بل هجوم مسلح لقبائل بأجمعها. ولدفع خطر هؤلاء بنى شوسوين نظاماً من الأسوار الدفاعية. ولقد جلبت هذه الموجة من الغزاة الخراب لأسرة أور الثالثة، مع أن ذلك الخراب لم يشمل عهد شوسوين بل عهد خليفته ايبي سوين Ibbi-Suen (٢٠٢٩-٢٠٠٦ق.م) الذي شهد سقوط تلك السلالة.

لقد اعتلى ايبي سوين Ibbi- Suen العرش وهو صغير السن ولقد أظهر استمرار خدمة موظفيه أنه لم يحدث أي تغيير سريع في السياسة. فلقد وردت الضرائب (بشكل مواشي) من جميع أجزاء الإمبراطورية. ولكن وبالتدريج بعد السنة الثانية من حكمه بدأت مدينة بعد مدينة تتخلص من حكمه ولا تعترف به. ولقد ظهر هذا عندما لم تعد الوثائق القانونية والإدارية الصادرة في تلك الأمكنة

تؤرخ بالصيغة الزمنية* السنوية. وهناك دلائل أخرى على تحطيم الإمبراطورية وذلك أنه بعد السنة السادسة من حكم ايبي سوين لم يعد الحكام في المدن المختلفة يرسلون ما عليهم إرساله من الحيوانات والتقاديم للإلهة نانا وهي إلهة أور. وقد عُرف ذلك التهديد عندما وجد أن الصيغة الزمنية للسنة السادسة من حكم ذلك الملك تذكر ترميم أساليب الدفاع في المدن الرئيسية وهي نيبور وأور. ولقد وصلت إلينا المعلومات عن الحوادث الجارية عن طريق رسالة مفتوحة موجهة إلى أيبي سوين من شخص يدعى إيشبي إيرا Eshbi Erra وهو أجنبي من مملكة ماري كان قد خدم ايبي سوين وأصبح ملكاً بعد سقوط الإمبراطورية على مدينة ايسين Isin. ويقول ايشبي ايرا هذا إنه قد كلف بشراء الحبوب من منطقة ايسين Isin وكازالو Kazallu وهما مدينتان في منطقة أكاد ويذكر أنه قد اشترى كميات كبيرة من الحبوب (١٤٤٠٠٠ غورا أي حوالي ١٠,٠٠٠ طن) بسعر رخيص مقداره نصف شيكل فضي ثمن الغور) ويقول إن الأسعار قد تضاعفت الآن ويذكر أخباراً سيئة وهي أن الآمورو(العموريون) وهم شعب أتى من الصحراء الغربية) كانوا يقتحمون طريقهم وصولاً إلى البلاد وهم يستولون على القلاع واحدة تلو الأخرى وإنه لم يكن قادراً على تقديم الحبوب إلى أور والتي كان قد اشتراها. وقد اقترح أن يعينه الملك مسؤولاً عن ايسين ونيبور وقد وافق الملك على هذا الاقتراح.

إن أسعار الحبوب الرخيصة التي اشترى بها ايشبي إيرا تدل على أن هجوم العمورين قد حدث بعد موسم الحصاد تماماً. وكانت أور تعتمد اعتماداً كلياً على الحبوب المستوردة التي لم يستطع ايشبي - ايرا أن يقدمها مما أوقع المدينة في حالة من اليأس ويقول ايشبي ايرا إنه مستعد لدفع ضعف الثمن إذا سمح له الموظفون بإيصال الحبوب إلى أور. وكنتيجة لهذا الوضع وقع التضخم في أور بحيث إنه خلال السنة السابعة أو الثامنة من حكم هذا الملك أصبح سعر الشعير والسمك أغلى

* - الصيغة الزمنية كانت وسيلة من وسائل تاريخ الوثائق القانونية والإدارية. ففي كل عام كانت تكتـب لـة قصة تعود إ حادث ما حدث فـي تلك السنة ونشره ا لمك عن طريق ذكر الإله وكانت السنة تعرف ذا ا ادث وهناك بعض صيغ وذجية: مثلاً ضربت ا دينة فـي هذا العام أو لقد صنع الطبل الطقوسي لأجـل الإ ة اينانا Innana أو لتضع فـي هذا العام العرش السماوي لأجل الإله نانا Nanna.

خمسين ضعفاً وستين ضعفاً من السعر العادي وكنتيجة لذلك فقد انتشر التضخم في الأسعار والمجاعة في سومر مما أنتج التمردات والثورة ضد ايبي سوين، وبعد السنة السابعة من حكمه ظهر من عدم استعمال الصيغة الزمنية أن هذا الملك قد عُزل ولم يعد معترفاً به في نيبور وهي مدينة الإله انليل الذي كان يهب الملك لمن يشاء.

لقد بدأت إمبراطورية ايبي سوين بالتقلص تدريجياً حتى أصبحت مؤلفة من مدينة أور مع أن بعض حكام المناطق الأخرى احتفظوا بالولاء الشخصي للملك، إلا أنه لم يكن باستطاعتهم بذل أي دعم فعال. وقد دخل ايشبي ايرا ضمن هذه الفئة ولكنه ظل موالياً لايبي سوين قدر الإمكان ولكنه وقبل إنهاء السنة الثانية عشرة من حكم ايبي سوين بدأ ايشبي ايرا بإصدار الصيغة الزمنية معتبراً نفسه حاكم ايسين Isin.

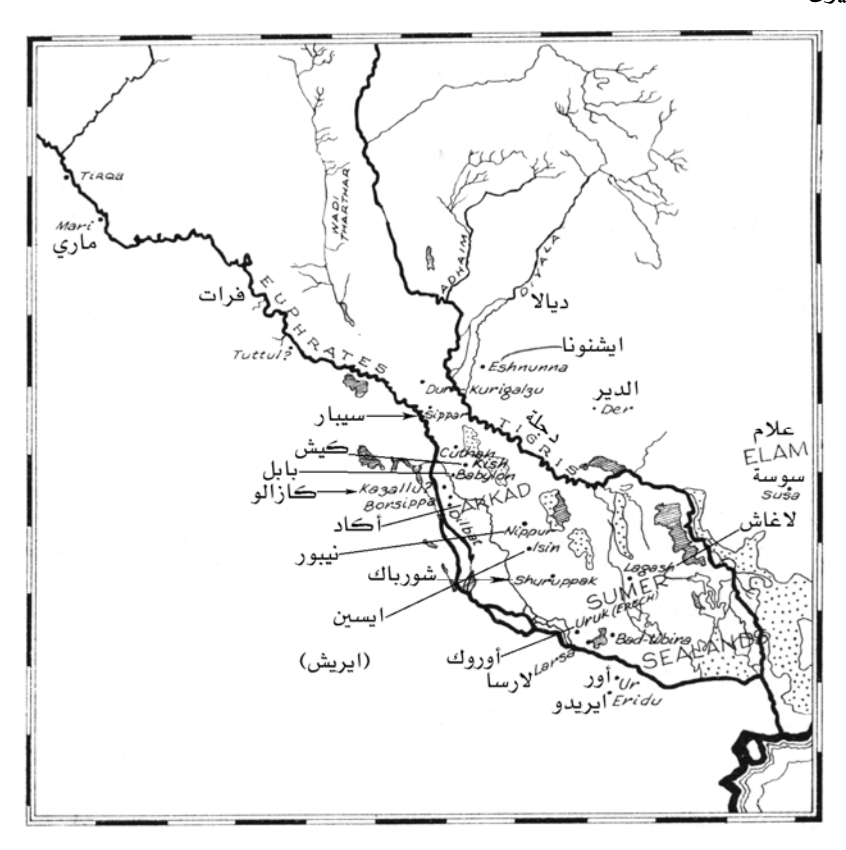
ومع سقوط السلطة المركزية في سومر وأكاد واجهت البلاد أخطاراً وتحديات جديدة ومنها التهديد الدائم من قبل ساكني الجبال الواقعة إلى الشرق. وذلك أنه ولمدة عدة سنوات قبل نهاية عهد ايبي سوين تعرضت البلاد إلى غزوات قام بها بعض شعوب عيلام. هذا وإن صدور صيغتين زمنيتين من ايشبي إيرا في ايسين وهي التي تشير إلى حدوث بعض الانتصارات على تلك الشعوب، إنما يدل ذلك على أن مناطق بابل الوسطى فضلاً عن الجنوبية قد تأثرت. فقد اقترح أن العيلاميين كانوا حلفاء لايبي سوين وقد هاجموا المدن المتمردة ولكن مصير أور لا يجعلنا نصدق هذه الأقوال. ففي السنة الرابعة والعشرين من حكم ايبي سوين قامت جماعة من الشعوب من عيلام بالهجوم على البلاد مما سبب تخريب أور ونقل ونفي ايبي سوين نفسه إلى عيلام. وهكذا فقد انتهت آخر أثار السلالة الثالثة في أور. أما أور نفسها فقد تركت فيها حامية عيلامية لجباية ضرائب من بقايا تلك العاصمة المهدمة ولم تطرد تلك الحامية حتى استطاع الأشبي ايرا Eshbi Erra أخيراً أن يعيد تنظيم مملكته.

الفصل الثاني

بابل وأشور حوالي ٢٠٠٠- ١٣٥٠ق.م

ومع أن سقوط أسرة أور الثالثة قد كانت صفة مميزة لنهاية السومريين باعتبارهم كياناً مستقلاً متميزاً سياسياً، ولكننا سوف نواجه مفهوماً مغالطاً إذا اعتبرنا ذلك نوعاً من الانكسار والانهزام للسومريين. وليس لدينا أية شواهد على وجود حالة خصام مؤكدة أو مدركة ما بين السومريين والساميين في العالم القديم، وإن الحوادث السياسية في ذلك الزمن كانت عبارة عن نتيجة وليس سبباً لتلك التغيرات الاجتماعية والثقافية التي كانت لا تكاد تظهر، إلا أنها كانت تعمل وتتقدم في العمل مدة عقود بل قرون وفي نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني ق. م حدثت هناك حركات قامت بها الشعوب السامية الغربية باتجاه الشرق إلى أواسط منطقة ما بين النهرين وبابل. ولكن كان هناك وخلال حكم الإمبراطورية الثالثة في أور كمية لا بأس بها من الاختراقات السلمية باتجاه بابل وذلك كما تظهره الأسماء السامية الغربية التي وجدت في قوائم هيئة الموظفين في المعابد. ولقد استمرت هذه الحركات مدة حوالي قرنين من الزمن وتركت علامات فارقة على ثقافة المنطقة في مظاهرها السياسية والدينية والاجتماعية. أما المهاجرون المشار إليهم والذين أطلق عليهم المؤلفون المعاصرون اسم الكنعانيين الشرقيين أو الساميين الغربيين أو العموريين الذين استقروا في عدد من المراكز القديمة حيث أسسوا ممالك أظهرت بعض الفروق الهامة عن الدول السومرية ذات المعابد فضلاً عن تلك الوحدات السياسية السومرية المستقلة وهي ما يدعى إمبراطورية السلالة الثالثة في اور. وإن إحدى الفروق الرئيسية كانت في مفاهيم قضية امتلاك الأرض. فحسب النموذج

الأصلي للمجتمع السومري كانت أراضي المدينة تخص الإله المحلي، بينما وحسب المفاهيم السامية كان من الممكن أن يمتلك الأرض العشيرة أو الملك أو المواطنون العاديون.



بابل في الألف الثاني قبل الميلاد

هذا وقبل نهب أور، اتخذ عدد من حكام الدول - المدن منصباً مستقلاً ومن بينهم اينسي Ensi ايشنونا Eshnunna على نهر ديالا وحاكم (الدير) وهي مدينة على مقربة من حدود عيلام وكان حاكم المدينة الذي أحرز أخيراً سيادة مؤقتة والذي أصبحت أسرته وريثة للسلالة الثالثة في أور، كان اسمه ايشبي - أيرا من ايسين والذي ربما دام حكمه من عام ٢٠١٧- ١٩٨٥ق.م. ولكن تاريخ وصول ايشبي ايرا Ishbi-Erra إلى الحكم لا يزال مشوباً بالغموض. فقد استمر بالاعتراف بسلطة ملك أور مدة أطول من المدة التي استمر بها أمراء المدن الآخرون ويبدو أنه لم

يعتبر نفسه حاكماً مستقلاً لإيسين قبل السنة الثانية عشرة من حكم ايبي سوين وخلال السنتين أو السنوات الثلاث التالية استطاع أن يمد سلطته لتشمل نيبور المدينة المؤهلة لسيادة سومر. ولا نعرف إلا القليل عن الحوادث في السنوات التالية مع أن الصيغة الزمنية تشير إلى أعمال من التحصينات وتلمح إلى حصول صدام مع الغزاة العيلاميين وإنشاء علاقات دبلوماسية مع عدد من القبائل من البدو الرحل الذين كانوا مندفعين نحو منطقة ما بين النهرين. وبعد التخريب النهائي لأور اعترف بشرعية سيادة ايشبي - ايرا على المناطق التي تشمل ارابخا Arrapkha (كركوك الحديثة) في الشمال وتلمون Tilmun (البحرين الحديثة) في الجنوب وهذا يؤيد الرأي الذي يقول إن ايشبي ايرا يُعتبر وريث إمبراطورية السلالة الثالثة في أور.

وبعد ثماني سنوات من خراب أور أصبح ايشبي ايرا في وضع مكنه من طرد الحامية التي كانت قد تركت لحراسة خرائبها. وقد عمل فيما بعد على إعادة بناء المدينة وأعاد تمثال إله القمر نانا Nanna وهو الإله الحارس لأور والذي كان الغزاة قد نقلوه إلى أنشان Anshan ولقد عزز هذا العمل ادعاء ايشبي ايرا باعتباره الوريث الشرعي لملوك الأسرة الثالثة في أور.

لقد تلا ايشبي ايرا خطٌ مباشرٌ من الورثة مدة أربعة أجيال من الحكام الذين لم يعرف عنهم إلا القليل. وهناك دلائل على أنه وخلال الجزء الأول من هذه الفترة، ازدهرت مملكة ايسين وتوسعت وأصبحت بعض الدويلات القريبة المستقلة خاضعة لها، ولقد عاد القانون والنظام في المنطقة التي تسيطر عليها ايسين وبدأت الأحوال المواتية لإعادة التجارة الداخلية والخارجية التي كانت قد ازدهرت في الأسرة الثالثة في اور إلى الظهور. ولكن أول مظاهر الانتكاس ظهرت أثناء حكم الوريث الثالث لإيشبي ايرا وهو ايشمي داجان Ishme-Dagan ١٩٥٣- ١٩٣٥ق.م الذي كان مضطّراً للقضاء على بعض الانتفاضات التي اشتملت طبقاً لإحدى الترانيم على التخريب الجزئي لينبور مع أنه احتفظ بالتأكيد بسلطته الملكية على تلك المدينة الهامة بالإضافة إلى أور وايريش واريدو بالإضافة إلى مدينة (الدير) والجزء الأكبر من شمال بابل.

هذا وإن التفاصيل حول هذه الاضطرابات قليلة وغامضة وكانت أمواج البدو لا تزال تلازم الاقتحام وهم مذكورون في التراتيل والترانيم حول خراب نيبور. وتلاحظ أول حوادث التقدم في مملكة آشور ضمن هذه الفترة (حوالي ١٩٠٠ ق.م). وسرعان ما قام أحد أمراء آشور وهو ايلوش أوما Ilushuma والذي كان معاصراً في حكمه لسومو ابوم Sumu-abum في بابل باصطناع غزوة على بابل وربما كانت في موقع إلى الشرق من نهر دجلة واحتل أثناء تلك الغزوة (الدير) وادعى أنه قد حرر أور ونيبور، وإن ذكر تحرير نيبور وأور ربما يعود إلى حادثة طرد الغزاة من البدو الذين لم تستطع ايسين أن تتخلص منهم. (فالدير) كانت هامة بالنسبة لأشور بصفتها المدينة الرئيسية الواقعة على الطريق التجارية ابتداءً من عيلام على الجانب الشرقي لدجلة بينما كانت أور هي المرفأ البحري الوحيد لجميع منطقة ما بين النهرين. ولهذا فإنه من المفهوم أن الآشوريين في الداخل الذين كانوا يعتمدون اعتماداً مباشراً على هذه الأمكنة لأغراض تجارية سوف يهتمون شديد الاهتمام أن تكون هذه الأمكنة تحت أيادٍ أمينة. وكانت دولة - مدينة لارسا هي المستفيدة من ضعف ايسين وكانت لارسا هذه واقعة على الفرات ما بين ايريش (وأور) وقد حاول حكامها فيما بعد خلق مملكة مستقلة في الجنوب. وقد بدأت هذه العملية في هذا الوقت نظراً لأنه وفي إحدى العقود التي عقدت من لاغاش لم يكن باسم ايشمي - داجان حاكم ايسين (وهو السيد الاسمي) بل باسم رجل يقال إنه كان حاكم لارسا.

يشار إلى ايشمي داجان في النصوص الأدبية بأنه الملك الذي وطد شأن القانون في البلاد ولكن هذه الجملة ربما تشير إلى نشر التشاريع، مع أنه وفي الوقت الحاضر فإن مجموعة القوانين الوحيدة المعروفة أنها من مخلفات هذه الأسرة هي مجموعة قوانين خليفته ليبيت - اشتار Lipit-Ishtar الذي وجدت شظايا من قوانينه في نيبور وكيش. ويتكلم ليبيت اشتار نفسه عن تحرير المواطنين في بعض المدن وهذا ربما يشير إلى بعض الاصلاحات الاجتماعية التي تهتم بتحرير العبيد.

ومن وجهة سياسية فإن تقطيع أوصال مملكة ايسين الذي بدأ في حكم ايشمي داجان قد ظهر بشكل واضح في زمن ليبيت اشتار. ولكن لا تعرف تفاصيل الحوادث بالضبط ولكن تبرز (لارسا) كمنافس محدد وتذكر الصيغة الزمنية عدداً من العمليات العسكرية قام بها ملك لارسا المدعو جونجونوم Gungunum (١٩٣٢-١٩٠٦ق.م) ومن أشهر تلك العمليات عملية الاستيلاء على (أور) التي استطاعت لارسا من خلالها السيطرة على التجارة الخارجية من البحرين التي كانت التجارة قد انتقلت إليها. وكان هناك أيضاً أنشطة بدائية كثيرة ومن الممتع أن نلاحظ أن الوحدة الدينية في بابل قد تجاوزت الاختلافات السياسية. إذ لم تكن بنات ليبيت اشتار وايشمي داجان هن رئيسات كاهنات نانا في أور تحت حكم جونجونوم بل أيضاً أن خليفة ليبيت اشتار في ايسين قد قام بتكريس بعض الهدايا في المدينة رغم أنها كانت تحت حكم لارسا سياسياً.

لقد وسع خلفاء جونجونوم سلطتهم بالأساليب العسكرية تجاه شمال بابل وبالتالي ابتلاع عدد من المدن وبصورة خاصة نيبور وايريش التي كانت تابعة لايسين سابقاً. وهناك أمر ذو أهمية أعظم وهو الانتباه الذي وجهه حكام لارسا وأسرتهم نحو نظام الري.

ويعزو جيرتيرود بيل للعراق ذلك القول: إن من يستولي على قنوات الري، يمكنه الاستيلاء على جميع البلاد. والحقيقة أن عدم الاهتمام بقنوات الري هو الذي أدى إلى سقوط إمبراطورية الأسرة الثالثة في أور. نظراً لأنه وابتداءً من الجزء المتأخر من تلك الفترة فإنه بينما كانت تنفذ برامج واسعة لبناء المعابد، فإننا لا نسمع إلا القليل عن أعمال عامة تختص بالقنوات.

كان الخليفة الثاني لجونجونوم وهو سومي - ايلوم Sumi-Ilum معاصراً لبداية الأسرة المشهورة المعروفة بالأسرة البابلية الأولى (١٨٩٤- ١٥٩٥ق.م) وقد كانت بابل مدينة صغيرة وهي تحت حكم الأسرة الثالثة في أور وكان يحكمها أحد الاينسي Ensi ولكن لا يعرف فيما إذا كانت جزءاً من المنطقة التي كان يحكمها ملوك ايسين وليس لدينا في الوقت الحاضر أية معلومات حول مؤسس

الأسرة الأولى وهو سومي - ابوم Sumi-Abum. هذا وإن اسمه وبعض المعلومات عن المملكة التي أسسها يدل على أنه كان من أصل سامي غربي ولكن لا يعرف فيما إذا كان قد عمل في خدمة أية دولة أخرى من دول منطقة ما بين النهرين أو إذا كان قد استولى على بابل مباشرة بعد خروجه من الصحراء. مع أن إحدى الطقوس التي يؤمن بها تقترح وجود بعض العلاقات مع ايسين. ولقد قضى قسماً كبيراً من حكمه الذي دام أربعة عشر عاماً في تقوية بابل وذلك ببناء التحصينات وبإخضاع عدد من المدن الأخرى في المنطقة لحكمه بالوسائل العسكرية أو الوسائل الدبلوماسية خصوصاً مدينة كيش وسيبار Sippar.

ولقد أدى توسع لارسا في الجنوب وبابل في الشمال حتماً في النهاية إلى نشوء النزاع ما بين هاتين القوتين ولكن لا يمكننا اعتبار النزاع ما بين هاتين الدولتين المدينتين مفتاحاً يؤدي إلى معرفة تاريخ منطقة ما بين النهرين خلال القرن التالي. وابتداء من مملكة ماري على الفرات حتى نهر ديالا والحدود العيلامية كان لا يزال هناك عدد من الدول - المدن التي مع أنه قد قدر لها أن تمتصها وتضمها بابل في النهاية أو تحكمها لارسا وأخيراً إنها سوف تتوحد تحت حكم حمورابي ولكن وفي الوقت الحاضر فندعها تتمتع بالاستقلال وإمكانية التوسع والحصول على مكاسب أرضية. ولقد أنتج ضغط القبائل السامية حوالي نهاية فترة الأسرة الثالثة في أور نشوء سلطة الحكام العموريين في كثير من هذه الممالك - المدن.

وبامتلاك المزار الرئيسي في نيبور الذي كان امتلاكه يتراوح سلباً وايجاباً ما بين ايسين ولارسا، لهذا فلا نستطيع أن نقول إن هناك أية دولة يمكن أن تعتبر بحق أنها هي الحاكم الشرعي لبلاد بابل*.

ولقد عانت لارسا نفسها من نكسة خطيرة عندما غزتها جيوش مملكة كازالو Kazallu وموتيابال Mutiabal هو آخر حاكم ينتمي إلى أسرة جونجونوم طُردْ عن العرش ولكن الجيوش الغازية قد هزمت وعادت قوة لارسا بمساعدة

* أن كلمة Babylon تش | مدينة بابل أما Babylonia فتش | مل بلاد بابل.

كودورمابوك Kudurmabuk وهو شيخ ذو اسم عيلامي وقرابات وصداقات عيلامية قوية مع أنه كان منحدراً من أصل عموري. ولقد نصب هذا الشيخ ابنه المدعو واراد سن Warad-sin على العرش وفي أثناء ذلك استمرت ايسين بالتقهقر في أهميتها وأخيراً هزمها ريم ـ سين Rim-sin (١٨٢٢-١٧٦٣) حاكم لارسا وانتهت اسرة ايسين. وكان ريم ـ سين هو أخو وخليفة وارادسين Warad-sin وقد علق ريم سين أهمية عظمى على هذا الحادث الذي جعله الحاكم المطلق للمنطقة الوسطى والجنوبية في بلاد بابل وأصبح الوريث الشرعي لألقاب ملوك الأسرة الثالثة في أور ولقد أرخت الثلاثين سنة الأخيرة من حكمه الذي دام ستين عاماً واشتهرت بهذا الحادث.

لقد حدث تغلب لارسا على ايسين وقهرها في أواخر حكم سن موباليت Sin-Muballit ١٨١٢-١٧٩٣ق.م وهو والد حمورابي. ومع أنه لم يبق سوى بضعة دول مستقلة ومنها ماري وايشنونا Eshnunna ، إلا أن هذا قد اعتبر تطوراً محرجاً نظراً لأن هذا الوضع قد تمخض عن زوال الحاجز أو المصد الواقع بين الدولتين الصاعدتين وهما بابل ولارسا.

وهكذا صعد حمورابي إلى العرش (١٧٩٢-١٧٥٠ق.م) وهو على رأس دولة قوية وقابلة للتوسع وتمتد من حدوده حتى الخليج العربي وعيلام وقد كان نجاحه النهائي يرتكز على سيطرته على جميع منطقة بابل وهذا يعود لمهارته الإدارية والدبلوماسية بالإضافة إلى إنجازاته العسكرية.

لقد حصلنا على صورة من النشاط الدبلوماسي في ذلك الزمن من بعض الوثائق التي وجدت في ماري التي كشف عنها في موقع تل الحريري في شرق سوريا. ويعود الاستيطان في هذه المدينة التي تعتبر إحدى المراحل الهامة من الطرق التجارية من أعالي الفرات ما بين الخليج العربي ومنطقة البحر الأبيض المتوسط. إلى فترة (جمدت نصر) على الأقل. ويبدو أن هذا الموقع الذي كان في ذروة أهميته عند بداية الألف الثاني ق.م وقد تمت الحفريات فيه على أيدي علماء الآثار الفرنسيين ما بين عامي ١٩٣٣- ١٩٣٨م. ولقد أظهرت الحفريات عدة لقيات هامة في هذه الفترة. إذ فضلاً عن

المنحوتات الهامة والرسومات الجدارية والأدوات البرونزية ، فإن الموقع قد خلف لنا معلومات كثيرة بالنسبة للفنون المعمارية في القصور والمعابد التي كانت شاهدة على الازدهار المادي المرموق وإن أهم من جميع تلك اللقيات من ماري كانت مجموعة من عشرين ألف لوح من الكتابة المسمارية التي تتألف بصورة رئيسية من رسائل ووثائق إدارية واقتصادية وهذه الألواح التي لا تزال في طريق النشر تلقي أضواء قوية على الحوادث في الشرق الأدنى في بداية الألف الثاني ق.م. وكانت ماري ذات أهمية خاصة في تلك الفترة نظراً لأنها كانت الأولى التي شعرت بتأثيرات أية موجة من موجات العموريين الضاغطة وكانت الأولى التي أحدثت تأثيرات حضارية على الغزاة.

لقد تأسست أسرة ماري التي وصِفت في المحفوظات المذكورة على يد شخص يدعى ايشتوب ايل Ishtupil في نفس تلك الفترة وكانت جزءاً من تلك الحركة العرقية المتمثلة بالأسر الحاكمة في ايسين ولارسا وأشور وبابل. وباختصار فإن تاريخ ماري الإقليمي يعود إلى تسلسل حكم وراثي يتخلله فترة من الهيمنة الأجنبية الخارجية وذلك عندما وضع شمسي حدد ملك أشور أحد أولاده نائباً للملك في مدينة ماري ولكن استطاعت الأسرة الوطنية أخيراً استعادة سيطرة ماري ولكن قضى عليها حمورابي بعد الاستيلاء عليها نهائياً في السنة الخامسة والثلاثين من حكمه وتمتلئ محفوظات هذه الفترة بما تذكره عن الأحكام الإدارية والدسائس السياسية والأعمال الرسمية في تلك الفترة . ونقرأ غالباً عن تبادل السفراء بينما تشير المراسلات فيما بين الحكام العموريين والتي وصلت في رسائل ماري، إلى الحركات العسكرية التي تعد بالألوف أكثر منها بالمئات وتشير قوائم الإعاشة المخصصة للضباط والجنود إلى تقديرات إعداد الجنود في ماري التي كانت تقدر بعشرة آلاف كان أربعة آلاف منهم موجودين كحاميات في العاصمة وكانت واجبات هؤلاء الجنود تنحصر في حماية السكان ضد الغزاة من البدو. ويكتب ياسماع - حدد Yasmah-adad حاكم ماري إلى ايشمي داجان Ishmi Dagan أخيه ورئيسه ويقول إن من الألف جندي هناك خمسمائة قد وضعوا لحراسة المدينة والنصف الآخر لحراسة المواشي ولقد كان هناك تعاون اقتصادي وسياسي ما بين الحكام

العموريين إذ عندما أجدبت المراعي في أراضيه طلب نائب ملك ماري من نائب ملك قطنه Qatna أن يسمح بأن ترعى قطعانه في مراعي قطنة وقد وافق نائب ملك قطنة على ذلك الطلب وهناك وثيقة أخرى من ماري تثبت هذه الأوضاع:

(ليس هناك من ملك يمكن أن تعتبره الأقوى. فهناك حوالي عشرة أو خمسة عشر ملكاً يتبعون حمورابي ملك بابل وهناك نفس العدد من الملوك يتبعون ريم سن ملك لارسا وهناك نفس العدد ممن يتبعون ايبال - بي - ايل ملك ايشنونا وكذلك نفس العدد يتبعون أموت بي - ايل ملك كاتانوم وهناك عشرون ملكاً يتبعون ياريم - ليم ملك يامهاد).

إن تاريخ هذه الرسالة من الواضح أنه أبكر من السنة الثلاثين من حكم حمورابي تلك السنة التي أحرز فيها حمورابي انتصاراً على ريم سن وينبغي أن تكون ما بعد السنة العاشرة لحكمه نظراً لأنه وقبل ذلك الزمن كان من الواجب ذكر شمسي حدد ملك آشور في القائمة. فقد كان شمسي حدد واحداً من أعظم ملوك آشور ومن أصل عموري وقد جعل آشور مؤقتاً إحدى أعظم الدول في منطقة ما بين النهرين. وبالتأكيد فقد عاش بعد السنة العاشرة لحكم حمورابي نظراً لأن هناك وثيقة مؤرخة في تلك السنة وهي تقول إنه قد حدث اتفاق يعترف بالتقسيم ما بين شمسي حدد وحمورابي.

يرجع التاريخ المستمر جغرافياً لتلك المنطقة (وليس سياسياً) في آشور في تلك الفترة القديمة المعروفة باسم شوبارتو Subartu على الأقل إلى فترة ثقافة حلف ولقد استبدلت هذه الثقافة بشكل ثقافي يدعى ثقافة عبيد قادم من المنطقة الجنوبية. وأخيراً فقد وصلت الحضارة السومرية إلى أشور ربما بعد عدة قرون من نهوضها لأول مرة في جنوب بلاد بابل ولقد كشفت الحفريات عن وجود معبد يعود إلى فترة الأسرة المبكرة في آشور وتقدم لنا قائمة ملوك أشور، التي وجدت في خورساباد القصص المختصة بالحكام الآشوريين وطبقاً لهذه القائمة فإن أول سبعة عشر ملكاً في فترة ما قبل حكم سرجون (أي قبل ٢٣٧٠ق.م) كانوا رؤساء عشائر بدو رحل نظراً لأنهم قد وصفوا بأنهم كانوا يعيشون في الخيام.

وبالتالي فقد شكلت أرض أشور جزءاً من إمبراطورية سرجون ملك أجادو وبعدها جزءاً من أملاك الأسرة الثالثة في اور. ولكن سقوط تلك الإمبراطورية قد وفر لآشور إمكانية الاستقلال. فلقد توفرت لدينا معلومات واسعة تختص بالتجارة الآشورية مع منطقة أسيا الصغرى وذلك بفضل وجود حوالي ثلاثة آلاف من النصوص التي وجدت خلال نصف القرن الماضي على يد بعض العاملين في الحفريات في كالتيب Kultep في وسط آسيا الصغرى وتمثل كالتيب هذه موقع كانيش Kanesh القديم وهنا كانت توجد مستعمرة من التجار الآشوريين (١٩٥٠ – ١٨٠٠ ق.م)ولقد قدمت شواهد مؤخراً تقترح أن المنطقة كانت فعلاً تحت سيطرة آشور العسكرية ولكن الشواهد قليلة جداً وهناك بعض الصعوبات للافتراض بوجود إمبراطورية آشورية في ذلك الزمن ممتدة إلى مسافات أوسع منها في أية فترة في التاريخ. ولكن من الأمور الأكثر احتمالاً أن المستعمرة التجارية التي كانت تمتلك مؤسساتها البلدية ونظامها القانوني لم تكن سوى مقاطعة محاطة ببلاد أجنبية وكانت تحت حماية أحد الملوك الوطنيين.

وقد كانت هناك بعض المستعمرات التجارية الأجنبية التي تتمتع بالحماية ووجود بعض الامتيازات هذه المستعمرات كانت شائعة في العالم القديم في الألف الثاني والأول قبل الميلاد.

لقد كانت التجارة ما بين كانيش وأشور (يشار إليها في الوثائق باسم المدينة) تجري عن طريق قوافل الحمير تضم كل قافلة حوالي مئتي حيوان. وهناك تفاصيل عن هذه التجارة سوف نذكرها فيما بعد. أما التجارة ما بين بلاد الأناضول ومنطقة ما بين النهرين فإنها تعود إلى ما قبل الفترة التي تذكرها الوثائق، وهذا ما تذكره قصة متأخرة تذكر كيف أن سرجون ملك أغاد وقد قاد حملة عسكرية لمساعدة إحدى المستعمرات التجارية التي كانت تشكو من اعتداءات عليها في آسيا الصغرى.

لقد عملت الثروات المتحصلة من مثل هذه التجارة على وضع آشور في مركز قوي أثناء فترة الانقسامات التي تلت انهيار إمبراطورية الأسرة الثالثة في أور. فقد

كان ايلوشوما Ilushuma وهو أقدم حاكم أشوري معروف يمتلك القوة الكافية بحيث قام بغزوة ناجحة على بلاد بابل إلى الشرق من نهر دجلة حين استولى على (الدير) وهي مدينة واقعة على الحدود العيلامية وموقعها على النهاية الغربية لإحدى الطرق التجارية عبر بلاد فارسولقد اندفع ايلوشوما عبر دجلة بحجة إرساء العدالة والحرية في أور ونيبور ويبدو أن هذه الحملة كانت موجهة لحماية أحد الموانئ الحيوية في الجنوب وهو مرفأ أور ضد موجه جديدة من الغزاة من البدو الرحل. ولقد خلف ايلوشوما ولده ايري شوم Irishum الأول وحفيده سرجون الأول ملك أشور وقد تمتع كلاهما بهيبة مرموقة ولكن ازدهار أشور وقوتها لم تدم طويلاً بعد هذين الحاكمين نظراً لأن الظروف التي خدمتهما قد انتهت فقد كانت القبائل الهندوأوروبية قد بدأت بالتقدم إلى ما وراء القفقاس في اوروبا الشرقية وفي حوالي ذلك الوقت بدأ الحثيون بالاندفاع إلى الأناضول من الشمال الشرقي وكنتيجة لهذه الحركات العرقية فقد وقع النظام والمؤسسات السياسية في آسيا الصغرى في حالة من الفوضى وانتهت تلك العلاقات التجارية الآشورية مع كانيش، ودخلت أشور في فترة من الانحطاط. وتذكر قائمة الملوك الآشوريين اسم الملك نارام سين وربما كان هذا هو حاكم دولة ايشنونا على نهر ديالا. وربما دل هذا على حكم ايشنونا لآشور ولكن ليس هناك ذكر لهذا الحادث في وثائق ايشنونا. مع أن تلك الوثائق تشير أن ايشنونا كانت في أوائل الألف الثاني ق.م دولة مزدهرة ومتوسعة ومع ذلك فقد كانت أشور في ذلك الزمن تابعة لإيشنونا ولكن لفترة وجيزة، إذ وقعت تلك الدولة تحت حكم شيخ من شيوخ العموريين وهو شمسي حدد النشيط والمقتدر (١٨١٤-١٧٨٢ق.م) وكما هو الحال بالنسبة لمعظم مؤسسي الأسر العمورية فإننا لا نعرف إلا القليل عن أجداده. فقد كان والده رجلاً يدعى إيلا كاب كابو وهو حاكم دولة صغيرة في منطقة ما بين النهرين وقد تحالف أولاً مع ياغيد - ليم Yaggid-Lim وهو أحد ملوك ماري العموريين ولكنه اشترك بعد ذلك في خصومات مع هذا الملك وبعد أن أمن شمسي حدد موقعه على العرش في آشور حدثت ثورة في القصر في ماري قتل فيها ياهدون - ليم Yahdun-Lim وهو ابن ياغيد - ليم. وليس هناك من إثبات أن

الثورة قد دبرها شمسي حدد ولكن لما كان هو المستفيد الرئيسي منها فإنه أصبح معرضاً للشك بشكل قوي. أما ولي العهد وهو زمري ـ ليم Zimri-Lim فقد هرب والتجأ إلى مملكة يامهاد Yamhad في منطقة حلب وهكذا فقد بسط شمسي حدد سلطته على دولة ماري الغنية والقوية ونصب ابنه الأصغر وهو ياسما حدد Yasmah-Adadكنائب للملك. أما ابنه الأكبر وخليفته على عرش أشور فقد أصبح نائب الملك في دولة تدعى ايكالاتيم Ekallatim. ويبدو أن ياسما حدد كان موالياً ومطيعاً لوالده ولأخيه الأكبر ولكنه لم يمتلك أية صفة من صفات المقدرة الإدارية.

وهناك بعض مراسلات ياسما - حدد ويبدو أنه كان يطلب المساعدة من أخيه الأكبر والأكثر قدرة منه في أوقات الأزمات. ففي إحدى الرسائل نجد أن والده قد وبخه بشكل عنيف لمعاملته غير اللائقة لبعض الأشخاص من الدم الملكي. وفي رسالة أخرى يكتب ياسما حدد إلى والده وينقل كلماته اللاذعة التي يقول فيها إنك لست رجلاً وليس في وجهك لحية وكم من الزمن يلزمك لكي تصبح قادراً على حكم ولايتك؟ وينتقد الوالد ابنه في أمكنة أخرى لكونه يلح في طلب النصيحة حول التصرف في الشؤون الموكلة إليه ويعتبر الوالد أن ابنه الأكبر اشمي داغان Ishme-Dagan هو المثال الذي ينبغي أن يكون عليه نائب الملك في سلوكه. وفي مناسبة أخرى تجرأ ياسما حدد على الطلب من والده إضافة مدينة شوبات شاماش Shubat-Shamash إلى حكمه. ولقد انزعج شمسي حدد الأب من وقاحة ابنه، خصوصاً عندما علق الابن الأكبر على طلب الابن الأصغر وتدخل لكي يسوي بلطف غضب والده بقوله: إن أخي لم يضع مملكة ماري وتوتول في مركز مقبول بعد والآن ها هو يطالب بضم شوبات شاماش إلى ملكه.

لم يدم حكم ياسما - حدد طويلاً في ماري خصوصاً بعد موت والده في السنة العاشرة لحكم حمورابي فقد ظهر زمري ـ ليم وهو الوريث الشرعي لأسرة ماري الملكية وخرج من مكان لجوئه في الغرب وبمساعدة ثلاث دول قوية وهي يامهاد وايشنونا وبابل استطاع طرد ياسما - حدد بعد حكم دام سبعة عشر عاماً. وأن

الأسباب التي أدت بحمورابي ملك بابل وملك ايشنونا لنقل دعمهم من أشور إلى أسرة ماري وإن لم تكن واضحة وكما هو الحال في عدة فترات أخرى في التاريخ حيث توجد بؤر من التوتر في منطقة تحتوي على عدة دول وليس لإحداها أية ميزة تفضلها عن الأخرى عندها تتواجد التكتلات بين الدول العمورية وتتغلب الولاءات الشخصية والعداوات أيضاً في مثل تلك الحالات.

ونتيجة لذلك نجد أن ايشنونا قد تركت اتحاد يامهاد، ماري، وبابل وقامت بإثارة الحروب ضدهم بالاتحاد مع جارها الشرقي وهو عيلام ودولة انداريك الشمالية.

وفي زمن السنة التاسعة والعشرين من حكم حمورابي قام زمري - ليم بعد أن عرف أن بابل قد أصبحت خطراً على استقلاله والتحق ضد القوى التي كانت تساند حليفه السابق حمورابي وقام ضد حمورابي في ائتلاف ترأسته عيلام وايشنونا ولكن استطاع حمورابي أن يهزم هذا الائتلاف ونصب نفسه السيد الوحيد والقوة العظمى الوحيدة في المنطقة بشكل حاسم. ونظراً لأن ريم ـ سن Rim-Sin حاكم لارسا قد سيطر فعلاً على جميع منطقة جنوبي بابل لذلك فقد تواجهت دولتان قويتان وأصبحتا وجهاً لوجه.

ففي السنة التالية هزم حمورابي (ريم - سن) وبذلك أصبح حمورابي الحاكم المطلق في جميع منطقة بابل (١٧٦٣ق.م) ولكن كان لا يزال هناك بعض الدول - المدن البعيدة والمستقلة وقد هزمها حمورابي في السنوات الثلاث التالية وكان هدفه الرئيسي التالي هو الاستيلاء على مملكة ماري. ولقد أصبح زمري ـ ليم تابعاً لحمورابي ولكن بعد سنة اندلعت ثورة واضطر حمورابي أن يهدم أسوار مملكة ماري وأن يطرد زمري ـ ليم.

إن أنشطة حمورابي السياسية والعسكرية قد حولت تلك الدولة - المدينة إلى مركز إمبراطوري ولقد تماشت منجزات حمورابي الإدارية مع نجاحاته العسكرية وتعرف هذه المنجزات من تلك المجموعة من القوانين التي أنشأها ونشرها ومن تلك

المراسلات التي جرت بينه وبين موظفيه. وتقدم لنا مقدمة هذه القوانين بعض الإشارات حول سياسة حمورابي عندما يصف موقف الإلهة بالنسبة إليه (وسوف نتحدث بالتفصيل عن هذه القوانين فيما بعد).

(لقد ظهر حمورابي في هذه البلاد وهو الأمير المحترم الذي يخشى من الإلهة وقد قصد أن ينشر العدالة ويقضي على الشرور والأشرار حتى لا يقدم القوي على ظلم الضعيف وأن يشرق كالإله الشمس فوق أولئك الذين يملكون الرؤوس السوداء (من البشر) ولكي يعم النور في البلاد).

ويذكر كيف أنه بناء على أوامر الإله مردوخ قد:

نشر الصدق والعدالة خلال البلاد فازدهر الشعب.

ويقوم حمورابي بوصف أعماله الرائعة بالتفصيل ويذكر كيف أنه كان يحترم المزارات العائدة للآلهة العظمى في المدن الرئيسية في البلاد وهي نيبور وايريدو وبابل وأور وسيبار ولارسا وايريش وايسين وكوثاه Cuthah وبورسيبا Borsippa ودلبات Dilbat ولاغاسن وماري وأغادي وأشور ونينوى وغيرها. هذا وإننا نجد بعض التبرير لتفاخره من تفاصيل مراسلاته. فلم يعتبر أن أية تفصيلات تعتبر تافهة ولم يعتبر أن أي موظف هام جداً فلا يطاله القانون، لذلك فقد كان حمورابي يقوم بإصدار قرارات واضحة وأوامر تخدم مصلحة بلاده وتتناول استمرار الجودة في حكومته وقد حدث أن كلف أحد الموظفين بتنظيف إحدى القنوات قرب ايريش وقد تأخر في تنفيذ المهمة فأمر حمورابي أن يتم هذا العمل خلال ثلاثة أيام وأن يتم إخباره بذلك. وقد هم بالنظر في الاتهامات باختلاس الأراضي وإرساء العدالة وعندما كانت تصل إلى أسماعه شكوى بوجود الرشوة، كان يرسل رسالة يأمر فيها بإجراء التحقيق في القضية وإذا أكدت المسألة كانت تحدث مصادرات للقائمين بالرشوة ويرسل الشهود والمسؤولون إلى حمورابي. هذا وإن هذا الملك هو الذي أمر بزيادة شهر لكي يتوافق التقويم في السنة القمرية مع الاعتدال الربيعي والخريفي. وقد اتبع سياسة حكيمة في حفر القنوات وذلك لتأمين الازدهار لبلاده من وجهة زراعية. هذا ولسوف

نعالج تفاصيل التنظيمات الإدارية والاجتماعية في مملكة حمورابي فيما بعد في هذا الكتاب.

ولقد وحد حمورابي عدة دول - مدن في سومر وأكاد وقد قدم للبلاد بأجمعها لغة واحدة تختص بالإدارة والعمل. (فلقد استمرت اللغة السومرية بالاستعمال طيلة مدة وجود بابل) وقد وحد الأنظمة القضائية أيضاً. ويضيف البعض أن حمورابي قد أقام في بابل مجتمعاً إلهياً واحداً على رأسه مردوخ إله مدينة بابل ولكن ظهر رأي مخالف يقول إن مردوخ لم يصبح إلهاً وطنياً لجميع منطقة بابل إلا بعد زمن حمورابي.

لقد ظل النموذج الاجتماعي الذي فرضه حمورابي في بابل واستمر حتى نهاية التاريخ البابلي ولكن منجزاته العسكرية لم تدم بعد حمورابي نفسه. فلقد سببت الحركات العرقية الناتجة عن تحرك القبائل الهندو-أوروبية إلى ما وراء القفقاس وقد بدأ الجميع يشعرون بنتائج هذه التحركات. إذ إنه وفي أوائل حكم ابن حمورابي وهو سامسو ـ ايلونا Samsu-Iluna (١٧٤٩-١٧١٢ق.م) قام جيش كاشي بغزوة ابتدأت من حدود عيلام ومع أن هذه الغزوة قد هزمت ووجهت عن طريق البابلين إلا أنها نجحت أخيراً في الاستيلاء على أور وايريش. ولقد أسس هؤلاء الكاستيون لاحقاً أسرة مالكة حكمت بلاد بابل عدة قرون وقد أتى هؤلاء من جبال زاغروس، ومع أن لغتهم لا تنتمي إلى أية مجموعة معروفة، إلا أن بعض معالم مجمع آلهتهم تدل على أنهم كانوا متصلين ثقافياً مع الشعوب الهندو-أوروبية. وتدل هذه الحقيقة أن هجماتهم في هذا الوقت كانت ناتجة عن ضغوط مورست عليهم من قبل بعض الهندو- أوروبيين في الشمال وتظهر الأسماء الشخصية الواردة في وثائق العمل في القرن التالي إن تسرب الكاشيين بشكل هادئ مسالم إلى بابل قد استمر.

لقد حدث تمرد خلال السنة الثامنة والعشرين من حكم سامسو- إيلونا وذلك في جنوب بابل في أماكن المستنقعات لم يستطع إخماده وهكذا ظهرت ما تدعى أسرة الأراضي البحرية التي استمرت في حكم منطقة تتألف من منطقة سومر تقريباً مدة تزيد عن مئتي عام. أما التاريخ السياسي لخلفاء سامسو ـ ايلونا وهم ابي – ايشوAbi-Eshuh، (١٧١١- ١٦٨٤ق.م) وآمي - ديتانا Ammi-Ditana (١٦٨٣-

١٦٤٧ق.م) وآمـي - صـادوقا Ammi-Saduqa ١٦٤٦-١٦٢٦ق.م فلـم يكـن هـذا التاريخ سوى حملات على مقياس ضيق وأعمال لإنشاء أسوار دفاعية تدل على الحذر من نشوء هجوم مفاجئ.

تمثل نهاية الأسرة البابلية الأولى إحدى المعالم الهامة في التاريخ القديم وتقدم بشكل مأساوي بعض الشعوب التي لعبت أدواراً بارزة في تاريخ القرون التالية وفجأة وفي عام ١٥٩٥ق.م وهي السنة الثلاثين لحكم سامسو ديتانا Samsu-Ditana (١٦٢٥-١٥٩٥ق.م) وهو الملك الأخير في هذه الأسرة، ونرى أن مورسيليس الأول Mursilis وهو الحاكم الأول في الإمبراطورية الحثية قد اقتحم المنطقة وتوجه إلى سوريا بعد أن خرج من آسيا الصغرى (حيث استولى على حلب) ونهب ماري في طريقه. ولقد وصل هذا الغازي إلى بابل فنهبها وأحرقها وبعدها عاد إلى عاصمته فجأة كما كان أول ظهوره ولكنه كان متأخراً فلم يستطع القضاء على مؤامرات حدثت في البلاد الأمر الذي أدى إلى قتله والقضاء عليه. ولكن رحلته خلال بابل كانت طويلة وكافية لتمزيق وإيقاع الفوضى في نظام الحكم والإدارة هناك وهكذا فقد سقطت بابل فريسة سهلة أمام قطيع من الكاشيين الذين اندفعوا واكتسحوا المنطقة بعد انسحاب الحثيين، ونزلوا من الجبال في الشمال الشرقي.

وغني عن الذكر وصول الحثيين إلى آسيا الصغرى. فقد كان السكان الأوائل في آسيا الصغرى يعرفون الآن باسم الحاتيين ومن الاسم (حاتي) الذي أطلق على بلادهم وقد كان هؤلاء يتكلمون لهجات ليست هندو-أوروبية ولكن المتكلمين باللغة الهندو-أوروبية قد بدؤوا بالوصول إلى المنطقة في القرن الأول للألف الثاني ق.م. وتأتي الشواهد على ذلك من الوثائق حول المستعمرة الآشورية التجارية في كانيش حيث تشمل الأسماء الشخصية للأشخاص غير الآشوريين، كلمات ربما تفسر بأنها أسماء هندو-أوروبية. وقبل مجيء الحثيين الهندو-أوروبيين كانت البلاد مؤلفة من عشر من الممالك الصغيرة أو ما يقارب ذلك كانت مملكة (بوروش خاندة Burush-Khanda) هي ذات المرتبة الأولى ولكن لم تبق أية سجلات من الفترة

الحثية المعاصرة مع أنه وجدت سجلات متأخرة ربما اشتملت على تقاليد حثية حقيقية.

وبعد فترة الفوضى الناتجة عن تدخلات الغزاة الهندو-أوروبيين في منطقة هاليس Halys قام أحد أمرائهم ويدعى لابارناس Labarnas (بعد عام ١٧٠٠ق.م) بإنشاء مملكة لنفسه وقد وسع هذه المملكة عن طريق النجاحات العسكرية حتى وصل إلى البحر الذي اتخذه أحد حدود مملكته. ولقد عين بعض الأمراء من العائلة المالكة كحكام للمدن الرئيسية. وكانت عاصمة لابارناس مدينة تدعى (كوسارا) Kussara ولم يتم تحديد موقعها بعد ولكن ابنه نقل عاصمته إلى حاتوساس Hattusas وهي معقل من المعاقل في هاليس Halys وقد بدل اسمه باسم حاتوسيليس Hattusilis. ولدينا كمية من المعلومات بالنسبة للمنظمات الاجتماعية والبلاد في زمن حاتوسيليس الأول حوالي عام ١٦٥٠ق.م وذلك من تسجيل خطاب ألقاه ذلك الملك بمناسبة تبنيه وريثاً له وهو مورسيليس الأول. وهذا يدل أن مملكة الحثيين كانت في هذا الزمن مقيدة بطبقة منغلقة نبيلة حكمت شعباً مختلف الأعراق وكانت هذه الطبقة لوحدها مهتمة بالأنشطة العسكرية والإدارة المركزية للدولة. فقد كان الرجل العادي حراً ولكنه معرض للعمل بالسخرة وذلك لمصلحة الدولة.

ولقد توسعت مملكة الحثيين إلى الجنوب والشرق تحت حكم حاتوسيليس الأول وامتدت إلى مناطق في جبال طوروس حتى السهول الخصبة في شمال سوريا. وكانت (يامهاد) الدولة القوية المتمركزة في حلب قد ألجأت زمري - ليم ملك ماري عندما هرب من قبضة شمسي حدد وأصبح من حلفاء حمورابي في بابل ولكن هذا الملك اضطر أن يصبح تابعاً بشكل مؤقت لحاتوسيليس ولكنه استعاد استقلاله. أما مورسيليس الأول وهو وريث حاتوسيليس بالتبني فقد كرر مغامرات سلفه في سوريا، فقد عمل أخيراً على تدمير مدينة حلب. وبعد ذلك قام بتلك الغارة الشهيرة إلى أسفل نهر الفرات والتي انتهت بتخريب بابل والقضاء على أسرتها الأولى الملكية. ومع ذلك ورغم تلك المنجزات العسكرية المرموقة التي استطاعت الطبقة الحثية الحاكمة المنغلقة القيام بها. إلا أن منظمتها الاجتماعية كانت مفتقرة إلى

الاستقرار. ولقد عاد مورسيليس المنتصر بعد أن كان ولي العهد السابق قد قام بتمرد غير ناجح، لقد عاد هذا المنتصر حاملاً ما اكتسبه من النهب والسلب الذي أحرزه في بابل ولكنه تعرض لمؤامرة انتهت بقتله على يد صهره هانتيليس Hantilis .

لقد ترك تخريب الحثيين لبابل تلك البلاد مفتوحة ومعرضة لهجوم تلك القطعان من الكاشيين Cassites وكانوا عبارة عن مجموعة عرقية أتت من جبال زاغروس. ولقد وجد بعض الكاشيين بصفة أفراد في بابل أثناء القسم الأقدم من السلالة الأولى ولقد ذكرنا أن خليفة حمورابي قد اصطدم مع القوات العسكرية الكاشية إلى الشرق من الفرات. وابتداء من هذا الزمن فصاعداً بدأ الكاشيون بالاستقرار في شمال شرق بابل تحت حكم ملوكهم ولقد عمد أحدهم وهو (اغوم) الثاني AgumΠ إلى الاستقرار في بابل وحكمها كملك بعد أن تعرضت بابل للنهب على يد مورسيليس ولقد حاول هذا الملك أن يوسع سلطته حتى منتصف نهر الفرات إلى حدود مملكة حانا Hana وقد ادعى تملكه لغوتيوم Gutium الواقعة فوق التلال شرقي آشور.

وهكذا فقد انتهت منجزات حمورابي السياسية بعد نهب الحثيين لبابل وبعد غزو الكاشيين لها. ولكن الثقافة البابلية استمرت في ممارسة نفوذ واسع خلال الشرق الأدنى والأوسط ولم يتبنَّ الملوك الكاشيون لغة بابل وحروفها المسمارية فحسب، بل أصبحت اللهجات الأكادية ذائعة الاستعمال لأغراض رسمية خارج بابل وأشور. ولقد حدث اكتشاف في نهاية القرن الماضي على يد امرأة فلاحة في تل العمارنة في مصر وقد كشف عن بعض المراسلات الدبلوماسية التي حدثت حوالي عام ١٤٠٠ق.م ما بين ملوك مصر من جهة وأمراء مدن مختلفة في سوريا وفلسطين من جهة أخرى وكانت لغة هذه المراسلات أكادية مع مزج بعض الفقرات من اللغة الوطنية لكاتب المراسلات وهكذا اصبح من الواضح أن الأكادية كانت اللغة المعترف بها في المراسلات بين الأمم. وحتى وفي أوغاريت في سوريا ، حيث استعملت لغة سامية متميزة وحيث وجد نظام هجائي من الكتابة المسمارية قد اخترع في

أوغاريت (وقد استعملت هذه الحروف في الأدب الكنعاني) فقد استعملت اللغة الأكادية إلى حد بعيد في النصوص القضائية.

وفي نفس الوقت الذي سقطت فيه بابل تحت حكم الكاشيين وقعت آشور وقسم كبير من منطقة الشرق الأدنى إلى الجنوب من المناطق الحثية وقعت هذه المناطق تحت نفوذ مجموعة عرقية وثقافية أخرى وهم الحوريون Hurrians. ولقد تكلم هؤلاء الحوريون لغة ليست بذات صلات معروفة ما عدا صلتها باللغة المتأخرة الآوراراتية* Urartian. يظهر أنهم قد وصلوا إلى الجبال الواقعة في شمال آشور من منطقة القفقاس في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م وذلك قبل فترة (اغادي). ويظهر نقشان من فترة اغادي أحدهما باللغة الأكادية والآخر بالحورية، أنه كان هناك مملكة حورية مركزها في مدينة اوركيش Urkish في منطقة نهر الخابور إلى الغرب من آشور وتعتبر هذه المملكة الحورية المنعزلة حالة خاصة نظراً لأن الوثائق التي وجدت في مدن أخرى مثل مدينة نوزي Nuzi وارابخا Arrapkha وتل براك Tell Brak تلك المدن التي كانت لاحقاً مراكز مرموقة للنفوذ الحوري، إنما تظهر في هذه الفترة المبكرة آثاراً بسيطة من العناصر الحورية في الأسماء الشخصية. ولقد كانت الهجرة إلى الجنوب جارية على قدم وساق خلال الأسرة الثالثة في أور وتظهر الوثائق في تلك الفترة نفوذاً حورياً شديداً في الأسماء الشخصية التي وجدت في الوثائق التي وجدت في دلبات Delbat وهذه ليست بعيدة عن بابل وهي تظهر وجود مستعمرة هناك. وفي بداية الألف الثاني تقدم الأسماء الشخصية شهادة على وجود الحوريين في منطقة واسعة ويمكن اقتفاء آثارهم في وثائق المستعمرة الآشورية في كابا دوكيا Cappadocia وتوجد أيضاً في نوزي Nuzi وارابخا في منطقة كركوك شرق آشور وفي مدن قطنا السورية وآلالاه Alalah وأوغاريت. ولقد وجد في ماري عدد من النصوص الطقوسية باللغة الحورية.

لقد واجه مورسيليس Mursilis الأول عند اجتياحه بابل بعض الأمراء الحوريين الأعداء في منطقة الفرات العليا. ولقد كان هؤلاء بعيدين عن المنطقة الرئيسية للقوة

* آرارات: جبل يقع أرمينيا وتركيا.

الحورية التي كانت في منتصف الألف الثاني ق.م هي منطقة نهر الخابور. وبعد اغتيال مورسيليس نشأت الخلافات الأسرية التي ساهمت في إضعاف دولة الحثيين لعدة أجيال وفي هذا الزمن ظهرت دولة ميتاني Mitanni الهامة التي كان يشكل نواتها هؤلاء الحوريون.

ولقد امتدت هذه الدولة في أقصى مدى قوتها من بحيرة فان إلى منتصف نهر الفرات ومن حبال زاغروس إلى الساحل السوري.

ولقد حمل ملوك ميتاني أسماء هندوأوروبية وليس أسماء حورية بينما كان يعبد هؤلاء الآلهة الهندية القديمة مثل مترا Mitra وفارونا Varuna واندرا Indra والناساتياس Nasatias إذ أنه وفي الوثائق الحورية وخصوصاً المختصة بالخيول والشؤون الحربية توجد بعض الاصطلاحات التقنية التي لها أشكال قريبة في اللغة الهندو-آرية وأنه من المهم أن نعرف أنه وبعكس الشعوب القديمة في الشرق القديم الذين كانت عادة إحراق الجثث نادرة لديهم وكانت تعتبر أحياناً من الفظائع التي تفوق الموت نفسه، إلا أنه وبالنسبة للملوك الميتانيين كانت عادة إحراق الجثث هي الأسلوب المناسب للتخلص من أجسام الملوك الميتانيين القدماء ويشير كل هذا إلى وجود طائفة منغلقة آرية حربية تحكم سكاناً غير آريين وهناك بعض الشواهد من نفس النوع مع أنها أقل تفاوتاً وهي تشير إلى وجود عناصر هندوآرية في الطائفة الكاشية الحاكمة أيضاً.

تأتي معارفنا بصورة عامة حول دولة ميتاني من المحفوظات الدبلوماسية المصرية (وذلك على ألواح مسمارية) والتي وجدت في تل العمارنة في مصر، مع أن هذه تبدأ بعد عام ١٤٥٠ ق.م فحسب، ومن الواضح أنه وفي ذلك الزمن كان الحكام الميتانيون يمثلون سلالة معروفة، فهناك عدد من الأمراء الحوريين الذين يحملون أسماء آرية هم مذكورون في بعض النصوص التي تحتوي على قضايا خرافية وربما كان هؤلاء يمثلون الملوك الأوائل في أسرة ميتاني. وإن أول ملك من ملوك ميتاني نعرف عنه معرفة حقيقية هو باراتارنا Parattarna الذي ظهر تماماً بعد عام ١٥٠٠ ق.م كحاكم مملكة قوية تسيطر على دول تابعة لها في سوريا وفي مركز يضاهي

مركـز مـصر ومركـز حـاتي Hati وأمـا الحـاكم الميتـاني التـالي فكـان اسمـه ساوسـاتار Saussatar وهـو أحـد معاصـري الفرعـون تحـوتمس الثالـث في مـصر (١٤٩٠- ١٤٣٦ق.م) حيث حدثت بينهما علاقات دبلوماسية رغم أن تحوتمس وفي أثناء حملاته الكثيرة على سوريا قد وقع في حالات من الخصومة مع عدد من الحكام الحوريين الذين كانوا يدورون في فلك ونفوذ الميتانيين في الجنوب الغربي. ولقد قام خليفة ساو ساتار بتزويج ابنته للفرعون تحوتمس الرابع (١٤١٣-١٤٠٥ق.م) وبذلك فقد أنشأ علاقات مع مصر اشتملت على تحالف بين الدولتين، ولقد نشأت علاقات مشابهة من خلفاء الملكين وهما امينوفيس الثالث (١٤٠٥-١٣٦٧ق.م) وشاتورنا الثاني (كانت نهاية حكمه حوالي عام ١٣٩٠ق.م وتحت حكم هذين الملكين كانت ميتاني لا تزال تسيطر على آشور وقد استطاع أرتاتاما أن يستعين بإحدى الآلهة الأشورية وهي عشتار إلهة نينوى لزيادة نفوذه لدى البلاط المصري. ولقد عثر على رسالة إلى امينوفيس الثالث من حفيدارتاتاما وهو توشراتا يعلن فيها أن عشتار إلهة نينوى قد عبرت عن رغبتها في زيارة البلاط المصري مرة ثانية، وهذا يشير إلى زيارة سابقة لذلك التمثال في زمن أحد أسلاف توشراتا. ومن الواضح أنه كان للإلهة عشتار إلهة نينوى شهرة مرموقة عالمياً لابد وأنها ألقت بعض البريق والشهرة على حراسها.

وفي أثناء ذلك استطاعت الأسرة الكاشية في بابل أن توطد مركزها ونجحت في توحيد البلاد وحمايتها من ضغط أشور (التي كانت الآن تحت النفوذ الميتاني) ومن ضغط العيلاميين. وبالنسبة للسياسة الداخلية يبدو أن الحكومة الكاشية كانت طبقاً للوثائق الاقتصادية، حكومة معتدلة وغير ظالمة. وإن إحدى العوامل التي أثرت على ردود الفعل للدول - المدن القديمة بالنسبة للملك كانت موقف هذا الملك بالنسبة لحقوق المواطنين التي تشمل الإعفاء من الضرائب أو واجبات السخرة. ويدل أحد الصكوك التي أعلنها الملوك الكاشيون على أنهم كانوا حكاماً ليبراليين، وإن غياب ذكر الثورات المحلية ربما كان سببه هذه الليبرالية. ومن الأمور المساعدة في هذا الخصوص تفسير السهولة النسبية التي استطاع الكاشيون

أن يحلوا بها محل الأسرة البحرية. وابتداءً من السلالة الأولى في بابل حتى نهاية التاريخ البابلي فقد اعتمدت إمكانية حكم النصف الجنوبي لبابل على تعاون بضعة مدن هامة وخصوصاً ايريش وأور وتلك السياسة الاقتصادية والإدارية الناجحة للكاشيين ربما كانت قد أثرت على تلك المدن لتتعاطف معهم قبل محاولة القيام بأي انقلاب عسكري. ولقد عوملت هذه المدن الجنوبية باحترام من قبل الكاشيين الذين تعهد بعض ملوكهم بناء بعض المعابد هناك، ولقد تم الانتصار على الأراضي البحرية عن طريق علام بورياش Ulam-Buriash أثناء حكم كاشتيلياش الثالث Kashtiliash III أخوه الأكبر، ولقد نجح علام بورياش بعد أن خدم كتائب للملك في الأراضي البحرية، بالوصول إلى عرش الكاشيين حوالي عام ١٤٥٠ق.م وبهذا العمل استطاع إعادة توحيد بابل بعد انقسام دام حوالي مئتي عام، ولكن لم يلبث الخلاف والخصومة أن عادت مرة ثانية مما تطلب قيام الملك اغوم الثالث ابن ووريث علام بورياش بحمله ضد الأراضي البحرية.

وفي زمن كارا - انداش Kara-Indashوهو خليفة اغوم الثالث أصبحت بابل ذات قوة كافية لتضمن تبادل السفراء مع البلاط المصري بينما حدث تحالف وتصاهر عندما أرسلت إحدى الأميرات الكاشيات لتلتحق بحريم أمينوفيس الثالث.

لقد ذكر خلفاء كارا-انداش الثلاثة كما ذكر هو في رسائل تل العمارنة وكان الثاني من هؤلاء وهو كوريغالزو Kurigalze الأول هو أكثر ملوك الكاشيين أهمية. ولقد حافظ على العلاقات الطيبة مع امينوفيس الثالث وقد أصبح في مركز يخوله القيام بحملة ناجحة ضد عيلام. وقد كانت عيلام مرافقة تاريخياً لسومر وكانت دوماً وفي زمن ضعف بابل قادرة على الانهماك في قضايا بابل الجنوبية. ولهذا فقد استلم كوريغالزو زمام المبادرة وبقي محتفظاً بالسيطرة على تلك المنطقة حيث بدأ في ترميم المعابد وما شابه من الأعمال في ايريش وأور وايريدو. هذا وإن العمل الذي خلده لدى الأجيال القادمة هو بناء العاصمة الجديدة وتحصينها. وقد ظلت بقاياها في اكاركوف Aqarquf قرب بغداد وكانت الزقورة (انظر اللوحة ٤أ) إحدى المظاهر البارزة وإحدى المناظر الأساسية لدى أي سائح يزور العراق.

لقد كان كوريغالزو مديناً في القوة والمركز المرموق الذي أحرزه لدرجة ما إلى ضعف ميتاني المسبب عن مجموعة من الحوادث إذ إنه وبعد اغتيال مورسيليس الأول سمحت حالة الضعف السياسي والعسكري للحثيين للأمراء الحوريين أن يسيطروا على قسم كبير من سوريا الشمالية ومن حيث كانت تحدث الغارات على الأراضي الحثية، ثم ظهرت مملكة ميتاني التي كانت في حالة تحالف مع مصر، والتي استطاعت السيطرة على بعض المناطق الحثية الحدودية. ولكن هذه الحالة انتهت باعتلاء ذلك الحاكم المتحمس القادر وهو شوبي لوليما Shuppi-Luliuma العرش حوالي عام ١٣٧٥ق.م والذي توافق بدء حكمه مع أزمة الميتانين بالنسبة لوراثة العرش وعند موت شوتارنا الثاني Shuttarna Π (حوالي عام ١٣٩٠ق.م) ابن وخليفة ارتاتاما الذي كانت له علاقات وثيقة مع مصر كوالده انقسمت المملكة بسبب الحرب الأهلية واغتيل الوريث على يد بعض الجماعات المناهضة لمصر. أما الولد الثاني وهو توشراتا فقد استطاع تدبير أموره وأن يثبت نفسه ملكاً لميتاني ولكن انفصلت عنه الأراضي الحورية القديمة إلى الجنوب من بحيرة فان وشكلت مملكة مستقلة تحت حكم أخ توشراتا الأصغر ويدعى ارتاتاما أيضاً. ولقد استقبل ارتاتاما الدعم من شوبي لوليا عندما قام بغزوة غير ناجحة لأراضي ميتاني الأصلية، بينما أحيا توشراتا Tushratta الحلف القديم مع مصر ولسوء حظ ميتاني فإن الخصومات الدينية التي استفحلت في مصر أثناء حكم اخناتون (١٣٦٧- ١٣٥٠) كانت هذه الخصومات تفعل فعلها في انحراف الاهتمام الملكي عن الشؤون الخارجية إذ يبدو أن توشراتا لم يستطع أن يحصل على أي تأييد مصري أثناء مجرى الحوادث التي تلت.

وهكذا بدأت الحرب ما بين توشراتا وشوبي لوليما الذي غزا شمال سوريا واستطاع كسب السيطرة على عدد من الدول الحثية في سوريا التي كانت سابقاً خاضعة لميتاني أو مصر، ومن الغريب أن أرض ميتاني لم تهاجم بشكل مباشر من قبل شوبي لوليما ولقد اقترح أن هذه القضية كانت قضية سياسية أملتها الرغبة باجتناب العمل الذي كان من الممكن أن يوحد الأمراء الحوريين ليصبحوا إلى جانب

ميتاني، وبعد حكم مملوء بالاضطرابات والذي في نهايته حكم أغلب الأراضي التي فقد السيطرة عليها غربي الفرات اغتيل توشراتا (حوالي عام ١٣٥٠ق.م) على يد ولده الذي كان يعمل مع الفريق الموالي لأرتاتاما والذي ادعى الحق في ملكية ميتاني ولكن أحد أبناء توشراتا الصغار وهو ماتي - وازا Matti-Waza استطاع الهرب وبعد محاولة مجهضة لتأمين لجوئه إلى بابل، عاد وهَرَب ليلقي بنفسه تحت رحمة شوبي - لوليما الذي كان في مركز قوي ولكنه محرج وذلك بوجود الوريث الشرعي لعرش ميتاني والوريث المغتصب كليهما في حالة اعتماد عليه.

لقد كان المستفيد من الاضطرابات التي وقعت في ميتاني هو آشور. فقد مضى حين من الدهر كانت آشور تابعة لميتاني ولكن الحوادث التي حدثت في ميتاني سمحت لآشور أن تستعيد شيئاً من استقلالها. إذ بعد أن استأنف بورنا بورياش الثاني Burna-Buriash II وهو الوريث الثاني لكورغالزوا على عرش بابل، علاقاته مع مصر التي كانت على وشك الاضمحلال فقد شكا هذا وتذمر عندما أرسل أشور - اوباليت الأول Ashur-Uballit I ملك آشور سفيراً إله إلى البلاط المصري واستقبل هذا السفير هناك فقد كان هذا العمل يعني شيئين. أولاً إن آشور قد بدأت بالانبعاث والقوة كدولة ذات أهمية عالمية، وثانياً، إن بابل كانت تحاول دون إحراز أي قسط من النجاح أن تحل محل ميتاني في السيادة على آشور. ومع ذلك فعلينا أن نقبل بانبعاث قوة آشور ونشوء تحالف ما بين مملكتي آشور وبابل والذي تم تحقيقه من خلال اقتران كارا – انداش الثاني ابن وريث عهد بورنا – بورياش الثاني بابنة آشور - اوباليت. وهكذا أصبحت آشور قوة لا يُستهان بها. وربما كان اعتراف (شوبي لوليما) بحاجته إلى حاجز ومصدٌّ يعتمد عليه ضد هذه الدولة الناشئة التي استيقظت من جديد الأمر الذي أدى به أخيراً إلى أن يساعد ماتي - وازا Mattiwasa وهو الوريث الشرعي لتوشراتا Tushrata الذي كان قد غمس يديه في الماء البارد في بلاطه لمدة عشر سنوات أملاً أن يستعيد بقوة السلاح عرش ميتاني التي قد تناقص قدرها وأهميتها بعد خسارتها كركميش التي ضمَّها نائب الملك الحي إلى ملكه.

لقد عرفنا ثلاثة من الأمراء الحوريين في ميتاني (في وضعها المتواضع الآن عرفت باسم هاني - غالبات Hanigalbat) ولكن لقد زالت أيام وعظمة ميتاني، فقد هزم شاتوارا الأول Shattuara I وأصبح تابعاً لأداد - نراري الأول Adad-Nirari (١٣٠٧- ١٢٧٥) بينما ثار وريثه ولكنه هزم من جديد وهكذا انتهى وجود مملكة هاني غالبات وهي ميتاني القديمة وأصبحت إحدى الولايات الآشورية عندما هزم شلمناصر الأول Shalmaneser I آخر ملك من ملوكها وهو شاتوارا Shattuara الثاني وهذا الانتصار كان ذا اهمية اجتماعية خاصة وذلك أنه قد هجر حوالي ١٤٠٠٠ أسير. وهذا العمل يظهر سياسة التهجير التي اتبعتها الإمبراطورية الآشورية بشكل واسع فيما بعد.

الفصل الثالث

نهوض إمبراطورية أشور

في أثناء فترة حكم ميتاني، تدنت أحوال آشور التي ارتفعت بشكل مؤقت في زمن حكم شمسي حدد ولكنها هبطت إلى الحضيض بعد ذلك. ولكن وبعد انحطاط متياني نهضت آشور مرة ثانية وأصبحت قوة يُحسب حسابها في السياسة الدولية: ويعتبر حكم أشور اوباليت الأول (١٣٦٥- ١٣٣٠) ق.م معلماً يشير إلى بداية تلك العملية الطويلة التي ارتفعت فيها آشور ووصلت إلى السيادة في الشرق الأدنى. وكنتيجة لزواج ابنته من كرا ـ انداش ابن بورنا - بورياش الثاني (١٣٧٥- ١٣٤٧ق.م) ملك بلاد بابل، استطاعت بابل عن طريق الحصول على دعم آشور لمعالجة شعب السوتو (وهم عبارة عن بعض البدو الرحل المزعجين الذين أقلقوا منطقة الفرات الوسطى أو أنهكوا الدولتين بالغارات الحدودية المتواصلة) التي استمرت حتى بعد وفاة بورنا بورياش Burnaburiash ومع ذلك ومع أن سلالة الملوك البابليين قد اتصلت الآن بالآشوريين، إلا أن دعم البابليين لسياسة موالية لآشور لم يكن عبداً اجتماعياً وسرعان ما اندلع العصيان في بابل قتل في أثنائه الوريث الشرعي وحل محله أحد الغاصبين واسمه نازي ـ بوغاش Nazi-Bugash ولهذا فقد أصبح أشور - اوباليت ملك آشور في وضع مناسب للتدخل الفعال لتصفية الجماعة المعارضة لآشور في البلاط البابلي وتنصيب كوريغالزو الثاني (١٣٤٥-١٣٢٤ق.م) ملكاً.

ولكن العلاقات الحسنة ما بين البابليين وآشور لم تدم طويلاً بعد موت آشور - اوباليت. إذ إنه وبعد اعتلاء انليل نيراري Enlil-Nirari(١٣٢٩-١٣٢٠ق.م) العرش في آشور نشبت الحرب وربما كان سببها ادعاء كوريغالزو الثاني وهو أحد المنحدرين من آشور - اوباليت حقه في تولي الحكم في آشور ولم تكن الحرب حاسمة ولكنها

سببت إضعاف بابل بشكل خطير لم يعد باستطاعتها صد غارة عيلامية وصلت إلى بابل نفسها وإلى مدينة بورسيبا المجاورة، وهكذا فقد أصبحت آشور في الموقع الأقوى واستطاع اريك - دن - ايلو Arik-Den-Ilu(١٣١٩-١٣٠٨) كسب المعارك ضد الشعوب الواقعة إلى شرق وشمال آشور. وفي هذا الوقت ظهر الشاهد الأول لوصول الموجة الجديدة من الغزاة من الغرب والمعروفة باسم (اهل- آمو Ahl-Amu) وهم من الآراميين المتحدين مع شعب السوتو السيء السيرة كما ذكرنا ولكن استطاع أريك - دن - ايلو انزال الهزيمة العسكرية بهؤلاء الاهلامو وربح كثيراً من الغنائم. وبعد ذلك استطاع ولده حدد - نيراري الأول Adad-NirariI(١٣٠٧- ١٢٧٥) توسيع نفوذ آشور بعد أن ربح المعارك ضد ملك الكاشيين نازي ماروتاش وضد المناطق الشمالية. وبعدها تمردت (هاني غالبات) التي كانت موالية لآشور واصبحت تحت نفوذ الحثيين، ولكنها سببت لنفسها بعد هذا التمرد إرسال حملة تأديبية من قبل آشور. ولقد وجد الملك شلمناصر الأول أنه من الضروري حل مشاكل الحدود الغربية وذلك بإلحاق (هاني غالبات) بآشور وجعلها ولاية من ولايات آشور بالإضافة إلى ترحيل الألوف من السكان. وكذلك أمن الحدود الشمالية في الوقت الحاضر على الأقل وذلك بقهر قوى أورارتو التي ذكرت لأول مرة أثناء حكمه وهذه القوة التي من المحتمل أنها كانت في ذلك الوقت ائتلافاً مؤلفاً من شيوخ قبليين وإمارات أكثر منها مملكة منفردة. ولكن لقد قدر لها أن تصبح المنافس الرئيسي لآشور في القرن الثامن قبل الميلاد. وقد حدث أنه في أثناء حكم شلمناصر الأول أسست كالحو Kalhu وهي العاصمة المستقبلية.

ولقد حدثت نكسة سريعة بعد هذه الفترة. فقد بدأ توكولتي - نينورتا الأول (١٢٤٤-١٢١٠٨ ق.م) حكمه بإحراز انتصارات رافقها حركات تهجير في الغرب والشمال بما فيها أراضي نايري Nairi إلى الجنوب الغربي من بحيرة (فان) ولكن هزيمته لكاشتيلياش Kashtiliash الرابع (١٢٤٢ - ١٢٣٥ ق.م) كانت أشد وقعاً وذلك لأنها سببت وضع بابل تحت الحكم الآشوري لأول مرة ولقد كتبت قصيدة دعائية تعرف باسم ملحمة توكولتي - نينورتا لتخليد هذه المغامرة الآشورية المرموقة.

ولقد كانت سياسة توكولتي - نينورتا في الجنوب أولاً تأمين وجود موظفين إداريين في بابل المدينة وبعد ذلك معالجة عسكرية للمناطق المجاورة ابتداءً من ماري وحانا حتى الحدود العلامية. هذا ولقد نقل توكولتي - نينورتا تمثال الإله مردوخ من بابل إلى آشور. ولكن لقد اقترح بشكل تهكمي، أن هزيمة توكولتي ـ نينورتا لبابل لم تكن سوى انتصار الثقافة البابلية على الثقافة الآشورية وبذلك فقد أضرت هذه العملية بوحدة الهدف لدى الآشوريين وذلك مما أدى إلى وقوع مظاهر الاختلافات في آشور فيما بين أولئك الذين رغبوا بتبني الدين البابلي وأولئك الذين رغبوا باتباع خطوات أجدادهم البسيطة. وهكذا فقد وجدت إحدى الطقوس في مدينة آشور هذه لم تكن لتعود إلى إله آشور الوطني بل إلى مردوخ إله بابل. ومع ذلك فقد أظهرت دراسة حديثة أن الزيادة المرموقة في إطلاق اسم مردوخ على أسماء الأشخاص في آشور في ذلك الوقت كانت جزءاً من ميول عامة لانتشار ثقافة عالمية ونتيجة لذلك فقد ازداد الاعتراف في آشور بعدد من الآلهة الأخرى البابلية فضلاً عن مردوخ.

وفي أواخر عهد توكولتي - نينورتا حدثت تغيرات سريعة غير قابلة للتفسير في السياسة بالنسبة لهذا الملك فقد أنهى أنشطته الحربية نهائياً ومن الممكن للمرء أن يقوم بعمل تخمينات لمعرفة سبب هذه التحولات ولكن من المحتمل أن تكون التوسعات العسكرية خلال حوالي قرن من الزمن قد سببت إجهاداً اقتصادياً شديداً. ومن الممكن أيضاً أن تكون الحركات العرقية في ذلك الزمن التي كان منها دخول الفلسطينين إلى فلسطين، جزءاً من هذه الأسباب والتي كانت هي السبب المباشر في سقوط دولة الحثيين، والتي من الممكن أن تكون قد ساهمت في حدوث القصور الذاتي والعطالة لدى توكولتي نينورتا وذلك لانقطاع ورود الحديد والمعادن إلى آشور. ومهما كانت الأسباب الموجبة، إلا أنها قد أنتجت إجهاداً داخلياً تسبب بحدوث تمردات سببت قتل توكولتي - نينورتا على يد ولده آشور ـ نادين ـ أبلي (١٢٠٧ - ١٢٠٤ ق.م) وبهذا دخلت آشور في فترة من الضعف بحيث أصبح خليفتا آشور ـ نادين - ابلي تابعين مطيعين لبابل ولكن هذه التبعية كانت قصيرة العمر فقد حدث تمرد ضد بابل جلب إلى العرش ابناً آخر من أبناء توكولتي ـ نينورتا وهو انليل ـ

كودور ـ يوسور Enlil–Kudur-Usur(١١٩٧- ١١٩٣ق.م) الذي قاد جيشاً وهاجم بابل. ولكن ولسبب خطأ وقع في الترجمة فقد اعتقدوا سابقاً أن الملك الآشوري والحاكم الكاشي قد قتلا في المعركة، ولقد ظهر أن هذا الخبر كان تفسيراً خاطئاً للنص ذي العلاقة ولكن ما حدث فعلاً لا يخلو من الغموض كذلك. فالمقطع الذي سبب الخطأ كما ترجمه العالم تدمور (مجلة الدراسات في الشرق الأدنى العدد السابع عشر عام ١٩٥٨ في صفحة ١٣١ يقول:

(لقد حدثت معركة ما بين أنليل ـ كودور ـ يوسور ـ ملك آشور وحدد ـ شوم ـ يوسور Adad-Shum-Usur ملك بابل وبينما كان هذان الملكان منشغلين في المعركة عاد نينورتا ـ آبال ـ إيكور وهو ابن إيلي ـ إيحادا وهو أحد أنسال اريبا حدد عاد إلى وطنه آشور. وقد جمع جيشه الضخم وتوجه إلى آشور للاستيلاء عليها وعندها اندلع حريق في المعسكر الذي يقطنه حدد - شوم - يوسور ولذلك فقد انصرف عائداً إلى بلاده).

ولكن نفس تتابع هذه الحوادث تراه مذكوراً في قائمة الملوك الآشوريين التي تقول:

[ذهب نينورتا – ابال – ايكور أحد أنسال اريبا ـ حدد إلى كاردينياش (بابل) ثم عاد منها وعمل على الاستيلاء على العرش في آشور وقد حكم مدة ثلاث سنوات (ولكن طبقاً لرواية مختلفة) حكم مدة ثلاثة عشر عاماً].

ويفسر الدكتور (تدمور) هاتين الروايتين للحادث بما يلي: كان نينورتا - أبال - ايكور وهو أحد النبلاء الآشوريين وأحد أحفاد اريبا ـ حدد ـ الأول يعيش في بابل وقد كان يدعمه الملك الكاشي ولقد تقدم مع الجيش البابلي وفي أثناء الحملة عمل على جمع جيش موالٍ له واستولى على عرش آشور ولقد حدثت بعض أعمال الفوضى في المعسكر البابلي مما سبب إحجام البابليين عن مهاجمة آشور فانصرفوا راجعين إلى وطنهم.

ولقد حكم نينارتا ـ أبال ـ ايكور أشور من عام ١١٩٢-١١٨٠ق.م. وأما آشور نفسها فقد كانت قد استقلت عن التبعية الاسمية لبابل إلا أنها قد تناقصت مساحتها جغرافياً إلى أضيق الحدود. فقد أصبحت مساحتها لا تزيد عن أرضها الأصلية لدرجة أن ابن نينورتا ـ أبال ـ ايكور وورثيه آشور ـ دان الأول لم يجرؤ أن يدعي نيله لقب ملك آشور بل اقتنع بلقب أمير. وقد كانت الأراضي الواقعة إلى شرق آشور ولا تزال معرضة أثناء غياب السلطة الحاكمة المحلية، للنهب والسلب على أيدي رجال القبائل من التلال إلى الشرق والجنوب من نهر الزاب الأدنى وقد كان هؤلاء تحت سيطرة بابل سابقاً عندما كانت بابل في وضع استطاعت به تأمين سلامة الطرق التجارية. ولكن هجوم توكولتي - نينورتا على بابل قد ألحق الضعف بشكل خطير بالمملكة الجنوبية وأنتج توترات داخلية أدت إلى سقوط السلالة الكاشية واستبدالها بعد فترة طويلة من الفوضى بسلالة بابلية وطنية في ايسين Isin. وفي حالة كهذه لم تكن بابل قادرة على حماية الأراضي الواقعة في منطقة الزاب الأدنى وهكذا وبعد أن أصبحت الطرق التجارية التي اعتمدت عليها بابل معرضة للاضطراب على ايدي رجال القبائل الغزاة القادمين من منطقة التلال، فإن تجارة آشور ينبغي أن تكون قد تأثرت من جراء هذه الحالة الخطرة. ولقد كان هذا الوضع سبباً في تحرك الملك آشور دان الأول ومن قبله والده للقيام بأنشطة عسكرية في الأراضي الواقعة فيما وراء منطقة الزاب الأدنى.

لقد عززت الأسرة البابلية الجديدة التي تعرف باسم الأسرة الثانية في ايسين Isin. مركزها خلال حكم آشور دان الأول الطويل في آشور (١١٧٩-١١٣٤ق.م؟) وعند وفاة الأخير بدت بابل وكأنها أصبحت قادرة على التدخل في شؤون وراثة العرش في آشور. ولهذا فقد أمنت حكماً قصيراً للشخص الذي كان تحت حمايتها وهو نينورتا ـ توكولتي ـ آشور الذي أعاد إلى بابل تمثال الإله مردوخ الذي ظلت آشور محتفظة به منذ زمن توكولتي ـ نينورتا.

لا يعرف إلا القليل عن أحوال الملوك الأوائل والأسرة الثانية في ايسين قبل حكم أهم ملك فيها وهو نبوخذ ريزر الأول Nebuchad-Rezzar I الذي حكم ابتداء

من عام ١١٢٤-١١٠٣ق.م وفي زمن هذا الملك أصبحت الإدارة في بلاد بابل خاضعة خضوعاً كلياً له وبذلك أصبح قادراً على التفرغ للشؤون الخارجية. ولقد كانت بابل معرضة للغارات القادمة من عيلام في الأوقات التي كانت بابل مفتقرة فيها إلى حكومة قوية ففي إحدى تلك الغارات أخذ أحد تماثيل الإله مردوخ من بابل وهكذا قام نبوخذ ربزر بقهر قوات عيلام وإرجاع تمثال مردوخ مع الانتقام بأسر أحد تماثيل الإله العيلامي ونقله إلى بابل ولقد عالج هذا الملك شؤون شعب اللولوبي* Lullubi في منطقة قره - داغ والذين كانوا مصدراً من مصادر الازعاج لبابل منذ زمن سرجون ملك آغادي. ولقد هاجم هذا الملك أيضاً بعض الكاشيين في منطقة الجبال وربما كانوا من تلك الجماعات التي لم تنزل لتستقر في بابل. ولقد استمرت سيادة بابل على آشور خلال جزء من زمن حكمه وحتى استطاع الحاكم القوي لآشور وهو آشور - ريش أيشي Ashur-Resh-Ishi (١١٣٣-١١١٦ق.م) أن يؤمن أخيراً استقلال المملكة الشمالية.

وفي هذا الوقت ضغط العموريون الذين اندفعوا آتين من الغرب الأمر الذي أثر على كل من بابل وآشور معاً، مع أن التأثيرات المباشرة قد طالت آشور أكثر من بابل، نظراً لأن اجتياح هؤلاء لمنطقة الخابور قد هدد سلامة الطرق التجارية الآشورية التي تصل إلى الساحل السوري والأناضول. هذا وقد قام الملك النشيط آشور - ريش - أيشي بحملة ناجحة ضد هؤلاء الاهلامو وهم فرع من الآراميين وجد في تلك المنطقة ويصف هذا الملك في إحدى النقوش نفسه بأنه الشخص الذي سحق القوى الواسعة الانتشار من أهلامو وقد هددت الطرق التجارية الواقعة بمحاذاة الحدود الشرقية أيضاً على أيدي القبائل الجبلية وهنا قام آشور - ريش - أيشي بحملات ضد الكوتي Quti واللولوبي وربما كان أثناء حكم هذا الملك أن اصطدمت المصالح الآشورية والبابلية حول قضية مناطق النفوذ وهذا انتج قيام ملك بابل بغزو آشور من الجنوب، تلك المحاولة التي انتهت بانتصار آشور الكاملِ.

* وهؤلاء هم على الأرجح بقايا الغوت وشعوب لولو Lullu الذين ظهروا الألف الثالث قبل ا يلاد.

لقد خلف آشور ـ ريش ـ أيشي ولده وكان رجلاً نشيطاً قادراً واسمه تغلات بيلاسر الأول (١١١٥- ١٠٧٧ق.م) وقد عرفت مغامراته الحربية بالتفصيل من نقوش وجدت على أحد المخروطات الصلصالية الكبيرة فقد قام هذا الملك بتخطيط تلك السياسة المبنية على العنف والقهر التي اتبعها ملوك آشور الذين تلوه وهذه الخطة تمثل صورة أحادية الجانب للآشوريين كقوم من القتلة السفاحين الذين يهجمون على القرويين المسالمين الذين كانوا يمارسون أعمالهم السلمية، ولكن الحقيقة أنه كان في ذلك الزمن بعض الحركات العرقية التي إذا لم ينصدَّ أحد لكبحها فإنها كانت سوف تخرب وتتلف مجرى الحضارة في منطقة ما بين النهرين. وفي هذا الزمن بدأ استعمال الحديد وكان المصدر الوحيد لهذا المعدن الثمين والمفيد بالنسبة لجميع مناطق العالم المتحضر هو بقعة معينة في المملكة الحثية. ولقد اندفع للاستيلاء على هذه المنطقة جماعة من المتوحشين أتوا من الشمال ويدعون الموشكو Mushku ويعرفون في التوراة باسم ميشيش Meshech. إذ إنه بعد وقت قصير من اعتلاء تغلات بيلاسر العرش اندفعت جماعة كبيرة من هؤلاء يقدر عددهم بعشرين ألف مقاتل جنوباً وغزوا الولاية الآشورية وهي كوموه Kummuh فما كان من تغلات بيلاسر إلا أن تصرف بشجاعة وقوة فزحف شمالاً وهاجم الغزاة هناك وقهرهم بشكل حاسم وبعد ذلك زحف شرقاً عبر كوموه لمعالجة بعض عناصر السكان الاصليين الذين أتوا لمساعدة الغزاة الشماليين. وفي حملات حصلت في السنين التالية وسع تغلات بيلاسر وعزز سيطرته على المناطق الشمالية والشمالية الغربية والشمالية الشرقية لدولة آشور حتى وصل أخيراً إلى آسيا الصغرى، تلك الأعمال التي لم يقم بمثلها أي ملك من الذين سبقوه. وبعد أن هدأ تلك المناطق أصبح حينئذ في وضع مكنه من الذهاب غرباً إلى الشاطئ السوري للحصول على الأخشاب والمصالح التجارية مع الفينيقيين. وهكذا خضعت له غوبلا Gubla وصيدا وأرواد ودفع هؤلاء الجزية ويقدم لنا هذا الملك وصفاً لنزهة بحرية قام بها أمسك البحارة في أثنائها ببعض الحيتان وقد أعطوه هذا الحوت. هذا وقد تودد له ملك مصر فأرسل له هدية وهي تمساح حي.

ومع أنه استطاع صد الهجوم القادم من الشمال، إلا أنه لم يزل لديه ذلك التهديد الذي كان يزعجه ويزعج خلفاءه الذين أتوا بعده وهو قدوم تلك القطعان الهمجية من الآراميين الذين كانوا يضغطون على المملكة من الغرب. ولقد ذكرت عدة مراجع عن ضغوط حدثت من شعوب أتت من الصحراء كانت تؤلف مشكلة مستعصية قد أثرت على جميع أراضي الهلال الخصيب. وكانت هجرة النبي ابراهيم وغزو فلسطين من قبل يوشع تؤلفان جزءاً من هذه الظاهرة. ومع ذلك فقد كان الضغط شديداً وبصورة خاصة على الحدود الغربية لبابل وآشور وذلك في نهاية الألف الثاني ق.م وما علينا إلا أن نفسر الأسباب الحقيقية لهذه الأمور. والحقيقة أنه وقبل عام ١٢٠٠ ق.م سقطت دولة الحثيين على يد غزوة برية وبحرية قام بها جماعة من الشعوب قادمين من أوروبا الشرقية، وقد كان الفلسطينيون جزءاً من تلك الغزوة. هذا وقد قام الفرعون رعمسيس الثالث في مصر بهزيمتهم وإبقائهم خارج مصر ولكنهم تمكنوا من السيطرة على سوريا وفلسطين. وربما أدت هذه التحركات إلى حركات قبلية خارج فلسطين شددت الضغط في أقاصي الشرق. وهناك أيضاً بعض الدلالات أنه وفي حوالي هذا الزمن نشأت مملكة سبأ وظهرت، الأمر الذي سبب بدوره تحرك بعض القبائل الجنوبية شمالاً.

إن العلاقات الدقيقة ما بين آشور وبابل أثناء حكم تغلات بيلاسر الأول كانت غير مؤكدة فقد حدثت غارات في كلا الجانبين وربما استطاع الآشوريون الاستيلاء على بعض الأراضي الحدودية ولكن ليس هناك من أدلة تثبت أن تغلات بيلاسر قد حاول الاستيلاء على بابل. إذ لم يكن هناك من مصلحة لآشور في تنفيذ هذا العمل. فقد كانت جميع الطرق التجارية الرئيسية إلى آسيا الغربية تحت أيدي الآشوريين وكانت التجارة تسير بشكل دائم غير منقطع مما سبب جني الأرباح العظيمة بالنسبة لآشور بصفتها الوسيط التجاري ابتداء من الساحل الفينيقي وموانئ سوريا حتى بابل.

لقد سببت تلك الأرباح الحقيقية الناتجة عن التجارة أن استطاع تغلات بيلاسر الأول أن يباشر أعمالاً كريمة من بناء الهياكل وإعادة وترميم المعابد الخربة وبذلك أمن لنفسه تُراثاً مؤلفاً من الاحترام الكامل من خلفائه.

أما ضغط الآراميين الذي وصفناه سابقاً فقد اشتد بعد حكم تغلات بيلاسر أثناء حكم ابنه اشهاريد ـ أبال ـ ايكور الثاني Asharid-Apal-Ekur II ولكنه لم يحكم سوى عام واحد وتبعه أشور ـ بيل ـ كالا Ashur-Bel-Kala (١٠٧٤ - ١٠٥٧ق.م) الذي يعرف عنه أنه قام بحملات ضد كل من أورارتو والآراميين ومن الممتع أن نلاحظ أنه ورغم النزاع العرقي فقد قبلت الإلهة الآرامية في مجمع الآلهة الآشورية وذلك لآن هذا الملك قد آثار آلهة أراضي آمورو ضد أي شخص يحاول تخريب أي نقش من نقوشه. وكما يحدث مع أي شخص يواجه تهديداً مشتركاً فقد حاول آشور بيل ـ كالا أن يوطد علاقات الصداقة مع معاصره ملك بابل وهو مردوخ ـ شابيك ـ زير ـ ماتي Marduk-Shapik-Zer-Mati (١٠٨٠ - ١٠٦٨ق.م). لاحقاً تعرض ملك بابل معرضاً لغزوة قام بها بعض الزعماء الآراميين، لذلك ذهب إلى العاصمة الآشورية لطلب المساعدة العسكرية (التي كان ملك آشور غير مستعد للقيام بها) ولكن وحين عودته وجد أن الغزاة قد احتلوا بابل. ولكن لم يكن آشور ـ بيل كالا في وضع يستطيع به إحباط الوضع وهكذا اعترف بالملك الآرامي المغتصب حدد ـ آبال - ايدينام Adad-Apal-Iddinam (١٠٦٧- ١٠٤٦ق.م) الذي كان عقد معه معاهدة بالزواج. زاد الضغط الأرامي والتدخل بشؤون الطرق التجارية مما أدى إلى نشوء مشاكل وصعوبات اقتصادية وتحلل اجتماعي، وهكذا فقد اتسم حكم آشور - بيل - كالا بالاضطرابات والتمردات بحيث حدثت بعض التدخلات عند وفاته بالنسبة لشرعية وراثة العرش.

لقد مضى حوالي أكثر من قرن كانت الأوضاع في آشور وبابل غامضة جداً، مع أن تتابع الملوك كان معروفاً. إذ كانت تلك الفترة فترة ضيق عظيم. فقد ذكرت إحدى التواريخ العائدة إلى حوالي عام ٩٩٠ ق.م أنه ولمدة تسع سنوات بالتوالي لم يخرج مردوخ من مقره ولم يأت نابو وهذا يعني أنه لم تطبق تلك العادة التي كانت

سائدة وهو أن يخرج مردوخ في عيد رأس السنة الجديدة من المدينة لزيارة أحد المزارات المدعو بيت اكيتو وكان نابو إله بورسيبا يأتي لزيارته عند عودته إلى المدينة، وهذا يدل على أن الإدارة كانت مشوشة تماماً في ذلك الوقت. وأما أشور فقد أصابها الضعف أيضاً، وفي زمن آشور - رابي الثاني Ashur-Rabi II (١٠١٠-٩٧٠ق.م) احتل الآراميون المستوطنات الآشورية في أواسط منطقة الفرات مع أن نفس هذا الملك استطاع أن يقوم بحملة في منطقة جبال أمانوس.

لقد خسرت الحركات الآرامية العرقية زخمها بعد حوالي عام ١٠٠٠ق.م وهي التي أدت إلى الاضطرابات التي حصلت في آشور وبابل وبدأت القبائل بالتوحد بشكل دويلات صغيرة. وفي فلسطين فقد تبلورت القبائل العبرية التي لم تكن آرامية بل أحتوت على بعض العناصر الآرامية وانقسمت إلى مملكتي إسرائيل ويهوذا.

لقد كان وجود ذلك العدد الكبير من الدويلات المتعادية في منطقة نهر الفرات لابد وأنها فرضت صعوبات شتى على الآشوريين وذلك لعدم وجود أية قوة قادرة على تأمين الطرق التجارية التي كانت العصب الحساس بالنسبة للحياة في آشور، بينما كانت تلك الأعداد الوافرة من الأراضي التي كانت تمر بها القوافل التجارية تؤلف عبئاً على الآشوريين لِما كانوا يدفعونه من عائدات جمركية يدفعونها لقاء مرور تجارتهم في تلك الأراضي. أما في بابل فقد استطاع رجال القبائل المرور خلال المدن العظمى والاستقرار في الضفة الشرقية لنهر دجلة.

بينما كانت منطقة المستنقعات الجنوبية (الأراضي البحرية) يحتلها شعب ينتمي إلى الآراميين ويدعى كالدو Kaldu ولكن هذا الشعب كان يتدخل بالتجارة البحرية والخليج الفارسي. هذا وقد كان اتحاد هؤلاء وتكوينهم دويلات مستقرة واعترافهم بمصالحهم المشتركة وازدهار أحوالهم بسبب الطرق التجارية السالكة التي لم يعقها أي عائق بدأت الحركة التجارية بالنشاط مجدداً عبر سوريا.

وهكذا فقد واجهت الأسرة الجديدة التي أسسها آشور - رابي الثاني في بداية القرن العاشر ق.م أحوالاً مريحة وقابلة للتحسين ويذكر آشور دان الثاني في إحدى

نقوشه وهو ابن تغلات بيلاسر الثاني الذي لم يكن معروفاً تماماً ، يذكر هذا الملك كيف أنه أعاد ترميم (بوابة رجال الحرف) في آشور الذي كان قد بناها لأول مرة الملك تغلات بيلاسر الأول ولكنها آلت إلى السقوط بعد ذلك. ولما كانت هذه البوابة هي الباب الرئيسي والذي تتصل بواسطته آشور بالعالم الخارجي في اتجاه الغرب، ولذلك فإن ترميمها يدل على تحسن في العلاقات التجارية في ذلك الاتجاه.

يدل ذلك على أنه وفي عهد أحد أبناء آشور دان وهو حدد نيراري الثاني (٩١١-٨٩١ ق.م) دخلت آشور مرة ثانية في فترة اقتصادية مرموقة مع توسع عسكري لا بأس به. هذا وطبقاً للاستراتيجية الآشورية التقليدية فقد كانت أول حملة من حملات هذا الملك موجهة إلى الأراضي الواقعة جنوب الزاب الأدنى وكما حدث سابقاً عندما قام أشور ـ ريش ـ أيشي بغزواته في نفس ذلك الاتجاه فقد سبب هذا وقوع الاصطدام والاحتكاك مع بابل التي كان ملكها يسعى لتوطيد سلطته إلى ما وراء حدود بابل الشمالية أي في منطقة جبل حمرين Hamrin إلى الجنوب من الزاب الأدنى. ولكن الملك الآشوري استطاع إجلاء البابليين من تلك المنطقة وضم مدينة أرابخا الهامة التي كانت تعتبر المفتاح الذي يوصل إلى سيطرة آشور على المنطقة الجبلية فيما وراء حدودها الشرقية. وكذلك تمكن من ضم العديد من المدن جنوباً.

وبعد أن تأمنت الحدود الشرقية والجنوبية استطاع حدد نيراري الآن أن يلتفت إلى المقاطعات الواقعة إلى الغرب من دجلة حيث كانت معظم تلك المنطقة لا تزال في أيدي القبائل الآرامية وحلفائها. فقد استطاع إجبار هؤلاء البدو على الاعتراف بسيادته عليهم رسمياً وذلك بدفع الجزية. وفي نفس الوقت فقد احتل عدداً من المدن بمحاذاة منطقة الفرات الوسطى التي كانت تحت سيادة الآشوريين سابقاً وأعاد تحصينها لتصبح قادرة على حماية الطرق التجارية.

وهناك وإلى الشمال قليلاً في المنطقة حول نصيبين في المنطقة التي كان يعرفها الآشوريون باسم (هاني غالبات) كانت إحدى الممالك الصغيرة التي كانت قد تبلورت بعد أن خمدت حركات الآراميين وفقدت أرضها وقد عرف هؤلاء باسم التيمانيين Temanites وقد برهنوا أنهم عدو عنيد ، ففي عدة حملات قوية

استعملت آشور فيها جميع مصادرها العسكرية في الحصار، فقد استطاع حدد نيراري التغلب على هذه المملكة المستقلة مدينة بعد مدينة. وأخيراً أسر ملكها وأخذه إلى آشور بعد أن أسر عدداً من الأمراء الآخرين وصادفوا نفس المصير. ونتيجة لذلك فقد وسع حدد نيراري السيطرة الآشورية حتى ضفاف نهر الخابور واحتل غوزانا (التي أصبحت عاصمة إحدى الولايات الآشورية والتي أصبح اسمها الآن تل حلف) وجعل أميرها تابعاً له. ولقد أجبر الأمراء المحليين على الاعتراف بسيادة آشور وذلك عن طريق دفع الجزية وهكذا وبهذه الوسائل استطاع حدد نيراري تأمين سيطرته على جميع منطقة نهر الخابور وتأمين حدوده الغربية ولقد تأمنت حدوده الجنوبية بعقد معاهدة مع الملك البابلي التي تمّت بعد نهاية النزاع العسكري بين القوتين في بداية حكم حدد نيراري وتعرف وثيقة تلك المعاهدة باسم التاريخ السينكروني Synchronou History ويعود هذا الاسم إلى حقيقته أنه في أساس عقد الصلح يتم تعداد النزاعات الحدودية بين القوتين في الماضي. وهناك مجموعة أخرى من الوثائق الهامة بالنسبة للتواريخ الآشورية وهي تبدأ أثناء حكمه وهذه تدعى قوائم الليمو Limmu lists فقد كانت العادة أنه وفي بداية عهداي ملك كانت حفلة عيد رأس السنة يحضرها الملك وفي السنوات التالية كان يحضرها الموظفون الكبار بالدور. وفي أثناء حكم الملك كان الموظف الكبير المختص يدعى ليمو Limmu وكانت التواريخ تسمى باسمه فكان يقال في الوثائق الرسمية إن هذا العمل قد تم في سنة الليمو كذا وكذا. وقد وجدت قوائم بأسماء هؤلاء الليمو وبذلك استطاع المؤرخون إكمال السلسلة من بداية القرن التاسع إلى نهاية القرن السابع ق.م وكانت أعداد كثيرة من هذه التواريخ يرافقها مراجع مختصرة للحملات العسكرية أو ما شابه ذلك من الحوادث الأخرى. ولحسن الحظ وجد أن تاريخ سنة معينة يذكر فيه حدوث كسوف الشمس في شهر معين ولما كان بالإمكان حساب تاريخ ذلك الكسوف بدقة من قبل علماء الفلك الحديثين فإن باستطاعتهم تثبت تاريخ السنة بالضبط. ومن خلال هذه السنة المعينة فإنه وخلال معظم النصف الأول من الألف

الأول ق.م ابتداءً من حكم حدد نيراري يمكن تأريخ الحوادث بالضبط خلال مدة سنة فحسب.

وخلال حكم حدد نيراري تدفقت أموال الجزية من الدول التابعة لآشور بأشكال مختلفة كالعربات والذرة والخيول والأواني الذهبية والخمر والطعام بصورة عامة والمواشي والأغنام ولم تنفق هذه الثروة المتزايدة جزافاً بل كانت تستعمل في تطوير آشور اقتصادياً وهنا نسمع حدد نيراري وهو يقول:

(لقد بنيت أبنية لإدارة المملكة خلال أراضيها وقد أنشأت آلات لتأمين الري خلال بلادي ولقد زادت مخزونات الحبوب في مملكتي إلى حدود لم تصل إليها في الأزمنة السابقة ولقد زدت أعداد الخيول والبغال التي تجر المحاريث وتحمل النير).

لقد كان حدد نيراري أيضاً هو طبقاً لإحدى النقوش التي لا يظهر فيها اسم الكاتب الذي يدعي أنه هو الذي استورد الجمال البكتيرية إلى آشور وربى هذه الجمال بشكل قطعان.

لقد كانت علاقات التحالف مع بابل قد ساعدت على تسهيل التجارة مع الجنوب وذلك لأن نقشاً آخر يشير إلى إعادة بناء رصيف الميناء في آشور وذلك لزيادة المواصلات التجارية ولقد كشف في نمرود عن جدار رصيف ميناء آخر مبني من قطع كبيرة من الحجارة. ولا شك أنه كانت هناك فترات معينة ازدهرت فيها المواصلات النهرية في العاصمة الآشورية لقد اتبع الملوك الآشوريون وخلال الستين سنة التالية سياسة محدودة لإتمام وترسيخ أعمال حدد نيراري. فلقد كانت حالات أمن أواسط أشور تتطلب السيطرة عن طريق إنشاء الحاميات والحملات العسكرية على الشعوب الجبلية في الشمال والشرق وعلى السيطرة أيضاً على الطرق التجارية الموصلة إلى كابادوكيا وإلى منطقة البحر الأبيض المتوسط وقد كان تنفيذ هذه الاجراءات قد أدى بشكل حتمي إلى إجراء تغيرات في أحوال المناطق المحكومة من تابعين يدفعون الجزية إلى ولايات ملحقة بالإمبراطورية بشكل كامل. ولقد قضى ابن حدد نيراري وخليفته توكولتي نينورتا الثاني (٨٩٠- ٨٨٤ق.م) السنوات الأربع

الأولى من حكمه في القيام بحملات ضد بلاد نايري Nairi إلى الجنوب الغربي من بحيرة فان وقد نجح نجاحاً باهراً بالتغلب على ملك (نايري) وجعله تابعاً لآشور مرتبطاً بالقسم ومسؤولاً عن تقديم أمدادات من الخيول اللازمة لجيوش الخيالة الذين أضيفوا لأول مرة إلى الجيش الآشوري. وفيما بعد وفي نفس السنة استطاع توكولتي - نينورتا أن يعالج المنطقة الجبلية إلى الشرق من آشور فكسب حالة الأمن في المنطقة ما بين الزاب العلوي والزاب السفلي. وهذا مهد الطريق لإجراء حملة تتجه جنوباً إلى الشرق من نهر دجلة والتي نفذها في فصل الربيع التالي. ولقد كانت الأسرة الحاكمة في بابل في غاية الضعف بحيث استطاع توكولتي - نينورتا الوصول رأساً إلى دور كوريغالزو Dur-Kurigalzu (وهي اكاركوف الحديثة قرب بغداد) وعلى سيبار Sippar دون إثارة أية معارضة من قبل بابل. ومن سيبار تقدم الجيش الآشوري دون مقاومة عبر الفرات بحيث توسعت حدود الأراضي الآشورية إلى منطقة نهر الخابور. وبعد ذلك توجه شمالاً بمحاذاة ذلك النهر حتى نصيبين واستلم الجزية من الحكام المحليين في طريقه وبعد ذلك قام بغارة ضد موشكو Mushku في أسيا الصغرى وبالنسبة للسياسة العامة فقد استمر هذا الملك في تنفيذ سياسة حدد نيراري وذلك بتعزيز التطور الزراعي وإنتاج الذرة عن طريق تحسين طرق الري وتركيز إقامة السكان بالقوة.

اشتهر ابن توكولتي نينورتا وهو أشور ناصر - بعل (٨٨٣- ٨٥٩ق.م) بصرامته وشهية الانتقام والبطش لديه حين يذكر المذابح الوحشية التي قام بها بالنسبة للمقهورين من أعدائه بالرغم من أن تلك الوحشية قد تغاضى عنها المؤرخون لقاء منجزاته الإدارية المرموقة. فقد كانت أولى أنشطة أشور ناصر - بعل كانت تتصل بالمناطق الجبلية في الشرق حيث وسع سيطرة أشور إلى ما بين الشعوب الجبلية وأمن الاعتراف بسيادة أشور من قبل تلك الشعوب التي كانت خارج مدار السيطرة الأشورية ولكن كانت حملتان من حملاته ضرورية لوضع زاموا Zamua تحت سيطرته (وكانت زاموا هذه واقعة في وادي السليمانية المسيطر على جميع الممرات التي من الممكن أن يغلقها) وفي الجهة الشمالية الغربية من أراضي أشور الأصلية وفي

جبال كاشياري Kashiari كانت هناك منطقة تابعة لآشور في الماضي، ولكنها توقفت منذ زمن طويل عن الاعتراف بالسلطة المركزية، ولهذا فقد قام أشور ناصر بعل باحتلال تلك المنطقة وانشأ ولاية جديدة إدارية مركزها في توشخان (الكرخ الحديثة) حيث استقرت المستعمرات الآشورية ولقد حدث عصيان في تلك المنطقة قوبل بإجراءات تأديبية عنيفة في تلك المناطق الثائرة.

وفي الغرب ظهرت دويلة آرامية قوية وهي دويلة بيت عديني وعاصمتها تل بارسيب (وهي تل الأحمر الحديثة) إلى الجنوب من كركميش. ففي أوائل حكم آشور - ناصر - بعل قامت هذه الدولة ببعض الاضطرابات فيما بين المناطق التابعة لآشور بمحاذاة نهر الخابور والفرات العلوي. وكانت بؤرة الاضطرابات في مدينة (سورو Suru) في بيت حالوي حيث ظهر ملك مزيف من بيت عديني ولكن العمل الحاسم السريع الذي قام به آشور - ناصر - بعل قد أمن خضوع الثائرين والقبض على الملك المزيف. هذا وإن قائمة الغنائم التي حملت من قصر ومعابد المدينة المقهورة تقدم لنا فكرة عن ثروة الدويلات الآرامية في ذلك الزمن بالإضافة إلى مقادير المواشي والأغنام والفضة والذهب، ذكرت أوان من البرونز والحديد والرصاص والأحجار الكريمة والمراهم والمنسوجات من الصوف والكتان وخشب الأرز والأخشاب ذات الروائح الزكية ولقد عوقب القواد والزعماء الثائرون بالموت بالخازوق أو سلخ الجلود وهم أحياء أو دفنهم في جدار ولقد ساعدت هذه الإجراءات على استقرار السلام في المنطقة مدة خمس سنوات وبعد ذلك ظهرت الاضطرابات من الناحية المقابلة.

فقد أرسل نابو - ابال - ايدين Nabu-Apal-Iddinملك بابل قوة مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل لمساعدة قبيلة سوهو Suhu الثائرة في أواسط منطقة نهر الفرات وقد تحركت هذه القوة إلى أعالي النهر للاستيلاء على معقل سوهو واستخدامه كقاعدة. ولهذا فقد قامت الجيوش الآشورية بزحف سريع من أسفل الخابور وأوقعت هزيمة منكرة بالمهاجمين في معركة دامت يومين. وقد ترك للملك آشور - ناصر - بعل فرصة وصف تأثير ذلك الهجوم بما يلي:

لقد سلطت القوى الرهيبة فوق أراضي سوهو فقد امتد الخوف من قوتي إلى أراضي كاردونياش (شمال بلاد بابل) والفزع والخوف الرهيب من جيوشي شمل أراضي كالدو (وهي إلى الجنوب من بلاد بابل).

ومع ذلك وفي السنة التالية حدث تمرد آخر في المنطقة ولكنه سحق بسهولة إذ ربما كانت بيت عديني وراء هذا التمرد الأخير نظراً لأنه وفي السنة التالية قام آشور - ناصر - بعل بهجوم على إحدى المدن التابعة لها واجبرها على الاعتراف بالسيادة الآشورية. وهذا ما فتح الطريق أمامه إلى الساحل السوري. ففي السنة التالية زحف الجيش الآشوري فعلاً دون أية مقاومة إلى منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط وذلك عن طريق كركميش ونهر العاصي واستلم الجزية من الدويلات على طريقه ومن المدن الساحلية جنوباً حتى صور.

أما الخمسة عشر عاماً الباقية من حكم آشور - ناصر - بعل فقد تمتعت الإمبراطورية فيها بقسط وافر من السلام والاستقرار . ولم تسجل له سوى حملة واحدة في عام ٨٦٦ق.م عندما أصبح العمل ضرورياً ضد المتمردين في تلال كاشياري وهي منطقة كانت معرضة للضغط من قبل دولة اورارتو القوية.

وبالنسبة للسياسة الداخلية فقد كانت أشهر منجزات آشور - ناصر - بعل وهي تأسيس عاصمته الجديدة في كالحو Kalhu(نمرود الحديثة)التي افتتحت رسمياً في عام ٨٧٩ق.م وتصف إحدى المسلات التي اكتشفت في نمرود عام ١٩٥١م هذا الحادث وغيره من المظاهر الخاصة بسياسته الداخلية بالتفصيل. ولقد امتلأت العاصمة الجديدة بالشعوب التي أسرت والشعوب التي هجرت خلال حملاته المختلفة ولقد نفذت مشاريع الري لزيادة خصوبة المنطقة وزرعت الحدائق بمختلف أنواع النباتات والأشجار التي جمعها الملك خلال حملاته. ولقد بُنيت المعابد وزينت وأنشأت حديقة حيوانات جلب لها الملك قطعاناً من العجول والأسود والنعام والسعادين ولقد أهديت له بعض الفيلة البرية من قبل ولاته. ولقد قدر لجميع هذه الحيوانات أن يقتلها الملك عدا السعادين في حفلاته المخصصة للصيد ولقد تميز افتتاح كالحو Kalhu بإقامة أعياد وحفلات ضخمة اشترك بها أكثر من سبعين ألفاً من الناس والعمال من

الذكور والإناث والموظفين الحكوميين وممثلي الشعوب الخاضعة لآشور واستمرت الحفلات مدة عشرة أيام من الفرح والحبور.

لقد استمر شلمناصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ق.م) في إتمام أعمال والده آشور ناصر بعل ولقد تميزت الأيام الأولى لحكمه في تعزيز مركز آشور في الغرب ففي السنة الأولى قام شلمناصر بحملة دون مقاومة إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط. وفي هذه المرحلة من حكمه هاجم بيت عديني التي كان والده قد استلم منها الجزية ووطد فيها حكم أشور المباشر لها. ولا يعرف فيما إذا كان موقف شلمناصر مسبباً عن بعض الأعمال العدائية من قبل بيت عديني أو فيما كان مسبباً عن الاعتراف بوجود خطر منتظر. ومن المؤكد أن بيت عدين كانت تملك وتقود مصادر مرموقة من القوة العسكرية، نظراً لأن شلمناصر استغرق ثلاث حملات حربية قبل أن يستطيع الاستيلاء على تلك المدينة وأسر ملكها مع العائلة المالكة. وفي أثناء نفس الحملة أعاد شلمناصر سيطرة آشور على المناطق الواقعة إلى الشمال رأساً حيث كان هناك توسع في النفوذ الأوارتي.

لقد تم إخضاع بيت عديني وأعيد إسكانها وتنظيمها كولاية آشورية، وبذلك استطاعت آشور الحصول على سيطرة تامة على الطرق التجارية في منطقة الفرات العليا حتى كليكيا وآسيا الصغرى ولقد كان هذا تهديداً خطيراً للدويلات الغنية والقوية في سوريا التي بادرت إلى تشكيل ائتلاف معاد لآشور برئاسة حدد - ايدري Adad-Idri (بن – حدد في التوراة) حاكم دمشق ويحتوي هذا الائتلاف على فرقاء ممثلين لبلادهم من إسرائيل وعمون. ولكن ثبت أنه عندما حصل هجوم كامل من قبل هذا الائتلاف على أشور، باء هذا الهجوم بالفشل وكان عبارة عن كارثة بالنسبة للسوريين الذين كانت خسائرهم طبقاً لادعاءات الآشوريين قد بلغت أربعة عشر ألفاً من مجموعة سبعين ألفاً كانوا تحت السلاح.

لقد أصيبت آشور بنكسة مؤقتة في سياستها الخارجية فقد أصبح من الضروري التدخل للعمل في بابل حيث حدث عصيان ضد الملك الوطني الذي كانت تدعمه آشور. وكان من الواضح أنه وفي هذا الوقت كانت جميع منطقة بابل

الجنوبية تحت سيطرة زعماء كلدانيين محليين فوجد شلمناصر أنه من الضروري أن يقوم باستعراض لقوته ضد هؤلاء الزعماء القبليين وذلك لإجبارهم على الاعتراف بسيطرة أشور عندما يدفعون الجزية.

وهنا وجه شلمناصر انتباهه إلى الغرب. ففي عام ٨٤٩ق.م وضعت كركميش وهي آخر دويلة مستقلة في منطقة الفرات العليا كانت تدفع الجزية، إلا أنها وضعت الآن تحت الحكم المباشر لآشور ولكن الحلف السوري في أقصى الغرب قد استمر في كونه تهديداً خطيراً لمركز آشور في المنطقة. ورغم حدوث عدد من الانتصارات الصغيرة في السنوات الأربع التالية حيث استخدمت في آخر حملة قوات آشورية ضخمة بلغ عددها مئة وعشرون ألف مقاتل وضعت في ميدان القتال، إلا أنه لم يحدث أي انكسار كامل للائتلاف ولم يظهر أن ذلك كان ممكناً في ذلك الوقت.

وبعد أربع سنوات وعندما وجَّه شلمناصر وطأة وقوة الجيوش الآشورية ضد الغرب، كان الوضع قد اختلف. إذ إنه وفي ذلك الوقت قد مات أهاب ملك إسرائيل وحدد ايدري ملك دمشق، وهما الشخصيتان القويتان اللتان تزعمتا وأدارتا التحالف السوري، فقد اغتيل الأخير وذلك طبقاً لقصة العهد القديم في التوراة، على يد خادمه حزقيال الذي اغتصب العرش، وبموت حدد – ايدري ملك دمشق انقسم التحالف. ويُقدِّم لنا كتاب الملوك الثاني في التوراة وصفاً للمؤامرات العائلية والدسائس والمنازعات التي تلَت، وعندها أصبح حزقيال دون حليف قوي، فقد خسر ستة عشر ألف رجل من رجاله وجزءاً كبيراً من أراضيه. ومع أن دمشق لم تتأثَّر بهذه الحوادث. ولذلك فقد دفع جيحو ملك إسرائيل (انظر اللوحة ٣٥) وكذلك ملوك صور وصيدا الجزية لشلمناصر. بينما أظهرت مصر بعض مظاهر الود والصداقة لآشور وذلك بإرسالها بعض الهدايا من الجمال وحيدة السنام ووحيد القرن (الكركدن) وبعض الحيوانات الأخرى الغريبة الشكل. وخلال السنوات الثمانية التالية انشغل شلمناصر في تعزيز مركزه في الغرب، ووسع سلطته في الشمال الغربي واحتل تابال Tabal وكيوي Que (كليكية) اللتين دفعتا الجزية. أما في سوريا الوسطى فقد أوقع شلمناصر هزيمة نكراء بحزقيال واقتطع قسماً من أراضيه.

وهكذا أصبحت سلطة آشور كاملة على سورية وعلى الطرق التجارية القادمة من آسيا الصغرى وإليها وأصبح إنتاج الحديد الذي كان مقصوراً على آسيا الصغرى ومن أحد امتيازاتها ، خاضعاً للسيطرة الآشورية تماماً كما كانت صناعة الأخشاب في لبنان وكما كانت مناجم الفضة في أمانوس، وأصبح الحِرفيون السوريون أيضاً تحت تصرُّف شلمناصر ونُقِلَ الكثير منهم إلى المدن الآشورية. ولقد وُجِدت كمية كبيرة من العاج المحفور في منطقة الحفريات في نمرود (كالحو) وخصوصاً في القلعة التي بناها شلمناصر في القسم السفلي من المدينة، ولقد ثبت الآن أن هذه المنحوتات العاجيّة كانت من صنع حرفيين سوريين. ولقد عُرفت أيضاً تلك المنحوتات التي أقامها شلمناصر في مدينة أشور نفسها وهي تكشف عن الاستعمال لأول مرة لبعض الأساليب التي اتبعوها في الأزمنة التالية المتأخِّرة، وكانت هذه متأثِّرة بالأساليب السورية، وذلك لأنه كان من المؤكد أن فن تحصين المدن قد نشأ وتطور في المدن السورية الذي أصبح معظمها قادراً على مقاومة الحصار المتكرر عليها. هذا وإنَّ الأبواب البرونزية الشهيرة التي وُجِدَت في بالاوات Balawat والأشرطة المعدنية الملصقة بالأبواب والمزيّنة بالنقوش النافرة، مع صور مشاهد من حملات شلمناصر (انظر الصورة رقم ٣٣، ٣٤)، كل هذه ربما كانت مدينة لمثل الأعمال المعدنية التي صنعها حيرام ملك صور في القرن الماضي.

وعدا عن بعض الاضطرابات الصغيرة الشأن في الغرب، عندما انتقمت آشور بقوة لاغتيال أحد الرجال الموالين لها في نزاع حصل هناك، فإن بقية أنشطة شلمناصر كانت منحصرة بالشمال والشرق. وكانت أورارتو في هذا الوقت تقاسي من ضغوط قام بها البرابرة من الشمال، ولكنها كانت تؤلف تهديداً متنامياً لآشور، ولم يكن هذا التهديد هاماً في المنطقة ولكن التهديد الأعظم كان قادماً من أقصى الشمال الغربي وأقصى الشرق، حيث كانت الإمبراطوريتان تتنافسان على السيطرة على الطرق التجارية الحيوية الواقعة بين سوريا وآسيا الصغرى والطرق التجارية الأخرى القادمة من الهند والصين عبر إيران. وهكذا انحصرت حملات

شلمناصر الباقية بالمصادمات مع قوى أورارتو وبعض الحملات التأديبية ضد بعض الدويلات التي نزعت ولاءها لآشور وهي واقعة في التلال في بلاد فارس.

لقد تميَّزت السنوات الأخيرة من حكم شلمناصر الطويل الأمد بحدوث عصيان عظيم في الوطن، إذ إنه وحسب المفاهيم التي كانت سائدة في منطقة ما بين النهرين كما هو الحال في كثير من المدن الأخرى في العالم، فقد اعتبرت الملكية كوظيفة شبه إلهية يمنحها الآلهة لفترة من الزمن ويمكنهم سحبها وإبطالها. ففي أجزاء كثيرة من العالم كان يتم إعدام الملك، عندما تضعف وتتعدم قواه الجنسية. وفي بابل كان الملك يقدِّم تنازلاً سنوياً للإله عن سلطته كملك. أما في آشور فلم يكن هناك من تنازل ولكن كان من المعروف أن مدة حكم الملك هناك لم تكن لتتجاوز الثلاثين عاماً. ولقد وُجد هذا الاعتقاد بسبب وجود تلك الظروف التي كان الملك يعمل فيها بصفته موظف ليمو Limmu. وقد كان الملك يعمل بهذه الصفة في الأعياد الرسمية السنوية عند تمام السنة الأولى من حكمه بينما كان يمثله في السنوات التالية جماعات من كبار الموظفين. وقد كان شلمناصر الثالث لا يحتفل بهذه المناسبات في بداية حكمه فحسب، بل عند حلول السنة الحادية والثلاثين من حكمه أيضاً، وهكذا يوحي لنا أنه قد بدأ فصلاً جديداً من حكمه كملك. وحدث بعد وقت قصير من بداية حكمه أن ثار أحد أبناء شلمناصر وهو آشور – دانين – أبلي وقاد عصياناً دعمته بعض المدن القديمة الهامة مثل نينوى وآشور وأربيلو (أربيل الحديثة)، ولكن لا يمكننا إثبات هذا الأمر غير أنه ربما كانت هناك علاقة مباشرة ما بين تجديد مدة ملكية شلمناصر وحدوث العصيان.

كان شمسي حدد الخامس Adad-Shamshi(٨٢٣-٨١١ق.م) هو الابن الذي اختاره شلمناصَّر وريثاً له. وقد كان هذا منشغلاً في أوائل سنوات حكمه شأنه أثناء حياة والده في إخماد العصيان الذي قَادَه آشور – دانين – إبلي. وقد استطاع شمسي حدد الخامس تثبيت مركزه بمساعدة ملك بابل مما اضطر ملك آشور للاعتراف بسيادة ملك بابل وضمن ذلك في معاهدة رسمية، وبذلك استطاع إعادة سيطرته على البلاد بأكملها. وبعدها وجَّه همَّه لمحاربة المناطق الشمالية والشمالية الشرقية، وقام

بثلاث حملات لهذا الغرض. هذا وقد استمرت أورارتو في تهديد متنامٍ ضد آشور. لهذا فقد انحصرت أنشطة شمسي حدد العسكرية في تلك السنوات لتأمين مواقف مواليه لآشور من قِبَل زعماء منطقة نايري Nairi التي شكلت حاجزاً أو مَصَدّاً إلى الجنوب الغربي من بحيرة (فان) Van. وفي أقصى الجنوب وجدت بعض المصادمات العرقية التي كانت تزيد في الطين بَلَّة. وهنا بدأ شعب الميدس Medes وهم فرع من الشعب الإيراني. وقد ذُكروا أثناء حكم شلمناصر الثالث وقد بدأوا بالهجرة إلى تلك المنطقة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بحيرة أورميا ولقد استعان ملك آشور باستعراض القوة وحشد الجنود ضد المدن الميدية بقصد تأمين الاحترام التام لسلطة آشور وعلى الحصول على بعض المغانم وقد دفعت له بعض الدويلات الضعيفة الجزية في المنطقة الشرقية بشكلٍ مباشر.

لقد أصبح شمسي حدد الآن في وضع مختلف عن ذلك الوضع الذي وقع فيه عندما كان محتاجاً لمساعدة ملك بابل للقضاء على التمرُّد في مُدنه، فلقد أصبح الآن في وضع القوّة الذي سمح له بالاهتمام بالمناطق الواقعة شمالي نايري Nairi، فقام بالزحف إلى أسفل نهر دجلة إلى تلك المنطقة التي كان شعب الكاشيين قد انحدر منها عند هجومهم على بابل والتي كان الجميع قد اعترفوا بها بكونها واقعة في منطقة النفوذ البابلية. وبعد أن استولى على تلك المنطقة وهجَّر سكانها، عبر شمسي حدد نهر (ديالا) متَّجهاً إلى الجزء الشرقي من بلاد بابل الأصلية، حيث بدأ في إحداث الخراب بالمنطقة الحدودية حسب رغبته، وبدأ بالسلب والنهب وإحراق البلدان وقطع أشجار الحدائق. وهذا العمل قد سبب انزعاج ملك بابل مردوخ بالتسو اكبي Marduk Baletsu Iqbi، وهو من خلفاء ملك بابل الذي ساعد شمسي حدد في استعادة عرشه، ولهذا وتعبيراً عن انزعاجه قام بتنظيم حلف من العيلاميين ونامري Namri (وهي دويلة واقعة إلى الشمال من عيلام ولا ينبغي خلطها مع نايري Nairi). وكذلك نظم القبائل الكلدانية المرابطة جنوب بابل وبعض القبائل الآرامية الباقية إلى الشرق من نهر دجلة، ولكن هذا التحالف قد انهزم في معركة محسوبة، ولقد تجلَّت عظمة ونشاط آشور عسكرياً في وسط وجنوب بابل في

السنوات التالية، وقد قدَّم شمسي حدد بعض الضحايا في مدينة بابل نفسها في عام ٨١١ ق.م.

ليس من الواضح السبب الذي جعل شمسي حدد يهاجم بابل ولا الفوائد التي كان يأمل في تحقيقها. وليس هناك من سبب يجعلنا نفترض أن بابل كانت تُمثِّل أي تهديد لآشور إما بصفتها لوحدها أو كحليفة من حلفاء أورارتو. وربما كانت أعمال آشور العسكرية ذات علاقة بالطرق التجارية. وفي ذلك الوقت كانت القبائل الكلدانية قد أحكمت قبضتها على منطقة جنوب بابل وطبقاً لقوائم الليمو Limmu، فقد قام شمسي حدد بحملة ضد تلك المنطقة على الخصوص وكانت مدن شمال بابل تؤلف في الأزمنة القديمة كما هي الآن وفيما بعد مراكز تجارية هامة من الهند وبلاد العرب مروراً بعمان والبحرين (تلمون) وفي فترة متأخرة عملت الحركات العرقية في شمال بلاد فارسعلى عرقلة التجارة وطرقها التجارية في تلك المنطقة، مما أدّى إلى استعمال الطرق التي كانت تمر خلال جنوب بلاد فارس(عيلام) وبابل. وهكذا فمن الممكن أن تدخُّل (الميديان) واندفاعهم قد أدّى نفس النتيجة، وأن شمسي حدد كان يحاول السيطرة على الطرق التجارية ابتداءً من الموانئ الجنوبية خلال بابل وعلى محاذاة نهر دجلة. ولكن ليس لدينا في الوقت الحاضر ما يثبت ذلك مع أنه من الملاحظ أن خليفة شمسي حدد وهو حدد نيراري الثالث قد ادَّعى أنه قد جعل شيوخ كالدو Kaldu من أتباعه وأنه قد فرض الجزية والضرائب عليهم.

تكشف إحدى النقوش أن حدد نيراري الثالث لم يصعد إلى العرش حتى السنة الخامسة من تسميته حاكماً، الأمر الذي يشير إلى أن والدته ساموramات Sammu-Ramat أصبحت نائبة الملك بعد وفاة شمسي حدد، وهذه السيدة التي تشبه قصتها قصة سميراميس كانت شخصية هامة. وذلك لأن لها مسلَّة خاصة بها في آشور مجاورة لمسلاَّت الملوك وكبار الموظفين في آشور بينما نرى أنها (وبعكس بقية النساء) قد ذُكر اسمها مع الملوك في بعض النقوش التكريسية.

لقد شهد حكم حدد نيراري الثالث (٨١٠-٧٨٣ق.م) وحكم ولده شلمناصر الرابع (٧٨٢-٧٧٢ق.م) زيادة عظيمة في قوة أورارتو، فقد حدثت عدة مصادمات بين الدولتين وخصوصاً في منطقة الميديان. وفي المنطقة الشمالية الغربية أيضاً قامت أورارتو بهجومات على بعض الأراضي التي كانت تحت حكم آشور وبصورة خاصّة ميليد Melid وقد شجع هذا على انفصال بعض دويلات سورية أخرى وتنظيم تحالف اشتمل على دمشق وكوي (Que) وجورجوم Gurgum وشمأل Sam'al الذين هاجموا الدولة التي كانت موالية لآشور وهي حماة Hamath، ولقد قدم حدد نيراري مساعدة فورية إلى الموالين له بإجراء سلسلة من الحملات وذلك أولاً بدق إسفين فيما بين الحلفاء الشماليين ودمشق. وبعد ذلك بالقيام بهجوم مباشر على دمشق التي استسلمت ودفعت جزية سخيَّة، ولقد تبعتها الدول السورية الأخرى في قبول سيادة حدد نيراري. ولقد كانت نتيجة ضغط حدد نيراري في الغرب أن انتقل مركز سيادة آشور في سوريا جنوباً. وقد حدَّثت هناك نتيجة أخرى أضعفت دمشق وذلك أن استطاع ملك إسرائيل يهواش أن يستعيد بعض الأراضي الحدودية التي خسرتها إسرائيل خلال فترة سيادة دمشق.

لقد كان تقدّم أورارتو على طول جميع أجزاء الحدود الشمالية لآشور مستمراً خلال السنوات التي تلت حكم حدد نيراري الثالث. وفي أثناء غياب أي حاكم من وزنه ومقدرته قادر على تقليل نتائج هذه الأحوال، زادت مشاكل آشور بشكل شديد، فلقد اكتسبت أورارتو قبضة حديدية على المناطق الواقعة إلى جنوب بحيرة أورميا وهكذا سيطرت على الطرق التجارية الآتية من شمال بلاد فارسوالأخطر من ذلك كانت تلك الحالات السائدة في الغرب، حيث أدّى هجوم أورارتو إلى حرمان آشور من جميع المنطقة الواقعة إلى الشمال والغرب من كركميش، وبهذا أخذت من آشور السيطرة على تجارة المعادن في آسيا الصغرى. وفضلاً عن النتائج الاقتصادية، فإنه لابدّ أن هذا الوضع كان له تأثير مباشر على الفاعلية العسكرية لآشور نظراً لأن جميع المنطقة التي اعتمد عليها الآشوريون للحصول على إمداداتهم من الخيول أصبحت الآن في أيدي أورارتو. ولقد أدَّت النتائج الاقتصادية لقطع الطرق

المتجهة إلى آسيا الصغرى إلى حدوث بعض الاضطرابات في سوريا، وهكذا فقد اضطرت آشور للقيام بعدد من الحملات ضد هاتاريكا Hatarikka وأرباد Arpad ودمشق. وإنه وفي أثناء هذه الفترة من فترات الضعف في آشور استطاع جيروبوم الثاني Jeroboam أن يظهر قوته في إسرائيل فقد وسَّع حدوده على حساب أراضي حماة ودمشق، وقد كانت هناك بعض الاضطرابات في المقاطعات الواقعة بمحاذاة نهر دجلة إلى الجنوب من أراضي آشور الأصلية، بينما أدّى الوضع الاقتصادي في آشور الناتج عن قطع الطرق التجارية إلى قيام تمرّدات في عدد من المدن وفي عام ٧٤٦ ق.م حدث تمرُّدٌ في العاصمة كالخود Calah نفسها، مما أدى إلى اغتيال آشور نيراري الخامس وهو آخر ثلاثة ملوك حكموا بعد حدد نيراري الثالث، وقد قتل هذا مع جميع أفراد العائلة المالكة.

لقد جلبت الثورة التي أطاحت بالعائلة المالكة القديمة، أكثر حكام آشور مقدرة لمدة تزيد عن قرن من الزمن . ولا يُعرف الكثير عن الملوك الذين سبقوا تغلات بيلاسر الثالث، ففي أحد النقوش يدعي أنه منحدر من أسرة حدد نيراري الثالث وليس هناك من سبب وجيه للشك في هذا الإدّعاء، وقد ذكر في التوراة باسم Pul ولم يستعمل اسمه في التوراة فحسب بل أيضاً في بابل، وقد قيل إن هذا هو اسمه الخاص فقد كان اسم تغلات بيلاسر قد أطلق عليه عند توليه العرش أمَلاً في أن يتبع خطوات ذلك الملك الظافر الذي حمل هذا الاسم لأول مرَّة.

الفصل الرابع

سيادة آشور

عندما وصل تغلات بيلاسر الثالث إلى العرش كانت آشور في وضع عسكري واقتصادي صعب يدعو إلى اليأس. فلقد كانت آشور فعلاً في حالة من الفوضى وغياب الدولة، وأصبحت المناطق الجبلية إلى الشرق والشمال من آشور تحت قبضة أورارتو، ولكن الأربعين عاماً التالية شهدت نهوض آشور واستعادة سلطانها على جميع أراضيها القديمة وأعادت لنفسها تلك المكانة القديمة كأقوى دولة في الشرق الأدنى، ولم تكن هذه التغيرات الجوهرية ناتجة عن أي تحسُّن جذري في الأحوال الخارجية. وذلك لأن الضغط من الشمال قد اشتدَّ خلال تلك الفترة، ولكن ذلك التحسُّن كان بفضل الإصلاحات الإدارية التي قام بها تغلات بيلاسر من إعادة تنظيم إدارة حكومته المدنية، وحكومات الولايات. وقد أصبحت حجوم تلك الولايات أقل مساحة وقد خدم هذا في ظهور دوائر فعّالة مما منع حصول بعض حكام الولايات على مستوى خطر من القوة. وقد قُسِّمت تلك الولايات بدورها إلى أقسام ثانوية يحكمها موظفون صغار كانوا مسؤولين مباشرة من الوالي الأصلي، ولكن كان باستطاعتهم تقديم الشكاوى إلى الملك نفسه، ولقد كانت هذه الطريقة فعَّالة ومفيدة لتأمين سلطة الدولة ومنع التجاوزات من قِبل الولاة والحكام. ولقد نُظِّمَ نظام بريدي (اقتُبِس عنه النظام الفارسي) وكان هذا النظام البريدي عاماً خلال الإمبراطورية مما ساعد على سرعة تحرُّك المراسلين والمراسلات ما بين الملك وولاته، الذين كان يُطلب منهم تقديم تقارير حول أحوال ولاياتهم. وأمّا بالنسبة للدويلات الحاجزة الواقعة إلى ما وراء الولايات الآشورية فقد استخدم تغلات بيلاسر وخلفاؤه نظام تعيين ممثّل للدولة لمراقبة مصالح آشور في بلاط الدويلات، بحيث تتم سيطرة آشور بصفة غير مباشرة من خلال العائلات المالكة المحلية. وإن هذه

العائلات الملكية المحلية كانت مطمئنة على حصولها على دعم السلطة الإمبراطورية في حالة حدوث أية ثورات داخلية أو اعتداءات الأعداء شريطة أن تدفع تلك الولايات الجزية وأن تتقبل توجيهات القائم بالأعمال الآشوري بالنسبة للقضايا وللسياسة الخارجية والتجارية.

كانت أولى اهتمامات تغلات بيلاسر العسكرية هي تسوية شؤون الحدود الجنوبية، حيث كانت القبائل الآرامية بمحاذاة نهر دجلة تعبثُ فساداً وتسبب المتاعب منذ السنوات الأولى لحكم آشور - دان الثالث (٧٧١-٧٥٤ق.م) فقد هزم البلاد التابعة لقبائل في بوكودو Puqudu إلى الشرق والشمال من بغداد الحديثة. وقد أعاد سكان شعب ارابخا التي أصبحت الآن المفتاح الأساسي لسيطرة آشور على بابل. وأما المناطق القبلية الواقعة في الجنوب الشرقي ما بين مدينة بابل وعيلام التي أصبحت ولاية منفصلة تحت الحكم الآشوري، وقد عزَّز هذا العمل مركز الملك الوطني في بابل وهو نابوناصر Nabu Nasir في حين أن تغلات بيلاسر لم يتدخل في شؤون هذا الملك... وقد حافظ نابو-ناصر على حالة السلم واتّباع سياسة موالية لآشور في بابل حتى موته عام ٧٣٤ق.م. وهكذا فقد تخلّص تغلات بيلاسر من الاضطرابات في الجنوب واستطاع الالتفات إلى الخصم الرئيسي لآشور وهي أورارتو. ويمكننا جمع شتات الحوادث التي تلت من معرفة نُتَف الحوليات التي خلفها تغلات بيلاسر بينما يمكننا الحصول على التفاصيل من المراسلات التي تمَّت ما بين الملك وقوّاده العسكريين، أو موظفي المخابرات على حدود أورارتو، ولم تكن نتائج ومسيرات الأحوال مؤكدة نظراً للصعوبات الناتجة عن التشويش الناتج من نُتَفْ الحوليات الموجودة.

لقد بدأ الضغط المعاكس على أورارتو عند حدوث الحملة التي جَرّت ضد أراضي نامري Namri وهي المنطقة الواقعة إلى شمال زاموا Zamua (لواء السليمانية الحديثة) نفسها إلى الشمال من عيلام القديمة. ولم يقابل الجيش الآشوري أية جيوش أورارتية (وهذا يدل أن نظام التجسس والمخابرات لدى أورارتو كان دون مثيله في آشور) وبذلك استطاع القضاء على المعارضة تدريجياً والتي

أظهرها الزعماء الوطنيون المحليون. ولقد تُرك الحكام المحليون الذين عقدوا معاهدات سلام مع تغلات بيلاسر، تركوا كحكام موالين خاضعين لدفع الجزية، بينما تركت المناطق الأخرى تحت الحكم المباشر للولاة الآشوريين وأعيد إسكانها بنقل رجال القبائل من المناطق الواقعة إلى الشرق من بابل، ومع ذلك فقد أزعجت تلك الغزوة ساردور Sardur ملك أورارتو الذي سارع لتنظيم حلف معادٍ لآشور في الغرب ولقد أثبت نظام المخابرات والمواصلات الآشوري أنه أكثر فعالية من الأنظمة الأورارتية وقد أصبح جيش تغلات بيلاسر الآن مزوَّداً ومكتفياً نظراً لزيادة أعداد الخيول والبغال والجمال والمواشي التي حصل عليها بعد حملته على نامري Namri التي حصل من خلالها على حوالي خمسة عشر طناً من النحاس، وهكذا فقد زحف لمقابلة الجيوش المعادية في الغرب. ولقد ظهر أن الجيش الآشوري قد أوقع جيش التحالف في كمين سبّب انهزام جيش التحالف بشكل مأساوي فقد أخذت أعداد واسعة من الأسرى. وطبقاً لما ذكرته الحوليات، بلغ عددهم حوالي ثلاثة وسبعين ألفاً، بينما هرب ساردور من معسكره ليلاً تاركاً خلفه جميع ممتلكاته وحتى مجوهراته وختمه الشخصي وقد دَبَّر أمر هروبه وعبوره منطقة أعالي الفرات راجعاً إلى بلاده.

ولقد سارعت تلك الدويلات التي لم تدخل التحالف إلى دفع الجزية لتغلات بيلاسر ولقد قضى هذا السنة التالية في تعزيز وضع الآشوريين في الغرب، حيث حصلت تغيرات واسعة إدارية ولقد حُوِّلَت بعض الممالك التي كانت موالية لآشور، ولكنها برهنت أنها ليست أهلاً للثقة ولا يُعتمد عليها، فقد حُوِّلت هذه إلى ولايات آشورية تحت الحكم المباشر، ولكن بقيت بعض المناطق المنعزلة المضطربة. وخلال السنوات الثلاث التالية أشير إلى عدد من الأنشطة المعادية لآشور في سوريا في الحوليات والمراسلات الملكية. وقد تدرجت هذه الأنشطة ابتداءً من أعمال عسكرية صغيرة إلى اضطرابات محلية موجهة ضد الإجراءات الاقتصادية التي لم يرض بها الشعب. ولقد أرسلت رسالة من أحد الموظفين الآشوريين يصف فيها الأحوال في الموانئ التجارية في صور وصيدا وهي تقدم لنا وصفاً عن الأحوال في تلك المنطقة.

فقد كانت السلطات الآشورية قد فرضت ضريبة على الأخشاب التي كانت تجلب من لبنان ولكن المواطنين الغاضبين قد تمردوا وقتلوا جابي الضرائب الآشوري. ولهذا فقد سارع الحاكم العسكري الآشوري إلى الانتقام والعمل بنشاط فَجَلَبَ إلى المدن الثائرة فرقاً من جيوش إيتوا Itu'a الآشورية وهم جيش قبلي خشن استعمل لاستلام الواجبات البوليسية فيما بين السكان المدنيين المشاغبين. ويخبر كاتب هذه القصة الملك أن وجود تلك القوات أوقع الذعر في قلوب السكان. وعندما اكتفى تجار الخشب بما حصل من مظاهرة للجيش الآشوري أمرهم الحاكم الآشوري أن يستمروا في قطع الأشجار كما في السابق، ولكنه وضع حظْراً على تصدير الأخشاب إلى مصر والمدن الفلسطينية. ولقد اتهم ملكَيْ يهوذا والعبرانيين بالاشتراك بالاضطرابات التي جرت في ذلك الوقت وفرض عليهما تغلات بيلاسر الثالث دفع ألف مثقال من الفضة.

ويظهر أنه وفي السنوات التالية بقي تغلات بيلاسر الثالث في سوريا التي جعلها قاعدة لأنشطته بينما انشغلت وحدات من جيشه بالعمل في الشمال والشمال الشرقي لمتابعة النصر الآشوري الذي أحرزه ضد ساردور. ولقد أعاد فتح أراضي نايري Nairi الواقعة إلى الجنوب الغربي من بحيرة (فان Van) والأجزاء العليا من نهر الزاب الأعلى ولقد خضعت هذه المناطق في هذه المرة لسياسة التهجير للسكان الوطنيين وإعادة إعمار البلاد بجلب الأَسرى من الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية. ولقد وضعت المنطقة بأكملها تحت الحكم المباشر للولاة الآشوريين.

إن انسحاب جزء من الجيش الآشوري ربما قد أعطى للحكام الصغار في سورية وفلسطين فكرة خاطئة حول قوة آشور بينما الإجراءات الاقتصادية من النوع الذي وصف في إجراءات الحظر التجاري على تصدير الخشب من لبنان، ربما خَلَقَ هذا الحظر بعض الصعوبات. ففي عام ٧٣٤ ق.م حدثت بعض الاضطرابات في جنوبي فلسطين، حيث هاجم الاتحاد المؤلف من ايدوم Edom والفلسطينيين مملكة يهوذا التي كانت تحت حكم آحاز Ahaz ، بينما وفي أقصى الشمال تشكل اتحاد معادٍ لآشور مابين سوريا والعبرانيين ، وطبقاً لرواية العهد القديم، اتَّبع

آحاز سياسة موالية لآشور وطلب من تغلات بيلاسر العون فلبَّاه تغلات بيلاسر على معارضة المدن الفلسطينية وسوريا وتدخل لدى العبرانيين لتستبدل بيكاح بيوشع. ويشكو كتاب التواريخ في التوراة ويقولون إن آحاز كان مضطراً لأن يُقَدِّم دفعه من المال إلى تغلات بيلاسر رغم ولائه وقد أكَّدت الحوليات هذا القول، ويبدو أنه من المحتمل فيما لو كانت قصة العهد القديم صحيحة ومن الممكن الاعتماد عليها أن الدفعة المطلوبة لم تكن سوى ما كان معروفاً بالكيترو Kitru أي الدفع للقوة العسكرية لقاء المساعدة التي تقدِّمها لأحد الموالين لها في حالة حاجته للمساعدة.

ولكن ما لبث أن عمت الاضطرابات في منطقة جديدة عام ٧٣٤ ق.م عند وفاة ملك بابل الموالي لآشور وهو نابو ناصر، فقد كانت القبائل الكلدانية مسيطرة تمام السيطرة على جميع الأراضي البحرية Sea Lands (وهي أقصى أجزاء بابل الجنوبية) لمدة حوالي قرن من الزمن وكانوا يوسعون سلطتهم بالتدريج إلى أعالي دجلة والفرات. وفي عهد الفوضى التي سادت لدى وفاة نابو – ناصر قام أوكنزير Ukinzer وهو زعيم قبيلة الكلدانيين والتي تدعى بين اموكاني -Bit Amukkani بتمرد ضد الوريث الشرعي الموالي لآشور وهو نابو – نادين – زير (٧٣٤-٧٣٢ق.م) وتمكن أخيراً من الاستيلاء على العرش ولكن القبائل غير الكلدانية إلى الشرق من دجلة شمال بلاد بابل بقيت موالية لأشور وكذلك بشكل عام المواطنون الأشوريون وذلك على الرغم من استيلاء هذا المغتصب على العاصمة. وهناك بعض الدلالات على أن الدبلوماسية الآشورية قد نجحت في بذر بذور الكراهية ما بين شيوخ القبائل الكلدانية وذلك بإبقاء بعض قواهم على الحياد بما فيه أولئك التابعين لمردوخ – أبيل - إيدينا Marduk-Apil-Iddina وكان هذا زعيماً طموحاً قادراً قام بتزعُّم عصيان بنفسه فيما بعد والذي ذكر اسمه في العهد القديم تحت اسم ميروداش بالاذان. وبالنسبة لمعالجة أمور أوكين - زير ثبت أن استراتيجية تغلات بيلاسر أعطت أكلها فقد توجهت الحملة من ولاية أرابجا ومرَّ الجيش الآشوري خلال مجموعة من المدن عند عنق الزجاجة المشكل من تقارب التقاء دجلة والفرات، ودخل بابل عبر نهر دجلة من نقطة في أقصى الجنوب. ولقد

وضعت القوات الموالية لحراسة الطرق بينما تحرك الجيش غرباً لمهاجمة المدن البابلية. وهكذا فقد تحررت بابل من المتمردين الذين هربوا إلى سابيا Sapia وهي المدينة الرئيسية لدى قبيلة أموكاني Amukkani لتقمعه في منطقة المستنقعات على الفرات السفلي، ولقد طارد جيش آشوري أوكين - زير وحاصره في مدينته وسبب الخراب في أراضي بيت أموكاني وبقية القبائل الكلدانية المتمردة، وهي بيت شيلاني وبيت سعلاي، أمّا ميروداش بالادان والشيخ الآخر اللذان عقدا اتفاقات صداقة مع آشور فقد أُعْفَيَا من العقاب. ولقد استغرق هذا الأمر حوالي ثلاث سنوات وهكذا فقد أصبحت بابل تحت حكم ولاة آشوريين وقام تغلات بيلاسر في عام ٧٢٩ ق.م فقد صافح إله بابل في الاحتفال بالسنة الجديدة وهذا يعني أنه قد مُنِح صلاحيات الإله مردوخ بالنسبة للملكية في بابل لأول مرَّة، إذ إنه قد مرَّت أكثر من أربعمائة وخمسين عاماً لم يتولَّ فيها أي ملك آشوري حكم بابل. وقد توفي تغلات بيلاسر عام ٧٢٧ق.م وترك آشور مسيطرة على إمبراطورية ممتدة من الخليج العربي إلى حدود مصر وتشمل جزءاً لابأس به من بلاد الأناضول وكليكيا.

لقد اعتبرت العمليات الآشورية العسكرية الممتدة جنوباً حتى غزة بالإضافة إلى تعطيل التجارة المصرية بسبب الحظر الذي فرضته آشور على تصدير الأخشاب إلى مصر من لبنان، لقد اعتبرت كل هذه الأعمال تهديداً لمصر. وفي زمن شلمناصر الخامس القصير الأمد وهو خليفة تغلات بيلاسر عمد المصريون إلى القيام بمحاولة لقلب الدويلات الصغيرة في فلسطين وجنوب سوريا. ولقد تورط هوشيا ملك العبرانيين أيضاً بحيث سبب لنفسه هجوماً قام به شلمناصر. وقد تبع ذلك الاستيلاء على السامرة العاصمة العبرانية بعد حصار دام ثلاث سنوات من الزمن وتبع ذلك تنفيذ السياسة المعتادة وهي عمليات التهجير فقد نقلت القبائل العبرانية العشرة إلى مقاطعة غوزانو Guzanu وإلى المنطقة الواقعة جنوب شرق بحيرة أورميا.

لقد كان الاستيلاء على السامرة الذي كان يُعزى في التوراة إلى شلمناصر إنما اتمه خليفته سيرجون. ومن المحتمل أن سرجون كان هو القائد الذي أشرف على العمليات بالنيابة عن شلمناصر. لقد تميَّزت بداية حكم سرجون ٧٢١-٧٠٥ ق.م

بحدوث اضطرابات جديدة في بابل. وهناك فقد عمل أحد شيوخ قبيلة بيت ياكين Bit-Yakin وهو ميروداش بالادان وهو دبلوماسي لامع على وضع نفسه في مركز قوي فقد نصَّب نفسه رئيس شيوخ الكلدانيين وقد أمَّن دعم القبائل الآرامية في بابل ورَتَّب تحالفاً مع عيلام وهي المنافس القديم لبابل في جنوب إيران. وبعد صعود سرجون إلى العرش سرعان ما دخل ميروداش بالادان بابل وادَّعى أحقيَّته بملك تلك البلاد. وذلك بمصافحة الإله بعل في عيد رأس السنة عام ٧٢١ ق.م ولقد حاول الجيش الآشوري تكرار المناورة شرقي نهر دجلة التي هُزِمَ فيها أوكن - زير. ولكن في هذه المناسبة لقد واجهه الجيش العيلامي في (الدير Der) وتلا ذلك وقوع مواجهة لم يستطع بها الجيش الآشوري. ومع أنه لم يُهزم أن يعبر إلى مدينة بابل واضطر أن يرجع إلى آشور. ونظراً لانشغال سرجون في قضايا أخرى فقد اضطر أن يترك ميروداش بالادان دون أي تدخل لمدة عشر سنوات وفي أثناء هذا الوقت تكبدت المدن الكبرى في بابل أضراراً فادحة فقد كان رجال القبائل يتدخلون بتدفق التجارة بحرية ويسببون الازعاجات في المدن. أما سيطرة الكلدانيين فقد كانت مرفوضة شعبياً بالنسبة للمدن العظمى في بابل. وخلال السنوات القليلة قبل سقوط آشور نفسها ظلَّت هذه المدن تناشد الملك الآشوري المساعدة ضد الخراب والدمار الذي كانت تُسَبِّبُه القبائل الكلدانية.

إن السبب الرئيسي الذي أجبر سرجون على ترك مشاكل بابل دون حل، هو نشوب التمردات في سوريا. وقد كان هذا الحدث مناسباً بالنسبة لميروداش بالادان، ولكن لا يمكننا إثبات أنه كان وراء هذه التمردات ولقد تزعَّم هذا العصيان مدينة حماة وهي الإدارة السورية الوحيدة المستقلة. ولقد واجه سرجون وهزم هؤلاء العصاة في كركر عام ٧٢١ ق.م وحوَّل حماة نتيجة لذلك إلى ولاية آشورية. ولقد أشار رجل السياسة والنبي أشعيا إلى الدرس الذي ينبغي لنا أن نتعلمه من تلك الحوادث معتبراً أن آشور هي الأداة التي يستخدمها الإله للانتقام ويقول:

«أنت يا آشور العصا التي تنبئ عن غضبي، أنتِ المنفذة لغضبي سوف أرسل ضِدَّها أمَّة نجسة قذرة وسوف أوكل آشور بالعمل ضد الشعوب التي نزل عليها

غضبي وأن نأخذ الغنائم والفرائس وأن تدوس آشور أعدائي وكأنهم الوحول الموجودة في الشوارع».

ولقد طال غزة شيءٌ من غضب آشور وقد كانت مصر تدعم غزة عن طريق أحد قوادها وهو الذي يطلق عليه اسم (سو So) في العهد القديم ولكن عند حدوث المواجهة في رابيهو Rapiho عمد القائد المصري إلى الهرب بشكل مُخْزٍ تاركاً ملك غزة معرَّضاً للأسر والعذاب وربما الموت. هذا وقد علَّق راب - شيخ Rab-Shakeh على قيمة التحالف مع مصر بقوله:

«إنك قد وثقتَ بهذه العصا المصنوعة من القصب الهش وحتى على مصر، فإذا اتَّكأ عليها أي إنسان، فإنها سوف تنهار وتتكسر في يده وتجرحها وهكذا حال من يعتمد على ملك مصر».

وعدا عن تلك المحاولة التي قد أَجْهضت والتي قامت بها مدنية أشدود الواقعة على سواحل فلسطين الجنوبية وذلك لتنظيم حلف مقاوم لآشور تدعمه مصر عام ٧١٢ ق.م وبمساعدة مملكة يهوذا وصيدوم وموأب، لذلك لم يصادف سرجون أي متاعب من فلسطين. ويشير أشعيا إلى الاستيلاء على أشدود على يد القائد الآشوري وينصح أهالي أورشليم بعدم الاعتماد على الدَّعم العسكري لمصر ضد آشور.

وكما كان الحال بالنسبة إلى تغلات بيلاسر، فقد كانت المشكلة الرئيسية لسرجون هي الضغط الذي بدأ من الشمال. أما مملكة أورارتو التي عرفت تواريخ ثقافتها نتيجة للحفريات التي قام بها الأتراك والروس والتي برهنت أن أورارتو كانت واحدة من القوى العظمى في الشرق الأدنى القديم، فقد كانت هي نفسها تحت ضغط شديد من قِبل القبائل الإيرانية المهاجرة والتي كانت تتحرك شمالاً وغرباً ابتداءً من سهوب روسيا. ولقد استقرت إحدى كتل هؤلاء المهاجرين أثناء حكم سرجون وشكلت مملكة ذات بعض الأهمية تدعى مملكة زيكيرتو Zikirtu إلى الشرق من بحيرة أورميا وكان الجزء الأكبر من هذه الكُتَل هم الميديون الذين كانوا منظمين تنظيماً رخواً حسب الأنظمة القبلية يحكمهم بعض الزعماء بشكل

شبه مستقل. ولقد حاول روساس الأول Rusas I (٧٣٣-٧١٤ق.م). وهو الابن النشيط والوريث للملك ساردور الذي قهره تغلات بيلاسر، حاول هذا بمساعدة حظ وافر من النجاح أن يتفق مع ثلاثة من الزعماء الميديين وأمَّن دعمهم له ضد آشور وكذلك تعاونهم في إبقاء الطرق التجارية مفتوحة من الشرق وهذه كانت قضية أساسية بالنسبة لازدهار أورارتو. وفي حوالي هذه الفترة كانت الطريق الرئيسية من بلاد فارستمر بالشاطئ الغربي لبحيرة أورميا إلى الشرق من بحيرة فان وحتى أرزروم (حيث وجدت أشياء برونزية تعود إلى القرن الثامن ق.م) وتستمر الطرق التجارية إلى تريبيزوند Trebizond على البحر الأسود. ولقد كانت أورارتو حقاً تتمتع وتجني فوائد التجارة مع بلاد فارسوربما مع الهند. ولقد دلَّ على هذا وطبقاً لأقوال بعض الثقات تلك الأشياء التي ذكرت عندما نهبت آشور بعض المدن الأورارتية عام ٧١٤ ق.م وهناك إمكانية أن تكون لأورارتو حملات تجارية مع بعض البلدان فيما وراء بلاد اليونان نظراً لأنه قد وجدت بعض الأدوات البرونزية في بعض القبور الأتروسكية (في إيطاليا) ويضيف بعض العلماء أن القوافل المحمَّلة بالحرير قد وصلت إلى أورارتو من بلاد الصين وأن التجارة التي كانت تتبع الطريق الشمالية من خلال أرزروم Erzerum وتيريبيزوند Trebizond كانت تمر في آشور في الماضي ثم إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط. وكانت الرغبة في قطع الطرق التجارية الأورارتية وتحويل مجراها وإرجاع الازدهار في آشور إلى سابق عهده، هي من الأسباب التي حملت سرجون على تتابع غزواته في المنطقة. وإلى الجنوب من بحيرة (أوريما) وما بين الأراضي الآشورية وأراضي الميديين الجبَّارين كانت تقع أراضي المانايين Mannaeans وهم من الشعوب التابعة لآشور والتي كانت تدفع بها الجزية. وبعد اعتلاء الملك سرجون على العرش بمدة قصيرة ظهرت الاضطرابات في الجزء الشرقي من هذه المنطقة والتي أثارها ملك زيكيرتو Zikirtu الذي كان يدعمه بدوره روساس. ولقد عالج سرجون هؤلاء المتمردين ولكن عادت الاضطرابات بعد سنتين عندما تورط روساس في أعمال عسكرية علنية صريحة. ولكن سرجون عاد وانتقم بضراوة وبعد أن تخلَّص من المتمردين عيَّن الوسونا Allusunu ملكاً على المانيين، وبعد سنتين هوجم ألوسونا من خلال بعض

الدسائس الداخلية والأحوال الخارجية، وذلك على يد أورارتو ولكن وللمرة الثانية برهن سرجون أنه النِّد الملائم للوضع فقدَّم لألوسونا كل المساعدات اللازمة وقام بغارة تأديبية على الحدود الجنوبية لأورارتو، وبالإضافة لهذه التدخلات المتكررة من قِبَل أورارتو في شؤون الأشخاص الموالين لآشور، كان هناك وخزات متطرفة بشكل صدامات حدودية. ولمعالجة هذا الوضع وضعت خطط لغزوة على مقياس واسع لأورارتو ولقد وصلت إلى آشور تقارير من موظفين من المخابرات الآشورية ومن الجواسيس الأجانب، ولقد اقترح أحدهم أن يقوم الملك بهجوم مباشر على أورارتو وكان واثقاً أن العاصمة توروشبا سوف تسقط بيد الآشوريين، وقد ذكرت رسالة أخرى أنه قد حدثت بعض الاضطرابات داخل أورارتو وأن القبائل المجاورة سوف تناصر آشور في حالة غزوها لأورارتو، وقد توقع الجميع حدوث غزوة.

وفي صيف عام ٧١٤ ق.م قامت قوات آشور بعمل مظاهرة خطّط لها ضد أورارتو ولقد عرفت الحوادث بالتفصيل من تقرير مشهور بالنسبة للقضية وكان بشكل رسالة إلى الإله آشور. ولقد نقل سرجون جيشه إلى مقاطعة زاموا وهي من أراضي الحكام الموالين لآشور، وبعد ذلك قاد آشور سرجون جيشه شرقاً إلى أراضي زيكرتو حيث استولى على المدن المحصَّنة وابادها. ثم توجه غرباً مرة ثانية، حيث علم أن القسم الرئيسي من جيش أورارتو وحلفائهم كانوا يدافعون عن ممر ضيِّق في الجبال: وفي هذه النقطة وكما حدث مع الاسكندر الأكبر عند هجومه على الهند فقد ظهر أن جيش سرجون الذي تعب وقاسى من تلك الحملات التي جَرَت في أراضٍ صعبة، قد أصبح قاب قوسين من التمرُّد ولهذا فقد قام سرجون لوحده مع حرسه الشخصي بالهجوم على جناح القوات المعادية ونجح في تشتيت شملها. وعند ذلك تشجع الجيش الآشوري ودَبَّ الحماس في قلوبهم فهاجموا الجيش الأورارتي مع التحالف واخترقوا صفوفهم وسببوا الذعر في نفوسهم. ولهذا فقد عمد القائد الأورارتي للانسحاب وقاد جيشه في تراجع سريع ولكنه منتظم ولكن الوحدات الأخرى من الجيش التي أصبحت دون قيادة هربت بشكل فوضوي فوق الجبال، حيث هلك عدد كبير منهم بسبب أحوال الطقس القاسية. ولقد كان انكسار

وهرب الجيش الأورارتي قد شكَّل صدمة لمعنويات الأورارتيين فاستطاع سرجون أن يخترق دون مقاومة قسماً عميقاً من الأراضي الأورارتية، وهكذا فقد غادر روساس عاصمته توروشبا Turushpa (التي لم يجرؤ سرجون على مهاجمتها) والتجأ إلى الجبال، حيث مات حزناً وكمداً طبقاً لما ذكره سرجون:

«لقد انطرح في الفراش كالنساء في حالة الولادة ورفض أن يمس فمه الطعام أو الشراب وهكذا فقد أوقع نفسه في مرض لا دواء له».

وبعد أن انهارت الإدارة الأورارتية المركزية أصبح سرجون قادراً على الزَّحف إلى شمال بحيرة فان وانشغل بالنهب والسلب والخراب دون مقاومة تذكر. وفي أثناء مرحلة العودة من الشمال وجد سرجون أن أحد الحكام المنفردين وهو اورزانو Urzanu حاكم مدينة موزازير رفض الاعتراف بسرجون سيّداً له، وهكذا ورغم أن تلك المدينة كانت بعيدة وصعبة المنال من خلال الغابات والجبال، وجد سرجون أنه من الضروري أن يعطي درساً لموزازير Musasir مع أنها كانت مقدسة. فعمد سرجون إلى ترك جيشه في مسيرة العودة إلى آشور فقاد فصيلاً من جيشه يتألف من ألف فارس وهاجم المدينة وأعلن لدى جيشه أن هرب أمير موزايير يجب أن يمنع وكان سبب هذه الأوامر وحتى ضرورة ملاحقة أمير موزازير نفسه أصبحت واضحة للسبب التالي: لقد كانت المدينة مركزاً من المراكز الدينية الطقوسية لهالدي Haldi وهو إله أورارتو الوطني. ولقد وصل سرجون إلى المدينة ليجد أن هناك عيداً للتتويج يجري على قدم وساق وكان الإله هالدي Haldi يعيّن خليفة (وربما كان هذا الخليفة أمير موزازير Musasir نفسه) للمنصب الشاغر وهو ملك أورارتو ولهذا فقد قام سرجون بأسر الإله نفسه ومرافقيه وهجَّر أهالي المدينة ونقل كنزاً ثميناً من المعادن الثمينة والأدوات البرونزية إلى آشور.

ومع أن سرجون لم يأخذ العاصمة الأورارتية، ومع أن إحدى النقوش الأورارتية قد ذكرت جانباً آخر من الصورة، فإن روساس (قبل أن يصاب بالمرض العضال الذي ذكره سرجون) قام بهجوم معاكس ناجح لاستعادة موزازير، ومع ذلك فقد

كانت حملة سرجون ذات أثر كبير، بحيث أنه لم تحدث أية اضطرابات ناتجة عن أورارتو خلال العشرين عاماً التالية أو أكثر.

لقد أصبح سرجون الآن حرّاً لمعالجة شؤون بابل. فلقد مضى عليها حوالي عشرة أعوام من الحكم القبلي وخراب التجارة مما شجع سكان المدن الكبرى على قبول أي تدخل آشوري. بينما خدمت الأحوال الداخلية في عيلام على شلّ حركة الملك العيلامي، بحيث لم يعد قادراً على التصرّف، ولهذا فقد بدأ سرجون بتنفيذ الاستراتيجية المعتادة وهي الهجوم إلى أسفل حوض دجلة وهذا أجبر الجيش الكلداني على التقهقر بينما انتهزت المدن في بابل الشمالية الفرصة ففتحت أبوابها ورَحَّبت بسرجون وهكذا فقد صافح سرجون الإله في عيد رأس السنة في بابل ولكنه اتخذ لنفسه لقب نائب الإله بدلاً من لقب ملك بابل. وهكذا فقد تم الاستيلاء على أراضي ميروداش – بالادان وتم الاستيلاء على قلعته، فما كان منه إلا أن قدَّم خضوعه وطاعته لسرجون الذي عيَّنه زعيماً ورئيساً لقبيلة بيت ياكين.

وفي أثناء ذلك وصلت إلى سرجون تقارير استخبارية تفيد أن خليفة روساس وهو أرجستس Argistis كان يخطط للقيام بهجوم على آشور مع أن الجيش الذي كان يجمعه ربما كان يريد به أشياء أخرى، وعلى أي حال وفي عام ٧٠٧ ق.م دخل قطيع كبير من البرابرة يدعون الجميرايا Gimirraya أورارتو من الشمال وقهروا جيش أرجستس Argistis وأبطلوا محاولته لإيقافهم ومرّوا غرباً إلى كليكيا، وهنا وصلوا إلى أراضٍ خاضعة لآشور، ومن المناسب أن نلخص هنا مجرى الحوادث في هذه المنطقة خلال حكم سرجون:

في أوائل حكم سرجون تضاربت مصالح (الموشكو) (وهي دولة قوية في جنوب غربي آسيا الصغرى) مع مصالح آشور. ففي عام ٧١٨ ق.م بدا وأن موشكو كانت محرَّضة لعصيان قامت به كركميش (التي أصبحت ولاية آشورية نتيجة لهذا العصيان). وفي عام ٧١٦ ق.م قام سرجون بعمل عسكري ضد موشكو بدعوى أنها قد قامت باعتداء على بعض أراضي ولاية كوي Que. وبعد نجاح سرجون ضد أورارتو عمدت هذه لإقامة شبكة التحالفات في الغرب ونجحت في الاتفاق مع

موشكو وفي إحباط تحالف أحد الأمراء التابعين لسرجون. وقد استطاع سرجون معالجة شؤون هذا المتمرّد ولكن استعداد موشكو لتقديم دعم معنوي لجميع الخارجين على حكم آشور بالإضافة إلى الضغط الحاصل من أورارتو، كل هذا أثبت أن هذه الأوضاع لا ينبغي أن تحدث خلال الدويلات التابعة لآشور، ففي عام ٧١٢ ق.م حدث تمرُّد آخر، وهكذا فقد وُضعت الدويلة المتمردة تحت الحكم المباشر كولاية آشورية وقد خُضعت هذه الدويلة بالإضافة إلى موشكو وتابال لتكون إسفيناً طويلاً يفصل موشكو وأورارتو. وفي عام ٧٠٩ ق.م حصل هجوم على موشكو من قبل كوي Que وهكذا تغيرت السياسة الخارجية في موشكو فأصبحت موالية لآشور فأرسل ملكها ميتا Mita (وهو ميداس حسب الأساطير اليونانية) هديه وطلب إجراء معاهدة مع آشور ولقد ابتهج سرجون من هذا التغير وأرسل رسالة إلى مبعوثه الخاص المسؤول عن المفاوضات وربما كان هذا ابنه سنحاريب وطلب منه أن يبلغ (ميتا) عن خالص سروره منه.

هكذا كان الوضع عند ظهور موجة الجميريا أو السميريين Cimmerians (حسب اللفظة التقليدية) في الشمال الغربي بعد المحاولة الفاشلة التي قام بها أرجستس لإيقافهم وتشير الشواهد في علم الآثار إلى كالح Calah (التي كانت لا تزال مركزاً إدارياً هاماً مع أن سرجون وفي أثناء القسم الأخير من حكمه قد بنى عاصمة جديدة في أقصى الشمال (دور شاروكين Dur-Sharrukin) تشير الشواهد أن كالح قد شهدت مشهداً من مشاهد العُنف والتخريب في زمنٍ ما في العقد الأخير للقرن الثامن ق.م. ومن الممكن اعتبار هذا شاهداً (مع عدم وجود ما يدعم هذا الافتراض) على المفاجأة التي أحدثتها غارة السيميريين على واحدة أو أكثر من المدن الآشورية. لهذا فقد زحف سرجون متجهاً إلى تابال عام ٧٠٦ ق.م وقابل قطعان السيميريين في المعركة. وهناك شواهد مُبْهمة أتت من بعض الرسائل تشير أن سرجون قد قُتل في المعركة ولكن ليس هناك ما يثبت هذا القول. ومهما كان أسلوب موت سرجون، إلا أنه توفي بالتأكيد عام ٧٠٥ ق.م وبنفس الوقت تحرَّكت القطعان البربرية بعيداً إلى داخل آسيا الصغرى.

لقد كان خليفة سرجون وهو ولده سنحاريب (٧٠٤-٦٨١ ق.م) إدارياً مجرِّباً وجندياً شجاعاً عمل في الحدود الشمالية. وقد وصلت إلينا أعداد من التقارير تشير إلى إحداثه كثيراً من التطورات والتحسينات في تلك المنطقة. وهكذا فإن عدم قيام سنحاريب بأي عمل في الحدود الشمالية عند تسلُّمه السلطة، ربما نُفسِّره ليس كفشل سنحاريب في فهم المشكلة بل كنتيجة لنجاح الوالد في معالجة هذه المشكلة.

لقد استفاد سنحاريب من الوضع العسكري الذي ورثه عن والده سرجون، فكان أول عمل وافضل عمل باقٍ له هو إعادة بناء وترميم مدينة نينوى القديمة واختيارها عاصمة، حيث ظلت كذلك حتى سقوط الإمبراطورية الآشورية، أما دورشاروكين (خورساباد الحديثة) التي كان سرجون قد خطط لجعلها عاصمة له وانتقل إليها في السنوات الأخيرة من حكمه، فلقد استخدمها سنحاريب كقلعة فحسب.

لقد انتُهِك السلم في الإمبراطورية بعد سنتين من حكم سنحاريب وذلك بسبب قيام بعض الاضطرابات في بابل. ونظراً لبعض الأسباب التي تعتبر خاضعة للتخمين، فقد ألغى سنحاريب عادة مصافحة يدي بعل في بابل بل ثبت ادعاءاته بحقه في الملكية. ووظيفة نائب الملك في بابل، أما (ميروداش بالادان) الذي بقي مخلصاً لملكية سرجون، فقد اعتبر الآن أن الفرصة قد أصبحت سانحة لعمل ادِّعاء جديد لأحقيَّته في مُلك بابل، وكان الكلدانيون والآراميون وراء هذه الفكرة. ولقد أكَّدت له عيلام دعمها ولذلك فقد بدأ بعمل تحالف ضد آشور. وفي السنوات التي سبقت عصيان عام ٧٠٣ ق.م حدثت تلك السفارة ما بين ميروداش بالادان وحزقيا ملك العبرانيين .

وفي عيد رأس السنة لعام ٧٠٣ ق.م قامت آشور بوضع أحد أبناء بابل وهو من أتباعها ملكاً بصفة رسمية، وفي الحال تحرَّك ميروداش بالادان على رأس جيش باتجاه العاصمة وعزل الملك الرسمي وبدأ في إعداد المنطقة الشمالية التي تشمل المدن البابلية الشمالية للحرب ضد آشور التي سوف تباشر بها آشور حتماً. ولقد

كانت تشكيلات ميروداش العسكرية تنحصر بالجنود العيلاميين، اختير قسم منها للتمركز في كوثاه Cuthah للوقوف أمام جيش سنحاريب وقد كان القسم الأكبر من هذه العساكر متمركزاً في كيش Kish. وهنا أرسل سنحاريب جماعة من الجنود ليقطع كيش عن كوثاه، بينما بادر الجيش الرئيسي إلى الاستيلاء على كوثاه بالقوة. وبعدها تقدم الجيش الآشوري الرئيسي وقابل الحلفاء في كيش وهزمهم وهكذا عادت جميع المدن وشمال بابل إلى السيطرة الآشورية ولقد استقبلت بابل سنحاريب كما فعلت عند مجيء والده بحفاوة وترحاب وحماس. وهكذا عادت الصداقة المتبادلة نظراً لأن عمليات النهب انحصرت بقصر ميروداش بالادان الذي نهبه الآشوريون.

وبعدها تقدم الجيش الآشوري لإعادة احتلال وهدم الحصون في جميع المناطق الكلدانية، وعندها تركت المنطقة الكلدانية تحت حكم موظفين آشوريين، بينما وُضعت منطقة بابل الشمالية تحت حكم ملك بابلي يدعى بيل – إيبني Bel-Ibni وهو أحد الأمراء الأجانب الكثيرين الذين عاشوا كرهائن في البلاد الملكي الآشوري وقد تربوا هناك انتظاراً لاستخدامهم في مثل هذه الأوضاع.

ولقد حدث عصيان في فلسطين ربما كان ميروداش – بالادان يتمنى حصوله عند قيامه بالاضطرابات ضد آشور. وذلك في عام ٧٠١ ق.م. ولقد تورط حزقيا ملك يهوذا في هذا العصيان مع أن ذلك كان ضد نصائح أعظم رجل من مستشاريه وهو أشعيا. وقد كان حزقيا أقوى ملوك الدويلات في فلسطين في ذلك الزمن وقد أسس نوعاً من السيادة فوق المدن الفلسطينية ثم حاول التقرُّب من مصر مرة ثانية والتحالف معها. وهكذا هزم الحكام الفلسطينيين الموالين وكان أحدهم يدعى بادي ملك إيكرون وقد حُصر في أورشليم وبعد ذلك تقدم جيش آشوري قوي لاحتلال فلسطين وهزم العساكر المصريين في إيلتيكي Eltekeh واستولى على المدن المتمردة (عدا أورشليم) وكافأ الموالين له من الحكام الفلسطينيين بمنحهم أراضي كانت تخص مملكة يهوذا سابقاً ونظراً لأن الحوادث في بابل استدعت رجوع

سنحاريب باكراً، لذلك فلم يشدد سنحاريب حصاره لأورشليم وهكذا نجت مدينة (حزقيا) وذلك بإعلان خضوعه ودفعه تعويضاً ثقيلاً.

أما في بابل، فإنه لم يكد الجيش الآشوري الرئيسي ينسحب حتى عاد ميروداش – بالادان إلى قبيلته وبدأ من جديد مكائده مع العيلاميين والكلدانيين والقبائل الآرامية. أمّا بيل – إيبني فإنه كان مفتقراً إلى القدرة على السيطرة على القوات المسلحة، لذلك فلم يستطع أن يحافظ على كفاءة حكومته وفي عام ٧٠٠ ق.م أصبح من الواجب أن يقوم الجيش الآشوري بغزوة أخرى للأراضي الكلدانية وكذلك حملة تأديبية ضد العيلاميين. وهكذا عُزل بيل إيبني وعُيِّن آشور - نادين – شَوم Ashur-Nadin-Shum وهو أحد أبناء سنحاريب الصغار ملكاً بدلاً منه.

لقد حكم آشور – نادين – شوم في بابل مدة ستة سنوات. وقد مات ميرداتش بالادان بعد وقت قصير من اعتلائه العرش، ولكن بقيت عيلام تهديداً مستمراً لهدوء وسلام الأراضي البحرية وكانت تخدم كملْجأ للجماعات الناقمة من قبائل بيت ياكين، ولمعالجة الإزعاج العيلامي الخطر قررت السلطات الآشورية أخيراً القيام بهجوم بَحْري مباشر على المنطقة العيلامية المذكورة. وكان سنحاريب قد أسكن الحرفيين السوريين في نينوى، حيث أمرهم ببناء أسطول من السفن التي أبحر بها فوق مياه نهر دجلة وجلب بحارة من صور وصيدا وقبرص. وانتقلوا بواسطة قناة تصل إلى نهر الفرات، وحوَّلوا الفرات إلى رأس الخليج العربي وهكذا فقد نُقلت العساكر عن طريق القوارب إلى شاطئ عيلام، حيث أمَّنوا لأنفسهم رأس جسر رغم مقاومة العيلاميين والكلدانيين، ومن هناك قاموا بغارة سببت تخريب ونهب المدن العيلامية في الجوار وأسرت ما بقي من قبائل بيت ياكين المزعجة.

إن الإدعاء في حوليات سنحاريب أنه قد صبَّ في غارته الفزع في أراضي عيلام قد أعطى فكرة خاطئة كذَّبتها الحقائق، ولقد انتقمت عيلام بشدة. إذ بينما كانت جيوش سنحاريب لا تزال في الجنوب قامت عيلام بغزوه عبر نهر دجلة موجهة إلى بابل المدينة، حيث أسر الملك العيلامي آشور – نادين – شوم في سيبار ونصب ملكاً آخر لبابل مكانه، وهو أحد أبناء بابل واسمه نيرغال – آشوزيب. وفي أواسط

عـام ٦٩٣ ق.م قامـت العـساكر الآشـورية الـتي كانـت عائـدة بحـذر مـن الجنـوب، بالانتصار على نيرغال آشوزيب في نيبور ولكـن لم يَرد أي ذكـر فـي الحوليات عن أية محاولة لمعالجة قضية بابل، حيث تقدم زعيم كلداني آخر اسمه موشيزيب - مردوخ Mushezib-Marduk ونصب نفسه ملكاً بعد أن نال دعم الآراميين وبعد مضي أكثر من موسمين على قيام تلك الحملات في الأراضي البحرية، أصبح مما لا شكَّ فيه أن الجيوش الآشورية أصبحت بحاجة للرجوع إلى قواعدها لإعادة التنظيم والتموين، ولهذا لم تحدث إلا هجومات سريعة على بابل. وبدلاً من ذلك وبعد أن فهم واعترف سنحاريب أن عيلام قد أصبحت العامل الفاصل في السياسة البابلية، لذلك فقد تعهد سنحاريب بعمل إجراءات لتلافي هذا الخطر. وفي عام ٦٩٢ ق.م حدث هجوم آشوري ضد عيلام قادم من ولاية (دير) كانت نتيجته أن ألحقت بعض الأراضي العيلامية بالإمبراطورية الآشورية. ولقد منعت الأحوال المناخية آشور من التوغل في أراضي عيلام نفسها. أما في بابل فقد أعلن موشيزيب - مردوخ العصيان ورفض الاعتراف بسلطة الحاكم الآشوري. ولكن استطاعت السلطات الآشورية ا لمحلية احتواء هذا العصيان. هذا وقد هرب موشيزيب – مردوخ إلى عيلام وعاد إلى بابل مصطحباً جيشاً وأعلن نفسه ملكاً على بابل متَّبعاً سياسة ميروداتش – بالادان فأرسل رشوة فجزية إلى عيلام من كنوز المعابد وطلب المساعدة العسكرية منها. ولذلك فقد جمع ملك عيلام جيشاً عظيماً من بلاده ومن المناطق الحاقدة والتي كانت تدور في فلك آشور، فانقلبت على آشور والتحقت بجيش الكلدانيين ولقد زحف هذا الجيش الكبير شمالاً إلى ولاية أرابخا وقابل الجيش الآشوري في هالولي Halule على نهر ديالا وتفيد حوليات سنحاريب عن وقوع مذبحة تلت ذلك الهجوم وأن جيوش آشور كانت تغوص في بحر من الدماء. وامتلأ السهل بجثث القتلى الذين قطِّعت أجسادهم طلباً للخواتم والأساور أو لمجـرَّد حبٍّ في سفك الدماء. وكانت الخيول المذعورة تجر عربات الموتى.

ولكن الجيش الآشوري ومع أنه ادَّعى النَّصر، إلا نه تعرَّض لخسائر فادحة ولم يستطع معها أن يستثمر انتصاره. ففي عام ٦٨٩ ق.م حدثت اضطرابات داخليّة في

عيلام سبّبت انشغال البيت الحاكم، فاستطاع الآشوريون الذين كانوا قد عوّضوا عن خسائرهم في معركة هالولي، استطاعوا معالجة شؤون موشيزيب – مردوخ أما القوى الكلدانية فقد تراجعت إلى بابل، حيث حوصروا لمدة تسعة أشهر وأخيراً استسلموا بعد أن أصابهم المرض والمجاعة، عندها دخل الجيش الآشوري إلى المدينة، وبدأ بالسلب والنهب عكس سياسته الماضية ولقد أُخِذَ تمثال الإله مردوخ إلى آشور كأسير وهكذا فقد اتَّخذ سنحاريب لقب ملك سومر وأكاد (جنوب وشمال بابل) وهكذا توقفت الاضطرابات في بابل مدة ثماني سنوات.

وبالنسبة لحدوده الشمالية فقد أصبح سنحاريب وليس لديه أي مشاكل مع أورارتو نظراً لأنشطة والده سابقاً وخبرته الجيدة في المنطقة والضربة التي تلقتها أورارتو من السيميريين. ولقد حدثت بعض الاضطرابات في منطقة كيو Que في المنطقة الشمالية الغربية عام ٦٩٦ ق.م ربما كانت مسبَّبة عن وجود جيوب مقاومة للسيميريين الذين بقوا بعد أن كسر سرجون جيشهم الرئيسي، أما بالنسبة للحدود الشرقية فقد ضم سنحاريب بعض المناطق بعد الحملة ضد ميروداش – بالادان عام ٧٠٣-٧٠٢ ق.م وكانت هذه المناطق مستقلة سابقاً أو في حالة تبعية لآشور. وقد حصَّن بعض المدن في المنطقة ضد أية هجومات عيلامية.

وبالنسبة للسياسة الداخلية فقد اشتهر سنحاريب بنشاطه المعماري وباهتمامه ببعض المشاكل التقنية. فهو الذي أعاد بناء نينوى، وأنشأ شوارع حديثة ووسَّع السَّاحات ووجَّه مجاري المياه، وبنى مصدَّات حجرية للطوفان لحماية قصره الجديد. وبنى حديقة كبيرة حول القصر وزرع فيها جميع نباتات الكلدانيين، وفيما وراء تلك الحدائق الجميلة كان هناك بساتين. ولكي يروي كل هذه المناطق الخضراء حُفرت قناة طولها ستة أميال، وبعدها وسَّع سنحاريب حدائقه بزرعها بنباتات جلبها من سوريا وكذلك نبات المرّ وجمع أنواع الكرمة. وبعدها وسَّع مصادر المياه وعن طريق السدود أنشأ مستقعاً صُنعياً ملأه بالطيور المائية والخنازير البريّة والغزلان وذلك تقليداً لما كان لدى بابل من النباتات والحيوانات. وقد وُجدت آثار لأعمال سنحاريب الهندسية وهي لا تزال ماثلة، فقد وُجد خندق لنقل المياه إلى بعض الوديان.

وكان طول هذا الخندق حوالي ثلاثمائة ياردة وعرضه أربع وعشرون ياردة. واحتوى على حوالي نصف مليون طن من الحجارة والصخور. ويصف سنحاريب أعماله هذه في نقوش وُجدت على الخندق تقول: »لقد حفرت قناة تصل إلى المروج في نينوى وعملت جسراً من قطع الأحجار الكلسية فوق الوديان بحيث أصبحت المياه تمر فوق تلك الوديان، ولقد وضعت بعض المشاريع لإمداد مدينة أرابيلو (أربيل) بالمياه ولقد وقف سنحاريب اهتمامه بالقضايا التقنية وقال إنه اخترع تقنية جديدة في صناعة البرونز، فقال: «أنا سنحاريب ومن خلال ذلك الذكاء المتوقد الذي وهبني إياه الإله العظيم إيا Ea وبعد التجارب التي أجريتها والتي لم يسبقني إليها أحد، فقد بنيت قوالب من الصلصال تمثل اثني عشر أسداً هائلاً مع اثني عشر عجلاً هائلاً وصببت البرونز فيها».

وفي عام ٦٨١ تعرَّض سنحاريب لأحد تلك الحوادث الشائعة فيما بين الملوك الشرقيين وذلك لأنه قد اغتيل في بابل على أيدي أولاده. وطبقاً للرواية التوراتية فقد حدث هذا الاغتيال بعد رجوعه من حملة في فلسطين ولكن ليس هناك من تسجيل لهذه الحملة في المصادر الآشورية، وقد كان الخليفة الشرعي الذي عيَّنه سنحاريب ووافق عليه الآلهة ونبلاء آشور هو أسرحدُّون ولقد اكتسب هذا الأمير خبرة مرموقة أثناء حياة والده نظراً لأن سنحاريب قد جعله مسؤولاً عن شؤون بابل بعد نهبها عام ٦٨٩ ق.م. وقد ساعدته خبرته هذه. فقد توقف قليلاً للحصول على موافقة الآلهة وبعدها ودون التوقف لإعداد جيشه وتموينه بادر بالمعركة السريعة للقضاء على قتلة والده من الجهة الغربية. ولقد استعدَّ قتلة والده لمقاومة أسرحدون في منطقة نصيبين ولكن ولدى وصوله نشب الخلاف بين قوادهم، وذلك لأن بعضهم قد علم من نبوءة أن الإلهة عشتار كانت تعطف على أسرحدون. ولهذا فقد هرب قتلة الوالد إلى أرمينيا (أورارتو) وهكذا فقد اعتُرِف بأسرحدون وأيَّده شعب آشور. وبعد أن أصبح أسرحدون الحاكم المنتصر حدث تطهير في الجيش وعوقب الذين اشتركوا في العصيان وواجهوا المصير المحتوم.

لقد انتهز زعيم قبيلة بيت ياكين فرصة فترة الفوضى التي رافقت تولي أسرحدون السلطة فقام بتأكيد استقلاله وهاجم الحاكم الآشوري في بابل وحصره في المدينة، حيث قام بتولي الحكم في ا لمملكة الجنوبية. وحالما سُوِّيت الأمور في آشور أمر أسرحدون بمهاجمة المتمردين في الولايات الآشورية إلى الشرق من نهر دجلة وقد هرب زعيم المتمردين إلى عيلام وهي الحلف القديم لبيت ياكين. حيث وجد أن سياسة عيلام قد تغيَّرت بعد أن تغيَّر الملك هناك. وهكذا فقد اعتقل المتمرد الهارب وأعدم في عيلام. ولقد قدم أخو الزعيم المقتول خضوعه وولاءه لأسرحدون وهكذا فقد عُيّن أميراً تابعاً على جميع الأراضي البحرية. وبعد سنتين استبدل الزعيم الكلداني بزعيم آخر موالٍ لآشور.

وفي أثناء ذلك واجه أسرحدون مشاكل في الغرب والشمال الغربي. فقد هاجمت أورارتو بعض الشعوب من عنصر عرقي جديد وكان هذا العنصر الجديد هو السكوتيون Scythians والمعروفون حسب المصادر المسمارية باسم أشكوزايا Ashguzaya وفي التوراة باسم الأشكناز وهناك بعض الشواهد التي تفيد أن أسرحدون قد قام بحلف مصاهرة مع أحد الأمراء السكوتيين ومن المحتمل أنه وتحت ضغط هؤلاء السكوتيين ظهرت مجموعات من السيميريين مرة ثانية في منطقة تابال وولاية هيلاكو Hilakku وفي عام ٦٧٩ ق.م قام الحكام الآشوريون بعمل ناجح ضد هؤلاء ولكن ضغطهم ازداد عنفاً وفي عام ٦٧٣ ق.م هددوا ولاية شوبريا وفي نهاية حكم أسرحدون خسرت الإمبراطورية الآشورية ولايتي هيلاكو وتابال.

أما الاضطرابات في الغرب فكانت متمركزة في صيدا، فقد تمرَّد ملكها وتحالف مع ساندواري Sanduari وكان هذا حاكماً لبعض المدن الواقعة على خليج أنطاكية. ولهذا تقدم أسرحدون واحتلَّ وأعدم كلا الملكين ونهب صيدا وأسس قربها حصناً آشورياً وكإشارة محذّرة من اضطرابات أخرى كرَّس الحصن بحضور اثنين وعشرين ملكاً من ملوك الأراضي الغربية. ولتأمين السلم في الجانب الصحراوي للولايات الغربية، حيث كان ملك العرب قد توفي منذ عهد قريب

ولتأمين صداقة القبائل في صحراء سيناء على طريق مصر أرسل اسرحدون جيشاً لتوطيد سلطة الزعيم الذي عيَّنه الآشوريون ملكاً وذلك لقاء دفع جزية ثقيلة.

أما في بابل فإن سياسة أسرحدون المصالحة لبابل أنتجت وضعاً مواتياً لآشور هناك. فقد كانت بابل التي خرَّبها سنحاريب قد بدأت في إعادة ترميمها في نهاية عهده ولقد نُفذت أعمال إعادة البناء من قِبَل أسرحدون. وتصف إحدى النقوش إعادة بناء بابل بشكل فكاهة كيف أن المشيئة الإلهية من الممكن تطويقها والمراوغة في تنفيذها، ففي أثناء نهب سنحاريب للمدينة كتب الإله مردوخ يقول إنه قد قرر أن يدوم خراب المدينة سبعين عاماً ولكن النقوش تدّعي أن الإله بعد أن تغلبت على سورة غضبه قلب اللوح رأساً على عقب وأمر بإعادة بناء المدينة في مدة أحد عشر عاماً ومعنى ذلك واضح بالنسبة للكتابة البابلية حسب العلامة المسمارية T تمثّل واحداً وستين وهكذا إن الرقم المسماري المقابل للعدد تشك (تسعة) يدُلّ على العدد سبعين ولكن إذا قُلِب فإنه يصبح أحد عشر.

لقد عادت الإدارة النشيطة إلى بابل وكان هذا بفضل التربية الحسنة للمواطنين، فقد أرجع المنفيّون بعد الفوضى الكلدانية إلى أملاكهم إذا استطاعوا إثبات ملكيتهم، وهكذا أصبح وضع آشور في بابل راسخاً ومؤمّناً بحيث أنه وفي عام ٦٧٦ ق.م كان من الممكن استعمال بابل كقاعدة لحملة متجهة إلى الصحراء الملحية في بلاد فارسحيث أجبر عدد من الملوك الوطنيين على دفع الجزية، وقد حدثت غزوة قام بها العيلاميون في السنة التالية دون حدوث أي تمرّد مقابلها وكانت تلك الغزوة ذات أهمية مؤقتة.

أما في الشمال الشرقي، فيظهر أن حكم آشور للمانيين إلى الجنوب من بحيرة أورميا قد أشرف على الضعف كنتيجة لتسرُّب العناصر السكوتية والسيمرية إلى تلك المنطقة. وهكذا خسرت آشور بعض معاقلها بالتحديد، وإن خسارة تلك الإمدادات من الخيول ربما فسّر سبب هجوم الآشوريين على هذه المنطقة في بلاد فارسفضلاً عن تزايد اهتمامها في شؤون ميديا، حيث قدَّم أسرحدون مساعدته إلى عدد من الزعماء لكي يصدّوا حركات التمرد. ولقد كشفت الحفريات ونشرت

جزءاً من الألواح المسمارية التي عرفت حتى الآن (١٨ أنش طول بـ ١٢ أنش عرض) وهذه تُقدّم نصوصاً عن سلسلة من المعاهدات مع الحكام الميديين. وكان الهدف من هذه المعاهدات هو تنظيم خلافة أسرحدون وربما أن أسرحدون قد تذكر الظروف التي سبقت استيلاءه على العرش فلذلك مال إلى اتباع هذا الموقف.

لقد كان أسرحدن قد أنجب ستة أولاد مات الطفل الأول في عمر مبكر ومن بين الآخرين هناك اثنان وهما شماش - شوم - أوكن Shamash-Shum-Ukin وآشور - بان - أبلي Ashur-Ban-Apli (أشور بانيبال) وهذان كانا لهما الحق في المطالبة بوراثة العرش، وليس من الواضح من كان الأكبر ولا يمكن إغفال الحقيقة أنه ربما كانا توأمين. ففي اجتماع كبير حافل في نينوى عام ٦٧٢ ق.م قام أسرحدون بعد موافقة الآلهة وموافقة مجلس العائلة، بإعلان آشور بانيبال ولياً للعهد في دولة آشور وشماش - شوم - أوكن ولياً للعهد في بابل. ولقد طُلب من حكام الولايات والحكام الموالين لآشور أن يقسموا أيمان الموافقة على هذا الإجراء وأما الأمراء الموالون فقد طلب منهم الإقرار والمصادقة على القسم ضمن معاهدة طُلب منهم ما يلي:

عند وفاة أسرحدون ملك آشور سوف تنصبون آشور بانيبال ولي العهد على العرش الملكي وسوف يمارس شؤون الملكية في آشور فوقكم. ولسوف تحافظون عليه في الأرياف والمدن ولسوف تحاربون حتى الموت لأجله ولسوف لا تظهرون العداوة له ولا أن تنصبوا أحد أخوته بدلاً منه. وفي حالة وفاة أسرحدون ملك آشور في حالة كون أولاده صغاراً قُصّراً، ينبغي عليكم عندها مساعدة آشور بانيبال ولي العهد على اعتلاء عرش آشور وأن تساعدوا شماش - شوم - أوكن أخاه أن يصبح ولي العهد في مملكة بابل أو ملكها فيما بعد.

لقد نشرت تفاصيل وراثة العرش أثناء فترة الهدوء في الإمبراطورية بعد وقت قصير من قيام أسرحدون بتطوير واسع النطاق في السياسة الإمبراطورية. ففي عام ٦٧٥ ق.م قام طارقو Tarqu وهو من الأسرة الحبشية التي كانت تحكم مصر، بتحريض ملك صور لعمل بعض الدسائس ضد آشور ولهذا فقد قرر أسرحدون أن

يضرب رأس الفتنة، وعبر الحدود المصرية ولكنه لم يستطع التقدُّم لحصول عاصفة رملية. وفي عام ٦٧١ ق.م نُظمت غزوة مرتبة على مصر وقد هُزمت جيوش طارقو في معركة فاصلة وحوصرت ممفيس ثم سقطت. وقد هرب طارقو بنفسه إلى طيبة أو إلى مكانٍ ما إلى أقصى الجنوب. وهنا سارع أمراء مصر السفلى بما فيهم نخو أمير سايس إلى الاعتراف بسيادة أسرحدون. ولقد عُيّن موظفون آشوريون كممثلين لمصالح أسرحدون داخل حدود أراضي الحكام المحليين. وهكذا أعلن أسرحدون نفسه ملكاً لمصر السفلى والعليا وأثيوبيا. وقد كان هذا الإدعاء يفوق الحقيقة. وقد كرَّرت الكذبة في نصب تذكاري أقيم في زنجيرلي Zenjirli أثناء عودة أسرحدون إلى آشور. ويظهر هذا النصب المنتصر الآشوري حاملاً حبالاً تمد خلال شفتي شخصين راكعين أحدهما ملك صور والآخر يمثل طارقو. والحقيقة أن طارقو كان لا يزال حُرّاً طليقاً وفي وضع يمكنه من ممارسة نفوذ لا بأس به وبعد أن رجع الجيش الآشوري من مصر عاد طارقو وأقنع بعض أمراء مصر السفلى برفض حكم الحاكم الجديد وأعاد احتلال ممفيس عندها عاد أسرحدون عام ٦٦٩ ق.م للزحف إلى مصر لمعالجة الوضع ولكنه توفي وهو في طريقه إليها.

عند وفاة أسرحدون سارت الخطط التي نظمها بشأن وراثة العرش على ما يرام وقد استلم كلا الأخوين عرشيهما ولم يكن هناك أي دليل بأن الإمبراطورية الآشورية سوف تقترب من نهايتها في نهاية حكم آشور بانيبال. نظراً لأنه ومن وجهة جغرافية كانت الإمبراطورية الآشورية الآن قد بلغت أقصى مداها. ومع ذلك كان هناك بعض العوامل التي من الممكن رؤيتها والتي يمكن أن تخدم في تفسير أسباب سقوط الإمبراطورية الآشورية المفاجئ. وكان أول هذه العوامل وأهمها هو الوضع في الحدود الشمالية. إذ بدا أن النظام الذي أرساه تغلات بيلاسر الثالث وسرجون الثاني وحافظ عليه سنحاريب قد سقط بشكل مؤسف. إذ وبوجود تلك القطعان من السكوتيين والسميريين والبرابرة الذين كانوا يطوفون فوق أراضي آسيا الصغرى وأراضي أورارتو، عندها توقف النشاط التجاري مع المناطق الشمالية وتوقف أحد المصادر الرئيسية للحديد وقُطِع. وقد بدأت القبائل الميدية التي كانت توصف في

حوليـات تغـلات بيلاسـر الثالـث وسـرجون الثـاني باسـم الميـديين الأقويـاء والميـديين الـسّريعي الانتـشار وذلـك اعترافـاً بامتـدادهم الجغـرافي، بـدأت هـذه القبائـل الآن بالاستقرار والتكوُّن بشكل وحدات قوية أصبحت أخيراً مملكة قادرة على مواجهة قوى آشور العسكرية على قدم المساواة. وبالإضافة إلى ذلك فإن اتحادهم قد حَرَمَ آشور من مصدر آخر هام للمعادن والخيول وقطع طرق جلب التوابل والأحجار شبه الكريمة من الهند. ولقد احتوت بابل الآن التي هدأت أحوالها على إدارة مؤسسة على الدويلات - المدن القديمة فـي الشمال، هـذه المملكـة قـد أصبح فيهـا الآن عنـصر جديد وهو القبائل الكلدانية. وكانت هذه القبائل مسيطرة على جميع أراضي بابل فضلاً عن مناطق لابأس بها فـي الشمال سـواء كـان ذلـك بـشكل مستقل أو تحت سـيادة آشـور. ولقـد تعلـم الكلـدانيون مـن الآشـوريين فنـون الحـرب ومـن البـابليين الوطنيين فنون السلم.

وفي بداية حكم آشور بانيبال خطر على باله إنجاز الترتيبات للهجوم على طارقو فـي مصر ولكـن نظراً لتلك الالتزامات الأخرى مثلاً إقامة معاهدة مع ملك صور الذي أظهر استعداده للخضوع. وكذلك قضية تنصيب شماش - شوم - أكن ملكاً على بابل بالإضافة إلى حملة تأديبية على منطقة الكاشيين، لذلك ونتيجة لوجود هذه المعيقات استمر طارقو حاكماً على مصر دون منازع لمدة ثلاث سنوات، وفـي عـام ٦٦٧ ق.م زحـف جيش آشـوري قـوي تدعمـه فـرق مـن سـوريا وفينيقيـة وفلسطين وقبرص، زحف هؤلاء على مصر. ولقد هزم طارقو وانسحب إلى طيبة وعادت ممفيس خاضعة للنفوذ الآشـوري، ولكـن الأمـراء الـوطنيين قـاموا بمحاولـة للعـصيان تأييـداً لطـارقو وكـان (نخـو) قائـد هـؤلاء ولكـن القـوى الآشـورية اعتقلـت زعمـاء العـصيان وأخمدت المؤامرة ولكن نظراً لضرورة استخدام أمراء وطنيين في الإدارة العامة فـي بـلاد مثل مصر مع وجود نظام بيروقراطي فعّال خصوصاً وأن الأمـراء المستخدمين كـانوا يعـاملون معاملـة خاصّـة وبرفـق بعـد أن يؤخـذوا إلى نينـوى ويحمّلـون الهـدايا والهبات السخية والأحزام فلا شك أنهم سوف يدخلون فـي علاقات ودية ومعاهـدات صداقة مع آشور عندما يعودون إلى بلادهم.

وبعد وفاة طارقو بُذلَت محاولة أخرى لاستعادة مصر قام بها حكام الأسرة المصرية الجنوبية عام ٦٦٤ ق.م. وقد قام ابن أخيه تانيواتامون Tanuatamun بالزحف إلى منطقة النيل السفلي حتى ممفيس، حيث طرد أمراء الدلتا الموالين لآشور والذين قد أتوا لمقاومته. ولكن كان جواب آشور بانيبال سريعاً وحازماً فدخل جيش آشوري مصر مرّة ثانية عام ٦٦٣ ق.م، فما كان من الأمراء الموالين لآشور إلا أن قدَّموا فروض الطاعة بينما هرب تانيواتامون كما فعل عمه من قبله وبسرعة. ولقد تحرَّك الجيش الآشوري الإمبراطوري جنوباً باتجاه طيبة العاصمة القديمة التي استولى عليها ونهبها ولقد سبَّب هذا الحادث انطباعاً فظيعاً خلال مناطق البحر الأبيض المتوسط. وبعد حوالي نصف قرن أشار النبي ناحوم إلى مصر تلك المدينة التي سماها نو-أمون No – Amon:

«هل أنت أفضل من نو أمون التي كانت واقعة بين الأنهار وكانت المياه تجري حولها؟ وكانت بلاد الحبشة ومصر من مؤيّديها وكانت قوتها لا حدود لها. ومع ذلك فقد هُزمت واستغرقت في الأسر ولقد قطعت أجساد أطفالها إرباً إرباً في نواحي الشوارع وقد رُبط جميع رجالها العظام وقُيِّدوا بالسلاسل».

وفي أثناء فترة الاستيلاء على مصر يبدو أن آشور قد انشغلت بحركات عسكرية صغيرة في الشمال الغربي. فقد كان السيميريون الذين طردهم سرجون من سوريا يواجهون الآن ضغطاً من قِبَل السكوتيين في الشرق ومن بعض الغزاة الهندو-أوروبيين من تركيا، وكانوا قد هاجموا أراضي موشكو (أي بروجيا) وبدأوا الآن بالضغط على مملكة ليديا ربما كان بسبب نفس الضغط الجديد والمتجدد وذلك لأن حكام تابال وهيلاكو وهم حكام الأراضي التي انفصلت عن الولايات الآشورية أثناء حكم أسرحدون، لقد أسرعت هذه الأقطار في وضع أنفسها تحت حماية آشور بانيبال هذا وقد أرسل جايجيز Gyges ملك ليديا سفارة إلى آشور بانيبال يطلب صداقته بناءً على نصيحة تلقاها من إلهه في أحد أحلامه، ويطلب منه مساعدة عسكرية ضد السيميريين، ويبدو أن حلمه قد تحقق لأن جايجيز استطاع أن يلحق الهزيمة بالسيميريين وبعد انتهاء حملته أرسل بعض الغنائم

إلى نينوى (حوالي عام ٦٦٣ ق.م) ومع ذلك فقد أدَّت المصالح التجارية المشتركة بين ليديا ومصر وكلاهما من القوى المرموقة في منطقة البحر الأبيض المتوسط، إلى تقديم الدعم لبساميتيكوس جايجيز Psammetichus وهو ابن نيخو في طرده للحامية الآشورية عام ٦٥٠ ق.م ونتيجة لذلك توقف دعم آشور لجايجيز في آسيا الصغرى وفي عام ٦٥٢ ق.م تعرَّض جايجيز لهجوم السيميريين. ولكن محاولتهم لغزو شمال سوريا قد أخفقت بسبب تدخل الجيوش الآشورية في منطقة كليكيا.

لقد شهدت سنة نهب طيبة ٦٦٣ ق.م، وفاة نيخو الذي نصَّب الآشوريون مكانه كأمير لسايس Sais ابنه بساميتيكوس الذي استحوذ على مركز مرموق وهو السيادة على أمراء الدلتا وذلك بعكس اتفاقية قديمة ذكرها هيرودوتوس. طبقاً لما قاله هيرودوتوس فقد تنبأت إحدى المتنبآت أن الانتقام سوف يحل ببساميتيكوس بشكل قدوم الرجال البرونزيين من البحر. ويفسر هيرودوتوس ذلك بأنهم القراصنة القادمين من اليونان وآسيا الصغرى الذين سوف ينزلون إلى البر على شواطئ مصر ويصف كيف أنه وفي ذلك الوقت قام بساميتيكوس بالصداقة مع أولئك القراصنة لإنجاز مصالحه. والحقيقة أن الرجال البرونزيين لم يكونوا سوى جنود مُرتزقة أتوا من السواحل شمال منطقة البحر الأبيض المتوسط وخصوصاً من ليديا وبمساعدة هؤلاء استطاع بساميتيكوس طرد الحامية الآشورية من مصر ما بين عام ٦٥٨-٦٥١ق.م.

لا عجب أن لاتجد أية تفاصيل في حوليات آشور بانيبال حول الانسحاب الإجباري لآشور من مصر، نظراً لعدم رغبة الآشوريين في تسجيل التفاصيل عن انكسارهم الذي لم يستطيعوا بعده الانتقام. ومن المؤكد أنه وبسبب الحوادث في بابل لم تستطع آشور أن تقوم بأي ردود كان من المنتظر أن تقوم بها.

لقد عادت التوترات التي حدثت في بابل التي خضعت لأسرحدون، إلى الظهور في حكم شماش - شوم - أوكين ولكن لقد اشتدت هذه التوترات بسبب الإجراءات التي أحدثها أسرحدون للحد من تلك التوترات. إذ الحقيقة أن بابل كانت تحت حكم شماش - شوم - أوكين، ولكن معظم الحكام الآشوريين كانوا

مسؤولين لدى أخيه آشور بانيبال ملك آشور. وتشير المراسلات إلى أن الموظفين الآشوريين وبقية الموظفين قد رفضوا التقيّد بأية أوامر لا تصدر خلال القنوات الرسمية والآتية من ملك آشور. وهكذا وفي زمن أسرحدون ذكر أحد التقارير أن أحد الأشخاص في بابل قد أمسك ببعض المتشردين ورفض تسليمهم دون وجود ممثل شخصي عن الملك أو وجود رسالة تحمل الختم الملكي. ولقد كان هذا الموقف سبباً في حدوث بعض الاحتكاك حين يهمل أحد الموظفين أوامر شماش - شوم - أوكين إذا لم يوافق عليها ملك آشور، وهو آشور بانيبال. وقد وجدت رسالة أرسلها شماش – شوم – أوكين إلى أخيه آشور بانيبال يذكر فيها أنه كان مُجبراً على تغيير وإبطال أوامره الخاصة ومع ذلك فقد استمر الحكم الثنائي هذا مدة اثني عشر عاماً على الأقل، وفي أثناء هذه المدة استطاع آشور بانيبال أن يشل حركات العدو الأساسي والحقيقي لبابل وهو عيلام.

لقد أصبحت مملكة عيلام القديمة الآن تحت ضغط القادمين الجدد من بلاد فارسالذين كانوا يتقاطرون بسرعة. أما المجموعة العرقية المعروفة فيما بعد باسم الفُرس فقد استقرت في القسم الشمالي الشرقي من المملكة، حيث حصلوا على استقلالهم الفعلي. بينما عمد حكام بعض الولايات الشرقية إلى الحكم الذاتي. أما منصب الملك فقد تعرَّض لإزعاجات وتغيّرات فجائية كما كان الحال في بابل منذ عام ٧٣٤ ق.م. ولكن ليس من الواضح فيما إذا كان ذلك عبارة عن عرض أو علامة أو سبب من أسباب السقوط.

وبعد مصادمات صغرى نشبت الحرب ما بين عيلام وآشور عام ٦٥٥ ق.م استطاع الآشوريون التغلب على العدو واستولوا على العاصمتين التوأمين ماداكتو Madaktu وسوزة Suza ونصبوا أحد أفراد العائلة الملكية الموالي لآشور ملكاً. ولقد بدأ حكام آشور بانيبال وجواسيسه في إرسال التقارير المحذّرة له وهي أن شماش – شوم – أوكين كان يتآمر ضد آشور، وقد كان هذا التغير في الموقف عائداً إلى التطورات في عيلام، نظراً لأن تلك البلاد كانت تهديداً لأمن بابل، إلا أنه كان هناك مصالح واحدة ما بين إدارة آشور بانيبال وإدارة شماش – شوم –

أوكـين، ولكـن ظهـر أن هـذا العامـل قـد اختفـى الآن، وفـوق ذلـك ظهـر أن آشـور بانيبـال قد ارتكـب غلطـة فـي اختيـاره أميراً معيَّنـاً، للعـرش العيـلامـي، ولقـد كتب شماش - شوم - أوكين رسالة إلى أخيه يعلق فيها على تعيين هـذا الأمير فقـال: «إذا كنـتُ سـوف أفـصح عـن رأيـي فـأقول إنـني أخـشى هـذا الأمـير اومـان - اغـاش Ummani gash ولي العهد. فهو خطـر». ويبـدو أن تقييم شمـاش – شـوم – أوكـين لهذا الرجل كـان لـه مـا يبرره، فقـد اتَّبـع سياسـة التحـالف مـع القبـائل الكلدانيـة، ونظراً لأن تلك القبائل كانت في ذلك الوقت قد حازت على دعم كافٍ من بورسيبا وبابل لـذلك فقـد سبق شمـاش – شـوم – أوكـين نفسـه إلى مـواطن الدسـائس، ولقـد رحـب بساميتيكـوس فـي مـصر بالتحـالف وكـان هنـا منـشغلاً فـي طـرد الحاميـات الآشـورية مـن بـلاده وقـد وافـق أعـراب الـصحراء علـى هـذا أيضاً. ولقـد نـشب النـزاع الحقيقـي عـام ٦٥٢ ق.م عنـدما تحـرَّك جيش عيلامـي ضـد شمـال بابـل بينمـا هـاجم شمـاش – شـوم – أوكـين المـدن الكـبرى الـتي كانـت تحتلـها الحاميـات الآشـورية، ولكن أخيراً انكسر الجيش العيلامي وحدثت ثورة داخلية تسببت فـي تغيير آخـر للملـك وجمّدت نـشاط القـوى العيلاميـة لمـدة عـام أثنـاء إعـادة التنظيم. وهـكـذا فقـد انتهز الآشوريون الفرصة وأمسكوا بزمام المبادرة. وطـردوا القـوى الكلدانيـة المنظمـة من جنـوب بابـل وحاصـروا بورسيبا وبابـل وبهـذا قطعـوا المواصـلات مـا بـين الـشركـاء الرئيسيين فـي التحالف. وفـي عام ٦٥٠ ق.م فشلت محاولة للعرب فـي كـسر الحـصار عن بابل كما فشلت غارة على الحدود الشرقية لفلسطين. وفـي أثنـاء ذلـك استمرت الأحوال فـي عيلام بالتقهقر وفـي عام ٦٤٩ ق.م نشبت الحرب رسمياً. فقـد ظهـر ثلاثـة مـدَّعين للعـرش قـد طلبـوا مـساعدة آشـور ودعمهـا ولكـن الجماعـة المناوئـة لآشـور سيطرت على الموقف وعيَّنـت الـشخص الـذي اختارتـه. ونتيجـة للانقسامات الداخليـة فـي عيلام لم يحـظ شمـاش – شـوم – أوكـين بـأي دعـم عـسكري فقـد ظـل مرابطـاً فـي بابـل المحاصـرة ودافـع عنهـا حتـى أجبرتـه المجاعـة بالتـسليم عـام ٦٤٨ ق.م حـين أصبحت الأحوال مخيفة لدرجة فظيعة بحيث التجأ المدافعون إلى أكـل لحـوم البـشر. ولكـي يُجنب نفسه وجَسَده التشويه، أتلف شمـاش – شـوم – أوكـين نفسه بإلقـاء جسمه بـين ألـسنة اللـهب العظيمـة وقـد نُهـب قـصر الملـك المتوفى وقـضي علـى جميـع

الزعماء المتمردين الذين بقوا أحياء. وقطِّعت أجسادهم وأصبحت طعاماً للكلاب والخنازير والذئاب والطيور الجارحة وطيور السماء وأسماك البحر. ولقد احتل آشور بانيبال عرش بابل لمدة سنة واحدة. أما بالنسبة لبقية حكمه فقد حكم من خلال نائب الملك الذي كان يدعى كندالانو Kandalanu ولكن يقال إن اسم كاندالانو هو الاسم ا لذي كان يُعرف به آشور بانيبال في بابل.

لقد تدخلت آشور الآن مرة ثانية في قضية وراثة العرش في عيلام، فقد زحف جيش آشور إلى سوزة Susa عام ٦٤٨ ق.م ولكن لم تحدث أية تسوية دائمة في البلاد، بل استطاع نابو – بيل – شوماتي وهو حفيد ميروداش – بالادان أن يستخدم عيلام كقاعدة لنشاطات القبائل الكلدانية ضد بابل. وفيما بين سنة ٦٤٢ وسنة ٦٣٩ ق.م زحف الجيش الآشوري مُخترقاً عيلام ومخرباً جميع المدن ثم استولى على سوزة ونهبها ونقل جميع آلهتها وتجهيزات المعابد إلى آشور وقد دنّست المقدسات وشوِّهَتْ قبور ملوك العيلاميين بحيث تلحقهم اللعنة بعد موتهم. وأصبحت أشباحهم تقاسي من الفزع والقلق والعطش نظراً لافتقارهم للتقديمات المعتادة من الطعام وإراقة دماء الأضاحي. ولقد قُبض على عدد كبير من الموظفين الكبار وجميع أفراد العائلة المالكة من جميع فروعها وأخذوا أسرى إلى آشور بينما ألحقت بعض الوحدات المقاتلة المتخصصة بالجيش الآشوري. وقد أُخذ كثير من عامَّة الشعب أيضاً إلى آشور بالإضافة إلى قطعان المواشي والخيول. ولقد أرجع تمثال الآلهة نانا آلهة إيريش الذي كانت عيلام قد أخذته قبل ألف وخمسمائة عام، أرجع هذا التمثال إلى وطنه الأصلي. ولا شك أن هذا العمل قد أكد لآشور بانيبال الدعم الفعلي لإدارة المعبد في إيريش التي أصبحت منذ هذا الوقت عاصمة منطقة بابل الجنوبية.

ولقد نجا ملك عيلام أومان – الداش Umman-Aldash من الأسر بالالتجاء إلى الجبال. ولدى انسحاب الآشوريين عاد إلى (ماداكتو)، حيث أصبحت (سوزة) بلداً قفراً خالياً من السكان وعبارة عن كومة من الأنقاض ولم يعد ملك عيلام في وضع يستطيع به حماية نابو – بيل – شوماتي الزعيم الكلداني، وعندما طلب آشور بانيبال تسليم ذلك الأمير أمر نابو – بيل – شوماتي حامل أسلحته بقتله. قام اومان –

الداش بإرسال جثته التي حفظها من التلف بوضع الملح عليها إلى آشور بانيبال الذي شعر بأنه لم يستطع إنزال العقاب بهذا الأمير وهو حي، فانتقم من روح عدوه وذلك برفض دفن جسم ذلك الأمير.

أما أومان - الداش نفسه فقد وقع أخيراً في قبضة الآشوريين وهناك نقش نافر موجود في المتحف البريطاني يظهر ذلك الحاكم الأسير منقولاً في عربة لِيُسلَّم إلى آشور بانيبال. أما العنصر الثاني المتورّط في العصيان البابلي فهم العرب الذين لم يكونوا ليؤلفوا أية مشكلة خطيرة، وفي سلسلة الأعمال التي حدثت ما بين عام ٦٤١ و٦٣٨ ق.م استطاع أحد الجيوش الآشورية إنزال الهزيمة بالعرب وقبائلهم وأسر زعمائهم وربط اثنين منهم في أوكار الكلاب عند أبواب نينوى العظيمة.

لا تمتد حوليات آشور بانيبال الذي حكم حتى عام ٦٢٦ ق.م إلى ما وراء عام ٦٣٩ ق.م وبالنسبة للمعلومات حول الحوادث التي جَرَت خلال الثلاثة عشر عاماً الباقية من حكم آشور بانيبال علينا الاعتماد على بعض التلميحات التي وردت في المراسلات الرسمية وعلى الوثائق التجارية والصلوات والأدعية الموجهة للآلهة، وهناك إحدى الأناشيد التي تشير إلى الحالة المؤلمة:

«على وجه الأرض هناك الاختلافات وفي القصر هناك النزاع، وهذا النزاع وهذه الحالة المؤلمة تلازمني ولا تبرح عن جانبي، والعصيان والمؤامرات الشريرة تحاك باستمرار ضدي».

إن هذه الأناشيد تشير بالطبع إلى الخصومات حول وراثة العرش، وبالتأكيد وبعد وفاة آشور بانيبال عام ٦٢٦ق.م حدثت محاولة لاغتصاب العرش وكان الوريث المختار آشور – إيتلو – إيلي Ashur-Etillu-Ili مضطراً لشق طريقه إلى العرش، فالتسلسل الزمني للوقائع ما بين وفاة آشور بانيبال وسقوط نينوى عام ٦١٢ ق.م يتضمن صعوبات جمة.

لقد ضخَّمَت الشواهد ولكنها تعقدت بنفس الوقت وذلك بعد قراءة نقش أمرت بإقامته والدة آخر ملك من ملوك الأسرة الكلدانية والتي كانت كبيرة الكهنة في

حرَّان ولقد عاشت هذه السيدة الطيبة مئة عام وأربعة أعوام. ويقول النقش ((إنها عاشت اعتباراً من السنة العشرين من حكم آشور بانيبال ملك آشور (عندما ولدت) حتى السنة الثانية والأربعين لحكمه وحتى السنة الثالثة لحكم ولده آشور – إيتلو – إيلي وحتى السنة الحادية والعشرين من حكم نابو بولاسر، وحتى السنة الثالثة والأربعين من حكم نبوخذ ريزر وحتى السنة الثانية من حكم الملك أميل مردوخ وحتى السنة الرابعة من حكم نيري غايسار بحيث يكون ذلك خلال خمسة وتسعين عاماً.))

وعاشت حتى بداية حكم ابنها. ولما كان هذا التاريخ يقدِّم لنا الزمن الذي انتهى به حكم آشور بانيبال عام ٦٢٦ أو عام ٦٢٧ق.م، ونظراً لأنه من المعلوم من مصدر آخر أن نابوبولاسر استلم المملكة في بابل في شهر تشرين الثاني عام ٦٢٦ ق.م، فإن السنوات الثلاث التي قُدّرت لحكم آشور- إيتلو- إيلي في بابل تبدو بأنها سوف تقدم لنا مشكلة، فإذا لم نرغب في اعتبار هذا التناقض مجرَّد نسيان في الذاكرة بالنسبة لشخص قد تقدّم به العمر، فإن هذا التناقض ربما يتمثل فترة من الزمن ادعى فيها كل من آشور – إيتلو – إيلي ونابو بولاسر الملك في بابل. وبالتأكيد فإن آشور - إيتلو- إيلي قد مارس السيطرة الفعلية في بابل في برهة من زمن حكمه القصير، وذلك نظراً لأن أحد النقوش يظهر أنه استطاع تقديم الحماية إلى بعض شيوخ قبيلة كلدانية في بيت – داكوري بينما تعهد بترميم أحد المعابد في ديلبات Dilbat وهي واقعة على بعد خمسة عشر ميلاً من جنوب بابل، ومن المؤكد أيضاً أن القائد الكلداني نابو بولاسر اتَّخذ لقب ملك بابل في أواخر عام ٦٢٦ ق.م، وإن مصداقية حكمه وسيطرته تظهر من أن الوثائق التجارية التي وجدت في بابل وإيرلين وأور مؤرخة ابتداءً من حكمه. وإن تفسير هذه الصعوبة هو أن سيطرة آشور على بعض أجزاء بابل لم تكن قد توقّفت كلياً عندما تسلَّم نابو بولاسر مقاليد الملكية، وتؤكد رواية بيروسوس (وهو كاهن بابلي عاش في القرن الثالث ق.م وقد كتب باللغة اليونانية عن التاريخ البابلي) وهو يؤكد ذلك عند التكلم عن نابو بولاسر بصفته متمرداً ضد سن – شار – إيشكون -Sin-Shar

Ishkun. وهذا يوضح أن آشور كانت لا تزال تمارس بعض السلطة في بابل عند صعود الأخير إلى العرش ويعتبر هذا عادة وريث آشور – إيتلو – إيلي، الذي حكم مدة سبع سنوات على الأقل وهذا ما يظهر من تواريخ العقود. وتقترح قائمة الملوك التي اكتشفت حديثاً أن حكم آشور – إيتلو – إيلي وسن – شار- إيشكون قد مضى جزئياً في الماضي مما يدل أن كلاً منهما قد حكم جزءاً من الإمبراطورية التي كانت تحكم سابقاً كوحدة من قِبَل آشور بانيبال. وربما أشار هذا إلى وجود بعض التوترات التي تقترب من الحرب الأهلية داخل آشور نفسها. وإنه وخلال حكم سن – شار – إيشكون اشترك نابو بولاسر في حلف عمل أخيراً على إسقاط آشور.

إن الشعب الذي تحالف معه نابو بولاسر هو الشعب الميدي. ولقد قابلنا هؤلاء لآخر مرة أثناء حكم أسرحدون عندما كانوا يتألفون من عدد كبير من القبائل المتحالفة ولكن المستقلة وربما في بداية حكم آشور بانيبال قامت هذه القبائل بتشكيل مملكة واحدة زعيمها هافاك شاترا Havak-Shatra والمعروف في بابل باسم أرماكيشتا وبالنسبة لهيرودوتس عرف باسم سواكسارس Syaxares. وليس من المؤكد معرفة التاريخ الذي حصل هذا الرجل على استقلال الأمة الميدية عن آشور. ولكن هناك قصة رواها ديودوروس سيكولوس (وهو رجل من صقلية كان معاصراً ليوليوس قيصر وكتب تاريخ العالم) تقول إن نابوبولاسر (بيليز) قد شجع سواكسارس بأن يعادي آشور ووعده بالنجاح وهذا يوحي أن ذلك لم يحدث إلا بعد موت آشور بانيبال. وعلى كل حال فإن كلا المصادر اليونانية والمسمارية تؤكد أن نابو بولاسر وسباكزاريس كانا كلاهما مشغولين في الأعمال الحربية بعد عام ٦٢١ ق.م بوقت قصير.

لم تكن آشور دون حلفاء بشكل كلي، فهناك المصريون الذين مع أنهم لم يهتموا بالتوسّعات الأرضية إلا أنهم اهتموا بشكل كبير بأي تطوّر يطال منطقة البحر الأبيض المتوسط تجارياً أو يطال أمن مصر. ولهذا فلا شك أن مصر لم ترغب في رؤية سوريا وشمال منطقة ما بين النهرين تحت التصرُّف الكلي للسيطرة الميدية. وفوق ذلك فقد بقي ذلك التهديد الذي كانت تمثله القطعان المتجولة من البشر

شمالاً وهم السيميريون والسكوتيون والقبائل من البدو الرُّحل الآخرين من أصل هندوأوروبي وقد ظهرت آشور مع ما كانت تتمتع به من الهيبة العسكرية المتوارثة منذ عدة قرون، ظهرت بأنها الحامي الوحيد ضد ذلك التيار من البرابرة. ويطلق على هؤلاء اسم السكوتين ولكن الحقيقة أن عنصر السكوتين لم يكن سوى جزء وإذا حكمتا حسب المصطلحات الآشورية، فقد كانوا جزءاً هاماً ومسؤولاً.

وبالنسبة للولايات الآشورية والدويلات الموالية وبينهم مملكة يهوذا، فقد أظهروا العداوة تجاه آشور. أما الآخرون وخاصة جزء من المانيين فقد قدموا دعماً حقيقياً لمليكهم. وحتى في بابل كان هناك في مدنها بعض الموالين لآشور حتى زمن سقوط نينوى نهائياً. ولقد ظهر هذا بصفة خاصَّة في أيريش حيث يُظن أنه قد حدث عصيان فيها إيريش تأييداً لآشور وذلك حوالي عام ٦١٤ ق.م.

ليس هناك من تفاصيل من المصادر المسمارية حول المراحل الأولى من أنشطة نابوبولاسر. ولكن من الواضح أنه وفي عام ٦١٧ق.م كان هذا الملك قد نظَّف بابل من الحاميات الآشورية جنوب المنطقة حول ذلك العنق الذي يكاد دجلة والفرات يلتقيان بعضهما بعضاً ولقد زحف نابو بولاسر الآن إلى أعالي الفرات متجهاً نحو المقاطعات الآرامية. وهي مقاطعة سوحو Suhu وهندانو Hindanu ما بين حيت Hit ومصب الخابور اللتان كانتا جزءاً من الإمبراطورية الآشورية لمدة تزيد عن قرنين ونصف ولقد صادف نابو بولاسر بعض النجاح في هذه المنطقة إذ خضع الآراميون بسرعة وباءت المحاولات الأولية المناهضة لآشور بالفشل. وقد كانت الاستراتيجية الأصلية المخططة تشمل إجراء تمرُّد عام ضد آشور في الولايات الشرقية بتزامن مع هجوم على نينوى من الشرق والغرب من قِبل الميديين والكلدانيين، ومع ذلك فإن اقتراب ذلك الجيش الموحَّد من الآشوريين والمصريين أجبر نابو بولاسر على الانسحاب إلى بابل، ولهذا فقد تحركت القوى المتحدة لآشور ومصر شرقاً إلى ولاية أرابخا، وينبغي أن نتذكر أن تلك الولاية التي أسسها تغلات بيلاسر الثالث واستخدمها هو وحلفاؤه كوسيلة ناجعة للهجوم على بابل المدينة دون اللجوء إلى المنطقة الواقعة عند العُنق المتشكل من تقارب دجلة والفرات. وفي إحدى

النقاط إلى الجنوب من الزاب الأسفل أجبرت الجيوش الآشورية للتوقف وذلك بفعل الجيش الذي جلبه نابو بولاسر.

ولقد حدث هجوم جريء على آشور وهي العاصمة القديمة في أوائل السنة التالية (٦١٥ق.م) ولكن هذا الهجوم كاد أن يسبّب كارثة لجيش نابو بولاسر الذي أجبر على الهرب والالتجاء إلى قلعة إحدى المدن التي كانت ولا تزال تدعى تكريت ولم يكن الآشوريون راغبين أن يستفيدوا من تلك الفرصة السانحة بل انسحبوا. إذ إن جهاز مخابراتهم من المظنون أنه قدَّم لهم معلومات عن هجوم ميدي وشيك. وقد حصل هذا الهجوم في السنة التالية وعلى مدينة في ولاية أرابخا، وكان غرض هذا الهجوم إنشاء قاعدة للتقدم ومنها تهاجم نينوى نفسها. ولقد حصل هجوم ميدي على مدن آشور عام ٦١٤ ق.م ومع أن نينوى كانت ذات قوة كافية لردّ الهجوم إلا أن كلاً من تاريبسو Taribsu وآشور سقطتا وبعد ذلك هدمت مدينة آشور عن بكرة أبيها. وبعد ذلك وصل نابوبولاسر إلى المدينة المنهوبة على رأس جيشه. ولقد اختتم العمل المشترك ما بين الميديين والكلدانيين بمعاهدة رسمية ما بين نابوبولاسر وسواكسارس أقرَّها وصدقها حسب روايات ظهرت فيما بعد حلف مصاهرة وزواج.

وبعد أن خسرت آشور ولاية أرابخا، حاولت القوى الإمبراطورية إجراء هجوم معاكس على بابل أسفل الفرات. ولقد تمرّدت قبائل السوحو Suhu الذين كانوا قد أعلنوا خضوعهم لنابو بولاسر عام ٦١٥ق.م وبينما كان نابوبولاسر منشغلاً في عمليات الحصار في آنا Anah إذا بجيش آشوري يظهر مما أجبر نابوبولاسر على الانسحاب، ومن الغريب أن الميديين الذين أحرزوا انتصارات باهرة ضد آشور في السنة السابقة أصبحوا الآن وخلال عام ٦١٣ق.م مكتوفي الأيدي ولم يتحركوا، بحيث استطاعت آشور أن تنشر جيشاً على مساحة قصيرة من أراضي الميديين ولقد قيل إنه من الممكن أن تكون آشور قد دبَّرت قيام بعض المفاوضات مع السكوتيين للقيام بهجوم من الشمال ضد الميديين. أما السكوتيون فلم تكن مصالحهم تتضارب مع مصالح الآشوريين مباشرة وكان لديهم مَيْل للاحتفاظ بعلاقات ودّية مع تلك القوة، تلك العلاقات التي كانت تعود إلى ظهورهم لأول مرة في الشمال زمن

أسـرحدون فقـد كوَّنـوا حليفـاً معتـبرا لآشـور ذا قـوة مرموقـة. وتقـول القـصص الـتي يرويها الكُتّاب اليونان فيما بعد إن الميديين كانوا فـي أحد الأوقات مهددين بشكل خطير من قِبَل السكوتيين ولكن أخيراً أقنعوا قوّادهم بالاتفاق معهم وجعل أهـدافهم مشتركة وبالنسبة للمصادر البابلية لا يُشار للبدو الرُّحل باسـم الـسكوتيين بل باسـم الأمانامندا وهذا الاسم يقترب معناه مـن اسـم القطعـان ولاشـك أن الأمانامنـدا كـانوا يحتوون بعض العناصر السكوتية مع مكوّنات عرقية أخرى ومن الممكن أنـه وحتـى استطاع سواكسارس أن يقابل ويتغلب على أكثر القواد نفوذاً فـي هذا الائتلاف مـن القبائل، كان هناك بعض الشك فـي الجانـب الـذي ينبغـي عليـه أن ينـضم إليـه. وفـي عام ٦١٢ق.م قام هنـاك اتحـاد مـا بـين نابوبولاسـر والأمانامانـدا وسواكسارس الـذين زحفوا جميعاً ضد نينوى. وبعد حصار دام ثلاثة أشهر سقطت المدينـة وتـوفي آخـر ملـك من ملوكها وهو سن – شار – إيشكون وحسب بعض الروايات اليونانيـة تـوفي نتيجـة تعرّضه للحريق الذي أصابها ولقد نُهِبَت المدينة وسلبت وأصبح مـا بقـي مـن سـكانها على قيد الحياة عبيداً. وتقول بعض الروايات اليونانيـة وفـي كتـاب نـاحوم العـبري أن سقوط تلك المدينة القوية التحصين أصبح ممكناً عندما فاضـت ميـاه نهـر دجلـة الـتي جرفت أمامها قسماً من وسائل الدفاع.

لقـد هُزمـت تلـك العاصـمة، ولكـن لم تـزل مملكـة آشـور قائمـة اسميـاً، إذ إن أولئك الجنود الآشـوريين الـذين اسـتطاعوا الهـرب مـن نينـوى، قـد توجّهـوا مـسافة مئـة ميل غرباً إلى حرَّان، حيث نُصِّب آشور اوباليـت وهـو عـضو صـغير مـن أعـضاء الأسـرة المالكة، نُصّب ملكاً وبدأ باستدعاء حلفائه المصريين.

الفصل الخامس

الإمبراطوريّة البابليّة الجديدة

تقهقرت قوى الميديين (والأمانامانـدا) بعد أن حملت الغنـائم والمنهوبات من تلك المدينة الإمبراطورية. ولقد كانت جهود نابوبولاسر الآن مُنْصَبَّة على الحصول الفعلي والسيطرة على كل ما يمكن أخذه من الإمبراطورية الآشورية. ولهذا الغرض فقد استخدم عساكره لاحتلال منطقة نصّيبين إلى الغرب من آشور فضلاً عن أواسط آشور نفسها والولايات الواقعة بمحاذاة الفرات الأوسط، وبذل مجهودات كبيرة لكسب ما استطاع من مناطق مملكة أورارتو، ولكن كان للسكوتيين مصالح ومطامع في الأخيرة، وهكذا فقد فشل نابوبولاسر في السيطرة الدائمة على أي جزء من أجزائها ما عدا كيليكيا. أما بقية الجيش الآشوري فقد تركوه وشأنه في حرَّان وذلك لأن أكثر اهتمامات نابوبولاسر إلحاحاً كان أن يحصل على السيطرة الفعالة على ما يستطيع أخذه من الإمبراطورية الآشورية قبل عودة الأمانامانـدا، الأمر الذي حدث عام ٦١٠ ق.م، وعندها قاموا بهجوم على حرَّان ساهم به نابوبولاسر، وذلك حماية لمصالحه. ولم يحاول آشور - اوباليت الدفاع عن المدينة بل هرب جنوباً منتظراً قدوم حلفائه المصريين وترك حرَّان ليحتلّها وينهبها الامانامانـدا. ولقد قويت معنويات الآشوريين بقدوم حلفائهم المصريين فقاموا بهجوم معاكس على حرَّان وقد حصلوا على نجاح مبدئي. ولكن وصول جيش تحت قيادة نابوبولاسر اجبر الآشوريين والمصريين على رفع الحصار عن حرّان وانسحبت قواتهما إلى كركميش. وفي هذه الأثناء نجح نيخو الثاني (٦١٠-٥٩٥ق.م) في الاستيلاء على مصر فقرّر إجراء دعمٍ فعّال لآشور - أوباليت وأسرع في قيادة الجيش المصري الرئيسي متوجّهاً إلى سوريا. ويبدو أن الدبلوماسية الكلدانية قد أتت أكُلُها وأدَّت إلى حدوث نجاح مرموق في فلسطين وذلك لأن نخو اضطر إلى إخماد فتنة حصلت في غزة بينما حاول جوسيا

ملك يهوذا وهو الحاكم الوطني الوحيد في فلسطين التصدِّي للقوى المصرية في طريقهم إلى الشمال وقد هُزِم وقُتِل في مجدّو (٦٠٧ق.م) وبذلك أصبحت مملكته خاضعة للحكم المصري نتيجة لذلك. ولم يصادف نخو أية صعوبة في إخضاع سوريا والتقى مع قوات آشور - أوباليت وكركميش. ولكن البابليين وتحت قيادة أحد أبناء نابوبولاسر، وهو نبوخذ - ريزار Nebuchadrezzar قاموا بهجوم مباشر على الجيش المصري القوي (٦٠٥ق.م) ولقد حدثت مذبحة في كلا الطرفين فالرجل القوي قد تصدَّى للرجل القوي وكانت النتيجة أن حلت الهزيمة بالجيش المصري الذي توجَّه مسرعاً بشكل فوضوي إلى مصر وكان لهزيمة جيش مصر تأثير دعائي شعر به الجميع في طول البلاد وعرضها وشعرت الشعوب المقلوبة أنه لم يحن الوقت بعد للثورة ضد الكلدانيين وقالوا إن الفرعون ملك مصر ما هو إلا مجرد هراء وضجة لأنه قد أضاع فرصة ثمينة سنحت له. وهكذا استطاع نبوخذ - ريزار مطاردة المصريين المنسحبين حتى عقر دارهم. وكان باستطاعته الاستمرار إلى مصر لولا وفاة والده في تلك اللحظة الصعبة وهو نابوبولاسر وهذا يقتضي رجوع الابن إلى بابل.

ليس من الضروري التأكيد على مقدرة نبوخذ - ريزار السياسية والعسكرية نظراً لأن أنشطته في هذا المجال جعلته أحد الشخصيات المرموقة في العالم القديم. ولقد اعترف به أرميا المعاصر له أنه القوة الجديدة في السياسة الدولية وقدَّر أن إمبراطوريته الجديدة سوف تدوم مدة لا تقل عن ثلاثة أجيال. وأما يواقيم ملك يهوذا الذي عيَّنه نخو فقد قدَّم خضوعه لنبوخذ - ريزار عند انكسار الجيش المصري. ولكنه عاد للخضوع لمصر عندما حان الوقت لذلك. ولقد برهنت الحوادث أن أرميا قد قام بتقدير حكيم للأوضاع أكثر مما فعل السياسيون، وذلك لأن نبوخذ - ريزار قد أرسل جنوداً لحصار أورشليم. ولقد كان من حُسن حظ يواقيم أن مات أثناء الحصار وذلك لأن ولده يواشين هو الذي أخذ أسيراً إلى بابل ومعه النبلاء والحرفيون والجنود.

لقد تأثَّرت التجارة المصرية تأثيراً سيّئاً بوقوع جميع أراضي فلسطين وسوريا في أيدي معادية خصوصاً وأن التجارة المصرية كانت تستفيد من الموانئ الفينيقية وربما

ساعد هذا على تفسير قرار حوفرا Hophra ملك مصر (٥٨٩-٥٧٠ق.م) القيام بغزوه لفلسطين.. وأما في أورشليم وبقية المدن فقد أجبر رجال المدن المناهضون للسيادة البابلية على الانسحاب إلا أن نبوخذ – ريزار قد قام برد فعل قوي وانتدب جيشاً قوياً إلى الغرب وقد صادفت القوى المصرية نجاحاً مبدئياً فقد استولوا على صيدا وحوصرت أورشليم لمدة ثمانية عشر شهراً وأخيراً انتشرت المجاعة فيها (٥٨٠ ق.م) ولقد سُمِلَت عينا زيدقيا ملك يهوذا فأصبح أعمى وهو آخر ملوك يهوذا وقد نُقِل إلى بابل وهكذا فقد حدث النهب والسلب في أورشليم وهُدمت حصونها وأعدم زعماء الجماعة الموالية لمصر وقد عُيِّن أحد النبلاء الموالين لبابل حاكماً وقد هُجِّر قسم كبير من السكان الباقين إلى بابل وقد أخضع بقية المدن المتمرِّدة بنجاح وحوصر ميناء صور ولم يُشَرْ إلى هذه العملية من قِبَل ميناندر (٣٤٢-٢٩٢ق.م) الذي ذكر أن هذه العمليات مستمرة خلال ثلاثة عشر عاماً، ولكن النبي حزقيال وهو معاصر للحوادث قد أشار إليها عدة مرات وقد صوَّر حزقيال (صور) لأول مرَّة بأنها كانت معجبة بسقوط أورشليم وهذه إشارة إلى أن التجارة من مصر وما وراءها أصبح من الممكن أن تعود للنشاط شمالاً إما عن طريق القوافل خلال فلسطين أو عن طريق البحر إلى داخل الموانئ الفلسطينية.

وأخيراً استولى البابليون على مدينة صور عام ٥٧١ وعُيِّنت فيها إدارة بابلية لتلك الولاية وفي أثناء ذلك قام سواكسارس بدعم من حلفائه من الأمانامانا بالاستيلاء على مملكة أورارتو واندفع إلى آسيا الصغرى، حيث اصطدم بمملكة ليديا وكانت مركزاً تجارياً مزدهراً وقد حلت بعض الخلافات المبدئية عام ٥٨٥ق.م وذلك بإجراء معاهدة نظمها أحد الضباط الذي ويدي - نابونيد أصبح خليفة لنبوخذ - ريزار فيما بعد وقد رسمت هذه المعاهدة الحدود ما بين مناطق النفوذ الليدية والميدية وفق مجرى نهر حاليس Halys.

لقد حافظ نبوخذ - ريزار على علاقات الصداقة مع الميديين وكانت مشاكله الرئيسية بالنسبة لمناطق السياسة الخارجية هي مصر. انسحب الجيش المصري تاركاً حلفاءهم وحيدين في مواجهة الجيش البابلي. ولقد كان لاهتمام نبوخذ -

ريزار بشؤون العرب أسباب عسكرية واقتصادية. هذا وإن اتحاد الميديين قد حرم بابل من السيطرة على التجارة الشرقية (مع أنهم لم يشعروا بهذه الصعوبات أثناء فترة شهر العسل التي تبعت هزيمة ونهب نينوى) بينما بدأت الموانئ البابلية التي كانت ناجحة بالتقهقر ولهذا السبب فقد بدأ الملوك البابليون الجُدُد بالاتجاه إلى الغرب في محاولة لكسب الطرق التجارية التي كانت تأتي من بلاد العرب. أما مصر فقد تضرَّرت تجارتها بسبب سيطرة البابليين على الساحل الفينيقي وكليكية، لذلك فقد كانت تحاول باستمرار إضعاف قبضة بابل على الغرب. وتذكر التوراة قضية اغتيال أحد الحكام الوطنيين الذي كان نبوخذ - ريزار قد عيَّنه والياً على أورشليم وتذكر أن ذلك الاغتيال كان بموافقة إن لم يكن بتدبير المصريين. وأخيراً قرر نبوخذ - ريزار القيام بغزو مصر وذلك كما تذكر قطعة من لوح مسماري ويشار إلى تلك الغزوة في التوراة. ولم تعرف أية تفاصيل عن تلك الغزوة وتشير القصص التوراتية وأيضاً هيرودوتوس إلى حدوث هجوم ناجح على القبائل العربية والصحراء.

لقد كان حكم نبوخذ - ريزار متميزاً بالنشاط المعماري العظيم في بابل وإن البقايا الموجودة فعلاً في بابل (انظر اللوحة ٤ب و ٦) هي من تلك الفترة. وقد عززت تحصينات بابل وأحكمت الخطوط الداخلية والخارجية لمناطق الدفاع ولقد أمّنت الأنهار الموجودة على كلا الجانبين بالإضافة إلى سلسلة من القلاع في شمال وجنوب بابل خطّاً دفاعياً قوياً حول المدينة:

عند وفاة نبوخذ - ريزار في عام ٥٦٢ق.م خَلَفَه ابنه أميل مردوخ وقد قتل هذا الابن بعد حكم قصير دام سنتين أثناء إحدى الثورات ولا يعرف إلا القليل عنه سوى ما ذكر في التوراة أنه أظهر عطفاً عظيماً على يهوه شين وهو أحد الملكين من ملوك يهوذا الذي احتفظ به في بابل، ومن الغريب أن هناك إشارة مباشرة ليهوه شين هذا في بعض الألواح المسمارية التي وُجدت في بابل والتي يعود تاريخها إلى حكم نبوخذ - ريزار وتحتوي هذه الألواح على قوائم المخصصات المعيشية ونقرأ في إحداها ما يلي:

«يخصص يا – أو - كينا U-Ya-kino ملك بلاد ياهودو ونخصص للأبناء الخمسة لملك بلاد ياهودو ويخصص لثمانية من اليهود وكل واحد منهم نصف سيلا من الذرة».

ومن الواضح من تحليل علم اللغات أن يا – أو - كينا من ياهودا هو دون شك الاسم الذي أطلقه مترجمو التوراة على يهوشين ملك يهودا.

إن الرجل الذي استفاد من موت ميل مردوخ كان نيرغال – شار – يوشور وهو صهر نبوخذ - ريزار. ومن المعروف الآن من التواريخ التوراتية أنه قام بحملة عظيمة عبر جبال طوروس ربما كان لتوقعه قدوم الميديين واندفاعهم عبر نهر هايس. وبعد نجاح مبدئي أصيب بنكسة خطيرة وعاد إلى بابل عام ٥٥٦ق.م، حيث سرعان ما توفي هناك وهنا ربما يتساءل المرء إذا كان منافسوه الشخصيون في الوطن قد استفادوا من نكسته وخسارته فأسرعوا في إنهاء حياته. وبالتأكيد فإن ولده لاباشي مردوخ الذي حاول تسلم العرش بالوراثة قد عزل بعد وقت قصير بعد تمرّد قام به الضباط الكبار في الدولة الذين وضعوا مكانه نابونيد وكان هذا دبلوماسياً قد أرسله نبوخذ - ريزار للمساعدة والمفاوضات التي جرت ما بين الميديين والليديين عام ٥٨٥ق.م.

لم يكن نابونيد من الأسرة الملكية لنابوبولاسر بل كان ابناً لأحد النبلاء وأمّه الكاهنة العظمى للإله سن في حرّان. وكانت هذه السيدة من العائلة المالكة الآشورية لأنها قد وُلدت في منتصف فترة حكم آشور بانيبال ومن المعروف أنه قبل وبعد هذا الزمن كانت وظيفة الكاهنة العليا لا تقدَّم إلا للأمراء والأميرات من العائلة المالكة.

بعد نشر بعض النقوش الجديدة خلال الثلاثين سنة الماضية أصبح من الواضح أن هذا الملك كان رجلاً سياسياً ذا مقدرة فائقة فقد عرف المشكلتين الرئيسيتين اللتين ينبغي حلهما وهما الصعوبات الاقتصادية في الإمبراطورية والوضع بالنسبة لديانة بابل القديمة. أما بالنسبة للمشاكل الاقتصادية، فإننا سوف نعالج هذا

الموضوع فيما بعد. ولكن وفـي الوقت الحاضـر، فإننـا سنعالج المشاكل الدينيـة. إذ إنه وبالنسبة للميديين واليهود الذين كـان البـابليون متَّصلين بهـم اتصالاً وثيقـاً، لقـد نشأت مفاهيم جديدة دينية وعرقية عند هؤلاء تشمل الهزء بمـا كـان مـن تعدد الآلهـة وبناءً على هذه المفاهيم فقد قـرر الملك نابونيـد أن يجعل إلـه القمـر سـن أو نانـا الـذي كان الإله المقدس فـي أور وحـرَّان أن يجعلـه الإلـه الرسمـي السـائد فـي جميـع أنحـاء الإمبراطورية ولم يكـن يعـني بـذلك الاعـتراف بحـركـة الوحدانيـة، إذ لم يكـن هـذا وارداً فـي ذلك الزمن بل كان عبارة عن محاولة لتوحيد المعتقدات الدينيـة لـدى جميـع الشعوب الخاضعة لبابل. أما الإله البابلي العظيم وهو مردوخ الذي كان المتسلط فـي بابل نفسها فلم يكن له مكان أو وجود فـي مجموعة الآلهـة عنـد العـرب والآراميين، بل كانوا يقدسون إله القمر ويطلقـون عليـه أسمـاء مختلفـة ولكـن الميـل نحـو إصـلاح ديني قد بدأ خلال حكم نبوخذ - ريـزار نظـراً لأن الحفريـات فـي (أور) قـد كـشفت أنـه وخـلال حكـم ذلـك الملـك حـدث تغـيير فـي مقـام زوجـه إلـه القمـر فـي صـفاته المعمارية وكذلك فـي طقوسه الدينية، إذ إن نـابونيد كـان هو المسؤول عن هذه البِدَع والتغييرات.

وهناك نقطة الْتَقَتْ فيها المشاكل الاقتصادية الدينيـة وهـي مدينـة حـرَّان، إذ إن اسم حرّان معناه الطريق وقد أطلق هذا الاسم على ذلك المكان لكونه ملتقى الطرق الشمالية القادمة من بابل من جهة ومن مصر وبلاد العرب وفلسطين مـن جهـة أخـرى، وكـان ذلك المكان أحد المقامات المقدسة للإلـه (سـن) ولـسوء الحـظ فقد بقيت تلك المدينـة خاضعة لأمانامانـدا منذ عـام ٦١٠ ق.م عنـدما انحـدر هـؤلاء وخربـوا معبـد إلـه القمـر. ويـروي نابونيـد فـي بعض النقـوش أنـه وفـي السنة الأولى لحكمـه ظهـر الإلـه العظيم (سن) له فـي أحد أحلامه وهو يقول: (أسـرع فـي بنـاء إهولهول Ehulhul (دار الأفراح العظيمة) وهـو معبـد سـن فـي حـران مـع العلم أن جميـع أراضيه قـد أصبحت تحت تصرّفك«. وفـي النسخة من تلك النقوش الشائعة في بابل فإن نابونيد يتوجه بعد ذلك إلى مردوخ. فهو يقول (**بالنسبة للمعبد الذي تآمرنا ببنائه، فإن شعب الأمانامانـدا يحيطون به ويسيطرون عليه، وهم ذوو قوة مخيفة**) ولكـن مردوخ ينطق بـردٍّ مـدهش:

«إن شعب الأماناماندا الذين تذكرهم مع أراضيهم وملوكهم وحلفائهم لم يعودوا موجودين. ففي السنة الثالثة الآتية سوف أجعل قورش ملكاً لآشان (بلاد فارس) وهو سوف يطردهم وسوف يبعد ويخرج بجنوده القلائل شعب الأماناماندا الكبير».

لقد كان الفرس أحد القبائل الهندو - أوروبية المهاجرة التي استقرت أخيراً في عيلام. ولقد تأسست عائلتهم الملكية في منتصف القرن السابع ق.م. وذلك بعد أن تغلَّب آشور بانيبال على الأسرة العيلامية على يد أشامنيز Acheamenes الذي اتخذ ابنه لقب ملك انشان وكانت انشان أصلاً إحدى إمارات مملكة عيلام وكان اللقب الجديد يعني سلطته على تلك البلاد القديمة. ولقد أدى تصاعد قوة مملكة الفرس إلى أن عمد الملك الميدي استياغيس Astyages إلى تزويج ابنته إلى قمبيز الأول وهو الملك الثالث في أنشان. ومن هذا الزواج ولد قورش Cyrus.

ويبدو أنه مهما كانت العناصر العرقية التي تدل على أصل شعب الأماناماندا ، إلا أنه وطبقاً لأحلام نابونيد فإن هذا الشعب يرجع في تاريخه إلى إحدى الحاميات التي كان يسيطر عليها الميديون Medes ويوضح لنا ذلك الحلم أيضاً أن التقاليد القديمة التي تشير إلى العلاقات الدبلوماسية ما بين العائلات الحاكمة في بابل وعيلام كانت لا تزال مستمرة، نظراً لأن نابونيد وقورش كانا يحيكان الدسائس ضد الميديين خلال السنة الثالثة من حكم نابونيد أي عام ٥٥٣ ق.م. لقد أمر نابونيد بجمع العساكر في الولايات الغربية. ولكن الميديين قد انسحبوا من حرَّان فاستطاع نابونيد أن يستخدم جنوده للبدء في مشاريع الإصلاح، مما سبّب نشوء عصيان فيما بين المدن الكبرى في منطقة بابل، فقد نسي أبناء بابل وبورسيبا ونيبور وأور وإيريش ولارسا وشعوب المدن المقدسة (شمال بابل) واجباتهم وانخرطوا في الدسائس والخيانة بدلاً من الطاعة والولاء. وهناك شواهد تدل أن نابونيد. كان مستعداً لعمل من هذا النوع، فقد كان هذا الملك يمتلك ضِيَعاً كبيرة في جنوب بابل وتذكر العقود الموجودة في محفوظات المعابد أنه وفي أول أيام حكمه فقد سلَّم السيطرة على هذه الضيع لقاء تسلّم هذا الملك لدفعات سنوية من المال سلطات إينا Enna وهي مجموعات المعابد العظيمة والغنية في ايريش، وفي هذا الوقت بدأت

الإصلاحات الإدارية للمعابد تجري على قدم وساق وفي إيريش حدثت تعينات جديدة وتغيرات في المراكز العليا وذلك في أوائل سنوات حكم نابونيد.

لقد ظهرت المجاعة الآن في بابل والتي كان نابونيد يعزوها إلى عدم التقوى التي كان يتمتع بها هذا الشعب مع أن سببها الأحوال الاقتصادية العامة. إذ إن حروب وأنشطة البناء التي قام بها نبوخذ - ريزار ونيري غلسار قد سببت نوعاً من التضخم المادي فارتفعت أسعار المواد خمسين بالمئة بالنسبة إلى ما كانت عليه ما بين عام ٥٦٠ وعام ٥٥٠ق.م ولكن الميل نحو ارتفاع الأسعار لم يتوقف بالتطورات والإصلاحات الجارية، بحيث وصل الارتفاع فيما بين عام ٥٦٠ ق.م وعام ٤٨٥ق.م إلى ٢٠٠٪ وتُرى النتائج في الوثائق الاقتصادية التي تروى إحداها، وهي مؤرخة في السنة الأولى لحكم نابونيد أن قرضاً قد مُنح لأحد رعاة المواشي عندما كانت مواشيه تكاد تنفق جوعاً. وهناك نصوص تشير إلى تسليم الأطفال للمعابد كعبيد وهذه نتيجة واضحة للفقر المدقع هذا وإن تحوّل عمل العمال لمدة عدة سنوات من إنشاء الأقنية إلى بناء المعابد أو الأعمال الحربية يدل على انخفاض في إنتاجية الأرض. بينما تفاقمت تدهورات الحالة الاقتصادية بسبب سيطرة الميديين على الطرق التجارية إلى الشرق والشمال هذا وأن تحالف نابونيد مع قورش يشير إلى محاولة لإحراز نتائج إيجابية في هذا السبيل.

لقد أشرنا في النقوش أن نابونيد قلَّما كان يذكر المظاهر الاقتصادية من أعماله ولذلك فقد حصل شك، فيما إذا كانت الشؤون الاقتصادية تحتل جزءاً من اهتماماته ولكن ومع ذلك فإن الوثائق الاقتصادية والإدارية من النوع المذكور أعلاه تبرهن دون أدنى شك أن نابونيد كان مُهملاً للمشاكل الاقتصادية، بل كانت نقوشه تهتم بإظهار تقواه وميوله الدينية أكثر من الفوائد الاقتصادية التي كانت غالبة في أعماله.

لقد كان تجاوب نابونيد مع أوضاع بابل ينحصر بمحاولة نقل مركز الثقل في الإمبراطورية تجاه الغرب، وذلك لتأمين الطرق التجارية القادمة من جنوب بلاد العرب. وبعد أن وكَّل ابنه بيل-شار-يوشور كنائب للملك في بابل، قاد جيشاً خلال

سوريا إلى واحة تيماء إلى شمال غرب بلاد العرب، حيث أعدم الملك هناك وجعل المدينة قاعدة له خلال السنوات العشر التالية. وفي أثناء فترة الراحة والتوقف في الغرب، اندفع لمسافة مئتين وخمسين ميلاً لأقصى الجنوب خلال عدد من الأمكنة التي كان من الممكن تحصينها حتى وصل أخيراً إلى يثرب. وهي المدينة المنورة قرب شواطئ البحر الأحمر. ويذكر نابونيد أنه أقام الحاميات وزرع المستعمرات حول الواحات السِّت التي ذكر أسماءها، ويصف القوى التي استخدمها أنها من الشعب الأكادي وشعب (حاتي) أي كل من شعب بابل الوطني وشعوب الولايات الغربية. وهناك بعض القضايا الجانبية التي تذكر أنه ومن الواحات الست المذكورة تبين في زمن محمد (ﷺ) بعد ألف عام أنها كانت مسكونة من قِبَل اليهود ويقال إنه وبين العساكر والمستعمرين الذين رافقوا هذا الملك كان هناك فصائل قوية من اليهود مع أنه لا يُعرف إذا كان هؤلاء قد كانوا من الذين تركوا في فلسطين عند سقوط أورشليم أم هم من أولئك الذين هُجِّروا إلى بابل.

السنوات العشر التي انسحب فيها نابونيد من عاصمته، من الممكن أن تكون أساس تلك القصّة المذكورة في التوراة عن السنين السبع التي أصيب بها نبوخذ - ريزار بالجنون. ومن الشائع أن تجد في بعض القصص حوادث تعود إلى أحد الرجال بينما تحوَّلت إلى رجل مشهور آخر كان معاصراً له تاريخياً. مثل قتل (جوليات) على يد الحانان El-hanan التي يتمثل فيها داود بدلاً من الحانان وينسب الفضل له بدلاً من ذاك.

وهناك شكل آخر من القصص اليهودية وهو نزول الغضب الإلهي على الملك البابلي الجديد حيث يرتبط هذا الغضب باسم نابونيد بدلاً من نبوخذ - ريزار وذلك كما ظهر في الوثائق التي وجدت في قمران وتدعى لفائف البحر الميت.

إن الوثيقة ذات العلاقة وهي مخطوطة وُجد القسم الأكبر منها عام ١٩٥٥م وهي تعود إلى النصف الثاني من القرن الأول ق.م وهي جزء من عمل مكتوب باللغة الآرامية (وهي لغة قريبة من العبرانية) وبعد تنقيح هذا العمل يمكن ترجمته بما يلي:

«نذكر هنا الكلمات والصلوات التي تفوَّه بها نابونيد ملك آشور وبابل – الملك العظيم عندما أصابه مرض جلدي بغيض طبقاً لمشيئة الله ذي القدرة العالية وذلك وهو في مدينة تيماء حيث يقول: لقد أصبت بمرض جلدي خبيث لمدة سبع سنوات، ولكن وبعد أن اعترفت بذنوبي وأخطائي منحني الله القرار المحبب وكان هناك أحد اليهود من ... ولقد أخبرني أن أسبِّح بحمد الإله العالي الشأن والقدير»

وفي نهاية السنوات العشر، تغيَّرت الأحوال واستطاع نابونيد الذي كان قد بلغ السنة السبعين من العمر الرجوع إلى بابل، حيث لم تقابله أية معارضة لخطَّته التي ترمي إلى ترميم وتحسين المعبد العظيم في حرّان.

إن التحسينات المؤقتة في مركز نابونيد كان مصدرها قوة حليفه السابق قورش. إذ إنه وبعد اعتلاء قورش العرش، عرش إمبراطورية الميديين والفرس، إذا بالحروب تنشب مرَّة ثانية في آسيا الصغرى وليديا. ولكن قورش فاجأ العدو بحملة غير متوقعة في فصل الشتاء عام ٥٤٧ق.م وانتصر ونجح في الاستيلاء على عاصمة كروسيوس Croesus وهي ساردس Sardes وهكذا أصبحت ليديا ولاية فارسية تتمتع بدعم المستعمرات اليونانية في غرب آسيا الصغرى. وعندما أصبح قورش حرّ التصرف استطاع القيام بعمليات استطلاعية ضد الإمبراطورية البابلية حين نفّذ تلك العمليات ٥٤٧ ق.م فبسط نفوذه على جزء من مملكة آشور الشرقية. وبهذا العمل فإنه قد استبق هجوماً بابلياً على ميديا لأن المنطقة التي استولى عليها كانت تستعمل دوماً أثناء الفترة الآشورية كقاعدة لمثل هذا الهجوم، ويذكر هيرودوتس أن الملك كروسيوس كان متحالفاً مع نابونيد ومع المصريين وقد طلب المساعدة قبل تلك المفاجأة التي سبَّبت سقوطه هذا وإن تطابق التواريخ بشكل عفوي تجعلنا نفترض أن ذلك التهديد العسكري من الشرق هو الذي أنتج تلك الوحدة المؤقتة في بابل والطلب بإلحاح لعودة الملك لزعامته النشيطة. لقد كانت بابل الجنوبية ونظراً لوضعها الجغرافي مُعرَّضة لغزوات فجائية من عيلام وقد تعرَّضت لغزوة أخرى عام ٥٤٦ق.م. ولكن الآن لقد أصبحت الحوادث مشوَّشة. إذ إنه من الممكن أنه، وبعد هذا الحادث، أن عاد نابونيد إلى بابل للإشراف على الدفاع عن بلاده. ولكن الوضع

لم يكن خطيراً ولا بحال من الأحوال. فقد بقيت إيريش وهي المدينة الرئيسية في الجنوب تحت تصرّف نابونيد المطلق رغم حدوث الغزوة العيلامية ولم تقدّم سوريا ولا الغرب أية إشارة عن عدم الرضا مما يجعل المرء يستنتج مما قاله هيرودوتوس أن مصر كانت حليفاً محتملاً. ومع ذلك وبينما كان الملك العجوز منشغلاً بإنجاز إصلاحاته وترميماته التي خطط لها منذ عهد طويل للمعبد لهول في حرّان، كان قورش منشغلاً في أعمال دعائية خلال الإمبراطورية البابلية. وقد كانت معاملته الكريمة لكروسيوس ملك ليديا وللنواحي اليونانية في آسيا الصغرى حين أمر بعدم نهبها، كل ذلك قد أكسبه سمعة طيبة بأنه كريم ومتسامح ومتديّن. ولقد انتشرت أخباره الطيبة والدعاية له في بابل مما أظهر المفارقة بينه وبين ما كتب عن نابويد حين سقوطه. وفيما يلي ترجمه من كتاب سيدني سميث واسمه نصوص من التاريخ البابلي (١٩٢٤م) ص ٨٧، ولكن ولسوء الحظ كان ذلك النص مصاباً بأضرار فادحة ويقول النص عندما يذكر نابونيد ما يلي:

لم يسبب أي عمل فيه شيء من العدالة ليتقدم أمامه
فقد كان يقتل الضعفاء بأسلحته
وبالنسبة للتجارة فقد أقفل الطرق
- - -
وفي يوم الاحتفال بعيد رأس السنة الجديدة أمر بعدم إقامة أية احتفالات
لقد غيَّره الشيطان
وقد صنع كل ما هو مسيء للمقدَّسات
ولقد وضع تمثالاً كلّه كُفر على القاعدة
وسمّاه بالإله سِنْ
وكان شكل سِنْ يتمثل بالخسوف
وقد اعتاد الإساءة للطقوس الدينية وقلب الشريعة
وكان يتكلم بالإساءة إلى النظام الإلهي

لقد اندفع قورش إلى الأمام فوق الجبال، أي جبال كردستان ولوريستان، حتى أصبح المسيطر على المنطقة إلى الشرق من نهر دجلة. ومن هنا أصبح باستطاعته أن يقوم بهجوم على بابل نفسها وهكذا اندفع بهجوم إلى أوبيس Opis وزحف إلى سيبار التي استسلمت له. وبعدها هوجمت بابل نفسها واستسلمت دون دفاع يذكر. ويقول هيرودوتس وهو يصف الانتصار لأنه كان ناتجاً عن الاستراتيجية التي اتبعها قورش وهي إحداث ثغرة في نهر الفرات، الذي كان يؤلّف جانباً من خط الدفاع عن المدينة وعندما انخفض مستوى الماء في الفرات، وبذلك أصبح من الممكن عبور مجرى مياه النهر. وليس هناك من سبب لتكذيب هذه القصة. ولكن السبب الحقيقي لسقوط المدينة ليس ضعف الدفاع إنما وجود الطابور الخامس داخل المدينة. وذلك لأن محاولة نابونيد للشك في سلطة مردوخ أورثه إرثاً من الكراهية. وهكذا فإن الدعاية التي قام بها قورش قد وجدت أرضاً خصبة بين مواطني بابل وهكذا فقد نقلوا ولاءهم وبسرور إلى الملك الفارسي ذي العقل الحُر المتنوّر. وهكذا فقد دخل قورش المدينة التي منع النّهب والسلب فيها بتاتاً، ولم يتطرق إلى المؤسسات الدينية ولا إلى الحكم الإداري فيها، بل عيّن ممثلاً فارسياً حاكماً فيها. ولقد احتفل ابن قورش الأصغر وهو قمبيز بعيد الميلاد للسنة الجديدة في بابل وهكذا حصلت أسرته على مباركة الإله مردوخ، وهكذا فقد حصل قورش على ملكية بابل ليس بفضل النصر العسكري بل بفضل العناية الإلهية.

وهكذا انتهت آخر الأسر الوطنية القديمة في بابل وآشور وقد استمر الحكم الفارسي في بابل حتى عام ٣٣١ق.م. وبعدها وحتى نهاية السنة الألف أصبحت منطقة ما بين النهرين تحت سلطة السلوقيين (اليونان) و(البارثيين) والحقيقة أن أجزاءً عديدة من منطقة ما بين النهرين قد حكمتها مؤقتاً قوّات أجنبية من قبل ولكن الحكم الفارسي أتى في وقت شعر الناس فيه بنشوء وولادة قوى جديدة في الشرق الأدنى وأن الحضارة القديمة التي دامت حوالي ألفي عام في بابل، وبِغَضِّ النظر عن الاعتبارات السياسية، هذه الحضارة قد انتهت...

هذا ولقد تطرّقنا إلى ذكر الحقيقة التي مفادها عدم جدوى الاعتقاد البابلي القديم بوحدة الوجود مع محاولة نابونيد للإصلاح وأن هناك شواهد وافرة من الفترة الآشورية الجديدة التي يدعوها العالم سودن Sodan الميل للعولمة، وفوق ذلك فإنه ومنذ نهاية الألف اخترقت عوامل النفوذ الآرامي بابل بقوة شديدة اشتملت على المؤسسات الاجتماعية واللغة، وبالنسبة للمؤسسات الاجتماعية فقد كان ذلك عن طريق تأكيد المؤسسات القبلية فقد كانت تسعى لإضعاف نظام الدويلات - المدن القديمة. أما بالنسبة للغة، فقد كانت اللغة الآرامية هي ذات الأفضلية لكونها اللغة الوطنية لجماعة عرقية واسعة الانتشار وتتفوّق على اللغة الأكادية وفوق ذلك فقد كانت الحروف الهجائية الآرامية بما فيها من اثنين وعشرين حرفاً تعتبر أسهل كوسيلة من وسائل التواصل من اللغة الأكادية المسمارية التي كانت تحتوي ستمائة إشارة وحتى وبينما كانت الكتابة الأكادية المسمارية المكتوبة على ألواح من الصلصال لا تزال الوسيلة المستخدمة لكتابة الوثائق الرسمية، إلا أن الكتابة الآرامية كانت تستعمل أحياناً كطريقة مناسبة للمصادقة والموافقة على ألواح ذات أغراض تصنيفية وهذا أمر لا يستطيع عمله سوى العلماء بعد قضاء عدة سنوات من الدراسات، ومن إجادة استعمال الأحرف الأكادية المسمارية. ولقد بقيت الأحرف المسمارية مستعملة من قبل العلماء لأغراض مدرسية وأغراض خفية مدة بضعة قرون ولكن هذه الأحرف وهذه اللغة قد اختفت تماماً ما عدا عند بعض الكهنة الذين استخدموها لأغراض دينية لمدة حوالي نصف قرن آخر وذلك ابتداءً من عام ١٤٠ق.م وكذلك بقيت الأحرف المسمارية مستعملة بين بعض علماء الفلك، وقد بقيت الأحرف المسمارية مستعملة لأغراض فلكية حتى زمن المسيح.

الجزء الثاني

التاريخ الإجتماعي والتاريخ الثقافي

الفصل السادس

أسس المجتمع البابلي وطرق الحياة في بابل

١ - نموذج عن المجتمع السومري

لقد بُذِلَت محاولة لإظهار تلك الحقيقة التي مفادها أن الحضارة السومرية قد اتَّخذت شكلها المُتَمّيِّز خلال النصف الأول من الألف الثالث ق.م فيما يُعرف عادة بفترة السلالات الأولى ولقد ظهرت الشواهد التي تُقْنِعُنا أن ذلك المجتمع قد نشأ من خلال ثقافة جمدت نصر وهي تلك الثقافة الفلاّحية التي عُرفت باسم ثقافة أوروك التي قد ازدهرت في نهاية الألف الرابع ق.م. ولم تكن تلك الثقافة ومن خلال مظاهرها الهامّة ثقافة مستوردة من الخارج، ولكنها كانت ثقافة قد ظهرت في أراضي ما بين النهرين. ورغم التطورات التي حصلت، إلا أن الفساد والانحلال والتغيرات التي حدثت في كثير من التفاصيل خصوصاً التي حدثت نتيجة تلك الموجات المتتالية من المهاجرين السَّاميين، إلا أن تلك المؤسسات السومرية قد ظلت مطابقة لأصولها وظلت واضحة المعالم طيلة المدة التي عاشت فيها الحضارة البابلية وحتى نهاية تلك الفترة من المميزات المفضلة منذ أقدم الأزمنة.

من الواضح تماماً أن شعوب ثقافة أوروك لم يكونوا أول من سكن منطقة جنوب بابل نظراً لأنه قد سبقتهم تلك الشعوب التي تمثّلها ثقافة عبيد وأريدو. هذا وعلينا أن نتذكر أن الثقافة الأخيرة وهي ثقافة أريدو يعتبرها بعض الثقات ثقافة سومرية صحيحة أي مثل أيّة جديلة من الخيوط تمثّل العنصر العرقي المسؤول عن ثقافة أوروك وأنهم هم الذين كانوا أول المستوطنين في تلك الأرض البكر التي أصبحت فيما بعد تسمَّى سومر. ولابد أن هؤلاء الشعوب قد استخدموا بعض الأشكال البدائية للصرف الصحي والرَّي وذلك لأنه ودون تلك الأشكال لم يكن

من الممكن زراعة وإنماء الشعير في شمال أراضي بابل وهو النوع والمصدر الرئيسي للحبوب عندهم. والحقيقة أنه وخلال تلك الثقافة أي ثقافة أوروك لقد بدأت عملية حفر القنوات وأعمال الري على مقياس واسع، الأمر الذي كان ذا نتائج لا تُعَدُّ ولا تحصى بالنسبة للتقدّم والازدهار البشري، وكانت تلك الأعمال التي فرضت على أولئك السكان الأوائل في سومر بفضل بعض الاعتبارات المناخية كانت عناصر أساسية عملت على تشكيل البنية الاجتماعية، إذ لا يمكن أن تتم هذه الأعمال بشكل فعّال إلا بوجود وحدات بشرية كبيرة ويعمل جميع أفرادها في مجهودات مشتركة متعاونة في حين أنه لا يمكن أن تتمّ تلك النتائج الباهرة عن طريق مجهودات العائلات المنفردة التي تسكن في قرى صغيرة في المستنقعات، وبعد أن اتَّخذت أولى الخطوات تبع ذلك ازدياد سريع في عدد السكان كنتيجة لزيادة كميات الطعام التي أصبحت متوفرة الآن. وهكذا فإنه نتيجة لتعاون من هذا النوع بين الوحدات الكبيرة التي تتجاوز العائلة أو العشيرة والتي تعمل في مساحة واسعة من الأرض، أن نشأت الدويلات - المدن، فإنه على هذه الدويلات - المدن وليس على العائلات أو العشائر تأسست البنية الاجتماعية لبلاد سومر.

إن نشوء تلك الدول - المدن المعتمدة اعتماداً كلياً على الري قد أدى إلى حدوث بعض التطورات واتجاهات أخرى عديدة لا يمكننا معالجة الكثير منها بل بعضها هنا. ففي جنوب العراق ليس للأرض أية قيمة دون وجود الحق باستعمال مياه الري، وكان منح أية قطع من الأرض ينبغي أن يتزامن مع حق الري لتلك الأرض. ولكن استعمال قنوات الري عشوائياً كان يسبب الخراب والدمار والأرض الخاصة بالأفراد الكثيرين من المجتمع، وهكذا أصبح من الضروري وضع قواعد وقوانين لاستعمال قنوات الري، والتأكد من مراقبتها، وهكذا أصبحت هذه إحدى العوامل التي ساعدت على ظهور التشاريع المكتوبة والنظام الإداري ونشوء جنين النظام البوليسي بشكل مفتشي الأقنية والذي عُرف فيما بعد باسم غوغالو Gugallu هذا وإن انفجار ضفاف الأنهار بفعل الفيضان أثناء فصل الربيع الذي كان تهديداً مستمراً للبلاد حتى منتصف القرن العشرين الميلادي، هذه الفيضانات كانت تزيل جميع

علامات الحدود القديمة في الحقول، وكانت هذه الحالات من الأسباب والحوافز الظاهرة لتطور علم الهندسة وفنون قياس المساحات وكانت الحاجة الدائمة والملحّة للنضال ضد المياه المتدفّقة لها تأثيرها في علم الأساطير، حيث كان الكائن البدائي الذي تحكمه الآلهة العظام هو تيمات أي البحر. وأمّا الأنهار فهي خَيِّرة ومفيدة ولكن سلوكها يبدو حاسماً ومتسلّطاً إذ إن فيضاناتها تعتمد على ذوبان الثلوج في جبال أرمينيا، ولم يمكن التنبؤ بهطول الأمطار الربيعية في منطقة نهري الزاب وفوق ذلك، فلم تكن أوقات فيضان الأنهار مناسبة للمحاصيل الزراعية كما كان الحال في مصر ولقد انعكس هذا العنصر من التوقع والقلق بالنسبة لخصوبة الأرض على الديانة السومرية وعلى نظرة البابليين إلى الحياة. ومن الممكن أن نذكر أن وجود السلطة المركزية قد ساعد على ازدهار فن العمارة وتظل الزقورات أو الأبراج العظيمة ذات الأدراج المعالم المرموقة في المدن السومرية (الصورة ٣ب و ٣أ).

ولقد كانت إحدى نتائج تحسُّن تقنيات الري نقل المنطقة الزراعية من منطقة الدلتا أي مصبّات الأنهار إلى السهول النهرية وهذا ما حدث. ولقد ظهرت أريدو على ضفاف بحيرة داخلية واقعة على الخليج العربي ولقد تجاوز هذا الموقع أقصى حالة من حالات الأهمية في تلك الفترة المعروفة بفترة الأسر القديمة، وفي التاريخ السومري القديم كانت إيريش هي المركز الثقافي الرئيسي وتنعكس تلك النقلة من التطور في تقنيات الري وتظهر في الخرافات السومرية حول زيارة الإلهة أنين لوالدها أنكي.

هناك حواجز طبيعية قليلة بالنسبة للمواصلات في سومر. وفي فجر التاريخ كان هناك وحدة ثقافية مرموقة خلال تلك البلاد. ولا يظهر هذا بالفن المعماري الموحد ولا بالمؤسسات السياسية والدينية بل بانتشار الكتابة التي اخترعت حديثاً خلال جميع المدن في سومر، ولم يكن انتشارها ظاهراً بشكل مبدأ عام بل بالتفاصيل، وليس من قبيل المصادفة أن نجد أن قوائم الإشارات المسمارية في المدن المختلفة متشابهة تماماً.

لقد أشرنا سابقاً إلى نظرية جاكوبسن المقبولة بشكل واسع وهي أن الأشكال الأولى للتنظيمات السياسية في منطقة ما بين النهرين كانت عبارة عن ديموقراطية بدائية، ويعني جاكوبسن بهذا شكلاً من أشكال المجتمع، حيث تكون القوة النهائية منحصرة بمجتمع يضم جميع الرجال الأحرار الراشدين. ولا يمكننا إثبات هذه النظرية مباشرة نظراً لأن الفترة التي تنتمي إليها قد انتهت قبل نشوء الكتابة. ولكن يمكننا استنتاج تلك المقولة من الخرافات والملاحم البطولية التي تنتمي إلى الأدب السومري والبابلي القديم على شرط قبول تلك الفرضية التي مفادها أن تنظيم الآلهة ما هو إلا انعكاس لتنظيمات المجتمعات البشرية خلال ذاكرة الزمن الذي تبلورت فيه تلك المجتمعات ومع أن تلك الخرافات لم تكن مكتوبة قبل بداية الألف الثاني ق.م. إلا أنها تعكس بالتأكيد فترة متناهية في القدم قبل أن تُحصَّن المدن بالأسوار وتنظم للدفاع ضد آلات الحصار. ومن الممكن تأريخ هذه الفترة بأنها كانت خلال مئة عام من فترة عام ٢٨٠٠ق.م. ففي القصص الخرافية يذكر أن هناك إجراءات مُعَيَّنة يجب اتباعها عند إصدار القرار النهائي. عندها تأتي مجموعة الآلهة من الذكور والإناث وتجتمع معاً في اجتماع مهيب وبعد أن يشربوا بحرية يعرض أحد الآلهة الحاضرين بعض وجهات النظر مع أن هناك فريقاً من الآلهة لهم الأفضلية ولآرائهم وزن عظيم. وبعد أن تغلب إحدى وجهات النظر يشكل الإلهان العظيمان القرار النهائي، حيث يوافق بقية الآلهة بالإجماع، وهذا هو المجتمع الذي يعكس حالة المجتمع في نيبور والذي وصفه جاكوبسن. وتَصِفُ الملاحم البطولية الظروف التي كانت سائدة زمن تأسيس التحصينات، ويقدر هذا بعام ٢٧٠٠ق.م ولقد نتج عن ازدياد المدن وعدد السكان، ونمو التجارة على مقياس واسع مع الأماكن البعيدة، وظهور المنافسات السياسية والاقتصادية. مما فتح الطريق أمام الخصومات حول الأراضي المروية والسيطرة على الطرق التجارية. بينما كان استعمار المناطق البعيدة قد أسهم في سقوط نظام الاستشارة الوطنية القديم. ولقد كانت الهجرات السامية سبباً في خلق بعض الظروف التي أدَّت إلى بناء وإنشاء وسائل الدفاع. فقد كان المهاجرون الساميون يدخلون سومر عن طريق الأطراف الصحراوية غرباً وذلك منذ أقدم الأزمنة. ويظن أنهم كانوا يأتون بشكل جماعات صغيرة ومنعزلة من العائلات

التي استطاع أفرادها التكيّف مع الثقافات العالية التي تمتعوا بها، فلم تكن هجراتهم تتسم بالعُنْف أو بشكل موجات كاسحة. هذا ولقد ذابت هذه المجتمعات المهاجرة تماماً وكانت تأثيراتهم الدائمة تظهر في تعديلات تدريجية في المجتمع ككل وليس بظهور طبقة جديدة. ولم يظهر أي أثر لتقسيم المجتمع إلى جماعات فلاحية وجماعات من الرعاة تلك الظاهرة التي لم يكن فيها أي خصام فعلي بين الراعي والفلاح، بل كانت المناقشات تدور حول نفع أو فائدة منتوجاتهم وليس بالنسبة للشرائح الاجتماعية أو الأصول.

وبينما يقبل معظم علماء الآثار الاعتراض أنه من الخطأ محاولة النظر إلى تاريخ الألف الثالث بأنه مُفعم بالنضال العنصري بين السومريين والساميين. ولكن يبدو أنه من الصحيح القول إن تسرُّب الساميين إلى المنطقة قد قدَّم بعض الأفكار المناوئة لمفاهيم المجتمع السومري مما كان قد سبب بعض الاحتكاك ما بين المدن ذات العناصر السامية المرموقة وأولئك البعيدين عن الضغط الكامل للهجرة السامية. وكانت أول حادثة تمثل الحالات الحربية بين المدن هي حصار إيريش التي كان حاكمها هو جلجامش وكان خصم جلجامش هو شخص يدعى آغا وهو ملك (كيش) وهي مدينة واقعة في الشمال وقد كانت معرَّضة لضغط المستوطنين الساميين من الغرب أكثر من تعرَّض أيريش لضغط هؤلاء المستوطنين الساميين.

تخلق الحرب حالة ينبغي فيها اختيار قائد وملك. وتظهر الملاحم البطولية أن الحاكم قد وصل. وتظهر الخرافات أن الجمعية العمومية قد عيَّنت ملكاً يدوم حكمه خلال فترة الطوارئ ومن الممكن سحب تعيينه، وهناك شاهد يدل على اختيار الجمعية العمومية لأحد الملوك حوالي عام ٢٣٠٠ق.م. ومع أن بعض العلماء قد أنكروا أن هذا الاختيار يعود إلى حادث تاريخي، إلا أن الشواهد الحديثة تشير إلى أنه تشاؤم لا موجب له.

كان تسنّم مقاليد الحكم يتطلب موافقة الآلهة التي من الممكن سحبها في أي وقت، ولم يكن هناك أية إشارة إلى الحكم الوراثي. والحقيقة أن ابن الحاكم كان يتمتع بفوائد جمَّة عند اختيار الحاكم الجديد وذلك لأن أفراد العائلة

الحاكمة من المفروض أن لهم خبرة في إدارة الأعمال وإدارة شؤون المعابد، ومع ذلك ينبغي عرض الحاكم الجديد على الإله لينال موافقته، ولكن هناك استثناءات كثيرة لما أصبح عادة سائدة لتوارث الحكم. وبصورة نظرية فإن الطبيعة المؤقتة للملكية كانت معترفاً بها حتى نهاية عهد بابل وكان من العادة أن يسلّم الملك شارة الحكم في بداية فصل الربيع وفي احتفال قدوم السنة الجديدة، وبعدها يقوم باعتراف سلبي وبعدها يعاد تنصيبه من قِبَل الإله.

وكانت المدينة مع أراضيها ومع جميع سكانها هي ضيعة إله المدينة وكان حاكم المدينة أو الملك الكاهن (وكان جلجامش أحد هؤلاء) هو القهرمان أو الوكيل. فقد خلقت الآلهة هذا الإنسان ليقوم بخدمتها ولهذا فقد أصبح المواطنون الأحرار خدماً للإله. وهناك أقوال كثيرة تؤيد هذا الرأي وهناك أسطورة تقول إن الإله إنليل فصل السماء عن الأرض وإن الإله قد ضمّد جراح الأرض في نقطة الاتصال ما بين السماء والأرض وهي مدينة نيبور حيث كان اسم معبد المنطقة هو دورأنكي Duranki وهو عبد السماء والأرض. وبعد إتمام ذلك حدث ما يلي:

ضرب الإله بفأسه الأرض (وهي التي تنتج اللحم)
وفي ذلك الثقب الذي عمله كانت طليعة البشرية
وبينما كان شعب تلك البلاد يتقدمون بقوة نحو إنليل
نظر إلى أولئك ذوي الرؤوس السوداء (البشر) بأسلوب حاسم
وبعد ذلك تقدم نحوه الأنوناكي (أحد مجموعات الآلهة الرئيسية)
وقد طالب ذوو الرؤوس السوداء (البشر) من إنليل...

كان واجب مواطني الدولة المدينة السومرية ينحصر في خدمة ضِيَع وأملاك المعبد. ومقابل ذلك كان كل مواطن حُر يستلم حصة من أملاك الإله أي من أراضي المعبد. وكان حجم الأراضي التي يستلمها الفرد تتناسب مع حالته الاجتماعية، وكانت أقل مساحة هي دونم وأكبر مساحة هي مئة دونم، مع أنه إذا ازدادت مساحة الأراضي المملوكة عن هذا القدر، فإن ذلك يعتبر انحرافاً عن النظام القديم، ولم يكن المالك الجديد للأراضي هو الذي يشتغل في الأرض بل كان

يستخدم الرجال الأحرار الفقراء أما فـي الفترة المتقدمة فقد كـان يستخدم العبيد. وكانت مساحة الأراضي التي يملكها الفرد تختلف ليس بالنسبة للمهنة بل تختلف بالنسبة للأفراد الذين يقومون بممارسة تلك المهنة ولا يُعرف سبب هذا الاختلاف فـي المعادلة. ومن الممكن أنه عدا عن اعتبارات أخرى ربما كـان هناك نظام للتمييز العائلي وهـذا مـذكور فـي إحـدى النصوص الـتي تـذكر أنـه عنـدما تـزوج مـارتو Martu وهو إله الساميين البدو الرّحل، فتاة من مدينة كازالو Kazalu فهو يقول:

الهدايا التي تقدَّم للرجل المتزوج، لقد ضاعفها
والهدايا التي تقدَّم للرجل عندما يكون لديه أولاد لقد ضاعفها ثلاثة أضعاف
أما الهدايا للأعزب فقد جعلها حصة واحدة

ويستطيع الرجل الحر أن يمتلك بيتاً ربما كـان كوخاً مـن الطـين وهـو يشبه السّريفة التي تستعملها الطبقات الفقيرة ولا تزال فـي العراق ومع البيت حديقة صغيرة ملحقة به. ويذكر النص أنه رغم تجاوزات الأشـرار والأقوياء، حتى الفقـراء كـانوا يمتلكون مثل هـذه البيوت ومن الواضح أنه وحوالي نهاية فترة الأسَر الأولى عندما تصبح معلوماتنا وافرة كانت المعابد هـي المالكة الكبرى لمعظم الأراضـي مـع أن بعض الملوك والملكات والأمراء قد امتلكوا بعض الأراضي واعتبر هـذا عمـلاً موجَّهـا ضد الآلهة، بينما كان الحال في السابق كما يلي:

(لقد أُلْحِقَ منزل الأنسي Ensi بحقول الأنسي ومنـزل زوجـة الأنسي قـد أُلْحق بحقول زوجة الأنسي وكذلك فإن منزل أحفاد ونسل الأنسي قد أُلحق بحقول أحفاد وأنـسال الأنـسي) ولقـد انتبـه أوروكاغينـا Urukagina إلى هـذه الحـالات فقـام بالإصلاحات التالية:

في منزل الأنسي Ensi وحقوله فقد عيَّن نين غيرزو NinGirsu (إله لاغاش) مالكاً لذلك البيت وبالنسبة لمنزل زوجة الأنسي وحقولها فقد عين الإلهة باوا Bawa مالكة لذلك المنزل وتلك الحقول، وبالنسبة لمنزل أحفاد الأنسي وحقولهم فقد عيّن الإله شول شا غانا Shulshaggana مالكاً لهذه المنازل.

وعند التقيد بنفس هذه المفاهيم فقد وُصفت الأراضي المرويّة التي سببت حصول خصومات وحتى نزاع مسلّح ما بين المدينتين، لقد وصف هذه الأراضي باسم الحقل المحبوب نين غيرزو NinGirsu إن نفوذ المهاجرين الساميين مسؤول عن نمو فكرة الملكية الخاصة للأراضي. وحتى قبل مجيء الأسرة الأكادية وجدت عقود بيع للأراضي في المدن الشمالية، حيث كانت هناك عناصر أكادية (سامية) قوية. ولكن عدا عن استثناءات قليلة لهذه القاعدة، فإن الملكية الخاصة للأراضي المروية كانت نادرة جداً في سومر القديمة وكانت غير عادية حتى في فترة السلالة الثالثة في أور.

ولقد وجد نص يُظهر أنه وُجد في ذلك الزمن بعض مالكي الأراضي الذين كانوا يملكون ضيعاً واسعة.

لقد قسمت الأراضي المروية الخاصة بالمعابد إلى ثلاثة أجزاء. أحدها يدعى «حقل الإله» وكان يُقصد به تأمين حاجات الطقوس الدينية والاقتصاد الداخلي للمعبد وتبلغ مساحة هذه الأراضي حوالي ربع مساحات الأراضي التابعة للمعبد وأما الباقي فقد وُزّعت على سكان الضيعة التابعة للمعبد، إما بشكل حصص تقدم مقابل الخدمات المقدّمة للإله أو بشكل حقل للعمل أي الأراضي المستأجرة التي يدفع إيجارها من ريع الحصاد. وفي الفترة الأسرية القديمة كان هذا الإيجار منخفضاً جداً بحيث يقابل سبع ثمن قيمة المحصول. ولكن في زمن الأسرة الثالثة في أور قد ارتفع الإيجار إلى ثلث المحصول. وبالإضافة إلى الأراضي المروية والحدائق الخاصة كان هناك مساحات كبيرة من أراضي المستنقعات بمحاذاة الأنهار والبحيرات، حيث يمكن أن ترعى المواشي والخنازير وكان هناك أراضٍ مفتوحة للحمير والأغنام والماعز لترعى بعد هطول الأمطار في الشتاء. إن تشابك المصطلحات السابقة ربما تشير إلى أن الدولة المدينة والمعبد كانا يشيران إلى شيء واحد أي مترادفين وقد كان الحال بهذا الشكل عند البداية الأولى للمجتمع السومري ولكن في الوقت الذي تبدأ به شواهدنا كانت المدينة أصلاً تحتوي أكثر من ضيعة واحدة تابعة للمعبد. مثلاً لاغاش التي نمتلك معلومات قيّمة عنها فقد كانت تتألف

من أربع مدن أو ضِيَع كل منها تابعة لمعبد أو مجموعة من المعابد، كان المعروف منها حوالي عشرين معبداً في زمن الحاكم غوديا Gudea (لقد أصبح هذا العدد مضاعفاً في زمن الأسرة الثالثة في أور) ولكن معظم هذه المعابد كانت صغيرة متواجدة فوق أحد الأضرحة. وكان رئيس هذه الآلهة هو نين غيرزو Ningirsu الذي كان الآلهة الأخرى تتصل به عن طريق علاقات عائلية.

كانت زوجة نين غيرزو الإلهة باوا وكان معبدها في لاغاش يمتلك حوالي أحد عشر ألف فدان من الأراضي المروية. وكان هناك ثلاث ضِيَع أخرى تابعة للمعبد في مدينة لاغاش ولقد حُسِبَ أن المعابد كانت تستلم حبوباً من أراضيها تزيد عما تحتاجه للإعاشة والبذور، وكان كثير من الحبوب الزائدة يصدر، ولكن أهراء المعبد كانت تؤلف احتياطاً قيّماً للمجتمع في حالة حدوث نقص في الأشهر السابقة للحصاد. وكان هذا يؤلف سبباً وجيهاً لجمع الفرعون الحبوب خوفاً من حدوث مجاعة في قصة يوسف. وكانت مخازن المعبد التي لا تزال ترى في الحفريات القائمة تحتوي سلاسل من المؤن وكانت نواحي وأطراف المعبد تشبه خلية النحل بما فيها من الأنشطة الاقتصادية فقد كانت تجلب إلى هنا جميع منتوجات أراضي المعبد مثل الذرة والفواكه والخضروات والسمك المجفف والجبن والتمور والسمسم لإنتاج الزيت والصوف والجلود للدباغة والقصب للاستعمال في البناء. وكانت بعض هذه المنتوجات (مثل الذرة والزيت والصوف) تقدم بشكل إعاشة للأشخاص الذين يعيشون في ضيعة المعبد، أما المنتوجات الأخرى فكانت تصرف لخدمة المعبد كما هي أو تستعمل كمنتوجات مصنعة وبعضها كان يخصص للتصدير. فقد كانت سومر مفتقرة إلى ثلاثة مواد أولية هامة وهي الأخشاب والأحجار والمعادن. ومنذ أقدم الأزمنة كانت هذه المواد تُجلب من الخارج، حيث كانت الطرق التجارية الرئيسية مفتوحة أمام السومريين في ذلك الزمن. فقد كانت القوافل التجارية تسيير ما بين سومر وجبال إيران محملة بالشعير مما زاد من محاصيل المعبد وتعود ومعها اللازورد وبعض الأحجار الكريمة لأجل تجميل المعابد، وكانت هذه الواردات تأتي عن طريق الحملات التجارية ويدفع لها مما يزيد عن حاجة المعبد خصوصاً الحبوب والصوف

(إمـا فـي حالـة خـام أو منـسوجات) وكانـت المـواد الغذائيـة كالبـصل والبخـور والـصناعات الـسومرية مثـل الأدوات والأسـلحة والمجـوهرات وكـان التـاجر أو قائـد القافلة رجلاً محترماً مسؤولاً وكان يعمل فـي خدمة إله المدينة.

وكانت شبكة الأقنية قد حفرت خلال الفترة السومرية، وبعد أن وُسّعت أصبح بالإمكـان نقل كميـات كبيرة مـن البـضائع بواسـطتها مـن دويلـة - مدينـة إلى دويلـة أخرى، وهكذا شكلت نموذجاً حيّاً للتجـارة البابليـة الداخليـة، وكـان التواصل مـا بين الدولة - المدينة والدول الأخرى سـهلاً عـن طريـق الأنهـار ولم يكـن هنـاك صعوبة فـي إجراء المواصلات برّاً ويفاخر الأنسي شـولغي Ensi Shulgi فـي إحـدى التراتيـل بأنه كان معتنياً بقضية المواصلات ضمن أراضيه ويقول:

لقد سرت خلال طرق البلاد

لقد حميت الطرق وأسَّسْت الحصون هناك

وزرعت الحدائق على الجوانب وبنيت بيوتاً للراحة

وسمحت للرجال المحترمين بالبقاء هناك

وقد كـان السفر متوفراً وسـريعاً ويدّعي شـولغي Shulgi أنه احتفل بعيد إيش – إيش Esh-Esh فـي أور ونيبـور في نفس اليـوم وهـذا يقتـضي القيـام برحلـة تـستغرق تسعين ميلاً وكـان هذا شيئاً استثنائياً دون شك وقد أصبح ممكناً باستعمال سـفينة تسوقها ريح قوية ورجال ذوو أعصاب رزينة نظراً لأن شولغي يشير إلى حـدوث عاصـفة هوجاء ويقول:

في ذلك اليوم حدثت عاصفة هوجاء وقد بدأت العاصفة باجتياح المنطقة

ولقد سيطر البرق والرياح السبعة على أرجاء السماء

ولقد بدأ إيشكور Ishkur (إله الطقس) يزمجر فـي السماء

وقد بدأت هبّات الرياح من السماء تضرب المياه على الأرض

وبدأت حبوب البَرَد الصغيرة والكبيرة تضرب ظهري

إن ذكر شولغي لبنائه الحصون الصغيرة تذكرنا بنتيجة أخرى للتجارة الداخلية فـي المدن أي فـي سومر. حيث إذا لم تستطع إحدى الدول - المدن البسيطة تأمين الطرق التجارية التي كان ازدهار البلاد معتمداً عليها، وقدّم هذا الحوافز للتوسع السياسي، على يد الدويلات الأقوى والأغنى، وهكذا خدمت التجارة كعامل فـي خلق نظام إداري وسياسي موحّد كان صادقاً وكاملاً فـي فترة الأسرة الثالثة فـي أور. ولقد ساعدت التجارة أيضاً ومنذ أقدم الأزمنة فـي نشر الثقافة السومرية إلى أوساط بعيدة عن حدود سومر نفسها. وهكذا وفـي تل براك Tell Brak فـي شمال سوريا كان هناك (حوالي ٣٠٠٠ق.م) معبد بني على نفس النمط المستعمل فـي سومر وكان محتوياً على أشياء مشابهة فـي تزيينها لتلك المستعملة فـي سومر. بينما وُجدت معابد تعود للأسر القديمة فـي كل من آشور وماري وكانت تحتوي على تماثيل مصنوعة طبقاً للأسلوب السومري. لقد أشير فـي ذكر أعلاه أن الملك الكاهن المعروف فـي أقدم الأزمنة باسم العين En كان يعين أصلاً فـي معبد الإله فـي حجرة تدعى إيغي بار Egipar وكان الممثل الشرعي للإله وما دام أن هناك ملكاً بابلياً فقد استمر هذا لكونه ممثلاً للملك يمارس بعض الوظائف الكهنوتية. ورغم هذا فإن الوضع الملكي لم يتطور مباشرة من وظيفة العين. ففـي منتصف الألف الثالث عندما كانت الوثائق تقدم لنا معلومات مفصلة عن الظروف والحوادث فـي سومر وخصوصاً فـي لاغاش كان ذلك الموظف المدعو إنسي Ensi هو المسؤول أمام الإله. عن إدارة المعابد وضِيَع المعابد والمدينة بصورة عامّة. وبينما كان لكل معبد موظفوه المختصون به الذين يُدعون »شعب الإله كذا وكذا« وله إدارته المستقلة، إلا أن جميع هؤلاء كانوا أتباعاً للإنسي. هذا ولقد سمحت المحاصيل الوفيرة من الأراضي الخصبة ـفي جنوب بابل والتي كانت تحت إشراف الري المنتظم بدرجة مرموقة من الاختصاص وتقسيم العمل مع وجود أنواع مختلفة من العمال والحرفيين. ودون إعطاء قائمة مُتْعِبة يمكن للمرء أن يُعدّد بعض الحرف مثل بنائي الطوب، النجّارين والحدادين والبنائين والغزالين والنسّاجين والجزّارين والطباخين وصانعي الخمور والخبازين وصانعي الفخار والمجوهرات والحلاقين، بالإضافة إلى أولئك العاملين فـي العمليات الزراعية وضِيَع المعابد، وكان هؤلاء مقسومين إلى مجموعات اختصاصية

وفضلاً عن العمال العاديين كان هناك الحراثون والرّعاة ورعاة البقر ورعاة الخنازير والحدائقيون والمهتمون بمزارع النخيل والخضروات، ونظراً لأن السمك كان غذاءً هاماً فقد وُجِد صيادو السمك وبأعداد كبيرة في ما بين موظفي المعبد وقد قسموا إلى صيادين في المياه العذبة وصيادين في المياه المالحة. وكان معبد الإلهة باوا Bawa يحتوي على أكثر من مئة صياد سمك ويظهر نفس النّص أنه وفي منتصف الألف الثالث كانت القوة العاملة جميعها التابعة لِضِيَع المعبد لهذه الإلهة يبلغون حوالي ألف ومئتي شخص، فإذا أضفنا الزوجات والأطفال وفرضنا أن المعابد الأخرى تعمل على نفس المستوى عندها يصل العدد إلى ما يقارب عدد سكان لاغاش. وهذا مذكور في إحدى النصوص من زمن غوديا Gudea، بأن العدد قد بلغ ٣٦٠٠٠ شخص. ومع أن هذا العدد عدد مثالي فلا ينبغي اعتباره متجاوزاً للنظام الصحيح. وهكذا فإن القوة العاملة كانت هي المواطنين أنفسهم، ولم تكن هناك أية طبقة مرفهة خالية من الهموم ووظائف الحياة اليومية ولم يكن هناك أي اعتماد كلي على العبيد عدا عن ذلك الإحساس الذي مفاده أن كل إنسان يُعتبر عبداً في خدمة الإله، ولما كان الاقتصاد التابع للدول - المدن معتمداً على الري ولما كان جميع المواطنين هم عبيد الإله وهم مسؤولون عن إدارة ضيعته، لهذا فهم جميعاً مجبرون على القيام بأعمال السخرة، وعليهم الاشتراك في العمل في السدود والقنوات وبناء المعابد أيضاً. ولقد بقي هذا صحيحاً نظرياً حتى نهاية فترتنا وذلك لأنه وحتى منتصف الألف الأول كان ملوك آشور وأبناؤهم يقومون بالعمل الرسمي وهو حمل السلّة على الرأس (انظر اللوحة ١٨أ التي تظهر كيفية قيام الملك بهذه العملية).

العبودية

لقد كان العبيد موجودين ولكنهم لم يكونوا أغلبية بين السكان ولم يعتمد العمل في المجتمع الآشوري عليهم اعتماداً كلياً. ففي الفترة الأولى للسلالات لم يكن العبيد عنصراً هاماً وكانوا يتألفون بصورة عامة من أسرى الحروب وكانوا يحصلون عليهم بعد القيام بالغارات في البلاد الجبلية، إذ إن معنى الأمَة وهي الفتاة

الرّق باللغة الآشورية هو «امرأة الجبال». ومن غير المعروف حقاً الفترة التي كان من الممكن للمواطن الحر أن يصبح عبداً ولكن اعتباراً من الأسرة الثالثة في أور (حوالي ٢١٠٠ ق.م) عرفت أحوال أصبح الرجل الحر فيها عبداً إما ببيع الرجل لنفسه بسبب الديون أو الجوع أو إذا باع أحد الوالدين الغاضبين أولادهم ليصبحوا عبيداً. ولقد أصبحت مثل هذه الإجراءات شائعة جداً في فترة لارسا Larsa (حوالي ١٩٠٠ق.م) وربما كان ذلك نتيجة للمصاعب الاقتصادية بسبب اقتحام العموريين للبلاد في ذلك الزمن وفي فترة السلالة الأولى في بابل تُفيد قوانين حمورابي أن مصدر العبيد الرئيسي هو الاستيراد من الخارج بطريق التجارة أكثر منه عن طريق أسرى الحرب.

في عهد السومريين كانت الإماء أكثر عدداً من ذكور العبيد وعدا عن الاستخدام الواضح للصبايا والجميلات من الإماء، إلا أن أعمالهن الرئيسية كانت تنحصر في مطاحن الحبوب والمعبد وفي الورشات، حيث يقُمْنَ بالغزل والنسيج. وفي أوائل فترة الأسر كانت المعابد أو القصور الملكية هي المالك الوحيد للعبيد، حيث يسكنون في ثكنات تحوي على مجموعات العمل التي لم تكن لتشبه معسكرات النازي أو السوفيت في القرن العشرين، ولكن تطورت بالتدريج الملكية الشخصية للعبيد. ولقد قُدِّر أن رب البيت العادي كان يملك اثنين أو ثلاثة من العبيد وذلك في بابل أما في آشور فكان رب البيت هناك يملك بمعدل ثلاثة أو أربعة عبيد وكانت الإماء تستخدم كمحظيات لدى الذكور من أهل المنزل. أما الفتيات اللواتي يشتريهن الناس كإماء فكُنَّ يحمين من البغاء بوضع شرط في عقد البيع أنهن ينبغي أن يتزوَّجن وعادة من عبد آخر وفي بعض الأحيان يكون الزوج رجلاً حُرّاً ويجوز أن تتزوج الواحدة عدة أزواج في حالة وفاة الزوج الأول.

لم يكن العبيد في بابل طبقة منغلقة وذلك لأن الرجال الأحرار كانوا يتعرضون أحياناً للاستعباد أو كان العبيد يصبحون أحراراً بينما كان زواج امرأة حرّة من أحد العبيد شائقاً ويجوز للعبد امتلاك بعض الأملاك التي يستطيع عن طريقها شراء حرِّيته. وفي حالة موت العبد كانت أملاكه تعود لسيده. ليس هناك

من إثبات أن العبيد كانوا يحملون إشارات مميزة لعبوديتهم، ولكن اعتباراً من الأزمنة القديمة في بابل كان العبيد يُميَّزون بنوع من حلاقة الرأس أو بوضع قيود وسلاسل وكان هناك نوع من العلامات بشكل وشم أو كي الحروف على الوجه، أو في ظهر الكف وكانت مثل هذه العلامات تنفذ بالنسبة للعبيد الذين كان لديهم ميول للهرب وكان هؤلاء يوثقون بالسلاسل أو يكتب على صدورهم أو وجوههم كلمات «هارب، ألْق القبض عليه». ويُذكر بعض الحالات عن عبد كان اسم سيده مكتوباً على ظهر يده بلغتين، وكان الرجال المتميزون وذوو الأهمية في بابل يقومون بوضع مثل هذه العلامات على عبيدهم، وذلك خلال الألف الأول ق.م. وكان هؤلاء العبيد مكرّسين للخدمة في المعبد ولم يشتملوا على الأسرى لدى الدولة أو العبيد الموهوبين للمعبد، وكان منهم أشخاص أحرار مثلاً الأطفال المشرَّدون أو أطفال عائلات فقيرة تسلّمهم عائلاتهم في زمن المجاعات لإنقاذ أرواحهم.

تبني الأطفال والعناية بهم

لم يكن الوصول إلى العبودية هو القدر المحتوم للأيتام أو أطفال البغاء. إذ هناك بعض الحالات التي يتبنّى بها زوجان لا أطفال لهما طفلاً يتيماً ليكون وريثاً لهما وقد وجدت تشريعات تخصُّ مثل هذه الحالات في قوانين الشرائع القديمة ولقد وجدت وثائق عديدة تعالج قصة التَّبنّي من هذا النوع. ونقرأ في إحدى هذه الوثائق ما يلي:

«إن ياحاتي إيل Yahatti-il هو ابن حيلالوم Hillalum من السيدة ألتوم Alitum وهو سوف يتمتع ويستفيد من أبويه في حالة اليسر، ويقاسي معهما في حالة العسر. فإذا قال حيلالوم الأب لابنه ياحاتي – إيل أنت لست ابني وقالت السيدة ألتوم لابنها يا حاتي – إيل أنت لست ولدي، فإنهما سوف يعاقبان بمصادرة بيتهما مع الأثاث والمفروشات. ولكن إذا قال ياحاتي – إيل لحيلالوم، أبيه وللسيدة ألتوم أمه أنتَ لست أبي وأنتِ لستِ أمي، فإنه سوف يعاقب ببيعه كعبد وقبض ثمنه بالفضة.

وبالنسبة لحيلالوم والسيدة ألتوم، ومَهما أصبح لهما من أولاد، فإن ياحاتي – إيل يظل ورثيهما وعند توزيع الميراث سوف يصيبه حصة مزدوجة ويصيب الأخوة الصغار بقية الإرث بالتساوي».

لا ينتظر أن يكون فـي العالم القديم تأمين اجتماعي كما نعرفه ولكن هناك دلائل (عدا عن الدلائل المذكورة آنفاً) أن الفقراء والضعفاء كانوا يحصلون على المساعدة والحماية. إذ إن يوروكاجينا Urukagina بدأ فـي حماية الفقراء والضعفاء ضد الأغنياء والأقوياء وتحاول مجموعة القوانين فـي الفترات التالية أن تتبنَّى نفس الدعوة سرّاً أو علناً وهي التي تبنّاها من قبل. ونحن نجد بعض الحالات حول هذا المبدأ ليس فـي مجموعات القوانين فحسب، بل فـي حالات الإحسان تجاه بعض الأشخاص. وهكذا هناك رسالة من مملكة ماري تقول إن يتيماً صغير السن لأب عجوز خادم فـي القصر قد أوكل به لحمايته من قبل نائب الملك ياسماح حدد Yasmah-Adad:

«إلى سيدي ياسماح حدد أقول يقول حاسيدانوم Hasidanum خادمك. لقد نُقِل موظف القصر المسؤول عن البريد عن مملكة ماري وإن هذا الرجل قد مات الآن، وله ولد لا يزال حديث السن أرجو من سيدي أن يرى هذا الطفل وإني أؤكد أنه يتيم وليس له من ولي أمر وأرجو من سيدي أن يسهّل أموره».

العُطَل

لم تكن الحياة بالنسبة لشعب منطقة ما بين النهرين – وحتى العبيد مجرّد عمل مرهق لا ينتهي، بل بالحقيقة فقد كانت الأيام المقدسة هي أيام عُطل أيضاً – وكانت الأعياد الدينية تخترق جميع الأعمال والأشغال، وكانت هذه الأعياد تستغرق عدة أيام أحياناً فـي كل شهر على أنها لم تحسب على أسس أسبوعية مثل العطل عند اليهود والمسيحيين. وقد كانت أكبر عطلة فـي السنة عبارة عن أحد عشر يوماً (أو خمسة عشر يوماً) بمناسبة عيد رأس السنة وكان الشعب فضلاً عن الكهنة يقضون هذه الأيام بالفرح والمرح والمهرجانات والمواكب ومعاشرة البغايا.

وحتـى أثنـاء أيـام العمـل كـان هنـاك حـدود للعمـل يتوقعهـا العمـال وكـان العمـال يتقدمون بالشكاوى التي كان ينظر إليها بعين الاعتبار إذا كلّفوا بأعمال مرهقة، ويعلّق أحد الموظفين في رسالة كتبها في أواخر القرن السابع ق.م، على بعض الأعمال التي بُذلت أثناء بناء أحد السدود من قبل بعض الرجال الذين كان هو مسؤولاً عنهم فيقول:

«إن العمل هنا صعب وقاسٍ، وإن إنجاز مهمة نقل الطوب التي أوكلنا بها عظيمة وشاقة فقد كان الرجل الواحد يكلف بنقل ١١٠ طوبة كل يوم».

وفي رسالة أخرى يشير الكاتب إلى احتمال حدوث إضراب بسبب ممارسة عمل غير مرغوب فيه، وفي هذه الرسالة يتقدم الكاتب بالشكوى إلى الملك:

«لقد عيّن الملك نابو – شار-يوشور مسؤولاً عن عمل العمال ولكن العمال لا يوافقون على القيام بهذا العمل ولهذا فسوف لا يقومون بإنجاز أعمال الملك».

الطعام والشراب

كان غذاء الشعب في بابل سواءً الأحرار أم العبيد مؤسساً على الشعير الذي كان يقدّم المصدر الرئيسي للمشروبات وهو البيرة فضلاً عن الطعام الرئيسي من الحبوب، وكان الشعير يؤكل بشكل خبز مصنوع من عجين غير خامد وبشكل أقراص رقيقة تنشر على سطح ساخن وتعطي الخبز اللذيذ والذي لا يزال أهل العراق يأكلونه وخصوصاً الفلاحون مع أن الطبقة الراقية من الشعب تحتقر هذا الخبز. وكانت الحبوب الأخرى التي تؤكل بشكل خبز أو عصيدة هي الدخن، والقمح والشوفان والأرز (اعتباراً من الألف الأول ق.م) وهناك طريقه لطبخ الحبوب وهي للحلويات والكعك أو البسكويت، وذلك بطبخ الطحين الممزوج بالعسل والسمن وزيت السمسم والحليب ومختلف الفواكه.

وكانت أكثر الخضروات شيوعاً هي البصل بينما استعمل العدس والفاصولياء والبازيلاء (وهي من مصادر البروتين) خصوصاً لعمل الحساء وقد كانوا يأكلون

الخيار وكذلك الملفوف وكانوا يزرعون الخس كما هو الحال الآن وكان مسؤولاً كما هو الحال اليوم عن نقل كثير من الأمراض الناتجة عن الحياة القذرة، كما أن التَّمر وهو المصدر الغني بالسكر كان جزءاً هاماً من الغذاء بينما كانوا يصنعون نبيذ التمور من البلح. وكان هناك فواكه أخرى وهي التّفاح والرّمان والتين والسفرجل والمشمش وكان النبيذ معروفاً ويصنع من العنب ولم يكن مشروباً مستعملاً كل يوم وكانت هذه المشروبات التي كانت تحتوي على كميات كبيرة من النبيذ في زمن السومريين توضع في أنابيب كانت نهايتها مثقوبة لتشكل نوعاً من عملية تصفية المياه.



أنبوب لغرض الشرب

وقد عرفت أنواع كثيرة من البيرة وتحتوي الأدبيات البابلية على قائمة طويلة من العمليات المستخدمة لعمل البيرة وحتى زمن حمورابي كانت عمليات صنع البيرة تتم عن طريق النساء وذلك لأن هذه المهنة كانت الوحيدة التي تحميها آلهة مؤنثة. بينما ذكرت شريعة حمورابي اسم الزوجة صانعة البيرة أو الجعة. وكانت عمليات صنع البيرة تصوّر بشكل صور فنية. كان الحليب يؤخذ من الغنم والماعز والبقر وكان من الأصل الحليب يستعمل كما الآن بشكل اللبن والزبدة والجبن وفي إحدى الصور التي تعود إلى الألف الثالث ق.م. هناك صورة تمثل إنتاج الحليب ومشتقاته وكانت العجول توضع أمام أمهاتها من البقرات وذلك ليزيد نتاج الحليب لدى البقر. وهكذا برهَنَ السومريون أنهم أكثر ملاحظة لسلوك الحيوانات من السكوتيين الذين عاشوا



تخمير الجعة

بعد ألفي عام والذين كان عبيدهم العميان يتعاملون مع الحليب بالشكل التالي وذلك طبقاً لما ذكره هيرودوتوس:

((يستعمل العبد أنابيب من العظام تشبه المزمار ويدخلونها في عجز الفرس وكان بعض العبيد يعملون في استخراج الحليب من الأفراس بينما كان الآخرون مشغولين بالنفخ وهم يؤكدون أن عملية النفخ تعمل على توسيع أوردة الفرس بالهواء وهكذا يجبرون الحليب على الخروج من الضّرع.))



تصنيع الألبان

وفي الصورة للأفريز التي وجدت في سومر يجلس الحلاّب على كرسي بدون ظهر خلف البقرة ووضع غير عادي ويقول كاتب هذا الكتاب: إن هذا الوضع مازال مستعملاً في إنكلترا. وعلى مقدمة منه هناك رجل آخر جالس على كرسي وهو يهز الحليب وإناء كبير لعمل الزبدة وأما المشهد إلى أقصى اليسار فهو يُظهر رجلين يضعان ما نتج لديهما من الزبدة لفصل الزبدة عن الحليب وكان المصدر الرئيسي المحتوي على البروتين عدا عن الحليب هو السمك وخصوصاً في الأزمنة القديمة مع أنه حصل نقص في استعماله فيما بعد. وقد ذكرت أنواع كثيرة من السمك في الوثائق الإدارية في الألف الثالث ق.م وحتى فترة الأسرة الأولى في بابل. وقد وجد نص سومري يعود إلى عام ٢٠٠٠ق.م وضعت فيه عادات وأنواع كثير من الأسماك بالتفصيل وذلك بشكل دعوة للإله للدخول إلى البيت ومباركته، وليس من الواضح أن هذا النص يمثل المعرفة الواسعة للكاتب أم أنه كان مهتماً بجذب السمك حتى يدخل إلى شبكة الصياد. وبعد فترة الكاشيين مع أنه لم يؤكد في الديانة الرسمية أصبح أكل السمك أقل شيوعاً وقد قيل إن هناك طقس منتشر لمنع أكل السمك

وهذا أمر مقبول لأنه ورد عن منع مشابه في سوريا في الألف الأول ق.م بينما يحتفظ بالسمك المقدس في عدد من الأماكن في العراق. ومن الممكن أن نذكر خلافاً لهذا الاستنتاج أن بعض النقوش النافرة الآشورية التي تعود إلى الألف الأول ق.م تصوّر صيد السمك بواسطة الشباك في إحدى البُرَك بينما كانت عملية صيد السمك تجري في الفترة البابلية الجديدة.

كان لحم الغنم فضلاً عن لحم البقر يؤكل في مناسبات الأعياد وكانت التضحية بالماعز ظاهرة من ظواهر عبادة الفلاحين وكذلك غذائهم. وبعد تقدم الحضارة في سومر استبدل الماعز الحقيقي المقدم للآلهة بنماذج من صور الماعز وهذا يدل على نقص استعمال لحم الماعز لدى المواطنين العاديين، ومع ذلك فقد كان الآلهة والملك يستلمون كميات كبيرة من اللحم كإعاشة وكانوا يسمِّنون المواشي لتصبح ذات حجوم كبيرة. إذ هناك ذكر في بعض الرسائل من مملكة ماري لثور كان مخصصاً كتقدمة للإله من قبل القصر قد أصبح سميناً جداً لدرجة أنه لم يعد يستطيع الوقوف، ولم يكن هناك من طقوس لمنع لحم الخنزير الذي لا يزال موجوداً وبأعداد كبيرة جنوب العراق (كما هو الحال في بعض أجزاء البلاد الأخرى). وفي زمن السومريين كانت الخنازير تُرَبّى بشكل قطعان كبيرة. وكان الطعام الذي تجمعه الخنازير من القمامة يضاف إليه الشعير المطبوخ. وفي كثير من المجتمعات القديمة والبدائية يبدو أنه كان هناك نقص في المواد الدهنية في الأغذية ولذلك فقد كانوا مغرمين بأكل اللحم المدهن أكثر منّا. وهكذا فكان لحم الخنزير المدهن طعاماً مرموقاً في بابل القديمة ويقول المثل السومري إن اللحم المدهن ليس نافعاً للإماء الفتيان اللواتي ينبغي أن يأكلن لحم الخنزير الخالي من الدهن وكانت المواشي قليلة العدد نظراً لقلة المراعي، وكان لحم الخيول مسموحاً بأكله من قبل البشر دون وجود طقوس لمنع ذلك وذلك على الأقل في منطقة نوزي Nuzi إلى الشرق من آشور في القرن الرابع عشر ق.م. ولقد سُجّلت دعوى قضائية اتُّهم بها أشخاص بسرقة وأكل لحم حصان وقد استعملت جثث

الحمير الموتى طعاماً للكلاب أما بالنسبة للطيور الداجنة، فكان الإوز والبط يربى منذ أقدم الأزمنة ولم يصل الدجاج إلى البلاد حتى الألف الأول ق.م.

ولقد كان مقدار كبير من الأطعمة المذكورة أعلاه يُحفظ لأيام ندرة الطعام. إذ إن الحبوب لا تشكّل أية مشكلة بينما كانت البقول تجفّف في الشمس. وكانت الفواكه المختلفة تحتفظ وذلك بضغطها لتصبح شبيهة بالكعك، وكان السمك يحفظ بتمليحه وكذلك يُحفظ اللحم.

إدارة المنازل وتجهيزات المنزل:

لا تظهر المنازل السومرية والبابلية وخصوصاً بالنسبة لأولئك الذين اعتادوا على نماذج من البيوت المبنية بعد الحرب بأنها مريحة أو صحية، فقد كان منزل الرجل العادي خلال القرن الثالث ق.م. لا يزيد عن كونه ذا جدران سميكة وخالياً من النوافذ. وكانت الغُرف تجهِّز بحيث تناسب الموقع والمناخ دون الرجوع إلى أي مخطط، وكانت الأبواب بين الغرف واطئة بحيث يضطر الإنسان إلى الانحناء عند المرور خلالها من غرفة إلى غرفة، وكان أي بيتين متجاورين يملكان جداراً مشتركاً وفي بعض الحالات كانت تكتب العقود التي تثبت حق الجار بوضع عوارض على الجدار. وقد وجد نوع من البيوت الممتازة المصنوعة من الطوب المشوي. وكانت مثل هذه البيوت تبنى حول باحة مركزية تشبه النوع القديم من بيوت الطبقة الغنية في بغداد في بدايات القرن العشرين وهذه كانت تتألف من أكثر من طابق واحد...

إذا قارنا البيوت السومرية والبابلية أو البيوت الشرقية الحديثة ببنايات أوروبا الغربية نرى فروقاً شاسعة. فالغرض الأساسي من البيت في إنكلترا هو إبعاد الرطوبة وتيارات الهواء الباردة، بينما نجد أن الغرض الأساسي من البيت في العراق الجنوبي هو إبعاد الحرارة الفظيعة التي تنصبّ مدة اثنتي عشرة ساعة يومياً ابتداءً من أول أيار حتى أيلول قادمة من الشمس الحارقة عديمة الشفقة. فالنوافذ في ذلك المناخ ليست نعمة من النّعم. فالأشخاص الجهلة الذين أسيء توجيههم والذين يحاولون أن

يبنوا في بغداد بيوتاً حديثة تشبه بيوت إنكلترا ذات الجدران الرقيقة من الطوب والإسمنت المسلح ومساحات واسعة من الزجاج يجدون أنهم لا يستطيعون أن يجعلوا بيوتهم صالحة للسكن إلا بعد أن يُطلى الزجاج بطبقة ثقيلة وإلا بعد أن يركبوا آلات للتبريد. ولقد كانت البيوت في منطقة ما بين النهرين تحتوي أمام النوافذ شبكات من الصلصال والخشب موضوعة في الجدار ولقد وجدت أمثلة من الألف الثالث ق.م (انظر اللوحة ١٥أ) وهي مشابهة للنوع المستعمل في العراق في هذه الأيام.

وكانت تجهيزات البيت تختلف بالطبع بشكل كبير من فترة زمنية إلى فترة أخرى ومن منطقة إلى منطقة، ومن طبقة إلى طبقة فالمفروشات والقصور ليست نموذجية والطريقة المثلى هي أن تصف محتويات بيت خاص بشكل مفصّل ولسوء الحظ فإن أحوال التربة والمناخ في العراق لا تسمح ببقاء الأدوات الخشبية والمنسوجات مدة طويلة بينما وجدت أدوات المطبخ سالمة لكونها مصنوعة من المعدن، ولذلك لا عجب أن لا نجد أي محتويات من البيوت قد كشفت عنها الحفريات بشكل كامل.

كانت التخوت الخشبية شائعة وقد وجدت صورها في النقوش النافرة في آشور وتذكر أيضاً في النصوص الطبية حيث يفترض أن ينام المريض عليها. ويفترض البعض أن شعب ما بين النهرين كان ينام على بُسط وحرامات ولكن ليس هناك من شواهد تثبت هذا. وبالنسبة للطاولات فقد كانت الآلهة تتناول طعامها عليها بما يدل أن استعمال الطاولات للأكل في بابل كان عملاً ذا قيمة عالية فقد كان الأشخاص الأثرياء على الأقل هم الذين كانوا يتمتّعون بما كان يتمتع به الآلهة بهذا الخصوص. نظراً لأن الطاولات كانت تذكر بشكل متكرر في الأنصاب الآشورية وكانت الكراسي ذات الأرجل وحتى المساند شائعة في القصور. بينما استعملت الكراسي الخالية من الظهر منذ بداية الألف الثالث ق.م وقد وجدت مقاعد مبنية من الطين. وكانت المفروشات الأخرى الرئيسية في البيت عبارة عن بعض الصناديق الخشبية المستعملة لخزن المواد.

أمـا بالنـسبة لأوانـي الطـبخ المستعملة للأكـل فقـد كانـت الأصـابع تُعتبر أنهـا المناسـبة لتنـاول المآكـل الـصلبة مـع أنـه وجـدت شـوكات مـن العظـام ذات سـن واحـد وبأعـداد كـبيرة. وكانـت الـسكاكين شـائعة طبعـاً أمـا بالنـسبة للـسوائل فقـد استعملت الملاعـق المـصنوعة مـن البيتـونين أو العظـام. ولقـد تغيَّـرت أسـاليب الأكـل والشرب والأواني المستعملة لذلك الغرض من وقت لآخر ولكـن ظل هنـاك الـصحون والطاسـات والفنـاجين المـصنوعة مـن الفخـار أو الخـشب أو الحجـر أو المعـدن. كـان الطعام يطبخ على فـرن كـان موضـوعاً فـي باحـة المنـزل مـع أنـه وجدت مواقـد داخـل البيوت ولقد استعملت المناقل لوضع النار للتدفئـة فـي داخـل البيـوت حيـث تـؤمن هـذه الراحة للسكان في أوقات البرد. مع أنه استعملت أنواع مـن المناقل النحاسـية المزينـة بأشكال تشبه الأسود في مواضيع طقوسية.

وبين أواني الطبخ وُجد إناء يشبه المقـلاة خـلال أوائـل الألـف الثالـث ق.م. وكانـت الأطعمـة المؤلفـة مـن الحبـوب تحـضر عـن طريـق الطحـن وكـذلك بعـض البقـول. ومـن الممكن أن نجد في بعض المدن القديمة مثل كوتاح بعد قليل مـن التفتيش والتنقيـب بعـض المـدقات والهـاون المـصنوعة مـن الـصلصال المـشوي أو الحجـارة وهنـاك ضـرورة أخرى وهي وجود الطاحون لطحن حبوب الذرة، أو عمل الخبـز ولقـد وجـدت طـواحين يدوية مصنوعة من الحجارة البركانية المستوردة في بعض البيوت.

أما المجوهرات وهي الأقراط، والخرز والأساور والخلاخيل (انظر لوحة رقم ٦٢) فكانـت موجـودة فـي المنـزل العـادي بالإضـافة لـبعض أدوات الزينـة (التواليـت) مـثلاً بعض الأوعية المحتوية على زيوت تستعمل لدهن الجسم والشعر، والمرايا مـن النحـاس أو حتى الفضة أو الذهب، وقد وُجد في أحد القصور الـتي تعـود إلى حـوالي ٢٣٠٠ق.م أنواع من الخـرز بالإضـافة إلى أوعيـة مـن الـصدف تحتـوي الكُحـل والـروج وهـذا ممـا أوحـى للمكتـشف أنـه كـان فـي مقـصورة إحـدى الـسيدات الحـديثات. كـان هنـاك حمّامـات خاصـة (مـن النـوع التركـي) قـد وجـدت فـي القـصور ولكـن لم توجـد فـي البيـوت الخاصـة الـتي كـان سـكانها يـستحمون فـي الأنهـار ولقـد وجـدت مـراحيض تعـود إلى الألـف الثالـث ق.م تتـألف مـن أرضـية واقعـة فـوق حفـرة أو مـصرف وهنـاك

مقاعد من البيتـومين فـي إحداها لتضيف إلى راحـة الـذين يستعملونها (انظـر اللوحـة ١٣أ).

وطبقاً لمعرفتنا لم يكن هناك أي نظام للبلديات للتصرف بمياه الصرف الصحي للمنازل الخاصة، ولكن بنايات الدولة كانت تحتوي على نظام مرموق من الصرف الصحي يعود إلى الألف الثالث ق.م. وفـي بناية كبيرة تعود إلى عـام ٢٣٠٠ ق.م التي يظن أنها كانت قصراً فـي إيشنونا Eshnuna (تل أسمر الحديثة) الواقعة على نهر ديالا كان هناك ستة مراحيض لها مقاعد مرتفعة مصنوعة من الصلصال المشوي، ووجد خمسة حمّامات أيضاً وقد كانت المراحيض والحمامات متصلة بمصارف تنتهي بساحة للصرف الصحي، وهي عالية ومسقوفة بعقد من الطوب المشوي (انظر اللوحة رقم ١٣ب) وكان كل مرحاض مجهزاً بإناء يحوي الماء. وقد وجد أن بعضها وفـي زمن اكتشافها لا يزال محتوياً على مغرفة من الفخار كانت تستخدم لنشر الماء فـي المرحاض بعد الاستعمال وكانت قصور الآشوريين التي تعود إلى الألف الأول ق.م تحتوي نظاماً مرموقاً من الصرف الصحي وكان المصرف الرئيسي عرضه خمسة أقدام وكانت نهايته مغطاة بحاجز ذي قضبان لمنع الدخول. وكانت مياه الصرف الصحي تلقي بمحتوياتها إلى النهر. كانت الإضاءة تتوفر إما بالمشاعل التي كانت تتألف من حزمة من القصب مغموسة بالزيت أو البيتومين أو بواسطة المصابيح وكان المصباح يتألف من وعاء يشبه الحذاء وهو مملوء بالزيت وفيه فتيل يخرج خلال ثقب واقع فـي الأعلى. والزيت المستخدم لهذا الغرض هو إما من زيت السمسم (لم يكن زيت الزيتون مستعملاً بصورة شائعة) أو من زيت البترول الخام المأخوذ من بعض طبقات الأرض هناك وهذا الزيت هو زيت البترول الذي تعتمد عليه أوروبا فـي هذه الأيام.

لقد ظهرت مخاطر عدة بالنسبة للبيوت فقد كان من الشائع انهدام بعض البيوت المصنوعة من الطوب المجفف بالشمس، وقد وجدت عدة إشارات لمثل هذه الحوادث وهذه المشاكل. وقد خصصت شرائع حمورابي عدة بنود لهذا الغرض وهي تقرر أنه إذا بنى أحد البنائين بيتاً وقد انهدم هذا البيت وقتل الساكن فيه فإن البناء

نفسه ينبغي أن يحكم بالإعدام فإذا تسبب الهدم بقتل ابن ساكن البيت فإن ابن البناء ينبغي أن يُعدم. ولقد ذكر في إحدى النصوص أن سن إيدينام Sin Iddinam ملك لارسا قد لاقى حتفه فعلاً بسبب انهدام بيت الدرج في أحد المعابد. وكان هناك طقوس معدّة لمنع الجدران من السقوط وحتى أنه كان هناك بعض نذر حيوان النمس التي تتنبأ بموت أحدهم خلال بعض الحوادث من هذا النوع.

إذا رأى أحدهم حلماً مفاده بأنه قد انحدر إلى العالم السفلي، حيث قابل أحد الأموات الذي باركه فإن هذا الرجل سوف يموت بسبب انهدام أحد الجدران عليه.

وإذا حلم أحدهم أنه قد انحدر إلى العالم السفلي وأكل شخصاً ميتاً فإن هذا الرجل سوف يموت بسبب سقوط إحدى عوارض البيت على رأسه.

وقد كانت هناك عدة منغصات في البيوت القديمة وهي الحيوانات الزّاحفة فالعقارب لا تزال متوفرة في بعض أجزاء العراق، وهذه العقارب تجد طريقها إلى البيوت الحديثة في وسط بغداد من وقت لآخر. ففي الأزمنة القديمة لابد وأنها كانت شائعة في البيوت المصنوعة من الطين وذات السقوف الطينية أيضاً، وهناك مجموعة من النذر السيئة تشير إلى العقارب التي تسقط من السقوف على الرجل أو على فراشه، وهناك عدة أدوية كردٍّ للسْعِ العقرب. وهناك الأفاعي التي كانت تتجول أحياناً وربما كانت تفتش عن غذاء لها من القوارض وكذلك كانت تتجول فيما بين أغصان الشجر والطين المكوّن لسطوح المنازل وهناك إشارات عديدة في النصوص البابلية إلى الأفاعي الساقطة من السقف على الرجل أو على فراشه وفي بعض الظروف كانت مثل هذه الحوادث تعتبر من الحظ السعيد.

تخطيط المدن – الموارد المائية

لم يكن تخطيط المدن مجهولاً في منطقة ما بين النهرين القديمة وخصوصاً في فترة تجدّد آشور. وفي الأزمنة القديمة كانت المدن تنمو وتكبر بالتدريج حول جوار المعبد. ولكن وفي عدة حالات وفي زمن الآشوريين كان الملوك يبنون المدن

بناء على وجود مخططات مدروسة وهناك مثال مشهور هو بناء مدينة كالخ (نمرود الحديثة) التي أعاد بناءها آشور ناصر بعل عام ٨٧٩ق.م وعمَّرها بِجَلْب حوالي سبعين ألفاً من السكان، ولقد خططت هذه المدن بناءً على الحاجات العسكرية. وهناك مثال آخر وهو مدينة دور – شاروكين (خورس آباء) التي خطط لها وبناها الملك سرجون الثاني لتصبح عاصمة جديدة له وذلك على موقع قرية صغيرة. ولقد جُهِّزت مثل تلك المدن بطرق رئيسية للخروج مع وجود شوارع مُبَلَّطة بالحجار للمساعدة على مرور الجيوش الملكية في طريقها إلى حملاتها. ولقد أجريت الحفريات على طرق من هذا النوع في نمرود بينما يذكر سنحاريب طريقاً أخرى عندما يقول: عند ذكره إعادة تخطيط نينوى وعندها يقول إنه إذا تجرَّأ أحد على تخريب الطريق الملكية، فإنه سوف يعاقب بالقتل عن طريق الخازوق. ولقد بُذِلت العناية التامة بالمواصلات النهرية في المدن الآشورية. وبالنسبة لمدينة نمرود فقط وُجد أنها قد زودت بسور للميناء عمقه حوالي ثلاثين قدماً وهو مؤلف من قطع من الحجارة المصقولة يبلغ قياس الحجر الواحد حوالي ياردْ مكعب أو أكثر.

لقد كان تزويد المدن القديمة بالمياه من الأمور ذات الأهمية القصوى بالنسبة للحكام. وإن الانتباه إلى هذه القضية يُعتبر من المنجزات الهامة لحزقيال النبي. وكانت قضية المياه قد لا تمثل مشاكل كبيرة بالنسبة لبابل ولكنها كانت تتطلب عناية كبرى في آشور وذلك لأن مستوى مياه نهر دجلة معرّض للتغير أكثر من مستوى مياه نهر الفرات وهو أكثر انخفاضاً بالنسبة للأراضي المجاورة بحيث أن استخدامه لأغراض الري أقل سهولة في معظم أيام السنة. ولقد قام سنحاريب بمجهودات عظيمة لجلب الماء إلى نينوى وذلك بقصد إرواء الحدائق والبساتين التي أنشأها ولذلك فقد حفر قناة طولها ستة أميال وجلب الماء بواسطة خندق طوله ثلاثمائة ياردة. ولقد كلَّف هذا المشروع استخدام حوالي مليوني حجر وزن كل منها ربع طن، ولقد وضع في أسفل مجرى النهر جلاميد من الصخور الخشنة كان من الواجب العبور فوقها، وتشكل رصيف فوق هذه الجلاميد... ومن هذا الرصيف في مجرى النهر ظهرت ستة دعامات لحمل الأقواس حيث قطع الخندق مجرى النهر

وكان الجزء الأعظم من الثلاثمائة ياردة التي تشكل طول الخندق مبنياً بالطبع على أرض جافة. وقد كان أعلى الخندق يتألف من رصيف مستوى عرضه أربع ياردات وكانت جوانب هذا الرصيف مقوّاة بالدعائم وقد أشير إلى بناء مشروع من هذا النوع لإمداد مدينة أربيلو بالمياه.

وكان هناك عدد من الآبار في كالخ وهي محفورة حتى عمق تسعين قدماً وذلك لتأمين حاجة المدينة إلى الماء في حالة وقوع حصار وقد وُجد أن أحد الآبار يقدم حوالي خمسة آلاف غالون من الماء يومياً وقد وجد في نفس البئر بكرة خشبية عليها علامات الاهتراء من جرَّاء وجود حبل لا يزال أثره ظاهراً، وكان هناك عدد كبير من الجرار وبعضها يظهر عليها آثار قطع من الحبال على أعناقها ومن الممكن أن تكون هذه الجرار عبارة عن عدد من الأواني التي تديرها آلة لرفع السطول من البئر ويشير سنحاريب بفخر إلى وجود آلة من نفس النوع عندما يشير إلى إعادة بناء عاصمته نينوى «ولكي نحصل على الماء يومياً أمرت بصنع الحبال في السلال ووضعت دعائم وقضبان فوق الآبار بدلاً من الأعمدة».

الملابس

وبالنسبة للملابس كانت الأزياء تتغير باستمرار خلال ألفين وخمسمائة عام أي من عام ٣٠٠٠ق.م حتى عام ٥٠٠ق.م. ولقد كانت المنسوجات معروفة بالتأكيد ابتداءً من الألف الثالثة وقبل أن تبدأ الأقمشة بالظهور كانت الجلود وجزة الغنم مستعملة ويظهر أن الأثواب التي لبسها السومريون كما كانت مصورة على الأنصاب كانت مصنوعة من جلود الأغنام، أو الماعز ولكن علينا أن نتذكر أن الفنون القديمة كانت خادمة ومنفّذة لرغبات الآلهة وليس لمعاهد الفنون وهكذا كانت الفنون عبارة عن مشاهد متعلقة بالطقوس الدينية أكثر من علاقاتها بالحياة اليومية المعاصرة وهناك بعض الشواهد التي تشير أنه في فترة البروتوليتريت Protoliterate كان شعب العراق الجنوبي يسيرون وهم عراة الأجسام لإتمام أعمالهم اليومية في الحقول. وقد وُجد أن الإنسي Ensi قد ظهرت صورته وهو واقف

أمام الإله عارياً، وهذه الحالة من العري ربما تمثل عادات أهل سومر قبل بضعة قرون وكان الرداء المستعمل في الطقوس الدينية مختلفاً عنه في الحياة اليومية.

وحيث كانت المنسوجات مستعملة، فقد كان الرداء الشائع الاستعمال عبارة عن تنورة ذات ثنيات طولية، وهي تظهر في اللوحة (٨ب) ويظهر في إحدى اللوحات من أور (انظر اللوحة ١٢) وهي لوحة مزخرفة تظهر بعض الجنود وهم يلبسون مثل هذه التنانير بالإضافة إلى عباءة تلبس فوق الكتفين، ولقد وجدت صورة للإنسي جوديا وهو لابس شالاً طويلاً يصل إلى الكاحل ويتدلى فوق الكتف الأيسر، وفي أثناء الألف الثاني ق.م كان الرداء النموذجي يتألف من قميص داخلي مع قطع طويلة من القماش ملفوفة حوله وهي مشدودة عند الخصر بواسطة حزام، ولقد قُدّمت الملابس المصنوعة من غُرز في تلك الفترة وكان الرداء النموذجي في الألف الأول هو الرداء الطويل المشدود بدون تجعّدات.

وتذكر النصوص أصنافاً كثيرة من المنسوجات التي تتدرج من الأنواع الرخيصة المناسبة للخدم حتى الأنواع المناسبة ليلبسها الملوك وكانت أثواب الملوك والنبلاء وكما تظهر في الصور الآشورية النافرة مزيّنة بالتطريز.

وكان الصوف الذي يصنع منه معظم المنسوجات يؤخذ من الأغنام وليس بطريقة الجز التي نستعملها نحن، فقد كانوا يُجرون حمّاماً للحيوان قبل العملية ولكن كان هناك عمليتان أخريان في هذا السبيل أيضاً وكانت إحداهما طريقة النتف والثانية كانت غسل الحيوان في جدول فيه مياه جارية لفصل الصوف الفالِت عن الجزَّة، وليس من الأكيد أن الطريقة الأخيرة كانت مستعملة في منطقة ما بين النهرين، وكان شعر الماعز يستعمل في بعض الأغراض كما لا يزال الحال في العراق وهناك روايات كثيرة تخص صناعة الصوف وتُقدَّر أن سدس الألواح السومرية التي وجدت في نيبور كانت تتحدث عن هذا الموضوع وهذه الألواح تتحدث عن صنع الصوف باللون الأبيض وعن صباغة الصوف وغزله ونسجه في الألف الثالث ق.م. وقد استعمل الكتان والقطن أيضاً لصنع القماش ولكن بشكل أقل من استعمال الصوف.

أنماط قص الشعر

هنـاك دراسـة ممتعـة حـول أنمـاط قـص الـشعر لـدى النـساء فـي منطقـة مـا بـين النهرين فـي الألـف الثالـث والثـاني ق.م. قـام بهـا Agnes Spyket الـذي اقتبـسنا مـن مقالته الخلاصة التي أوردها بهذا الخصوص.

ففي فترة جمدت نصر (حوالي عـام ٢٩٠٠ ق.م) كـان كـلا الجنـسين لهمـا شـعر طويل يتدلى بشكل عنقودي خلف الرقبة ومن الممكن أن يكون مربوطاً فـي الوجـه بشكل من الأشكال مع أنه ربما كان يغطي الأذنين، وفـي الفـترة التاليـة للأسـر الأولى (ولَنَقل من عام ٢٨٠٠-٢٤٠٠ق.م) أصبح الزي الأساسـي شـعراً طـويلاً مـسترسلاً ابتداءً من الوجه ويضم بشكل خُصل وملفوف حول الـرأس باتجـاه قمـة الـرأس. ولقـد حدثت عدة تعديلات لهذا الأسلوب بعضها كان إحداث ضفائر أمـام الأذنـين وأحيانـاً هناك نظام يساعد الشعر أن يترتب بشكل أفضل وبساطة أكثر وكان الشعر يترك بشكل كتلة واحدة متدلية مربوطة بشريط أو بواسـطة جـديلتين أخـريين وفـي فـترة أغـادي (تقريبـاً مـن ٢٣٧٠-٢٣٣٠قـم) مـا لـم يكـن الـشعر كالمعتـاد لـدى الـساميين المتسلطين متجعداً فإنه كان يموج وذلك لأن الشعر المتجعد والمتموج كـان هـو الـزي المفضل وكان الشعر يُفرق فـي وسـط الـرأس وكانـت تـترك حاشـية مـن الأمـام وفـوق الصدغين وكانت كتلة شعر السيدة ترفع من الخلف وتُرتب بـشكل كعكـة شـعر فـي مؤخر الرأس وهذه تمتد من مؤخر العنق حتى أعلى الرأس. ولقد وجـد نفـس هـذا الطـراز فـي الفـترة التاليـة (حـوالي ٢٢٠٠-٢٠٠٠ق.م) وذلـك عنـدما أصـبحت كعكـة الشعر التي كانت كبيرة تحتوي على شبكة فوقها مثبتة بواسطة شريط.

لم يكـن شـريط الـشعر وكعكـة الـشعر هـي الوسـائل الوحيـدة الـتي اسـتعملتها السيدات فـي الأزمنة القديمة فقد كُنَّ يستعملن دبـابيس الـشعر فقـد وجـدت عيّنـات من تلك الدبابيس وهي مصنوعة من العظام أو النحاس أو الفضة أو الذهـب.

لقد كـان الـسومري الـذكر فـي النـصف الأخـير مـن الألـف الثالـث يقصّ شـعره بشكل كامل أو أن يجعل شعره ولحيته مموجان، وهنـاك حـالات مـن الـرأس الأصـلع

والافتقار إلى اللحية ومع أنه يقال إن تلك الحالة كانت مصحوبة بالشعر المستعار ولكن ذلك كان قليل الاحتمال نظراً لأنه وفي بعض الحالات وجد تمثال فيه رأس عليه لباس الرأس المناسب وليس هناك من إشارة لوجود شعر مستعار. واعتباراً من الألف الثالث ق.م حتى نهاية الإمبراطورية الآشورية كان الملوك يظهرون بلحى متموجة وأحياناً بشعر طويل متموج بعيداً عن الأذنين وهو يسقط بشكل فضفاض وبشكل مرتّب جداً على الكتفين. وفي المشاهد الآشورية الدينية يظهر الملك والمحاربون وهم ذوو شعر طويل ولحى مسترسلة وتظهر أيضاً جماعة أخرى من الرجال وهم ذوو شعر طويل أيضاً ولكن حليقي الذقون ووجوههم نضرة ولقد اقترح أن يكون هؤلاء الحليقي الذقون من الخصيان ولكن ذلك غير مؤكد ومن الممكن أن يكون هناك أحد التقاليد القديمة وهو يمثل الشاب الذي يعمل في الخدمة الملكية بالأجرد أي الرجل أو الشاب دون لحية ومن المؤكد أن الاصطلاح الذي يقال للشخص «وهو أنك ليس لك لحية في ذقنك» إنما يستعمل ليدل على الرجل غير الناضج. وكان للعبيد نوع متميز من حلاقة الشعر كما كان الحال بالنسبة للكهنة والأطباء. ولقد نشأ هذا الاستنتاج من قصة الرجل الفقير من نيبور، حيث يقول البطل ولكي يتقمص شكل الطبيب يذهب أولاً لقصّ شعره على الصفر.

الزواج والعلاقات الجنسية

كان الزواج (خلال المجتمع السومري والبابلي) أحادياً بمعنى أن الرجل كان يتزوج امرأة واحدة كانت تعتبر زوجته وكانت تتمتع بالوضع الاجتماعي بحق المساواة مع الرجل. ومن جهة أخرى فلم يكن هناك من وصمة عار تلحق بمن يلجأ إلى العاهرات في المعبد وإلى المحظيات وعندما أصبح العبيد من الأملاك الشخصية أصبحت الإماء من العبيد تستخدم لأغراض جنسية ولم تكن حالة المحظية لتغيّر من حالة الأَمَة التي لم تكن تنعم بحرّيتها بشكل آلي بينما كان أولادها يستمرون في حالة العبودية ما لم يقبل السيد اعتبارهم أولاده الشرعيين. وكان من الممكن للرجل إن كان عازباً أو أرملاً أو إن كان رجلاً متزوجاً لديه زوجة مطيعة ولطيفة ومتسامحة أن يتزوج إحدى الإماء ويجعلها سيدة للمنزل. ولكن هناك انتقاد لمثل هذه

الأعمال ورد في أحد الأمثال وكذلك فإن سيدات المنزل المتنفذات لا يوافقن على ذلك العمل وربما بدأن في عمل أعمال تنغّص الحياة في وجه الزوج المسكين وتجعل بيته مكاناً غير مريح بالنسبة لذلك الزوج المتسرّع المسكين وهذا تشير إليه النبوءة التالية:

إذا اتفقت الزوجة مع الزوجة الأخرى فإن وضع المنزل سوف يصبح حسناً.

وهذا يشير إلى أن الوضع غير المريح للمنزل كان وارداً. وهناك يتبادر إلى الذهن وضع سارة وهاجر زوجتي إبراهيم.

هناك بعض الشواهد المأخوذة من الأمثال والتنبؤات حول التفاصيل الفعلية لأساليب الحب ولسوء الحظ فقد تَلِفت التنبؤات بينما من الصعب فهم الأمثال نظراً لأسلوبها اللاذع ومع ذلك، فإن هذه الأمثال إنما تدل أن السلوك العادي بالنسبة لهذه القضية هو نفسه في منطقة ما بين النهرين وفي أوروبا الحديثة. فقد كانت المُنَغّصّات لعملية الحب مثل الضعف الجنسي والقذف السريع، معروفة في بابل ومع ذلك فرغم كل ما ذكر ومع وجود البغاء واللواطة وتسرّي المحظيات إلا أن الزواج ونعمته لم يكن نادراً، ويذكر أحد الأمثال السومرية قصة رجل متكبر يتباهى ويقول إن زوجته قد أنجبت له ثمانية أولاد وإنها لا تزال مستعدة للنوم معه وقبول عناقه كزوج. وإن الوضع الشائع للعمل الجنسي هو أن تستلقي المرأة على ظهرها وتواجه الرجل وجهاً لوجه ولكن هناك أوضاعاً أخرى واردة (انظر اللوحة ٥١ج) التي تظهر وضع الجماع بشكل الولوج من الخلف) وهناك نص يشير إلى أن الكاهنات الكبيرات كُنَّ يسمحن بالجماع سنوياً.

ليس هناك أي شاهد يشير إلى أن الختان قد لعب دوراً دينياً لدى السومريين أو البابليين أو الآشوريين، ويبدو أن هذا العمل كان منحصراً بالساميين الغربيين والمصريين ومن الممتع مع ذلك أن نجد تمثالاً من الحجر يظهر الرجل فيه مختوناً وربما كان هذا نتيجة لنفوذ الساميين الغربيين في تيب غاورا Tepe Gawra ويثبت أن عادة الختان في الشرق الأدنى القديم قد سبقت عهد موسى وحتى إبراهيم.

لقد كانت منزلة المرأة في الدول - المدن السومرية أعلى مما وصلت إليه فيما بعد. فقد كانت المرأة تعمل في خدمة المعبد في عدة أنشطة ليس ككاهنة فحسب أو عاهرة من عاهرات المعبد من اللواتي كُنَّ يتقاضين إعانات مالية من المعبد كالرجال، وقد حصلت زوجات الحكام مثلاً زوجة لوغالاندا ويوروكاغينا على مناصب غاية في الأهمية ولكن لا ينبغي التأكيد على ذلك لأننا من الممكن أن نرى أحوالاً معاكسة لدى بعض الملوك الآشوريين عندما ضعف نفوذ المرأة وهناك تلميحات تشير إلى أن وضع المرأة في بداية نشوء المجتمع السومري كان أعلى وأفضل من وضعها في ذروة الحضارة السومرية. وسبب هذا يكمن في ذلك الوضع البارز الممتاز في الدين السومري الذي كانت تحتله الآلهات اللواتي اختفين أخيراً من حياة بعض الآلهة سوى حالة عشتار وكان العالم السفلي تحت سيادة إلهة سيادة مُطلقة نظراً لأن إحدى الفتيات الأسطوريات أرادت أن تتخذ لها زوجاً وقد لعبت الإلهات دوراً في اتخاذ القرار الحاسم لهذا الشأن وهناك رأي آخر مفاده أن تعدّد الأزواج كان شائعاً وذلك لأن إصلاحات يوروكاغينا كانت تشير إلى نساء قد تزوّجن بأكثر من رجل واحد.

التعليم

من الواضح أن التعليم الرسمي كان متواجداً ومتوفراً في سومر ابتداءً من زمن اختراع الكتابة، إذ إن البراعة في كتابة الخط المسماري ليس عبارة عن مهارة فحسب أي من الممكن إجادتها بعد سنوات من التطبيق العملي والاجتهاد كما اكتشف أحد الطلاب الحديثين مما سبب له الحزن. فقد كان التجار والإداريون في حاجة لمعرفة الكتابة وكان الكتبة والكهنة يمتلكون درجة عالية من البراعة ومع ذلك فلسنا بحاجة إلى النقوش النافرة لنستنتج وجود نظام تعليمي منذ أقدم الأزمنة ما دام أن الألواح نفسها تشير إلى ذلك منذ أقدم الأزمنة. ففي بعض المواقع مثل موقع إيريش وشوروباك ونينوى وأور، لقد وجدت ألواح عليها تمارين للكتابة ولا شك أنها كانت تمارين مدرسية وذلك لوجود نفس النصوص مكررة عدة مرات من قبل عدة أيادٍ. أو وجود نص أدبي على وجه من وجوه اللوح وعلى الجانب الآخر تمارين

في الرياضيات ولقد كتبت معظم الأمثلة باللغة السومرية، ولكن الألواح المدرسية الأكادية أي المكتوبة باللغة الأكادية كانت معروفة من زمن الألف الثالث ق.م وقد وجدت قصة خرافية مملوءة بالأخطاء وقد شطبها المعلم الغاضب.

إن معظم شواهدنا حول نظام التعلم مع أنها مكتوبة باللغة السومرية تأتي من بداية الألف الثاني ق.م. حيث أصبحت اللغة السومرية المحكية على وشك نهايتها. والشواهد تتألف من سلسلة من المواضيع الإنشائية التي لا تزال في طور البحث والتفسير وهي تعالج تعليم الكاتب والتي قد ألفت في مدرسة الكتبة أنفسهم. إن صورة الحياة المدرسية التي تقدمها هذه النصوص تعطي انطباعاً كاريكاتيرياً تقريباً مما أدى بأحد الثقات الحديثين وهو C.J. Gadd جـ. س. غاد الذي أجرى دراسة خاصة لهذه النصوص أن يلاحظ أننا لا نستطيع أن ننكر أن هؤلاء الرجال (وهم الكتبة) كان لديهم معرفة مرموقة بالكوميديا البشرية، ومن الممكن اعتبارهم مخترعي الصور المضحكة. وهناك تفاصيل عن هذه النصوص سوف نذكرها فيما بعد.

وتعرف شروط الالتحاق بهذه المدارس للكتبة، ولكن الطلاب كانوا من أبناء الأغنياء وذوي النفوذ وهذا يدل على وجود طبقة عليا بما فيها من المحاسن والمساوئ. وتأتي الشواهد على هذا من الوثائق الكثيرة العدد لفترة الأسرة الثالثة في أور (حوالي ٢١٠٠ق.م) التي تقول إن الكتبة كانوا عادة من أبناء المديرين في المدينة والمعبد وضباط الجيش والكهنة أو رجال كانوا من الكتبة في السابق، وفي إحدى النصوص الأدبية للجماعة المذكورة يقول هذا النص إن أحد الآباء أراد من أحد مديري المدارس أن يعتني بابنه وكان من الواضح أنه سوف يقدّم هبات سخية لأنه كان في وضع يستطيع به فعل ذلك. ولم يُذكر أي شيء في تلك النصوص عن التعليم المختلط مع أنه من المعروف وجود بعض الكاتبات المؤنثات وربما في جميع الفترات. كانت فترة التعليم طويلة ومجهدة ويقول النص إنها كانت تدوم من فترة الطفولة إلى فترة سن الرُّشد. ولم يكن هناك تحريض على ترك العصا وعدم استعمالها. وكان العقاب الجسدي وارداً والذي كان ينفّذ عند وجود التمارين

الضعيفة والافتقار إلى الاجتهاد والملابس غير اللائقة والسلوك الشائن خارج أوقات الدوام، وفي حالة العصيان كان الطالب يُطرد من المدرسة أو توضع الأغلال في يديه.

هذا وإن الفرضية أن المدارس كانت توضع دوماً في رعاية المعبد، لا أساس لها من الصحة على الأقل بالنسبة إلى الحالة في أوائل الألف الثاني ق.م، مع أنه كان من الواجب أن يوضع التعليم تحت إشراف المعابد خصوصاً في أزمنة السلالة الأولى، وفيما بعد ذلك. ومهما يكن الأمر فإن اللقيات الرئيسية للنصوص الأدبية لم تتم في المعابد بل في بيوت خاصة، بينما وفي مملكة ماري مثلاً وجدت بناية تحتوي على مقاعد الدراسة وقد فسّرها علماء الآثار بأنها كانت مدرسة ولكنها لم تكن جزءاً من معبد.

الألعاب والرياضة ووسائل اللهو

وبالنسبة للألعاب ووسائل اللهو التي مارسها شعب منطقة ما بين النهرين القديمة من الصعب أن نتأكد أي منها كان له أهمية دينية أو سحرية، وأي منها كان منحصراً باللهو فحسب، وتظهر الصعوبة في القرار أقل غرابة عندما نتذكر أن بعض وسائل اللهو والرياضة في مجتمعنا الحاضر كان له أساس ديني أو سحري وكان المشتركون في هذا اللهو على عِلم تام بذلك.

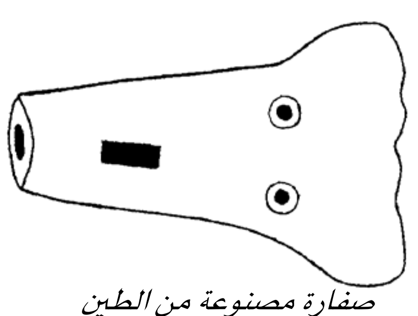
إن أفضل رياضة معروفة عند الآشوريين كانت الصيد الذي كان يمارسه الملك. ومن المؤكد وجود أسس دينية لهذه الرياضة. فقد كان من واجبات الملك المقدسة صيد الأسود وذبح الحيوانات الأخرى. مثلاً يدَّعي تغلات بيلاسر الأول أنه قد قتل أربعة ثيران برية وعشرة فيلة وألف أسد تقريباً وفي فترة متأخرة كانت الأسود تمسك بصورة خاصة وتجلب إلى آشور حيث يُطلق سراحها من أقفاصها وذلك لإظهار براعة الملك عند إصابتها بالنبال وذلك في حديقة خاصة (انظر اللوحة ٤٠) ويبدو أن صيد الأسود كان أحد المناظر العامة الشعبية التي تُعرض سنوياً مع أنه ليس هناك من شاهد مباشر يُثبت هذا القول وهناك مشاهد صيد أخرى وجدت لها صور في

اللوحات ٣٨،٣٩،٤٢،٤٤ لقد مارس الناس عَدَداً من مختلف الأشكال من القتال يداً بيد أثناء أوقات اللهو وربما كان لتلك الهواية أصل ديني، وهناك إشارة وجدت في ملحمة جلجامش عن مباراة في المصارعة ما بين جلجامش وأنكيدو وكان المنتصر فيها هو المصارع الذي استطاع رفع خصمه فوق الأرض. وهناك حامل أو منضدة مصنوعة من النحاس مخصصة للتقدمات والتي كشف عنها في تل عقرب وهي بشكل مزهريتين موضوعتين على رأسي اثنين من المتصارعين وهي تظهر نوعاً من المصارعة (انظر اللوحة ٥١ب) وتظهر الملاكمة في الفنون الجميلة (انظر اللوحة ٥١أ) مع أن المشهد الحقيقي المصور كان أحد الأنشطة ذات العلاقة بالطقوس الدينية.

ويُذكر الرقص في النصوص ولكن الرقص كان مرتبطاً بالطقوس الدينية بحيث لا يليق بنا أن نضعه مع أساليب اللهو.

ولقد وجدت ألعاب تمارس على ألواح وبشكل قطع فوق ألواح فيها مربعات إذ إنه قد وجدت عدة ألواح من هذا النوع (انظر اللوحة ٩ب) مع أنه لم تعرف أية تفاصيل عن الألعاب. ولا تزال لعبة النرد موجودة ومستعملة.

وابتداءً من فترة السلالات الأولى كانت الموسيقى من الضروريات في الأعياد الملكية بينما كان لها وجود في الطقوس الدينية وكان هناك الآلات الموسيقية التي تعتمد على النفخ وبعض أنواع وترية قد ذكرت في النصوص وظهرت صورها في الفنون (انظر اللوحة ٥٢) ولقد وجدت أمثلة عن هذه الآلات الموسيقية ضمن الحفريات. وترينا اللوحة رقم ٧ إحدى قيثارتين وجدت في أور. ووجد في نمرود عام ١٩٥٢ آلة موسيقية أخرى يُظن بأنها قيثارة. ولكنها مشوّهة بفعل الحفريات ولقد وجدت في القرن الماضي صافرة ولكنها فُقِدت وربما كان أكثر الآلات الموسيقية بدائية البلاج Balag وهو عبارة عن طبل بحجم الساعة الرملية وكانت تستعمل في المعبد من



صفارة مصنوعة من الطين

قِبَل كاهن الكالو لتهدئة غضب الإله وقد وضع في باحة المعبد طبل خاص مقدّس كان يُضرب حين يحدث خسوف القمر.

الصحة الجسدية والصحة النفسية

لدى فحص النصوص الطبية والنصوص الأخرى تغيب عنا تلك الصورة للعالم القديم التي كانت تتصف بكون ذلك العالم عصراً ذهبياً تسكنه شعوب سعيدة وصحيحة الأجسام متحررة من المتناقضات ومن الهموم ومحرّرة من الحاجة. ومع أنه ليس لدينا إحصائيات متوفرة إلا أن الأمراض العقلية كانت من المؤكد معروفة جيداً وقد أشير إلى كثير من الحالات العصبية والنفسية وبالنسبة للأمراض النفسية يمكننا الرجوع إلى القصص التوراتية بخصوص نيبو تشادريزير الذي كان مريضاً بمرض الوهم بأنه ذئب وهذا يدل أن العالم القديم كان لديه دراية وعلم بنوع خاص من الأمراض العقلية ويبدو أن العائلة المالكة في عيلام كانت معرَّضة للأمراض العقلية وهناك إشارات لبعض الحكام وتلك المملكة يقال إن عقله قد تغير وليس معنى هذا أن الملك قد غيَّر سياسته بل أنه قد أصيب بمرض عقلي وتعتبر عدم القدرة الجنسية شكلاً من أشكال الأمراض النفسية ، التي كان يقاسي منها بعض الملوك في العالم القديم كما هو الحال في العالم الحديث وهناك إشارات واسعة في النصوص. وفي المملكة الحثّية كان هناك طقوس خاصة لمعالجة هذا المرض. وإن الاحتلام الليلي ليس مسبباً عن التوترات ، بل لقد كان معروفاً للقدماء كما تثبت التنبؤات من الشكل التالي:

إذا أصاب الرجل انتصاب جنسي أثناء الليل وأصابه تلوث من الاحتلام فإن ذلك الرجل سوف يصاب بخسائر مادية.

إذا حدث للرجل انتصاب جنسي في أحلامه واستيقظ خلال الليل وأصيب بالتلوث فإن ذلك الرجل سوف يحصل على الثروة والغنى.

ومن بين الأعراض الأخرى كانت التناذرات والأمراض والصداع والحمى واردة وشائعة وقد ذكرت أمراض أخرى مثل اضطراب العضلات واللوزتين، والروماتيزم والأنواع المتعددة من الشلل وربما مرض السل. وقد ذكر أن أمراض العين والأذن كانت شائعة الحدوث وقد أشير إلى أعراض بعض الشكاوى الداخلية، كانت أمراض اليرقان والزهار شائعة، كما هو الحال في العراق، وبالنسبة لأثداء النساء واضطراباتها وحالات إسقاط الجنين فقد كانت هذه واردة ولم تكن نادرة. وقد ذُكرت الأمراض الجنسية مثل مرض السيلان، وقد أشير أيضاً إلى الدوالي في الأوردة. ولقد عرف البابليون الولادات غير الطبيعية والمواليد المشوهة التي حدثت وسجلت بصفتها إنذارات هامة بالشر.

وهناك قضية تفسير الأحلام حيث كانوا يستنتجون بعض الإنذارات أو الأحداث من الأحلام مثلاً:

إذا حلم الإنسان أنه يطير بشكل متكرر فإنه يسوف يخسر كل ما يملكه.

ومن الواضح كما هو الحال الآن أن القدماء كانوا يحلمون بالطيران. ويعلم القراء تفسير سيجموند فرويد لمثل هذه الأحلام وقد كان البابليون يحلمون بالكوابيس وهناك إشارة إلى الرجل الذي يحلم أن مدينته قد سقطت على رأسه باستمرار مع عدم وجود أي شخص يهبُّ لمساعدته وقد عرفت عندهم بعض الأحلام المزعجة كالمشي أثناء النوم في حالة من العري. كانوا يعتبرون مثل هذه الحالات إشارة لحسن الحظ:

إذا حلم الرجل أنه قد استيقظ عارياً فإن هذا الرجل سوف لا يصاب بأي اضطراب.

إذا حلم الرجل أنه جامع بشكل جنسي أحد الحيوانات البرية فإن الازدهار سوف يحل ببيته.

إذا حلم الرجل أنه قد جامع ابنته جنسياً (لقد فقدت بقية الفقرة)

إذا حلم المرء أنه قد جامع حماته جنسياً (لقد فقدت بقية الفقرة).

إذا حلم الرجل أن قضيبه قد أصبح طويلاً فإنه سوف لا يكون له أي منافس.

إذا حلم الرجل أن بوله قد خرج من قضيبه وملأ الشوارع فإن أملاكه سوف تصادر وتباع وتعطى لأهل المدينة.

إذا حلم الرجل أن بوله قد خرج متدفقاً وموجهاً نحو السماء فإنه سوف يرزق بولد، وهذا الولد سوف يصبح إنساناً مهماً ولكن أيامه سوف تكون قصيرة.

هناك عدد من الأحلام تشير إلى الأكل ويشار فـي هذه الحالة إلى أكل لحوم البشر وأكل جزء من جسم الحالم. هذا وإن أصول التفاسير هذه هي من قبيل التخمين مع أنه فـي بعض الحالات هناك شفافية فـي الرمزية مثلاً:

(إذا استلم أحد فـي منامه دولاباً من أحدهم فسوف يولد له توأمان.

إذا حلم الرجل أن أحداً ما قد أعطاه كأساً فارغاً فإن هذا الرجل إن كان فقيراً فسوف يصبح أكثر فقراً.

إذا حلم الرجل أن شخصاً ما قد أعطاه كأساً مملوءة فإن هذا الرجل سوف يصبح شهيراً وغنياً)

وفـي بعض الحالات كانت التعابير تعتمد على تلاعب لفظي مثلاً.

إذا حلم الإنسان أن شخصاً قد أعطاه خشب الماهيرو فسوف لا يكون له أي منافس (كلمة ماهيرو باللغة الأكادية معناها المنافس)

التجاوزات الاجتماعية

لقد كانت الجريمة معروفة فـي العالم القديم فـي أشكالها الكثيرة كما هو الحال فـي هذه الأيام. فقد كان هناك بعض الشباب الذين أرادوا التخلص من سلطة الآباء، وكان هناك بعض القتلة والمغتصبين للنساء واللصوص العاديين فضلاً عن المختلسين والمزورين وقد ذكرت قضية اختلاس فـي رسالة أرسلها أحد الموظفين إلى موظف آخر يعلن فيها أن الكاتب قد فضحته سلطات المعبد وهو متهم بالاختلاس

فقد اختلس كمية من الشعير التي كان مسؤولاً عنها. ولقد أمرت سلطات المعبد أن يعيد المختلس الكمية التي اختلسها مع فوائدها. وبين الجرائم الأخرى فكما حدث في مصر وفي منطقة ما بين النهرين فإن وضع الأشياء الثمينة في القبور أدّى إلى نهب القبور وقد بدا ذلك ظاهراً من الحالة التي وجدت بها تلك القبور عندما تمَّ العثور عليها وإجراء الحفريات فيها. بينما نجد في أحد النصوص البابلية وصفاً لمثل تلك الحوادث:

(لقد فتح القبر وأخذوا محتويات ذلك القبر.)

وكانت عقوبات الجريمة إما الإعدام أو دفع غرامة مع أنهم كانوا يلجؤون للتشويه أحياناً وخصوصاً في آشور. ولم يكن هناك نظام للسجن بينما كان المتهم يُسْجن قبل المحاكمة. وكان المدين يحجز مؤقتاً في منزله أو في منزل الدائن أو يصبح بحكم العبد. ولم يكن هذا الحجز مستمراً لوقت طويل. إذ حدث أن حصر أحد المدنيين مدة خمسة أشهر واعتبر ذلك فترة طويلة مرفوضة.

معاملة الحيوانات

ليس هناك من سبب يدعونا أن نفترض أن موقف شعب ما بين النهرين تجاه الحيوانات أكثر ليناً ورأفة مما هو عليه في معظم أجزاء العالم في هذه الأيام والحقيقة أن هناك نَصًّا يحتوي على هذه الكلمات: «لقد ضربتك على جسمك بالسوط كما يضرب الحمار الهارب» ومع ذلك فقد أظهر بعض الملوك اهتماماً بالحيوانات البرية. وكانوا يفرحون عند تلقي هدايا من هذا النوع، ولدينا رسالة يقول فيها أحد الموظفين القلقين إنه قد أمسك بأسد وأخبر الملك أنه يود إرسال هذا الأسد إلى الملك. وكان ينتظر تعليمات الملك في هذا الشأن ولكن التعليمات لم تصل. وفي أثناء ذلك حُفظ الأسد في مخزن القمح وكانوا يلقون له بكلب وخنزير ليأكل. وبعد ذلك يذكر الموظف:

قلت لنفسي «ربما سوف يهرب ذلك الأسد وكنت أخشى أن يحدث ذلك ولهذا وضعت الأسد في قفص خشبي ووضعته في سفينة وأرسلته إلى الملك».

وهناك صورة لأسد أليف وهو يمشي في إحدى الحدائق ومعه رجلان موسيقيان وهذه الصورة موجودة في أحد الأفاريز (وهي موجودة في المتحف البريطاني) وقد أخذت من قصر آشور بانيبال في نينوى.

لقد اعتبر الحصان وعومل بتكريم ولقد تمتع باحترام كبير في منطقة ما بين النهرين أيضاً. وكان هناك استثناء لهذه القاعدة في ماري حيث كتب أحد الموظفين إلى ملكه يشير أن قسماً من أتباع الملك على الأقل يعتبرون أن ركوب الحصان لم يكن شيئاً مشرفاً إذ يقول:

«دعوا سيدي يكرِّم ذاته الملكية وأنت ملك الهانيين ولكنك بنفس الوقت الأكاديين ولا ينبغي لسيدي أن يركب حصاناً. بل ينبغي لسيدي أن يركب عربة أو بغلاً وبهذا فهو يكرّم ذاته الملكية».

ولقد وصل الحصان إلى ما هو عليه من التكريم زمن الكاشيين في أواخر الألف الثاني وبالنسبة لهؤلاء فلم ينل الحصان شهرة وتكريماً فحسب بل أصلاً وتاريخاً ونسباً. وذلك كما علمناه من بعض النصوص من نيبور حيث تقدّم قوائم بالخيول مع أسمائها وأسماء أجدادها ونسبها.

الفصل السابع

القانون وفن إدارة شؤون الدولة

إن إحدى المظاهر الشهيرة للحضارة في منطقة ما بين النهرين هي احترام سيادة القانون. هذا وإن قسماً كبيراً من الوثائق المسمارية التي اكتشفت حتى الآن والتي تبلغ حوالي ٩٥٪ من الوثائق المكتوبة باللغة السومرية، وربما لا تقل عن ذلك بالنسبة للغة الآكادية، إنما تتألف من بعض السجلات التي يشار إليها بصورة عامة باسم عقود أو حسابات وسجلات مع أنه بالحقيقة هي وصولات وحسابات وسجلات بالصفقات التي تتعلق بالأملاك. ولقد كان من المعترف به أن أية صفقة لبيع الأملاك لا يُعترف بها ما لم تكن مكتوبة في إحدى السجلات وإن تغيير مثل تلك الوثائق يعتبر ذنباً لا يغتفر.

لقد ادعى كثير من ملوك الألف الثالث ق.م أنهم كانوا حماة القانون والعدالة وليس لدينا أي شك في ذلك ولكن لسنا متأكدين أنهم كانوا ينشرون القوانين المكتوبة. فليس هناك من برهان يثبت أن إصلاحات يوروكاغينا كانت مترافقة مع النقوش العامة مع أننا لا ينبغي أن نغفل مثل تلك الإمكانية فقد أشار هوبيس إلى ما يلي:

إن قوانين الطبيعة مستثناة فهي تنتمي إلى روح القوانين الأخرى وينبغي أن يعرفها كل إنسان، وإن يكن مجبراً على إطاعتها إما بالكلام أو بالكتابة أو أي عمل آخر ينطلق من السلطة الحاكمة، لقد كانت اقدم القوانين المعروفة منذ مدة طويلة هي قوانين حمورابي التي قد عُرفت من النقوش الموجودة على إحدى المسلات التي يبلغ ارتفاعها سبعة أقدام وستة إنشات والتي اكتشفت عام ١٩٠١-١٩٠٢م خلال بعض الحفريات الفرنسية في سوزة وهي عاصمة عيلام القديمة وهناك علاقة وثيقة

بين هذه القوانين والتوراة التي تعزى إلى موسى. ولقد نوقش هذا الموضوع ولعدَّة عقود لتفسير تلك الظاهرة وهي أن القوانين التوراتية التي كان تاريخها بعد عدة عقود من عصر حمورابي وإلى أي حد هي مدينة لشرائع حمورابي. ولقد ذهبت إحدى المدارس الفكرية إلى اعتبار أن القوانين التوراتية قد استعيرت من الشرائع البابلية القديمة وأن شرائع حمورابي هي الأصل بالنسبة للشرائع اليهودية. وفيما بعد صححت الاكتشافات هذا المفهوم ووضعت المشكلة بأجمعها في منظور أفضل، فهناك ثلاث مجموعات من القوانين التي عاصرت شرائع حمورابي وقد ثبت أنها أتت من منطقة الحثيين وآشور وتُعرف مجموعات أخرى من القوانين من مناطق متعددة. وتظهر جميع هذه القوانين أنه كان هناك في الشرق الأدنى مخزون واسع من القوانين العامة المعروفة وبعضها كانت مؤلفة من مجموعة من القوانين مع تعديلات تناسب الظروف الراهنة المحلية. وهذه الحقيقة كفيلة بتفسير التقارب ما بين القوانين العبرية والشرائع الحمورابية.

وتبدأ بعض الشواهد المتراكمة الآن بالظهور على السطح لتثبت أن مجموعات القوانين لم تكن مجهولة في أواخر الألف الثالث ق.م. والحقيقة فقد قيل إن كل دولة مدينية كان لديها مثل هذه المجموعات المكتوبة طبقاً للأحوال المحلية باللغة الأكادية أو السومرية. لقد كانت العدالة التي تعني الشيء الصحيح والمستقيم هي من الهموم المقبولة لدى الملك. حمورابي مثلاً لقد جعل العدالة الهدف الأول منذ تسلُّمه العرش وكانت الصيغة التي عرفت بها السنة الثانية لحكمه وهي السنة التي أرسى فيها العدالة في البلاد وقد استخدم هذه الصيغة بعض الحكام الآخرين. ولا يشير هذا إلى نشر ما يدعى شرائع حمورابي والتي يبدو أنها قد نشرت في وقت متأخر من حكم حمورابي، بل إنها قد نشرت لتحسين حظوظ المواطنين والعدالة المذكورة يعنى بها العدالة الاقتصادية وهناك شواهد واضحة تشير أنه من واجب الملك إرساء العدالة في البلاد وهذا يشمل نوعاً من قرار رسمي بتأجيل دفع الديون وعندما بدأ انهيار النظام السومري القديم، ظهرت حالة أصبح فيها الأفراد الفلاحون الذين يمتلكون الأرض بصفة ملكية خاصة، أو كانوا يستأجرون الأرض هؤلاء هم الذين

تلقوا الصدمة عند حدوث الكوارث الطبيعية كالفيضانات أو الجفاف أو المرض، وبينما كان المعبد بصفته سيد ومالك كل شيء من الأرض والشعب، يتخذ بعض الخطوات لتخصيص بعض المواد الغذائية كإعاشة من أهراء المعبد لمساعدة الشعب للتغلب على مثل هذه الصعوبات، عندها أصبح الفلاح المستقل الذي كان يملك الأراضي مجبراً على أن يقترض من المعبد ولكن بالتعهد لدفع الفوائد. وبمرور الزمن أصبح الفلاحون ضحايا تلك الديون ولم يكن من الممكن إصلاح الوضع إلا بعمل إجراءات صارمة، أعني إلغاء الديون والنهوض من جديد. وهناك بعض آثار من تلك الحالة فيما ذكر في التوراة أن الرجل الفقير الذي كان يستجدي تملك الأرض أو رهنها، أو الذي كان يبيع نفسه عبداً رقيقاً وهذا الرقيق ينبغي إعادة جميع حقوقه السابقة له.

ومع أنه وبالنسبة لصيغة حمورابي السنوية، وهي إرساء العدالة في البلاد. فإنه لا يشير إلى نشر شرائعه إذ إنه كان وبسبب الإجراءات الاقتصادية من النوع المشار إليه إن ظهرت على السطح قضية مجموعة القوانين. وقد كانت إحدى اهتمامات هذا الملك أن يمنع الاستغلال بالنسبة للشعب على يد المعابد وأصحاب الضيع الكبيرة الأمر الذي سبب ظهور المصاعب الاقتصادية وعدم الاستقرار السياسي. ويشمل هذا المنع إصدار القوانين التي تثبت الأسعار والأجور.

ويبدو أنه من المحتمل أن يكون النّصب الذي يتمثل ببناء مسلة حمورابي التي أنشئت في بابل أو في أي مكان آخر لإظهار نصوص الشرائع الملكية وتعود هذه المسلة في أصلها كلياً ونهائياً إلى أنصاب مشابهة ولكنها أبسط وهي تحمل قائمة من الأسعار المصرح بها رسمياً. وتحتوي شرائع حمورابي ببعض المواد المتعلقة بالأسعار والأجور وهي موجودة في ختام الشرائع قبل الخاتمة، بينما تبدأ قوانين دولة إيشنونا التي سبقت شرائع حمورابي بنحو قرن من الزمان، تبدأ هذه بذكر قائمة من الأسعار الموجّهة والمصرّح بها لمعظم البضائع (مثلاً الشعير والزيت في جميع أنواعه، والشحوم والصوف والملح والتوابل والنحاس) وهي الأساسية بالنسبة للاقتصاد وقد تلاها عبارات تثبت أسعار استئجار العربات والقوارب وأجور العمال الزراعيين:

ولقد عُرف حمورابي وخلفاؤه بأنهم قد أصدروا (مراسيم ملكية) موجهة لموظفيهم لإرشادهم بالنسبة لبعض الشؤون، مثلاً الإجراءات الواجب اتباعها في حالة الادعاء القانوني أو خرق العقود وهلمَّ جرا وإن تلك المراسيم كانت عبارة عن تعليمات محددة مكتوبة ولا تدل على مجرّد القوانين التجريدية وذلك واضح من فقرة وردت في إحدى الرسائل الملكية وفي هذه الرسالة يكتب الملك إلى أحد موظفيه ويوجهه لإجراء محاكمة في قضية طبقاً للمراسيم الموضوعة في عهدته وإن مثل هذه المراسيم الملكية التي كانت تعدِّل القانون السائد وهي تقرّر ما يجب عمله ما بين أعمال متضاربة، مثلاً ما بين مدينتين، أو إعادة سريان بعض القوانين التي سقطت في زوايا النسيان، كل هذا من الممكن أن يكمن وراء بعض الوثائق كشرائع حمورابي ويعتبر بعض الباحثين أن الشرائع لا تحتوي كثيراً من القوانين بل مجموعات من القرارات لبعض الحالات الخاصة.

إن أقدم مجموعة من القوانين المعروفة هي تلك التي جمعها أور – نامو Ur-Nammu وهو أول ملك من الأسرة الثالثة التي أسسها، ولقد نشرت هذه المجموعة منذ عام ١٩٥٢، ويبدأ النص وهو باللغة السومرية بذكر مراجعة مختصرة لتاريخ العالم، وظهور سيادة أور بزعامة ملكها أور – نامو وهو ممثل إله المدينة نانا. وبعد أن أمَّن هذا الملك السلامة السياسية والعسكرية لمدينته، اتجه هذا الملك إلى الإجراءات الاقتصادية وتصحيح ومعالجة بعض المصائب والفساد.

(لقد أرسى العدالة في البلاد وأبطل أعمال البحّارة الكبار الذين سرقوا الثيران والأغنام والحمير وأكد أنه لا يجوز أن نسلّم اليتيم للأغنياء ولا أن تسلّم الأرملة لرحمة الأقوياء ولا أن يسلّم الرجل الفقير الذي لا يملك أكثر من شيكل إلى الغني الذي يملك مينا*) وقد فقدت بقية المقدمة وعندما أصبح النص مقروءاً بدأت القوانين نفسها ولسوء الحظ فقد تلف معظم كتاباتها ولكن بقي ما يكفي لإعادة ترتيب خمسة قوانين ببعض الثقة وهذه تهتم بالمحاكمة عن طريق المحنة بواسطة وضع المتهم بالماء، ورجوع الهاربين من العبيد إلى أسيادهم وتعويض الأضرار (وهذا يستغرق

* (مينا): هي مقدار مع من النقد ا تداول تلك الفترة.

ثلاثة فصول من الفصول الخمسة)، ومن الممكن ترجمة أحد القوانين الخاصة بالأضرار الشخصية كما يلي:

(إذا كسر رجل عظام رجل آخر عن طريق السلاح فينبغي أن يعاقب بدفع (مينا) واحدة من الفضة) والفصلان الآخران يجريان طبقاً لنفس الموضوع. والأمر الهام في هذه الفصول هو أن المبدأ السومري الذي ينص أن العين بالعين قد استبدل. ويصدق هذا الحل قوانين إيشنونا وربما كان ذلك نتيجة لتأثير سومري. وهذا وإن المبدأ الأكثر بربرية وصرامة في شرائع حمورابي وشرائع آشور والعبرانيين يعكس تأثير الساميين الأقل حضارة.

هناك قوانين أخرى معروفة ومكتوبة باللغة السومرية وأهمها قوانين ليبيت – عشتار Lipit Ishtar ملك إيسين الذي كان حكمه ما بين أور – نامو وحمورابي وهي معروفة من نص مؤلف من سبع قطع من الألواح وفيها مقدمة وخاتمة وسبعة فصول من القوانين مما يبلغ سُبع النصوص الأصلية وقد استُعملت أربعة من هؤلاء كتمارين للكتبة المتمرنين والثلاثة الأخرى هي قطع من لوح كبير نذكر فقرة من مقدمته:

(وعندما أمَّنت سلامة سومر وأكاد أُمرت بإقامة هذه المسلة) وهذا يظهر أنها كانت نسخة من الأصل الذي كان منقوشاً على نصب تذكاري عام ومن الممكن تقسيم مواد قوانين ليبيت عشتار إلى فصول كما يلي:

١ – ٦ – قطع متناثرة

٧ – ١١ – مواضيع تخص الأرض والحدائق والبساتين.

١٢ – ١٤ – العبيد.

١٥ – ١٦ – الفلاحون شبه الأحرار.

١٧ – كتابة غامضة.

١٨ – نقل الاقطاعات في حادل فشل حامل الاقطاع في إتمام واجباته.

١٩ – ٢٠ – قطع متناثرة.

٢١ – ٢٧ – الإرث.

٢٨ – تعدد الزوجات.

٢٩ – منع تزوج الفتاة من خاطب منبوذ.

٣٠ – التزوج من عاهرة (التفاصيل غامضة).

٣١ – ٣٣ تقسيم أموال الأب بين الورثة.

٣٤ – ٣٧ الغرامات المفروضة في حالة إحداث الضرر بثور مستأجر.

وهنا يجدر بنا نقل بعض القوانين بحذافيرها.

رقم ٨ : إذا حدث أن سلّم رجلٌ أرضاً غير محروثة إلى رجل آخر وكلّفه بزراعتها وجعلها بستاناً في حين أن هذا الأخير لم يقم بواجبه، فإن الرجل الأول سوف يعطي أي رجل آخر زرع الأرض وحوّلها إلى بستان، سوف يعطيه بقية الأرض غير المحروثة والمهملة.

رقم ١١ : إذا حدث ووجدت أرض غير محروثة مجاورة لبيت أحد الرجال، وكانت هذه الأرض مهملة وإذا حذر صاحب البيت من خراب بيته بسبب إهمال الأرض غير المحروثة، ولم يعمل صاحب الأرض غير المحروثة شيئاً لإزالة الضرر، فإن صاحب الأرض غير المحروثة ينبغي أن يعوّض على صاحب البيت أي ضرر يلحق به.

رقم ١٨ : إذا عمد صاحب أو صاحبة ضيعة إلى التقصير في الواجبات الإقطاعية لضيعته، وقام بهذه الواجبات شخص غريب لمدة ثلاث سنوات، فإن هذا الرجل الذي قام بإنجاز الواجبات الإقطاعية سوف يأخذ الضيعة لنفسه، ولا يجوز للمالك الأصلي أن يقوم بأي إدعاء.

رقم ٢٤ : إذا ولدت الزوجة الثانية لرجل قد تزوجها بعض الأطفال فإن ميراثها من أهلها يصبح ملكاً لأطفالها. أما أطفال الزوجة الأولى وأطفال الزوجة الثانية فسوف يتقاسمون أملاك أبيهم بالتساوي.

رقم ٢٥ : إذا تزوج رجل امرأة وولدت له أطفالاً وظل هؤلاء الأطفال أحياء ثم تزوج أمة وولدت له أطفالاً أيضاً ثم أعتق الرجل تلك الأمة وأطفالها ، فإن أطفال الأمة لا يرثون شيئاً من والدهم الذي كان سيدهم سابقاً.

رقم ٢٧ : إذا تزوج رجل امرأة ولم تنجب له أطفالاً وحدث أن عاهرة من الشارع ولدت له أطفالاً ، فإنه ينبغي أن يؤمن لتلك العاهرة الذرة والزيت والملابس والأطفال الذين ولدتهم العاهرة يصبحون ورثته ولكن ما دامت زوجته الأصلية على قيد الحياة فلا يجوز للعاهرة أن تسكن في البيت مع زوجته.

رقم ٢٩ : إذا دخل صهر إلى بيت عمه وكان قد دفع المهر ولم يتفقوا وأخرجوا الصهر من بيتهم وإذا أراد الصهر تزويج خطيبته لأحد أصدقائه المقرّبين فإن على العم أن يدفع لصهره الهدايا والمهر الذي جلبه ولا يجوز أن تزوج الخطيبة من صديقه المقرّب.

رقم ٣٥: إذا استأجر الرجل ثوراً وأحدث الضرر في عين الثور فإن عليه دفع نصف ثمنه.

إن الوثيقة التي تعالج القضايا القانونية وهي بمثابة فئة النصوص القانونية. ومع أن هذا كان معروفاً في الوقت الحاضر من النسخ التي تعود إلى الألف الأول، إلا أن الشواهد الأولية تظهر أنها تعود مراحلها إلى فترة إيسين Isn (حوالي ١٩٥٠ق.م) وهي تحتوي على مجموعة من الكلمات الآشورية والعبارات المأخوذة من العقود وموضوعة بشكل قائمة من الاصطلاحات السومرية مع الترجمة الأكادية بجانبها وإن اللوح الأخير في السلطة متوافق مع نصوص القوانين الاثني عشر التي تعالج العلاقات العائلية وهناك أمثلة نترجمها فيما يلي:

- إذا أنكر الولد أن هذا الرجل هو أبوه، فإن الوالد سوف يحلق شعر ابنه ويضع علامة العبودية عليه ويبيعه.

- إذا قال الولد لوالدته أنت لست أمي فإن الأبوين سوف يحلقان شعر الولد ويقودانه حول المدينة ويطردانه من المنزل.

- إذا كانت الزوجة تكره زوجها وتقول له أنت لست زوجي، فإنها سوف ترمى في النهر. ولكن هذا لا يعني عقوبة الإعدام بل من الممكن أنها تشير إلى محاكمتها عن طريق عمل محنة لها خصوصاً إذا كان إنكارها لزوجها يؤلف احتمال قيامها بالزنا.

- وإذا قال الزوج لزوجته أنت لست بزوجتي فإنه سوف يدفع نصف مينا من الفضة.

وهناك قانون فردي مكتوب باللغة الأكادية العائدة إلى الفترة البابلية القديمة والذي يدّعى أنه قد كان مصدره من ليبيت – عشتار وهو الملك الذي أشرنا إلى قوانينه أعلاه ويتفق معظم الثقات في رفض الأقوال المذكورة التي قُصد بها أن تضفي صفة القِدم للقانون المذكور، إذ إن التزوير في إخفاء القدم كان وارداً. وإذا أهملت هذه الأقوال فإن أقدم القوانين في اللغة الأكادية هي تلك التي كانت مكتوبة على لوحين من الصلصال وجدا عام ١٩٤٧م، في تل حرمل وهو أحد ضواحي بغداد. ويمثل تل حرمل مدينة شادوبوم Shaduppum القديمة التي كانت متواجدة داخل المملكة التي كانت عاصمتها إيشنونا (وهي تل أسمر الحديثة الواقعة على نهر ديالا). وهذه القوانين التي وجدت في تل حرمل تعرف عادة باسم قوانين إيشنونا ولا تقدم الألواح اسم المشرّع بكونه الملك بيلالاما Bilalama الأمر الذي ربما قدم لنا تاريخاً قريباً. ولكن اللغة والمظاهر للنسخ الموجودة فعلاً تُظهر أنها تصل إلى زمن يقدر بعدة أجيال أي حوالي قرن أو قرنين قبل زمن حمورابي.

إن شكل المقدمة وهي عبارة عن أسعار بعض البضائع الأساسية قد ذكرت سابقاً ويتبع هذا عدد من الفصول التي تعالج أسعار الاستئجار والأجور والعقوبات المفروضة في ظروف معيّنة بالنسبة لهؤلاء وإن النقاط الرئيسية بالنسبة للثمانية والأربعين فصلاً الباقية من الممكن تلخيصها كما يلي:

١٢ – ١٣ – العقوبات المفروضة على التجاوزات والدخول إلى البيت بشكل غير مشروع - نهاراً غرامة والدخول ليلاً الحكم بالإعدام.

١٤ – ٢١ – صفقات تجارية مختلفة: ضريبة عند حمل النقود من قبل أحد الوكلاء. لا يسمح للمضاربين قبول بضائع أساسية أو الفضة من العبيد لأجل المضاربة ولا لأجل القيام بعمل قروض للعبيد أو الأحرار، ويظل مهر البنت المسلم لوالدها ملكاً للخاطب حتى تدخل البنت بيتها الزوجي، فإذا ماتت العروس دون أطفال بعد الدخول فإن الزوج يحفظ المهر ولكنه لا يسترد نقود الزوجة، استرداد القروض.

٢٢ – ٢٤ – حجز الزوجة أو الأمة بشكل غير قانوني.

٢٥ – ٢٨ – الخطوبة والزواج: إن الخاطب الذي يخدم والد الفتاة لقاء نقود العروس وبعدها يحرم من زواج الفتاة يستلم تعويضاً قدره ضعف ما دفعه. أما العقوبة على اغتصاب الفتاة المخطوبة فهي الموت وإذا تعايشت الفتاة مع الرجل دون عقد زواج فهذا لا يعطيها حق الزوجة.

٢٩ – ٣٠ – يفقد الزوج حقوقه على زوجته عند هجرها طوعاً دون وجود أسباب اضطرارية.

٣١ – يفرض غرامة على الرجل إذا فضَّ بكارة أَمَةَ رجل آخر.

٣٢ – ٣٥ – تنظيمات التبني وتملك أطفال الأمة.

٣٦ – ٣٧ – الالتزامات في حالة خسارة الأملاك أو الأموال المودعة كأمانة.

٣٨ – ٤١ – تنظيمات بخصوص بعض المبيعات والمشتريات.

٤٢ – ٤٨ – غرامات بالنسبة للهجومات وإلحاق الأضرار ينبغي محاكمة الجاني في الحالات الأكثر خطورة أمام الملك في حالة حدوث وفيات.

٤٩ – ٥٢ – سرقة وهرب العبيد.

٥٣ – ٥٨ – المسؤولية الواجبة لقاء الأضرار التي يسببها الثور أو الكلب أو سقوط جدار.

٥٩ – إذا طلق زوج زوجته دون سبب شرعي وكانت الزوجة قد أنجبت أطفالاً فإن عقوبته مصادرة بيته وأملاكه.

٦٠ – (النص أصيب بخراب فظيع) ربما يذكر عقوبة الموت على الحارس الذي يهمل حراسة البيت الموكل به.

ولكي نعطي القارئ فكرة عن الأسلوب والمقاربة فضلاً عن المضمون بالنسبة للوثائق فإننا نقدم ترجمة لبعض القوانين.

٢٥ – إذا قدم رجل خدماته في بيت عمه المفترض أنه سيكون أبا زوجته وقَبِل العم خدماته ولكنه زوّج ابنته لرجل آخر فإن والد الفتاة يُغرَّم بدفع ضعفي نقود الفتاة التي قدّمها الشاب.

٢٧ – إذا تزوج رجل فتاة دون أخذ موافقة أبيها أو أمها ودون عقد زواج رسمي، وحتى ولو عاشت مع الرجل سنة كاملة في بيته فإنها لا تكتسب حالة الزوجة.

٣٠ – إذا كره شاب بلدته أو والده وهرب وترك زوجته ثم أخذ رجل هذه الزوجة ثم رجع الزوج الأول فليس له حق باسترجاع زوجته.

٣١ – إذا فضَّ رجل بكارة أمَة رجل آخر فإنه ينبغي أن يدفع ثلث (مينا) من الفضة وتبقى الأمة ملكاً لصاحبها الأول.

٣٣ – إذا سلمت أَمَة متزوجة ابنها لامرأة حرة وعندما يكبر الطفل ويعرفه والده فالحق لوالده أن يقبض عليه ويسترجعه، (وهنا تحاول الأمة أن تحصل على تحرير ولدها بينما تكون المرأة الحرة امرأة دون ولد وهي ترغب في تبني طفل ليكون وريثاً لها).

٣٩ – إذا أصبح رجل مفلساً عاجزاً عن دفع ديونه، بحيث باع بيته طلباً للمال. وعندما يعمد المشتري لهذا البيت إلى بيته فإن المالك الأصلي يمكنه أن يسترد البيت ويحاول شراءه.

٤٢ – إذا عض رجل أنف رجل آخر وآذاه فسوف يدفع (مينا) واحدة من الفضة أما العين فيدفع أيضاً مينا واحدة، أما السن فيدفع نصف مينا. أما الأذن فيدفع نصف مينا أيضاً أما إذا ضربه على فكه فيدفع عشرة شيكلات من الفضة.

٥٤ – إذا وجد ثور ينطح بقرنيه وكانت السلطات المحلية قد أخبرت مالكه ولكن المالك لم يعالج قضية ثوره كما يجب، ثم صادف أن نطح هذا الثور، رجلاً وسبّب موته عندئذ يدفع مالك الثور ثلثي (مينا) من الفضة. (وهذه القصة تعود إلى الفصل ٢٥١ من شريعة حمورابي حيث فرض غرامه كالغرامة السابقة أما في التوراة فقد حكم على الثور ومالكه بالإعدام.)

٥٦ – ٥٧ – إذا وجد كلب ضار وكانت السلطات المحلية قد أخبرت مالكه ولكن هذا المالك لم يتخذ أية احتياطات لمنع هذا الكلب من إيذاء الآخرين، وصادف أن عضَّ هذا الكلب رجلاً وسبب موته عندئذ فسوف يدفع مالك هذا الكلب ثلثي مينا من الفضة، أما إذا عض الكلب عبداً وسبب موته فإن مالك الكلب سوف يدفع خمسة عشر شيكلاً من الفضة.

٥٨ – إذا وجد جدار على وشك السقوط وأخبرت السلطات المحلية مالكه ولكنه لم يفعل شيئاً لإصلاح الجدار ثم صادف أن سقط الجدار على رجل حر وسبب موته فإن هذه قضية كبرى ينبغي معالجتها طبقاً لمرسوم ملكي.

٥٩ – إذا طلق رجل زوجته بعد أن أنجبت أربعة أولاد وبعدها تزوج امرأة أخرى فإن هذا الرجل سوف يُطرد من بيته، ويخسر جميع أملاكه ويلتحق بأي شخص يقبله.

إن قوانين إيشنونا Eshnuna تشكل صدى لشريعة حمورابي المعروفة والمشهورة والتي كانت تعتبر المقياس النموذجي للقانون الشرقي القديم. ولا تزال من الوثائق القيمة الفريدة. وهناك فرق مرموق ما بين شرائع حمورابي وغيرها. إن شرائع حمورابي تظهر ترتيبات منظمة، وهكذا تقترب من الوثائق الأخرى التي تستحق أن يطلق عليها اسم شريعة أو Code.

إن كمية المواد الشائعة في قوانين إيشنونا أو المشابهة لشرائع حمورابي قد سبب مناقشة مشكلة فيما إذا كان هناك بعض النقل أو الاستعارة من شرائع حمورابي. وبعد دراسة مستفيضة استنتج العلماء أن ليس هناك أي شاهد واضح يدل على هذا وقد دلَّ هذا أن كلا الشريعتين قد اشتقت من مصدر أقدم زمنياً.

أما شرائع حمورابي فقد وضعت بين شريحتين تصف الأولى ألقاب حمورابي وخلاصة عن إنجازاته السابقة وبعدها خاتمة تعلن الغرض من وضع هذه الشرائع ويدعو الحكام القادمين الذين ينبغي أن يستجيبوا له ويحمّلهم لعناته إذا لم يفعلوا ذلك:

(أن ينتبهوا لتلك الكلمات التي حفرتها على مسلتي وإن غرضه تقويم طريقة حياة أولئك البشر من ذوي الرؤوس السوداء وأنه يرغب في الحكم على أعمالهم وقراراتهم وأنه يرغب في انتزاع الشّر والآثام من بلاده ويسبب السرور لشعبه.)

وتشرح الخاتمة ما يجب فعله من الرجل المظلوم ليدفع الظلم عن نفسه، وهنا يقول حمورابي: «دعوا الرجل المظلوم الذي لديه دعوى يقف أمام تمثالي «ملك العدالة» (الذي كانت المسلة تقف قربه) ودعوه يقرأ ما كتبته ونقشته على هذا النصب، ودعوه يسمع كلماتي الثمينة، ودعوا مسلتي تستمع إلى قضيته ودعوه يرى ما قضيته، وما الحكم فيها حتى يهدأ قلبه».

وكانت القوانين نفسها التي قد بقي منها بعض الفقرات، قد بلغ عددها مئتين وستين فصلاً وقد رُتِّبت الفقرات المكتوبة على المسلة الأصلية بشكل أرقام بينما رتّبت الفقرات المكتشفة حديثاً بشكل حروف ومن الممكن تلخيص المواضيع المختصة بهذه القوانين بالشكل التالي:

القضايا المختصة بالعدالة

١ — ٥ الشهود الزور، القضاة الفاسدون. الجرائم ضد الأملاك الشخصية.

٦ — ١٤ السرقة وتشمل خطف شخص مسؤول.

١٥ — ٢٠ العبيد الهاربون والمخطوفون.

٢١ – ٢٥ اقتحام البيوت، السرقة والنهب.

الأراضي والبيوت

٢٦ – ٤١ امتلاك الأرض من قبل السيد الإقطاعي واعتبارها إقطاعة من الملك.

٤٢ – ٤٨ زراعة الأراضي المروية من قبل المستأجرين.

٤٩ – ٥٢ تنظيمات تحكم تمويل المزارعين المستأجرين.

٥٣ – ٥٦ الأضرار الناتجة عن إهمال الري.

٥٧ – ٥٨ التجاوزات على أراضي الراعي التي تسببت بها المواشي.

٥٩ – قطع الأشجار دون ترخيص.

٦٠ – ٦٥ زراعة بساتين النخيل.

B. E. G. H تنظيمات تختص بالاستئجار وبناء وترميم البيوت.

F. J. K. (أشياء مختلفة).

التجار والعملاء

L. R. القروض من التجار، نسب الفوائد.

S. T. أشياء مختلفة.

U: تقسيم الأرباح والخسائر بين الشركاء.

١٠٠ – ١٠٧ تنظيمات تخص الصفقات المختصة بالعملاء والتجار.

١٠٨ – ١١١ تنظيمات تختص بالمسؤولات (الإناث) عن الفنادق (اللواتي كنّ يعملن سابقاً كمضاربات صغيرات).

١١٢ – الغش الذي يقوم به أحد السعاة.

١١٣ – ١١٧ الحجز لاستيفاء الديون.

١١٨ – ١١٩ تسليم المدينين ليصبحوا عبيداً بسبب الديون.

١٢٠ – ١٢٦ التأمينات (العربون) عند شراء البضائع.

النساء والزواج، أملاك العائلة، والإرث

١٢٧ – تشويه سمعة الكاهنات الكبار والافتراء عليهن أو الافتراء على النساء المتزوجات.

١٢٨ – حالات الزوجية: تعايش الرجل والمرأة دون عقد زواج لا يعطي المرأة وضع الزوجة.

١٢٩ – ١٣٢ الزنا.

١٣٣ – ١٣٦ إعادة زواج الزوجة: يسمح بهذا أثناء غياب الزوج، ولكن في ظروف خاصة فقط مع أنه لا مانع من ذلك في حالة الهجر الطوعي من قبل الزوج.

١٣٧ – ١٤٣ الطلاق.

١٤٤ – ١٤٩ التسري وجواز تعدد الزوجات في بعض الظروف.

١٥٠ – إرث الأملاك الذي يقرره الزوج بالنسبة للزوجة.

١٥١ – ١٥٢ مسؤوليات الزوجين بالنسبة للديون.

١٥٣ – عقوبات الزوجات المتهمات بقتل أزواجهن.

١٥٤ – ١٥٨ الاتصال الجنسي بالمحرَّمات.

١٥٩ – ١٦١ نقض العهود بالنسبة لعقد الزواج بعد الزواج.

١٦٢ – ١٦٤ التصرّف بالمهر بعد موت الزوجة.

١٦٥ – ١٧٦ تقسيم الإرث بين الأولاد.

١٦٨ – ١٦٩ الحرمان من الإرث.

١٧٠ – إمكانية جعل أبناء المحظية أبناء شرعيين.

١٧٢ – ١٧٤ حقوق المحظية وحقوق الأبناء غير الشرعيين، أملاك الأرملة.

١٧٥ – ١٧٦ حقوق المرأة الحرة التي تتزوج أحد العبيد.

١٧٧ – التصرّف بأملاك الزوج السابق عند زواج الأرملة مرة ثانية.

١٧٨ – ١٨٤ حقوق النساء اللواتي يعشن في المعابد بالمهر أو وراثة الآباء.

١٨٥ – ١٩٤ التبني.

١٩٤ – استبدال وإلغاء عادة طفل بآخر بطريقة سرّية منذ الطفولة من قبل المرضعة.

حالات الهجوم والأذى الشخصي

١٩٥ – هجوم الولد على أبيه.

١٩٦ – ٢٠٥ العقوبات في حالة إحداث الأذى الجسماني عندما يكون الضحية رجلاً حرّاً وعندما يكون الضحية عبداً وفلاحاً نصف حر.

٢٠٦ – ٢٠٨ إذا أحدث رجلٌ أضراراً غير متعمدة فهو معرَّض للغرامة فقط، أو دفع التكاليف.

٢٠٩ – ١٢٤ الهجوم على امرأة مما يسبب إجهاضها.

الرسوم المدفوعة للحرفيين والمسؤوليات

٢١٥ – ٢٢٥ الرسوم المدفوعة إلى الأطباء الجراحين والبيطريين لقاء عمليات ناجحة والعقوبات المقرّرة في حالات إجراء عمليات غير ناجحة.

٢٢٦ – ٢٢٧ العقوبات على إزالة أو العمل على إزالة علامات العبودية.

٢٢٨ – ٢٣٩ الرسوم المدفوعة للبنائين وقباطنة السفن والعقوبات المفروضة على الإهمال لدى هذه الفئات.

٢٤٠ – الاصطدام ما بين سفينة شراعية وسفينة مبحرة.

الشؤون الزراعية

٢٤١ – ٢٤٨ الحجز لاستيفاء الديون والاستئجار والموت وإيذاء الثيران.

٢٥٠ – ٢٥٢ المسؤوليات المترتبة عن الأضرار التي يقوم بها ثور هائج متحد للنطح.

٢٥٣ – ٢٥٦ حدوث اختلاس من قبل أحد المسؤولين.

٢٥٧ – ٢٥٨ استئجار عمال الحراثة والثيران.

٢٥٩ – ٢٦٠ سرقة الأدوات الزراعية.

٢٦١ – استئجار الرعاة.

أسعار الاستئجار

٢٦٨ – ٢٧٧ أسعار استئجار الحيوانات والعربات، والعمال، والحرفيين والسفن.

تملك وبيع العبيد

٢٧٨ – ٢٧٩ المسؤولية القانونية تجاه عبد مبيع وهو يقاسي من المرض، أو عندما يكون ذا علاقة بدعوى قضائية.

٢٨٠ – ٢٨٢ إعادة المطالبة بالعبيد الذين اشتروا من الخارج وعادوا إلى بابل.

هناك ترجمة حديثة إنكليزية لهذه القوانين جميعها متوفرة مع تعليقات مفصلة ولكن ربما كان هناك مصلحة أن نقدم ترجمات بعض هذه القوانين ونعتبرها عيِّنة:

١ – إذا اتهم رجل رجلاً آخر بجريمة قتل ولم يستطع إثبات ذلك، فإن الرجل الذي اتُّهم سوف يعدم.

٢٢ – ٢٣ : إذا ارتكب رجل جريمة السرقة واعتقل، فإنه سوف يُعدم. وإذا لم يُعتقل السارق فإن المسروق منه سوف يشهد أمام الإله ويحدد الأموال المسروقة عندها، فإن المدينة والمحافظ سوف يعوِّضون عليه الأموال المسروقة.

٥٥ : إذا فتح رجل خندق السقي أو الري وتقاعس عن إقفاله في الوقت المناسب مما سبب تدفّق المياه إلى حقل جاره، فإنه سوف يدفع مقداراً من الذرة معادلاً لمقادير محاصيل الحقل المجاور.

١١٧ : إذا أصبح الرجل مطالباً بدين بناءً على سند ولم يستطع وفاء الدين بل سلّم زوجته أو ابنه أو ابنته للخدمة وفاءً للدين فإن هؤلاء سوف يخدمون ثلاث سنوات في منزل المشتري أو صاحب الدين. وفي السنة الرابعة ينبغي عليه إطلاق سراحهم.

١٢٨ : إذا تزوج رجل امرأة دون إجراء عقد زواج فإن هذه المرأة لا تعتبر زوجته.

١٥٣ : إذا تسبَّبت زوجة في موت زوجها بسبب عشقها لرجل آخر فإن هذه المرأة سوف يحكم عليها بالموت على الخازوق.

١٧٠ : إذا ولدت زوجة بعض الأبناء لزوجها وولدت أمَة بعض الأبناء لهذا الزوج واعترف الأب بشرعية أولاد الأمَة فإنهم يعتبرون مساوين لأبناء الزوجة، وعند وفاة الأب تُقسم التركة بالتساوي بين جميع الأبناء.

١٨٥ – ١٨٦ : إذا تبنى رجل يتيماً وربَّاه، فلا يجوز لأحد ما أن يطالب بهذا الطفل. ولكن إذا عُرف والد ذلك الطفل فإنه من الممكن إعادة الطفل لوالده. (هناك بعض الشك بالنسبة للتفسير الدقيق لهذا القانون، فليس من المؤكد إذا كان الطفل هو الذي يفتش عن والده أم أن الوالد المتبني هو الذي يرغب في إلغاء التبني).

٢٠٩ – ٢١٠ : إذا ضرب رجل ابنة رجل حرّ وسبَّب إسقاط جنينها فعليه أن يدفع عشرة شيكلات من الفضة. أما إذا توفيت المرأة نتيجة لذلك، فإن ابنة ذلك الرجل سوف تُعْدَم (أما إذا كانت المرأة المضروبة من طبقة العبيد أو شبه العبيد، فإنه سوف يعاقب على موتها بدفع غرامة فقط).

٢١٥ – ٢١٨ : إذا أجرى طبيب جّراح عملية جراحية لرجل حُرٍّ استعمل أدوات برونزية وأنقذ حياة المريض أو إذا أجرى طبيب مختص بالعيون عملية أنقذ عين المريض فإن الطبيب سوف يتقاضى عشرة شيكلات من الفضة. أما إذا توفي المريض أو إذا تلفت عين المريض، فإن يد الطبيب سوف تقطع.

٢٢٩ – ٢٣٠ : إذا بنى أحد البنائين بيتاً وكان عمله غير سليم، بحيث سقط البيت على رأس مالكه وتسبب في موته، فإن البناء سوف يُعْدم، أما إذا سبب سقوط البيت موت ابن مالكه، فإن ابن البناء سوف يُعْدم.

ينبغي أن يكون من الواضح أن شرائع حمورابي لا تؤلف نظاماً كاملاً قانونياً، إذ إن حمورابي بناء على المقدمة والخاتمة لشريعته، لا يدّعي أنه قد شمل جميع القوانين الموجودة، إذ إن كثيراً من المواد قد أهملت. مثلاً ليس هناك إشارة إلى قتل الأب، أو سرقة الماشية، أو الخطف بالنسبة لشخص آخر غير ابن رجل حر. ولذلك

علينا أن نستنتج أن حمورابي كان يعالج قضايا مفتقرة للتعديلات ولتبني واحدة من الخيارات الموجودة في المدن المختلفة، أو الاحتفاظ ببعض الأنظمة التي أصبحت مهدَّدة بالإهمال وعدم الاستعمال. ولقد أشير إلى أنه ليس هناك من قضية واحدة من بين ألوف الوثائق الرسمية والتقارير الباقية يشار فيها إلى حرفيّة الشرائع، مما يشكل شاهداً واضحاً أنه مهما كانت القوانين فإنها لم تكن قوانين محددة أكثر منها مبادئ ملاحظة بالنسبة لحالات خاصة.

لقد كانت بابل على علمٍ بالمبادئ المذكورة حتى بعد مرور حوالي ألف عام بعد حمورابي وذلك واضح من وجود عدد من السجلات الخاصة بالقضايا المختصة بالعدالة وكان إحداها يعود إلى عام ٥٢٧ق.م. ومن الممكن اقتباسها. فقد عرض على جمعية إيريش الوطنية أربعة عمال متهمين بسرقة بطتين تخصّان المعبد، وقد سمعت القضية بحضور اثنين من مديري المعبد وممثلين للعاصمة، وإن الإشارة إلى شرائع حمورابي قد ألقى الضوء على تلك القضية وهي أنه لماذا نعتبر سرقة بطتين أمراً هاماً مسبباً لمشاكل قانونية. وإن الفصل السادس من الشريعة يذكر أنه إذا سرق رجل ممتلكات الإله أو ممتلكات القصر فإن ذلك السارق سوف يُعدم بينما يذكر الفصل الثامن أنه إذا سرق ثوراً أو حماماً أو خنزيراً، أو قارباً يخص الإله أو القصر فإن هذا السارق سوف يدفع ثلاثين ضعفاً من أثمان تلك الحيوانات. هذا وإن التمييز بين الحالتين هو أن السرقة كانت من داخل القصر أو قريبة من حدوده، ولذلك فقد كانت تدنيساً للمعبد، بينما في الحالة الأخيرة كانت السرقة من خارج المعبد ومن خارج حدوده. ومن الواضح أن القضية كانت تنحصر فيما إذا كان العمل يؤلف جُرماً يعادل الخيانة العظمى. وهذا يتضح من طبيعة الشهادة التي قدمها المتهم الذي قال: »في اليوم الحادي عشر من شهر تيبيت، كنا نحفر خلف الجدار الواقع بجانب النهر. أما البطتان اللتان ذبحناهما فقد دفناهما في الطين«. ومن الواضح أن الرجلين ادّعيا أنهما كانا على جانب النهر بجوار سور المعبد، أي خارج حدود المعبد في زمن وقوع الجريمة، وقد قُبلت شهادتهما وكان العقاب خفيفاً وهو دفع ثلاثين ضعفاً من ثمن البطتين.

هناك مجموعة أخرى من القوانين ذات الأهمية لمؤرخي الشرق القديم وهي ما يدعى بالقوانين الآشورية. ولقد اكتشفت هذه القوانين أثناء القيام بالحفريات الألمانية في موقع العاصمة القديمة لدولة آشور وهي نينوى، وكانت تعود إلى القرن الثالث عشر ق.م (وبشكل دقيق بين عام ١٤٥٠ و١٢٥٠ق.م)، وهكذا فإذا تكلمنا بدقة فإن هذه القوانين تعتبر من القوانين الآشورية الوسطى، وتعرف بعض النُتف من القوانين الآشورية القديمة وهي مذكورة في أمكنة أخرى، هذا وإن أجزاء القوانين الآشورية الوسطى الباقية لم تكن شأن شرائع حمورابي مسجّلة على إحدى المسلات ولكنها كانت مسجلة على ألواح من الصلصال تعود في تاريخها إلى نفس الزمن ولا تعطي هذه القوانين شواهد داخلية بالنسبة لمؤلفها بل إنها كانت تنطبق على مدينة آشور وما حولها فحسب.

لقد ذكر رجال القانون فروقاً هامة ما بين شكل الشريعة أي شريعة حمورابي وبين القوانين الآشورية، وقد استنتجوا أن الأخيرة لم تكن من عمل رجل قانوني أو من عمل كتبة مدرسين يعدُّون نصوص تمارين مدرسية. ومن الممكن أن تظهر أن القوانين الآشورية لم تحتوِ قضية قوانين حمورابي (أو إيشنونا) بل تقدّم بعض التعديلات. وقد كانت وجهة النظر المقبولة هي أن القوانين الآشورية تؤلف سلسلة من التعديلات للقانون الساري المفعول. وهو القانون العام الكامن تحت شرائع حمورابي والذي لم يكن مناسباً لتلك الحالة من الوحشية لدى المجتمع الآشوري أواخر الألف الثاني ق.م.

إن أكبر الألواح التي لا تزال محتفظة بحالتها تعالج قضية النساء المتزوجات، وهناك بضعة أمثلة قد ذكرت، وإن وضع الأقواس المربعة تدل على ملخصات للقضية ولكن كل ما يتلو ذلك هو ترجمة مباشرة للقوانين نفسها.

٢ : إذا تكلمت إحدى النساء سواء كانت زوجة رجل حر أو ابنته، أو شتمت أو لكمت بشكل يسبب الفتنة فإن هذه المرأة سوف تتحمل مسؤولية ما تكلمت به، ولكن لا يجوز المسّ بزوجها أو أولادها أو بناتها.

٤ : إذا استلم العبد أو الأَمَة شيئاً من يد زوجة رجل بشكل سرقة فينبغي قطع أنف أو أذني العبد أو الأَمَة وسوف تُبتر أذني زوجته ولكن إذا سمح الرجل لزوجته أن تذهب ولم يبتر أذنيها فإنهم سوف لا يقطعون أذني العبد أو الأَمَة ولا تسترد الأموال المسروقة.

٨ : إذا تسببت امرأة بإتلاف خصيتي الرجل بعد خصام حصل بينهما فإنهم سوف يقطعون أحد أصابعها، ولكن إذا قام الطبيب بالمصالحة وظهر أن الخصية الثانية قد تأثّرت وأصابها الالتهاب أو إذا كانت المرأة قد أتلفت الخصية الثانية أيضاً أثناء الخصام فإن كلا ... سوف تقطع (ولم يظهر اسم القسم الذي سوف يقطع).

١٥ : إذا أمسك رجل رجلاً آخر مع زوجته، وثبت أن ذلك كان صحيحاً فإن كلا الزوجة والعشيق سوف يقتلان. أما إذا أمسك الرجل بالعشيق وقدّمه للمحكمة أو للملك أو القضاة، وثبت للقضاة ذلك، وإذا قتل الرجل زوجته فإنه ينبغي قتل العشيق أيضاً. فإذا جدع الرجل أنف زوجته فإنه سوف يقطع خصيتي الرجل ويُشوَّه وجهه، أما إذا سامح الرجل زوجته وتركها حرة فإن العشيق سوف يطلق سراحه أيضاً.

٢٠ : إذا حصل اللواط بين رجل ورجل آخر وثبت ذلك ضده فإن نفس اللواط سوف يُنفَّذ ضده ويصبح مخصياً.

٢٦ : إذا مات زوج امرأة وذهبت هذه إلى بيت أبيها. فإذا كان لهذه الزوجة أولاد فإنهم يرثون أموال والدهم. فإذا لم يكن لها أولاد من زوجها، فإنها ترث جميع أموال زوجها.

٢٧ : إذا كانت المرأة لا تزال تعيش في بيت والدها وكان الزوج يتردد على الزوجة في بيت والدها، فإنه لا يجوز له أن يلمس أي شيء من أموال والدها.

٣٤ : إذا تزوج رجل من أرملة ولم يكتب لها عقد زواج وأقامت مدة سنتين في بيته، فإنها تصبح زوجه له، ولا ينبغي أن تخرج.

٣٧ : إذا طلق زوج زوجته بناء على رغبته بالطلاق وعندها ينبغي أن يقدم لها شيئاً من المال. أما إذا لم يكن ذلك طبق رغبته فلا يطلب منه أن يدفع لها شيئاً. (وهذا القانون أشد قسوة من قوانين حمورابي التي تقضي أن يُدفع للمطلقة مهرها بالإضافة إلى (مينا) واحد من الفضة على الأقل).

٤٠ : هذا قانون طويل يعالج قضية ملابس المرأة التي ترتديها أمام الجمهور، فالمرأة المتزوجة ينبغي أن تضع حجاباً كما ينبغي للمحظية أن تضع حجاباً كالسيدة. ولكن العاهرة لا تضع حجاباً بل يظل رأسها دون غطاء وكانت تعاقب عند كسر هذا العرف. عندها سوف تضرب خمسين ضربة بالعصا ويصب القطران على رأسها.

٤١ : إذا كلف الرجل محظيته بوضع حجاب فإنه يطلب من ستة من أصدقائه وبعدها يقول: «إنها زوجتي» وعندها سوف تصبح زوجته. (ويذكر في بقية القانون أن المحظية لا تصبح زوجته إذا لم يقم بعمل ما ذُكر أعلاه. ويفيد القانون أنه لعدم توفر أبناء للزوجة فإن أبناء المحظية سوف يرثون).

٤٧ : إذا قام الزوج أو الزوجة بأعمال السحر وضبطا بالجرم المشهود فإن كل من يقوم بالسحر الأسود يعدم.

٣٣ : إذا عمدت امرأة إلى الإجهاض وإخراج ما في بطنها وثبت ذلك فإنها سوف تُعدم بالخازوق ولا تُدفن، أما إذا حدث موتها بعد عملية الإجهاض فإنها سوف تعدم بالخازوق ولا تدفن.

٣٥ : إذا حدث واغتصب رجل فتاة عذراء، فإن والد العذراء سوف يأخذ زوجة المعتدي ويجبرها على الزنا. ولن يعيدها إلى زوجها بل تظل معه ويعطي الوالد ابنته المعتدى عليها إلى الرجل المعتدي لتكون زوجته ورفيقة له. فإذا كان المعتدي عازباً غير متزوج فإنه ينبغي أن يدفع للبنت مهرها ويجبره الزوج على عمل زواج قسري أو إجباري، مع أن المعتدي لا يملك أي حق بأخذ الفتاة إذا أراد الأب أن يزوجها لشخص آخر. ومن جهة أخرى فإذا قدّمت الفتاة العذراء نفسها لرجل بمحض إرادتها، فإنه

يطلب من الرجل أن يُقسم قسماً سوف يطلب منه دفع ثلث ثمن العذراء بالفضة ويمكن للأب أن يفعل بابنته ما يشاء.

٥٩ : إذا أغفلنا ما ذُكر من عقوبات ذكرت ونُقشت على الألواح فإن هناك قضية جلد الرجل لزوجته أو اقتلاع شعرها أو ضرب وإيذاء أذنيها.

إن الأمر الثاني في الأهمية بالنسبة للقانون الآشوري في الفترة الوسطى المذكورة في الألواح الذي يتألف من تسعة عشر فصلاً يعالج قضية الوراثة وبيع الأرض والاعتداء على أموال وأملاك الجيران وحقوق ري الأرض. وهنا نقتبس قانونين بصفتهما عيّنات:

٨ : إذا اعتدى رجل على حدود وأراضي جاره ورفعت قضية ضده فإنه ينبغي أن يسلّم أراضي تبلغ مساحتها ثلاثة أضعاف الأراضي المعتدى عليها ، وأن يقطع أحد أصابعه وأن يضرب مئة ضربة بالعصا وينبغي أن يعمل في خدمة الملك مدة شهر كامل.

١٧ : إذا وُجد مقدار من الماء داخل الآبار المستخدمة للري في الحقول فإن مُلاّك الحقول سوف يقفون جنباً إلى جنب. وكل منهم ينبغي أن يعمل عملاً طبقاً لمساحة حقله ولكن إذا لم يتفقوا فإن الذي يتفق منهم سوف يتقدم بطلب إلى القضاة وإن يحصل ويؤمن وجود لوح من القضاة يذكر فيه حقوقه وعندها يقوم بعمل الأعمال الموكلة به وعندها يحق له أن يستلم المياه لنفسه وأن يروي أرضه وحقوله ولا يجوز لأي شخص آخر أن يقوم بإرواء الأرض.

تهتم القوانين في الفصول التالية بالديون (بما فيها رهن الأشخاص) وكذلك سرقة الماشية مع الإشارة إلى مواضيع كقضية الهجوم والأجور والري.

وبالنسبة للأسلوب الذي كانت تجري به العدالة بالنسبة للمواطنين فقد اختلفت التفاصيل بالنسبة لهذا الموضوع، ويهمنا أن نذكر أنه ليس هناك من تصميمات صحيحة ودقيقة. وبالنسبة للنظريات القديمة فقد كانت من الواجبات الإلهية للملك بصفته ممثلاً للإله أن يتأكد أن الشعب يتمتع بالعدالة ولكن هناك أسباباً وجيهة

تجعلنا نفترض أنه وفي أقدم أشكال المجتمع في منطقة ما بين النهرين كانت القرارات بالنسبة للحالات الخاصة، شأنها شأن القرارات الأخرى، تتم في الجمعية العمومية، ولقد احتفظت الجمعية العمومية بعمل فعلي في تطبيق العدالة بعد وقت طويل من زوال سلطتها السياسية. وأما في بابل، مع أنه وفي بعض الفترات الزمنية وبعض الأمكنة كان الملك أو أحد موظفيه هو المكلف بالحكم في أية قضية، إلا أن هذا كان وضعاً استثنائياً، وبصورة عامة فقد احتفظت الجمعية العمومية لنفسها بالحق بالحكم في القضايا المختصة بالأفراد وذلك حتى نهاية الفترة البابلية الجديدة، أما في آشور ومن جهة أخرى، فمن الشائع أن نجد أن بعض القرارات كانت تتم على يد أحد الموظفين الملكيين.

إن الحضور في الجمعية القضائية، كان مفتوحاً في الفترة البابلية القديمة على الأقل بالنسبة لجميع المواطنين الذكور الأحرار وأن يقوموا بالحكم طبقاً لبعض التعليمات كما يلي:

لا تذهب لتقف في الجمعية العمومية، لا تتجول في المناطق حيث هناك منازعات إذ ربما أصابك المكروه في ذلك النزاع. وربما طُلب منك أن تصبح شاهداً في ذلك النزاع ويطلب منك أن تقدم شهادتك في قضية لا تخصّك.

وتظهر إحدى الروايات المسمارية قضية محاكمة قتل في فترة إيسين Isin وذلك قبل زمن حمورابي، وبوضوح الدور الذي لعبه الملك من جهة والجمعية العمومية من جهة أخرى في إقامة العدالة، وعندما أعلنت الدعوى، جلبت القضية أولاً إلى الملك لينظر فيها وذلك طبقاً لشكليات القانون وعندها حوَّلها الملك إلى الجمعية العمومية في نيبور، وهذه سمعت الشهود ولفظت الحكم، وفيما يلي نص الحكم:

((إنَّ (A) ابن (V)، (B) ابن (W) الحلاق، و(C) عبد (X) البستاني قد قتل (D) ابن (Y) الموظف في نيشاكو، وبعد أن قتل (D) أخبروا (E) زوجة (D) أن زوجها (D) قد قتل ولكن E لم تفتح فمها. وأخفت الأمر.

وبعدها عُرضت القضية على الملك الذي أمر بنقل القضية إلى الجمعية العمومية في نيبور وهناك قام **H, G, F,** من الفلاحين أشباه الأحرار و **O, N, M, L, K,** **J** بمخاطبة الجمعية العمومية وقالوا إن الذين قتلوا رجلاً لا يستحقون أن يكونوا أحياء. إن هؤلاء الرجال الثلاثة وتلك المرأة ينبغي أن يُقتلوا أمام كرسي الضحية **D**، ولكن **Q, P** خاطبا الجمعية وقالا: «هل قامت **E** بقتل زوجها؟ هل تلك المرأة تستحق الموت؟»

وعندئذ خاطبتهم الجمعية العمومية وقالت: «من المحتمل أن تكون تلك المرأة التي لم تكن مخلصة لزوجها قد سرَّبت بعض المعلومات إلى العدو وهكذا فقد قتل العدو زوجها ولكن هل هي التي قتلت زوجها؟ هم الذين قتلوا الرجل».))

وطبقاً لقرار الجمعية العمومية في نيبور فقد سُلم C, B, A إلى الجلاّد ليعدموا ولم يذكر القضاة في هذا المجال مع أن وجود القضاة كان معروفاً منذ أيام سرجون وقبل ذلك. وتذكر إحدى مدارس الفكر أن القضاة الذين يجلسون على المقاعد وقد قيل إن القضاة نوعان: الدنيويون والدينيون. ومن الممكن إهمال الاقتراح، وبينما نجد أن القضاة كانوا يذكرون كمجموعة إلا أنه من الممكن اعتبارهم مكملين ومساعدين جالسين مع الجمعية ولقد أشير إلى هذه القضية في شرائع حمورابي التي تنص على ما يلي:

إذا حكم القاضي في قضية ينبغي ذكر التفاصيل في وثيقة مختومة وبعد ذلك إذا بدّل القاضي حكمه فإنه سوف يذكر أن القاضي قد أحدث بعض التغييرات في حكمه ولهذا فسوف يدفع اثني عشر ضعفاً من العقوبة المناسبة في تلك القضية المذكورة. وفوق ذلك فإنه سوف يُطرد من وظيفته كقاضٍ ويحرم مقعده في الجمعية العمومية وسوف لن يعود للجلوس مع القضاة في أية قضية.

لا تذكر الجمعية العمومية أبداً مع القضاة في زمن بابل القديمة، ولكن هناك حالات كافية تدعم وجهة النظر القائلة إن الجمعية العمومية كانت جزءاً من آلية لا تزال تعمل. وفي بعض الحالات التي لم يُذكر فيها سوى القضاة ربما كانوا يعتبرون

الرؤساء في الجمعية العمومية التي كانت سلبية بسبب الافتقار إلى الروح الجماهيرية للمواطنين الأحرار الذين كانوا يتبعون نصيحة المثل المذكور أعلاه حرفياً.

وفي الإجراءات المتخذة لدى المحكمة حيث تحدث مصادمات وخلافات ما بين الفريقين ذوي العلاقة أو بين الشهود، عندما تأمر الجمعية العمومية أو الشهود أو أي واحد من هؤلاء بأداء القسم في أحد المعابد ويمكننا اقتباس النص التالي كمثل:

رقم/ي العلاقة ببيت **A** ابنة **X** من نيووول **New Wall** .

B ابنة (**Y**) قدّمت دعوى ضد **A**.

ولقد حكم القضاة في معبد شَمش أن تقوم **A** بأداء القسم بحياة الإله، ولقد أدّت **A** القسم بحياة الإلهة أيا **Aya** سيدتها وأبطلت إدعاء **B**.

ونظراً لأن **A** لم تنقض قسمها فإن **B** سوف لا تعود للمطالبة ببيت **A** ولا بإرثها من أبويها ولا بالأملاك أو بإرثها من زوجها من القشة حتى الذهب.

لقد أقسمت **B** بقول ذلك بالإله شمش أو بآيا ومردوخ والملك سامو – لا – أيلوم وقد صدرت الأحكام في معبد شمش وكان القضاة هم (**C**) ابن **D** و **E** ابن **F** وذلك أمام **G** ابن **H** و **J** ابن **K** (هذه أسماء الشهود الذين يمثلون الجمعية العمومية وأمام (**L**) ابن **M** وهي السيدة الكاتبة.

وهناك سجلات عن دعاوى قضائية نقض فيها بعض الفئات قسمهم وفيما يلي مثال على ذلك: حضر شهود **A** أمام القضاة وقالوا إن **B** ضرب **A** وأخذ بعض الثيران منه وهكذا قال القضاة لـِ **B**: قم بأداء اليمين بالآلهة ضد الشهود. وقد اعترف **B** أمام القضاة قائلاً: إنني قد ضربت **A** وقد كان **B** يخشى الآلهة. وهكذا ربح **A** الدعوى وأمر القضاة **B** أن يدفع ثلاثين شيكلاً من الفضة إلى **A**.

عندما يكون هناك اختلاف بين الشهود ولا يعترف أي فريق بالذنب ويرفضون القسم بحياة الآلهة عندها يسلّم القرار إلى الآلهة أنفسهم، وقد كان الاختبار

(المحنة) هو الذي يحدد الحكم كما هو الحال في ثقافات أخرى. وفي بابل كان الاختبار (المحنة) بجانب النهر وكانت القاعدة (التي كانت موجودة في إنكلترا في العصور الوسطى) هي أن الرجل المذنب يغرق في الماء والرجل البريء يطفو فوق الماء وبذلك ينجو. وأما شريعة حمورابي التي تعالج الاتهامات بالسحر تقرر أنه ينبغي أن يحاكم المتهم بالطريقة التالية:

إذا ادعى رجل على رجل آخر بممارسة السحر الأسود، ولم يثبت ذلك، فإن المُدعى عليه سوف يذهب إلى النهر ويقفز في الماء المقدس. فإذا قبض الماء عليه بإحكام وتعلق به فإنه يعتبر مذنباً ويحق للمدعي الاستيلاء على ضيعته وأمواله أما إذا طفا الرجل على الماء ورجع سالماً فإن المدعي الكاذب سوف يحكم بالإعدام ويستلم المدعى عليه ضيعة المدعي.

وفي القانون السابق لقانون السحر الأسود فإن الرجل الذي يتهم شخصاً آخر بالقتل ولم يستطع إثبات ذلك، فإنه سوف يحكم بالإعدام توّاً. وكانت الإجراءات المتخذة في حالة الاتهام بالسحر الأسود تختلف حسب ما تذكره القوانين الآشورية فقد كان من المعروف أن الشهود كانوا يحنثون بالقسم خوفاً من الانتقام وكانوا يحتفظون بالموصى كآخر ملجأ بعد أن يقسم الفرقاء المعنيون اليمين. وهناك نص بشكل رسالة من ملك كركميش إلى ملك ماري تلقي الضوء على العملية بشكل فعلي فالجزء الذي لنا علاقة به من الرسالة المعاصرة لزمن حمورابي هي كما يلي:

هذا وبالنسبة للرجلين اللذين قد أرسلتهما مع A فقد اتُّهما بما يلي: «لقد تحادثا مع B أحد عبيد C وقد كانا على علم بالقضية (ربما كان هذا إشارة لجريمة اقتُرفت في بلدتهم وزُعِم أنه كان متورّطاً فيها)، ولهذا فإنني ارى دعوتهما إلى النهر المقدس. أما المتهم فهو محجوز هنا تحت الحفظ ولهذا أرجو أن تسمح لأحد خدمك من موظفي الأمن أن يجلب هذين الرجلين بمصاحبة A إلى النهر المقدس. فإذا رجع هذان الرجلان بأمان فإني سوف أحرق الرجل الذي اتهمهما بالنار، أما إذا مات هذان الرجلان فإنني سوف أسلّم أملاكهما وشعبهما للرجل الذي اتهمهما. أرجوك أن تعلمني بالنتيجة.

كان هدف الإجراءات القانونية البابلية التأمينية بقدر الإمكان صدور قرار يقبله جميع الفرقاء بصفته عادلاً وملزماً. وهكذا وبالنسبة للقضية المذكورة أعلاه وهي التي تخص الخصام بين سيدتين على ملكية بيت، فقد أقسمت المرأة الخاسرة أن تقبل الحكم. وكان من المأمول أن لا يُعاد فتح القضية بعد إصدار الحكم وفيما يلي تأكيد لذلك ويلقي ضوءاً أكبر على العلاقة ما بين القضاة والجمعية المحلية.

وبالنسبة لبستان سن – ماغير الذي اشتراه مار – أموريم بدفع النقود الفضية. لقد قام أنوم – باني بالإدعاء طبقاً للمرسوم الملكي والتجأ إلى القضاة الذين أرسلوه إلى زار باب – نيحار وقد أقسم أنوم – باني اليمين هناك أمام القضاة وقد قال: »أنا ابن سِن – ماغير وقد تبناني ولم تُلغ وثيقة التبني وقد أقسم اليمين وقرر القضاة بناء على مرسوم الملك أن ريم – سن قد وافق على أن البيت والبستان هي من أملاك أنوم – باني.

أعاد سن موباليت (وهو وريث مان – أموريم) فتح القضية وقد ادّعى أنه مالك بستان أنوم – باني وهكذا التجآ إلى القضاة وقد أرسلهما القضاة إلى المدينة أي إلى جمعية المدينة ووقف الشهود على بوابة مردوخ قرب إشارة شوريمو الآلهة لنانا والطائر المقدس التابع لنيمار والفأس الإلهي لمردوخ والسلاح الحجري وعندها اعترف هؤلاء بعد أداء القسم أن البستان والبيت هي من أملاك Anum Bani أنوم باني.

هذا وقد أقسم سن – موباليت بالإله نانا، وشمش ومردوخ والملك حمورابي أنه لن يعود ولن يقوم بأي ادعاء آخر. وكان ذلك القسم أمام A المحافظ و H, G. F, E, D, C, B ابن M, L, K, الموظف N. ثم تلا ذلك أختام الشهود.

لا يعرف المرسوم الملكي المشار إليه ولكن يبدو عن طريق هذا المرسوم استطاع الولد أن يعيد ادّعاءه بالأراضي التي باعها والده. وهناك شواهد أخرى تروي أنه في فترة ماضية قديمة كان باستطاعة المالكين الأصليين للأرض أو عائلاتهم وفي بعض الظروف أن يستعيدوا أراضي أجدادهم وكان مرسوم ريم – سن يحاول تنفيذ إحدى التقاليد التي كانت على وشك الاندثار وعدم الاستعمال. ومن الممكن أن

يكون والد أنوم باني قد استولى على البستان والبيت المشار إليه واعتبره إقطاعية مقدَّمة من الملك ويشير الفصل السابع من شرائع حمورابي أن مثل هذه الإقطاعات لا يجوز بيعها:

وإذا رجعنا القهقرى قليلاً نجد من تسجيلات القرن الرابع عشر وهي من نوزي (قرب كركوك) أمثلة عديدة لبعض الإجراءات القانونية. ومع أن هذه كانت مكتوبة باللغة الأكادية، إلا أننا لا نستطيع استعمالها كأمثلة عبر القوانين السامية نظراً لأن نوزي كانت منطقة اعترف فيها بالنفوذ الحوري (غير السامي) ويرينا النص أهمية تأمين الاتفاق منح إعادة فتح القضايا. ويقدم لنا أحد الألواح المسمارية سجلاً عن محاكمة جرت أمام الملك ادّعى فيها المدعي أن أحد الموظفين قد اختلس منه مئة وثمانين من الأغنام. أما المدَّعى عليه فقد برهن أن هذه كانت تمثل غرامة قد فرضها القضاة على والد المدعي وقدم كشاهد اللوح المتعلق بتلك القضية ولذلك فقد تقرر تغريم المدعي تقديم إحدى الإماء كعقاب له على فتح قضية قد تمَّ إقرارها.

وفي آشور في الألف الأول حيث كانت الإدارة مركزية إلى حد ما وكانت الخدمات المدنية شاملة خلال البلاد، هناك كان تنفيذ القانون منحصراً بأيدي الموظفين الملكيين وكانت الصيغة التي تقدم بها القرارات القانونية تبدأ بالقول: «الحكم الذي فرضه الموظف الفلاني» ولا يزال هناك مبدأ عام يقول إن القرارات القانونية ينبغي أن تبلغ لجميع الفرقاء وهناك سجل نموذجي لأحد القضايا هذا نصه:

«القضية التي ادعى فيها A أن B قد ضرب بيته قد دفع B تعويضاً عن الضرر الذي ألحق ببيت A بشكل كامل وقد ساد الوئام بينهما ولا يمكن المناقشة مع أي منهما فيما إذا كان استنكف عن دفع ما هو مطلوب منه وينبغي أن يدفع الشخص الجاني مبلغ عشرة مينا من الفضة وإن الآلهة آشور وشمش وبعل ونانو هم شهود على هذه القضية».

ويتلو ذلك التاريخ وأسماء الشهود وتتخذ نفس الإجراءات في حالة وثائق البيع حيث تفرض عقوبات ثقيلة على أي واحد من الفرقاء يحاول إلغاء الصفقة وهناك وثائق من هذا النوع تختص بالتجارة والاقتصاد.

لم تكن العدالة في التعامل ما بين الأفراد هي الهبة التي تقدمها العناية الإلهية فقط، بل كانت العلاقات ما بين الدول أيضاً فيما يعرف بالقوانين العالمية أو البروتوكولات. فقد كانت الملوك والدول خاضعة لمشيئة الآلهة، أما إجراء المعاهدات والتحالفات ومعالجة الأمم المغلوبة والعلاقات ما بين الأتباع والأسياد فلم تكن تعالج بشكل عشوائي بل طبقاً لقوانين يفترض أنها تعكس الإرادة الإلهية، وبالنسبة للمعاهدات والتحالفات كان هناك عقود مكتوبة يتعهد بتنفيذها الفرقاء بناء على القسم أمام الآلهة.

هناك كمية كبيرة من الألواح المسمارية متوفرة وهي تعالج العلاقات الداخلية في الألف الثاني ق.م وهي تعود إلى فترتين رئيسيتين. ويتألف المصدر الأول من المحفوظات الدبلوماسية التي تعود إلى أوائل الألف الثاني ق.م وقد اكتشفها بعض العلماء الفرنسيين في مملكة ماري وتأتي المجموعة الثانية من منتصف الألفية أي حوالي ١٤٠٠ق.م، ووجدت في مصر في تل العمارنة لكونها جزءاً من المحفوظات الدبلوماسية للفرعون أخناتون. وهذه الوثائق توضح أن النفوذ البابلي في تطور القوانين العالمية كان سائداً بحيث أصبحت اللغة الأكادية الدبلوماسية مستعملة بين الحكمام حتى عندما لا تكون هي اللغة الأم عند أي من الفرقاء. وتأتي مجموعات أوفر من الألواح المسمارية المتعلقة بالدبلوماسية العالمية في الألف الثاني من مواقع أخرى نذكر منها بوغازكوي في تركيا ورأس شمرا (أوغاريت القديمة على الساحل الشرقي لسوريا) وبالنسبة للحالات الأخيرة فإنه مع أن اللغة المحلية كانت تكتب بالحروف الهجائية التي كانت تستعمل في معظم الأغراض بما فيها الأغراض الدينية والشؤون القضائية، إلا أن اللغة الكلدانية التي كانت تكتب بالحروف المسمارية هي التي كانت تستخدم بصورة عامة.

كان بعض القوانين المختصة بالسلوك في العلاقات الداخلية مقبولة ابتداءً من الفترة الأسرية الأولى وذلك كما يظهر في الملاحم البطولية. وهكذا ففي أثناء الخصومات التي ظهرت ما بين إنمركار .Enmerkar ملك إيريش وملك أراتا Aratta (وهي دولة واقعة في الجبال الشرقية في التلال التي تسمى الآن لاريستان Luristan) فقد كان هناك مفاوضات واسعة ومفصلة (مع أنها غامضة بالنسبة لنا) ما بين الفريقين وذلك عن طريق السفراء. وفي الشعر البطولي الذي يعالج حصار ملك كيش لإيريش تقرأ أن غلغامش وهو ملك إيريش وبعد أن قهر منافسه ، إلا أنه لم يُعدمه أو يذله بل أظهر الرأفة والرحمة وأعاده إلى مملكته نظراً لأن ملك كيش كان الملك التابع له).

إن رسائل مملكة ماري التي تعطينا فكرة عن الدبلوماسية الداخلية في العالم القديم قد أتت من الفترة الواقعة بعد وقت قصير من بداية الألف الثاني ق.م قبل أن يوحّد حمورابي بابل. وكان هذا هو زمن الممالك الصغيرة التي كانت ضعيفة فلم تستطيع الوقوف وحدها ، لهذا حدث تجمع مستمر لهذه الدويلات التي كانت مرتبطة بالجيران الأقوياء إما بالتبعية أو المحالفات. وهذه الحالة السياسية يشار إليها من قبل الرسائل التي يذكر فيها كاتبها عن أربعة تحالفات مختلفة تشمل كل منها ما بين عشرة إلى عشرين ملكاً.

وكان الملك الذي لا يدخل تلك التحالفات يجد نفسه تحت رحمة الجيران الأقوياء وذلك كما يظهر من الرسالة التالية الموجهة من حاكم ضعيف إلى حاكم قوي:

إلى ياهدو- ليم Yahdu lim من أبي سامار Abi-samar أرجو أن تقوم بعمل تحالف وذلك لأن مدني التي لم يتم الاستيلاء عليها بعد سوف تسقط الآن ولم تسقط هذه المدن بفعل الأعمال المعادية لملك حاشوم أو أورسوم ملك كركميش أو ملك يام حاد Yam-had ولكنها قد ضاعت بفعل تلك الأعمال العدائية التي قام بها شمشي – حدد – ملك آشور.

وفي رسالة تالية يخبر أبي – سامار ياهدو - ليم بما يلي:

إذا هجرت أبي - سامار فإنك سوف تهجر مدنك الخاصة بك ربما كنت تقول: إن أبي - سامار ليس ولدي وأراضيّ ليست مندمجة مع أراضيه ومع ذلك فإنه حقاً أن أراضيَّ هي أراضيك وأبي سامار هو ولدك.

وهذا يعني أن أبي - سامار كان يعرض أن يصبح تابعاً لياهدو - ليم لقاء حمايته ومن الواضح أن مثل هذا الوضع كان يعزّز الحركة الرامية إلى عمل تحالف أكبر وأقوى:

لقد كانت الدويلات تدخل في مثل هذه التحالفات عن طريق عمل معاهدات تشمل أداء القسم بالإضافة إلى بعض الأعمال الطقوسية من بينها «لمس الخنجر» وهي التي مازال يمارسها بعض الأطفال عند إجراء بعض الأعمال الجدية فيما بينهم وكان هناك بعض الأعمال الأخرى مثل ذبح ولد الحمار، العمل الذي كانت تختم به المعاهدة التي تتم بين عدوين سابقين، وهذا يظهر من مقتطف من رسالة يكتب فيها أحد الموظفين إلى ملكه:

«لقد وصلني لوح إيبال – حدد من بلدة اشلاكو Ashlakku وقد ذهبت إلى أشلاكو لذبح ولد الحمار وذلك للمصالحة ما بين رجال حانا Hana ورجال إيدا ماراز Ida Maraz وقد جلبوا إضافة إلى ذلك كلباً صغيراً وغصناً من الشجر ولكني احترمت تعليمات سيدي ولم أستلم الكلب ولا غصن الشجرة بل ذبحت ولد الحمار وبذلك فقد أتممت المصالحة ما بين رجال حانا ورجال إيدا ماراز»، من الواضح من هذا النص أن هناك بعض الطقوس الإضافية اللازمة والمستعملة في مثل هذه الارتباطات كانت تشمل تقديم جرو الكلب وغصن الشجرة (ويظن البعض أن الكلمة تعني هنا الخس) ومع ذلك فقد كانت هناك بعض الأعمال الرمزية التي تتم عند إقرار أية معاهدة ومنها أن يمسك الفرد الصغير في الائتلاف طرف ثوب الشخص الأقوى المتسلط في الائتلاف.

إن كلاً من الائتلافات التي أشرنا إليها سابقاً كان يرأسها أحد الملوك وكان هذا الملك يتوقع أن يطور أتباعه سياساتهم طبقاً لسياسته الخارجية، وأن يتمنعوا عن إقامة علاقات دبلوماسية مع أعدائه وأيضاً أن يقدموا له دعماً عسكرياً في حالة وقوع حرب. وهكذا نجد أن شمشي – حدد ملك آشور قد أمر ياسماح – حدد ملك ماري التابع لآشور فضلاً عن كونه ولده أن يضع نفسه وعساكره وموظفيه تحت تصرف شمشي - حدد ملك آشور.

يقول شمشي حدد إلى ياسماح حدد أن أبيك يقول: لقد أرسلت لك رسالة مرّة أو مرتين وأمرتك أن تأتي إلى توتول. والآن وقد وصلت إلى شوبات – إنليل وأود أن يصل إليك هذا اللوح اجمع موظفيك وعساكرك ورجال قصرك ووافني في شوبات – إنليل.

عندما ينجز التابع والحليف تعهداته بإرسال نَجْدة أو عندما يوافق الملك على طلب مساعدة عسكرية كان من المفهوم أن تصبح العساكر متوفرة في حالة الطوارئ فحسب. وأحياناً يحدث بعض الاختلاف في الرأي بين فريقين بالنسبة إلى نهاية حالة الطوارئ. وهكذا نجد أن أحد السفراء Ibal-pi-El إبال – بي – إيل وهو يكتب لملكه ملك ماري وهو زيمري ليم Zimri lim حول رأي موظفي ماري بشأن قرض تسليم إلى حمورابي:

يقول خادمك أيبال – بي – إيل إلى سيده: طبقاً للتعليمات الصادرة من سيدي التي استمر سيدي في إرسال رسائله حول ذلك الموضوع. فلقد تكلمت عن ذلك الأمر مع حمورابي، وقلت له: بما أن الآلهة قد كسرت العدو وقد أوشكت أيام البرد والشتاء على المجيء، لماذا تحتفظ بخدم أخيك (أي حليفك ذي المرتبة المساوية لك) أرجو أن تعطيني الحق بالرجوع بحيث يعود الضابط المسؤول إلى بلاده قبل حلول الشتاء، والطقس البارد، ولقد ناقشت معه تلك المواضيع وغيرها«.

وهنا يحل الدمار بالرسالة عند هذه النطقة وكان جواب حمورابي أنه سوف ينتظر حتى اليوم العاشر من الشهر ليستلم تقرير حول أنشطة ملك إيشنونا Eshnuna.

هناك مراجع متعددة تذكر أن السفراء قد أرسلوا من بلاط ملكي إلى آخر، وكانوا يعقدون آمالاً على وصولهم. وفي إحدى المناسبات نرى أن ياسماح حدد ملك ماري الذي كان دائماً قليل الفعالية وقد استلم توبيخاً حاداً من والده شمشي حدد لأنه أخّر وصول إحدى السفارات المرسلة إليه من قبل كاتانوم Qatanum (قطنا) في سوريا ولقد عاد سوء التفاهم مع الوالد مرة ثانية عندما ذكر أن سفارة ثانية لا تستطيع الوصول إلى الوالد بسبب بعض الحوادث التي كانت كسر محور عجلة عربته، عندها غضب الأب وكتب للابن «ألا يستطيع السفير ركوب حمار؟» وتظهر الرسائل الأخرى أنهم كانوا منتظرين الفأل الحسن بالنسبة لاستقبال السفراء، وكان الموظفون الدبلوماسيون مشغولين كما هو الحال الآن في بعض الأنشطة التي تسبب كراهيتهم. ومثالٌ على ذلك رسالة أرسلها أحد الملوك الصغار إلى ملك آخر يقول فيها: إن أحد أتباع ذلك الملك كان كاذباً ولا يستحق الثقة وإنه لا يرغب في رؤيته مرة ثانية.

كانت تؤخذ بعض الرهائن أحياناً قبل بدء المفاوضات بين الحلفاء وكان يحدث أن يقتل الرهائن عند فشل المفاوضات. وفي الرسالة التالية يكتب شمشي حدد مرة ثانية لولده ياسماح حدد حول هذا الموضوع.

«بالنسبة للأشخاص من ويلانوم الذين هم تحت تصرُّفك فإني أمرتك أن تبقيهم حتى تتم المحالفة والآن ليس هناك من أمل بالنسبة للحلف مع ويلانوم ولذلك ينبغي أن تصدر التعليمات لرجالك بقتل كل شخص من الرهائن لديك الليلة».

من الممكن طبعاً أنه وفي تلك الحالة الضحايا هم من الأسرى الذين يبقون على قيد الحياة في حالة إمكانية نجاح التحالف. ولم يُذكر في تلك الرسالة أن هؤلاء الأسرى كانوا من الموظفين الدبلوماسيين.

إذا عقدت التحالفات بين الحكام بشكل ناجح، فإنه كان يُحتم بإجراء معاهدات زواجية فيما بين الأطراف المتحالفة من المملكتين وهذا ما يشرحه المقتطف التالي من أحد الرسائل:

«لقد عقد اشمي – داغان (وهو الابن الأكبر لشمشي – حدد معاهدة سلام مع التوركيان فلذلك فقد اتخذ ابنة زازيا (ملك التوركيان) زوجة لولده موت – اسكور ولذلك فقد أرسل مقادير من الذهب والفضة إلى زازيا هدية زواج».

كانت المعاهدات ما بين الدول تشمل ليس الأحلاف العسكرية فحسب بل أيضاً بعض المسائل كتسليم المجرمين وكذلك المعاملات الدولية. وكما سوف نرى في المعاهدات التي سوف تعقد في أواخر ذلك الألف كانت تشمل هذه المعاهدات إضافة فقرة تتعلق بتسليم المجرمين وفيما يلي مثالاً على ذلك:

«إلى ياسماح - حدد يقول والده شمشي - حدد : إن أوشتان – شاري Ushtan-sharri التوراكي الذي هجِّر إلى بابل هو في مدينة ساغاراتوم، والآن عليك فحص أتباع هذا الرجل والمكان الذي هو فيه وعلى الجنود اعتقاله، وجلبه مخفوراً إلي في مدينة شوبات – إنليل وذلك لأن ملك بابل قد طلبه مني».

كان للملوك بعض الالتزامات بسلامة القوافل التجارية التي تمر بأراضيهم وكذلك الموظفين وهناك رسالة من ياسماح حدد إلى حمورابي ملك بابل حول إحدى القوافل التي سارت من ماري خلال أراضي حمورابي إلى تلمون (البحرين الحديثة) في الخليج العربي إذ إنه وأثناء رحلة رجوعها حُجزت في أراضي حمورابي بسبب قضية استعمال الآبار وقد أرسل ياسماح حدد حرساً من عنده لحراسة تلك القافلة لتصل إلى بابل بحيث يحل حمورابي المشكلة بنفسه، وفي رسالة أخرى يرسل شمشي حدد إلى ولده نائب الملك ياسماح – حدد (وهو الولد المهمل) يشكو فيها أن بعض الأشخاص من يامحاد لم يستطيعوا أن يعبروا نهر الفرات في أراضي ماري نظراً لعدم وجود قوارب متوافرة وقال شمشي حدد إنه يجب تأمين القوارب نظراً لأنه وكالعادة فإن أي شخص يدخل في مملكتي ينبغي أن يعبر دون أي عائق.

كان من المتوقع من الحكام أن يكون رعاياهم مسؤولين عن السلوك الحسن خارج بلادهم وهناك حالات وردت عن شكوى من أحد الملوك أرسلت لملك آخر حول بعض حوادث الجرائم فقد شكا ياسماح حدد ملك ماري إلى أبلاحاندا Aplahanda ملك كركميش أن أتباع الأخير قد خطفوا فتاة أثناء غارة قاموا بها على الحدود. وقد أجاب أبلاحاندا وطلب تفاصيل الحادث ومعرفة اسم الفتاة وأسماء الأشخاص الذين أغروها واسم الشخص الذي يحتفظ بها في الوقت الحاضر. وفي رسالة أخرى يقترح أبلاحاندا أن زوج هذه الفتاة ينبغي أن يذهب إلى كركميش بنفسه لكي يتقصى وضع الفتاة الضائعة.

وإذا انتقلنا إلى الألف الثاني نرى أنه وبالنسبة إلى سوريا في القرن الرابع عشر حدثت حالات فيما بين الملك وأتباعه مشابهة لما كان يحدث في منطقة ما بين النهرين قبل بضعة قرون. وفيما يلي مقتطفات من بعض الوثائق التي وجدت في رأس شمرا (أوغاريت القديمة) في سوريا ، وكان الحاكم الرئيسي هو ملك حاتي Hati (أراضي الحثيين) وقد أعطي لقب الشمس وفي الوثيقة الأولى يحثّ الملك الحثي وهو شوبي لوليما العظيم ملك أوغاريت وهو نيكوماندا أن يستمر في علاقاته التقليدية مع حاتي) رغم تهديدات المعتدي [**وهكذا يقول ملك الشمس، الملك العظيم إلى نيكوماندا : نظراً لأن ممالك نوهاش وموغيشي هي في حالة حرب ضدي، أرجو ألا تخاف منهم يا نيكوماندا ، وكما كان أجدادك موالين وأصدقاء مع الحتيين ولم يكونوا أعداء ولذلك فعليك يا نيكوماندا أن تُعادي من يعاديني وتصادق من يصادقني والآن فإذا أطعت كلماتي وعملت بموجبها فسوف ترى ما سيوفره لك الملك العظيم من عطف ومساعدات وأما بالنسبة لنوهاش وموغيشي اللذين قد رفضا عقد الصداقة بينهما وبين أراضي حاتي وهكذا فقد أصبحت حالة حرب مع الملك العظيم سيدهم، الآن فإن الملك العظيم سوف يعالجهم. والآن إذا حدث وأن أرسل هؤلاء الملوك جنوداً للاعتداء على أراضيك فأنت يا نيكوماندا ينبغي أن لا تخشاهم بل أرسل رسولاً إلي في الحال**].

لقد تتابعت الحوادث حسبما تنبأ شوبي لوليما فقد علمنا ذلك من مرسوم أصدره شوبي لوليما يعالج به الحالة عندما غزا ملكا نوهاش وموغيشى أراضي نيكوماندا في أوغاريت. فيقولون:

«لقد حصلنا على الغنائم من نيكوماندا ملك وغاريت وحطّمنا أوغاريت».

ولقد بقي نيكوماندا مخلصاً لسيده وكما صدر إليه من تعليمات طلب المساعدات فوراً وهذا ما نستنتجه من الوثيقة المذكورة والتي تستمر هكذا:

«حضر نيكوماندا ملك أوغاريت لمقابلة شوبي لوليما وأرسل رسالة إلى الملك العظيم قائلاً: «أرجو من الملك العظيم، ملك الشمس، سيدي أن ينقذني من أيادي عدوي، إنني خادم الشمس الملك العظيم سيدي، وإنني أعادي أعداء سيدي وأصادق أصدقاء سيدي. إن هؤلاء الملوك يظلمونني» هذا وقد استجاب الملك العظيم لنداء ملك أوغاريت وأرسل جنوداً مع أبنائه وموظفيه وعربات إلى أوغاريت وهؤلاء طردوا جنود العدو من أوغاريت بالقوة وسلموا لنيكوماندا كل الغنائم التي كسبوها».

تتقدم الوثيقة عندها لتحديد حدود أوغاريت.

لم يكن الملك العظيم منتقماً لمظالم أي تابع من أتباعه يتعرّض للهجوم فحسب بل عمل بشكل حكم عند حدوث أي خلاف بين أتباعه. وهكذا تجد القضية التالية أن مورسيليس الثاني ملك حاتي (١٣٣٤-١٣٠٦ق.م) قد أنهى خلافاً حدودياً ما بين بعض الدويلات المجاورة التي عمدت إلى إجراء بعض الإنحيازات السياسية المختلفة بعد فترة من الود والصداقة. **(وهكذا يقول مورسيليس الملك العظيم، ملك حاتي وابن الملك شوبي لوليما الملك العظيم، البطل: لقد كان ملك أوغاريت وملك سيانو في حالة اتّحاد. والآن وبعد مضي عدة سنوات، اختلف أبدي أناتي Abdi Anati ملك سيانو مع نكميبا Niqmepa ملك أوغاريت وعمل على التحالف مع ملك كركميش. والآن لقد دعا أبدي أناتي ملك سيانو، دعا نكميبا ملك أوغاريت للمثول أمام القضاء أمام الملك العظيم ملك حاتي وذلك للنظر في قضايا بعض المدن (وقد ذكرت أسماءها فيما بعد في الوثيقة)).**

وبعد ذلك ابتدأ الملك العظيم بالقول والتصريح أية من المدن تنتمي إلى نكميبا وأيها تنتمي إلى أبدي – أناتي. وقد كان نصيب نكميبا هو نصيب الأسد. وتذكر الوثيقة التي تعالج نفس المشكلة أنه قد نُصبت بعض الحجارة لتعيين الحدود بين الدولتين وتنتهي بما يلي:

في المستقبل سوف لا يعمد ملك سيانو أو أبناؤه أو أحفاده إلى إعادة فتح القضية مع ملك أوغاريت أو أبنائه أو أحفاده في قضية تلك الحدود.

وتؤلف الملاحظة السابقة تحذيراً حكيماً وذلك لأن حوادث الحدود البسيطة ربما تنتج خصومات تزداد بالتدريج وذلك كما توضح الشكوى الآتية والتهديدات.

يقدم أتيور ليم Itur-Lim التحية إلى ملك أوغاريت. وأقول إن شعبك قد اقتحموا حدودي وأنا أسأل لماذا تجاوزت حدودي. إذا كان خدمك والرجال الذين يعملون في حصاد الحبوب أصبحوا يعملون ما يريدون عمله دون علمك، فلماذا لا توقفهم وتسألهم لماذا عملتم هذا. إنك سوف تسبب حدوث خصام بيننا. فإذا عملت شيئاً فإننا سوف نعمل أيضاً ما يتوجب علينا عمله. ليكن هذا معلوماً.

لقد كانت تلك المعاهدات والمراسيم التي تعود إلى القرن الرابع عشر تجري ما بين الملوك وأتباعهم. وهناك أمثلة عن معاهدات صداقة بين الأنداد هي كما يلي:

ابتداءً من هذا اليوم فقد اتفق نيكوماندا ملك أوغاريت وأزيرو ملك أمورو وأدّيا القسم فأصبحت ادعاءات أزيرو ضد أوغاريت التي وجدت سابقاً سوف تصبح هذه الادعاءات لاغية.

وسوف تسلم ٥٠٠٠ وحدة من الفضة ليدي أزيرو.

فإذا صدق وقام أحد الملوك بعمل عدائي ضد ملك أوغاريت فإن أزيرو ومعه جميع عرباته الحربية وجنوده سوف يهبُّ لمساعدته ضد أعدائه وإذا صودف أن نهبت جنود الملك العدو بلادي فإن أزيرو ومعه عرباته وجنوده سوف يهبُّ لمساعدتي ضد أعدائي.

ولقـد اتخـذت إجـراءات عامـة بالنـسبة للمعاهـدات مـثلاً تـسليم المجـرمين أو اللاجئين الـسياسيين الـذين هربـوا مـن أحـد البلـدين إلى الآخـر، وهـكـذا نقـرأ فـي المعاهـدة الـتي عُقـدت مـا بـين حاتوسـيليز Hattusilis (١٢٧٥ – ١٢٥٠ ق.م) الثالـث ملك حاتي (وكتبت باللغة الأكادية) وما بين رعمسيس الثاني ملك مصر ما يلي:

إذا صادف أن هرب رجل أو رجلان أو ثلاثة رجـال مـن أراضـي حـاتي وذهبـوا إلى رعمسيس، ملك مصر أخي، فإن رعمسيس الذي يحبّه الإله آمون الملك العظيم ملك مصر سوف يعتقل هؤلاء ويعيدهم إلى حاتوسيليز أخيه. وإذا صادف أن هـرب رجـل أو رجلان أو ثلاثة رجـال مـن أراضـي مـصر وذهبـوا إلى حاتوسـيليز الملك العظيم، ملـك بـلاد حـاتي، عنـدها فـإن حاتوسـيليز الملك العظيم ملك بـلاد حـاتي – أخـوه، سـوف يعتقل هؤلاء ويرسلهم إلى رعمسيس الذي يحبه الإلـه آمـون وهـو الملك العظيم، ملـك مصر.

وكذلك فقد اتخذت ترتيبات دولية حول توزيع المسؤوليات إذا تعرَّض أحد رعايـا أحـد الملكـين للنهـب أو القتـل ضـمن أراضـي الملـك الآخـر. وهنـاك حادثـة مـشابهة مذكورة فـي القصة التاليـة المـذكورة فـي إحدى وثـائق تعـود إلى القـرن الرابـع عـشر ق.م.

لقـد أقـام إيـني تـي شـوب Ini-TeShub ملـك كـركميش معاهـدة مـع رجـال أوغاريت مفادها أنه إذا قُتل رجل مـن كـركميش فـي أوغاريت وإذا اعتقل أولئك الذين قتلوه فإن هؤلاء سوف يدفعون تعويضاً للرجل مقداره ثلاثـة أضـعاف ويعوضـون عليه ثلاثة أضعاف مما سرق منه. ولكن إذا لم يعرف هويـة القتلـة فـإن الأوغـاريتيين سوف يدفعون تعويضاً قدره ثلاثـة أضـعاف وسـوف يعيـدون المسروقات وإذا حـدث أن قتل رجل من أوغاريت فـي كـركميش يكون التعويض متساوياً مع ذلك.

إن كـثيراً مـن النقـاط المـذكورة بالنـسبة للعلاقـات الدوليـة يمكـن أن تعـود إلى الألـف الثالـث ومـن المفيـد أن نـشير إلى عـدد مـن المعاهـدات المثبتـة بالقـسم ومـصادق

عليها بالأفعال مثلاً وفي إحدى المعاهدات المعقودة ما بين ماتي – إيل Mati-il ملك أرباد وبين ملك آشور (القرن الثامن ق.م) يشترط فيها ما يلي:

إذا لم يلتزم ماتي – إيل بهذه المعاهدة فإنه وكما أن هذا التيس من الماعز المعد للتضحية سوف يُنزع من القطيع ولا يعود إليه، فإن ماتي – إيل مع أولاده وبناته وشعبه سوف يخرج من بلاده ولا يعود إليها.

إن هذا الرأس ليس رأس تيس الماعز بل إنه رأس ماتي إيل فإذا لم يعمل ماتي إيل بموجب هذه المعاهدة عندها فكما أن يدي سوف تشق رأس هذا التيس من الماعز هكذا فإن يدي سوف تشق رأس ماتي – إيل.

هناك مثال آخر حول المفاوضات الدولية وهي تظهر الدبلوماسية التي تجري ما بين ملوك متساوين في الحالة الاجتماعية (وليس كما كان الحال بين ماتي – إيل وملك آشور) وهذه المفاوضات تظهر في إحدى الرسائل التي يعود تاريخها إلى حوالي عام ٧١٠ق.م يشير سرجون ملك آشور في هذه الرسالة إلى عرض أو مفاتحة من ميتا ملك موشكو. وكان الملك سرجون يكتب إلى أحد الرجال الأعيان من الآشوريين وهو من مرتبة عليا ومن الممكن أن يكون ابنه وخليفته سنحاريب الذي ذكر أن ميتا ملك موشكو في آسيا الصغرى الذي كان معادياً لآشور قد اتخذ الخطوات الأولى لعمل التوبيخ ولكن الملك الآشوري قد رحب بحرارة بالوضع الجديد وأصدر أوامره بالمساعدة في تحسين العلاقات الودية. فلسوف يعتمد سفير آشوري للعمل في ميتا بينما حدثت موافقة على حضور سفير من موشكو إلى البلاط الملكي الآشوري بالإضافة إلى ذلك فقد صدرت الأوامر إلى المسؤول الآشوري أن يخبر ميتا أن الملك الآشوري كان مسروراً جداً من التطورات التي حدثت. وفوق ذلك فقد وافقوا على إخراج المسؤول الآشوري لإجراء ترتيبات مشتركة حول تسليم المجرمين. وهذه الرسالة تقدم وجهات نظر حقيقية أن الإمبريالية الآشورية مدينة بنجاحها الأكيد إلى الإدارة الحريصة والدبلوماسية كما هي مدينة للقوة العسكرية.

الفصل الثامن

الإدارة

لقد حدثت بعض الإشارات العرضية إلى قضايا الإدارة في الألف الثالث والثاني ق.م، وهذا موضوع لا يجوز الخوض فيه بشكل عام نظراً لوجود بعض الاختلافات الواسعة عملياً ما بين فترة وأخرى غالباً ما تكون ضمن فسحة زمنية قصيرة وإن طريقة المعالجة المعتمدة هنا هي إعطاء ملخص قصير للملامح البارزة لكل من الفترات الرئيسية بالإضافة إلى مناقشات أطول للتطورات الإدارية ابتداءً من زمن الإمبراطورية الآشورية الجديدة، ولقد اختيرت الأخيرة للمعالجة بوجه خاص بسبب أهميتها الخاصة بالنسبة إلى التطورات السياسية في الشرق الأدنى من جهة وبسبب ذلك الأسلوب الحالي في التفكير والمعادي للإمبريالية من جهة أخرى، ولقد ساهمت الأمبراطورية الآشورية في تشكيل هذا الرأي السلبي.

نهاية فترة الأسر الأولى (حوالي ٢٤٠٠ ق.م)

كان الأنسي Ensi هو رأس الدولة - المدينة وكان يحمل أكثر الألقاب أهمية خصوصاً عندما تمتد سلطته إلى ما وراء أراضي مدينته بحيث يعتبره معبد نيبور ويعترف به وهذا اللقب هو لقب لوجال أو الملك والرجل العظيم. وفي الحالة الأخيرة فإن الشخص الذي ينوب عن الملك في كل من الدويلات المستقلة سوف يكون اسمه جير – نيتا Gir Nita أو الحاكم. وكانت كل ضيعة من أملاك المعبد تمتلك إدارتها الخاصة بها وهي خاضعة في المقام الأول إلى الأنسي Ensi أو الملك وأخيراً للإله الذي كان هذا الشخص وكيله. وكانت الشخصيات الرئيسية الثلاث في المعبد وإدارته يُعرفون باسم الإغريغ Agrig وهو المسؤول الاقتصادي الـ نوباندا Nu-banda أو المغتس والسانغا Sanga أو الكاهن وكان هؤلاء مسؤولين عن تعيين

الأعمال والواجبات التي ينبغي على هيئة الموظفين القيام بها وذلك بالنسبة إلى قضايا الإعاشة والأدوات ومراقبة قطعان الماشية ومصائد الأسماك وأراضي المعبد. وكان هناك مفتشون من مختلف الأنواع وهم مسؤولون لدى الإنسي Ensi الذي كان يتقاضى بعض الضرائب عن المواشي والقوارب ومصائد الأسماك وورشات غزل الصوف ويتقاضى رسوماً عن حوادث الطلاق ودفن الموتى.

فترة الأسرة الثالثة في أور (حوالي ٢١٠٠ق.م)

كانت الحكومة في الأسرة الثالثة في أور ذات نظام عظيم التنظيم بينما كانت المنطقة التي سيطرت عليها أور بعيدة عن حدود سومر بحيث نستطيع أن نقول إن الأسرة الثالثة في أور أصبحت دولة إمبراطورية ويقال إن هذه الإمبراطورية كانت ذات إدارة فعّالة لم يكن لها من مثيل قبل عهد الآشوريين وكان جميع الإداريين في الولايات عبارة عن حكام مدنيين معتمدين على الملك. ولقد أوقف العصيان الداخلي الذي كان يؤلف مشكلة بالنسبة لأسرة أغادي وذلك عن طريق فصل الإدارة العسكرية عن الإدارة المدنية، بينما حدّدت سلطة الحكام المدنيين في ذلك بجعل هؤلاء عرضة للتنقل من مدينة إلى مدينة، بحيث لم تعد الروابط المحلية قادرة على زيادة سلطتهم وكانت التقارير المنتظمة تصل إلى الملك من خلال الرسل الملكيين مما ساعده على البقاء على علم بما كان يجري في الإمبراطورية.

الفترة البابلية القديمة
(ممالك إيسين ولارسا وماري وبابل)

لقد انهار النظام الإداري في إمبراطورية الأسرة الثالثة في أور قبل تحطيم العاصمة نفسها وبهذا أصبحت الشؤون الإدارية في الممالك الصغيرة المتفرقة التي حلَّت محل الإمبراطورية القديمة، قضية محلية، حيث لم يكن هناك ضرورة لأي تناسق مفصّل ما بين الأنظمة الموجودة في مختلف المناطق ويبدو أنه كان من

المحتمل أن تصبح الأعمال الإدارية الراهنة والتي تحدثت عنها الوثائق التي وجدت في مملكة ماري وبابل، أعمالاً نموذجية.

لقد قام العالم البلجيكي جـ د. كوبر Kupper بدراسة مفصّلة حول الإدارة في مدينة تيركا Tirqa الواقعة على بعد يزيد عن أربعين ميلاً شمال ماري وذلك زمن الملك زمري – ليم ملك ماري حيث كانت تيركا ملحقة بأملاك الملك زمري ليم وكان يحكمها والي يدعى كبري – داغان.

كانت الأراضي التابعة لحكم الوالي تؤلف المدينة نفسها وما يحيط بها وكانت تشمل (كما كان الحال في المدن الرئيسية في الشرق القديم) عدداً لا بأس به من القرى الصغيرة ولقد بلغ الحجم الفعلي للمنطقة حوالي ستين ميلاً بمحاذاة الضفة اليمنى لنهر الفرات وبالإضافة إلى السكان القاطنين في القرى كان هناك بعض البدو الرُّحل من مختلف القبائل وهؤلاء البدو الرّحّل ومعهم القرويون الذين بدأوا بالاحتكاك مع الوالي عن طريق شيوخهم (سوكاكو)... أما في البلدات الصغيرة (كان هناك ما يدعى بالهازانو Hazanno (وهو المراقب أو المحافظ) بينما كان الشيوخ الشيبوتوم Shibutum يؤلفون نوعاً من الجمعية العمومية المحلية وكان الوالي نفسه مسؤولاً عن حفظ النظام وإحلال العدالة وفوق ذلك الأعمال العامة كحفر الأقنية ونظام الري لأنه وكما يقول (كبري – داغان) في رسالة أرسلها إلى الملك «إذا انقطع الماء فإن سكان سيدي سوف يموتون من الجوع». وعلينا أن نلاحظ أنه وبالنسبة لجميع القضايا كانت المسؤولية النهائية عن القرارات مختصّة بالملك وكان هذا يقضي أن يقوم الولاة بإرسال تقارير متتالية ليس حول القضايا السياسية أو القضايا العسكرية فحسب بل حول جميع الأشياء المختصة بأمن المناطق الموكلة بهم. وبين قضايا أخرى نجد بعض الكوارث مثل الأمراض السارية والفيضانات والغزوات التي يقوم بها الجراد والتي كان يُبلّغ عنها الملك وكانت الوسيلة الفعلية التي كان الوالي يتصل بها بالملك وولاة المدن الأخرى هي إرسال الرسل من مختلف الأنواع وهم يتدرجون من مراسلين وحملة الألواح حتى العملاء السريين وكان الملك يحتفظ بالعين الساهرة بالنسبة للولاة والموظفين ولدينا

بعض الرسائل التي كان الولاة يدافعون بها عن أنفسهم أمام الملك ضد أية اتهامات بالإهمال.

وفي حالة الطوارئ العسكرية كان هناك وسيلة أخرى للتواصل التي كانت تستخدم في المملكة التي كانت رسائل مملكة ماري تهتم بها. وهذا يشمل استعمال بُرج التحذير. وكان من الممكن وبواسطة استعمال سلسلة من النيران التي تطلق في الهواء الطلق، أن ترسل الرسائل بسرعة إلى جميع أنحاء البلاد. والصعوبة الوحيدة هي أنه ينبغي أن يكون واضحاً سلفاً ماذا تعني مثل هذه الإشارات وقد وجدت رسالة تُظهر أن ياسماح – حدد وهو نائب ملك ماري قد وقع في بعض الأخطاء فقد أطلق نظام الإنذار وجعله ينذر بغارة محلية، وهنا نرى أخاه الأكبر أشمي – داغان يكتب له ناصحاً له لكي يتخلص من مشكلته فيقول:

«إلى ياسماح حدد يقول أخوك أشمي - داغان إنه وبالنظر لأنك قد أشعلت نارين منفصلتين أثناء الليل، فإن جميع أهالي البلاد سوف يهبّون لمساعدتك لذلك، فينبغي عليك إرسال لوح مكتوب موجه إلى أهالي البلاد وأرسل هذه الألواح مع رسلك لإيصالها وسوف تقول لهم: لقد أتت جماعة من الأعداء وقاموا بغارة ضدي وضد بلادي ولهذا فقد أشعلت نارين، وليس هناك من حاجة أن تأتوا للمساعدة».

ولأجل غايات أمنية فقد أصبح لدى الوالي بعض الفرق العسكرية لمراقبة الأقنية والقيام بواجبات الشرطة. وكان هؤلاء الجنود أو على الأقل ضباطهم يحصلون على هبات من الأرض وكان هذا النوع من المعاملات معروفاً في الوقت الحاضر في بابل أكثر منه في ماري.

ليس هناك فروق واسعة في المبدأ تفصل النظام الإداري في بابل عن مثيله في ماري ونحن نعرف النظام الإداري في مملكة حمورابي ليس من شرائعه فحسب بل من وجود عدد كبير من الوثائق والمراسلات التي دارت ما بين الملك وموظفيه المحليين. وإن الاستنتاج الذي نراه من المصدر الأخير هو أن الإدارة في زمن حمورابي

كانت مركزية بشكل واسع وأنه وكما كان الحال في آشور في الألف الأول لم يكن ليغيب عن اهتمام الملك أية قضية مهما كانت صغيرة.

أما الأمراء العموريون الذين جمعوا أشلاء إمبراطورية الأسرة الثالثة في أور وممالك إيسين ولارسا ووضعوها تحت حكمهم، فإنهم، وفي أثناء هذا العمل، كانوا قادرين على السيطرة على أراضٍ أخرى كانت تحت سلطة المعبد وكان جزء من الأراضي الملكية يُعْطى للرجال لقاء قيامهم ببعض الواجبات كخدمة الملك ولقد شرحت شرائع حمورابي عمليات بيع هذه الأراضي، وإن الموظفين الذين أشير إليهم في تلك القوانين والذين كانوا يمتلكون تلك الأراضي بهذه الطريقة يدعون الريدو Redu والبايرو Bairu واللابوتو Labuttu وهذه الاصطلاحات تدل على هيئة الموظفين العسكريين أو الشرطة الذين كانت ألقابهم تنحصر في رتبة الرقيب ثم العريف ثم الكولونيل ثم المساعد مع أن وظائف هؤلاء كانت أوسع مما هي عليه تلك الوظائف الآن. وبالإضافة إلى هؤلاء الرجال العسكريين من الواضح من بعض الرسائل أن عدداً لا بأس به من الرجال المحترفين والحرفيين كالتجار والكتبة والرّعاة والجواهريين والحدادين والعرّافين كانوا يمتلكون الأرض بطرق مشابهة وهذا يتضح من الرسائل التي تشبه الرسالة الآتية:

يقول حمورابي إلى شماس هازير Shamash-Hasri: عند رؤيتك هذا اللوح بادر بتسليم (بير) (Bur) واحد من الأرض إلى سن – موشتال Sin-Mushtal و(بير) واحد إلى إيلي - إيدينام Ili-Idinam و (بير) واحد إلى إيلي – اشميني Ili-Ishmeani وهم التجار الثلاثة المشهورون في أور وذلك بالإضافة إلى مصادر الصيانة القديمة أو الإقطاعيات.

إن كلمة مراكز الصيانة القديمة تعني الإقطاعيات ولقد وجدت سجلات تحدد الهبات والحقوق من هذا النوع وهذه قد حُفظت وأشير إليها في حالة وقوع خصام وكانت الهبات (حسب الفصل من الشرائع) تعطى بالوراثة من الأب إلى ابنه، وفيما يلي نجد حالة من هذا النوع:

يقـول حمـورابي لـشماس هـازير: أعْـطِ إلى مانـاويروم Muna wwirum الركبـو كإقطاعيـة ثـلاث بـيرات Bur مـن الأرض مـن أراضـي ضـيعة والـده فـي منطقة دمتي – إيلي Dimti-ili.

ولقـد كانـت المنحـة الـتي يقـدمها الملـك كإقطاعيـة تخضـع لسلطة الـوالي الـذي كـان مسؤولاً عـن واجبـات ثلاثـة: الأمـن، والأشـغال العامـة، والمواصـلات، ومـع أنـه وبالنسبة لجميع تلك المسائل كـان الـوالي مقيداً بشدة بتعليمـات الملـك وأوامـره وفـي حالة تجرّؤ الوالي على مخالفة أوامر الملك فإنه يتعرض للتوبيخ والتأنيب الحـاد: وفـي الرسالة التالية يُخبر حمورابي أحد الولاة: «**في السنة الماضية أرسلت لـك بعض الرمـاة لكي تنظـر فـي أمـر خلافـاتهم بشأن إحدى الأراضـي وهـا هـي القـصة أمامـك منـذ ثمانية أشهر ولم تفعل شيئاً لحل قضيتهم**».

ويتبـع ذلـك أوامـر مفـصّلة عـن كيفيـة معالجـة هـذه المـسألة ويختـتم الملـك هـذه الرسـالة بقوله «**إذا لم يرضَ هؤلاء بسـرعة فسوف لن أسامحك**».

لقد كانت منطقـة النفـوذ الإداري للوالي مقسّمة إلى أقسام يحكمهـا موظفـون صغار وهنـاك اصطلاحان وهمـا باتوم Patum وإيرستوم Irsitum تدلان على المنـاطق من النـوع التي كـان يحكمها الموظفون الملكيون، ولكـن مـساحة المنـاطق المذكـورة غير مؤكدة ومن الممكـن أن تعني البـاتوم مجمـل المنطقـة المحروثـة والخاضـعة لمدينـة معيّنة بينما كانت إيرستوم تعني إحدى حارات المدينة.

الفترة الآشورية الجديدة

هناك بيتان من الشعر للشاعر الإنكليزي بايرون يقول فيهما:

لقد هجم الآشوريون وكأنهم الذئب الذي يهجم على قطيع المواشي

وكانت عرباتهم الحربية تلمع باللون الأرجواني والذهبي

هـذه الأبيـات لا تتـضمن نظـام الحكـم العـسكري الآشـوري، فلـم يكـن الآشـوريون يخرجـون للنهـب والـسلب فحـسب فـالبلاد الـتي حكمهـا الآشـوريون قـد

خضعت لنظام إداري ناجح وبكفاءة مرموقة ، والحقيقة أن نظام الحكم الآشوري كان يذكرنا بأنواع الحكم الموجودة الآن وإن الفكرة التي تقول إن الآشوريين كانوا قطعاناً من القتلة الذين يجوبون خلال الديار العزلاء وينسحبون تاركين الخراب، هذه الفكرة هي فكرة مغلوطة ومشوّهة ويجد المرء بعد الاطلاع على فحوص مفصّلة أن حكم التوراة ضد الآشوريين يوصمهم بالبربرية أو حتى الخشونة في الإدارة والحكم. وبالنسبة إلى نبوءة النبي ناحوم بسقوط آشور فهو يعلن أن آشور قد حكم عليها بالإعدام. وذلك بسبب وجود عدد كبير من العاهرات ووجود السحر الأسود الذي يبيع الأمم خلال العُهر وببيع العائلات من خلال السحرة.

«لقد ضاعفتم عدد التجار عندكم ورفعتموهم إلى عنان السماء».

هذا وإن أي نقد أو إدانة للآشوريين لم تكن بسبب معاملتها السيئة لرعاياها أو العناصر المطلوبة بل بسبب عنجهيتها وتكبرها ، عندما تدعي أنها تمارس أعمالها بتفويض من الآلهة. وبالنسبة للمؤرخ هوسيا Hosea فهو يقول إننا ينبغي أن ندين العبرانيين وليس الآشوريين وذلك لأنها كانت تعتمد على آشور بدلاً من الاعتماد على الله ويصِف أشعيا آشور بأنها سوط الله والعصا التي يعبر فيها الإله عن غضبه وأنها إحدى أدوات يهوه (إله اليهود) ويقول أشعيا إن آشور لم تعاقب بسبب استعمالها السَّيئ لقوتها ولكن بسبب فشلها بالاعتراف أن مصدر قوتها هي إرادة الله. ويتنبّأ زيفانيا Ziphanea بسقوط آشور بشكل متوتر ليس بسبب غياب الشعور الإنساني لديها بل بسبب كبريائها.

«إن الإله سوف يمد يده نحو الشمال وضد الشمال ويخرّب آشور وسوف يسبب الخراب لنينوى وسوف تصبح جافة كالصحراء. فهذه هي المدينة الفرحة التي كانت تعيش بشكل عابث وكانت تظن في قرارة نفسها أنها هي الموجودة فحسب وليس هناك أي أحد بجانبي أو مساوٍ لي».

ولا تشير الأفكار البابلية إلى العقاب الذي تستحقه آشور التي لا يعود سبب سقوطها إلى أي شكل من أشكال الظلم بل إلى ما كانت عليه من تكبّر وهيمنة.

وأنها كانت تختلس القوى العائدة إلى الإله، وبصورة خاصة عدم التقوى ويشير حزقيال بصورة جذابة إلى الإمبراطورية الآشورية.

«لقد كانت آشور شبيهة بشجرة الأرز في لبنان ذات الأغصان الجميلة الممتدة وهي ذات قامة عالية وكانت قمتها واقعة فوق الأغصان السميكة، ولقد جعلت المياه هذه الشجرة عالية ولقد جعلها البحر العميق عالية بأنهارها التي تجري حول النباتات وقد أرسل أنهارها الصغيرة إلى جميع الأشجار في الحقل فقد كانت مسيطرة على جميع الأشجار. وكانت أغصانها متعددة وطويلة بسبب المياه العارمة ولقد عمدت جميع الطيور إلى بناء أعشاشها في أغصانها وتحت أغصانها أنجبت الحيوانات البرية صغارها وتحت ظلها قد سكنت جميع الأمم وكانت جذورها راقدة بجوار المياه. هكذا كانت آشور».

إن الذنب الذي قطعت بسببه تلك الشجرة العظيمة، هو الكبرياء. ولكن حزقيال ليس لديه شعور بالانتقام بالنسبة لسقوط آشور فيضيف ما يلي:

«وهكذا يقول السيد الإله: إنه اليوم عندما سقطت آشور وذهبت إلى القبر كنت حزيناً وبكيت فقد غطيت البحر لأجل آشور ومنعت الفيضانات وأوقفت المياه العاتية ولقد جعلت لبنان تلبس ملابس الحداد عليها ولقد أغمي على جميع الأشجار لأجل آشور».

ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن جميع أساليب آشور الإدارية كانت قاسية وفظة ولكن لا ينبغي علينا أن نتغاضى عن الجانب الآخر من النظام. فقد كانت آشور مدينة بنجاحها لذلك النظام الإداري المتطور ولتلك العناية الفائقة التي بذلها الموظفون الذين كانوا يتابعون الموقف يوماً بعد يوم وحتى عند حكم آشور ناصر بعل الثاني (٨٨٣-٨٥٩ق.م) لم تكن الأعمال الإدارية في البلاد المغلوبة أعمالاً مسيطرة وحاسمة ولكنها كانت تجري طبقاً لمبادئ معترف بها. ومنذ أيام تغلات بيلاسر الثالث وبعد حوالي مئة وأربعين يوماً وقعت الممالك العبرية تحت حكم الآشوريين وأصبحت تدور في الفلك الآشوري. وعندها أصبح من الممكن رؤية نماذج

محددة من الإدارة الإمبراطورية وكانت هذه النماذج عبارة عن تطورات طفيفة وفروق بالتفاصيل تحت حكم ملوك متتالين.

قلما تصبح الإدارة السياسية مسألة مُرضية، وقد حدثت هناك استثناءات وتجاوزات بالنسبة لأية مبادئ عامة، ولكن إذا تكلمنا بصفة عامة فقد كانت الأراضي التي يسيطر عليها الآشوريون محسوبة على وحدات من السكان متّصلة بالحكومة المركزية الآشورية بثلاث حالات: أولاً كانت تلك الدويلات التي عمد حكامها بناءً على دوافع من العقلانية إلى جلب الجزية كعلامة على الموقف الودي الذي يعتمد على الظروف بحيث يصبح الموقف ما بين التحالف والتبعية. وقد كان حكام مثل هذه الدويلات يستلمون مقابل خضوعهم ضمانة آشورية تامة باحترام دولهم وذلك عكس الحالة في مصر، حيث كانت الحالة كما يصفها بعض القواد الآشوريين بكونها قصبة مكسورة تنغرز في كف الإنسان إذا مال وتؤذيه، وكانت الدويلات الصغيرة تنتهز الفرصة لتصبح تابعة لآشور. وبصورة عملية كان الوضع السياسي للدويلات يختلف ضمن حدود واسعة طبقاً للعوامل الجغرافية والتحالفات مع الدول الأقرب بصورة خاصة، البعد عن الجيوش والعساكر الآشورية، أو الموظفين الآشوريين، وفي بعض الحالات كانت آشور تضع موظفاً في تلك الدويلات لمراقبة الأحوال هناك.

وكانت الدويلات سواء بفعلها أو بفعل الضغط الآشوري تقع تحت شكل من أشكال السيطرة نظراً لأنه إذا قدمت الدولة التابعة فروض الطاعة ولكنها استنكفت عن دفع الجزية السنوية فإن فشلها في دفع المستحقات كانت آشور تعتبره عملاً معادياً وإن هذا الملك مرشح لاستدعاء قوته الحربية لإجراء عمل عسكري. وكانت آشور منشغلة في أعمال أخرى لذلك فقد نجا هنا الملك التابع من إجراء أعمال تأديبية سريعة. ولكن وفي كثير من الحالات كانت إجابة آشور لمثل هذه الحالات عمل هجوم على أرض الملك المُرْتدّ باستخدام قوة صغيرة. مع سحب تلك القوة بعد ضم أملاك المرتد إلى أملاك دولة موالية أو ولاية موالية وكانوا يستبدلون الحاكم المرتدّ بحاكم مُوالٍ لآشور وحيثما يوجد حاكم قد عزلته مؤامرة داخلية

كانوا يرسلون هذا الحاكم ويعيدونه إلى السلطة لأنه كان موالياً لآشور أو يعيدون أحد أفراد عائلته. وعلى أي حال فإن الحاكم الذي تَعتَرف به آشور سوف يرتبط بعد أداء القسم أمام الآلهة العظام. بينما يُترك الموظف الآشوري الذي ربما كانت تسانده قوة عسكرية ضمن أراضيه بقصد مراقبة الحوادث المحلية والعلاقات الخارجية للدولة ولتأمين دفع الجزية وهذا يمثل العلاقات من الدرجة الثانية مع آشور.

لقد اعتبر الخروج عن الطاعة ومخالفة القَسَم جريمة ليس بالنسبة لملك آشور فحسب، بل بالنسبة للآلهة التي حدث أمامها القسم. وكان عقاب هذا الجرم الموت. ولم يكن هذا العقاب نتيجة للانتقام من الجاني أو لإنذار الآخرين فحسب، بل كان إرضاءً للآلهة التي إذا لم تعامل باحترام فإنها سوف تجلب إجراءات تأديبية إلهية، مثل الطاعون والطوفان والمجاعة والزلازل أو الظواهر الأخرى. التي تظهر غضب الإله. وليس من الصعب إيجاد حالات موازية لمثل هذه الحالات من إغضاب الآلهة في العهد القديم، فقد سرق (آشان) شيئاً من الغنائم المخصصة لإله القبيلة، عندها حلّت الهزيمة فوراً بالعبرانيين ولم يعد النجاح إلا بعد أن اكتشف الآثم وعوقب بالإعدام. وبعد أن حنث يوناثان بالقسم حكم عليه أن يصوم بالنيابة عن جميع العبرانيين فقد واجه حكم الإعدام، ولم ينجُ إلا بعد أن قام بقيادة حملة رضي عنها الإله. وكان حكم الإعدام يستبدل أحياناً في مثل هذه الظروف بالتعذيب مع بعض الإجراءات الدينية وحتى السحرية، مثل سلخ الجلد أو الدفن في جدار أو سحب اللسان أو الحرق أو الخازوق وكانت هذه الأعمال فظيعة مما سبب حصول بعض حالات الغضب والكراهية ضد آشور من قبل المؤرخين. وهناك سببان آخران لغضب الشعوب والمؤرخين أحدهما تكويم رؤوس أو أجسام البشر المقتولين، والثاني حرق الأسرى، الأمر الذي ذكر في الحوليات الآشورية في كلمات كالآتية: لقد شكلت من جثثهم أعمدة وأما الشباب والشابات فقد أحرقتهم بالنار ومع أن العمل الأخير لم يكن جريمة ضد التعاليم الدينية، إلا أنه لم يكن جريمة بالنسبة للرجال الأحياء وفوق ذلك، فإنه ربما كان يوازي ما كان يحدث في القرن العشرين الميلادي. ويذكر سيرفيليب جيبس صورة فوتوغرافية لضابط تركي

جالس فوق كومة من الجماجم وهو يدخن سيجارة. وبالنسبة للحرق بالنار، فسواء كان يعني أن الأطفال كانوا يحرقون بالنار وهم أحياء فهو معرّض للشك. فإذا كان الأمر كذلك فقد كان هذا عملاً دينياً، أو سحرياً موازياً لعمل قام به اليهود خلال فترة المملكة اليهودية.

ينبغي أن نتذكر أن تعذيب الرجال الأحياء (انظر لوحة ٤٦أ) مع كونه عملاً يقال إنه قسم من معاملة الشعوب المغلوبة ككل. إلا أنه لم يؤثر إلا على عدد صغير من الناس لا يتجاوز الاثني عشر من الطبقة الحاكمة أما بقية أفراد الشعب فكانوا يغرمون أي تفرض عليهم غرامات ثم يتركون وشأنهم أو كانوا يهجرون (انظر اللوحة ٣٣أ و ٣٤) نظراً لأن الممالك المغلوبة كان ينبغي إعادة إسكانها وإعمارها من أمكنة أخرى ويعاد تنظيمها بشكل ولاية تحت الحكم الآشوري المباشر. وفوق ذلك فإنه لا ينبغي اعتبار الأعمال الآشورية على ضوء المثاليات المسيحية العليا والتي طالما نسيها المسيحيون في الحروب التي حدثت في القرن العشرين الميلادي ولكن بالمقارنة بالمقاييس المعاصرة للفترة التي جرت فيها هذه الأحداث. وهناك عدة حالات مأخوذة من سجلات حكام شعب الله المختار في نفس الفترة التي سوف توضح هذه الأمور فقد محا (باشا Baasha) عند توليه عرش العبرانيين من خليفة جيروبوم محا من الوجود وبموافقة أنبياء الإله يهوه عائلة جيروبوم بأكملها. وكذلك فإن زمري بموافقة الأنبياء قام بنفس العمل بالنسبة لعائلة (باشا) عند اغتصابه العرش بدوره، وفي هذه القضية، ونظراً لأن زمري لم يحكم سوى سبعة أيام، إلا أن القاتل الملكي لم يُضِع أي وقت في التفكير بعمل يرضي به الرأي العام. وعندما أظهر أحد الملوك وهو الملك آهاب بعض الشهامة بالنسبة إلى عدوّ مهزوم فقد أنكر أحد الأنبياء عليه ذلك. وتروي إحدى القصص بكل ثقة مصير اثنين وأربعين من الأطفال الفقراء والذين لعنهم إيليشا وبالنتيجة لقد أكلتهم الدِّببة. وسواء حدثت هذه الحوادث كما رويت أم لم تحدث فإن الأوساط الدينية كانت تشعر أن هذه الأشياء ينبغي أن تحدث وكانت العظات الأخلاقية مقبولة لدى المدارس الدينية ليس في زمن إيليشا فحسب، بل بعد ذلك في زمن تأليف كتاب الملوك، وهناك ملك

العبرانية آخر وهو جيحو Jehu وبعد أن قضى على سبعين ولداً من أولاد آهاب وجميع أقاربه الباقين على قيد الحياة بالإضافة إلى اثنين وأربعين ولداً من أولاد أحازيا Ahaziah وعدد كبير من أتباع بعل الذين غُرِّرَ بهم وكانوا مسالمين وقد نال هذا الفعل الموافقة والاستحسان الحماسي من قبل المتنفذين من عَبَدة الإله يهوه. كمثال أخير من المفاهيم القديمة نجد مناحيم عندما استولى على بعض المقاطعات فقد بقر بطون كل النساء الحاملات دون أن يجلب على نفسه أية إدانة لهذا العمل الفظيع. مع أن مؤلفي كتب الملوك كانوا مستعدين لإدانته بسبب عجزه عن عمل قضايا تختص بالطقوس الدينية. وإذا حكمنا عن طريق المقاييس الأخلاقية التي قبلت تلك الحوادث المذكورة الفاضحة بأنها حوادث عادية ولها ما يبرّرها ، عندها لا ينبغي علينا إيقاع اللوم على آشور بسبب بربريتها الزائدة عن اللزوم، وإذا أردنا أن نقارن تلك بشؤون الحرب المعاصرة فليس هناك في تاريخ آشور ما يتجاوز ما حدث في أوروبا من فظاعات وفي إفريقيا (السود والبيض) منذ عام ١٩٣٩م.

مع أن الحوليات الملكية للملوك الآشوريين تمثل أساس معرفتنا بالتاريخ الآشوري في الألف الأول ق.م، لكنها لا تقدم لنا سوى نتف متفرقة حول الآلية الإدارية التي كانت تعمل خلال الولايات الإمبراطورية ولحسن الحظ من الممكن أن نستخلص بعض المعلومات حول هذه القضية من مراجع عشوائية ومن المراسلات التي جرت بين الملك وحكام الولايات. هذا ولقد وُجد عدد كبير يقرب من ألفين من الرسائل حول نفس الموضوع في الحفريات التي جرت في العواصم الملكية القديمة في نينوى وكلخ وفي مدينة غوزانا على نهر الخابور. وإن الأكثرية العظمى من هذه الوثائق تأتي من بعض المحفوظات في العاصمتين الملكيتين الآشوريتين، حيث أن معظم هذه الرسائل قد كتبت إلى الملك ولم يكتبها الملك ولكن يمكن أن يفترض المرء أن هناك عدداً لابأس به من الإجابات على هذه الرسائل تكمن ولا تزال تنتظر الاكتشاف وأمكنة لم تحصل فيها الحفريات في المدن التي لم تعرف هويتها بعد.

وتغطي هذه الرسائل سلسلة واسعة من المواضيع وتخدم بصفة عامة إظهار تلك الحقيقة التي مفادها أن الموظفين سواء الكبار أم الصغار كانوا يحكمون ولاياتهم

بنشاط ولم يكونوا مجرد كسبة للثروة من رعايا الملك عن طريق نظام جبي الضرائب بصورة غير مشروعة. وفي بعض الأحيان يظهر بعض الاهتمام غير المقصود بالشعب المحكوم. ومع أن ذلك كان يخدم المصالح أكثر من الإنسانية فهل من الممكن وجود ادّعاء أفضل حالاً بالنسبة لنظرية حب الإنسانية الحديثة؟ وفي إحدى الحالات لقد استلم أحد الموظفين المدعو آشور – ماتكا – غور مساءلة ملكية حول بعض الآراميين الذين كان هو المسؤول عن إعادة إسكانهم. وقد ذكر هذا الموظف في إجابته أنهم سوف يسيرون في الطريق وأنهم قد أعطوا المؤن الخاصة بهم والملابس والأحذية والزيت. ولكن الطعام والمعدّات لم تكن الهموم الوحيدة للملك بالنسبة لهؤلاء إذ من الواضح أنه قد خطط لتأمين زوجات لهؤلاء. ولكن هذا المشروع لم يَلْقَ نجاحاً سريعاً نظراً لأنه وفي رسالة أخرى ذكر آشور – ماتكا – غور أن بعض الاضطرابات قد حدثت وذلك لأن تقاليد الزواج عند الآراميين تختلف عن تلك التقاليد لدى السيدات، وهكذا قال: (**وبالنسبة للآراميين الذين رغب الملك في تزويجهم فإن السيدات يقلن إن الرجال الآراميين لا يرغبون في إعطائهن نقوداً وأنهن لا يرغبن في الزواج حتى يعطيهن هؤلاء النقود**). ويبدو أن السيدات قد أصرَرْن - وذلك طبقاً للمتطلبات العادية الموجودة في القوانين الآشورية - على أخذ النقود قبل الزواج وذلك كنوع من المهر الذي لم يرغب الآراميون في دفعه أو من الممكن أنهم كانوا غير قادرين على الدفع.

وكان حكم آشور – ماتكا – غور في القضية أن طلب السيدات ينبغي إجابته وأن الآراميين ينبغي أن يُدفع لهم النقود الضرورية لتساعدهم على إرضاء السيدات. ولقد ذكرت مثل هذه التفاصيل دون شك ليس لتأكيد بعض الاعتبارات الإنسانية فحسب، بل للتأكيد على رسوخ المفاهيم لدى السكان الذين أعيد استقرارهم. ومع ذلك فإن الاهتمام بمثل هذه التفاصيل لابد وأنه صادف كثيراً من المصاعب.

وفي رسالة أخرى نجد مُوظّفاً آخر وربما كان حاكم المدينة والولاية في كاكزو Kakzu في شرق دولة آشور قد اتُّهم أنه قد أسكن بعض المزارعين في أرض معرَّضة للفيضانات ولذلك فقد سارع هذا الموظف للدفاع عن نفسه وقد كتب

يقول: «إن المحصول هنا هو بالحقيقة جيد جداً» ثم استمرّ في تبرير عمله بإعطاء بعض التفاصيل، والحقيقة أن القلق الذي بدا على الحكومة المركزية كان سببه إمكانية فقدان الدولة لبعض الواردات الجمركية، ولكن ومن وجهة نظر الفلاح العادي فإن النتيجة النهائية لاهتمام الحكومة المركزية بهذا النوع من التفاصيل هو تشجيع الإدارة النشيطة الفعالة وتحسين أحوال العمل.

وكانت الرسائل من أحد الموظفين المسؤولين في مدينة صور وصيدا ذات أهمية أيضاً. وقد ذكر الموظف واسمه كوردي- آشور – لاومور أن الملك قد أرسل تعليمات واضحة أن تعامل المدن المغلوبة بروح من التعاطف. وفي رسالة أخرى يذكر الموظف كيف أنه قد نفَّذ رغبات الملك. ويذكر أن موظفاً آشورياً (الذي من الممكن أن نخمن أنه كان الحاكم العسكري الذي كان مسؤولاً عن العمليات في الوقت الذي سقطت فيها المدن قد قطع القناة التي كانت تحمل المياه إلى صيدا) ولكن كاتب هذه الرسالة يشير إلى أنه قد أصلح القناة وأعاد المياه إلى صيدا وقد ذكر هذا الحاكم في رسالته أنه قد نقض أحكام الحاكم سلَفه وأعاد المياه إلى المدينة.

وفي كثير من هذه الرسائل التي يظهر أن كاتبها كان أحد الولاة وذلك لأن اسمه يتكرر في قائمة الليمو. وفي مثل هذه الحالات يمكن للمرء أن يرى المشاكل التي تواجه الحاكم من وجهة نظر محلية، ومن نصوص تاريخية، وهذا يصدق على حكام المناطق الواقعة في الحدود الشمالية للإمبراطورية الذين تحملوا عبء ذلك الضغط البربري القادم من الشمال والذي هدّد جميع مناطق العالم المتحضر لمدة قرن ونصف بعد حكم تغلات بيلاسر الثالث.

لقد كان أحد الولاة الآشوريين واسمه بيل بيهاتي Bel Pehati (والذي يعني سيد الولاية باللغة الأكادية) قد عُيِّن للحكم المباشر في إحدى الولايات، ولقد اتَّخذ هذا الوالي حالة تشمل القيام بالواجبات المدنية والمالية والعسكرية والدينية. وكان مكان إقامته الرسمي في عاصمة المقاطعة يدعى القصر وقد ألحق به عدداً من الموظفين يشمل الكتبة والمراسلين والمسّاحين والمحاسبين والمتنبّئين والفلكيين والمشرفين على الري، فضلاً عن المساعدين العسكريين والضبّاط الذين يقودون

العساكر عند اللزوم وهم تحت تصرُّف الوالي، ولابد أنه كان هناك بعض المترجمين الحاضرين بين بطانة الوالي، ولاشك أنه وأثناء حصار أورشليم قد كان هناك مترجم للغة العبرية تحت تصرُّف القائد الآشوري العام ما لم يكن باستطاعة هذا القائد نفسه التكلُّم باللغة العبريّة.

ولقد كانت تختلف أهمية الولايات المختلفة بشكل كبير وكذلك وضع الوالي فلقد كانت بعض الولايات وخاصة الولايات القديمة من مسؤولية بعض موظفي الدولة الكبار الذين كانوا يتركون الولاية بشكل دوري ويضعون نواباً عنهم نظراً لانشغالهم في مهمة نصيحة الملك أو القيام بحملة عسكرية، وكانت الولايات الأخرى الأكثر حداثة يحكمها ولاة أقل مرتبة ولم يكن هناك تفريق ظاهر بين الولايات مؤسس على الأفضلية، وقد كان هناك اصطلاحان وهما ناغو Nagu ومعناه الجزيرة وبيهاتو Pihatu (ومعناه المسؤولية) ليطلقا على الإقليم الذي أوكل به الوالي ولكن لا يظهر أنها تشير إلى وجود فروق في حالة الولاة، بل إن اللقب الأول ربما يشير إلى الوضع الجغرافي الطبيعي مثلاً وادي نهر محاط بالتلال بينما اللقب الثاني ربما كان يمثل منطقة مقسمة طبقاً لبعض الاعتبارات السياسية.

وكانت الولاية الآشورية تنقسم إلى أقسام صغيرة ثانوية تدعى كانو Qannu (ربما كان معناها الحرفي خاتم) وكان كل قسم يرتكز على إحدى البلدات الكبيرة في الولاية ويحكمه موظف يدعى راب الاني Rab Alani (رئيس البلدة) وكان لدى هذا قوة عسكرية (كالوالي) تحت تصرُّفه. وكما سوف نرى فيما بعد وفي بعض الحالات وخصوصاً داخل بلاد آشور الأصلية كما في بابل، فقد احتفظت الإداريات البلدية في المدن الكبرى ببعض من مظاهر الحكم الذاتي الذي كان يمنحه الملك مقابل دعمه في حالة حدوث أزمات داخلية وبصورة خاصة حالات العصيان أو الاختلاف على وراثة العرش وفي مثل تلك الحالات فإن سلطة الراب ألاني Rab Alani المحلية لا ينبغي أن تمتد إلى المدينة الواقعة في وسط الكانو Qanu ومع ذلك، فإن وجود ممثل للحكومة المركزية الذي تدعمه العساكر في المنطقة الواقعة حول المدينة لاشك أنه كان يخدم لتذكير أي إدارة تبغي المناورة أن

من الحكمة أن تكون معتدلة في متطلباتها من الملك. وكانت إحدى وظائف الراب ألاني هي جباية الضرائب التي كانت تجبى بشكل سِلَعٍ وليس نقداً وتقدم هذه السلع إلى مخازن الحكومة المركزية. وفي حالة التقصير كان يتعرَّض للمساءلة الملكية فوراً. وفي إحدى الحالات النموذجية فقد أرسل مفتش لفحص بعض الأمور الغامضة في بابل ولكي يقدم تقريره عن وجود بعض النقائص. وظهر أنه قد اكتفى واقتنع أن الراب ألاني لم يكن هو المذنب وكتب إلى الملك مفسِّراً أسباب الخلل. وقد قال إن الحبوب المفقودة لم يكن بالإمكان نقلها إلى سيبار Sippar (حيث كان المخزن الملكي) قبل فتح القناة المحلية. وقد قدّم هذا الكاتب لسيده الملك تأكيداً أن العمل في إنجاز القناة يجري على قدم وساق وبالسرعة الممكنة.

وكان الراب ألاني مسؤولاً عن تأمين النظام خلال المنطقة الداخلة تحت صلاحياته، وكان يحدث أحياناً في بعض المناسبات أن يعتمد الأمن في الإمبراطورية على اتخاذ بعض المواقف التي تقضي باستخدام القوة العسكرية في وجه بعض الجنود الأعداء وحركاتهم على الحدود، وهناك عدة مراجع في المحفوظات الملكية تشير إلى مثل هذه الحالات، وهناك حالة خاصة نموذجية تشير إلى حدوث صدام في الحدود الأورارتية إلى الشمال الشرقي من آشور علَّق عليه الحاكم المحلي بقوله:

لقد أرسلت بعض الفرق العسكرية مع الراب ألاني وكانوا يسيرون مصطفين في مشية عسكرية للاستعداد للمعركة ولقد جُرح الراب ألاني ومعه تسعة من رجاله بطلقات السهام ولقد قتل اثنان من جنود العدو وجُرح ثلاثة.

لقد كان هناك نظام بديع وفعّال للمواصلات وذلك لتأمين أمن الإمبراطورية، وتظهر الرسائل التي أشرنا إليها أن الولايات كانت على اتصال يومي مع الحكومة المركزية وكان ضباط الراب ألاني على اتصال وثيق مع حكام ولاياتهم وعند الضرورة مع الحكومة المركزية أيضاً كانت المواصلات قائمة على المراسلين الذين كانوا يتألفون من أربع أو خمس فئات ومع أنه ليس من الواضح بعد كيف كان وضعهم. وكان الأسلوب العادي للتواصل مع الحكومة المركزية يتم عن طريق

موظف يدعى مار شيبري Mar Shipri (ابن الرسالة) الذي كان يتجول على طول الطرق الملكية. وهذه الطرق الملكية كانت تؤلف شرايين الإمبراطورية ومع أن هذه الطرق كانت غير معبدة كالطرق الرومانية مثلاً إلا أنها كانت بالحقيقة جيدة بشكل كاف لتستخدم كحدود بين الولايات وجاهزة لتستقبل الجيوش المترافقة مع العربات. ولقد وجدت طرق معبَّدة بالحجارة بشكل جيد ولكن هذه كانت منحصرة بالشوارع في المدن الكبيرة أو الطرق الموصلة إليها. وكان هناك أكثر من مقامة ضمن رحلة يوم واحد (حوالي عشرين أو ثلاثين ميلاً) وكانت هذه المراكز مجهزة بالفرق العسكرية الحكومية وتحتوي على غيار من الخيول أو البغال لاستعمال المراسلين في المرحلة التالية لرحلاتهم مع وجود مخافر للجنود. وكان المار شيبري يسافر ممتطياً صهوة جواده من مركز إلى مركز، ومعه بعض الحراس من الجنود حاملاً بعض الألواح التي تحتوي رسائل الوالي أو أجوبة الملك. وكانت المراكز المزوّدة بالحيوانات منحصرة في بعض الطرق فحسب وذلك للتأكيد أن كل مركز لديه من الحيوانات ما يكفي وكان هذا يؤدي أحياناً لحدوث احتكاكات وتصادمات. فقد عرف عن وجود أكثر من رسالة تحتوي على شكوى مقدّمة إلى الملك من هيئة موظفي أحد المراكز البريدية وهي تذكر أن أحد الموظفين الكبار قد ادّعى بحقه باستخدام الحيوان الباقي الأخير في طريق غير رسمية وهذا كان يؤدي إلى اختلال في نظام المواصلات كما ادّعى أحد الموظفين الغاضبين واعترف بذلك وعندما أمسك به وهو في هذه المحنة قال للملك مُفَسِّراً:

إن سيدي الملك يعرف أنه ليس هناك من مركز للبريد يوصل إلى شيبيريشو Shiabirishu وأن الحيوانات التي تذهب هناك لا تعود.

وهكذا من الممكن للمرء أن يعلم أن النظام الفارسي المشهور للبريد الذي كان يعمل خلال الإمبراطورية الفارسية لم يكن اختراعاً فارسياً بل كان تطويراً لنظام كان مُتَّبعاً قبل بضعة قرون من قبل الآشوريين.

ولم يكن النظام العادي للمواصلات الإمبراطورية المذكورة أعلاه مناسباً للحاجة في جميع الظروف وهكذا وفي إحدى المناسبات وفي الولايات البعيدة

الجبلية كان سقوط الأمطار الغزيرة والثلوج يؤخّر الرسائل العادية للمواصلات ولكن كان من الواجب أن تصل الرسائل إلى البلاط الملكي. ونحن نعلم ما كان يحدث في مثل هذه الأحوال من رسالة أرسلها موظف يدعى دور – آشور -Dur Ashur وكان حاكم ولاية توشكخان Tushkhan وهي واقعة في جبال جنوب شرق تركيا ويلاحظ دور – آشور في رسالته إلى الملك ما يلي: ربما أن الملك سوف يقول لماذا لم ترسل... بواسطة مار شبري Mar Shipri؟ وأقول إن الثلج كان كثيفاً لذلك أرسلت أحد العدّائين مع الرسالة. ومن الممكن أن يستنتج المرء أن العدّاء كان من سكان الجبال المَهَرة والذي يستطيع أن يجد طريقه فوق أراضٍ لا تستطيع الخيول سلوكها. وهناك حالة أخرى كان استعمال الـ مار شبري غير عملي. وقد حصلت عندما أتت الأخبار عن اعتزام الملك والوالي السفر في هذه الطريق. وفي مثل هذه الحالة كانت العادة استخدام مبعوث خاص يحمل رسالة تعريف مصادق عليها بوجود ختم الوالي. وكانت أوراق اعتماد هذا المبعوث موجودة وحاضرة لذلك فقد كان بإمكانه المرور ومعه رسالته السرية بمنتهى السِّرّية. وكان لدى الملك عدد من مثل هؤلاء الوكلاء يدعون (كوربوتي Qurbuti) (الأصدقاء المقربون) وهم يسافرون لقضاء المهمات وعندما كانت تقدم شكوى ضد أحد الموظفين الكبار كان أحد هؤلاء هو الذي يُرسل للفحص والتحري ثم يرسل تقريره إلى الملك. وحتى الوالي كان معرَّضاً لزيارة وتفتيش من هذا النوع يقوم به وكيل الملك السري. لأن مثل هذا الموظف لا يجوز أن يترك حرَّ التصرف في أرضه. ولم يكن زمام المبادرة التي يسمح له بممارستها لها حدود فحسب، بل إنه وفي كثير من الحالات كان الوالي يسأل عن التعليمات الواردة من العاصمة ليس حول السياسة العامة فحسب، بل عن قضايا تبدو أنها ذات تفاصيل لا أهمية لها. ولكن وأحياناً وفي حالة كون أحد الحكام تابعاً لحاكم ولاية مجاورة، بينما كانت الشكاوى ضد الولاة لا تصل إلى الملك لكي يفحصها ويحقق بها. ولكن من يجرؤ على انتقاد الوالي؟ هذا ويبدو أن مثل هذه الشكاوى ضد الولاة، تأتي إما من والٍ آخر يشعر أن الوالي المشار إليه يعتدي على صلاحياته، أو من مواطن عادي وربما لم يكن مواطناً آشورياً قد شعر أنه قد عومل معاملة سيئة لذلك فهو يلجأ إلى الملك لإنصافه...

وهكذا فإن لدينا رسالة من شخص يدعى مردوخ – شم – يوشور قد طلب أن ينصفه الملك نظراً لأن سلف الملك قد وهبه ضيعة صغيرة بشكل إقطاعية، وأن والي (بارهالزي) قد استولى على تلك الضيعة ظلماً وعدواناً مع أن مردوخ – شم – يوشور لم يتأخر عن أداء واجباته الإقطاعية وهو يقول:

«إلى سيدي الملك من خادمك مردوخ – شم – يوشور الذي يرجو لك دوام الصحة وأن يباركك الإله نابو والإله مردوخ يا سيدي، وأقول إن والدكم قد وهبني حقلاً مساحة عشرة (هومرات) من أراضي منطقة هالاهي Halahi وقد مضى علي أربعة عشر عاماً وأنا أتمتع باستعمال ذلك الحقل ولم يتعرَّض أي إنسان لي. والآن لقد أتى الوالي وأساء معاملة الفلاح المستأجر ونهب بيته وأخذ منه الحقل. وإن سيدي الملك يعلم أنني مالك إقطاعي وأنني في خدمة سيدي الملك وأرجو من سيدي الملك أن يحكم في قضيتي قبل أن أموت جوعاً».

ولا نعلم أن هذا الرجل قد أُنْصِف بل لا نعلم إذا كانت شكوى هذا الرجل قد وصلت إلى الملك أصلاً، إذ لا شك أن هيئة الموظفين كانت في كثير من الأحوال تحول دون وصول الشكوى إلى الملك. ولكن وجود مثل هذه الشكوى في المحفوظات الملكية، يدُلُّ أن بعض هذه الشكاوى كانت تصل إلى الملك. لقد كانت بعض المدن الكبيرة لا تزال تتمتع حتى وفي أوج القوة الآشورية الإمبراطورية بقسط لابأس به من الحكم الذاتي الذي كان الملك يحاول كبحه أحياناً، ولكنه كان أحياناً يتم الاعتراف به. هذا وإن الأسلوب الذي نمت به تلك الحقوق (وفي هذه الحالة خارج أراضي آشور الأصلية) يظهر من فحوى تلك الرسائل التي أرسلت إلى الملك تغلات بيلاسر الثالث عام ٧٣١ ق.م. فقد وُجِد كاتبا الرسائل وهما موظفان في بابل في حالة صعبة جداً. فقد كان أمامهما حالة من العصيان وكانت العاصمة بابل تحت سيطرة العصاة. ولم يكن هناك قوات آشورية في متناول اليد. وفي إحدى هذه الرسائل يرويان للملك الإجراءات التي اتخذاها. فلقد وقفا خارج سور المدينة وقاما بمحاولة للتفاوض مع البابليين في الداخل. فقد حاولا إحداث شرخ ما بين زعماء المتمردين الكلدانيين وأهالي بابل الوطنيين وهذا الوضع يشبه تلك المفاوضات

التي دارت ما بين راب – شاكح Rab-shakeh وسكان أورشليم. ولقد صاح الموظفان قائلين: «لماذا تظهرون العداء لنا على حسابهم؟ تصوَّروا أن أهل بابل يظهرون الولاء لرجال القبائل؟» وبعد ذلك أضافا قائلين «لقد حفظت امتيازات مدينتكم في عهود ومواثيق» وهذا يدل أن آشور كانت مقابل مساعدتهم تعترف بجميع حقوقهم المحلية التقليدية. تصف رسالة أخرى مفاوضات مشابهة في مكان آخر بخصوص نفس تلك الأزمة، وهنا نرى أن الكاتب قد وعد سكان المدينة الرئيسية في التمرد «إنني سوف أعفيكم من الخدمة الإجبارية والجزية بالنسبة لأي شخص أرامي يغادر هذا التحالف والتمرد».

وكان الحكم داخل المدن القديمة محصوراً بأيدي الشيوخ وكبار السن. وكان يرأس هؤلاء الهازانو Hazannu وهو موظف يقابل لقبه لقب المحافظ. ومع أنه وفي آشور كان هذا المنصب منصباً دينياً أكثر منه منصباً مدنياً، وكان الهازانو بالإضافة إلى الشيوخ مصدر إزعاج للملك، وهذا ربما عبَّر عنه تغيير العاصمة وربما كان سبباً في وجود بعض المدن الكبرى التي كانت مرتبطة بهازانو آخر تابع لموظف آخر يحمل لقب «الرجل الذي يحكم المدينة» ولكن هذه الوظيفة لم تكن قديمة قِدم وظيفة الهازانو التي ثبت وجودها منذ بداية الألف الثاني ق.م. ولم تحمل هذه الوظيفة الأهمية التي يتمتع بها الهازانو بالنسبة إلى القدم وبالنسبة للطقوس الدينية. ومن الممكن أن تكون هذه الوظيفة من عمل وخلق ملوك آشور الذين كانوا يقصدون أن يصبح هذا الموظف مقابلاً للهازانو وأن يكون بمقدوره تأمين المصالح الملكية داخل المدينة، ولقد استعملت وسائل مشابهة يُقصد بها تأمين بعض السلطة الملكية ضمن الأوساط الدينية في المعبد وذلك في بابل بعد وقت قصير. وكما لاحظنا فقد أعطى عدة ملوك بعض الامتيازات بالنسبة للإعفاء من الضرائب وإيجاد بعض البراءات أو العقود وكانت هذه تقدم للأشخاص الذين كانوا يدعمون الملك ويؤيدونه وكانت تلك الامتيازات ربما أخرت الحكام القادمين إلى الحكم، ومع ذلك وبعكس الحالة في بابل، حيث كانت أراضي المدينة ممتدة على مساحة ثلاثين أو حتى خمسين ميلاً عن المدينة نفسها، فقد كانت الحدود القانونية لأي

مدينـة آشـورية محـدَّدة ولم تمتـد سـلطة الهـازانو لتـصل إلى مـا وراء أسـوار المدينـة. وهكذا وفـي داخل آشور وفـي آخـر محاولـة تقـوم بهـا السلطة المركـزيـة لإرهـاب أيـة مدينـة متمـرِّدة عـن طريـق وضـع الفـرق العسكرية فـي الكـانو المحـيط بهـا وعنـد الضرورة عن طريق التدخُّل بالتجارة التي كانت قوام حياة تلك المدن. ولقـد كـشفت الحالات التي حدثت فيها هذه الظواهر. ففي إحدى الرسائل يكتب الهازانو من آشور إلى ا لملـك يـشكو أن هنـاك شـيخين مـن قبيلـة إيتـو Itu قـد نـصبا الخيـام ومعهمـا رجالهما أمام بوابة مدينة آشور وكانوا يتدخلون بالشؤون العادية فـي المدينة:

«إلى الملك سيدنا. من خادمك موتاكيل – آشـور الكـاهن المساعد ومـن خادمـك عشتار – نا – إيد / الهازانو نحـن نتمنـى أن يكـون سـيدنا بـصحة جيـدة، ونتمنـى أن يبـارك الإلـه آشـور ومعبـد إيـشارا Esharra سـيدنا الملـك... إن بيبيـا Bibiya عريـف شعب غيتو وتاروتيو عريف شعب إيتـو أيـضاً همـا كـلاهمـا يتجـولان فـي كـاتو آشـور أمام البوابة الكـبرى وهمـا يـأكـلان ويشربان الخمـور بعـضهم مـع بعـض. وهمـا يـسدّان المخرج المختص بمدينة آشور وعندما قمت بالاحتجاج اعتقلا الموظفين الذين يخضعون لي وإني أشعر بالعجز تجاه هؤلاء».

والآن لقد كانت المدينة آشور وهـي مستوطنة قديمة ذات امتيـازات خاصّـة موثّقـة بينما كـان الجنود من إيتو وكما نعلم من مراجع متعددة فـي رسـائل أخرى مـا هـم إلا مجموعات قبلية استخدمها الملك بصورة خاصة بشكل شـرطة لمعالجـة سـكان المـدن المزعجين، ولـذلك فـلا يجوز اعتبـار الهـازانو غبيّـاً بحيـث يفـترض أن شـيوخ الإيتـو قـد نصبوا الخيام فـي تلك البُقعة غير المناسبة وذلك عن طريق المصادفة.

لم تقـدَّم المـدن الـتي انـضمّت حـديثاً إلى الأراضـي الآشـورية عـن طريـق الفتوحـات العسكرية نفس المصاعب أمام الحكومة المركزية كما كـان يفعـل سـكـان المـدن مـن أصـول قديمـة. وكانـت العـادة أن يُثبّـت الحكـام الـذين قـدّموا خـضوعهم بعـد مقاومـة مـسلّحة، فـي مراكـزهم القديمـة بـصفتهم عمـلاء لآشـور وأطلـق علـيهم لقـب «سيد المدينة» وكانت واجبات هؤلاء ومن وجهة نظر آشور هـي المختصة بجمع الجزيـة التي تعهد أهل المدينة دفعها. وبالإضافة إلى ذلك كـان الواحد مـن هـؤلاء مـسؤولاً عـن

تـأمين النظـام خـلال المنطقـة وهكـذا فقـد وضـعت تحـت تـصرُّفه حاميـة عـسكرية للمساعدة. وهذا العمل، مع أننا لا نعرف حتى بدأ الجيش الآشـوري يمـارس الـسيطرة على الحاميـة الأمـر الـذي كـان مـن اختـصاص المـوظفين العـسكريين. وعلـى العمـوم وعلى فرض انهيار هذا الحكم الـذاتي نتيجـة لثـورة المواطنين أو عـدم موثوقيـة «سـيد المدينة» عنـدها تـصبح المدينـة تحـت الـسيطرة المباشـرة للحـاكم فـي الولايـة الـتي تقـع فيها تلك المدينة. وفـي بضعة حالات يبدو أن المـدن مـن هـذا النـوع كانـت توضـع تحـت حكم «الرجل الحاكم للمدينة» وهو موظف آشوري متميز عن «سيد المدينـة» وكـان مسؤولاً بصفة مباشرة أمام الملك دون الرجوع إلى الحاكم المحلي.

كـان هنـاك ثـلاث وظـائف رئيـسية ملقـاة علـى عواتـق المـوظفين فـي الإدارة الآشـورية. وهـي تـأمين المواصـلات وجبايـة الـضرائب المطلوبـة. وحفـظ النظـام. ولقـد ذكرنـا وصـفاً لنظـام المواصـلات، مـع أننـا لم نحـصل علـى بعـض التفاصـيل إلا مـن الوثائق الآشـورية. وبالنسبة للـضرائب فقـد استحوذت علـى اهتمـام خـاص مـن مراجـع العهـد القـديم فـي التـوراة وكـذلك فـي مـصادر الـسيادة الآشـورية وفـي الحوليـات الآشورية الملكية. مع أنه ينبغي الإشارة إلى أن قـوائم مـستحقات الجزيـة الـتي فرضـها الملوك الآشوريون وسجلوها فـي نقوشهم تقدّم لنا فـي عـدة حـالات صـورة مُشوَّهة عـن أعباء الضرائب الملقاة على عاتق المـواطن العـادي فـي الإمبراطوريـة الآشـورية، وهنـاك عدة أسباب توجب هذا: أولاً- وفـي بعض الحالات كانت الأرقام قد تعرَّضت للمبالغـة وذلك لمصلحة الهيبة الملكية. ثانياً- لم يُلاحظ وجود أية علاقات تدل على حجم وثروة الـسكان الـذين كانـت تجمـع مـنهم الـضرائب. وثالثـاً- إن البـضائع المـشار إليهـا لم تكـن ذات صفة الجزية بل كانت بـالأحرى ذات صفة الغنـائم الحربيـة. الـتي مـع أنهـا كانت عبئـاً ثقيلاً مرفوضـاً واقعـاً علـى كواهـل الـشعوب المحكومـة ويمكننـا رؤيـة الأعباء الحقيقية للضرائب ضـمن منظـور أفـضل وذلـك بمقارنـة المطالـب الآشـورية مـن الرعايا مع مطالب مشابهة لدى حكام آخرين عاشوا فـي العالم القديم. ويعتبر العهد القديم فـي التوراة المصدر الوحيد الذي من الممكـن الوصول إليه فـي هذا المجال.

وهناك عدد من دفعات الجزية يشار إليها في سجلات العهد القديم ومعظمها تعود إلى عهد الملك سليمان وربما كانت أرقاماً مضخمة. والحقيقة أن رقم ستمائة وست وستون مثقالاً من الذهب الذي كان مجموع الواردات المالية في عهد سليمان، إنما يظهر وكأنه رقم مثالي وليس من الواضح أن هذا الرقم هو رقم حقيقي معتمد عليه، إلا أنه قد ذكر لتمجيد عهد سليمان وليس له أية علاقة بالحقيقة بل هو رقم يدل على الدرجة القصوى. ومن الممكن أن يكون هذا الرقم يمثل أرباح حملة بحرية إلى أوفير وهي عبارة عن أربعمائة وعشرين مثقالاً ينبغي أن توزع على ثلاث سنوات أو ربما كانت إحدى الدفعات التي تبلغ مئة وعشرين مثقالاً أخذت من حيرام ملك صور أو من ملكة سبأ وهناك حقيقة مناقضة لهذه الفرضية وهي أن الرواية التوراتية تذكر أن الستمائة والست والستون مثقالاً وهي المدخول السنوي المالي لدى الملك سليمان بالإضافة إلى الأموال التي كان يجنيها من التجار ومن تجار التوابل ومن ملوك بلاد العرب ومن حكام البلاد. وهكذا يُضطر الكاتب في هذه الأيام إلى قبول الأرقام التوراتية بصفتها الترتيب الصحيح حتى ولو كانت تمثل الدرجة القصوى التي قلما توصل إليها أحد. وإنه من الممتع أن نُقدِّر ما يمكن لهذا أن يُقدر ما يسببه هذا من عبء على كاهل العبرانيين العادي، فقد كانت الموارد العبرانية المالية تأتي من تجارة الرقيق نظراً لأن الشواهد التوراتية تشير إلى أن سليمان قد حصل على العربات والخيول من مصر مقابل العبيد العبرانيين بينما أنتجت فلسطين قديماً سلعاً قليلة من هذا النوع عدا النحاس من منطقة سيناء وهو الذي كان مناسباً للتصدير. أما بقايا الموارد المالية فقد كانت تأتي من عمل السُّخرة. ومن الضرائب المباشرة، ومن الخطر أن نحاول ذكر تقدير دقيق عن حجم عدد السكان الذين وقع عليهم عبء هذه الإجراءات، لكن هناك دلالات عن كميات الطعام. التي استعملت في الأعياد التي كانت تدوم مدة أسبوع وقد أقيم هذا العيد بمناسبة بناء آشور ناصر بعل لعاصمته الجديدة كالخ. وتقدّر النقوش الآشورية عدد المواشي التي استهلكت في ذلك العيد بمقدار ٧٠,٠٠٠ مما يدل على أن نحو ٧٠٠,٠٠٠ قد شاركوا في ذلك العيد وقد قدّرت دفعات المملكة الشمالية في العبرانيين للملك تغلات بيلاسر الثالث بمقدار ألف مثقال من الذهب. وهذا يعني حوالي (ماين) واحد

وربع من الفضة عن كل عائلة. وحتى ولو اعتبرنا الأرقام الذي ذكرت عن موارد سليمان المالية كانت أرقاماً ضخمة وفيها مبالغة أو إذا اعتبرنا أنه وفي أثناء حكم سليمان كان الذهب أقل قيمة مما أصبح عليه في المستقبل بالنسبة للفضة فإن قيمة تلك الموارد المالية محسوبة بالفضة ينبغي قسمتها على ثلاثة وذلك بالنسبة لما كان يجنيه ملوك آشور. وهناك حقائق أخرى تشير إلى الاستنتاج العام الذي مفاده أن عبء الضرائب الآشورية على الشعب الفلسطيني أقل من متطلبات الملك سليمان. فقد كان عبء الضرائب في زمن سليمان ثقيلاً جداً بحيث أنه وبعد وفاته طلب سكان الجزء الشمالي من خليفته إنقاص عبء الضرائب عنهم. وعندما رُفض طلبهم قاموا بالعصيان بينما كانت الشروط التي عرضها القائد الآشوري الذي حاصر أورشليم في زمن حزقيال شروطاً مغرية بحيث أن عمدت السلطات العبرانية إلى إخفاء ذلك العرض عن الشعب.

وكانت الضرائب الحقيقية تشتمل على عدة أنواع. فإذا أظهر الثائرون خضوعهم بعد قيام آشور بعمليات عسكرية فقد كان يطلب منهم دفع دفعة تدعى تامارتو Tamartu والتي كانت نوعاً من الغرامة الحربية. وهناك وصف للهدايا التي قُدِّمت لملك آشور من قِبل حاكم موالٍ كان قد ساعده الآشوريون في حادث عصيان أو هجوم أجنبي عليه. وكانت هاتان الدفعتان تمثلان دفعات فريدة نُفذت في مناسبات خاصة إذ كان هناك بالإضافة إلى ذلك الجزية المفروضة (المانـاتو الآشورية) وكانت عبارة عن دفعة منتظمة ثابتة كان من المنتظر أن ترسلها الدولة التابعة لآشور إلى العاصمة سنوياً، وبالإضافة إلى الجزية المدفوعة من الدويلات المغلوبة والدويلات الموالية كان هناك ضرائب يدفعها الأفراد وهي المتعلقة بتأجير الأراضي فقد كانت جميع الأراضي في آشور مُلكاً للملك نظرياً. فكان الملك يهب كثيراً من الأراضي لرجال الجيش وبعض أفراد الموظفين المدنيين، إما بشكل مكافآت لقاء خدمات مخلصة أو لقاء القيام بواجبات خاصة. وقد كان بعض المقرَّبين من الشعب يمنحون إعفاءات من بعض المستحقات وهي مثبتة في وثائق وفيما يلي مثل من هذه الوثائق:

«أنا آشور بانيبال الملك العظيم، الملك القوي ملك العالم المتحضر في آشور ملك الأركان الأربعة من المعمورة والعامل الأكبر للخير، ملك العدالة، عاشق الحق، وهو الذي يسبب الازدهار لشعبه وهو الذي يطلب من موظفيه الذين يقفون أمامه أن يقفوا باحترام وينفذوا أوامره الملكية.

أما بالنسبة لبولتا وهو الموظف الكبير لدى آشور بانيبال ملك آشور، فهو رجل ذكي وحسن التصرّف وقلبه مخلص لسيده وقد وقف أمامي بكل احترام وقد تصرّف بكل كرامة في قصري وقد أشرف على حرسي الملكي.

وبعد التفكير وأخذ الرأي فقد قررت وأعلنت أن الحقول والبساتين والأشخاص فيها التي أصبحت من أملاكه وتحت حمايتي ولقد كتبت هذا ومهرته بختمي الملكي وسلمت الأمر إلى Bolta الموظف الكبير وأن لا تحبس أية ضرائب على تلك الأراضي وتلك البساتين ولا يجوز أخذ قشة منها وكذلك من أنسال المواشي ولا ينبغي أن تدفع عنها ملتزمات المعابد أو خدمات الجيش فهي مُعفاة من جميع الضرائب».

ومن وثائق من هذا النوع تستطيع أن نكوّن قائمة كاملة تمثل الدفعات المستحقة على مالك الأرض وكانت هذه تشمل ٢٥٪ ضرائب على الحبوب و١٠٪ ضرائب على التبن وضريبة (غير مؤكدة في الوقت الحاضر) على المواشي فضلاً عن الضرائب على النقود المدفوعة إلى المعبد وكان مالك الأرض معرّضاً لدفع غرامات عن أي محصول لديه ينقل بواسطة المياه.

وكانت المسؤولية الثانية الرئيسية المطلوبة من الموظفين الآشوريين هي حفظ النظام العام وهي موضوع لا يُعرف عنه إلا القليل وذلك نظراً لأنه ليس من الضروري أن نذكر غياب الشرق (بالمعنى الأوروبي الحديث) مع أنه كان هناك نوع من المراقبة لردع حدوث الجرائم والفوضى وذلك ضمن حدود المدن البابلية وأيضاً في آشور وقد كانت الاضطرابات الخطيرة تعالج من قِبَل فرع خاص من فروع الجيش وشأنها شأن جميع الجيوش حتى زمن اليونان فقد نظّم الكثير من الجيش الآشوري

على أسس قبلية فقد كانت إحدى القبائل مثلاً الإيتو Ittu تُجلب عادة إلى داخل المدينة لمعالجة الاضطرابات الخطيرة ولقد ذكرت هذه الفرق العسكرية بشكل إجراءات احتياطية بالنسبة إلى آشور بينما هناك رسالة رسمية تذكر إحدى المناسبات التي استعملت فيها تلك الفرق العسكرية في صيدا حيث قام المواطنون بالاضطرابات احتجاجاً على ضريبة فرضت على الأخشاب التي اعتادوا أن يقطعوها من جبال لبنان وفي أثناء هذا الصخب قتلوا جابي الضرائب.

ويجدر بنا هنا أن نذكر كلمة حول تنظيم الجيش الآشوري فقد كان كل رجل قادر من الممكن أن يُستدعى لحمل السلاح، إذا أعلن الإله الوطني الحرب أثناء الاحتفال بعيد رأس السنة الجديدة. وبصورة عملية كان الكثير من المواطنين الأغنياء يشترون الإعفاء من حمل الأسلحة الحربية. وبالإضافة إلى الميليشيا الوطنية.

هناك جيش مرابط يشمل الفرق العسكرية المناهضة للثورات والحراس الملكيين والنبلاء الصغار الذين كان لهم امتياز السير بجانب عربة الملك، وكانت الالتزامات بدعم الميليشيات غير محصورة بآشور بل بالولايات وكانت هذه الفرق تنظم طبقاً للجنسيات. ومن الجهة الأخرى كان الجيش الآشوري منظماً بشكل متخصص بكل وحدات من العربات الحربية، ثم الفرسان (انظر اللوحة ٤٧) ثم رماة السهام ثم الفرق العاصفة والمهندسين وما يقابله اليوم اسم فرق الخدمات. وكان حجم مثل هذه الوحدات والجيش بشكل عام غير معروف بالضبط، وقد كانت التقديرات الحديثة تذكر أن عدده كان يتراوح بين مائة ألف أو مئتي ألف جندي ولكن من الممكن الحصول على أرقام دقيقة إذا استطعنا فحص جميع قوائم الإحصاءات الرسمية الموجودة في المتاحف العامة في العالم وكانت هذه القوائم متوفّرة. وهذه القوائم تتألف من أسماء الأشخاص الموجودين في أماكن مختلفة وهم المطلوبون للخدمة العسكرية.

وكانت قيادة الفرق العسكرية الآشورية توكل إلى الوالي والحاكم نظراً لأن جميع الولاة كانوا من العسكريين. وعند العمليات العسكرية الرئيسية كانت القيادة توكل إلى الملك نفسه أو أحد الموظفين الكبار في الدولة إما الربا شاكيح

Rab Shakeh أو التارتان Tartan وكان هناك ضابط ذو رتبة عالية ولكنه كان أدنى رتبة من القائد العام وهو الراب موغي Rab Mugi وقد نُقِل هذا اللقب إلى الإدارة العسكرية البابلية ومن الممكن أن يشبه لقب راب ماغ التوراتي وكان اللقب المستخدم في الوحدات العسكرية الرئيسية هو الكيسرو Kisru وكان قائد الوحدة من هذا النوع يدعى زعيم الكيسرو وكان هناك ألقاب أقل قيمة من الكيسرو وهو (ضابط الخمسين) وهناك ألقاب أخرى فضلاً عن هذا.

الفترة البابلية الجديدة

لم يتسبب سقوط الحكم الآشوري الذي حدث ما بين عام ٦٢٥ وعام ٦١٢ق.م انهيار في الحكومات الآشورية خلال الإمبراطورية، ولكن الدولة الوريثة وهي دولة بابل قد أصبحت في مستوى عالٍ من القوة أثناء حكم نيبوتشادريزر. فقد حدثت تغيرات إدارية هامة في الإدارة البابلية، فقد أعطى انهيار الحكم الآشوري قوة حرّة لحكام الولايات، فقد استلم مقاليد الحكم أحد الولاة وهو نابو بولاسر ويجد المرء في الإمبراطورية البابلية الجديدة وجهاً أقل من وجوه السلطة المركزية المتمثلة بالملك وقد انحصر تاريخ بابل الداخلي أثناء القرن التالي، في النضال للحصول على السلطة ما بين الأسرة المالكة والمعابد الدينية ومؤسساتها كانت المعابد هي المنتصرة أخيراً.

ولقد عرفت حالة عدم مركزية السلطة في مدينة أوروك وهي إيريش التوراتية وهي على بعد حوالي مئة ميل جنوبي بابل. وكانت هذه المدينة أثناء سيطرة الإمبراطورية الآشورية تحت السيطرة الملكية لآشور. وقد كانت القرارات حول شؤون الأقنية وحول إمدادات المؤن وحول العمل ضد الاضطرابات التي تحصل من القبائل الكلدانية التي كانت تهاجم الأراضي التابعة لإيريش كل هذه الإجراءات كانت تأتي من العاصمة الآشورية وبالعكس، ففي الوثائق التي نمتلكها والتي تعود إلى الفترة البابلية الجديدة، فقد كانت السلطات الدينية في المعابد تمارس قسطاً كبيراً من الحكم الذاتي حاول الملوك البابليون ضده دون نجاح يُذكر. وأما

في آشور وبصورة نظرية وبصورة عملية كانت جميع الأراضي جزءاً من الممتلكات الملكية وكانت تمنح كإقطاعيات من الملك إلى المستأجرين الإقطاعيين وكان لهذا المفهوم وزنه ونفوذه في تلك الأجزاء من الإمبراطورية حيث سادت نظرية مختلفة أصلاً ففي زمن حمورابي حين توحّدت بابل وحدثت فيها إصلاحات إدارية تحت إشراف أسرة قوية قادرة، وعلى العموم وفي معظم الفترات كانت معظم الأراضي على مسافة عدة أميال حول بابل المدينة تنتمي وتخص المعابد عملياً وكانت نظرياً ملك الإله المحلي الذي كان يمتلكها منذ قبل وجود وبناء المدينة نفسها. وكان الفرق ينحصر ما بين المفهوم البابلي والآشوري لوضع الملك وقد ذكر هذا في مكان آخر في هذا الكتاب. وكما ذكرنا سابقاً بينما كانت سلطة الملك في آشور متمركزة في بداية حكمه بمدة ثلاثين عاماً وهكذا كان هو ممثل الآلهة دون تحديد. أما في بابل فكان على الملك أن يضع جميع صلاحياته ورموزه بخضوع أمام الإله كل عام وأن يخضع لأوامر الكاهن الأعظم وعليه أن يعلن عن نواياه الطيبة، وعندها فقد كان الملك يستلم إعادة تنصيبه واكتسابه السلطة الملكية. وهكذا وفي بابل بقي الملك وإلى النهاية التابع المطيع للإله. وهكذا لم يستطع أن يجمع أراضي المعبد ويجعلها تحت قبضته أو تحت سيطرة الملك بصورة دائمة، ولهذا السبب نجد أن رؤساء المعبد ومؤسساته في إيريش يهرعون للعمل باتخاذ أنشطة موجهة كانت بالنسبة لآشور أو حتى بالنسبة لبابل عندما كانت تحت حكم حمورابي وتحت حكم حاكم آشوري، كانت هذه السلطات التي اتخذها رؤساء المعابد إنما هي من امتيازات وصلاحيات الملك.

لقد كان إيتا وهو المعبد الرئيسي في إيريش يمتلك جميع الأراضي البابلية اعتباراً من أور في الجنوب حتى مرمى البصر في بابل في الشمال. كانت في بداية الإمبراطورية البابلية الجديدة، التي كان يسيطر عليها ثلاثة إداريين رئيسيين وهم الشاتومو Shatamu (وهو لقب يعني حارس الحدود) ثم الكيبو Qipu (القيّم) والكاتب. ومن الممكن أن الكيبو كان من الموظفين الملكيين ولكن من الواضح من تناقص الاهتمام بالنسبة للوثائق الصادرة في تلك الفترة أنه قد حُرِم من أية

سيطرة في شؤون المعبد. وهكذا فقد احتاج الملك أن يتخذ بعض الإجراءات لدعم نفوذ ممثليه المتناقصة. وقد كان للملك بعض الامتيازات بالنسبة إلى المعبد مثلاً حصّة في استيفاء بعض الموارد المالية بحيث أن نابو – نا – إيد وفي السنة الثالثة من حكمه في عام ٥٥٣ ق.م قد نصَّب ضابطين ملكيين (الضابط الملكي سيد المواعيد: والضابط الملكي المسؤول عن أموال الملك وهو المسؤول عن تأمين مثل هذه المصالح والحقيقة أنه مقابل سلطة الشاتامو. وأما في بابل فمن المعروف أن نابو – نا – إيد الذي كان لديه تابع أمين مثل شاتامو، لم يكن محبوباً مما ساعد على سقوطه:

لقد انحنى زيريا Zeria إلى الأسفل أمامه
وانحنى معه ريموت Rimut الزازاكو Zazaku
وقد نفّذا رغبة الملك وتعليماته وجعلا كلمته هي العليا
وأقسما على ذلك
وقالا إنهما لا يعترفان إلا بما يقوله الملك

وليس من المؤكد فيما إذا كان هناك وضع مماثل سائد في إيريش (فقد كان هناك أربعة أشخاص اتخذوا وظيفة الشاتامو في إينا أثناء حكم نابو – نا – إيد) ولكن يظهر أنه وفي أول سنة من حكمه كان يعتبر أن إدارة المعبد كافية وموثوقة بحيث ينبغي إعطاؤها وظيفة إدارة أراضي ملكية واسعة في لارسا وكانت هذه عبارة عن صفقة عمل نظراً لأن عقود الإيجار كانت تؤمَّن موارد مالية سنوية للملك.

هناك رواية كاملة عن جميع الأنشطة التي كان الشاتامو وزملاؤه وبصورة خاصة الضابط الملكي سيد المواعيد، مسؤولين عنها سوف تقدّم قائمة طويلة. ومن الممكن للمرء أن يلخص الوضع بالقول إن واجباتهم كانت تشمل استئجار وإيجار الأراضي وتأجير أراضي المعبد وتحديد الحقوق والواجبات بالنسبة إلى الأقنية، والإشراف على عمليات الري والمواصلات واستعمال وتوزيع المنتوجات من الأرض والأقنية، وحفظ الحسابات والسجلات.

كانت البضائع والمواد المصنوعة في أراضي المعابد مهما كانت وجهتها، إنما كانت تنقل إلى مستودع في إيريش وقد ساعدت شبكات القنوات المتقنة وسهلت نقل البضائع. ونفهم ذلك من رسالة تذكر التعليمات بخصوص إرسال مجموعة من الأغنام وفي هذه الرسالة يأمر الكاتب وربما كان هو الشاتامو بما يلي:

«إذا كانت الأرض مناسبة عندها اجلبوا هذه الأغنام وهي تمشي على أظلافها وإما إذا لم تكن الأرض مناسبة فاستعملوا السفن».

وقد كانت السفن المستعملة في معظم الأحوال من أملاك المعبد مع أنها كانت في بعض الأحوال مستأجرة من أصحاب السفن. وبينما كان من الممكن أن تفوَّض السفن من قبل واحد من الموظفين الكبار في المعبد، إلا أنه يبدو أنه حالما تصل السفن قرب إيريش كانت جميع السفن المخصصة بالمعبد تصبح تحت سلطة الشاتامو، ونجد من آن لآخر ذكراً للمسؤولين عن الأقنية، ويظهر أنهم كانوا من الضباط الملكيين المخوَّلين بأن يوقفوا السفن المارة وأن يتقاضوا الرسوم الواجب دفعها، ولكن السفن التابعة للمعبد كانت معفاة من الرسوم وذلك كما يظهر في الرسالة التالية:

«هذه رسالة من إيبينا وشمش إيديبا إلى الشاتامو سيدنا. إننا نصلي يومياً إلى الإله بعل ونابو وسيدة إيريش ونانا أن يطيل الإله عمر سيدنا ويهبه السعادة والصحة وطول العمر. لقد جلبنا معنا عشرين (بير) من التمر من القناة المدعوة نادين – أبلي. ولقد أوقفنا المسؤول عن الميناء في بيت – كاسير. إننا نرجو منك يا سيدي أن ترسل رسالة إلى المسؤول عن الميناء أن يسمح لنا بالمرور خلال الميناء... نصف شيكل من الفضة أجرة للسفينة وشيكل واحد من الفضة أجرة الرجل المستأجر يومياً. نرجو أن يعلم سيدنا أنه قد نص علينا ونحن محجوزون في الميناء منذ العشرين من الشهر. ونرجو أن ترسل مع الرسالة أحد الهوتارو وأن يبقى معنا على ظهر السفينة».

إن إينا وهو معبد إيريش القديم شأنه شأن الأديرة التي بُنيت بعد ذلك قد اعتبر أنه كان أكثر من خراب فقد كان مركزاً تجارياً ناجحاً. وقد كان جزء عظيم

من البضائع التي تصل إلى هناك يذهب مباشرة إلى مناطق بابل وربما إلى الخارج. وفي الرسائل الموجودة لدينا هناك مراجع تشير إلى التجارة، حيث كانت المواد التجارية ومنتوجات أراضي المعبد وبصورة عامة المنتوجات الزراعية تبادَل ببضائع مثل الفخار والشب والسمسم والمعادن والخشب أو القماش التي أتى بعضها من آسيا الصغرى. وقد كانت إيريش تنتج النبيذ للعاصمة، وهناك رسالة أخرى تذكر أن النبيذ قد أرسل لهم عن طريق سفينة كانت تحتوي على القطران.

من الممتع أن نجد أنه بينما كان شاتامو والضابط الملكي سيد المواعيد يتعاملان مع نفس المواد، فإن الأول كان عمله منحصراً في المعبد المركزي بينما الأخير كان يعمل في المدن ومستوطنات المعبد المتواجدة في أراضي المعبد بعيداً عن إيريش. وهذا ينطبق على وصفنا للضابط الملكي سيد المواعيد بكونه يمثل نوعاً من المفتشين الذين يرعَوْن مصالح الملك. إلا أن غياب هذا الضابط عن إيريش لا يُضير مصالح الملك داخل المعبد نفسه نظراً لأن تلك المصالح كانت مؤمّنة من قبل الضابط الملكي المسؤول عن خزنة الملك، الذي يبدو أنه كان متمركزاً هناك بشكل دائم. ولقد استطعنا أن نكشف عن المراسلات التي حصلت ما بين الشاتامو والضابط الملكي سيّد المواعيد وهذه تُظهر أنه كان يحدث أحياناً مصادمات وتعليقات لاذعة من قِبل أحدهما ضد الآخر. إلا أنه وعلى العموم فقد عمل هذان الضابطان معاً دون كثير من التصادم أو الاحتكاك.

إن ضباط المعبد المذكورين وخصوصاً الشاتامو والضابط الملكي سيد المواعيد كانوا أيضاً مسؤولين عن الضبط والتصرّف بالنسبة لألوف من الناس الذين كانوا يعملون في أراضي المعبد والذين كانت رُتُبَتهم تتراوح ما بين الضباط الكبار حتى أدنى أنواع العبيد. وبين هؤلاء كان الرجال الأحرار الذين يعملون بالإيجار كعمال لقاء أجور يومية. وكان هناك أيضاً طبقة كبيرة من خدم المعبد يعرفون باسم شرايك (المفرد شرايكو) والاسم الأخير معناه الشخص الموهوب. وكانوا من كلا الجنسين من الذين كُرِّسوا لخدمة الآلهة وكانوا لهذا عبيداً لها وكانت هذه الحالة وراثية. وفي إيريش كان الشرايك معروفين بوجود نجمة على شكل وشم وهو رمز

الآلهة عشتار ويوضع هذا الوشم على المعصم وتذكر هذه النجمة كشاهد حاسم في سجلات الدعاوي القضائية المتعلقة بالأحوال الشخصية لمختلف الأفراد، وهكذا هناك دعوى قضائية حيث جُلب شخص اسمه شماش – شم – إيدن إلى المحكمة بدعوى أنه كان ابن سليم عشتار ابنة هارشينا وهي شيركو مؤنثة تابعة لسيدة إيديش (وهي عشتار) وكانت الشهادة الرئيسية قد قدّمتها إحدى النساء كما يلي: **((إنني قد رأيت بالتأكيد النجمة وعلامات الوشم على ظهر يد هارشينانا وهي أمَة عمتي نادينا – آهو وهي جدة شمش – شم – ايدين والتي قبل أن تضع المولود، فقد كرَّست عمتي نادينا – آهو المولود لخدمة سيدة إيريش وهي عشتار.))**

لقد كانت حالة الشيركو مختلفة تماماً عن وضع الأمَة العادية وقد تقلّد بعض هؤلاء مناصب في غاية الأهمية والمسؤولية. فلم تنحصر خدماتهم في تنفيذ نوع خاص من الواجبات، بل كانوا يعملون في أصناف متعددة من الحِرَف والتجارة في داخل إيريش وفي أراضي المعبد. أما في أرضي المعبد فكانوا يخضعون لسلطة الضابط الملكي سيد المواعيد، الذي كان له علاقة شخصية بأراضي المعبد أكثر من الشاتامو ومن خلال الموظف اكتسب الملك بالتدريج الحقوق التي تجعله فوق الشرايك Shrike، وبالتأكيد وفي زمن الملك قوروش (٥٣٩-٥٢٩ق.م) فمع أن السيطرة اليومية بقيت من مسؤوليات ضباط المعبد إلا أن السيطرة النهائية للشرايك بَقِيت للحكومة المركزية.

إنه من الواضح من خلال الوثائق التي وصلت إلينا أن الملك في الفترة البابلية الجديدة كان له حصة مما يجبى من الأموال للمعبد والحقيقة وكما رأينا فقد نصَّب الملك ضباطاً ملكيين في العبد لهذا الغرض. ولا نستطيع اكتشاف المبالغ بالضبط التي كانت هي حصة الملك نظراً لأنه كان في ذلك الوقت أنواع مختلفة من ضرائب العُشر والضرائب العادية أو المكوس التي كانت المعابد تمثل الدافع والمدفوع له، وكانت حصة الملك تختلف بالنسبة لهؤلاء. ومن بين مواد الدخل الحكومي الذي كان من اختصاص المعبد فحسب، كانت ضريبة العشر على محاصيل التمور وصيد الأسماك والأجور التي تدفع بالمثل وليس نقداً، وعلى الأراضي

المزروعة بالذرة وضريبة المواشي والتعاليم الطقوسية التي يقدمها الفلاحون في زمن بعض الأعياد والواجبات الأخرى ذات الطبائع الغامضة. وكان هناك أيضاً ضرائب الموت التي كانت تُجبى من المواطنين الأغنياء والتي شأنها شأن المكوس الأخرى كانت تذهب إلى الملك بشكل كلي مع أن سُلطات المعابد كانت مسؤولة عن تقدير وجباية هذه المكوس. والحقيقة أنه يبدو أنه في أثناء القرن السادس ق.م عمل الملوك جاهدين للسيطرة وللحصول على حصص متزايدة من دَخل المكوس والضرائب. وبالتأكيد، فإن التغيرات الإدارية المذكورة عند بداية حكم نابو – نا - إيد كانت تعمل لمصلحة الملك فحسب، بينما يوحي لنا ذلك الحماس الذي لقيه الفاتحون الفُرس من قِبل المعابد وإداراتها عام ٥٣٩ ق.م. أن السياسة الملكية الداخلية كانت غير مقبولة، ومن جهة أخرى ينبغي أن لا ننسى أنه وعلى ضوء محاولة نابو – نا – إيد اغتصاب مركز رئيس مجمع الآلهة لمصلحة الإله سِن Sin بدلاً من مكان مردوخ. وأنّ عدم شعبية الملك كانت لأسباب دينية أكثر منها مادية.

رغم تلك الثروات الزراعية التابعة للمعابد، فإن الإمبراطورية البابلية الجديدة كانت في حالة من الثروة والفائدة تقلُّ عما كانت عليه الأوضاع في الإمبراطورية الآشورية السابقة على الأقل حتى حوالي عام ٦٥٠ق.م ويبدو أنه كان هناك سببان لهذا الاستنتاج الأول الذي يظهر واضحاً من العهد القديم والذي مفاده أنه مع أن آشور كانت في حالة التنظيم والاستعداد للحرب، إلا أنها لم تخصص جيشاً مرابطاً في ميدان القتال، بل إنها حددت حالة الجهد الواقعة على قوتها العسكرية عن طريق القيام بحملات تدوم مدة بضعة أشهر كل عام. ولقد عملت بابل من جهة أخرى عن طريق جيش مرابط كان يبقى منذ عهد نيبوتشارديزير في الميدان مدة عدة سنوات في الوقت الواحد، وذلك كما حدث أثناء حصار صور والسبب الرئيسي الآخر في انحطاط الإمبراطورية البابلية الجديدة اقتصادياً بالمقارنة مع آشور، هو إقفال الطرق التجارية في الشرق والشمال الشرقي. وابتداءً من زمن الملك آشور – ناصر – بعل فصاعداً كانت محاولات الملوك الآشوريين موجهة إلى إبقاء هذه الطرق التجارية مفتوحة للاتجاه نحو الأراضي الفارسية التي كانت صادراتها

هامة وحيوية بالنسبة للحضارة المتقدمة في وادي نهر دجلة والفرات، ومع أن المنطقة الأخيرة كانت منطقة خصبة بشكل ظاهري، إلا أنها كانت محرومة من المواد الخام ما عدا المنتجات الزراعية والبيتومين. وفي زمن الملوك البابليين الجدد كانت الطرق التجارية في الشرق والشمال الشرقي من البلاد في أيدي الميديين والفُرس الذين كانوا يتمتعون بقوى متزايدة في ذلك الوقت. ولذلك يبدو أنه من الممكن وكما قلنا سابقاً، فإن أنشطة نابو – نا – إيد التي دامت مدة عقد من الزمن في بلاد العرب، حيث قام في أثنائها باقتحام المنطقة جنوباً حتى المدينة، كانت هذه الأنشطة يدعمها محاولة السيطرة على الطرق التجارية الهامة مع جنوب بلاد العرب، وذلك كبديل لما كان قد خسره.

وفي ولايات الإمبراطورية البابلية الجديدة استمرت الخطوط العامة للسياسة الآشورية في العمل والتنفيذ. وهكذا فقد كانت عملية التهجير التي قام بها نيبوتشادريزير عام ٥٩٧ق.م – ٥٨٠ ق.م لبعض سكان مملكة يهوذا لم تكن سوى استمرار للسياسة المقررة التي رسمها آشور ناصر – بعل الثاني وتطورت زمن تغلات بيلاسر الثالث لمعالجة شؤون الأتباع المتمردين. وفي نفس الوقت عمد نيبوتشارديزير شأنه شأن الحكام الآشوريين في مثل تلك الظروف إلى إجراء بعض المحاولات الشديدة للاحتفاظ بالإدارة الوطنية المحلية الباقية، وبعد استسلام مدينة أورشليم عام ٥٩٧ق.م وتهجير الملك الشاب يواشيم مع نبلائه حاول نيبوتشارديزير إجراء حكم غير مباشر واستخدم صاديقا كأمير مُوالٍ لبابل، ولقد نجحت التجربة مدة تسع سنوات وحتى وبعد حصار أورشليم والاستيلاء عليها، نتيجة لاستسلام زديكا للفريق الموالي لمصر، ومع ذلك فلم ينبذ نيبوتشارديزير المحاولة لاستخدام شكل من الأشكال غير المباشرة للحكم غير المباشر. وهكذا فقد عيّن رجلاً يهودياً نبيلاً وهو غاداليا حاكماً. وبعد اغتيال غاداليا من قبل بعض المتطرفين من اليهود (كما نفعل نحن في القرن العشرين م وكما ندعو أولئك الذين يقومون بالقتل لأسباب سياسية) عند ذلك فقد أصبحت مملكة يهوذا خاضعة للحكم المباشر الإداري لبابل.

الفصل التاسع

التجارة والاقتصاد

التجارة الخارجية

لم تكن منطقة ما بين النهرين في بداية الفترة التاريخية وحدة اقتصادية مُغلقة وذلك لأن معلوماتنا حول التجارة الخارجية تعود على الأقل خلال ألفين من السنين من أزمنة ما قبل التاريخ إلى فترة جارمو. وجارمو هذه هي موقع على منحدرات التلال إلى الشرق من كركوك ويرجع تاريخها حسب تحليل الكربون ١٤ المشع إلى حوالي عام ٥٠٠٠ ق.م، ومع أن المكان الصحيح لهذه المستوطنة هو مسألة فيها خلافات لا بأس بها، إلا أن نقاط الاختلاف لا تؤثر على تقييم المعلومات التي يقدمها هذا المكان بالنسبة للاقتصاد الأساسي. وتدل الشواهد في علم الآثار أن تلك المستوطنة كانت ذات اكتفاء ذاتي اقتصادياً ولكن باستثناء سلعة واحدة وهي الحجر القاسي المدعو الأوبسيديان الذي مع أنه كان موجوداً في الموقع إلا أنه ليس من الممكن الحصول عليه من أي مصدر أقرب من أرمينيا وهي على بُعد عدة مئات من الأميال إلى الشمال وهذا يدل أنه قد وجدت تجارة ذات شكل قطري في تلك المنطقة مع أنه ليس لدينا في الوقت الحاضر أية معلومات بالنسبة للمظاهر التقنية عن تلك التجارة، وكان الافتراض العام هو أن حجر الأوبسيديان كان يحمله الباعة المتجولون.

وفي أثناء الألفي سنة التالية نجد في الثقافات التي تلت ثقافة جارمو زمنياً أنه مع أن القضايا الاقتصادية كانت لا تزال وحدات مغلقة إلا أن التجارة الإقليمية كانت تتوسع بالتدريج، ويظهر في ثقافة حسونة بالإضافة إلى الأوبسيديان الحجارة شبه الكريمة من الفيروز إلى المالاشيب، بينما أن وجود الأصداف في بعض المواقع في شمال منطقة ما بين النهرين، والذي أتى من الخليج العربي والذي يحمل الشهادة عن

وجود علاقات تجارية ما بين مستوطنات حسونة والشعوب في أقصى الجنوب، ومن الممكن أن يكون من إيران. وابتداءً من سمارة والفترات التالية فإن وجود بعض التعبيرات الفنية على الفخار التي قد استعيرت من بعض المواد كالسجاد والمنسوجات والسلاسل كل هذه ربما دلَّت على وجود التجارة في تلك السلع القابلة للتّلف. وبالنظر إلى تلك التقنيات الغير علمية للبحث عن الكنوز المستخدمة حتى وقت متأخر من قِبَل بعض علماء الآثار في الشرق الأدنى يتساءل المرء إذا كان المنقبون في الحفريات قد عجزوا عن التعرّف على مثل هذه الأشياء الميكروسكوبية الصغيرة التي من الممكن التعرف عليها عن طريق الفحص المجهري أو التحليل الكيميائي.

بدأ النحاس في الظهور في بعض مواقع ثقافة حلف إذ نستطيع تخمين مصدره. ولكن ولمّا لم تظهر أية خامات من النحاس في العراق، فإن هذا يثبت وجود تجارة قطرية داخلية كان يقوم بها بالنسبة للمعادن بعض الحدادين والمهتمين بشؤون المعادن. وفي فترة متأخرة جداً (حوالي ١٩٠٠ق.م) تُرى صور الحدادين في صور زيتية في القبور المصرية، وهي تظهر جماعة صغيرة من العاملين بالمعادن كانت حميرهم تحمل الكور للنفخ والمعدات الأخرى. أما توزيع مناطق صنع الفخار في ثقافة حلف فهي تمتد عبر المنطقة المحددة غرباً بالساحل السوري الشمالي ومرسين وكليكيا وشمالاً ببحيرة فان وجنوباً بسمارة. وهذا يدل على وجود روابط ثقافية واسعة الانتشار وعلى إمكانية وجود علاقات تجارية واسعة الانتشار. وليس هناك من رأي طبعاً يفيد أن الفخار نفسه كان منشأ صنعه وتوزيعه موقع واحد مُعين. ويشير الافتقار إلى شواهد على وجود ثقافة حلف في إيران إلى غياب المبادلات التجارية ما بين إيران ومنطقة ما بين النهرين.

لقد كانت أولى الثقافات المرموقة في جنوب العراق أي ثقافة عُبيد تمتلك بعض العلاقات المشتركة المحدودة مع إيران مع أن تلك العلاقات لم تكن ذات قوة تتطلب افتراض وجود تجارة عالية التنظيم، ولقد اقترح أن استعمال الأدوات الصلصالية المؤسسة على أشكال معدنية، وهي إحدى صفات ثقافة عبيد المميزة – إنما يدل على عجز الشعب ذي العلاقة عن تنظيم تجارة النحاس بعد أن أقاموا في منطقة خالية

من الخامات التي كانوا يمتلكونها في مساكنهم القديمة (ومن المحتمل أن تكون إيران) ويستعملونها ، فقد كان فخار عبيد شأن فخار صلف موجوداً في مناطق بعيدة كمناطق سوريا الشمالية وكذلك فقد كان الخشب ضرورياً لبناء المعابد في فترة عبيد ، وهذا يدل أن التجارة ما بين سوريا ومنطقة ما بين النهرين كانت قد بدأت على مقياس واسع. فقد كان الخشب يُجرّ من لبنان إلى كركميش برّاً ، وبعدها يُطوَّف فوق نهر الفرات. ومن المؤكد أنه قد وُجدت طرق أخرى مستعملة في ذلك الوقت فقد وجدت قطع من الفخار تعود إلى منطقة ألالا (قرب خليج الاسكندرونة) وقد أنتجت وهي متأثرة بصناعة الفخار في كل من حلف وعبيد كذلك في مرسين وكليكيا ، ولا نعلم إذا كان هذا شاهداً على وجود مواصلات بحرية أم أن المواصلات كانت تجري براً.

وبالنسبة للفترة التي تلت عام ٣٠٠٠ ق.م، هناك شواهد أثرية مرموقة عن وجود علاقات ثقافية ما بين مصر وسومر أو بالتحديد عن وجود تأثير للنفوذ السومري على مصر وذلك بالنسبة للعلاقات التجارية بالتأكيد ولكن هذه العلاقات ليست من اختصاص هذا الكتاب. وبالنسبة للتفاصيل يمكن للقارئ الرجوع إلى كتب السير هـ. فرانكفورت في كتابه مولد الحضارة في الشرق الأدنى. ومع ذلك فإن الاقتراح المذكور أعلاه وهو أن العلاقات التجارية المذكورة قد حدثت في شمال بلاد العرب وفي الصومال إنما تستحق الشرح. فالنظرية أصلاً تعتمد على بعض الفرضيات بالنسبة لاستعمال البخور. إذ هناك عنصران من عناصر البخور هما من منتوجات عدة أصناف من الأشجار الموجودة في جنوب بلاد العرب والصومال وشمال السودان وبلاد الحبشة. هذا وإن مجرد ذكر هذين الصنفين في النصوص المصرية التي تعود إلى الأسرة الخامسة فصاعداً، إنما يشكل فكرة عن وجود التجارة ما بين مصر والصومال وجنوب بلاد العرب ابتداءً من منتصف الألف الثالث مع أنه من المشكوك به أن السومريين قد استعملوا هذين النوعين من البخور المشار إليهما إذ لا يمكننا أن نعتبر أن الرحلات البحرية السومرية إلى الصومال أو إلى عدن في أوائل الألف الثالث، إلا أنها مجرّد فرضيات، ولكن هناك بعض الشواهد الأثرية تدل على وجود

علاقات تجارية للسومريين شرقاً تعود إلى حوالي عام ٢٨٠٠ق.م نظراً لوجود أوجه شبه واضحة ما بين إحدى الثقافات القديمة التي وجدت في جنوب بلوخستان المعروفة باسم ثقافة كولي Kulli وما بين ثقافة عيلام وثقافة منطقة ما بين النهرين. فلقد وجدت بعض المواضيع الفنية على الأواني الفخارية القادمة من سوزة ونهر ديالا وكذلك الأواني التي تحتوي على المراهم ومعها منحوتات من الزينة من نوع وُجد في جنوب بلوخستان، كل هذه قد وجدت في عدد من المواقع التابعة لنفس الفترة في منطقة ما بين النهرين، بما فيها القبور الملكية في أور وكأس منحوتة من الصنف السومري من ديالا وختم أسطواني من أور وتماثيل صغيرة من سوزة، ويظهر فيها جميعاً عجول هندية ذات سنام، مما يدل على وجود تجار من الهند في منطقة ما بين النهرين وهؤلاء كانوا يتطلبون وجود مراسم لديانتهم. ونظراً لعدم وجود أي أثر للثقافة (الكولية) على طول الطرق التجارية البرية عبر إيران، فإن هذه الصلات التجارية كانت بحرية.

وبينما كانت الرحلات البحرية من سومر إلى بلاد الصومال أو عدن في فترة جمدت نصر المتأخرة، هي رحلات افتراضية إلا أنه وبعد قرنين أو ثلاثة قرون حدثت رحلات بحرية تجارية من سومر إلى الأماكن البعيدة عن طريق الخليج العربي وقد ذكرت ثلاثة أمكنة تجارية في النقوش التي تعود إلى منتصف الألف الثالث فصاعداً. وهذه الأماكن هي تلمون وماغان، وميلوحا. ويوافق الجميع أن تلمون هي البحرين، أما ماغان فيقال إنها ساحل عمان وليس من المؤكد معرفة المنطقة التي وجدت فيها ميلوحا. وتحدد النظريات الأساسية موقعها إما على ساحل بلوخستان أو شمال غرب الهند، أو في مكان ما في جنوب بلاد العرب أو على سواحل الصومال. ولقد كانت هناك علاقات تجارية ما بين هذه الأماكن وبابل فلقد استطاع سرجون ملك أغادي (حوالي ٢٣٧٠ق.م) أن يشير بكل فخر إلى وجود بعض السفن التي كانت تتاجر مع ميلوحا وماغان، وتلمون وكانت ترسو خارج عاصمته مع أنه ليس هناك من شواهد أو دلالات أن سرجون قد أشرف على هذه التجارة أو بعض الأجانب. وبعد زمن سرجون بوقتٍ قصير فُقِدت الاتصالات المباشرة مع ميلوحا ولكن التجارة

المباشرة مع ماغان قد استمرت حتى نهاية الأسرة الثالثة في أور (حوالي ٢٠٠٠ق.م) وذلك لأن لدينا نصوصاً تعود إلى تلك الفترة تقول إن رجلاً قد أرسلته سلطات معبد نانا (وهو إله القمر في أور) ومعه كميات كبيرة من الألبسة والصوف والزيت والجلود وأخذها في قارب إلى ماغان ليشتري بأثمانها النحاس وكان ذلك عن طريق المقايضة وكانت البضائع المقايض عليها من ماغان لا تشمل (وكما نعلم من قوائم البضائع الواردة إلى المعبد) النحاس وهو المادة الرئيسية فحسب، بل الخزف والأحجار الكريمة والعاج والخضروات التي تدعى بصل ماغان. وبالنسبة لمصدر العاج الحقيقي في ذلك الوقت فمن الممتع أن نتذكر أن المواقع في منطقة ما بين النهرين والتي تعود إلى الفترة الواقعة ما بين ٢٣٧٠ و٢٠٠٠ق.م، قد وجد فيها عدد من الأختام المنحوتة تشبه النوع الذي وجد في حارابا Harapa في وادي نهر الهندوس بينما وجدت الأختام الأسطوانية (التي هي وبصورة عامة من ميزات مصنوعات منطقة ما بين النهرين) في موهنجودارو Mohenjudaro (وأيضاً في وادي نهر الهندوس) وبعد سقوط البيروقراطية العالية التنظيم للأسرة الثالثة في أور عندها فُقِد الاتصال المباشر مع ماغان وفي القرون التالية كانت تلمون هي المحطة التجارية الرئيسية داخل منطقة الخليج العربي .

إن أقدم التسجيلات المعروفة التي تشير إلى تلمون ما هي إلا وثائق إدارية تعود إلى ٢٥٠٠-٢٤٠٠ق.م، وهذه تظهر أن التجارة المنتظمة كانت موجودة في ذلك الوقت ما بين سومر وتلمون حيث كان أهم الصادرات هناك التمور. ولقد ظهر أيضاً أن بعض النباتات والحيوانات التي كانت قد تأقلمت في بابل قد وصلت إلى البلاد عن طريق استيرادها من خلال تلمون، وتذكر النصوص الأخرى التي تعود إلى الألف الثالث وأوائل الألف الثاني بعض الواردات من البضائع التلمونية التي لم تكن من منتوجات الجزيرة نفسها بل من بلدان بعيدة. والبضائع المذكورة هي النحاس والحجارة الكريمة والعاج وقد وُجدت عيّنات من هذه المواد في الحفريات من العصر البرونزي في موقع البحرين، وكانت تلمون سوقاً تجارياً هاماً ابتداءً من أواخر الألف الثالث ق.م على الأقل. تأتي معظم التفاصيل التي نمتلكها حول هذه التجارة البحرية

مع تلمون من زمن أسرة لارسا (حوالي ١٩٠٠ق.م) وفي تلك الفترة كانت مدينة أور الميناء الرئيسي للدخول إلى منطقة ما بين النهرين ولقد وجدت مجموعة من الألواح في هذه المدينة وهي تتعلق بالتجارة في تلمون. هذا وإن الواردات الرئيسية المذكورة من تلمون كانت النحاس واللازورد واللؤلؤ وبعض أنواع الخشب. وليس من الضروري افتراض أن جميع تلك البضائع كانت من مكان واحد نظراً لأن تلمون كانت تؤلف مركز التجمع للتجار القادمين من أماكن متعددة وكانت تعتبر جزيرة مقدسة تخلو من النزاعات والخصومات. وأما العاج فقد كان يصل إلى تلمون من مصر أو من وادي الهندوس ولكن الإشارة إلى الأمشاط العاجية يُرجّح أنها وجدت في وادي الهندوس.

أما الصادرات الرئيسية من سومر إلى تلمون فقد كانت الملابس والزيت الذي كانت تقدمه نُخب من الرأسماليين وقد عقدت العقود وهي تذكر قيمة البضائع بالفضة وتذكر قيمة الفضة المتفق عليها التي ينبغي على التجار أن يجلبوها وهناك نص أحد العقود التجارية.

٢ مينا من الفضة كقيمة لـ ٥ غور من الزيت و٣٠ رداء وهذه قد استلفها لوميشلام - تا - أي ونيغ - سي - سا - نابا لاستعمالها كرأسمال للشراكة وذلك من أور – نينمار – كا للإنفاق على حملة إلى تلمون لشراء النحاس من هناك. وبعد نهاية الرحلة بالسلامة فإن الدائن سوف لا يعترف بأية مسؤولية عن الخسائر التجارية التي تحدث للمدينين الذين قد وافقوا على إرضاء أور – نينمار – كا بإعطائه ٤ مينا من النحاس لقاء كل شيكل من الفضة كثمن معادل.

إن تمويل الرأسماليين للحملات التجارية هو أحد الفروق والاختلافات عن التجارة البحرية التي كانت تحدث قبل مئتين من السنين التي كان المموِّل فيها ليس هو الرأسمالي بل المعبد ، وكانت المنظمة التجارية والتي تتعامل مع تلمون تشابه تلك التجارة بواسطة القوافل مع كابا دوكيا. ولكن هناك بعض الفروق الهامة التي كانت تُحبّذ التجارة البحرية ولا تحبّذ التجارة البرية بواسطة القوافل نظراً لوفرة الأرباح بالنسبة للتجارة البحرية. ففي التجارة بواسطة القوافل كان الممول يتسلم

ثلثي الأرباح على أن تكون العائدات مقدارها في الحد الأدنى خمسون بالمئة من النفقات بالإضافة إلى عدم تعرض رأسماله للخطر. ومن الجهة الأخرى فإنه، وبالنسبة إلى التجارة البحرية إلى تلمون، كان الممول يتقاضى نسبة عائدات ثابتة بدلاً من نسبة الأرباح. فإذا أصبح المستثمر شريكاً تاماً في الصفقة فإنه يشترك في الربح والخسارة، وإن سبب كون الأحوال مناسبة للتاجر البحري أكثر مما كان يصيب التاجر البري، فإن ذلك يعود إلى أن التجارة مع تلمون كانت عبارة عن (تجارة مُغلقة) وكان القبول والاشتراك فيها أمراً صعباً يقضي بوجود مهارة تقنية تقتضي وجود علاقات رسمية مع التجار في الجزيرة قبل الولوج في تلك التجارة.

ولا يعرف إلا القليل عن طبيعة التجارة بالنحاس نظراً لأن إحدى النصوص تذكر ثلاثة عشر ألف مينا (وهذا يعادل ثمانية أطنان من النحاس) وكان المعدن يأتي بشكل قوالب تقدر الواحدة بأربعة مثقالات أي بشكل قطع يستطيع العامل العادي أن يحملها. وقد كانت السلطات الإدارية في سومر تجبي جمارك عالية على البضائع المستوردة.

وبعد حوالي عام ١٨٠٠ق.م ومع أن العلاقات التجارية مع تلمون ظلت مستمرة إلا أن الجزيرة قد توقفت عن كونها سوقاً تجارياً عالمياً وذلك لمدة حوالي ألف عام. وفي أثناء هذا الزمن كانت صادرات تلمون محصورة بالمنتوجات الزراعية، وبالنسبة لنقص أهمية تلمون كمركز تجاري فإن التغيرات العنيفة في تلك المنطقة بعد عام ٢٠٠٠ق.م بقليل كانت لها علاقة بذلك الحدث.

لدينا بعض الشواهد حول الجانب التقني للتجارة البحرية إذ تظهر أن السفن السومرية والبابلية كانت وبالنسبة للمقاييس الحديثة صغيرة جداً. وكانت السجلات القديمة تذكر الحجم بصفة السعة من نوع معين من الحبوب فكانت السفينة السومرية في الألف الثالث قبل الميلاد تحمل خمسة وعشرين طناً وأما السفن البابلية في الألف الأول قبل الميلاد فكانت تحمل حوالي أربعين طناً وإذا حسبنا الحمولة من النحاس فإن السفينة تزن أكثر من ذلك وإذا حكمنا على تلك السفن من نموذج وجد في المقابر الملكية في أور (انظر اللوحة ٢ب) تصبح من نفس حجم

السفن العراقية الحديثة المعروفة باسم بيليم (ملك الحيتان) وكانت مُجَهزة بصاري وشراع ومجذاف قوي يستعمل كدفة. ولا يزال هناك على نهر دجلة الطوف من نوع الكيليك Kelek والمؤلف من منصة خشبية تدعمها جلود منفوخة ولا تزال موجودة على دجلة بشكل زورق صغير يدعى قوفى Quffa وهو لا يزال مستعملاً في العراق في النقل المائي على نهري دجلة والفرات، وقد استمرت هذه التجارة الداخلية على النهرين خلال فترة التاريخ البابلي ولدينا مراجع لا تُعد ولا تحصى تُظهر نقل المواد الغذائية من مدينة إلى أخرى، وهذه المواد تشمل مواد البناء، والمعادن والصوف والجلد وهلمَّ جر وفي نمرود التي كانت عاصمة آشور في أوائل الألف الأول ق.م، وجد سور للميناء كبير الحجم مؤلف من قطع كبيرة من الحجر الكلسي وهذا الميناء كان يستخدم في النقل المائي على نهر دجلة.

علينا العودة إلى الألف الثالث ق.م وذكر التجارة البرية في منطقة ما بين النهرين وقد تمت هذه التجارة قبل فجر التاريخ ولدينا مراجع تثبت ذلك وخصوصاً مع إيران وفي الأدب السومري فهي تعكس بكل دقة الأحوال الاجتماعية حوالي عام ٢٧٠٠ق.م. وفي مثل هذه النصوص نرى وصفاً لتجهيز وإقلاع قافلة تتألف من الحمير تحمل أكياساً من الشعير من إحدى المدن السومرية إلى موقع جبلي في لوريستان Luristan هذا وإن ظروف هذه الرحلة التجارية والأحوال الاجتماعية التي حدثت فيها قد وصفناها سابقاً. ونحن نجد بعض السجلات المعاصرة التي تذكر مثل هذه التجارة، إما بشكل إيصالات أو بشكل نقوش تعود لحكام الدويلات - المدن ويشير عدد من هؤلاء الحكام إلى جلب الأخشاب وإنزالها من الجبال ويشير حكام آخرون إلى فرض الجزية على الشعوب القاطنة في المنطقة الواقعة من الخليج العربي إلى حوض البحر الأبيض المتوسط ولكن من المحتمل أن كل ما كان يفعله هؤلاء الحكام هو تأمين التجارة وعلاقاتها خلال المنطقة بدلاً من تأمين السيطرة السياسية.

يقدم لنا سرجون ملك أغادي حوالي ٢٣٧٠ق.م وهو الذي أسس أول أسرة سامية في منطقة ما بين النهرين، يقدم لنا إحدى المشكلات الخاصة. إذ تشير النصوص

والنقوش المعاصرة أنه قد ادّعى السيطرة على لبنان وسلسلة جبال أمانوس التي تدعى غابة أشجار الأرز، وكذلك السيطرة على جبال الفضة، وهناك أحد التقاليد الأدبية التي تعزو لسرجون إقامة إمبراطورية واسعة النطاق تجارياً وليس من المستحيل أن ادعاءه العريض له ما يبرّره، فقد كان هناك قبل نهاية الألف الثالث بعض المستعمرات التجارية ابتداءً من منطقة ما بين النهرين إلى آسيا الصغرى وحتى ربما كريت. وفي تل براك الواقعة على الطريق من أغادي إلى آسيا الصغرى كان هناك قصر محصّن بناه حفيد سرجون وقد اكتشف حديثاً وكان الغرض منه حراسة الطريق التجارية. بالنسبة للإدعاء بالسيطرة على كريت فإن هناك بعض اللقيات من الفخار تدل أنه كان هناك صلات ما بين بحر إيجه وبلاد ما بين النهرين ابتداءً من الألف الرابع ق.م. وكانت هذه الصلات قوية جداً في أوائل الألف الثاني ق.م. وذلك نظراً لأنه قد وجدت الأختام الأسطوانية البابلية في كريت نفسها. وفوق ذلك فقد وجد أن بعض اللغات القديمة التي استعملت في بعض النقوش في كريت ابتداءً من الألف الثاني ق.م، التي لم تكن سامية فحسب، بل كانت أكادية سامية وهذه اللغة تعرف باسم اللغة المناوية القسم A وإن النقوش التي استخدمت فيها تلك اللغة يرجع تاريخها إلى ما بين القرن السابع عشر والقرن الخامس عشر ق.م. وفوق ذلك فإن الزينة الموجودة على المزهريات الكريتية كانت تمثل مشهداً من مشاهد الحصاد وكان الحصادون في عهدة موظف كان يرتدي ألبسة من منطقة ما بين النهرين فإذا أخذنا هذه الحقائق بعين الاعتبار، فمن المعقول أن يكون هناك بعض التجار من منطقة ما بين النهرين متواجدين في منطقة بحر إيجة في أوائل الألف الثاني وربما حتى أواخر الألف الثالث ق.م. ولقد كان بحر إيجة خلال قسم كبير من الألف الثاني ق.م مسرحاً لنشاط تجاري عظيم قد لوحظ فيما بين عام ١٤٠٠-١٢٥٠ق.م وفي ذلك الوقت كانت كريت نفسها مهتمة بإقامة الطرق الجيدة الصالحة لحركة العربات ذات العجلات مع وجود مراكز للهداية والحراسة فيها وقد عُرف فيها حرفاً مشيد واحد على الأقل وكانت السفن الصغيرة ترسو على الشواطئ عادة.

وبالنسبة لآسيا الصغرى فقد لوحظ إمكانية وجود مستعمرات تخص التجار القادمين من منطقة ما بين النهرين قبل نهاية الألف الثالث ق.م، وابتداءً من عام ١٩٠٠ق.م فصاعداً، فقد أصبحت القضية بشكل لا يتطرق إليه الشك وذلك ما تشهد به محفوظات المستعمرة العائدة لتجار كولتيب Kultep (كانيس القديمة). وهذه تثبت وجود القوافل التجارية الواسعة المستمرة ما بين كانيس وآشور ولقد ساعدت الوثائق العلماء وخصوصاً الأستاذ ج. ليوي J. Lewy في معالجة النظام التجاري الاقتصادي بالتفصيل وكانت التجارة تتم عن طريق قوافل الحمير وكانت القافلة تتألف من مئتي حيوان يقطع من اثني عشر إلى خمسة عشر ميلاً في الساعة، ولكن وبالنسبة لبعض المدن في آسيا الصغرى كانت التجارة تتم عن طريق العربات وهذا يدل على وجود شكل من أشكال أنظمة الطرق. وكان قوّاد القوافل يحفظون مذكرات تسجّل النفقات خلال الطريق وحسابها في نهاية الرحلة. وكان الصادر الرئيسي من آسيا الصغرى هو النحاس ونجد أن هناك ذكراً لكميات من النحاس تبلغ خمسة أطنان وبالنسبة للبضائع التي تُرسل من آشور كانت هذه تتألف من المنسوجات والرصاص أو خامات الرّصاص. وقد وجدت خامات الرصاص التي تحتوي كميات من الفضة في آشور قرب أصول نهر الراب الأعلى وفي جودي داغ وقد قيل إن هذه الخامات كانت تصدّر إلى آسيا الصغرى، حيث كان يُصهْر حين تتوفر كميات كبيرة من الوقود، وقد ذكر عن قافلة تحمل أحد عشر طناً من الرصاص وقد وجدت قطع من الرصاص في أساسات أحد المعابد في آشور، وقد صُدّر إلى آسيا الصغرى أيضاً زيت الزيتون والجلود وجزّات الغنم والصوف بمقادير تتراوح ما بين طن واحد وطنين وكانت السلعة التي يتاجر بها بكميات صغيرة هي القصدير وذلك في آسيا الصغرى وكانت أسعاره تزيد خمسين مرة عن سعر الفضة.

وليس لدينا أية معلومات وافية عن قضية الأمن أثناء تلك الرحلات فقد كان التجار معرضين للمخاطر من عدة أنواع وقد تطرّقت شرائع حمورابي إلى بعض هذه المخاطر مثلاً الخسائر الناتجة عن اللصوص والأعمال الإلهية، وتذكر بعض الشواهد من ماري أن القوافل المارة خلال البلدان الأجنبية كانت تدفع بعض الرسوم

للموظفين المحليين وبعدها يحق لهم استعمال الآبار وحماية الحاكم المحلي ونجد من فترة متأخرة من رسالة ملكية إلى أحد موظفي الجمارك يخوّل أحد الرجال الإعفاء من الرسوم المتوجبة على قافلة الحمير الخاصة بذلك الرجل. وفيما بعد عملت القوانين الحثية والعبرية واليونانية شروطاً خاصة بقصد حماية التاجر الأجنبي وهذا يعود إلى فترات أقدم بكثير.

لقد ذكر المؤرخ الأمريكي كارل بولاني Karl Polany في كتابه (التجارة والأسواق في الإمبراطوريات القديمة، ١٩٥٧) أن اقتصاد منطقة ما بين النهرين لم يكن من اقتصادات السوق وأنه قد حاول إعادة تفسير التجارة في منطقة كابادوكيا بهذا المعنى. ونعني باقتصاد السوق الاقتصاد الذي تثبت به الأسعار مباشرة عن طريق تبادل العرض والطلب. ويقول إن هذا الوضع لم يكن وافياً بالغرض في منطقة ما بين النهرين القديمة، وإن الأسعار كانت تخضع لسلطة العادات والقوانين أو الدعاية. وهكذا فلم يكسب التجار البابليون والآشوريون أرباحهم (طبقاً لهذه النظرية) من الفروق بالأسعار وهكذا أصبحت التجارة خالية من المخاطر، وهكذا وطبقاً لنظرية الأستاذ بولاني فإن التجار الآشوريين في كابادوكيا كانوا مجرّد وكلاء أو عملاء يحصلون على مراكزهم عن طريق الوراثة أو التحري أو التعيين. وهم مسؤولون بالدرجة الأولى عن تشجيع إنتاج النحاس والتأكيد لأهل البلاد أنه وعلى الأقل بالنسبة للمقادير التي يشتهيها الشعب من البضائع المعادلة سوف تصله بشكل كميات محددة وثانيها بالنسبة لنقل النحاس من مكان لآخر. وطبقاً لوجهة نظر الأستاذ بولاني كانت جميع الالتزامات مسجلة من قبل السلطات صاحبة العلاقة التي كانت هذه السلطات تكفلها. وهذا ما يفسر الافتقار إلى الإشارة إلى الأرباح والخسائر في العمل ويقال إنه يفسر لماذا لا يحدث أي إهمال أو تخلّف عن دفع الديون حيث إنه يبدو أن السبب هو أن سلطات حفظ الحسابات يمكن أن تتقاضى الكميات المتوجبة على المتخلّف من المبالغ المقدمة للفريق الآخر. ومن المؤكد أن التجارة الكابادوكية وأولئك الذين يعملون فيها كانوا تابعين لسيطرة السلطات البلدية أو الوطنية في آشور ولكن مجرّد الاعتراف

بهذه الحقيقة لا يجبر المرء على قبول وجهة نظر الأستاذ بولاني ككل. إذ إن هناك صعوبة تواجه نظرية بولاني حول تجارة منطقة ما بين النهرين وهي أنه لقد حدثت في بابل إن لم يكن في كابادوكيا أن الغطرسة والتخلف عن دفع الديون كانت تحدث وأن هذه المصائب المادية والمالية كانت هي إحدى الأسباب الرئيسية التي كانت توقع بالرجال الأحرار في العبودية. وهناك اعتراض آخر وهو أن تثبيت الأسعار عن طريق تفاعل قضية العرض والطلب قد حدثت بالتأكيد في منطقة ما بين النهرين، وقد عرفت حالات لحساب الأسعار في زمن الحرب أو زمن المجاعات، وعندما هزم آشور بانيبال ونهب القبائل العربية فقد ذكر أن الجمال كانت كثيرة جداً، بحيث هبط سعر الجمل إلى شيكل ونصف. ولهذه الأسباب فإن نظرية الأستاذ بولاني ومع أنها تضع بعض مظاهر التجارة الكابادوكية في منظور أوضح، إلا أنها غير مقبولة كوصفٍ لاقتصاد منطقة ما بين النهرين ككل.

وبعد عام ١٨٠٠ق.م بوقت قصير انتهت تلك الترتيبات التجارية ما بين آسيا الصغرى وقارة آسيا لأسباب لاتزال غير واضحة، ولكن من المحتمل أنها تعود إلى تلك التحركات العرقية في الأناضول وبعد هذا التاريخ بوقت قصير تبوّأ الحثيون مكان الصدارة، إذ إننا نجد بعض الشواهد من الوثائق الحثية تشير إلى أن الحثيين خلال الألف الثاني ق.م، كان لهم بعض العلاقات ليس مع منطقة ما بين النهرين فحسب، بل مع مصر ومع أحيي ياوا AhhiYawa، والأخيرة تمثل المملكة الموسينية Mycenaean الواقعة إما في الجزء الغربي من آسيا الصغرى أو رودس أو بلاد اليونان نفسها، ومن الممكن أن تعود هذه الكلمة إلى الكلمة اليونانية أشايانس Achaeans. وكان النحاس والفضة ينتجان بكميات كبيرة بينما وفي النصف الثاني من الألف الثاني أصبح الحثيون يمتلكون احتكار الحديد، والذي كان لا يزال مصدراً نادراً. وإذا حكمنا عن طريق تلك الرسالة الملكية التي يعتذر فيها الملك الحثي إلى ملك آشور لعجزه عن إرسال الحديد اللازم، فإننا نستنتج أن تصدير الحديد كان احتكاراً ملكياً لملك الحثيين. ولقد شككت بعض المدارس في قيمة هذا الاستنتاج. ولكن كان هناك بالتأكيد شواهد تدل على أن إنتاج

وتصدير المعادن بوجه خاص وهي ذات الأهمية العسكرية كان غالباً تحت السيطرة المطلقة للدولة وإن أفضل مثال معروف هو ما له علاقة بالفلسطينيين الذين عندما سيطروا على فلسطين في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد كانوا لا يسمحون لأي شخص غير فلسطيني أن يعمل كحداد. وفي القرن التاسع عشر قبل الميلاد وبالنسبة للمستوطنات الآشورية في كابادوكيا فقد كان تصدير القصدير ممنوعاً وغير قانوني. بينما نجد أن ذكر وجود مفتش ومراقب البرونز يوحي بأن تجارة البرونز كانت مراقبة بشكل شديد.

ومن المناسب هنا أن نشير إلى الدور الذي لعبته سوريا في التجارة الدولية نظراً لأن سوريا كانت وفي ذلك الزمن تدور في الفلك الحثي بينما كانت سوريا الجنوبية تشكل نهاية لإحدى الطرق التجارية الرئيسية في منطقة ما بين النهرين. ولقد كُنا لاحظنا أن مقاطعة Alalah ألالاه كانت خاتمة الطرق التجارية من كل من جنوب منطقة ما بين النهرين وكليكيا ابتداءً من الألف الرابع وكان للألالاه دور سياسي متقلب بعد أن أصبحت تحت سيادة مصر أولاً ثم تحت سيادة شمال منطقة ما بين النهرين والحثيين. ولكن هذه الحقيقة ما هي إلا دلالة على أهميتها التجارية. وفيما بين عام ١٦٠٠ و١٤٠٠ ق.م هناك شاهد من الفخار يدل على وجود التجارة مع قبرص وفلسطين ونوزي (شرق آشور) ومع بحر إيجة على العموم، ولكن الصورة الأكثر إشراقاً للتجارة السورية تظهر لنا من مصادر مصرية. وهذه تمثل صورة زيتية أخذت من قبر محافظ طيبة حوالي عام ١٤٠٠ق.م وهي تظهر سفناً من طراز مصري يقودها بحارة سوريون كانوا يفرغون حمولتهم في مدينة مصرية (من المظنون أنها طيبة) وقد كان هناك نوع من المراقبة على التجارة السورية نظراً لوجود صورة موظف يسجل الأسماء أو الصفات الشخصية لمجموعة التجار. وكانت السلع التجارية تتألف من جرار كبيرة من النبيذ أو الزيت ومزهريات من المعادن الثمينة وتدل الصورة أن هذه السلع لم تكن لتباع إلى أفراد خصوصيين بل عن طريق وكيل حكومي وهو صاحب القبر الذي كان مسؤولاً عن المخازن في البلدية. ويبدو أنه وبالإضافة إلى ذلك أن هناك بعض التجارة الخاصة نظراً لوجود حوانيت صغيرة على جانب الماء حيث

كانت تباع الأحذية والمنتوجات والمواد الغذائية، وفي إحدى السفن هناك صورة امرأة بائسة وولد وهما عبدان جُلبا كبقشيش أو رشوة للموظف المصري الكبير نفسه.

لقد أصبحت التجارة الدولية سهلة المنال نظراً لوجود التجار المغتربين في عدة مراكز تجارية. وكان هناك بعض الاحتياطات المشابهة في أوغاريت في سوريا حوالي ١٤٠٠ق.م عندما وبالإضافة إلى وجود مستعمرة تجارية ناجحة أنشأها التجار الموسينيون، كان هناك أيضاً مستعمرات آشورية ومصرية. وذلك يظهر من إحدى الوثائق التي تفصل عمليات تسليم الخمور إلى الشعب في تلك البلدان. ولقد تشجعت التجارة الخارجية بفعل ملك أوغاريت، وهكذا يجد المرء أحد العقود الملكية يعطي لأحدهم إعفاءً من دفع الرسوم الجمركية عن سفنه العائدة من كريت. هذا وإن الإشراف الملكي على التجارة في أوغاريت يظهر عن طريق وثيقة أخرى أصدرها الملك (حوالي عام ١٤٠٠ق.م) وهي عبارة عن نوع من جواز سفر صادر لمصلحة رجل وابنه وهو يعطيهم الحق باستعمال الطرق إلى مصر وإلى أراضي الحثيين. ولقد كانت تجارة المعادن هامة بالنسبة لاقتصاد أوغاريت. ولم تُذكر المعادن الثمينة (بما فيها الحديد – الذي لا يزال عظيم القيمة) في النصوص بل أيضاً قد وُجد في الميناء بقايا من النحاس والبرونز فضلاً عن قوالب من الرصاص في القصر. وبالنسبة للقيم، يذكر في النصوص أن الذهب في ذلك الوقت يسوى ثلاثة أو أربعة أضعاف وزنه من الفضة. وفي نهاية الألف الثاني وبداية الألف الأول تضعضع النظام القديم للنموذج التجاري عبر منطقة ما بين النهرين وسوريا بشكل خطير بفعل ضغط الآراميين الذين اقتحموا المنطقة سائرين نحو بابل وآشور. وكانت الصعوبات الاقتصادية التالية بالنسبة لآشور إحدى العوامل التي جعلت آشور تحاول كسب السيطرة العسكرية على الطرق المؤدية إلى أراضي البحر الأبيض المتوسط. وأخيراً نجحت آشور في هذه المهمة حوالي عام ٧٤٠ق.م وذلك بكسب السيطرة على سوريا وفينيقية بما فيها مدن صور وصيدا. ولقد برزت إلى النور بعض الرسائل المعاصرة التي تذكر السيطرة الآشورية على التجارة في المدن المذكورة. ويظهر من هذه الرسائل أنه قد سُمح لأهالي صور وصيدا أن يقطعوا الأشجار من لبنان ولكن كان عليهم دفع

ضريبة على الخشب عند وصوله إلى المستودعات. وكانت هذه سياسة غير حكيمة نظراً لأنها أنتجت حدوث شغب واضطرابات قُتِل في أثنائها جابي الضرائب الآشوري. ولذلك اضطر الآشوريون لاستدعاء الفرق العسكرية لإعادة النظام. ونتيجة لذلك فقد أعادوا السيطرة على التجارة عن طريق إجراء بعض القيود على عمليات التصدير، وهنا يذكر كاتب الرسالة نص رسالته كما يلي **«ومن الآن فصاعداً ينبغي أن يُجلب الخشب إلى هذا المكان وينبغي أن تبدأوا أعمالكم الخشبية ولكن لا ينبغي أن تبيعوا هذا الخشب للمصريين أو الفلسطينيين».**

ومن هنا نستنتج أن الآشوريين كانوا يستحوذون على الأخشاب لأنفسهم وكان الوضع بأجمعه مطابقاً للسياسة الآشورية العامة من ممارسة السيطرة الاقتصادية والتجارية على الدويلات التابعة لها. وإن الاستيلاء على صور يصفه يوشع بقوله:

«عندما يصل الخبر إلى مصر فلسوف يصيبهم الألم العميق عندما يعلمون ما حدث في صور».

ومن المفهوم أن مصر قد أصابها الألم عند خسارتها الخشب القادم من لبنان نتيجة لسياسة المنع المذكورة أعلاه.

وإلى الشمال من آشور وحوالي بحيرة (فان) كان هناك دولة قوية أخرى وهي أورارتو ويتلخص تاريخ هذه الفترة في ذلك النضال بين هاتين القوَّتين للاستيلاء على الطرق التجارية الحيوية. وجدير بالذكر أن النقاط الرئيسية بالنسبة للنزاع السياسي والعسكري بين هاتين الدولتين الكبيرتين لم تكن حول الحدود بل في أقاصي الغرب أو في شمال سوريا وجنوب كليكيا وفي الشرق في المنطقة إلى الجنوب الشرقي من بحيرة أورميا.

إن أهمية شمال سوريا كنهاية لعدد من الطرق التجارية قد أشرنا إليه عدة مرات ولقد بَذَلَت آشور وأورارتو جهوداً كبيرة عن طريق الأساليب الدبلوماسية والعسكرية لتأمين السيطرة على هذه المنطقة. ففي المنطقة الغربية إلى الشمال من سوريا وإلى الغرب من أورارتو كان هناك دولة تدعى موشكو كانت تسيطر على

الطرق البرية التي تصل إلى المستوطنات اليونانية على الشواطئ الغربية من آسيا الصغرى، وكان ملكها (ميتا) معروفاً لدى اليونانيين باسم ميداس وهو المعروف بثروته العظيمة. وهناك بعض الوثائق التي نُشرت حديثاً، قد أظهرت أن الملك الآشوري أظهر سروره وحبوره عندما أمّن أخيراً التحالف مع ميتا ملك موشكو وقد عمل هذا الانقلاب في الحوادث أن خفف الضغط على القطاع الشمالي الغربي من الإمبراطورية الآشورية وسهل العمليات التجارية ما بين بلاد اليونان والأراضي الواقعة ما وراءها. وإلى الشمال الشرقي من آشور هناك شاهد مرموق لوجود طريق تجارية أخرى كانت المنافسة عليها إحدى الأسباب الرئيسية لنشوب النزاع ما بين آشور وأورارتو ولا تعرف نهايات الطرق المذكورة، ولكن هناك كميات من الشواهد التي لها علاقة بالقضية.

وهناك نقطة صغيرة أخرى تُثبت وجود طرق تجارية في هذا الوقت ما بين بلاد اليونان والمناطق إلى الشرق من آشور. إذ إنه وفي هذه الفترة فقد وُجدت صورة الديك مدهونة على المزهريات اليونانية وإن اسمه اليوناني (الذي يعني الطائر الفارسي) يُظهر أنه قد وصل إلى بلاد اليونان من إيران من خلال أورارتو.

وبالإضافة إلى الطريق عبر أورارتو وهي الطريق الممتدة من منطقة ما بين النهرين إلى كركميش وإلى مينا Mina، قرب خليج الإسكندرونة، كانت هذه الطريق مزدهرة في أواخر القرن الثامن وقد اتخذت آشور خطوات حاسمة لتأمين أمان هذه المنطقة. ولقد سهّلت الأعمال التجارية الفعلية عبر الإمبراطورية الآشورية عن طريق إنشاء مراحل بريدية ونظام سريع للمواصلات كانت بلاد الفرس صاحبة الفضل في تقيم فكرته.

وفي عام ٧٠٠ق.م حدث هناك نشاط مرموق ظهرت فيه هجرة القبائل في إيران الأمر الذي ربما عطل الطرق التجارية هناك. ولكن لا نستطيع البرهنة عليه في الوقت الحاضر، ولكن من الممتع القول إنه وفي هذا الوقت وبعد مرور حوالي ألف عام فقد بدأنا نسمع مرة ثانية بمدينة تلمون بالنسبة لتجارة النحاس وهناك استنتاج ممكن وهو أن كل من كان موجوداً في النهاية الشرقية للتجارة الإيرانية قد أجبر

على الانتقال إلى الطرق الجنوبية ربما باستعمال الطرق البحرية بدلاً من الطرق البرية المتوفرة خلال إيران. وفوق ذلك فإنه مع أن آشور قد أحرزت نجاحاً عسكرياً ضد أورارتو إلا أن الأخيرة قد تطرَّق إليها الفناء بسرعة تفوق ما يتطلبه الوضع. ومن الممكن تفسير هذا الفناء من قطع الطرق التجارية خلال إيران وأرمينيا التي كانت تجلب الثروة إلى أورارتو سابقاً.

أما آشور نفسها، فبالرغم من الإجراءات النشيطة مثل إلحاق عيلام بالإمبراطورية الآشورية وبذلك استطاعت آشور أن تتصل اتصالاً مباشراً بالإيرانيين، إلا أنها بدأت بالسقوط بصورة سريعة وذلك ربما كان بسبب انقطاع الطرق وهكذا أصبحت بابل القوة الضاربة في منطقة ما بين النهرين مع تلك الزيادة المرموقة في الأنشطة الاقتصادية فضلاً عن العسكرية. وهذا يقوم بدعم تلك الفرضية التي مفادها أن التحركات العرقية في إيران قد وجَّهت الطرق التجارية القديمة مؤقتاً بحيث أصبحت التجارة الغربية تنساب عبر عيلام الجنوبية وبابل إلى أعالي منطقة الفرات.

لقد سمحت حالة الاتحاد ما بين ميديا وبلاد الفرس تحت حكم (قورش)، سمحت له بتهدئة المنطقة بأجمعها بحيث أصبح من الممكن إعادة استعمال الطرق القديمة عبر إيران الشمالية. ومن المنتظر أن يتوقع المرء أن يكون لهذا التوحيد نتائج سلبية معاكسة اقتصادية في بابل إذ هناك دلالات أن هذا الأمر قد حدث فعلاً. فقد حدث تضخم سريع في بابل، إذ تضاعفت الأسعار فيما بين سنة ٥٦٠ و٥٤٠ق.م ويبدو أن بعض الملوك البابليين كانوا عالمين بالمشكلة فقرروا اتخاذ خطوات مناسبة. فقام أحد الملوك وهو نيري غليسار Neriglissar بحمله في عام ٥٥٧ق.م ضد كليكيا، في محاولة لتأمين السيطرة على الطريق البرية غرباً ابتداءً من شمال سوريا. ومع ذلك فقد نجح قورش في المناورة ضد البابليين وبذلك اكتسب بسرعة السيطرة على جميع مناطق آسيا الصغرى وتجارتها. ولكن آخر ملك بابلي جديد وهو نابو – نا – إيد اتجه جنوباً بعد أن قضى عشر سنوات بعيداً عن بابل، حيث أقام في تيماء في شمال غرب بلاد العرب وهناك أنشأ المستعمرات على طول الطريق من تيماء إلى المدينة في

محاولة لتقديم اقتصاد متين لمملكته وذلك بالسيطرة على الطرق التجارية في شمال بلاد العرب. ولقد حاول نابو – نا – إيد إجراء إصلاحات اقتصادية داخلية. ومع ذلك فقد كانت إصلاحاته إما متأخرة جداً أو أنها غير مناسبة أبداً. وفي عام ٥٣٩ق.م وقعت الإمبراطورية البابلية بأكملها في قبضة الملك قورش، ولذلك فقد عمل قورش فوراً إلى قلب سياسة الترحيل التي كانت متَّبعة ضد السكان المهزومين. وقد كانت هذه السياسة سبباً في تخريب اقتصاد بعض أجزاء الإمبراطورية لقاء تلك الفائدة المؤقتة التي تجنيها الحكومة المركزية.

هذا وقد أشار أوبنهايم أنه وفي خلال الفترة البابلية الجديدة ورغم وجود التجارة الخارجية بشكل أكيد، إلا أنه لم يتوفر لدينا سوى بعض الوثائق التجارية القليلة بالنسبة لهذه التجارة وهو يستنتج من هذا أن علينا أن نفرق ما بين نوعين من الأنشطة في الشرق الأوسط القديم. الأول تمثله التجارة في كابادوكيا ومستوردو النحاس من أور في فترة لارسا وهم الذين استخدموا جميع الوسائل للبيروقراطية السومرية بما فيها عادة كتابة جميع الصفقات التجارية. أما الثاني فالذي ينبغي علينا أن نفترض من خلاله أن التجارة في بابل الجديدة قد تناسقت معه وهو حسب رأي أوبنهايم ينحصر في تفضيل الاتفاقيات الشفوية المدعومة ببعض الوسائل العملية.

التجارة الداخلية

يذكر الرحالة اليوناني هيرودوتس (الذي زار بابل في القرن الخامس ق.م) ملاحظة خاصة بالنسبة إلى قورش ملك بلاد الفرس وهو يقول إن هذه الملاحظة كانت تشتمل بعض الانتقادات اليونانية نظراً لأنهم كانوا يمتلكون بعض الأسواق التي كانوا يمارسون فيها البيع والشراء وذلك لأن الفرس أنفسهم لم يكونوا معتادين على وجود الأسواق، ولم يكن لديهم أي مكان لسوق في بلادهم. أما الأستاذ بولاني فهو يتخذ هذا القول دعماً لبرهانه أن البابليين لم يكن لديهم أسواق وأمكنة للأسواق. وهذه المساواة بين الاقتصاد الفارسي والاقتصاد البابلي بغض النظر عن الفروق ما بين البنية الاجتماعية والبنية الاقتصادية في بلاد فارس الذين

كان يعتبرهم مجرّد قبائل رحل تلك البنية التي وجدت قبل قرنين فقط من وجود قورش وخلفهم البابليون الذين كانوا يتمتعون بحضارة عمرها ألفا عام. ولهذا لا يمكننا اعتبار أقوال هيرودوتس مناسبة للحكم فيما إذا كان البابليون يمتلكون الأسواق أم لا يمتلكون. ويقول الأستاذ أوبنهايم إنه لم يكن هناك أسواق في ما بين النهرين القديمة بينما يقترح بولاني أنه لم يكن هناك أماكن مفتوحة في تلك المدن من الممكن أن تخدم كأسواق. والحقيقة أن الاقتراح الآخر ليس له أساس من الصحة. إذ إنه لا شك أنه كان في المدن الآشورية على الأقل مساحات واسعة مفتوحة يستطيع الرجل فيها أن يغتصب إحدى النساء الكادحات دون أن يزعجه أحد. وقد كان هنا في الألف الأول ق.م فسحة مفتوحة في نينوى تتسع لعرض قوى النصر بينما نجد أنه كان في إيشنونا في الألف الثالث ق.م حسب ما كشفته لقيات الحفريات أنه كان هناك متسع في الطريق الشمالية لوجود ساحة عامة كبيرة. وكان هناك أيضاً المسافات حول أبواب المدن، حيث تتم الصفقات التجارية في الشرق القديم بينما نجد أن كلا الوثائق الآشورية والبابلية من الألف الأول ق.م تشيران إلى وجود بوابة البيع والشراء حيث تبودلت عمليات بيع البضائع ومقايضتها بالفضة ويظهر أن رأي الأستاذ بولاني وهو إنكار وجود الأسواق خلال منطقة ما بين النهرين القديمة لم يكن موفقاً مع أنه ينبغي أن نعترف أن شهادة وجودها ليست قوية أيضاً.

لقد ذكرنا سابقاً أن نحو ٩٠٪ من النصوص المسمارية كانت مختصة بالاقتصاد في محتوياتها وهذا يجعل من المستحيل محاولة إعطاء خلاصة مفيدة بالنسبة للمظاهر العامة للتجارة في مختلف الفترات التاريخية وهناك بعض المظاهر حول النظام الاقتصادي في الدول المدينية السومرية في الألف الثالث ق.م وهي التي لخصناها سابقاً.

وفي فترة بابل القديمة كانت التجارة من عمل طبقة معينة تدعى تامكارو ومفردها تام كاروم ومعناها تاجر وربما تعني مضارب أو مُقرض للمال أو وكيل حكومي. ولقد حاول الأستاذ بولاني في أحد كتبه أن يعيد تعريف كلمة تام كاروم طبقاً لوجهة النظر التي مفادها أن الوظيفة الأخيرة لهذا التاجر كانت تشمل

الجميع ويقول الأستاذ بولاني أن كلمة تام كاروم تعني الموثوق لدى الجمهور. وكانت وظيفته طبقاً لهذا المفهوم أن يبادر إلى العمل عندما يجلب أحدهم لوحاً مسمارياً له وأن يقرر الرسوم والمصاريف ويقبل الرهن. وأن يسهل التواصل وذلك بقبول المسؤولية بالنسبة للنقود والبضائع، وهلم جرا وفوق ذلك فإن الأستاذ بولاني يقول إن التام كاروم لم يتقاضَ أي دخل لقاء الأعمال التي كان يقدمها مع أنه كان يتقاضى رسوماً طفيفة طبقاً لسعر معين. فقد كان يكتسب لقمة العيش من أملاك الأراضي التي كانت توكل إليه.

وبالتأكيد كان التام كاروم عبارة عن وكيل حكومي ولكن كونه الموثوق من قبل الشعب مسألة فيها نظر والحقيقة أنه كان لا يتقاضى أموالاً لقاء القيام بأعماله، إنما هذه الحقيقة أيضاً غير صحيحة نظراً لأن شرائع حمورابي توضح أن التام كاروم كان معتاداً على إجراء القروض وكان يتوقع أن يتقاضى على الأقل ١٠٠٪ من الأرباح لقاء ذلك. هناك عدد من الإشارات في شريعة حمورابي للتامكاروم وهي تلقي الضوء على أنشطة تلك الطبقة من الناس ولم تقتصر أعمالهم على التجارة في الوطن بل كانت تمتد إلى تجارة العبيد في الخارج. ولم تكن تجارة العبيد مقتصرة على الأراضي الأجنبية إذ إن هناك عدة ألواح تظهر أن رجالاً من هؤلاء كانوا يتعاملون في مبيع وشراء العبيد داخل بابل أيضاً. وفضلاً عن تجارة العبيد فقد كان هؤلاء يتعاملون في بيع وشراء الحاجيات المنزلية مثل المواد الغذائية والصوف والخشب والألبسة والمنسوجات والحبوب والنبيذ والجعة والمعادن ومواد البناء مثل الطوب والمواشي والخيول، وتشير كثير من الرسائل التي تعود إلى الفترة البابلية القديمة إلى وجود التجارة الداخلية في مثل هذه السلع وأن هذه السلع كانت تحمل عن طريق النهر. وتتوضح أنشطة التامكاروم في الرسالة الآتية:

يقول سن – ادنيام أن حمورابي ذكر أن إيلوشو – إيبي – التامكاروم قد أخبرني بما يلي: لقد سلمت ثلاثين (غور) من الحبوب إلى الحاكم سن – ماغير و قد سلمت لوحاً يعترف به بذلك ولقد مضى علي ثلاث سنوات وأنا أطلب منه الثمن ولكنه لم يسلمني الثمن المختص بالحبوب ولقد أعلمني بالحادث.

ولقد رأيت لوحه ولذلك آمر أن يستلم سن – ماغير الحبوب وفوائدها وبعدها يسلمها إلى إيلوشو – إيبي.

وفي الرسالة التالية يظهر إرسال أحد التامكاروم بعض البضائع عن طريق النهر:

لقد استأجر التامكاروم المدعو تاملاتوم سفينة مالك السفن إيباتوم وقد أبحرت تلك السفينة إلى بابل وهذه السفينة كانت تحمل بعض الطوب.

وتستمر الرسالة في الإخبار عن خصام نشأ ما بين التامكاروم وصاحب السفن.

ولم يكن التامكاروم تاجراً بنفسه بل كان تاجراً يعمل في أعمال البنوك وكان يقدم النقود للآخرين للقيام برحلات تجارية على حسابه وهنا نجد أن شريعة حمورابي تهتم بمثل هذه الأمور وهي تضع شروطاً لتنظيم العلاقة ما بين التامكاروم والعملاء وكان التامكاروم يتقاضى فائدة مقدارها ١٠٠٪ وهنا نذكر الفقرة في الشرائع التي تعالج هذه القضية:

إذا سلم التامكاروم كمية من الفضة لأحد العملاء ليعمل في البيع والشراء وإذا كان قد أرسل هذا العميل في رحلة تجارية. فإذا اكتسب هذا العميل بعض الفوائد من هذه الرحلة فعليه أن يسجل الفوائد التي استلمها وينبغي أن يُحصوا ويعدّوا الأيام التي عمل بها التاجر وأن يدفع مستحقات التامكاروم.

وهناك نوع آخر من القروض قد ذكر أيضاً ويذكر أنه إذا خسر العميل في مغامرته التجارية فإنه يُرجع المبلغ بكامله إلى التامكاروم. وفي هذه الحالة وفي حالة كسب أية مكاسب من هذه الصفقة فإن هذه المكاسب سوف تقسم على الفريقين بنسب معينة ومتفق عليها بين العميل والتامكاروم.

لقد كانت عمليات القروض ظاهرة شائعة في حياة بابل الاقتصادية في جميع العهود وهناك مثل يحدد الموقف بالنسبة لصفقات القروض بما يلي:

إن إعطاء القرض يشبه أعمال الحب وأن إعادة المبلغ المقترض تشبه ولادة طفل.

إن هذا يشير إلى الفوائد المضافة عند سداد الديون، هذا وإن الشعور الديني ضد الرّبا وهو الشعور الظاهر في القوانين العبرية والإسلامية، مفقود كلياً في العالم السومري والبابلي حيث كان إيفاء الفوائد المترتبة على القرض تعتبر ظاهرة طبيعية ومحترمة وكان يشار إليها في القوانين وفي العقود المبرمة، وأما الأسعار الزائدة للفوائد فكانت مكروهة وتشير شرائع حمورابي أن أي تامكاروم إذا قبض مبلغاً من الفوائد أكثر من السعر المقرّر فإنه معرّض لمصادرة رأسماله:

إذا استدان رجل مبلغاً ولم يكن لديه ما يسدد به ديونه عدا الذرة ولذلك طبقاً لمراسيم الملك على التامكاروم أن يستلم الفوائد بشكل ذرة ولكن إذا زاد الفوائد بنسبة تزيد عن ١٠٠٪ لكل غور من الذرة فسوف يصادر كل ما استلمه من الذرة.

وكانت أسعار الفوائد عن القروض مختلفة طبقاً للفترة المختصة في التاريخ البابلي وطبقاً للسلعة ذات العلاقة ففي الفترة القديمة للعهد البابلي كانت العادة أن يؤخذ ٣٣,٣٪ على الشعير ٢٠٪ على الفضة ولم يكن واضحاً حسب الوثائق العائدة إلى الفترة البابلية القديمة ما هي صفة القرض ولم يُذكر بوضوح فيما إذا كانت الدفعات هي شهرية أم سنوية. وعلى العموم فقد كان القرض حتى بعد مجيء موسم الحصاد وحتى بعد انتهاء الرحلة التجارية التي بدأ بها العقد.

وهناك نوع شائع من القروض المعروف باسم قروض هوباتاتو Hubatatu وهو يعني القروض الحرة وقد أشار المؤرخ التركي بلجيك Bilgic أن معنى هذا الاصطلاح هو القرض الذي تكون فيه الكمية التي يستلمها المقترض أقل من الكمية التي تدخل في العقد ويكون الفرق هو الفوائد المستحقة فإذا لم تسدد قيمة مثل هذا القرض ضمن المدة المقدرة فإن الفوائد على الكمية المذكورة في العقد تصبح مستحقة في الطريق العادية. والعقد التالي يظهر لنا مثالاً عن مثل هذه الصفقات:

لقد استلم شامان – نازير ابن سن – إيكويشام من إيلوشو – نازير ونانا – إبيني ما قيمته ١٣٣ غوراً من الحبوب كقرض من نوع هوباتاتو. ولمدة سنتين سوف لا يدفع

فوائد فإذا لم يعد الحبوب في السنة الثالثة عندها فسوف تضاف الفوائد (ويتبع ذلك أسماء الشهود مع التاريخ).

وإن الكميات الزائدة من الحبوب المذكورة إنما تمثل قرضاً حقيقياً من ١٠٠ غور بالإضافة إلى فوائد قدرها ٣٣,٣٪ لمدة سنتين.

وإن الشرط الأساسي لموثوقية معظم الصفقات التجارية (بما فيها القروض) كانت حضور الشهود وسجل مكتوب بصفة عقد، ولقد اقتبسنا رسالة أعلاه فحص فيها حمورابي اللوح الذي قدّمه الدائن قبل إصدار الحكم لمصلحته ولقد ذكرت شرائع حمورابي انه إذا جرت القروض دون عقد وشهود فإنه لا يمكن تدخل الدولة لاستعادة القرض. وهناك استثناءات لهذا المبدأ قد وجدت في هذا الوقت في المستعمرة التجارية الآشورية في كابادوكيا حيث كان هناك نوع من القروض يدعى إيبوتو Ebuttu كان يتم دون وجود الشهود أو وجود العقود، ولم يكن هناك من فوائد وهذه حالة خاصة نظراً لأن هذه القروض كانت تتم بين أفراد من نفس المستعمرة وكان الجميع ذوي ثقة بعضهم ببعض. كانت الألواح التي تسجل العقود التجارية تختم عادة بختم أسطواني. وفي الفترة المتأخرة كانت توضع علامة ظفر الإصبع وكان اللوح يوضع في مغلف من الصلصال يحتوي على نص مشابه بحيث يستحيل التزوير نظراً لأن المغلف لا يفتح إلا بحدوث خصام أو نزاع حول الموضوع، عندها يصبح النص المحفوظ عبارة عن نسخة رسمية للعقد ولكن هذا الإجراء قد اختفى في العهد البابلي الحديث ولقد حدثت محاولات لتزوير الألواح ولكنه كان جُرْماً فظيعاً وحتى ومع أن الألواح كانت مطبوعة من الصلصال غير المشوي، إلا أنه كان من الممكن ترطيب الألواح في النقطة المعينة ثم محو النقوش القديمة المطلوبة دون إحداث ضرر ببقية الكلمات والرموز، ثم وضع النصوص الجديدة. وقد حدثت محاولات لتزوير لوح بكامله ولكن كان هذا يقتضي استخدام كاتب ماهر.

وهناك باب آخر من أبواب الغش وهو أنه لم يكن هناك نظام موحد للموازين والمقاييس التي كانت تختلف اختلافاً بسيطاً من مكان إلى مكان ضمن حدود نفس البلاد. وهذا فتح الطريق أمام الغش والاحتيال. وذلك أن بعض التجار من

الممكن أن يعرفوا أو يشتروا حسب نظام من الموازين وبعد ذلك يستلمون القرض أو البيع حسب نظام آخر من الأوزان:

اسمعوا أنتم الذين تبتلعون حقوق المحتاجين وتسببون تعاسة الفقراء في البلاد وتقولون متى سوف ينقضي القمر الجديد بحيث نستطيع بيع الذرة وحتى ينقضي نهار السبت حتى نستطيع تقديم القمح. وبذلك نعمل على إنقاص الأوزان وزيادة الشيكلات ومعالجة الأوزان بشكل مغشوش.

وقد كانت قضية الغش في الأوزان من هذا النوع مذكورة في منطقة ما بين النهرين حيث ذكر شرط من الشروط أن يعاد دفع المبالغ طبقاً لنوع معين من الأوزان مثلاً كانت أنظمة الأوزان المستعملة في معبد شماش هي المعتبرة ومع ذلك كان هذا النوع من الغش بالتأكيد في المعاملات التجارية في بابل حيث وجدت مراجع تذكر ذلك مثلاً في النصوص السحرية الموجهة لتخليص أحدهم من نتائج الغش:

وهذا الغش ينحصر في تسليم البضاعة عن طريق أوزان صغيرة واستلام القرض عن طريق أوزان ثقيلة والتسليم عن طريق شيكل صغير والاستلام عن طريق شيكل كبير.

والتسليم عن طريق مينا صغير والاستلام عن طريق مينا كبير.

وكان نقل البضائع خلال منطقة بابل يجري عن طريق السفن وكان الفرات يمثل منظراً مكتظاً بالسفن وفي منتصف نهر الفرات كانت مملكة ماري تشتهر ببناء القوارب والسفن.

هناك عدة رسائل موجودة استلم بموجبها نائب الملك وهو ياسماح – حدد بعض الأوامر من والده شمسي حدد بأن يبني بعض القوارب وقد ذكر أن العدد هو ستون قارباً دفعة واحدة، مع أنه لم يذكر حجم القارب. وفي مناسبة أخرى كان من الواجب بناء قوارب كبيرة وقوارب صغيرة، بما فيها ثلاثون قارباً كبيراً ويبدو أن ملاّحي القوارب قد شكلوا جماعة متماسكة وكانوا يتكلمون لغتهم الخاصة وهي اللغة السومرية وذلك طبقاً لإحدى النصوص الأدبية، وقد أخذوا زوجاتهم معهم

أيضاً. وذلك كما نعلم من رسالة شكا فيها حاكم كركميش إلى نائب ملك ماري بقوله:

لقد أبقوا في توتول ثلاثين خروفاً وخمسين جرة مملوءة بالنبيذ بالإضافة إلى زوجة أحد رجال السفن.

كانت هناك عدة مخاطر مختلفة لسير السفن فضلاً عن سلوك الموظفين المتعصبين وكانوا يدّعون أن سبب التأخير هو رداءة الطقس. وهكذا نجد أحد الموظفين يذكر لنا جواباً لإحدى الشكاوي:

(لقد أوشكت القوارب على المسير ولكني أبقيتها في توتول جميعها. وابتداءً من اليوم الذي وصلت فيه هذه القوارب فُتحت أبواب السماء وهطل المطر بغزارة وباستمرار.)

وهناك رسالة أخرى تذكر حادثة أصابت إحدى السفن التي كانت تحمل الحبوب إلى القصر. وقد اضطروا أن يدفعوا السفينة إلى الشاطئ وعبَّر الموظف عن رغبته باستلام التعليمات حول الحبوب التي كانت متراكمة على ضفة النهر وليس من الواضح معرفة ما حدث بالنسبة لهذه القضية. وكثيراً ما حدثت التصادمات بين القوارب. وتعالج شريعة حمورابي قضية خاصة من هذا النوع. وبالإضافة إلى الوثائق التي تعالج قضايا البيع أو نقل البضائع. وهناك عدة صفقات تختص بالشؤون العقارية. وأما الوثائق التي تعالج قضايا بيع الأراضي والبيوت فهي شائعة جداً بالنسبة لجميع الفترات ابتداءً من الأسرة الثانية في أور فصاعداً، وعند بيع أحد العقارات كانوا يكتبون سجلاً يُقدم للمشتري للاحتفاظ به وفيما يلي مثال بسيط:

١,٥ سار من الأرض مع بيت مبني عليها وذلك بجوار بيت كونانو وجوار بيت إيرايا، فلقد اشترى أراد زوتمال هذا البيت من أراد نانا ولقد دفع له ٨,٥ شيكل من الفضة وهو الثمن الكامل للبيت.

ولقد أقسم أراد نانا قسماً بالملك بأنه سوف لن يقول في المستقبل إن هذا البيت هو بيتي. ثم ذكرت أسماء الشهود والتاريخ.

وكانت العبارة التي تعني رد البيع شائعة في عقود منطقة ما بين النهرين القديمة خصوصاً ولكن ليس العقود التي تعالج بيع العقارات فحسب. وقد كانت تُفرض عقوبات خاصة في حالة حدوث ارتداد عن البيع، وفيما يلي مثال على ذلك.

سار واحد من الأراضي بالإضافة إلى بيت مبني عليها، وهذا البيت مجاور لبيت شوبيشا وقرب بيت بور سين وجانبه الطويل بجانب قناة اشكون سن وجانبه الطويل الثاني بجانب بيت يشار جميل القديم. ولقد اشترى إيلشو ناصر ابن بيرسن من مشار جميل صاحب هذا البيت وقد دفع له ثمنه بالكامل بالعملة الفضية، وإن قلبه أصبح راضياً وقد سُويت القضية ولقد أقسم اليمين بعشتار وبانيبال بي إيل الملك أن لا يعمل أحدهما شيئاً ضد الآخر وأن من يقيم دعوى ضد الآخر سوف يدفع ٢ مينا من الذهب وسوف يُقطع لسانه.

ويتلو ذلك الأسماء والشهود مع اسم الكاتب.

لم يكن بيع الأرض وفي جميع الظروف وحتى في الفترة البابلية القديمة أمراً بسيطاً. وفيما يلي نجد العقد التالي من مملكة ماري ومع أنه بسيط في شكله إلا أنه قد كُتب بطريقة خاصة في محاولة للالتفاف حول المصاعب القانونية.

لقد منح إيل – بالاهوم بعد تأدية القسم خمسة سارات من الأرض مع بيت مبني عليها إلى يارمي حدد وكذلك فقد منح يارمي حدد بمحض إرادته حصة من الأرض المشتركة بعد قسمة الأرض... نصف شيكل من الفضة إلى إيلي – بالاهوم. (هنا فقدت عدة أسطر من النص) وذلك بحضور عشرة شهود مذكورين ولقد أكلوا الخبز وشربوا الكؤوس وقد دهنوا أنفسهم بالزيت.

ولقد كانت الفقرة الأخيرة مخصصة للإشارة إلى وجبة طعام احتفالية ربما ساهم بها الشهود ثم تَمَّ ختم عملية البيع.

إن كلمة وهب ليست هي الترجمة الصحيحة لمعنى البيت. وربما تعود إلى إعطاء أملاك القبيلة لبعض أفراد القبيلة وهذا يشبه الاستعمال العبري لكلمة يُقسم بدلاً من يوزّع عند توزيع الإرث. ويظهر أن الصفقة المذكورة في العقد كانت عملية بيع

يدوي بمعنى تقسيم الأملاك العامة المشتركة ويظهر أن هذه الرواية ضرورية وذلك لأن الأراضي المذكورة هي عبارة عن أملاك قبلية. وفي وثيقة أخرى من مملكة ماري نرى ثلاثة عشر من شيوخ قبيلة أوين Awin بما فيهم ممثلون عن القبيلة يسكنون في المدينة وفي الصحراء وكان شأنهم شأن أحد الموظفين الكبار الذي عرض الحصول على الصفقة كان يدّعي أنه أخوهم، وقد كانت حصة هؤلاء حوالي مئة وخمسين فداناً من أراضي القبيلة.

إن جميع الوثائق المذكورة أعلاه تعود إلى الفترة البابلية القديمة. وأما في منطقة نوزي (قرب كركوك) وفي الألف الثاني ق.م. فكانت قضية بيع العقارات تأخذ شكلاً مختلفاً. ففي هذا المجتمع الملون والمحتوي على نفوذ حوري كانت الأرض غير قابلة للتحويل وذلك كمبدأ عام. وكان هناك حوالي عام ١٤٠٠ق.م عدد من الرجال الأثرياء في محافظة نوزي يعملون في بناء ضِيَعٍ كبيرة. وإن رجلاً من هذا النوع يستطيع التغلب على الصعوبات القانونية وذلك باستصدار وثيقة تثبت أنه متبنّى من قِبَل شخص كان يرغب أن يشتري أرضه. وكان يقدّم لوالده بالتبنّي هدية كانت في الحقيقة تمثل ثمن الأرض. وبذلك يستلم الأرض التي كان يبغي شراءها. وفيما يلي نص مختصر من وثيقة نموذجية من هذا النوع.

هذا لوح يثبت تبني X ابن Y (M) ابن N

ولقد أعطى X كقسم من الإرث جزءاً قدره ٨ أوبهاري من الأرض المروية في نوزي على ضفة قناة ساراي وفي نفس اليوم قدّم M إلى X تسعة (مينا) من الرصاص كهدية.

وبالنسبة للألف الثالث من الواضح أن التجارة قد ازدهرت في الإمبراطورية الآشورية الجديدة وأن الاقتصاد الناجح كما الأحوال العسكرية الناجحة كان أساس حالة الازدهار الآشوري في ذلك الزمن ويباهي عدد من الملوك الآشوريين بالازدهار الاقتصادي وبمستويات الأسعار المناسبة أثناء فترة حكمهم مع أن هذا تابع للازدهار الزراعي أكثر منه للتجاري. وهكذا يفتخر شمش – حدد الأول بقوله:

عندما بنيت معبد سيدي الإله إنليل كانت الأسعار في مدينتي آشور كانت: اثنان (غير Gur) من الحبوب ثمنها شيكل واحد من الفضة وثمن خمسة عشر مينا من الصوف يبلغ شيكلاً واحداً من الفضة.

يحدث أحياناً الإشارة إلى هبوط الأسعار الناتج عن إتخام الأسواق بسلعة من السلع (مثل الجمال) وذلك ناتج عن حملة حربية ناجحة، وفي إحدى الحالات يشار إلى الازدهار الاقتصادي في التجارة بشكل مباشر وذلك لأن سرجون الثاني عندما تكلم عن هجومه على مصر في زمن حدوث حملة إلى فلسطين وهو يقول: «**لقد منحت البلاد أي بلاد مصر ومزجت شعبي آشور ومصر معاً وتسببت بانتشار التجارة**». ومن الملاحظ أيضاً أن إحدى حملات ناحوم على آشور قد ضاعفت عدد التجار ووضعتهم فوق النجوم في السماء أما في بابل وفي الألف الثالث، فقد بدت التجارة الداخلية وقد أصبحت في أيدي جماعات المعبد الكبار كما كان الحال بالنسبة إلى إنا Enna في إيريش وقد سبب هذا ظهور وضع ظهر فيه صحة وجهات نظر الأستاذ بولاني حول طبيعة الاقتصاد القديم. ومع ذلك فقد أشار أوبن هايم أنه وفي تلك الفترة كانت التجارة الخارجية تنافس من خلال وسائل واقعية تختلف عن تلك التي كانت تميز البيروقراطية التقليدية المتمركزة في المعابد. ومن الممكن تماماً أنه كان هناك تجارة حُرّة على خطوط السوق ما بين الأفراد الذين لم تكن صفقاتهم بحاجة إلى سجلات مكتوبة. وبالتأكيد لا يزال المرء يجد في هذه الفترة سجلات للقروض بالنسبة لرحلات تجارية تتخذ الشكل التالي:

هناك ثلاثة مينات من الفضة دفعها شم أوكين للمدعو زابابو – شم – إيدين لقاء رحلة تجارية ولسوف يصيب زابابو – شم – إيدن نصيباً وحصة مساوية من الأرباح كما هو الحال في المدينة أو البلاد مع شم – أوكين.

ومن الشائع الإشارة إلى القروض مع أنه وكما هو الحال في معظم الحالات فإن سبب عدم تحديد تلك القروض ربما كان خارج أنظمة المعابد في هذا الوقت وهي العقود التي طالما وُجدت. كانت سلطات المعبد تستأجر السفن من أشخاص معيَّنين. وهذا يدل أن هناك سفناً خاصة كانت تعمل ما بين مدن بابل فلم يكن باستطاعتها

نقل بضائع المعبد بشكل منتظم وإلا فإنها سوف تصبح تحت سيطرة المعبد شأنها شأن قطاعات أخرى من حياة بابل الجديدة (بما فيها بعض الضيع الملكية) ومع ذلك وبالرغم من تلك الإمكانية التي مفادها أن التجارة الخاصة كانت موجودة في زمن الدولة البابلية الجديدة. إلا أن معظم معلوماتنا حول التجارة في الدولة البابلية الجديدة يعود إلى تلك التجارة التي تقوم بها المعابد وهذا النوع من التجارة ما هو إلا قضية إدارية رُتِّبت ما بين موظفي معابد مختلفة وقد أصبح هذا واضحاً من رسائل تشبه الرسالة التالية التي كتبت في عام ٦١٦ق.م إلى أخي سانامو إيريش ولابد أنه كان يتمتع بمرتبة عالية في أحد المعابد إلى الشمال:

هذه الرسالة موجهة من شازوبو إلى مردوخ – شاكين شم (وهو المعروف باسم شاتامو أينا في إيريش دنادين وهم إخواني وإن بعل ونابو سوف يرعيان صحة وأحوال إخوتي.

لقد أرسلت بيل – نا – إيد شو إلى الأراضي البحرية (جنوب بابل) وذلك لجلب خشب الشبيشو ولكنه لا يعرف طبيعة تلك الأرض، لذلك أرجو من إخواني إرسال رجل معه يعرف الطريق وأرجو تقديم المؤن له. أرجو من إخواني إرسال بعض العفص بقيمة مينا واحدة من الفضة وأرجو أن ترسلوا رسولكم إلي وسأرسل لكم السمسم الأبيض الذي يحبّه إخواني بقيمة مينا واحدة من الفضة.

وتقدم هذه الرسالة معلومات واضحة عن استعمال الفضة كمقياس للقيم. ولقد انتشر هذا العمل طبعاً في منطقة الشرق الأدنى وهناك وثيقة مصرية تعود إلى ما بعد عام ١٣٠٠ق.م. تؤيد ذلك. وطبقاً لهذه الوثيقة وهي عبارة عن دعوى قضائية فإن أحد التجار كان ينتقل من بيت إلى بيت وهو يعرض إحدى الإماء السوريات للبيع إلى أن اشترتها زوجة أحد الموظفين وكان الثمن قد قدر بالفضة، ولكنه كان يدفع فعلاً بقطع من القماش والألبسة وأدوات برونزية وكان كل بند يقيَّم بصورة مفردة.

كانت تحركات البضائع داخل بابل تظهر من رسائل أخرى صادرة من بابل الجديدة وتدور ما بين موظفي المعبد. وكانت هذه الرسائل مختصة بشؤون إدارية أكثر منها تجارية، وسوف نعالج هذا الموضوع فيما بعد.

الفصل العاشر

الديانة

«ماذا تظن أن بإمكاننا افتراض أهمية الدين وقيمته إذا أردنا معرفة تلك الأهمية من وحوش؟ أرجوك أن تفكر يا سيدي فقط بحالتنا الحاضرة، إذ إننا نعلم أن ديننا هو في الكتاب المقدس. إذ إن لدينا فريقاً من الرجال كان واجبهم هو تعليم الدين ولدينا يوم واحد في الأسبوع مخصص للشؤون الدينية وقد روعي هذا الأمر بشكل جيد. ومع ذلك إن تسأل أول عشرة رجال تقابلهم وعندها سوف تسمع ما يستطيعون قوله حول دينهم».

بوزويل – حياة جونسون ٢٩ نيسان عام ١٧٧٦.

ومع أن البابليين أو الآشوريين لم يكونوا وحوشاً ولا بأي شكل، إلا أنه يجدر بالمرء الذي يرغب بدراسة دينهم أن يتدبر في عقله إنذار الدكتور جونسون. ولهذا فعلى المرء منذ البداية أن يقرر فيما إذا كانت دراسة الدين كما يمارس من قبل الرجل العادي هو وعائلته من الذين يسكنون في أكواخ من طين. أم هل على المرء أن يدرس الدين من الشؤون الكهنوتية التي رسمها الكهنة. وهنا نجد خطين من المقاربة ممكنين. إذ يمكن للفاحص والمستقصي أن يحاول وصف مجمع الآلهة والعقائد والمعتقدات المرافقة للدين، أو أن يحاول أن يصف التجربة الداخلية والنظرة الشاملة بالنسبة لأي شخص قد كرَّس نفسه للدين ويقع مجال الاختيار ما بين وصف الإشارة الخارجية والمنظورة التي يمكن ممارستها بثقة لا بأس بها ومحاولة التقاط وميض تلك النعمة الإلهية الروحانية المحاطة بإمكانيات عريضة من سوء الفهم.

لم تكن محاولة معرفة الدين البابلي معدومة أبداً نظراً لأن بعض تفاصيله قد احتفظ به الكتاب الكلاسيكيون في العهد القديم. ومن هذه المصادر فحسب لقد

بقي لدينا ما يكفي لإجراء بعض التوكيدات. ومن الواضح تماماً أن الدين البابلي اعتمد على تعدّد الآلهة مع وجود مظاهر مرافقة لطقوس الخصب متمثلة بشكل قوي. وبالإضافة إلى ذلك فإن المصادر الكلاسيكية تضخم هذه المعلومات وذلك بإيراد بعض التفاصيل حول نشأة الكون بالنسبة للبابليين أي نظريات تختص بخلق الكون والناس وكذلك الآلهة نفسها. وتأتي المادة الرئيسية للنوع الأخير من نُتف من العمل الذي كتبه بيروسوس اليوناني وكان عبارة عن كاهن بابلي عاش حوالي ٣٤٠-٢٧٥ق.م وإن عمل بيروسوس هذا ليس موجوداً الآن ولكن اقتُبست مقاطع منه من بعض المؤلفين القدماء الآخرين.

إن هذه التفاصيل القليلة والمشوّهة قد جرى تضخيمها وتوضيحها من قبل تلك الكميات الكبيرة من الألواح المسمارية ذات الأهمية الدينية التي خرجت إلى النور منذ منتصف القرن الماضي وهذه المواد تشتمل على الملاحم والخرافات والترانيم والصلوات ومقالات أخلاقية وأمثال وتنبؤات وتوجيهات طقوسية وقوائم بأسماء الآلهة وهلمَّ جرا. وحتى أن وجود إيصال تجاري عادي من الممكن أن يلقي الضوء على الطقوس عندما يشير إلى بعض المسائل مثل تسليم الحيوانات للذبح كتقاديم طقوسية وحتى قوائم الأسماء الشخصية لها أهميتها بالنسبة لدراسة الأديان حيث من الممكن أن نعلم الآلهة التي لها شعبيتها في فترة تاريخية معينة أو أمكنة معينة، وتختلف هذه الوثائق بالنسبة لمقدرتنا على فهمها. وأما بالنسبة إلى اللغة فقد كانت إما الأكادية أو السومرية أو كليهما. وعلى العموم فقد كانت بعض النصوص الحثية أو الحورية تلقي الضوء على نص الممارسات الدينية داخل منطقة ما بين النهرين. وهناك نصوص في جميع تلك اللغات لم نستطع فهمها. إذ إن كثيراً من الكتاب الذين كانوا يعتقدون أن الديانة هناك تتفق مع بعض النماذج، استطاعوا استعمال نصوص من الأنواع المذكورة كدليل ظاهر لإثبات بعض النظريات المشكوك في صحتها. ويمكننا أن نذكر أن الكتب التي تبحث في الأديان في منطقة الشرق الأدنى لا تزال تعدل بعض التفاصيل عن موت مردوخ ورجوعه إلى الحياة في أعياد السنة الجديدة في بابل، رغم الحقيقة التي مفادها أن أحد العلماء

المتميزين وهو فون سودين Von Soden من مونستر Monster قد أظهر أن تفسير هذا النص المؤسس على ترجمة قديمة من الصعب الدفاع عنه.

وعند مناقشة الأديان العظيمة الوحدانية، فإن الباحث لديه فائدة كونه قادراً على البدء من تاريخ دقيق محكم. وليس هذا ممكناً بالنسبة للأديان التي لم يتطرق إليها الإصلاح حيث تصل لنا بعض التغيرات في المعتقد وتعديلات الممارسات بشكل تطورات تدريجية من نظام له جذوره في عصور ما قبل التاريخ، وهذا يصدق على ديانات بابل وآشور بحيث أنه قد حدثت تساؤلات فيما إذا كانت تلك الأديان لها علاقة بالسامية قطعاً. فقد أنكر بعض الثقات أن هذه الأديان هي أديان سامية بحيث قرروا أن تلك الأديان هي من أصول آسيوية ولكنها مزيّنة وملوّنة ببعض المظاهر السامية، ولكن الرأي السائد هو أنه مع وجود أصول سومرية إلا أن المفاهيم الدينية كانت مشابهة للمفاهيم العبرية قبل زمن موسى بالنسبة للكنعانيين وللعرب قبل محمد، وهكذا فمن الممكن اعتبارها سامية وتصبح القضية ذات بعض الأهمية عند دراسة الديانة في العهد القديم نظراً لميول بعض العلماء الإسكندنافيين وبعض العلماء البريطانيين والألمان بأن يروا نماذج في أديان شعوب الشرق الأدنى لها علاقة بالملكية وأعياد السنة الجديدة، وطقوس الإخصاب وليس من الصعب أن نرى بعض النصوص والمفاهيم في ترانيم العهد القديم المشابهة للترانيم البابلية وهكذا نستنتج أن ترانيم العهد القديم ربما كانت مأخوذة ومشابهة لمثيلاتها في الدين البابلي الذي نعتبره سامياً قد أقحم في الطقوس السومرية، فالتشابه مابين الأشكال البابلية والعبرية ليس من الضروري أن يكون تشابهاً بالاستعمال وهذا إنذار وليس محاولة لبناء نظرية جديدة أو هدم هذه النظرية.

ومع أنه قد وجدت منذ زمن أقدم السجلات المكتوبة في مجتمع إلهي متطوّر سوف نناقشه فيما بعد، إلا أن الديانة السومرية البابلية كانت روحانية. فقد رأى الرجل العادي نفسه محاطاً بقوى كان يعتبرها إما آلهة أو شياطين وكان هناك شيطان هائج قد أظهر نفسه بشكل عواصف رملية تكتسح الصحراء، وإن الإنسان الذي يخالف هذا الشيطان سوف تصيبه مصائب مؤلمة. أما النار فكانت أحد الآلهة

والنهر كان إلهاً، وفي إحدى المواحي طُلب من شخص أن يقفز فوق الماء فإذا غرق وأمسك به الماء فإنه مذنب. وكان الضوء الساطع الذي يظهر فوق الجبال قبيل شروق الشمس هو انبعاث رجال العقرب الذين يحرسون الشمس عندما تصعد إلى السماء، وكان هناك جيش من الشياطين مستعدين للإمساك بأي رجل أو أية امرأة في ظروف خاصة، مثلاً في الأماكن الموحشة أو أثناء الأكل أو الشراب أو أثناء النوم وبصورة خاصة أثناء الولادة. ولم تكن الآلهة نفسها محصنة ضد الشياطين وهجماتها ولقد اعتبر خسوف القمر هجوماً من قبل الشياطين على إله القمر (سن) وانهزام ذلك الإله أمام هجمات الشياطين. وهناك إحدى الخرافات تذكر ما يلي:

(لقد اقتحمت الآلهة الشريرة السبعة طريقها إلى كبد السماء ولقد تجمعوا وهم غافون حول هلال إله القمر وهكذا أصبح مظلماً ليلاً ونهاراً ولم يجلس في مجلس حكمه. ولكن الإله إنليل رأى تعتيم البطل (سن) القمر في السماء وقد نادى الإله إنليل وزيره نوسكو وهو إله النار وقال: (أيها الوزير نوسكو، اذهب إلى الهوة تحت الأرض واذكر للإله (إيا) ما حدث لابني سن الذي خبا نوره وأصبح مظلماً في السماء ولقد سمع إيا هذه الرسالة فعض على شفتيه وملأ فمه بالنواح ثم دعا ابنه مردوخ وأصدر له أوامره قائلاً: اذهب يا ولدي مردوخ..).

تشير هذه الأسطورة إلى مقدمة أحد الطقوس المخصصة لزمن الخسوف بقصد حماية الملك ومن خلاله حماية بلاده من الآلهة السبعة الشريرة الذين وبعد انتصارهم المؤقت على سن انقضوا فوق البلاد كعاصفة وهاجموا البلاد.

وبالنسبة إلى الحماية ضد الشياطين أو للخلاص في حالة التعرض للهجوم كان للبابليين عزاء في أشكال دينهم الرسمي أو الشعبي ولكن في عدة أشكال مثلاً كان الواحد يلبس حجاباً أو ورقة (كما يظهر في اللوحة ٥٦ب) ولم تهزأ الآلهة العظمى بمثل هذه الوسائل نظراً لأن مردوخ استعمل مثل هذه الوسائل في قتاله مع الوحش تيمات. **«لقد أمسك مردوخ بين شفتيه بقطعة من الصلصال الأحمر وأمسك بيده النبات المضاد للسموم»** وكان شكل الحجاب أو الرقية يحمل صورة للشيطان

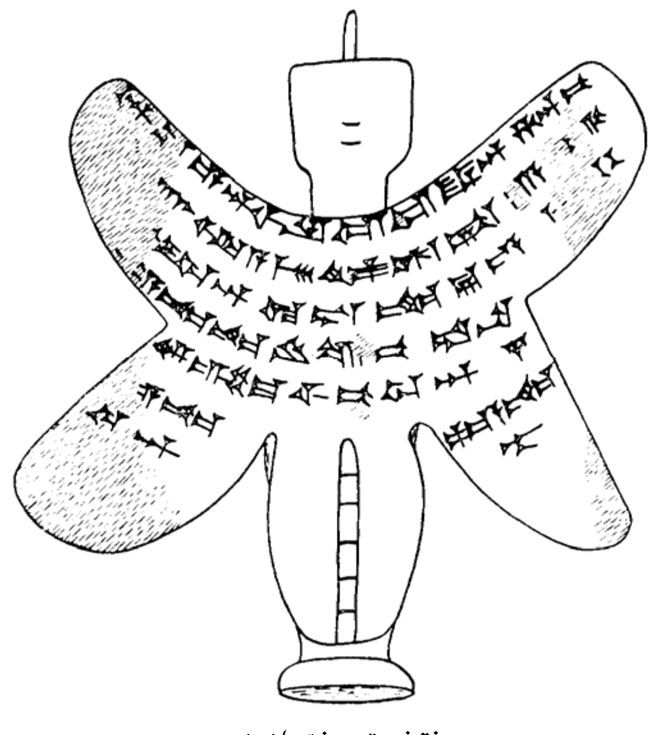
الذي كان الإنسان يبغي الحماية منه وتتلى أدعية سحرية تحت الآلهة على القيام ضد ذلك الشر المهدّد ونقرأ عن هذه الأعمال ما يلي:

دعاء: «إن ذلك الشخص الذي اقترب من بيتي يخيفني ويوقظني من نومي ويمزّقني ويجعلني أرى الكوابيس التي أتوسل إلى الإله باين Bine حارس العالم السفلي أن يقوم نينوترا أمير العالم السفلي وبأمر من مردوخ الذي يعيش في إيجيليا Eagelia ونايل دعوا الأبواب والمتاريس تعلم أنني تحت حماية السيدين الإلهين».

إن أحد أشكال التعاويذ أو الحجب كان يُلبس كحماية ضد المنغصات المرعبة أو حتى خطر الرياح الغربية الحارة التي تجلب العواصف الرملية في الصيف من الصحراء. وكان شكل التعويذة ينحصر في رسم رأس الشيطان محفوراً في إطار حجري أو برونزي وأحياناً يمثل الشيطان بالكامل (انظر اللوحة ٥٧أ) ويظهر صدره الذي يشبه الطائر وهو يحمل العاصفة ويظهر ذنبه الأعوج وأجنحته الأربعة وهناك قد كتب ما يلي:

دعاء: إنني أنا الإله (بازوزو) ابن الإله هابني ملك شياطين الريح الشريرة إنني أنا الذي يثور بقوة في الجبال (في العالم السفلي) بحيث ترتفع تلك الرياح وبالنسبة إلى تلك الرياح التي ترافقها فإن الرياح الغربية تقف في المقدمة ولكن أجنحة هذه الرياح قد كسرت.

وهنا نلاحظ أن الدعاء الأخير هو الصيغة السحرية التي عندما يلفظها المرء تصبح الشياطين عديمة القوة.



نقش تعويذة بازوزو

فلا يستطيعون إيذاء حاملها ولقد استعمل هذا الحجاب لحماية النساء أثناء الولادة وهو يشبه حجاب لاماشتو الذي كان مختصاً بذلك المخلوق الذي هدد النساء أثناء الولادة والنساء المرضعات. وإن أكثر الأمثلة شهرة يحمل على أحد وجهيه أربعة تسجيلات كان الأدنى والأبرز صورة وحش له رأس أسد وجسم امرأة وهذا الوحش الذي يركب أتاناً كانت مبحرة وقارب يجري على النهر وكانت ترفع حيوانين وهذه تمثل لاماشتو نفسها ، التي كانت وعن طريق بعض الوسائل السحرية قد أرسلت على الطريق (انظر اللوحة ٥٤ب) وبالإضافة لمثل هذه الحجب أو التعاويذ وجدت سلسلة كاملة من الطقوس التي كانت تستخدم ضد الكائن المخيف عندما يظهر على أحدهم بعض أعراض الإصابة بعرض شيطاني كانوا يستدعون الساحر لتشخيص المرض ولطرد الكائن الشرير: وكان هذا يتم بتلاوة الدعاء ومع أجزاء الطقوس المناسبة بعد التوسل إلى الإله الذي كان هو (مردوخ ابن إيا) وهو إله السحر

ومن الممكن لأي من الآلهة أن يساعد البشر ضد الشياطين، ولم تكن جميع الآلهة قادرة على مساعدة البشرية المتألمة وكان اثنان من الآلهة بعيدين بحيث لم يستطيعا مساعدة البشرية أما الثالث وهو إيا فقد كان موثوقاً به وصديقاً صدوقاً للإنسان وكان مستعداً للمساعدة في أوقات الشدة وهو مستعد دائماً لإيقاف غضب إنليل أو شرور الشياطين وهذا الإله وهو إله المياه وإله الحكمة كان هو القوة العليا ضد السحر وقد نقل معارفه إلى ابنه مردوخ، وهذا الإجراء العادي كان يتبعه رجاء رجل واقع في محنة وهو يتوسل إلى الإله مردوخ من خلال أحد الكهنة طالباً المساعدة في محنته. ويقال إن مردوخ ذهب إلى والده إيا وكرر أمامه المشكلة المذكورة وبعدها استلم الجواب التالي:

يا بُني ما هو الشي الذي لا تعرفه...؟

وتبع ذلك نصيحة حول الإجراءات السحرية بالنسبة للقضية المذكورة وكما سوف نرى فإن النار كانت القوة العظمى ضد السحر والنفوذ الشرير وكانت الآلهة التي تمتلك القوة ضد السحر هي ثلاثة وهم من آلهة النار: غيرا Gira وجبيل Gibil ونوسكي Nuski وكان هؤلاء الثلاثة يناشدون للعمل ضد الشياطين أو الساحرات بالطريقة التالية:

دعاء: أيها الإله المتوهج غيرا ابن أنو البطل أنت أشد إخوانك شراسة أنت الذي تحكم بالعدل مثل الإله سن وشمش، أرجوك أن تحكم في قضيتي وقرر شيئاً لمساعدتي، احرق الساحر والساحرة، يا غيرا اسحق الساحر والساحرة احرقهم، اربطهم يا غيرا اقضِ عليهم آه يا غيرا اطردهم خارجاً.

وكان الكهنة المختصون بالخلاص من الشر والقوى السحرية أو الشياطين هم الذين ينجزون الأدعية المناسبة والطقوس وكانوا يستخدمون الأدعية والطقوس لشفاء المرض إما لوحدهم أو بمساعدة بعض تقنيات الجراحة أو الطب. وكان المزج ما بين السحر والإجراءات العملية يظهر في النص التالي الذي يقدم شيئاً لمعالجة وجع الأسنان:

وبعد أن خلق أنو السموات، خلقت السموات الأرض، وخلقت الأرض الأنهار، وخلقت الأنهار القنوات، وخلقت القنوات الطين، وخلق الطين الديدان، وقد أتت الديدان وهي تبكي أمام الإله إيا وقالت ماذا ستعطيني من الطعام؟ فأجاب إيا: لسوف أعطيك التين الناضج فقالت الدودة: ماذا يفيدني التين الناضج؟ دعني أشرب ما بين الأسنان وضعني فوق اللثة بحيث أستطيع أن استهلك دماء الأسنان وأتلف لب اللثة. فقال الإله: ((نظراً لأنك قلت هذا أيتها الدودة، أتمنى من إيا أن يضربك بقبضة يده...)) وينتهي النص بالنصيحة بتحضير غسول الفم مؤلف من البيرة والزيت وبعض أنواع الأعشاب. وكانت تقنيات الكهنة تحضر في إجراءات ذات قيمة عملية زهيدة مثلاً استعمال السحر وهاك توضيحاً لتلك العمليات:

لقد وضعت كل ذلك الرجل لعنة الشر وكأنه الشيطان
وبعد ذلك يذكر الأعراض.
لقد أصيب بالسكون المشوب بالدوخة.
سكون غير صحي، لعنة شريرة، تعويذة، صداع
لقد غادره إلهه وانسحب من عنده
ولقد وقفت جانباً على الحياد آلهته التي كانت تعتني به
ولقد اعتراه سكون غريب مصحوب بالدوخان وكأنه قطعة من رداء

ويقول النص إنه وبعد ذلك لاحظ مردوخ هذا الرجل فذهب مردوخ إلى والده إيا ولخص له القضية، وعندها قدم إيا المشهور بحكمته وحصافته، قدم لمردوخ تعليماته بشأن الفلاح:

اذهب يا ولدي مردوخ
خذه إلى بيت الطهارة النقي
خفف وقع التعويذة عنه، خفف وقع التعويذة عنه
وذلك الشر المستطير في جسمه
وسواء كانت اللعنة الموجهة لوالده أو لوالديه
أو لعنة أخيه الأكبر أو لعنة قتل إنسان، فهو لا يعرف

وبعد مناشدة إيا

دعوا اللعنة تتقشر كما تقُشر البصلة

ودعوها تنزع بقوة مثل هذه التمرة

ودعوها تُلف مثل هذا الفتيل

وهناك عدة أدعية لكل من الأشياء المذكورة (البصل، التمر والفتيل) وأحياناً بالنسبة لبعض الأشياء التي لم تذكر (لفائف من الصوف أو شعر الماعز) وكان الكاهن يقوم بعدة أعمال رمزية للتصرف ضد اللعنة الشريرة،

دعاء: مثل هذه البصلة التي سوف أقشرها وأرميها في النار، والنار سوف تلتهمها كلياً، والتي جذورها سوف لا تستقر في التربة وأغصانها سوف لا تمتد، وهي سوف لا تستعمل كوجبة طعام للإله أو الملك وهكذا فإن القسم واللعنة والمرض والإعياء، والذنوب، والخطايا، والشرور، وحنث اليمين، والمرض الذي يعتري جسمي ولحمي وأطرافي أدعو أن يذهب عني كما حصل لهذه البصلة وآمل أن تحرقها النار كلياً في هذا اليوم، أتمنى أن تزول هذه اللعنة حتى أستطيع أن أرى النور.

إن ذكر بيت الطهارة النقي يدل على أن الاحتفال المشار إليه إنما قد تمَّ داخل المعبد ولكن غالباً ما تتم مثل هذه الأمور في البيوت وليس في المعابد أو في غرفة التمريض أو في كوخ مصنوع من القصب بجانب النهر أو في أرض مفتوحة.

وهناك تقنية سحرية أخرى كانت مستخدمة وهي متميزة عن السحر الرحيم وهي الاستبدال وهناك مثال جيد مذكور في النص التالي من آشور وفيما يلي خلاصة لهذا السحر:

لعمل مبادلة رجل تطلبه آلهة الموت: عند غروب الشمس، يضع المريض خروفاً صغيراً يستلقي بجانبه على الفراش، وعند الفجر ينهض الكاهن وينحني احتراماً لإله الشمس. وبعد ذلك يحمل المريض الخروف في حضنه ويذهب إلى بيت يحتوي على شجرة (تمر حنة) وبعد ذلك يأمر الكاهن المريض والخروف أن يستلقيا جنباً

إلى جنب على الأرض وسوف يلمس الكاهن حنجرة الرجل المريض بواسطة خنجر برونزي وبعد ذلك يلبس الكاهن الخروف بعض الملابس ويلبسه حذاء ويضع غطاء على عينيه ويضع الزيت على رأسه ثم يخلع الكاهن عمامة الرجل المريض ويضعها على رأس الخروف وسوف يعامل الكاهن الخروف وكأنه رجل ميت. وبعدها سوف ينهض الرجل المريض ويقف على الباب بينما يكرر الكاهن بعض الأدعية ثلاث مرات، وبعد ذلك يخلع المريض ملابسه ويسلمها للكاهن ثم يخرج وبعد ذلك يصيح الكاهن في وجه المريض قائلاً: لقد مات فلان الفلاني، وبعد ذلك يصدر الكاهن الأمر بمغادرة الحداد... ثم يدفن الخروف.

تعود التعاويذ المقتبسة أعلاه في أبسط أنواعها إلى الأسرة الثالثة في أور (حوالي ٢١٠٠ق.م) مع أنه لم توجد مجموعات مثل هذه إلا في تاريخ متأخر عن هذا التاريخ وتعرف المجموعات الثلاث من هذا النوع وهي شوربو Shurbu وماغلو ويوتوكي (وهي الأرواح الشريرة) وإن اسمي الاثنين الأولين يعني عملية الحرق وهذا يدل على أن النار كانت تستخدم لطرد الأرواح الشريرة. مع أنه كان هناك عدة تقنيات متوفرة وخصوصاً بالنسبة للأرواح والأشباح. وكانت أدعية المالغو تستعمل لإبطال أعمال السحرة والساحرات وكانت تلازم السحر الأسود وكانت تُلفظ وتُقال بينما كانت التماثيل المصنوعة من الشمع أو الخشب أو البرونز الخاصة بالساحرة التي سببت حدوث الشر، كانت هذه التماثيل تُحرق بالنار، ومن جهة أخرى كانت طقوس الشوربو تستعمل كوسيلة للخلاص من الذنوب والتجاوزات الطقوسية أو خرق الممنوعات من الأمور التي كانت تُغضب الإله وتجلب المرض للجاني. وكانت هذه الطقوس تتم أمام بعض الأشياء ثم يُحرق هذا الشيء وكانت أدعية أوتوكي ليموتي تذكر للتخلص من بعض الأرواح الشريرة.

هذه الأنواع الثلاثة من الرقى والسحر لم تكن الوحيدة المستعملة والمعروفة وهناك نص يحتوي على نماذج واسعة من مثل هذه العناوين وكان الغرض منها يظهر في السطر الأول ونصه كما يلي: عناوين المسلسلات التي توصف لمعرفة ودراسة الرقى التي يستعملها الكهنوت والقوائم التالية: تحتوي بالإضافة إلى المواضيع

المذكورة، بعض المواد مثلاً الصداع، ووجع الأسنان، وبيت الطهارة، وتخفيف اللعنة، والشرور من جميع الأنواع، ووجع العين، وشفاء عضة الثعبان، وشفاء لسعة العقرب، الطقوس السحرية للبلدة والبيت والحقل والبستان والنهر، ولقد جمع مثل هذه الوصفات آشور بانيبال في مكتبته.

كانت جيوش الأرواح الشريرة التي هدّدت البابليين والآشوريين ذات أنواع عديدة، فهذه الشياطين وهم أولاد Anu آنو يعشعشون في الجبال في الغرب، وكان يشار إليهم غالباً باسم السبعة مع أنه كان هناك أكثر من سبعة. كان هناك لاماشو التي طالما أشير إليها وكانت روحاً شريرة هددت النساء حين الولادة وكانت تسرق الأطفال الرضع من صدور أمهاتهم. وكان هناك ناماتارو وهو شيطان الطاعون وهو رسول نبجرين إله العالم السفلي، وكانوا يخشونه كثيراً، ورابيسو الذي كان يترصد على الأبواب والزوايا المظلمة، ثم هناك ليتيتو Lititu الذي كان يزور الرجال وينغص عليهم نومهم بإجراء إشارات فاسقة وداعرة. وكان هناك بعض الوحوش التي لا وجوه لها وكانوا يمزقون الناس إرباً إرباً وكانوا يتجمعون حول فراش الرجل المريض إيذاناً بموته، وبالإضافة إلى هؤلاء كان هناك الأشباح الخاصة بالموتى من البشر أي أشباح الذين ماتوا بضربة سلاح حاد أو شبح قد مات بسبب ذنوبه ضد الإله أو الجريمة ضد الملك، كل هذه الأنواع من الأشباح كانت تتجول كالشخص الذي أهملته عائلته بسبب عدم احترامه للطقوس: «**هذا الشبح هو شبح منسي أو شبح لم يذكر اسمه أحد أو شبح ليس هناك من شخص يهتم بأمره**» لم تكن الأشباح لتزرع الرعب في قلوب الأشخاص فحسب، بل كانت تلك الأشباح تؤذي أولئك الذين تظهر تلك الأشباح أمامهم. ولمعالجة هذا الخطر، فقد أعِدّت لهم الأدعية والطقوس التي نذكر الآتية كأمثلة:

«لقد أعدّ الخبز غير الخمير المؤلف من عدة أصناف مع تلاوة الأدعية ثلاث مرات. أيها الرجل الميت لماذا تظهر أمامي أنت يا من أصبحت بلداتك الخرائب ومنازلك العظام. أما أنا، فأنا لا أذهب إلى الكوثاه Cuthah وهي مكان تجمع الأشباح، فلماذا أنت تلحقني؟ فلتلحقك لعنات الآلهة».

وعند غروب الشمس كان الخبز السحري الذي أعدّ بالطريقة المذكورة يؤخذ إلى ثقب حضر حديثاً ويصب بالإضافة إلى الطحين والماء في تلك الحفرة من خلال قرن ثور وبعد ذلك يوضع مشعل بجانب مبخرة موجودة قرب المكان. وبينما يتصاعد عامود البخور تجاه الشمس الغاربة تتلى أدعية أخرى تدعو إله الشمس للعمل على سحر الروح الشريرة وإبعادها. وبعد ذلك:

سواءً كانت روحاً شريرة أو شبحاً شريراً أو شبحاً مدفوناً أو غير مدفون أو شبحاً ليس له أخ أو أخت أو شبحاً ليس هناك من يتذكره أو يذكر اسمه أو شبحاً تنتمي عائلته إلى البدو الرُّحّل أو شبحاً قد تُرك في الصحراء...

وأخيراً وفي حالة كون الشبح قد سبّب المرض لأحدهم وهذا يخشى أن يرى الشبح، فإنهم كانوا يضعون تمثالاً من الشمع للرجل المريض يوضع في مقبرة العائلة مع تماثيل صلصالية للأشباح، وكان لهذا العمل غرضان الأول دفن الأشباح بوجود علامات الدفن والثاني غش الأشباح بجعلهم يعتقدون أن ضحيتهم قد مات فلا يعودون إليه.

وهناك علاج بديل يمكن تنفيذه بالشكل التالي، ولكنه يختلف عن الوصفة السابقة إذ يتطلب معرفة دقيقة بالشبح. وفي هذا العلاج تُعد قطعة من الأرض بشكل احتفالي وذلك بإجراء الطقوس والتغني بالابتهالات مدة ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع يهيّأ تمثال صغير من الصلصال بشكل الشبح المجرم ويكتب اسم الشبح منقوشاً على الورك الأيسر ثم تلوى قدما الشبح ويُلقى به أرضاً ويوضع ناب كلب في فمه وذلك كرمز للتحدي. وتوضع منصة طقوسية ويصب ماء الإراقة إكراماً لإله الشمس شماش، وبعد ذلك تبدأ المجموعة بتلاوة ما يلي ثلاث مرات:

«استحلفك بالإله شماش أن تخرج من جسد (فلان) ارحل، اذهب».

ثم يضيفون ما يلي:

وهكذا سوف تعود وسوف تدفن ذلك التمثال في ثقب عند غروب الشمس وطالما ظل هذا التمثال فإن هذا الرجل سوف لا يرى الشبح الميت أبداً.

وقد استعملت تقنية مختلفة قليلاً عندما لا يكون الشيطان متمثلاً بالشبح الصلصالي، عندها يتصرفون بالشبح الصلصالي بطرق مختلفة وفيما يلي نورد مقتطفين مأخوذين من بعض الطقوس التي تعالج الشيطانة المخيفة لامانشو.

الطقوس: سوف تنظف الموقع وسوف تأخذ بعض الصلصال من الموقع ثم تصنع تمثالاً للامانشو ثم تضع هذا التمثال على رأس الرجل المريض ثم تملأ المبخرة بالرماد وتغرز خنجراً فيها وتضعها فوق رأس المريض لمدة ثلاثة أيام. وفي نهاية اليوم الثالث تضرب التمثال وتغرز الخنجر فيه وتدفنه في زاوية الجدار.

رقية أخرى لأجل لامانشو:

الطقوس:

تصنع تمثالاً لابنة آنو (لامانشو) من صلصال تستخرجه من خندق ثم تصنع الصلصال بشكل حمار وتقدم له العلف ثم تقدم له الإراقة من الخبز والبيرة وتذبح خنزيراً صغيراً وتضع قلبه في فم ابنة آنو ولمدة ثلاثة أيام وثلاث مرات يومياً تتلو الدعاء أمامها، وفي نهاية اليوم الثالث تأخذ التمثال إلى الأراضي المكشوفة.

وهناك أحد الطقوس لإزالة الروح الشريرة وذلك بحبسها في وعاء ثم نقل ذلك الوعاء. وهذا العمل يقدمه نص من النصوص وهو مترجم بالشكل التالي:

هذه رُقية تستهدف إخراج أحد الآلهة الجالس على صدر رجل والماسك بفمه بحيث لا يستطيع أن يأكل أو يشرب الماء. سوف يربطون ذكراً من الماعز على رأس فراشه ثم يقطعون عصا من البستان ويلفون خيوطاً ملوّثة على العصا ثم يملأون كأساً بالماء ثم يكسرون غُصْناً من البستان ويضعون العصا أو كأس الماء والغصن خارج بوابة المدينة.

ثم يأتي الحمالون ويحملون ذكر الماعز الكبير وكأس الماء والعصا والغصن إلى الأراضي البور خارج المدينة وسوف يأخذونهم جميعاً إلى أرضٍ ريفية ويفصلون العصا وكأس الماء بعضهما عن بعض ثم يحملون الغصن والماعز إلى الأرض الريفية الواقعة على الطريق العام ثم يذبحون ذكر الماعز ويأخذون أظلافه وجلده ويقطعون

رأسه وبعدها يطبخون اللحم ثم يملأون بعض الأواني البرونزية بالعسل والزيت ويجلبونها إلى هناك. ثم يلبّسون الغصن بجلد الماعز ويربطون القوائم الأمامية بالشرك ثم يحفرون حفرة ويصبون العسل والزيت فيها، وبعد ذلك يفصلون القوائم الأمامية ويضعونها في الحفرة (وبقية الطقوس مكسورة ولا يمكن قراءتها)، إلا أن النتيجة هي كما يلي:

إن ذلك الرجل المريض سوف يعيش وسوف يرحل الإله الرابض فوق صدره وعندها سوف يفتح فمه ويأكل الطعام ويشرب الشراب.

إن الشياطين الذين تسبب هجماتهم المرض من الممكن أن يكتفوا أو ينخدعوا بجلب بديل ويمكن للبديل أن يتخذ شكل حيوان أو قصبة بطول الرجل وهذه تجلب وتوضع بجانب المريض وهنا يفسر النص باقي الحفلة بما يلي:

إن شيطاناً شريراً لعيناً في جسد هذا الرجل وهي تغطي الرجل وكأنها رداء حالما يمشي وهي تمسك يديه وقدميه وتشل حركة أطرافه.

وبعدها يأتي إيا بشكل غامض وهو إله السحر وهنا نقدم نص الطقوس.

يعتبر الخروف الصغير بديلاً للإنسان فهو يقدم إنقاذاً لروحه ثم يقدم رأس الخروف فداء لرأس الرجل ورقبة الخروف فداءً لرقبة الرجل وصدر الخروف فداءً لصدر الرجل.

ويمكن أن نرى هذا النوع من المعتقدات وهو أن يُقدّم للشيطان بيت بديل من جسد الإنسان من الممكن أن نلمسه في العهد الجديد من الإنجيل في قصة خنزير غادارين إذ يقال إن هذه الحيوانات سيئة الحظ كانت تسكنها الشياطين التي طُردت من جسد أحد الرجال وطبقاً لرواية الإنجيل فإن الشياطين قد طردت هذه الضحية البشرية إلى الصحراء وهي منطقة محبوبة لدى الشياطين وكانوا يخافون أن يرسلوا إلى الهاوية. هذا وإن مفهوم الهاوية والكلمة ذاتها تعود إلى أبسو السومريين والأكاديين وهي مياه البحار العميقة هنا وإن فكرة تقديم بيت بديل للشيطان والمطرود قد ذكرت في الإنجيل في الأمثال:

عندما تخرج الروح النجسة من جسم الرجل فإنها تمر خلال أماكن لا ماء فيها وتبغي الاستراحة ولكن لا تجدها. وبعد ذلك تعول الروح: سوف أعود إلى بيتي من حيث خرجت وعندما تصل إلى البيت تجده فارغاً ومكنساً ومدهوناً وبعد ذلك تدخل الروح معها سبعة أرواح أخرى أشد شراً منها وعندها يدخلون ويسكنون هناك ولكن وضع الرجل المريض يتحوّل من سيئ إلى أسوأ.

ليس جميع الشياطين من مسببي الضرر للإنسانية إذ هناك بعض التضرعات تنتهي بما يلي:

دعوا يوتوكو الشرير وآلو الشرير يذهبان بعيداً.

ودعوا يوتوكو الصالح وأحد رجال الجن الصالحين يحضرون.

وكما نجد شياطين من نوع اليوتوكو السيئين هناك يوجد يوتوكو خيرين وهم ممثلون جيدون لبعض الأنواع البيتية مثل الشيدو واللاماسو وقد كان هذان الاثنان يقفان عند مدخل القصور الملكية الآشورية بشكل أسدين ضخمين مجنّحين (انظر لوحة رقم ٥٣) وثيران وكانت هذه تعتبر وقاية ضد الشر. وكانت البيوت الخاصة وغُرف النوم تحمى عن طريق بعض التماثيل الصغيرة الجاثمة على بوابة المنزل والمدفونة تحت عتبة المنزل ولقد اكتشف عدد كبير من هذه التماثيل. وفي أور مثلاً اكتشفت تماثيل صلصالية في صناديق من الطوب المشوي موضوعة تحت الأرض، إزاء الجدران وهذه الصناديق المجهّزة بأغطية كانت إحدى نهايتها مفتوحة تواجه وسط الغرفة التي كان من واجب التماثيل دراستها وحمايتها، وكانت هذه التماثيل المدهونة باللون الأسود والأحمر أنواعاً مختلفة، وقد كان هناك تماثيل بشرية تلبس ألبسة مؤلفة من قبعة مدببة ورداء طويل مزين بحراشف السمك. وكان هؤلاء رجالاً من السمك وهي مخلوقات مذكورة في الأساطير وكانت هناك تماثيل لها أجسام بشرية ورؤوس وأجنحة الطيور وبعضها كانت تمثل شخصاً ذا لحية طويلة ورداء طويل وكانت يداه مطويتين عبر صدره كما لو كان ممسكاً بشيء ما. ومع ذلك فقد كانت الأخرى ممثلة للمشروشو أو التنين الأحمر وهو مخلوق له جسم كلب ورأس أفعى وذنب طويل. وهناك تنين من نوع آخر يظهر في اللوحة رقم ٥٦أ.

إن الطقوس التي كانت تصنع بموجبها مثل هذه التماثيل كانت تصنع وتوضع لحماية البيوت وقد وُجد الكثير منها. وهي تبدأ بتعداد المصائب التي يتعرض لها البيوت كما يلي. «وسواء كان هذا شبحاً شريراً أو روحاً شريرة أو نوعاً آخر من الأشباح الشريرة أو غولاً شريراً أو إلهاً شريراً أو لامانشو أو لابسو أو ليلو أو إحدى فتيات ليلو أو يد أحد الآلهة أو يد إحدى الإلهات أو الطاعون أو شيطان الطاعون أو الشيطان المسبب للحظ السيء أو الموت أو الحرارة أو الحمى أو القابل، مهما يكن ذلك من المخلوقات التي تسبب الضرر للإنسان في بيته». وبعد ذلك كانت تصدر التعليمات لتحضير التماثيل المصنوعة من الخشب لحماية البيت كما يلي:

سوف ترشون الماء المقدس وتنصبون منصة طقوسية وتقدمون الخرفان الصغيرة كتقاديم وتجلبون اللحم والشحم واللحم المشوي وتنثرون التمور والوجبات الرائعة وتقدمون مزيجاً من العسل والزبدة وتضعون المبخرة وبها الأخشاب ذات الرائحة الزكية وتصبون الخمور للإراحة. وتنظفون المبخرة والمشاعل وأواني المياه المقدسة، وتتكلمون هذا الكلام أمام شاماش:

الدعاء: أيها الشماش، أيها السيد العظيم القاضي العالي المقام ذلك الذي يشرف على جميع المناطق في السماء والأرض الواحد الذي يوجه الأحياء والأموات أنت الشجرة المقدسة الطرفاء الخشب النقي الصالح لصنع التماثيل الصغيرة التي سوف أضعها في بيت (فلان) وذلك لهزيمة الأرواح الشريرة أو الكائنات الشريرة لقد انحنيت أمامك، ولذا أرجو أن تكون جميع أعمالي مقبولة.

إن الإشارة إلى شجرة الطرفاء التي كانت تمثل إله الشمس أصبحت الآن تقطع بالطريقة الموافق عليها وهكذا يقال.

سوف تقول هذا وبعد ذلك يضرب شجرة الطرفاء بفأس من الذهب، ومنشار من الفضة ويقطع هذه الشجرة بأداة من الغولمو.

وبعد ذلك تصنع مجموعات من التماثيل من الخشب وكانت تُلبس ألبسة مناسبة وبعد ذلك ينشدون الأناشيد المناسبة وفي الصباح التالي وعند شروق الشمس كانت

التماثيل توضع مع المبخرة والمشعل والماء المقدس وسبع حبات من الفضة وسبع من الذهب وحجرين كريمين في حاوية تدعى كولاتو. وبعد ذلك تحدث الإراقة لإله الشمس وتتلى الأدعية: هولولو هولولو

وكانت تصنع مجموعات من التماثيل وهي مصنوعة في هذه المرة من الصلصال نظراً لأن الصلصال المشوي يدوم وقتاً طويلاً خصوصاً في الأرض الرطبة أكثر من الخشب المنحوت وإن هذا النوع من التماثيل هي التي وجدت في أور وفي أمكنة أخرى، وكانت كثير من هذه التماثيل الصلصالية تحمل فوقها صِيغاً سحرية كما تذكر النصوص وهكذا نجد ما يلي مكتوباً على التماثيل الصلصالية من هذا النوع وبشكل كلاب.

أوجّه هذا الكلام إلى الكلب المطلي بالجبص: لا تتوقف أيها الكلب لتفكر، افتح فمك، وأوجه الكلام التالي للكلب الآخر: لا تتوقف أيها الكلب لتفكر، ابدأ بالعض أوجه هذا الكلام للكلب الأسود: اقضِ على حياة خصمك، وأوجه ما يلي إلى الكلب الآخر ابدأ بالنباح. وأوجه هذا الكلام للكلب الأحمر: اطرد الشيطان الأساكو، وأوجه الكلام إلى الكلب الآخر: إنك من تقبض على الآخرين من الأعداء. إني أوجه هذا الكلام إلى الكلب الأخضر: إنك الذي يسبب هرب الأعداء. إني أوجه هذا الكلام إلى الكلب الآخر: إنك من تعض الأعداء. إني أوجه هذا الكلام إلى الكلب المرقط: إنك من تقدم الأناس الأتقياء والملحدين. إني أوجه هذا الكلام إلى الكلب الآخر: إنك من تطرد الأرواح الخبيثة.

وفي الطقوس المختصة بتنقية البيوت كانت تؤخذ جميع التماثيل الخشبية والصلصالية إلى ضفة النهر وتوضع بشكل تواجه به الشرق وهناك وعند شروق الشمس كانت تجري احتفالات أخرى وذبائح وأدعية وابتهالات إلى إله الشمس وبعدها ترجع التماثيل إلى البيت حيث تجري احتفالات وذبائح وابتهالات وهي موجهة في هذه المرة إلى مردوخ وللآلهة العظمى الثلاثة وإلى إله وإلهة البيت وإلى الروح الحامية (شيدو) للبيت وإلى ملكة العالم السفلي تحت لقب من ألقابها الكثيرة العدد. وبعدها كانت تنظف أرجاء البيت ابتداءً من الزوايا والأبواب والسقوف

ومنافذ الهواء وذلك بواسطة عدة مواد وكانت هذه المواد تخرج وتوضع على البوابة وهكذا فإن الروح الشريرة قد أخرجت وأصبحت التماثيل مسؤولة عن نظافة البيت من الأرواح الشريرة وكانت الضحايا تقدم الآن للتماثيل وتتلى الأدعية التي تخبرها بأن:

«إنه وبسبب وجود بعض الأشياء الشريرة التي تقف وتدعو لعمل الأعمال الشريرة في بيت فلان الفلاني وهو ابن فلان الفلاني، لقد جعلتكم تقفون على البوابة يميناً ويساراً لكي تطردوهم من البيت العائد لفلان الفلاني ابن فلان الفلاني وينبغي أن يبتعد أي شيء شرير من هذا المكان على مسافة ٣٦٠٠ ساعة مزدوجة».

وكانت عملية تنقية البيت طويلة ومعقدة ولاشك مكلفة ولكنها كانت فعالة ضد جميع أنواع القوى الشريرة لمدة غير محدودة من الزمن. وكانت الفترة الممنوحة للأمان هي سنة واحدة.

«لكي نقطع رجل الشر عن بيت هذا الرجل ينبغي أن تخرج العسل المستخرج من الجبال ببذور...» (هناك سبعة نباتات مذكورة بذورها) ثم تقسمها إلى ثلاثة أجزاء ثم تدفنها في عتبة البيت يميناً ويساراً وهكذا فإن المرض أو الصداع سوف لا يقترب من هذا البيت ولا من صاحبه مدة سنة واحدة لم تكن هذه الاحتياطات ضد الأرواح الشريرة كافية دائماً ولذلك فقد كانت تواجه بالسحر وشأنهم شأن بقية الشعوب فقد كان البابليون يعرفون السحر المفيد والسحر الأسود أيضاً.

وقد سمح القانون باستعمال السحر المفيد ابتداءً من عهد حمورابي (حوالي ١٨٠٠ق.م) ولم يسمح باستعمال السحر الأسود إذ إن الساحر كان يعاقب بعقوبة الإعدام وكانت التشريعات غير قادرة، على منع السحر الأسود ونتائجه المريعة. وهناك عدة نصوص تناولت التشخيص مثلاً:

لقد سببت الساحرة لي سحراً شريراً.
وقد جعلتني أتناول وآكل روحها غير الجيدة
وجعلتني أشرب شرابها لكي تنهي حياتي

ولقد غسلتني بالماء النجس لكي أصبح رجلاً ميتاً
ولقد دهنتني بزيتها الرديء بقصد خرابي
ولقد جعلتني أصاب بمرض خبيث مسبب عن لعنة من اللعنات
ولقد عيَّنتني وأدخلتني في مجال شبح رجل غريب يتجول هنا وهناك
وليس له أي قريب.

وكانت المعالجة تتلو التشخيص وهنا يبادر الإله أسار – لو – هي (مردوخ) لملاحظة حالة المريض ثم يذهب لمقابلة والده (أيا) إله الحكمة العظم ويقول له:

يا والدي أنت الذي خلقت البشرية بيديك
لقد حاولت الساحرة أن تمزّق حياة هذا الرجل

ثم إنه يكرر الحقائق التي ذكرها عن التشخيص وأخيراً يجيب (أيا) ويقدم تعليماته بالنسبة للعلاج: «اذهب يا ولدي مردوخ، قدم له شرابك المعيد للحياة ودعه يأكل نبات الحياة. دعه يدهن نفسه ويغتسل. دع رياح فمك تصل إلى الساحرة ودع السحر والسموم والأقذار تبتعد عنه عن طريق الأدعية النقية ودع اللعنة تمضي إلى البراري والقفار ودع شبح الغريب يختفي ودع الرجل يعيش وتصح أموره ويظل صحيح البنية إلى الأبد. ولسوف يمنع مردوخ كل الأذى الذي سببته الساحرة بقصد قتل هذا الرجل».

والحاجة التي تلزم لصانع المحرمات للسرية التامة فإنه من المنتظر أننا سوف نجد آثاراً قليلة لأنشطة هؤلاء وليس هناك من شك أن السحر المحرم كان منتشراً وكان الجميع يخافون منه. وهناك حالات سحرية نموذجية تظهر في المقطع التالي:

الأدعية: إن ساحرتي تجلس في ظل كومة من الطوب وهي جالسة لعمل السحر بالنسبة لي وتعمل صوراً لي وإنني أرسل لك الهاشو Hashu والسمسم وسوف أبعْثِر سمك وسأرجع كلماتك إلى فمك ولسوف يتوجه السحر الذي عملته إليك والصور التي عملتها سوف تطبق عليك والماء الذي سحبته سوف يستعمل ضدك ولسوف لا

تقترب أدعيتك مني ولسوف لا تصل كلماتك إلي وذلك طبقاً لأوامر أيا وشمش ومردوخ والأميرة بيليت إيلجي.

إن ما ذكر أعلاه هو جزء من النص المختص بأحد الطقوس حيث استطاع الموظف رد الشرور التي وجّهتها الساحرة ضده. وهناك نصوص مشابهة سابقة مع أن الوثائق الأصلية التي لها علاقة بممارسة السحر المحرم والسحر الأسود نادرة جداً ولا يعرف منها إلا القليل ومنها رسالة موجهة إلى أحد الآلهة يطلب الكاتب من الإله أن يقتل ويبيد الكاتب وجميع أفراد عائلته وأقربائه ويبدأ النص هكذا:

الدعاء: إن بإدا – آه – إيدينا يخاطب الإله العظيم نينوترا بقوله: يا نينوترا، أيها السيد العظيم مزق القلب، وأطفئ الحياة، واقتل الزوجة، والأولاد والأقارب والموالين، والاسم والبذرة والأنسال التي تخص باوا – آه – إيدينا.

وينتهي هذا بإيراد قسم عظيم أقسمه بادا – آه – إيدينا وأقاربه وقال إنه يتحمل النتائج والعقوبات، والذنب، والخطيئة والإخلال بقسمه.

لم تكن جميع المصائب التي تُصيب الإنسان نتيجة عمل السحر أو الشياطين. إذ إن المصائب التي كانت تصيب الإنسان إنما هي مسببة عن أعماله السيئة من تدنيس المحرمات، وهكذا كان المعروف أنه كان هناك بعض الأطعمة وبعض الأنشطة المحرّمة في أيام معينة، ونقرأ ما يلي:

في شهر تشرين:

اليوم الأول: ينبغي على الإنسان أن لا يأكل الثوم وإلا فسوف يلسعه عقرب ولا ينبغي أن يأكل البصل وإلا فإنه يصاب بالديزنطاريا.

اليوم الثاني: ينبغي أن لا يأكل الثوم وإلا فسوف يموت رجل مهم من عائلته. وينبغي أن لا يصعد إلى السقف وإلا فإن خادمته ليلو سوف تتزوجه.

اليوم الثالث: سوف لا يجامع أية امرأة وإلا فإن تلك المرأة سوف تحرمه من قواه الجنسية.

اليوم الرابع: سوف لا يعبر أي نهر وإلا فإن قواه الجنسية سوف تخبو وتضعف.

اليوم الخامس: سوف لا يأكل لحم الخنزير، وإلا فسوف تقدم دعوى في المحكمة ضده.

وهو سوف لا يأكل اللحم المطبوخ وإلا فإن الشيطان المعتدي سوف يضربه، وهو سوف لا يأكل لحم البعير وإلا فإن شيطان إيتوكو Etukku سوف يضع يديه عليه. وسوف لا ينحني لعمل في الحديقة وإلا فإن الإله شولاك Shulak سوف يضربه، ولذلك فإنه إذا أصيب الإنسان بالمرض أو الإزعاج فإنه ينبغي أن يراعي الأسباب الموجبة المذكورة. وهكذا نجد إحدى الأدعية بالنسبة إلى شخص مريض واقع في الخطر والإزعاج، هنا تذكر قائمة بذنوبه إذ يقال إنه قد فعل ما يلي:

«قد أكل ما هو محرم من قبل الإله أو الآلهة، وأنه قد فصل بين الأب وابنه، والابن وأبيه وفصل بين الأم وابنها والابنة وأمها وفصل بين الكنة وحماتها أو بين الحماة وكنتها وأنه قد فصل الأخ من أخيه والصديق عن صديقه».

أو أنه قد فشل في تأدية واجبه بالنسبة للأشياء التالية:

هو لم يحرر الأسير. ولم يطلق سراح الرجل المربوط، بل قال باحترام للأسير «ينبغي أن تبقى أسيراً وقال للرجل الذي ربط الأسير: اربطه جيداً».

ومن الممكن أن تكون الأمور على الشكل التالي:

لقد أساء معاملة الإله وأهمل شأن الآلهة وأهمل شؤون والده أو والدته، وأساء معاملة أخته الكبرى وأنه قد باع السلع بأوزان خفيفة واستلم البضائع بأوزان ثقيلة وكان يقول إن الشيء عنده وهو ليس عنده وقال إن الشيء ليس عنده وكان هذا الشيء عنده، وكان قد وضع حدوداً كاذبة ودخل بيت جاره ونام مع زوجة جاره وأراق دم جاره وفرّق جموع العشيرة المجمعة ووضع يديه على السحر والسرية.

وهناك ما بين الذنوب ما يمكن أن يكون:

قد أكل شيئاً ممنوعاً بالنسبة لمدينته، أو أنه قدم لمدينته بعض النبوءات الكاذبة أو أنه اضطجع في فراش رجل واقع تحت اللعنة أو أنه قد جلس في كرسي رجل كان تحت اللعنة أو أنه قد شرب من كاس رجل كان تحت اللعنة.

وكانت بعض الذنوب ذنوباً أخلاقية ولقد كان الفرق بين الذنوب الأخلاقية وكسر المحرمات غير معروف ولم يكن له أي معنى بالنسبة للآشوريين أو البابليين الذين كانوا يعتبرون أن واجباتهم الدينية ليست ذات طبيعة أخلاقية بل هي إطاعة رغبة الآلهة التي لا تردّ.

ومع أن قرارات الآلهة كانت ملزمة إلا أن الإنسانية لم تترك دون دلالات عن الإرادة الإلهية، فقد كانت نوايا الآلهة تنعكس في الحوادث على الأرض حتى وبالنسبة للحوادث التافهة جداً. ولقد رأى البابليون العالم ككل فإذا تبع حادث ما حادثاً آخر زمنياً فإن هناك بعض الأسباب وكانت أنواع الظواهر التي تنتج عنها التنبؤات غير محدودة، ولكن كان هناك ثلاثة أقسام رئيسية وهي:

أولاً:- التنبؤات المستخدمة في بعض التقنيات الخاصة مثلاً التنبؤات الحاصلة من فحص الكبد.

ثانياً:- تلك التي تحدث من ظواهر اعتباطية مثلاً الأحلام، وحركات الحيوانات أو الولادات الغريبة الشكل.

ثالثاً:- علم التنجيم.

ومن الممكن استخلاص أقسام ثانوية من الأقسام المذكورة أعلاه.

لقد نوقشت قضية زمن وأصل التنبؤات وكان بعضها قديماً جداً، وهناك أمثلة عن تنبؤات ملوك وجدوا قبل الطوفان وكانت بعض التقنيات مألوفة في أوقات معينة وأمكنة معينة وهكذا فإن التنبؤات من أشكال الكبد كانت معروفة منذ الأزمنة البابلية القديمة. ولكن التنبؤات من الأحلام كانت معروفة في بابل وسوزة وكانت ذات شعبية في آشور خصوصاً زمن آشور بانيبال.

وكانت التنبؤات تقع في حالتين: التنبؤات التي تخص الملوك والموظفين الكبار والبلاد وتلك التي تخص الأشخاص العاديين، وكانت التنبؤات من أحوال الكبد والتنجيم تعود إلى الشؤون الشعبية العامة بينما كانت الأشكال الأخرى (مثلاً الأحلام والمقابلات العرضية وتحركات الحيوانات وهلم جرا) تعود إلى أشخاص معينين وكان للتنبؤات بالنسبة للرجل القديم استعمال خاص كالتنبؤ بالمصائب التي تؤلف إنذاراً. أما قضية التهرّب من القضاء والقدر فلم تكن تعني الإنسان القديم.

لم تعرف التنبؤات السومرية بعد. مع أن هناك بعض المراجع في الأدب السومري لاستعمال التنبؤات، أما التنبؤات الأكادية المعروفة فقد تدرجت ابتداءً من الفترة البابلية القديمة فصاعداً ولقد قدّر أن ٣٠٪ من عشرين ألف أو ثلاثين ألف لوح من مكتبة آشور بانيبال في نينوى قد عالجت أدب التنبؤات. ومن الممكن اقتباس بعض التنبؤات النموذجية. فالقائمة الأولى تحتوي على أمثلة مختارة من الآداب القديمة وابتداءً من السطر الأول نلاحظ:

إذا كانت المدينة مبنية على تلة فإن ذلك لن يكون خيراً بالنسبة للقاطنين في تلك المدينة. ويتبع ذلك ما يلي:

إذا كانت البلدة مبنية في مكان منخفض من الأرض فإن ذلك خير لقاطني تلك المدينة. وهناك تنبؤات أخرى تشمل:

إذا رؤي في البيت المالك القديم الميت فإن ابنه سوف يموت.

إذا رؤيت في البيت السيدة المالكة القديمة للبيت فإن زوجها المالك الجديد للبيت سوف يموت.

إذا رؤي النمل الأسود في أسس البناء فإن ذلك البيت سوف يتم بناؤه ولسوف يعيش صاحبه طويلاً. إذا رؤي النمل الأبيض فإن صاحب البيت سوف يموت.

إذا رؤي النمل الأخضر في أسس البيت فإن هذا البيت سوف لا يُبنى.

إذا رؤي النمل الأحمر في البيت فإن مالك البيت سوف يموت في غير أوانه.

وكانت التنبؤات أحياناً تأتي من السلوك العرضي لبعض المخلوقات الأخرى.

إذا صادف أن عض ثعبان معتدٍ رجلاً، فإن أوقاتاً عصيبة سوف تصيب خصم ذلك الرجل.

إذا مرَّ ثعبان من يمين رجل إلى يساره، فإن هذا الرجل سوف يصيبه حظ جيد ويصبح اسمه مشهوراً.

أما إذا مرَّ الثعبان من يسار الرجل إلى يمينه، فإن هذا الرجل سوف يصادف وقتاً عصبياً.

إذا ظهر ثعبان في مكان كان الرجل وزوجته يتكلمان فيه فإن الرجل وزوجته سوف يتطلقان.

إذا استمر الثعبان في الحركة داخل البيت فإن هذا البيت سوف يتهدم.

إذا قتل عقرب ثعباناً في بيت رجل فإن أبناء ذلك الرجل سوف يقتلونه وسوف يموت.

إذا قتل النمس ثعباناً في بيت أحدهم فإن هذا يعني وصول الشعير والفضة إلى البيت.

إذا سقط ثعبان من السقف وأصاب رجلاً وامرأته فإن هذين الزوجين سوف يطلقان.

إذا تحركت عقرب في فراش رجل فإن هذا الرجل سوف يصبح غنياً.

إذا وقف عقرب على رأس رجل مريض فإن هذا الرجل سوف يشفى من المرض.

إذا صادف أن داسَ رجل على سحلية وقتلها فإن هذا الرجل سوف ينتصر على أعدائه.

إذا كثر النمل على مدخل بيت كبير فإن المدينة سوف تسقط.

إذا حدثت معركة بين النمل فإن جيشاً عظيماً سوف ينهزم.

إذا وجد نمل ذو أجنحة سوداء في المدينة فإن المطر والطوفان سوف يسودان المدينة.

إذا وجد ثور وكان قرنه الأيسر بارزاً بشكل مستقيم وكان قرنه الأيمن متجهاً إلى اليمين فإن المواشي سوف تكثر في ذلك البيت.

إذا انهمرت الدموع من عيني أحد الثيران فإن شراً عظيماً سوف يصيب مالك البيت.

إذا ركب حمار رجلاً فإن ذلك الرجل سوف يباع دفعاً لديونه.

إذا وجد حمار له رأسان فإنه سوف يحصل تغيير في العرش.

إذا دخل حصان بيت رجل وعطس حمار أو رجل فإن مالك البيت سوف يموت وسوف تتناثر أمتعة البيت.

إذا صادف أن كان رجل نبيل راكباً عربة وسقط الرجل خلف العربة فإن الحكومة سوف تسائله حول ماضيه.

إذا ركض حصان ودخل منزل أحد النبلاء وكسر أحد الكراسي (البقية غير مفهومة).

إذا رأى رجل السحالي تتراوح وأمسك بها وقتل أحدها فإن الفضيحة سوف تصيب هذا الرجل وسوف يموت من الفضيحة.

إذا ظهر ثور أمام أحد البوابات الكبيرة فإن العدو سوف يخترق المدينة.

إذا صادف ثور بري قطيعاً من البقر وبدأ يرعى مع البقر يوماً فإن هذا نذير خير أما إذا انفصل الثور عن القطيع وذهب بعيداً فإن هذا لا يدل على الخير.

إذا ركض ثعلب في ساحة عامة فإن البلدة سوف تُدَمَّر.

إذا صادف أن بدأت الخنازير تصرُّ بأسنانها فإن المدينة سوف تتفرق شذر، مذر.

إذا ولدت خنزيرة ثلاثة خنازير وكانت رؤوسهم بيضاء وأذنابهم سوداء فإن مفروشات ذلك البيت سوف تُرهن من أجل الحصول على الفضة.

إذا حدث وبال كلب أسود أمام رجل (الكلمات الباقية مفقودة).

إذا اضطجع الإله على فراش أحدهم فإن إله ذلك الرجل غضبان.

إذا بال كلب أبيض على رجل فإن هذا الرجل سوف يصادف أوقاتاً عصيبة.

إذا ركب كلب كلباً آخر فإن المرأة سوف تمارس السحاق.

إذا حدث الطوفان في شهر نيسان وبدا النهر وكأنه مغطى بالدم فإن أمراضاً سوف تحدث في البلاد.

إذا كثر السمك في النهر فإن هذا يعني العيش المريح لأهالي تلك المنطقة.

إذا وجد بئر مفتوح في مكان ما وكان ماؤه أصفر فإن السمك والطيور سوف لا تضع البيوض في تلك البلاد.

إذا ظهر البيتومين في أحد الآبار فإن البلاد سوف تخرب.

إذا ظهر البترول في أحد الآبار فإن العدو سوف يقترب من تلك البلاد.

إذا أكل الصقر طيراً وهو على سطح بيت رجل فإن شخصاً ما سوف يموت.

وهناك نوع آخر من التنبؤات يعتبر تنبؤاً عرضياً. مثلاً إذا صلّى الرجل للإله وبعد ذلك قبل أي نداء عرضي يدعى إيجيرو Egirru واعتبر ذلك نبوءة شخصية فإن موثوقية النداء سوف تتأثر بالظروف التي أحاطت بوصول النداء إلى الرجل.

إذا أجاب النداء الرجل بكلمة نعم مرة واحدة فإن هذا يعني تلبية الرغبة.

أما إذا أجاب النداء بكلمة نعم مرتين فإن ذلك سوف يجلب؟

أما إذا أجاب النداء بكلمة نعم ثلاث مرات فإن هذا يعني أن الجواب بنعم مؤكّد تماماً.

وكذلك فإن قيمة النداء كانت تتأثر فيما إذا أتى من اليمين أم من اليسار أو من الأمام أو من الخلف وبشكل غير منطقي كانت قيمة النداء تعتبر إيجابية وكان من الممكن منع نتائج النبوءات السيئة وكانت قوائم النبوءات يتبعها وصفات مناسبة. مثلاً في حالة النمل:

إذا أردت تخفيف شرور النمل التي ترى في أنحاء المنزل بحيث لا تتناول شرورها الرجل أو بيته فعليك أن ترش قليلاً من الزيت فوق النمل وثقْبه ثم تضع في الثقب شيئاً من الجبس والقلى وتمزجها بماء من البئر أو من النهر ثم تضع بعض الغبار من القارب والصلصال من مروج النهر وبعض الغبار من البوابة الخارجية من المدينة ثم تضع البخور المحترق ومعه المر على العتبة وبذلك تخفف الشرور الآتية. لقد كان الكاهن يقوم بإتمام هذه الطقوس ويدعى ماشماشو وينبغي علينا أن نؤكد أن المقصد من هذا العمل ليس القضاء على النمل بل تجنب الشر الذي يجلبه حضور النمل.

ومع أن السحر قد لعب دوراً كبيراً في منطقة ما بين النهرين وحياة السكان فيها فإن من المغالطة أن نقول إن السحر كان يؤلف جواب البابليين على مصائب ومشاكل الحياة. وبالعكس فقد كانت الصلاة وهي الصلاة التي تعبر عن الخضوع التام للإله كانت وسيلة كان البابليون يبغون منها العزاء والعون. وقد كان البابلي نفسه لا يُميز أي فرق أساسي بين شكلي الاتصال مع العالم الروحاني لأنه كان يعطي الصيغة السحرية والصلوات نفس الاصطلاح وهو الدعاء. ومع ذلك فإن الفرق في المقاربة واضح لا يخفى على القارئ الحديث وأما الصلاة النموذجية فهي تبدأ هكذا:

الدعاء: يا سيدي القوي القدير والشهير وهو الذي يعلم كل شيء وهو الفاخر والمتجدد والتام وأول من أنشأه مردوخ ... أنت مستشار الآلهة والذي يجعل مراكز الطقوس والعبادة ثابتة والذي يجمع في نفسه جميع الطقوس.

وتستمر الصلاة في هذا النسق من الألقاب والمواقف وتنتهي بما يلي:

إنك تراقب جميع الرجال

وتقبل التوبة

وتهب الجميع الخلق الحسن

وتصلي لك البشرية

وبعدها يقدم المتعبد ظروفه الشخصية

أنا بالاسو وإن إلهي هو نابو وإلهتي هي تاشميتوم.

ونظراً لاندلاع الحريق في بيتي.

أخشى أن أقول إنني في ضيق واضطراب إنني في اضطراب عظيم.

هذا وإن الشر الذي يشير إليه ليس الضرر الذي سببه احتراق البيت والحريق نفسه بل المصائب التي سوف يسببها مثل هذا الحادث وهذا واضح من أن الصلوات التي كان يقوم بها الملك بالنيابة عن شعبه غالباً ما كانت تشير إلى شرور خسوف القمر. وهنا تستمر الصلاة:

إنني معرّض للسلب والنهب أو القتل ذلك العمل الذي يتوجب عليه عقاب عظيم.

إنني شخص تعب، ومشوش العقل وجسمه مريض جداً.

بحيث أن المحرمات والألم تقابلا عندي ولهذا فإني أنحني أمام عظمتك

ولقد سيطر علي المرض من جراء السحر والشعوذة وعمل الساحرات...

أيها السيد، الحكيم من بين الآلهة أتوسل إليك أن توفر لي الحياة بكلمة من فمك.

هذا وإن المفهوم العالي الوتيرة نسبياً للآلهة الذي تدل عليه صلاة من هذا النوع هو أمر لاشك فيه ومع ذلك فمن الواضح أن الكهنة الذين كانوا يمثلون مجرى الأحوال في الدين في منطقة ما بين النهرين، لم يلاحظ أي فرق أساسي ما بين السحر والصلاة نظراً لأننا نرى أن هناك وبعد نهاية الصلاة إلى إله القمر سن هذه التعليمات:

الطقوس: وفي الليل سوف يكنس السقف فوق (سن) ولسوف تُرشُّ المياه المقدسة وسوف نكوّم الحطب لعمل الركام المعد لإحراق الجثة وفوق الركام سوف تضع سبعة أرغفة من الخبز وسوف تقسم لحم الشاة دون خجل فتضع ثلاثة مكاييل

من الطحين الذي طحنه أحد الرجال ومكيالاً واحداً من الملح الذي سوف تحضره بالإضافة إلى ثلاث قناني من الصلصال المملوءة بالعسل والسمن والنبيذ والبيرة والماء وتكوّم هذه الأشياء فوق الركام ثم تصب ماء الإراقة وتقوم بأداء واجبات الطاعة وأما البقية فسوف ترميها في النهر.

وهناك مثال آخر بين الأمثلة الكثيرة التي من الممكن استنتاجها. هناك صلاة تتوسل مفهوماً نبيلاً حول العلاقة ما بين الإنسان والإله وهي الصلاة التالية الموجهة إلى إحدى الإلهات:

الدعاء:

أيتها البطلة العظيمة عشتار الإلهة الخالية من الدَّنس

أنت مشعل السماء والأرض والإشعاع المسلط على القائدات.

أنت سيدة السماء وأول مولودة للإله سن والإلهة نيغال

أنت الأخت التّوأم لـ ... البطل شمش (إله الشمس)

يا عشتار، أنت آنو (الإله الأعظم) أنت تحكمين السموات.

وبمساعدة إنليل أنت تنصحين الإنسانية.

أنت خالقة الطقوس لغسل اليد ...

وحيث تكون المحادثة فإنك شأنك شأن شمش سوف تبذلين الانتباه التام...

أنت تغيرين مصائر البشر وتجعلين الحوادث السيئة حوادث جيدة.

إنني أتوجه إليك بين الآلهة وذلك لأن الاسترحام يُقدم لك

إليك ومن بين جميع الآلهة لقد توجهت وأتوسل إليك

وذلك لأنه يقع أمامك الجني شيدو وخلفك لاماشو (وهو جني آخر)

وعلى يمينك تقع العدالة وإلى يسارك تقع الجودة

وقد ثبت فوق رأسك هناك السلام والعطف

وجانباك محاطان بالحياة والأخلاق.

كم من الجودة أن أصلي لك كم من البركة أن تستمعي لي

إن نظرتك هي الجمهور وإن ما تقولينه هو النور

اشفقي علي عشتار، دعيني أتمتع بالازدهار والسعادة

انظري إليّ نظرات المحبة والثقة واقبلي صلاتي وتضرعي

لقد تحمّلت نيرك أتوسل إليك أن تهبيني الهدوء والسلام

لقد ابتغيت وجهك الساطع وأرجو أن يكون وجهي لامعاً

ولقد توجهت إلى ملكوتك ألا تهبين لي الحياة والعيش الآمن

ألا أستطيع أن أمتلك (شيدو) مناسباً كالذي أراه أمامك؟

ألا أستطيع أن أمتلك لاماشو كالذي يجري خلفك؟

ألا أستطيع أن أومن الازدهار الواقع عند يدك اليمنى

ألا أستطيع أن أمتلك المعطف الإلهي الواقع عند يدك اليسرى

أتوسل إليك أن تُطيلي أيام عمري، وتهبيني الحياة

دعيني أعيش، دعيني في صحة جيدة ودعيني أعلن ألوهيتك

ودعيني أصرف ما أرغب به وأتمناه

وفي نهاية الصلاة تأتي الخاتمة:

هذه الكلمات الموجهة إلى عشتار: وأما عشتار فسوف تضع مبخرة من خشب شجر العرعر وسوف تصب الإراقة وسوف تتلو الدعاء ثلاث مرات.

هذا وإن الترانيم والصلوات المذكورة تحمل اقتراحات الوحدانية المشوبة وهي عبارة عن الاعتقاد بإله واحد مع عدم إنكار وجود آلهة أخرى، وكذلك الوحدانية

الحقيقية ويظهر أن هناك ميولاً في الديانة البابلية الآشورية تظهر في النصوص أن هناك قولاً بأن الإله المعبود كان متمثلاً مع الآلهة الأخرى وهذا ما تظهره الترانيم الآتية:

إن عينيك يا سيدي هما إنلليل ونينيل

وأما أتوم وأنتوم فهما شفتاك

وأما أسنانك فهي السبعة الذين تغلبوا على الشر

إن طلة وجنتك يا سيدي هي ظهور النجوم

وأما أذنك فهما إيا (إله الحكمة والفهم وديماكيند زوجته وهم أمراء الحكمة

أما عنقك فهي مردوخ قاضي السماء والأرض

إن هذه الميول للوحدانية المشوبة ينبغي أن نركز عليها على ضوء وجود الوحدانية التي ميّزت الديانة الآشورية البابلية وابتداءً من فترة الأسر الأولى هناك أربعة آلاف إله معروفين بأسمائهم وقد بقي مجتمع الآلهة موجوداً.

مجمع الآلهة

لقد بقي على رأس مجمع الآلهة خلال ثلاثة آلاف عام مضت على وجود الديانة السومرية الأكادية بقي الإله أنو (وهو الإله السومري آن An) عبارة عن شكل من أشكال الشخص الغامض ولكن صفاته الرئيسية كانت منحصرة بالقوة الملكية فقد كان جميع الحكام من البشر يستمدون شارات الحكم منه وكان يقع أمامه في السماء الصولجان ولباس الرأس الملكي وعصا الراعي، وكان الرمز الرئيسي الذي يُميَّز به هذا الإله هو القبعة ذات القرون، وبعد أن استبدلت الدول - المدن القديمة بالوحدات الوطنية ظهر هناك مَيْل لاستبدال آنو بالإله آشور الوطني وفي بابل استبداله بمردوخ واستبدلت الآلهة أنتوم بعشتار الإلهة الأم وإلهة الحب التي كانت تعرف في سومر باسم أنين Innin.

وإلى جانب آنو كان ابنه الجبار إينليل (أو إيلليل) ومعناه سيد الرياح وهو إله نيبور ومع أن اسمه كان مقترناً مع مدينة معيّنة إلا أنه كان إله سومر الوطني ليس عبارة عن إله محلي. وكان امتلاك جميع أراضي سومر من قبل حاكم أي من الدول - المدن يعتمد على اعترافه بإنليل، وهناك نص سومري يذكر ذلك الزمن عندما كان شوبور Shubur سومر وأكاد ومارتو وإنهم جميعاً كانوا يعيشون بسلام يسبحون بحمد إنليل وكما كان أنو هو ملك السموات فقد كان إنليل هو ملك الأرض وشأنه شأن آنو كان إنليل والد الآلهة أو ملك الآلهة وكان آنو وإنليل يعتبران زعيمي الآلهة وكان شهر نيسان مقدّساً لدى كلا الإلهين معاً، وكانت ألواح مصائر البشر تنمي إلى إنليل كانت مصائر البشر والآلهة تقرر في هذه الألواح ولكن وبعد أن نما الدين الوطني واستلم مردوخ بعض المظاهر المختصة بإنليل ومع أن إنليل بقي سيد الأرض إلا أنه كان يملك موقفاً متناقضاً تجاه الإنسانية، ويعود هجوم الطوفان على الأرض إلى مواقفه المتشددة بينما نرى في أسطورة أخرى أنه هو الذي خلق الوحش لابو لكي يخرب البشرية. وكانت زوجته نينيل عبارة عن ظل طفيف لإنليل وقد كانت تقارن بعشتار في واحد من مظاهرها.

وكان ثالث الآلهة العظام الذين كانوا على رأس مجمع الآلهة معروفاً بعدة أسماء منها اثنان وهما أنكي- سيد الكي (والكي تعني إما الأرض أو المنطقة الخاصة بالعالم السفلي والاسم الثاني هو إيا) إله بيت الماء وكان كلا الاسمين سومرياً، ومع أن الاسم ترياد كان يُطلق على الآلهة الثلاثة آنو وإنليل وأنكي كلهم معاً. وفي كثير من الحالات كان أنكي منفصلاً عن آنو وإنليل وأصبح مفهوم ترياد لم يعد موجوداً في الديانة السومرية في المرحلة الأولى حيث تنحصر معرفتنا. وكان أنكي – إيا هو إله الحكمة وأيضاً إله المياه وكان مقترنا بالطوفان وقد كان هو المعترف بوجوده بين الآلهة من الدرجة الأولى الذين كانوا يظهرون الحب والعطف على الجنس البشري. وعندما كان إنين يستعد لمواجهة أخطار النزول إلى العالم السفلي عندها وجهته تلك الآلهة وفي حالة عدم السماح لها بالعودة، فإن الإله أنكي هبَّ لمساعدتها. وكانت ايريدو وهي أقدم مدينة سومرية وهي المدينة التي كان الإله

أنكي حامياً لها وإن علاقة ايريدو مع إله الحكمة تعكس الحقيقة التي مفادها أن أول ظهور للثقافة السومرية قد حدث ولما كان إله الحكمة أيا يحمل اسم نين – إيفي – كو (سيد العين البراقة) وبنفس الوقت كان يدعى في مواقف أخرى: نو – دن – مور أي خالق البشرية. وكانت زوجته ننكي (وهي الاسم المؤنث لأنكي).

لم يكن علم الأساطير السومري الأكادي متماسكاً أو متساوياً بالنسبة للعلاقة الدقيقة للآلهة الثلاثة العظام ولكن وطبقاً للروايات المشهورة فقد كانت ملحمة الخلق وأصل آنو وأيا منسجمة في هذا النسق، فقد ولد الوحشان لاهمو ولاهوما من تزاوج اسبو وتايمات (المحيط) ومنهما نشأت عشتار وكيشار وهما يمثلان العالم العلوي والعالم السفلي بعد ذلك.

استقرت الأحوال وتتابعت السنوات

فكان آمو ولدهما وكان نِدّاً ومساوياً لأجداده

فقد جعله أشار وهو الولد البكر مشابهاً له تماماً.

وبعد ذلك أنجب آنو شبهاً له وهو نو – ديم – مود

وكلهم لهم آذان عريضة يسمعون بها جيداً وكلهم أشداء الفهم والقوة

وهم أقوى كثيراً من أنشار الذي كان سبباً في وجود والدهم

ولم يكن لهم شبيه بين الآلهة إخوته

ولم يحدد اللاهوتيون أصل إنليل وفي بعض النصوص يقال إنه ابن آنو مع أنه وفي أمكنة أخرى يُعتبر والد الآلهة، طبقاً للمعلومات اللاهوتية فإنه هو وآنو آخر سلسلة من الأجداد الذين كانوا يعدّون أزواجاً أزواجاً.

وهناك مجموعة أخرى من الآلهة لها علاقة بالشمس والقمر وكوكب الزهرة التي كانت أسماؤها السومرية والساميّة تتألف من أوتو أو شمش ونانا أوسن وأنين وأكتار.

ومن الآلهة المذكورة كان أعظمها إله القمر (سن) وهو المسيطر على الليل وعلى الشهر وعلى التقويم القمري وقد كانت هناك أنشطة مختصة بالإنسانية ومن الشائع وجود التراتيل والطقوس الموجهة (لسن) عند ظهور القمر والتنبؤات ذات العلاقة بمثل تلك الظاهرة وكان سن هو الابن (طبقاً لعدد من رجال اللاهوت) المنحدر من آنو أو إنليل، وكانت زوجته نِنْ غال السيدة العظيمة وكان شمش وعشتار أولادهما وكانت المدينة التي لنانا وسن علاقة بها هي مدينة (أور) بينما كانت حرّان مدينة إله القمر وكما كانت كلتا المدينتين لهما علاقة بإبراهيم فقد بُذلت محاولات لرؤية وكشف جذور الدين الذي كشف عنه إبراهيم من خلال العبادة الوحدانية المشوبة وهي عبادة إله واحد مع الاعتقاد بوجود آلهة أخرى. ولكن آخر ملك بابلي حاول إقامة إصلاح ظهرت عدم شعبيته وهو مؤسس على طقوس وضعت سن على رأس مجمع الآلهة وكان رمز سن هو الهلال الذي ترك تأثيره على الإسلام كما أن رمز الشمس وهو الصليب قد ترك تأثيره على المسيحية.

أوتو شماش وفي رحلته اليومية عبر السماء قد طرد الظلام وكان باستطاعته أن يرى أعمال البشر ولذلك اعتبر إله العدالة وكان هو الإله الذي ظهرت صورته على سلة حمورابي وهو يسلم الشرائع إلى حمورابي (انظر اللوحة ٢١ب) ولما كانت العصا والخاتم يمثلان إله العدالة شمس كان ذلك دلالة على الاستقامة والكمال أي الحق والعدالة وكان رمزه في بلاد آشور هو القرص المجتمع أما في بابل فكان رمزه النجمة ذات الأربعة أطراف مع أشعتها.

ولقد احتفظ أنين عشتار بمنزلة ذات أهمية عظمى في الديانة السومرية البابلية وخصوصاً بعد أن أصبح الساميون هم المسيطرون حيث أصبحت هذه الآلهة المؤنثة الوحيدة التي امتصّت شعبية جميع الإلهات الأخريات، بحيث إن كلمة عشتار

أصبحت تستعمل بمعنى آلهة وتصفها بعض النصوص الدينية السومرية بما يلي إنها ملكة.. وإنها سيدة البلاد

وفي أبسو اريدو استلمت السلطة التي تخولها أن تضع القرارات

وقد خولها تلك السلطة والدها أنكي

وقد وضع تحت تصرفها جميع رتب الكهنة الملكيين

ولقد سكنت مع آنو في المزار الكبير وصنعت لنفسها مسكناً

ومع إنليل هي تقرر مصائر البشر

وفي كل شهر عند بزوغ القمر الجديد ولكي تنظم الأمور الإلهية

يجتمع آلهة الأرض في سومر أمامها

وأنونا العظيم يوفر لها الاحترام

وسيدتي تقرر أحكام البلاد (سومر) أمامهم

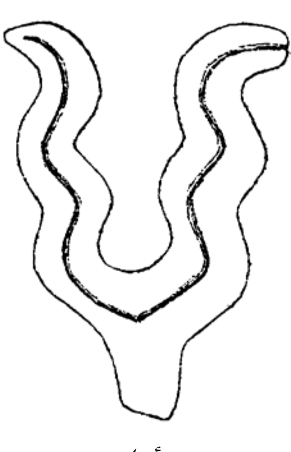
وكما هو الحال مع السيدة مريم في الكنيسة الكاثوليكية فإن عشتار كانت تظهر في عدة صور محلية وهكذا نجد عشتار نينوى وعشتار أربيلا وعشتار بيت كتموري كلها تذكر معاً ولا يُعرف إلا القليل عن هذه الآلهة في آشور بالاسم الذي أطلق عليها وهو عشتار نينوى، إذ لم يكتشف أي طقس ديني في آشور مختص بها مع أنها تعد من الإلهات العظيمات ويقال إن سبب ذلك هو أن عبادتها في آشور كانت من الطقوس الغامضة فقد كانت عالية المقام خارج بلادها أي عند الحثيين والحوريين.

إن الصفتين المميزتين للإلهة أنين عشتار هما مظهرها كآلهة الحرب وآلهة الحب الجنسي. وبصفتها آلهة الحرب كانت عشتار تسير أمام الجيوش الآشورية وفي إحدى المناسبات الشهيرة بدت في حالة التجلي الإلهي أمام جميع رجال الجيش وكانت تظهر نفسها للبشر بشكل عام بشكل نجمة الصباح ونجمة المساء. وشأنها

شأن شمش كانت هي طفلة إله القمر سن وقد كانت هذه الآلهة تعبد في معظم الفترات التاريخية وفي معظم الأمكنة دون استثناء وكانت هذه الآلهة تمثل في الفنون وخصوصاً على الأختام الأسطوانية، وكان رمزها معروفاً باسم عمود البوابة ذو العلم الخفاق، وهذا كان يمثل حزمة من القصب تشكل عمود البوابة في أحد الأكواخ المصنوعة من القصب وتحت شكلها السامي بصفتها إحدى إلهات السماء كانت هذه الإلهة عشتار، تمثل بنجمة ذات ثمانية رؤوس. وكان هناك إله آخر هو دوموزي (تموز) وقد كان مرافقاً لإنين ولقد احتل هذا الإله منزلة عليا في الديانة الشعبية سوف نناقشها في الفصل التالي. وهناك إله آخر ذو علاقة مع شمش وعشتار وهو حدد إله الطقس وكان ظهوره يتم عن طريق البرق والرعد وكانت الصفات التي تمثل اسمه هي الرياح. وقد كان هناك إله الطقس يدعى أشكور وهو معروف لدى السومريين ولكن لم يكن له أهمية خاصة وكان اسم حدد الكلداني هو أدو Addu أو أدادو وهذا يمثل الاسم السامي الغربي وهو حدد. وبالنسبة للشعوب السامية الغربية الذين أسسوا ممالك ماري وبابل في بداية الألف الثاني ق.م كان هذا الإله من بين الآلهة من الدرجة الأولى.

رمز عشتار

ويذكر حمورابي حدد في مسلته في المقدمة والخاتمة فضلاً عن نصوص الشريعة نفسها وهذه الإشارات لا تدع مجالاً للشك بالنسبة لأهمية هذا الإله نظراً لأن الشرائع تذكر النتائج القانونية فيما إذا عمل حدد على غمر أحد الحقول بالمياه أي إذا حصل طوفان في الحقل خلال عاصفة. بينما في خاتمة القوانين يوصف حدد بأنه سيد الوفرة والمسيطر على أبواب الطوفان في السماء والأرض. وفي آشور نفسها اعتبر حدد من أعظم الآلهة. ومن المنطقة الآشورية لقد بقي في مالتاي صخرة نقش عليها سطر يذكر الآلهة الآشورية ويُرى في مقدمتها آشور وقرينته ومن يتبعه مثلاً إنليل وسن وشمش وأداد



رمز أداد

وعشتار وفي هذا النقش النافر يتميز حدد بذكر رمزه وهو البرق ذو الشعب وفي الشكل الذي يظهر هنا هذا الرمز. وشأنه شأن يهوه فقد ركب حدد على الغيوم وكان الرعد هو صوته وكان حدد إلهاً مقاتلاً وفي إحدى الخرافات التي تصف الخسوف القمري يقال إنه شأن شماش قد انهزم أمام القوى المعادية.

وكان هناك إله آخر كان يحمل صفات إله العواصف وهو نينوترا وقد كان يرمز له برمز عددي إذ إن كل إله من الآلهة كان له رمز عدي طبقاً للنظام التالي: كان رقم آنو وهو رئيس مجمع الآلهة هو ستون وأما إنليل فرقمه ٥٠ وأيا ٤٠ وسن ٣٠ وشمش ٢٠ وعشتار ١٥ وأداد ١٠ وفي هذا النظام كان رقم ٥٠ لا يمثل إنليل فحسب بل أيضاً نينوترا ، بينما كان معبد نين غيرسا في لاغاس يحمل اسم نينوى ومعناه بيت الخمسين.

وبصفته إله الحرب فإن نينوترا هو الذي منح الملك حمورابي السلاح الممتاز الذي سبب له النصر وكان هو بطل إنليل في بعض الخرافات، ولقد أحرز نينوترا بصفته المحارب العظيم وإله الصيد السيادة في الفترة الآشورية الوسطى وكانت طقوسه الدينية هي السائدة في كالخ، وكان نينوترا شأنه شأن نيرجال هو إله الصيد ومن الممتع القول إن مدينة كالخ القديمة التي كانت مدينة مقدسة بالنسبة إليه تعرف الآن باسم نمرود وهذا الاسم يمثل الصياد الجبار أمام الإله، وهو الشخصية الرئيسية في إحدى الخرافات التي تذكر كيف أنه وفي خلال حروبه ألقيت بعض الحجارة التي كان القصد منها إما مساعدته أو مناهضته وخصوصاً الصوان.

وكانت قرينة نينوترا هي غولا وكان اسم هذه الآلهة مقترناً مع الآلهة نيس – نيبرو (سيدة نيبرو) وهذا يُظهر الصلات الوثيقة ما بين نينوترا وإنليل في أن الأخير هو إله نيبور. كانت غولا نفسها هي آلهة الشفاء وكانت تمثل دائماً بمرافقة كلب وكان قرين نين غرسو هو باوا الذي يحرف اسمه إلى بابوا وبابا أوبوا.

وكان هناك إله قوي ومخيف وهو نيرغال وهو إله الجائحات والأمراض والعالم السفلي وهو الإله الحامي لكوثاه وتدعى مدينة كوثاه مجمع الأشباح. وبصفته الإله الحامي لكوثاه كان له قرينة من الإلهات تدعى لاز Laz ، ولكن وبصفته سيد العالم السفلي كانت قرينته تدعى إيديش كيغال وهي الأخت الكبرى لأنين وتذكر إحدى الخرافات أن نيرغال أراد أن يصبح ملكاً للعالم السفلي فأقام الآلهة وليمة ونظراً لأن إيديش كيغال لم تستطع مغادرة العالم السفلي لحضور والاشتراك في الوليمة، ولذلك طلبوا منها أن ترسل رسالتها بتسليم حصتها، ولذلك أرسلت رسولها إلى المجمع أي مجمع الآلهة ولكن ظهر من هذا الرسول حالة من عدم الاحترام للإلهة فنقم عليه بقية الآلهة، ولكن أحد الآلهة وهو نيرغال لم يوافق على استهجان الآلهة لعمل الرسول لذلك أُمر بالنزول إلى العالم السفلي وربما كان ذلك لكي يكفِّر عن ذنبه ولقد قدم له الإله أيا معلومات وأوامر مفصلة حول سلوكه وأنذره بأن لا يتناول أي طعام أو شراب وأن لا ينهار أمام إغراءات إيديش كيغال ولقد عمل نيرغال جهده أن يستجيب لتعليمات الإله أيا ولكن سحر غيديش كيغال كان شديد التأثير عليه وهكذا فقد اضطجع نيرغال في غرفة نوم ملكة العالم السفلي مدة ستة أيام وفي اليوم السابع اقنع إيديش كيغال أن تسمح له بالعودة مؤقتاً إلى العالم العلوي فسمحت له. وبعد أن ذهب نيرغال شعرت الملكة بالحنين له فقد كانت تريده كزوج لها وكذلك أرسلت رسولها ليطلب من نيرغال الرجوع. وقد رجع هذا وتوجه إلى إيديش كيغال وشدَّ شعرها وأنزلها عن عرشها. ثم أن الزوجين اضطجعا معاً مدة ستة أيام وأخيراً أتت رسالة من الآلهة تسمح لنيرغال أن يبقى في العالم السفلي حيث بقي هناك وحكم وأصبح ملكاً.

ومع أن اسم ومفاهيم نيرغال ما هي إلا مفاهيم سومرية إلا أن هذه الخرافة تعكس حالة المجتمع السامي حيث إن سيادة الأنثى أمر غير مقبول (ولقد كانت هذه النفسية في الديانة السامية ظاهرة في أقوال القديس بولس والكنيسة الحديثة في كراهيتهم للنساء الكاهنات).

هناك آلهة أخرى أيضاً من الممكن تسميتهم ولكن معظمهم كانوا ذوي أهمية موضعية أو موسمية وهم يشبهون القديس في الكنيسة الكاثوليكية. ومن بين الآلهة الصغرى كانت آلهة النار وهم يستحقون الذكر نظراً لأنهم كانوا يناشدون في النصوص السحرية كونهم المناهضين للسحر والسحر الأسود في جيبيل وجير ولقد أظهر إله النار نفسه تحت اسم نوسكو إله النار، في نار الضحايا التي كانت تلتهم أجسام التقاديم وتطلق البخور للآلهة العظام، وكان رمزه في الفنون المصباح، مع أن هذا كان يحدث نادراً.

وفي الفترة المتأخرة أحرز الآلهة الوطنيون مردوخ في بابل وآشور في بلاد آشور موضعاً في مجمع الآلهة وبشكل مرموق. ففي العهد السومري كان لكل دولة - مدينة إلهها الخاص بها أو دعنا نقول إنه كان لكل إله مزرعة كانت تتخذ شكل دولة - مدينة أو قسماً من دولة - مدينة. ولم يكن هؤلاء الآلهة المحليون ذوي مكانة في مجمع الآلهة ولم يستطيعوا الوصول إلى أي مركز هام في مجمع الآلهة... وعلى العموم فإذا امتد نفوذ الدولة - المدينة بسبب الحروب والانتصارات، فإن المناطق التي احتلتها تظل تحت نفوذ الآلهة باستمرار. وقد كانت قيادة المجمع الإلهي، أي نظرياً السيطرة السياسية لبابل، منحصرة بالإلهين أنو وإنليل ونظراً لبُعد آنو فقد أصبحت القيادة بيد إنليل وهو إله نيبور. ومن وجهة النظر هذه كانت الأوضاع متناسقة مع النظرية القديمة التي مفادها أن بداية العملية التي ارتفع بواسطتها مردوخ البابلي إلى مكان الصدارة، وذلك بعد أن اكتسب حمورابي السلطة في نيبور ولكن ذكر أنه لم يكن هناك أية آثار تشير إلى محاولة حمورابي رفع قيمة مردوخ بحيث يصل إلى مرتبة آنو وإينليل. ومن الواضح أنه عندما منح حمورابي السلطة لإنليل أعطاه تلك السلطة بشكل حاكم وهي أعلى سلطة كانت لا تزال باقية بالنسبة لآنو وإنليل. وفي المقدمة أي مقدمة شرائع حمورابي نجد أن مردوخ كان تابعاً لآنو وإنليل بينما كان فرار مردوخ يُذكر بعد مزارات إنليل وأيا في نيبور وأريدو. وفي خاتمة الشرائع لا يدعى حمورابي أن له أية علاقة مع مردوخ فيما وراء تلك العلاقات التي يتمتع بها بالنسبة للآلهة الأخرى. بينما نرى في النقوش النافرة في أعلى المسلة أن

حمورابي يتلقى العصا والخاتم وهما رمزا العدالة من شمش وليس من مردوخ وفوق ذلك فإنه وفي النقوش الخاصة بالبنايات نجد أن مردوخ يقف وراء إنليل ونينوترا وشمش أو وراء آنو وإنليل وشمش كما أن نقوش البنايات زمن خلفاء حمورابي وحتى نهاية الأسرة تظهر الصورة ولا يعطي كل هذا أية شهادة على رفع مرتبة مردوخ في تلك الفترة. وفي أثناء الأسرة الأولى كانت لكل سنة سمات خاصة تدعى الصيغة السنوية وهي تشير إلى أحد الأعمال التي نُفّذت في تلك السنة مثلاً إقامة تمثال أو ترميم معبد وعندها كانت هذه الصيغة تحتوي على اسم أحد الآلهة. ويحتل مردوخ المرتبة الأولى في زمن الخليفة الثالث لحمورابي وهو أمي ديتانا Ami Ditana ولكن يبدو أن هذا العلو لمردوخ لم يكن ذا أهمية قصوى وذلك لأن هذا لم يستمر أثناء حكم الملك التالي ويبدو أنه رغم التفوق السياسي لبابل إلا أن حمورابي وخلفاءه لم يستطيعوا رفع قيمة مردوخ (حتى ولو أرادوا ذلك) ولذلك فإن ارتفاع قيمة مردوخ ليصل إلى السيادة حتى بداية القرون المظلمة بعد سقوط أسرة حمورابي إنما يظهر بعد ذلك. وفي شكله السومري أصبح مردوخ مظهراً من مظاهر إله الشمس. ويعتبر بعضهم أنه كان أصلاً متّصلاً بالمدينة السومرية العظيمة إيريدو حيث كان مردوخ هو ابن إله هذه المدينة. وبالتأكيد فإن اسم إيساغيلا بيت الرأس العالي المقام قد استعمل ليعني بناء المعبد العظيم المقدس بالنسبة إلى مردوخ في بابل، إنما كان قد استعمل في إيريدو وذلك كما نعلم من إحدى الخرافات المتعلقة بالتكوين. ونتيجة لذلك أصبح مردوخ إلهاً من آلهة السحر. ولكنه كان عملياً كان إله السحر العظيم مع أنه ظل أقل مقاماً من والده وكانت الطقوس السحرية تحتوي دائماً عبارة تشير إلى مردوخ وهو يطلب من والده أيا الهداية والإرشاد بالنسبة للإجراءات السحرية المطلوبة.

وفي زمن التنقيح النهائي للإينوما إيليش فقد أصبح مردوخ زعيم مجمع الآلهة في بابل ولكن كان الاعتقاد السائد أن الإينوما إيليش في شكله الحاضر يعود تاريخه إلى الفترة البابلية القديمة ولكن الصعوبة الناشئة عن قبول مردوخ إلهاً متسلطاً في هذه الفترة إنما تؤلف اعتراضاً له وزنه على هذه الحقيقة بينما تعتبر

الأسس التي اتبعت لوضع أصول الشكل الحاضر للإينوما إيليش في تلك الفترة إنما هي أسس واهية ولهذا فإن الأسطورة توضح الظروف التي رفع فيها مردوخ إلى مقام الصدارة. فقد كان مردوخ قد خُلق في الأبسو النقي وقد أنجبه والده أيا والذي ولدته والدته دامكينا وكان شكله غامضاً وكان له أربع عيون وعندما تتحرك شفتاه كانت النار تخرج لامعة، لقد طهرها الإله أمام أنشار الإله العظيم وعرض خدماته للقضاء على الوحش الفظيع تيامات:

يا سيد الآلهة، والقضاء والقدر بالنسبة للآلهة العظام

إذا كنت ترضى أن أصبح منفذ الانتقام بالنسبة إليك

إذا أردت أن أربط تيامات وأعطيك الحياة

أرجوك عندها أن تعقد اجتماعاً للآلهة

واجعل مصائري المتفوقة على الجميع وأعلن ذلك

واجلس مع أعضاء المجمع الإلهي وكُن مسروراً

ودع كل ما أقوله في فمي مثبتاً لمصائر الناس كما هو الحال معك

وعندها انعقدت مجموعة الآلهة ومنحت لمردوخ القوة المتفوقة التي طلبها.

لقد نصبوا له عرشاً عظيماً

يجلس عليه أمام آبائه العظام

إنه أنت يا مردوخ المبجل بين الآلهة العظام

وإن مقامك لا ينافس وإن أقوالك تشبه أقوال آنو

أيها المردوخ أنت المحترم بين جميع الآلهة العظام

ولقد نصّبناك ملكاً على الجميع.

وفي نهاية اللوح السادس من ألواح إينوما إيليش واللوح السابع والأخير. أعلن الآلهة الأسماء الخمسين التي أطلقت على مردوخ المنتصر فقد كان ابن إله الشمس، مردوخ الإله الذي يخلق كل شيء وماروتوكو Marutuku الحامي لأراضيه ولشعبه. وأسارو الذي يهب الأراضي الخصبة والذي يخلق الذرة والنباتات والخضار وتاتو الذي ليس له شبيه بين الآلهة. إنه شازو الذي يعلم ما في القلوب ويرى ما في نفوس الآلهة وأدونونا مستشار أيا إله الحكمة وفي شكله المرئي كان هو نيبيرو Nebiru وهو الكوكب المشتري هذا وقد وضع أيا مردوخ في مرتبته.

لقد سمع وأصابه الحبور في قلبه

وقال: إنه هو الذي مجّدت أسماءه الآلهة

دعوه يصبح مثلي ودعوه يسمَّى باسمي أيا

وأخيراً، فقد قرر مجمع الآلهة إلصاقه بإنليل وكان من أسمائه «إنليل الآلهة».

ولقد اعتبر إلصاق اسم مردوخ بالآلهة العظمى في مجمع الآلهة كدلالة على الميل للوحدانية ولكن استعمال كلمة الوحدانية في هذا المقام يبدو كبيراً جداً وقوياً جداً، بل من الأفضل استعمال الوحدانية المشوبة وليس الوحدانية الخالصة في هذا المقام. وليس من الضروري تأكيد الفرق ما بين هذا الاتجاه البابلي اللاهوتي وظهور الوحدانية في العبرانيين الذين اعتبروا أن الباليم كان مقبولاً ووجوده حاضراً واعتبروا أن الباليم مختلف عن يهوه (السيد) ليس في منزلته ورتبته فحسب، بل أيضاً بالنسبة لطبيعته الأساسية، وكان دمج الإله الأعظم مع بقية الآلهة كما هو الحال في بابل هو أحد النواحي التي كانت أنبياء بني العبرانيين ترفضها. وكسيد الجميع استلم مردوخ لقب بعل (السيد) تماماً كما كانت عشتار تدعى بيليت (السيدة) وقد ذكر تحت هذا اللقب في العهد القديم وفي كتاب بعل والتنين وأبو كرايفا.

وكانت قرينة مردوخ هي ساربانيتوم Sarpanitum (الواحدة اللامعة) ولم يكن لها أهمية مستقلة مع أنها كانت تدعى خالقة البذور وهكذا فقد دمجت مع الآلهة الخالصة أرورو Aruru.

وكان نابو الإله المرافق لمردوخ وهو إله بورسيبا وهو الذي أشار العهد القديم إلى علاقته مع إله بابل وكان نابو هو ابن مردوخ ولقد اقترح أنه ونظراً لأن مردوخ قد حلَّ محل إنليل في مجمع الآلهة في المقام العالي والسيادة وكما أن إنليل قد دفع بالإله آنو إلى الخلف في فترة أقدم وهكذا وعندما اختفت الحضارة البابلية أخيراً بسبب المنافسة والأفكار الجديدة في بلاد العجم وبلاد اليونان وفلسطين لذلك فقد أصبح نابو على وشك إزاحة مردوخ والحلول محله.

وبالإضافة إلى علاقته المباشرة مع مردوخ، فقد لعب نابو دور الحامي لفنون الكتبة وأصبح إله الحكمة شأنه شأن أيا ومردوخ، وقد حملت قرينته اسم تاشميتوم Tashmetum وهذا يعني قوة السمع وهذا يعني أنها كانت مستعدة لسماع الصلوات والأدعية.

أما في آشور كما في بابل فقد حدث بعض الارتفاع والسمو للإله الوطني وهو آشور وقد كانت الأرض والعاصمة والإله تحمل نفس الاسم (آشور) ولا يعلم أي اسم من هذه الأسماء الثلاثة كان هو الأسبق.

وفي نسخة من إينوما إيليش وجدت في مدينة آشور ظهر أن النص البابلي قد استعمل بحذافيره عدا عن أن الاسم آشور قد استعمل بدلاً من مردوخ. وفي فترة حكم سرجون ظهر اسم آشور كأساس للآلهة الأصلية الهامة.

وفي مدينة آشور التي كانت مركز الطقوس للإله آشور عاش الإله في معبد يدعى إي – شاسدا وكانت قرينته نيبيل.

وفي النقوش الآشورية التاريخية ودون استثناء كان آشور محتفظاً بقصب السبق دون منازع وقد سبق آنو وإنليل وأيا. وهناك مثال شهير واحد في رسالة كتبها سرجون الثاني إلى الآلهة وهو يقدم تفاصيل عن حملته الناجمة ضد أورارتو وحلفائها

عام ٧١٤ق.م وفيما يلي جزء منها ، حيث يظهر أن آشور كان ذا المقام الأفضل وقد مُثل آشور في الفنون وهو شأن شمش وإنليل يحمل العصا والخاتم ويحمل في يده اليمنى السلاح المعوج الذي وصفه اليونانيون باسم هاربي. وهو يقف فوق حيوانين أسطوريين وهما التنين والأسد ذو القرون وشأنه شأن مردوخ فقد اتخذ آشور كثيراً من الخصائص التي كان قد اتخذها رؤساء مجمع الآلهة وكان له مظهر شمسي كمردوخ.

وكانت قرينة آشور هي آلهة المخلوقات وتحمل اسم شيروا ولكن وفي فترة متأخرة أصبحت قرينة آشور هي نيبيل.

وهناك إله آخر له أهميته ومن الممكن اعتباره إلهاً وطنياً وهو الإله دانون وكان ذا أهمية غريبة مع أنها لم تكن متفوقة في مملكة ماري وكان معروفاً في بابل بأسماء شخصية تظهر كشاهد على الهجوم السامي الغربي أثناء فترة إيسين – لارسا ولقد ورد اسم داغون في آشور في نفس الفترة وقد قابلنا هذا الإله في الأساطير الأوغاريتية باسم والد بعل وقد وجدت هذه الأساطير في رأس شمرا على الساحل السوري وهي تمثل الأدب الكنعاني الديني القديم.

وتظهر إحدى الرسائل من ماري الأسلوب الذي تدخّل فيه داغون في الشؤون السياسية في مملكة ماري، فقد حلم رجل حلماً وجدوه أنه ذو أهمية كافية ليخبروا عنه الملك زمري – ليم فقد رأى الحاكم أنه كان يقوم برحلة وفي أثنائها دخل إلى المعبد داغون وسجد أمام الإله وقد سأله الإله فيما إذا كان عُقد الصلح ما بين زمري – ليم وشيوخ القبائل المزعجة وهي قبائل بنيامينا وقد أخبروه أن هذا الصلح لم يعقد معه ولكن داغون لم يفاجأ بهذا الخبر وعلق على ذلك بما يلي:

لماذا لا يأتي رسل زمري – ليم ويقدموا أنفسهم لي ويرسل تقاريره لي؟ أو هل تم ذلك؟ وقد كنت أرغب من زمن طويل بتسلم شيوخ قبائل بنيامينا إلى زمري – ليم.

ولقد شعر هذا الرجل الحاكم أنه عليه أن يذيع هذا الخبر وهكذا فعل وقد كانت هذه القصة تدل على الحالة الوطنية لداغون وقدرته على إحراز النصر.

خدمات الآلهة

لقد استلم الآلهة من المواطنين الإيجارات والخدمات المستحقة للآلهة ولم تكن خدمة الآلهة شيئاً زائداً عن الحد فقد كان البشر مخلوقين لإعفاء الآلهة من الأعمال الشاقة. ولكي يحصل هؤلاء على حقوقهم فضلاً عن تقديم القوة والعون للشعب كان من الضروري أن يُعيِّن الآلهة ممثلين من البشر في أراضيهم. وكان ممثل الآلهة يدعى (إين) وكان هذا كاهناً ملكياً، وكان رمز الخصوبة هو الغصن الذهبي وكان هؤلاء الكهنة الملوك يصادفون ميتة احتفالية وكانت القبور الملكية في أور تحتوي على جثث هذه الضحايا. وكان الإين يعين في المعبد في حجرة تدعى غيبارو ويمثل جلجامش مثالاً مرموقاً لهذه الشخصية. وفي فترة مبكرة من فترات المجتمع السومري حدث تطور تحرّك بموجبه الأين En من المعبد وذهب إلى قصر منفصل ونتيجة لذلك حصل تقسيم للوظائف والمسؤوليات فقد أصبح الحاكم الزمني هو الأنسي بينما في داخل المعبد كان أحد الكهنة يقوم بأداء الحاجات اليومية الخاصة بالإله. وفيما بعد وبعد أن تآلفت عدة دول مدينية في وحدة سياسية واحدة أصبح الأنسي في المدينة المتفوقة اللوغال Lugal أو الملك وخلال التاريخ الآشوري والبابلي جميعه ظل الأنسي أو ا للوغال الممثل المباشر للإله وكان مسؤولاً عن تأمين خصب الأراضي وذلك عن طريق الاشتراك في الطقوس في السنة الجديدة. وفي أثناء ذلك تطوَّرت في المعابد إدارة كهنوتية مرموقة ولقد غطى مجال أنشطة هذه الإدارة الكهنوتية المجالات الاقتصادية والدينية.

وهناك اسم استخدم ويعود إلى الأزمنة البابلية للدلالة على هؤلاء الكهنة الذين قُبلوا في جميع أنحاء المعبد وهو إيريب – بيتي وكان هذا الاسم يعني أحياناً جميع الأحوال الكهنوتية في المعبد مع أنه وخلال الأزمنة البابلية الحديثة أصبح يعني الكهنة الذين كانت مراتبهم أقل وأخفض من المراتب العليا. ويظهر أن كهنة الإيريب – بيتي قد نفذوا المسؤوليات الاحتفالية العادية بالنسبة للأضحيات المنتظمة للآلهة ولمساعدة الموظفين الآخرين في أنوع خاصة من الاحتفالات حسب ما يلي:

الأريبو – بيتي الريس يقود حملة المشاعل الآتين من الزقورات ومعهم كهنة الماشماشر وكانوا هم الراقين والمنشدين.

أو يذهب الملك ومعه الأريبو – بيتي إلى قدس الأقداس ويملأ الأريبو - بيتي حوض الماء لكي تغسل الآلهة عشتار يديها.

وكان الماشماشو والأشيبو طبقتين من الكهنة يهتمان بالأدعية والابتهالات.

وكان عدد كبير من الطقوس والابتهالات المذكورة أعلاه يتم عن طريق الماشماشو ولكن ليس في المعبد بل في منزل الرجل المصاب ولكن كان للماشماشو بعض الأعمال والوظائف الواجب القيام بها عند تسيير شؤون المعبد وكان هو المسؤول عن إتمام طقوس التنقية أو التنظيف في المعبد وكان الكالو من الراقين المشعوذين وكان جزء من عمله يقتضي تهدئة قلوب الآلهة عن طريق الموسيقى وهناك نص من نصوص الطقوس يقدم تقارير مفصلة عن تحضير الطبل المقدس الذي يستخدمه هذا النوع من الكهنة.

وكان النارو Naru هو المنشد وكان هناك منشدات ومنشدون، وقد كان هؤلاء مرتبطين بالكالو وكانت الطبقتان تشتركان في إنشاد قصائد الرثاء.

وفي طقوس المعبد كان الموجه الرئيسي هو الشيشاغالو وهو الذي كان يوجه المرتلين في أعياد رأس السنة في بابل وكان موزع شارات السلطة والشرف. وكانت الضحايا تذبح عن طريق الكهنة الذين يدعون الشائقو وهناك طبقتان من الموظفين المستخدمين لتأدية بعض المظاهر العملية في طقوس المعبد ويدعون ماري – أون ماني (الحرفيون) وناتش – باتري (حاملو السيوف) وكان الأولون يعالجون بعض الوظائف مثل تحضير الصور المطلوبة في الطقوس أما الآخرون فكانت أعمالهم مخصصة بذبح الحيوانات الضحايا والوظائف الطقوسية الأخرى مثل قطع رؤوس بعض التماثيل.

كان هناك طبقات أخرى من الكهنة الذين كانوا مُختصين بغسل وتزييت الطقوس وكانت طقوس الغسل تحدث في أحد أجزاء المعبد أو القصر ويدعى بيت – يميكي (بيت الغسل).

وكان هناك علم تفسير النبوءات وهو يتطلب وجود بعض التقنيات وهؤلاء يدعون كهنة البارو وكان لهم نفوذ ملحوظ في شؤون الدولة فقد كانوا مختصين لتفسير الإشارات عندما كان الملك يعرض بعض مشاكل الدولة أمامهم وغالباً ما كان البارو المتنبّئ يستعمل الشؤون المحلية. وكان البارو يرافق الجيش ويكتسب الاحترام خصوصاً عندما تصبح تنبؤاته صائبة وصحية. وكان هؤلاء يستعملون التعليقات التي كانت تُرتب بشكل اصطلاحات تقنية بما يختص بأعضاء الجسم وخصوصاً الكبد والأعضاء المختصة بحيوانات الذبائح وكانت الذبيحة الأولى تتبعها الثانية وتفحص وفي حالات خاصة تتبعها الثالثة ويبدو أن النظرية الأساسية كانت أن يُخبر الإله بالمشكلة قبل الذبح وبعدها يكتب الإله الجواب في جسم الضحية الثانية أو الثالثة.

وكان هناك كهنة الشايلو Shailu الذين كانوا يُذكرون بجانب كهنة البارو وهم مختصون بتفسير النبوءات مع أن الفئة الثانية كانت أعلى مقاماً من الفئة الأولى، وقد كان هناك فئات مؤنثة من الشايلو، وكانت الشايلو المؤنثات هُن اللواتي يعبِّرن عن إرادة الإله، وكان الشايلو بمعزل عن الدين الرسمي المتركز في المعبد. ويوصف كاهن الشايلو في أحد الأناشيد أنه هو الذي يفسر الأحلام ويبدو أن هذا كان عمله الرئيسي مع أن نظيراته من الكاهنات المؤنثات لم يتخصصن في مثل هذه التفسيرات وكان الشايلو يعزو تفسير الحلم إلى الإله الذي أرسل الحلم، وأحياناً كان التفسير يتم عن طريق ملاحظة دخان البخور المحترق.

وهناك فئات من الموظفين الذكور متواجدون في المعبد وهم الكورغارو والأسينو وهم من المخصيين الذين يمثلون بثياب الإناث في تمثيليات طقوسية وهناك نص يشير إلى ذلك.

الكورغارو أو الأسينو فقد بدّلت عشتار قواهم الجنسية إلى القوى الأنثوية وذلك لكي يلبسوا القناع أمام الشعب.

وكانت كلا الفئتين تحملان بعض الأسلحة أو الأدوات وهي شاراتهم المميزة ويقال إن هؤلاء الذين حرموا من الجنس لاحتواء إحدى لعنات إيديش كيغال فقد حرَّمت ملكة العالم السفلي دخول أي شخص سواء الذكور أو الإناث لإنقاذ سجينتها عشتار من العالم السفلي ولكن الإله الذكي أيا احتال على هذه اللعنة بأن خلق كائنات خالية من الجنس وبهذا أنقذ عشتار.

وبالإضافة إلى الفئات المذكورة كان هناك عدد من الكاهنات القائمات بأعمال القداس وكان بعضهن يدعين كاهنات والأخريات عاهرات المعبد وفي مقدمتهن كانت الإينتو أي الكاهنة العالية أو زوجة الإله أو السيدة التي تقوم مقام الإله. وكانت الإينتو من مرتبة عالية. وكان بعض الملوك يَصْنَعْن من بناتهم إينتو الإله وذلك كما فعل نيبو – نا – إيد بابنته في معبد إله القمر في أور. وفي الفترات الأولى كانت الأينتو هي نظيرة الإين En في الزواج المقدس الذي كان خصب البلاد معتمداً عليه وفي هذه الحالة تصبح الإينتو هي حقيقة زوجة الإله. وهذا هو أساس الخبر الذي ذكره هيرودوتس وهو أنه هناك في الطبقة الثامنة من المعبد المدرج (الزاقورة) في بابل:

هناك في المعبد العظيم وفيه مقعد كبير ... ولا يجوز أن يقضي الليل فيه ما عدا امرأة آشورية يختارها الإله بنفسه، أو كما يقول الكلدانيون الذين كانوا كهنة بعل وهم يقولون إن الإله نفسه يأتي إلى المعبد ويستريح على المقعد الكبير. ويخبر المصريون قصة مشابهة حول طيبة في مصر وكلا الفئتين من النساء المذكورات قد حُرِّم عليهن الاتصال جنسياً بالرجال.

وكانت الإينتو تعيش في جزء من المعبد يدعى الجيبارو Giparu وهو نفس اسم مسكن العين En من الواضح من عدة نصوص للتنبؤات التي تتنبأ بحلول المصائب إذا حصل اتصال جنسي ما بين رجل وواحدة من الأينتو وكما يقول

هيرودوتس إن هذه النسوة كان من المنتظر أن يعشْنَ في حالة من الطهارة. وحسب شرائع حمورابي كانت الإينتو تستطيع الزواج مع أن الافتراض العام كان يقضي بأن يتبنّى أي ولد تنجبه هذه المرأة وهذا يدل أن من الواجب أن تظل عذراء حتى بعد وصولها إلى عمر الإنجاب عندما تتقاعد من خدمة الإله شأنها شأن عذراوات فيستا في روما بعد سن الثلاثين. ولقد اقترح أن مثل هؤلاء النسوة كُنَّ معقمات (أو كُنَّ يلجأن إلى الإجهاض وكان هذا ذنباً يعاقب عليه) وكانت والدة سرجون ملك أغادي امرأة من هذا النوع اللواتي كُنَّ يتصرَّفن بالأطفال غير المرغوب بهم بتركهم في العراء.

وقد ذكرت هذه الإينتو في كثير من المدن القديمة (أور، إيريش، لارسا الأغنيش، إيسين، سيبار، نيبور، كيسة وآشور).

وهناك فئة ثانية من نساء المعبد يشبهن الاينتو ولكنهن من مرتبة أقل شأناً وهُنَّ الناديتو Naditu وهن مثل الإينتو أي من الممكن أن يتخذن زوجاً ولكن القوانين البابلية لا تصوّرها إلا بأنها منجبة للأطفال. وكان كثير من هؤلاء النسوة (مع أنه ليس الجميع) يعشن في منطقة تدعى الغاغو (الدير) وهي مجموعة من الأبنية التي لها دارتها الخاصة وأراضيها. جزء من معرفتنا عنهن قد أتى من شرائع حمورابي، ولقد قيل إن تكرر ذكر هذه القوانين لفئات نساء المعبد إنما يدل على أنهن كنَّ يواجِهْن خطر صيرورتهن فئة مكروهة منحطة عمل حمورابي على إنصافها.

وهناك فئة من النساء ذكرن في العهد القديم من التوراة وهن الكاديشو أي العاهرات ويقابلهن في الذكور اللواطيون وقد وجدت هؤلاء النساء في إحدى الفترات بين طقوس المعبد. وهناك سبب قوي للافتراض أن هؤلاء الكاديشو كُنّ مخصصات للدعارة الطقوسية. وهناك عقد زواج آشوري قديم يذكر أن الرجل ذا العلاقة سوف لا يتزوج أية امرأة أخرى في البلاد ولكن من الممكن أن يمارس الجنس مع إحدى الكاديشو في المدينة (أي مدينة آشور) ويذكر هيرودوتس في القرن الخامس ق.م فقرة كُثر اقتباسها وهي كما يلي:

ينبغي على كل امرأة ولو مرة في حياتها أن تذهب وتجلس في معبد أفروديت وهناك تتصل جنسياً بأحد الغرباء وكان معظمهن يجلسن في المعبد ويلبسن شريطة من الحبل المجدول فوق رؤوسهن، وكانت هناك ممرات خلال جماعات النسوة يمرّ الرجال خلالها لاختيار المرأة التي تروق له. ولا يجوز أن تغادر المرأة مكانها حتى يأتي رجل غريب ويرمي قطعة من الفضة في حضنها ثم يأخذها خارج المعبد ويمارس معها الجنس وينبغي للرجل حالما يرمي قطعة العملة أن يقول «باسم الإلهة مايلنا» وعادة تكون قطعة النقود صغيرة جداً ولكنها تفي بالغرض ولا يجوز رفضها وتعتبر هذه النقود مقدسة، ولا يجوز أن تكون المرأة مترددة بل ينبغي أن تذهب مع أول رجل يُلقي عليها قطعة العملة وبعد أن تُسلّم نفسها فقد أتمّت واجبها بالنسبة للآلهة وعندها يمكنها الرجوع إلى منزلها. واعتباراً من ذلك الزمن لا يجوز لأي رجل أن يغويها للزنا مهما دفع من نقود كثيرة من أجل هذا الغرض.

الأضحيات المقدسة للإله

يظهر من الأختام الأسطوانية القديمة بعض المتعبدين يقدِّمون الأضحيات بشكل ماعز إلى الإله وهذا يفسر المفهوم الذي مفاده أن أهم تقدمة يقدمها المتعبدون للإله هي الطعام والشراب والزيت ونجد هذه الطلبات في ألواح الحسابات التي تحتوي على أسماء الأشياء المقدسة

٥ غا من أفضل الزيوت من ماري وذلك لدهن عرش شماش
نصف غا من أفضل الزيوت من ماري للإله نيرغال.

وكان الآلهة يتمتعون بوجبات طعام منتظمة اثنتين أو في بعض الأماكن أربع وجبات يومياً وكانت الوجبات الدسمة والخفيفة توضع أمام الآلهة صباحاً ومساءً على موائد أمام تماثيل الآلهة، ولقد كرَّس ريموس ملك أغادي في الألف الثالث الخبز والبيرة لأجل مائدة شمش، وتقدم لنا إحدى النصوص من العهد السلوقي بعض التفاصيل حول المؤن التي كانت تقدَّم لآلهة إيريش بمقادير كبيرة من الخبز (مصنوع من الطحين المؤلف من ثلاثة أجزاء من الشعير والباقي من القمح) وخمسين

خروفاً وثورين مع عجل وثماني نعاج وأربع وخمسين حاوية من البيرة ومن مختلف أنواع الخمور وهذا يذكرنا بتفاصيل قصة بعل والتنين وهي كما يلي:

كان للبابليين صنم يدعى بعل وكانوا ينفقون له كل يوم ثلاثة مقادير من الطحين الناعم وخمسين خروفاً وستة مكاييل من الخمر.

ومن بين الأطعمة الأخرى المخصصة للوجبات الإلهية كان العسل والسميد والزيت الصافي والحليب والتمور والتين، والملح والكعك والطيور الداجنة والسمك والخضروات والفواكه الذهبية وربما بعض أنواع الحمضيات وكانت بعض الحيوانات وأطعمة أخرى محرَّمة على الآلهة، وهكذا فقد كان ممنوعاً تقديم لحم الغنم لبعض الآلهة أو لحم البقر لإله ثانٍ أو لحم الطيور لإله ثالث.

كان طعام الإله عبارة عن وليمة يدعى إليها بقية الآلهة وكان المتعبدون من البشر وحتى الأموات يحضرونها وكانت الآلهة تستلم هذه الأطعمة وبعد استهلاكها يُسلم الباقي إلى الملك والكهنة وهيئة موظفي المعبد.

وكانت التقاديم المنتظمة المقدمة للإله تدعى ساتوكو أو جينو. بينما كان الغوكو نوعاً من التقاديم الشهرية وكان هناك تمييز ما بين الأضحية من الخضروات والأضاحي الحيوانية، وكانت الأخيرة تشمل كثيراً من الطقوس والولائم التي كانت الأغنام والماعز أو المواشي تُذبح وكما كان الحال في العبرانيين كانوا يصبُّون الدماء. وكان اختيار الضحية التي هي غالباً من الغنم يجري بكل دقة. وكان يحدد عمر الماشية ولونها أو عذريتها وفيما إذا كانت تتغذى بالحشائش أم بالذرة وهلمّ جرا. وكانت رقاب الحيوانات تقطع بواسطة ناس باتري (أي حامل السيف) الذي كان يتلو بعض الأدعية أثناء عمله بينما كان الدم المتدفق عبارة عن دعاء بذاته وكان الرأس المقطوع يوضع بجانب مبخرة البخور وكان يرشُّ عليه الماء المقدس مع تلاوة أدعية أخرى وكانت الذبائح تذبح على مذبح خاص أو على سطح المعبد من قبل كاهن يدعى الشانغو.

هناك مصادر تعدد الأنواع المختلفة من الأضاحي مثلاً واحدة تدعى نيكو الملك ونيكو المتعبدين وجينو الأضاحي لأجل إيش شيشو وأضاحي للبيت وكانت هناك أضاحي خاصة في أيام خاصة من الشهر تقترب من الأم القمر البدر والقمر الهلال أي أول الشهر واليوم الخامس عشر من الشهر حسب التقويم القمري (وإن يوم البدر يدعى سابان). ونحن نقرأ في الألواح المسمارية عن اللحم الذي يقدم على مائدة بعل في يوم أعياد إيشيشو وكذلك يذكرون أنواعاً مختلفة من الكعك المقدم في ثلاثة أعياد.

وهناك مظهر آخر من مظاهر الطقوس وهو الإراقة التي ذكرت سابقاً وهي متميزة عن المشروبات المقدمة للآلهة في أوقات وجبات الطعام وكانت الإراقة تصب للآلهة منذ زمن السومريين الأوائل بشكل ماء أو بيرة أو خمر أو زيت أو دم الضحية الحيوانية. وكانت الإراقة في منطقة ما بين النهرين إما في وعاء أو على الأرض أو على الحيوان وليس من الواضح معرفة ذلك وهناك إفريز آشوري شهير يمثل آشور بانيبال بعيد الإراقة على الأُسود التي قتلها أثناء الصيد، وفي أقدم الأزمنة كان مقدم الإراقة أحياناً يبدو عارياً وهذا يذكرنا أن حالة التعري لدى السومريين كانت معروفة عند حدوث طقوس الإراقة. وكان حرق البخور من المظاهر الشائعة في طقوس المعابد وكذلك إشعال الأخشاب ذات الرائحة الزكية التي كانت إما طقساً من طقوس الطهارة أو خدمة للإله نظراً لأن الآلهة كانت تبتهج من الروائح الزكية. ويذكر هيرودوتس أن حوالي طونين ونصف من البخور كانت تحرق سنوياً في معبد بعل في بابل ولكن ليس لدينا ما يؤكد ذلك في مصادر الكتابة المسمارية.

أبنية المعابد

لقد خلق الإنسان لخدمة الآلهة وكانت الآلهة نفسها هي التي تصف الطقوس والاحتفالات والخدمات التي تُطلب من الإنسان، وكانت معظم هذه الطقوس تتم داخل مباني المعابد. هذا وقد عمد الجيولوجيون إلى تقصي أحوال المعابد وفحصها منذ أوائل تشييدها وقد أظهروا أن المعابد الأصلية كانت عبارة عن مزارات

متواضعة، وكانت هذه المباني تحتل عدة فدادين وكانت تشمل مباني من عدة أصناف، وكانت الظاهرة الرئيسية في المعبد هي الزقورة وهي البرج ذو الأدراج ذات الثلاث أو سبع دورات والتي كانت تشرف على المدينة، وكان حجم الزقورة مختلفاً من مدينة إلى مدينة ولكن المسافة المخصصة لقاعدة الزقورة تبلغ مئة ياردة وكان علو البناء يبلغ خمسين ياردة وفي أعلى الزقورة كان هناك معبد يدعى المعبد العالي وكان هذا المعبد مغطى بالقرميد، وهناك اختلاف حول الوظيفة الدينية لهذه الأبراج. ولكن نقول بالتأكيد أنها لم تكن مراصد فلكية ولم تكن قبوراً للملوك ولم تكن موازية للأهرامات في مصر.

لا يمكننا رفض الفكرة التي تقول إن الزقورة كانت تمثل الجبل الكوني ليس كقبر ملك بل كتمثال لإله يحتضر. وهناك شواهد مادية فعلية قد استنتجت لتأييد هذه النظرية وقد اقترح أن كلمة جيغونو تشير إلى نوع من الغرف الموجودة تحت الأرض، ولكن لم يثبت ذلك وبدت غير محتملة. وإن هناك آراء تدحض كون الزقورات قبوراً للآلهة المحتضرة نظراً لأنه لم يكن هناك آلهة قد ماتوا وبعثوا بعد ذلك ولم يعرف عن حالات من هذا النوع حتى في حالة مردوخ وتموز وهما الإلهان اللذان قد اتصفا بمثل هذه الصفات دون شك.

ولقد اعتبر بعض العلماء أن الزقورات كانت نوعاً من عرش الإله وقد اعتبرت الزقورات أيضاً كمذبح كبير.

إن خط التفاسير بالنسبة للزقورات المقبول بصفة عامة ينحصر بنظرية أندريه Andrae مع أن بعض العلماء قدم على تعديل هذه النظرية في عدة نواحٍ وقد أشار أندريه أن هناك معبدين لاحقين للزقورة أحدهما واقع على قمتها والآخر واقع في أسفلها. وكان المعبد العالي مكان سكن الإله الذي كان ينزل في أوقات مناسبة إلى المعبد السفلي. وقد قال النقاد لهذه النظرية إنها مؤسسة على اعتبارات أثرية ولا تتفق مع النصوص التي تذكر أن المعبد السفلي هو مكان سكن الإله. ولهذا فقد عمد بعض العلماء إلى تعديل النظرية بقولهم إن المعبد العالي كان مكان استراحة مؤقت للإله وهو في طريقه من السماء إلى المعبد السفلي وهكذا اعتبروا الأدراج

الموجودة في الزقورة واسطة للحصول على الارتفاع المناسب للاتصال ما بين السماء والأرض وكانت الملائكة تستعمل هذه الأدراج أيضاً في الصعود والهبوط. يرى سير هـ. لينزن H. Lenzin وهو أحد الثقات المشهورين بالنسبة للزقورات أن هناك بعض الصعوبات التي تحول دون قبول نظرية أندريه حول أصول الزقورات نظراً لأنه في أوائل مراحل الحضارة في منطقة ما بين النهرين كان هناك معبد عالٍ ولم يكن هناك معبد منخفض. ويؤكد لينزن أن المعبد العالي لم يكن مجرد مكان لاستراحة الإله بل إنه كان مكاناً لممارسة بعض الطقوس الفعلية وبهذا تصبح الزقورة مذبحاً هائلاً وفي داخل المعبد وقرب أسفل الزقورة كان هناك مقدس الإله الأكبر مع وجود عدد من الكنائس الصغيرة المقدسة بالنسبة لبعض الآلهة المرافقين بينما كان هناك ساحة كبيرة خارج هذه المزارات الكبيرة، حيث تجمع السكان في زمن الأعياد، وكان هناك بعض الغرف لاستيعاب الأدوات المستعملة في الطقوس (مثل الملابس، والأدوات الموسيقية، والعربات) وكان هناك مكتبة المعبد التي وجدت في معبد نابو وهو إله الفنون المختصة بالكتبة، وكان هناك مراكز خاصة للكهنة والكاهنات، وكانت هؤلاء الكاهنات يعشن في منطقة تدعى غاغو Gago وهي منطقة الدعارة الطقوسية وكان هناك ورشات للحرفيين وكانت أبنية المعبد تحتوي رصيف الميناء وأهراء الحبوب اللازمة لخزن منتوجات المعبد وأراضيه والبضائع اللازمة للتجارة.

وكان الإله نفسه الذي كان متمثلاً بتمثاله أو رموزه يقف في الحجرة الطويلة التي كانت النقطة الرئيسية في المعبد وكان التمثال يتوضع على قاعدة موجودة في كوة أو مشكاة في الحائط خلف ستارة وذلك لحفظه من العيون الشريرة. وكان المدخل الرئيسي لهذا المقدس واقع في الجانب القصير المقابل لتمثال الإله في النهاية البعيدة أو في الجانب الطويل حيث لا يصل مدى البصر من خلال المدخل المفتوح إلى تمثال الإله، ويعود الفرق إلى مواقف مختلفة لتعرض الإله إلى مشاهدة الجمهور. وفي مملكة ماري كان باستطاعة المسافر المار خلال المدينة أن يدخل

المعبد دون صعوبة وجَلَبَة ليقوم بالصلاة للإله ولكن ليس هناك من شاهد أن مثل هذا الوصول إلى الإله كان متوفراً في بابل أو آشور.

كان تمثال الإله منحوتاً من الخشب ومزيَّناً بالمعادن والأحجار الكريمة وبالنسبة للبابليين كان هناك نقاط محددة تخص صناعة تمثال الإله وكان هناك بعض الطقوس المختصة بفتح الفم. وقد كان هناك إناءان مملوءان بالماء المقدس وموجودان في ورشة العمل تختصان بغسل الفم بالنسبة للتمثال المصنوع وبعد ذلك يبدأ الكهنة بتلاوة الأدعية وكان أحدها يُعلن للإله ما يلي: من الآن فصاعداً فإنك سوف تمشي أمام والدك أيا. وبعد ذلك كانوا ينقلون الإله ليلاً تحت أضواء المشاعل إلى ضفة النهر ويضعونه على حصيرة من القصب مواجهة للشرق وبعدها تقدم الأضحيات والأدعية وكانت تتلى الصلوات ويكرر غسل الفم وبعد ذلك كان الإله يوجه ناحية الغرب وتقدم له ضحايا وأدعية جديدة وغسل للفم جديد. وفي الصباح وبعد تقديم ضحايا وأدعية جديدة، كانوا يذبحون تيساً من الماعز وبعدها يبدؤون بتلاوة الدعاء التالي: «إلى التمثال المقدس الذي لا يتم تعديه إلا بعد أداء الطقوس العظيمة»، وبعد ذلك كان الكاهن يفتح عيني الإله وذلك بلمس عينيه بغصن من شجيرة الطرفاء السحرية، وبعد ذلك كانوا يقودون الإله بعد الإمساك بيديه. إلى الشارع وبعدها إلى المعبد وبعد تقديم الأضحية على بوابة المعبد كانوا يقودون الإله إلى مزاره، ويوضع على العرش. وبعد غسل الفم أربع عشرة مرة كانت شارات الألوهية توضع فوق رأس الإله ليلاً.

وفي داخل المعابد ومنذ عهد السومريين كان الآلهة يتمتعون بصحبة رجالهم المقربين وبصحبة تماثيل المتعبدين، وهكذا كانوا يضعون تمثالاً يمثل الملك وهو يتوسل إلى الإله، وتذكر النصوص بصراحة أن مثل هذا التمثال كان يخدم الفكرة التي مفادها أنه ينبغي على الملك أن يقوم بالصلاة أمام الإله.

ولم يكن وجود الآلهة منحصراً بالمعبد ففي بعض الأعياد الخاصة كانت الآلهة تظهر وهي محمولة على أكتاف الكهنة ومزيّنة بأفضل زينة لتظهر أمام المتعبدين وكانت تصدر أحياناً بعض الإشارات العرضية من الإله في بعض المناسبات كأن

يقوم الإله بحركة إيمائية من رأسه لأحد المتعبدين مما يكون له وقع خاص في نفوسهم، وربما كان الإله يقوم بزيارات احتفالية لبعض الآلهة الآخرين في بعض المناسبات أو الاحتفالات الدينية وهكذا كان نابو إله بورسيبا Porsipa يقوم بانتظام بزيارة مردوخ العظيم في عيد رأس السنة في بابل.

الفصل الحادي عشر

الملك

وبالنسبة لمنطقة ما بين النهرين كانت الملكية إحدى المفاهيم الضرورية في حضارتهم فقد كانت إحدى العطايا التي قدّمها لإنين Inain الإله أنكي ليهبها للشعب السومري ولحضارته التي كان مركزها إيريش. وقد ذكر لنا أن الملكية قد نزلت من السماء زمن الطوفان وبعدها نزلت إلى الأرض. وهكذا وبالنسبة للسومريين ومن تلاهم كانت الملكية عبارة عن مؤسسة وقد كانت شاراتها موجودة قبل وجود الملوك عند البشر، إذ إننا نقرأ في ملحمة إيتانا ما يلي:

(وفي ذلك الوقت لم تكن التياترا موجودة
فقد كان الصولجان وشريط الرأس والتياترا والعصا موجودة في السماء وقبل وجود آنو
ولم يكن هناك أي توجيه ملكي للآلهة بالنسبة لشعبها
وعندها نزلت الملكية من السماء)

لقد اختارت الآلهة الملك وقد كان الملك مخولاً بممارسة الصفات الملكية بإذن الآلهة. وقد كان إنليل ومنذ الأزمنة القديمة يعتبر ملك البلاد واعتُرف به بأنه ملك الآلهة حتى في آشور حيث أصبح الملك الآشوري الوطني متمثلاً به.

ومن وجهة تاريخية كان الملك يُنتخب من قبل الجمعية العمومية وتوجد دلالات على ذلك في الفترة الأكادية (تقريباً ٢٣٠٠ق.م) وهناك نص مرافق لبعض التقاليد التاريخية يقرأ كما يلي: ((وتحت رعاية إنليل اجتمعت الجمعية العمومية ورفعوا إلى المقام الملكي أبحور كيش Ipkhur kish وهو رجل من رجال كيش)).

وأصلاً لم يكن الملك سوى زعيم مؤقت ينتخبه الشعب أمام الحرب ولكن لقد استُبدل هذا الوضع قبل نهاية فترة الأسر الأولى وكانت لفظة ملك إنما تعني الرجل العظيم ولم يكن مستعملاً أصلاً لتعني الرئيس السياسي للدولة بل السيد بالنسبة لعبيده.

وبالنسبة للاهتمام الذي بذله طُلاب الأديان بأي نموذج من نماذج المفاهيم المفترضة لمفاهيم الملكية، فإنه من الأجدر بنا أن نشير إلى أنه كان هناك فروق هامة ما بين النظريات السومرية والعبرية بالنسبة للملكية. فعندما ظهرت الملكية أخيراً في العبرانيين فإنها صادفت رفضاً قاسياً دينياً في بعض الأوساط حيث شعروا أن الإله وحده هو الملك. فلم تكن مؤسسة الملكية مؤسسة عبرية أبداً ولكنها كانت مؤسسة على تقليد أجنبي، فقد كانت الملكية في العبرانيين هي أساس الأفكار الدينية الرسمية، إنما اعتبرت مؤسسة بشرية مع أن الرجل المنتخب كان حائزاً على موافقة الإله، وما عدا المقولة التي تفيد الإله نفسه وهو الملك، فإن الملكية لم تكن إحدى المفاهيم الأساسية للحضارة العبرية.

لقد نتج عن المناقشات المستفيضة المتعلقة بفكرة الملكية الإلهية في منطقة ما بين النهرين وبقية أقطار الشرق الأدنى، ذلك الاستنتاج العام أنه من الخطأ أن يُعتبر الملك في منطقة ما بين النهرين ذا منصب إلهي. وفي نهاية هذا الفصل سوف نجد استخدام التعبير الذي يدل أن الملك هو الإله، وهذا يصدق على النص الذي يشير إلى إحدى النقاط في الطقوس حيث اعتبر الملك بمقام الإله في طقوس الزواج المقدس ولكن من الخطأ اعتبار الملك في مقام الإله في سياق خارج عن طقوس الزواج المقدس. ولقد أمر بعض الملوك ومعظمهم من الأسرة الثالثة في أور وفي بعض المناسبات أن تكتب أسماؤهم ومعها الإشارة بالخط المسماري وهي Dingir وهي تدل أن الاسم الثالث هو اسم لأشخاص من طبقة الآلهة) وتحصل من هذا أن بعض الملوك كانوا يعتبرون حقيقة من طبقة الآلهة ولقد أشير أنه حتى الملوك الذين كتبت أسماؤهم بهذا الشكل لم يفعلوا ذلك ابتداءً من أوائل حكمهم ولا في كل مدينة من مدن مملكتهم بل كان ذلك بفعل الإله الذي انتخبهم بطريقة لا تزال مجهولة

واعترف بهم أنهم مناسبون ليمثلوا الإله في طقوس الزواج المقدس. وحتى في فترة الأسرة الثالثة في أور فقد وجدت هناك فروق مرموقة ما بين هؤلاء الملوك المقدسين وما بين الآلهة أنفسهم وحقاً إن أسماء هؤلاء كانت موجودة في قوائم التقدمات الإلهية مع أسماء الآلهة إلا أن تقاديم الطعام ينبغي تمييزها عن الأضاحي التي كانت تقدم للآلهة فحسب وليس للملوك، وفوق ذلك فإن الملك المقدس يمكنه بناء معابد للآلهة أثناء حياته وهي تدل على قبول حالة الاحترام مبدئياً ما بين الآلهة والملوك المقدسين.

وكان الملك ومن وجهة نظر دينية هو صلة الوصل ما بين الآلهة والشعب الذين خلقتهم الآلهة ليقوموا بعبادتهم وخدمتهم فقد كان يمثل الشعب أمام الآلهة وبالتالي كانوا هم الأنبوب الذي من خلاله نظم الآلهة شؤون الدولة وشؤون الشعوب.

ولما كانت مصلحة الأمة تعتمد على مصلحة الملك فإن أي خطر كان يهدد الملك كان ذا أهمية خطيرة وعندما كانت التنبؤات والإشارات تعلن مثل هذه الأخطار المحدقة كان من الواجب اتخاذ إجراءات خاصة وفي بعض الظروف كانوا يختارون رجلاً بديلاً عن الملك، وكان يُعدم بدلاً من الملك. وقد عرفت هذه المؤسسة من بعض الرسائل الآشورية أثناء حكم أسرحدون. وإن أقدم حادثة معروفة كانت من الفترة البابلية القديمة (حوالي ١٨٦٠ق.م) حيث توفي أحد ملوك إيسين وهو يأكل العصيدة الساخنة في الوقت الذي عُيِّن فيه ملك بديلاً مؤقتاً وقد بقي هذا معتلياً العرش.

إن الإجراءات الفعلية لتعيين بديل ملكي في آشور تنحصر في الخوف من خسوف القمر الأمر الذي كان يهدد الملك بالويل والثبور. ويبدو أن البديل قد اختارته الآلهة من خلال إحدى الكاهنات الموهوبات وفي زمن أسرحدون كان الملك البديل يُنصّب على العرش مدة مئة يوم وكان يتمتع بكل امتيازات الملك بينما كان الملك الحقيقي وأولاده محصورين في القصر. وكان دور الملك البديل أن يتحمل جميع المصائب التي كانت ستحدث للملك. وهناك رسالة تشير إلى مثل هذا الملك البديل وأنه قد تعهد باحتمال جميع إنذارات السماء والأرض وهذا ربما يشير إلى طقوس خاصة مع أنه لم نستطع البرهنة على ذلك. وفي إحدى المرات تعهد الملك البديل

باحتمال التهديدات ضد الملك وهكذا فقد مات. ولقد أشار العالم الفرنسي ر. لابات R. Labat أن الملك البديل ذهب لمصيره وهذا معناه أنه ذهب ليموت ولكنه ربما أشار إلى ميتة طبيعية، ولكن من المحتمل أنه ذهب ليموت بشكل الإعدام وهذا يدل أنه كان بيد القضاء والقدر أن يموت هذا الملك البديل أو لا يموت ولكن مهما حدث من مصائب فإنه سوف تصيب البديل وليس الملك، ومن الممكن أن نلاحظ أن عادة وضع الملك البديل كانت متميزة عن ذلك العمل الواسع الانتشار بالنسبة للأديان البدائية وهو القضاء على الملك نفسه عندما كانت قواه تنهار. وقد كان هذا العمل متّبعاً في مصر بالتأكيد في أزمنة ما قبل التاريخ. ويقول بعض الثقات إن هذه العادة استمرت حتى الأزمنة التاريخية، أما قضية الملك البديل فلم توجد في مصر حيث لم يستطع أي بشر أن يقوم مقام الملك الحقيقي وهو الفرعون.

إن القصص البابلية المختصة بنظرية الخلق والتي كانت مختلفة بالشكل ولكنها متفقة بالنسبة للتفاصيل وهي أن خلق الإنسان قد قُصد به تقديم الإنسان لخدمة الآلهة وكانت إحدى الوظائف البارزة والهامة للملك هي مسؤوليته عن بيت الإله إذ نجد في إحدى قصص الخلق السومرية تقول الآلهة نينتو ما يلي:

سوف نجعل جميع البشر يعيشون في مساكنهم

وأن يبنوا المدن

وأن يضعوا الطوب المستعمل في بناء البيوت في مكان نظيف

وهكذا فلم تكن من علامات التقوى والانصياع لأوامر الآلهة أن يبني الملك المعابد ويرمم الأبنية التابعة للآلهة بل كان ذلك واجباً مطلقاً من واجبات الملوك وهناك كثير من الصور التي تظهر الملوك والأمراء ينفذون هذه الواجبات. مثلاً (اللوحة رقم ١٨ أ) تقدم لنا أحد الأمثلة ونرى إحدى المسلات التي تُظهر أور نامو مؤسس الأسرة الثالثة في أور وهو يحمل على كتفيه المواد التي كان سوف يستعملها لبناء أساسات الزقورة ولم يكن هذا المفهوم للواجب المتمم ببناء بيت للإله مجهولاً لنا عند قراءة العهد القديم نظراً لأنه كان أمراً ذا أهمية بالنسبة للملك داود

الذي قال للنبي ناثان انظر الآن إنني أسكن في بيت من خشب الأرز ولكن تابوت العهد يسكن داخل الستائر.

وفي إحدى الأساطير الكنعانية القديمة (حوالي ١٤٠٠ق.م) التي وجدت في رأس شمرا (أوغاريت) في سوريا يقال إن الإله بعل لم يكن لديه أي بيت. وفي الملحمة البابلية المختصة بقضية التكوين وعندما أحرز مردوخ النصر على تيمات بالنيابة عن الآلهة فقد أعلن الآلهة أنفسهم ما يلي:

أيها السيد الذي تسبب في خلاصنا

ماذا نستطيع أن نهبك بصفة عطف إلهي

دعنا نقم لك مزاراً

وقد حدث هذا طبعاً قبل خلق البشرية التي حدثت لتخليص الآلهة من مثل هذه الواجبات وكانت عناية الملوك بترميم المعابد لها أهميتها الفعلية. نظراً لأنه إذا صادف وهدم المعبد ولم يرمم فإن الآلهة سوف تهجره أو سوف تتركه، ويذكر أسرحدون أنه وبسبب غضبه من تلك الحوادث التي حدثت في بابل فقد سمح مردوخ بخراب بابل وهكذا رحل عنها الآلهة الذين كانوا يعيشون هناك وانطلقوا كالعصافير صاعدين إلى السماء.

وكان ترميم أحد المعابد أو بناء أي معبد جديد أمراً بحاجة إلى طقوس في غاية التعقيد فضلاً عن البحث والتنقيب للتأكد فيما إذا كانت رغبة الآلهة مفهومة تماماً ومنفّذة تماماً، وكان القرار بالموافقة على بناء المعبد محصوراً بالإله الذي كان يخبر الملك بما هو مطلوب. وإن أحد الأمثلة المعروفة تماماً بالنسبة للتعليمات الإلهية بشأن بناء المعبد، قد وجدت في الحلم المشهور الذي حلمه غوديا Gueda وهنا نقرأ في نقوش غوديا ما يلي:

في هذا الحلم رأيت رجلاً كبيراً جداً بحيث بلغ حجمه الأرض وكان جزؤه الأعلى جسم إله وبالنسبة لأجنحته فقد كان طائراً من نوع الإمدوغود Imdugud (انظر اللوحة رقم ١٠) وأما بالنسبة لنصفه الأسفل فقد كان العاصفة وإلى يمينه

ويساره ربض أحد الأسود وقد أمرني أن أبني معبداً ولكني لم أفهم ما قاله... وهنا أشرقت الشمس أمامي من خلال الأفق فرأيت امرأة ولكن من تكون هذه المرأة... فقد حملت قطعة من المعدن اللامع المتوهج ونقشت على اللوح نجمة السموات« وبعد ذلك بدأت بالتفكير وقد كان هناك بطل آخر حاضراً وكانت يداه مطلوبتين وأمسك بقطعة من اللازورد بيديه ثم رسم مخطط البيت الذي سوف أبنيه ووضع أمامي القبعة النقية ورتب القالب وثبت الطوب الذي سوف أختاره وسوف يختاره القضاء والقدر عند بناء القالب.

وهكذا فإن غوديا قد فهم بشكل مفيد الأمر الذي عرفه أثناء أحلامه ولسوف يثبت معاني هذه الأحلام وينفذها.

وبعد ألفي عام تقريباً استلم الملك البابلي الجديد نابو – نا – إيد الأمر والتعليمات خلال أحد الأحلام حول ترميم معبد الإله سن في حرّان وهو يسجل ما يلي:

في بداية حكمي المقرر أبدياً جعلتني الآلهة العظام أرى الحلم التالي. فقد رأيت مردوخ الإله العظيم وسن الساطع في السماء والأرض واقفين معاً. ولقد قال لي مردوخ: يا نابو – نا – إيد ملك بابل اجلب الطوب في عرباتك الملكية التي تجرها الخيول وباشر ببناء إيهولول (معبد سن في حران) ودع سن الإله العظيم يتخذ مسكنه في وسطه وعند ذلك تكلمت مع مردوخ باحترام أيها السيد بين الآلهة بالنسبة للبيت الذي أمرت بترميمه فإن الأماناماندا يحيطون به وهم ذوو قوة وبأس. فقال لي مردوخ: إن الأماناماندا الذين تتكلم عنهم فإن أراضيهم والملوك الذين يساعدونهم لم يَعُدْ لهم وجود.

إن هذه التعليمات الواضحة من النوع المذكور من المملكة توسيعها أو تضخيمها أو حتى في بعض الحالات إزالتها والاستعاضة عنها ببعض التنبؤات الإلهية من خلال الفأل. ويكون هذا أحياناً مباشراً في الشكل. ففي بعض المناسبات ربما تنسف الرياح جميع الرمال المتراكمة فوق أحد المعابد الخربة مما يشير إلى ما يلي:

وذلك لأنهم يريدون أن يجدوا المخطط الأرضي للمعبد ويظهروه علناً.

وعلى العموم فإن النذير بالنحس أو الخير من الممكن معرفته بعد فحص كبد الحيوان الضحية والحقيقة أن نابو – نا – إيد قد حدد سلسلة كاملة من مثل هذه النذور ليتأكد أنه قد حان الوقت لترميم معبد سن في حران وعندما يصبح مرمماً لا مجال فيه للشك فإن الآلهة قد قضت بترميم المعبد عندها ينبغي تنظيف الموقع وكانت هذه قضية جدية وتُثار مسألة تشمل أداء بعض الطقوس والأدعية والابتهالات كما تذكر بعض النصوص من النوع التالي:

عندما تتهدم جدران المعبد وعندها يصبح من الواجب ترميم ذلك المعبد في شهر مناسب وفي يوم حسن من أيام الشهر وفي أثناء الليل ينبغي إشعال نار تكريماً للإله أيا والإله مردوخ وتذبح أضحية لهما وبعدها يرتّل كاهن الكالو إحدى الابتهالات. وفي الصباح توضع على سطح المعبد ثلاث منصات إكراماً لأيا وشمش ومردوخ وبعدها ينفخ الكاهن بالمزمار أمام مردوخ ويرفع الكاهن يديه ويتوجه بالدعاء أمام الإله وبعدها يُرتل إحدى التراتيل.

وبعد ذلك تحدث عملية إجلاء القمامة من الأساسات لاستعادة هيكل المعبد الأساسي والمعترف بها وما فيه من الطوب. فإذا لم تتم هذه العملية بدقة كاملة فإن المعبد سوف ينهار نتيجة لهذا الإهمال وقد حدث هذا الانهيار لمعبد إيبابرا Ebabbra التابع لإله الشمس في سيبار كما يقول نابو – نا – إيد:

لقد قام نيبوتشارديزير بالتنقيب عن أساسات البناء ولكنه لم يعمل على رؤيتها ومع ذلك فقد بنى ذلك البيت وخلال خمسة وأربعين عاماً على بناء ذلك البيت فقد انهار وتهدم.

ولكن نابو – نا – إيد قام بالعمل كما يجب عند ترميمه لذلك المعبد وهو يقول:

لقد فتشت عن منصة الأساسات ثم توغلت نازلاً في التربة حتى عمق ثمانية عشر ذراعاً ولقد أظهر لي الإله الشمس شخصياً وهو سيد إيبابارا مسكن رحمة قلبه،

أظهر لي منصة الأساسات الخاصة بمعبد نارام سن ابن سرجون والتي لم يرها أي ملك قبلي منذ ٣٢٠٠عام.

وعندما ظهرت الأساسات وبدت عارية تماماً كان من الواجب (تنظيف) تطهير الموقع وإعداده للبناء الجديد وقد تم ذلك بعد عدة طقوس قام بها الملك بنفسه، ولقد شملت اعمال التنظيف أو التطهير البلدة بأجمعها وليس المعبد فحسب. وقد حدث هذا في الوقت الذي كان فيه غوديا على وشك بناء معبده في لاغاش.

ولقد قدم أمير المدينة بعض التعليمات لبلده وتبعته لاغاش كما يتبع الطفل أمه ولكن الأم لم توبخ ابنها ولم يتفوه الطفل بأية كلمة تثير أمه ولم يضرب السيد رأس عبده الذي كان قد أهانه ولم تضرب السيدة وجه أَمَتِها التي اقترفت بعض الأخطاء، ولم يقم أي إنسان أية دعوى قضائية أمام أمير المدينة غوديا الذي كان يبني المعبد ولقد نظف أمير المدينة البلدة وطهَّرها بالنار وأخرج كل القاذورات من البلدة.

وأخيراً أتى دور قولبة الطوب أي الطوبة الأولى وكانت هذه المسؤولية المباشرة للملك، وشأنها شأن جميع أعمال الملك فقد كان من الواجب إنجازها في يوم سعيد محظوظ في شهر مناسب، وقد أعلن الكهنة مدى صلاحية اليوم أو الشهر بعد الاطلاع على قوائم أيام الحظ وأيام النحس. وكان أحد الأشهر وهو شهر صيوان (أواخر أيار وأوائل حزيران) قد وصف بأنه شهر الملك وشهر قولبة الطوب وهناك عدة مراجع لهذا العمل ويصفه غوديا أخيراً ويخبرنا أنه سبق ذلك العمل ليلة من الطقوس والإعدادات الروحانية

وفي المساء توجه غوديا إلى البيت العتيق بالدعاء

وعند انتهاء النهار غسل نفسه

وأتم كل شيء كما يجب طبقاً للقواعد والتقاليد

وفي صباح اليوم التالي بدأ إشعاع إله الشمس بشكل رائع عليه

وبعدها توجه غوديا إلى المدينة المقدسة

وقدم الأضاحي من المواشي والماعز دون خوف أو وجل

ثم ذهب إلى بيته وأتم طقوس إشارة اليد المتوجهة نحو الوجه

ثم أخذ إلى المعبد شرائط الرأس النقية

وقوالب الطوب التي تقرر مصائر البشر

ثم صَبَّ الماء الجالب للحظ في إطار القالب

وكانت الطبول تقرع في أثناء ذلك العمل

ثم دهن القالب بالعسل وأحسن أنواع الزيت

ثم رفع الطاقية المقدسة وتوجه إلى القالب

ثم صب الطين في القالب

وأتم الطقوس المناسبة تماماً

فلقد جلبوا الطوب المناسب للملك لبناء البيت

ثم ضرب على القالب وأظهر الطوب إلى العيان

ولقد فرح إله الشمس عندما رأى الطوب الذي وضعه غوديا في القالب

وبعدها جلب غوديا القالب إلى البيت

وأخرج الطوب من القالب

وكان القالب نفسه شيئاً مقدساً وكان ينبغي أن يصنع من نوع خاص من الخشب وبعد ذلك كان يحفظ داخل المعبد وكان هذا القالب يُملأ بالصلصال على يد الملك أو أمير المدينة مع ترديد الصلوات والموسيقى والأضاحي وبعد أن تم كل ذلك بنجاح كان من الواجب أن لا يبدأ العمل حتى تجف أول طوبة وتضع الطوبات الأخريات وعندها وعندما يحل اليوم المناسب تبدأ عملية البناء الفعلية وكانت الفترة

التي تنقضي ما بين قولبة الطوب وبداية البناء الفعلي بعد أن تجف الطوبة الأولى وتصبح قاسية عبارة عن شهرين:

وقد أعد غوديا الطوب وجلبه إلى البيت (المعبد)

ثم أنزل الطوب ودفعه لكي يتم مخطط بناء البيت (المعبد)

ثم إن غوديا الذي بنى البيت

وضع الوسادة الرقيقة أو اللبادة على رأسه كما لو كان تاجاً مقدساً

ثم وضع الأساسات.

وكانت الوسادة الرقيقة المشار إليها عبارة عن سكة ذات جوانب ضيقة كان عمال البناء يضعون الصلصال فيها لإتمام البناء وكانت توضع على الرأس ولا تزال هذه الوسائل مستعملة في العراق حتى اليوم وكان الملوك القدماء وأمراء المدن يأمرون بصنع تماثيل صغيرة (مثل التمثال الذي يظهر في (اللوحة ١٨أ) وهي تظهرهم منشغلين في هذا العمل التقي. وكانت هذه التماثيل تُدفن في أساسات المعبد وكان أفراد العائلة الملكية يشاركون في بناء المعبد ويسجل بعض الحكام أن أبناءهم كانوا يشاركون أيضاً. وكانت عمليات بناء المعبد بمصاحبة الطقوس المناسبة في معظم مراحلها تعتبر وقتاً من أوقات الفرح والمرح والأعياد حيث تقدم مقادير من الإعاشة الإضافية للمواطنين.

وبعد إتمام بناء المعبد وتكريسه بالطقوس المناسبة كانوا يجلبون تمثال الإله حيث يعاد تركيبه على يد الملك في البيت المقدس الذي أصبح مناسباً لكي يكون المقر المقدس للإله وللمرة الثانية فقد كانت جميع أنواع النزاعات في هذه المناسبة المقدسة والقذارات وكل ما كان يسيء للإله تزول من المدينة، ويصف غوديا تلك المناسبة حين جلب الإله إلى بيته الجديد ويخبر الآلهة بما يلي:

((إنني أنا الراعي قد بنيت هذا البيت وأريد أن أعرّف مليكي على هذا البيت، بيته وإن آلهة أنونا الآلهة العظام سيصغون لي لنصرتي في هذا الأمر)).

ثم تستأنف القصة في وصف الوضع:

يذهب غوديا إلى السيد المتواجد في إينونا ويتضرع إليه

يا مليكي نين غيرسو

السيد الذي يستطيع إيقاف مياه الطوفان

السيد العالي المقام فيما وراء كل شيء.

ابن إنليل البطل. لقد أصدرت إلي الأوامر

ولقد نفذت أوامرك حرفياً

يا نين غيرسو لقد بنيت لك بيتك

فهلّا تطرق السرور إلى نفسك

وبعد ذلك أخبر غوديا باوا وهي قرينة نين غيرسو أن قرارها كان بانتظارها

يا سيدتي باوا لقد هيَّأت كنيستك لك

فلتستلمي مسكنك الجميل

ثم تستمر الرواية بالقول:

لقد سمعت صرخة غوديا

ولقد قبل الإله نين غيرسو تقدمات وصلوات غوديا

ومرت السنة وتمّ تعداد الشهور

وبدت السنة الجديدة في السماء

وحلت شهور هذا البيت

ولقد مرت ثلاثة أيام من هذا الشهر

وبعدها وصل نين غيرسو قادماً من إيريدو

ولقد أمضى غوديا النهار في ذبح الأضاحي والليل في الصلاة

ودعا البطل نين غيرسو إلى بيته

فذهب الملك (نين غيرسو) إلى البيت

وكان كالنسر الذي يحترق بنظره في عجل بري

وحالما دخل البطل البيت

دخل وكأنه العاصفة التي تسبق المعركة

دخل نين غيرسو بيته

لم يكن الملك وحده الممثل الوحيد للإنسانية أمام الإله وإنه هو المسؤول عن ترميم مسكن الإله بل كان أيضاً الوكيل المسؤول عن مصلحة الإله في أرضه وكان الملك يصدر تقاريره للإله وليس للشعب. لقد نقشت النقوش الأولى للسومريين على مخاريط من الصلصال (انظر اللوحة ٢٥) أو على الطوب التي كانت تدفن بعيداً عن نظر الإنسان وإنه حقاً من هذه التكريسات البسيطة التي تحمل الشهادة أن الحاكم الفلاني قد بنى المعبد للإله الفلاني، قد تطوَّرت النقوش الآشورية التاريخية ولقد تم ذلك في خطوتين أولاً لقد وضعت ملاحظة أولية تذكر وتعزو زمن بناء المعبد إلى فترة زمنية معينة بشكل النص التالي: عندما قد بنى الملك الفلاني البناء الفلاني وبعدها كانت تقدّم بعض القضايا التاريخية أمام عمليات البناء حتى يتم وصف الحملات العسكرية الملكية وقد بقي القرص التقني لمثل هذه النقوش مشابهاً للنقوش البسيطة الموضوعة على الأبنية وكانت موجهة حقاً ليراها الإله وكانت إما بشكل طبقات من الأساسات المدفونة تحت البناء أو بشكل تقارير موضوعة أمام التمثال الإلهي، وكانت طبقات الأساسات لا يراها الإنسان إلا إذا عمد أحد الأمراء فيما بعد لترميم المعبد.

إن أهم نقش ملكي توجه إلى الآلهة بشكل تقرير هو الرسالة التي أرسلها الملك سرجون الثاني إلى الإله آشور يروي عملية عسكرية نفذت ضد الأعداء في الشمال

والجنوب من آشور وهي تبدأ هكذا: ((**إلى آشور أب الآلهة السيد العظيم الذي يعيش في معبده العظيم إيهورساغال – كوركورا نرجو أن تكون في غاية الصحة.**

إلى آلهة القضاء والقدر والإلهات اللواتي يعشْن في معبدهن في مدينة آشور نرجو أن تكونوا في صحة جيدة.

إلى المدينة وشعبها نرجو أن تكونوا في صحة جيدة وإلى القصر الواقع في وسطها أرجو أن يظل القصر في حالة حسنة

نرجو أن يكون سرجون الكاهن النقي في صحة جيدة وهو المعبد الذي يحترم الإله ومعسكره)). وكان الملك مسؤولاً ليس عن إخبار الإله عن شؤون الدولة فحسب، بل أن يستشيره مباشرة حول هذه الشؤون وكانت القرارات الموقوتة حول قضايا الدولة الأساسية مثل الحملات الخارجية أو تعيين الموظفين الكبار تقدم إلى الإله للموافقة وكان هذا الاقتراح يُنْقَش على أحد الألواح ويوضع أمام الإله شمش (إله الشمس والعدالة) الذي كان صاحب العقل في هذا المضمار خلال بعض الفترات الزمنية. وكانت هذه الوثائق تتخذ أحد الأشكال الآتية:

((**أرجوك يا شمش هل تخبرني أن أعين فلاناً الفلاني في منصب حاكم للولاية الفلانية**)). وفي مثل هذه الأحوال كانوا يذبحون حيواناً ويفحصون أعضاءه الداخلية وكانوا يعتقدون أن إله الشمس سوف يضع تعليماته في كبد الضحية وبعد فحص الكبد من قبل خبراء من الكهنة واستعمال نموذج من الصلصال (انظر اللوحة ٢٧ب) كمفتاح لحل رموز الآلهة والذي سوف يظهر فيما إذا كان قرار شمش موافقاً أو غير موافق.

وهناك مسؤولية أخرى للملك بصفته الوكيل المسؤول عن الإله وهي تأمين أعمال الري التي كان يعتمد عليها ازدهار وخصب البلاد. وهناك عدة قواعد تحدد هذه المسؤولية من حفر أو تنظيف القنالات ويذكر حمورابي في مقدمة شرائعه ما يلي:

إن الإله هو ا لذي سبب الحياة لإيريش والذي أمن المياه الوفيرة للشعب والذي أوجد المراعي وأماكن الري لأهالي لاغاس وغيرسو وهو الذي أرسل المياه الوفيرة لمدينة كوتاح.

وكان حفر الأقنية يتم في يوم معين مناسب كما أن هذه الأعمال كان يرافقها بعض الطقوس الدينية كانوا يعتبرون الملك وهو وكيل الإله الراعي لشعبه وكان الملوك يستعملون هذا اللقب كثيراً ويقتبس أحد الموظفين الذين يكتبون إلى الملك هذا التوسل:

إن جميع الناس متكلون عليك، أيها الراعي وذلك بالنسبة لما يتفوه به فمك.

وكان عمل الملك كراعٍ هو أن يرشد شعبه، وفي إحدى النصوص يقولون إن الملك ليبيت عشتار يقود شعبه ويوجههم كما تقود النعجة صغارها وتوجههم، وكان المسؤول عن حماية الضعيف وإرساء القانون ومحاولة ضبط الأسعار، وهناك عدة قواعد تعود إلى الألف الثالث تشير إلى نشاط الملوك في حماية المظلوم والضعيف وكانت علامات السلطة التي توهب للملك تشير إلى أنه قد أعطي صولجان العدالة وهناك إشارات لإصلاحات الحاكم السومري يوروكاغينا وحمورابي الذي يشير في مقدمة شرائعه إلى ما يلي: ((**عندما خوَّلني مردوخ أن أقوّم شؤون شعبه وأن أنشئ لهم الحكومة فقد أرسيت شؤون الحق والعدل خلال البلاد وأن أجعل الناس يتمتعون بالسلام والازدهار**)).

وقد تأكد المظهر الاقتصادي في هذه الإصلاحات بالحقيقة التي مفادها أن عدداً من الملوك قد أعد بعض القوائم التي تحدد الأسعار النموذجية في مدنهم.

وكان وضع الملك كحامٍ للعدالة يظهر من الحقيقة التي مفادها أن القسم ينبغي أن يتم أمام الإله وحده أو بمشاركة الملك، أو أمام الملك فقط.

وهناك المقابر الملكية في أور التي اكتشفت على يد C. L. Woolley (وولي) في السنوات التي تلت عام ١٩٢٧ وقد أطلق عليها اسم ملكية من قبل ذلك المكتشف نظراً لوجود تلك الطقوس الطويلة التي تصاحب عملية الدفن وكذلك

بسبب عظمة محتويات تلك القبور والتي كانت تحتوي على كثير من الزينة والأواني من اللازورد والذهب والحقيقة أنه ليس هناك من سبب أو شاهد مقنع أن هذه القبور كانت تحتوي شخصيات ملكية وهكذا فإن هناك شكاً بالنسبة لوجهة النظر هذه.

ولقد اكتشف حوالي ألفي قبر في تلك المقبرة في أور ولكن لا تعتبر قبوراً ملكية سوى ستة عشر وهي تتميز بالبناء الحجري للقبر أو وجود حجرة أو أربع حجرات تشهد على وجود طقوس الدفن الخاصة. وإن هذه القبور كانت تحتوي على أعداد كبيرة من الأشخاص تتراوح ما بين الثلاثة والأربعة وسبعين شخصاً الذين كانوا من ضحايا التقاديم البشرية.

وتدل حفريات "وولي" أن المقابر الملكية كانت تتم بالشكل التالي: أولاً:- يحفرون خندقاً مستطيلاً عمقه إحدى عشرة ياردة أو أكثر وبذلك يصنعون حفرة حجمها عند أسفلها (١٤) ياردة طولاً وعشر ياردات عرضاً. وكانت جوانب الخندق عمودية بقدر الإمكان وبعد أن تشكل الحفرة تسوّى قاعدتها ثم يحفر خندق آخر مشكلاً ممراً للدخول ذا أرضية منحدرة أو ذا درجات تؤدي إلى الحفرة من المستوى الأدنى وبعد ذلك كانوا يبنون القبر الحقيقي من الحجر أو الطوب وكان القبر يتألف من غرفة واحدة إلى أربع غرف وربما كان يحتل جميع مساحة الحفرة.

وفي الوقت المعين كانوا يضعون عدداً من الناس وأكثرهم من النساء، وبعضهن كنَّ يحمل أدوات موسيقية ذات أوتار. وقد رسمت صور عربات على مدخل الممر وكانت هذه تحتوي على مفروشات القبر ومواد الزينة ومن الممكن أن يفترض الإنسان (مع أنه ليس هناك من شواهد تثبت ذلك) أنه وبينما كان جسم الميت يوضع في القبر كانوا يعزفون الموسيقى في القبر أو في باحة المقبرة. وبعد هذا تأتي قضية الانتحار الجماعي فقد كانوا يسلمون لكل واحد من الناس في الحفرة وعلى مدخلها كأساً من الصلصال أو من الحجر أو المعدن وفي هذا الكأس كانوا يضعون كمية من السّم وكان الأشخاص يتناولون السم عن طيبة خاطر ثم يحضرون أنفسهم للموت. وكانت الجثث توضع في صفوف وكانوا يحتفظون

بملابس النساء الجميلة ولم يتعرفوا بهذه الملابس وهنا يظهر أن الموت قد تم في مشهد من الهدوء وأن الجثث لم تنقل إلى مكان آخر بعد الموت وبعد إتمام انتحار الضحايا البشرية كانوا يذبحون الحيوانات الموجودة في العربات وبعد ذلك كانوا يطمرون الحفر حيث الضحايا بالتراب، وعندما يصلون إلى مستوى معين من امتلاء الحفر بالتراب كانوا يصبون بعض مياه الإراقة على التراب مع إقامة وجبة طعام طقوسية تشبه وجبة الطعام المخصصة للموتى التي كانت معروفة في أمكنة أخرى في الشرق الأدنى. ويفترض "وولي" مع عدم وجود دعم لهذا الافتراض من الشواهد الأثرية أنه وعندما تم دك الحفرة بالتراب كانوا يبنون نوعاً من النصب التذكاري اعتباراً من سطح الأرض مباشرة إلى الأعلى، وفي معظم الحالات وحيث تكون هناك شواهد واضحة نرى أن شخصاً ما قد حفر القبر من ناحية السقف ونهب الأكفان الملكية وما حولها من الزينات. وقد وجد في إحدى القبور التي لم تنهب جثة امرأة وجد اسمها منقوشاً على ختم أسطواني وهو شب – أد وكان يشار إليها باسم الملكة شب – حدد، مع أنه ليس هناك من دليل أنها كانت ملكة. وكان في أرض هذا القبر ثُقب متصل بالجزء السفلي من القبر وقد اعتبر "وولي" هذا أنه صُنِع في زمن إعداد قبر شب – حدد أن بعض اللصوص أرادوا نهب القبر في الأسفل ويشير أيضاً إلى الحقيقة التي مفادها أن العظام في أسفل القبر كانت مبعثرة وذلك يدل أن أجسام الجثث قد تآكلت وأصبحت هياكل عظمية زمن بدء اللصوص بالنهب. وهذا يدل حسب ما قاله "وولي" أن دفن الملك قد حدث قبل دفن الملكة حيث أن القبرين لا يشكلان جُزءاً من نفس المقبرة ولم يوجد أية جثة ملكية في أسفل القبر ويفسر "وولي" هذا أنه كان نتيجة لتسرع اللصوص في نبش القبر وبعثرة العظام ويعود التاريخ الفعلي لإنشاء القبور إلى ما بين ٢٧٠٠ و٢٥٠٠ق.م.

ولقد فسرت حقيقة القبور الملكية الستة عشر بعدة تفاسير وفيما يلي نذكر التفاصيل التالية:

١- لقد مات الملك أو الملكة وهما المعتبران كآلهة، وتمثل بقايا رجال البلاط ضحايا البشرية (مع أنها من الممكن أن تكون ضحايا تطوعية) بينما رافق بقية رجال البلاط سيدهم أو سيدتهم إلى العالم الآخر.

٢- لم تمثل القبور جزءاً من طقوس الدفن للشخصيات الملكية المتوفاة فحسب، بل كانت تلك الطقوس عبارة عن طقوس بدائية مختصة بالخصب، بالنسبة للأرض وكان الأفراد المشتركون لا ينتمون إلى الأسرة الملكية ولكنهم كانوا من الكهنة الذين كانوا يُعْدَمون حالما تتم مراسيم الزواج المقدس التي كانت تعتمد عليها حالة الخصب في البلاد، وهناك نظرية أخرى تعتبر أن الشخصية الذكورية الرئيسية هي الملك نفسه (أو بديله) الذي كان يحتفل بالزواج المقدس.

إن أول مفارقة للنظرية الأولى هي أنه لم يكن هناك أي أثر للضحايا البشرية في أي مكان في منطقة ما بين النهرين. وهناك نص سومري يعالج قضية موت جلجامش بذكر تضحية أحد رجال بطانته المرافقين له ولكن هذا التفسير لا يبدو مرضياً، ويقابل الأستاذ "وولي" وهو الذي اقترح وجود ظاهرة دفن الملك الإله بعض الاعترافات وذلك بالإشارة إلى أنه في حالة كون الملك هو الإله، إلا أنه ليس من المفترض أن يموت بل أنه كان ينقل مكان إقامته من موضع لآخر أو إلى عالم آخر وكان من المناسب أن ترافقه جميع بطانته من رجال البلاط. وهناك شيء معروف من الرسائل فضلاً عن الطقوس الدينية حول طقوس الدفن في آشور في الألف الأول ق.م وأن جزءاً من تلك الشواهد يخص الملك البديل. ونعلم من بعض الحالات التي مات فيها مثل هذا الرجل البديل (سواء عن طريق الإعدام أو الموت الطبيعي) ولهذا فقد كانت الطقوس المتبعة في دفن مثل هؤلاء هي:

الطقوس التبعية في دفن الملك وتقول الرسالة ما يلي:

((لقد صنعنا قبراً ووضعناه مع سيدة القصر في مكانهما وقد قُبرا وتُليت الطقوس والصلوات المطلوبة)). إن ذكر سيدة القصر التي حكم عليها بالموت إنما سوف يؤيد وجهة النظر التي مفادها أنه وحتى الألف الأول ق.م كان من المعروف أن بعض الأشخاص كانوا يرافقون الملك ويموتون معه ولكن هذه الرسالة لا تؤكد هذا التفسير.

من الممكن حدوث معارضة للنظرية التي مفادها أن القبور الملكية إنما كانت تمثل طقساً من طقوس الموت للمشاركين بعد حدوث طقوس الزواج المقدس ومن المعروف أن الزواج المقدس كان يحتفل به سنوياً في فترات أخرى في تاريخ منطقة ما بين النهرين، بحيث يتوقع المرء أن يجد قبراً واحداً كل عام بدلاً من وجود ستة عشر قبراً خلال فترة قرن من الزمن، وفوق ذلك فإذا كان الإله أو الإلهان يمثلان بالمشاركين من البشر في طقوس الزواج المقدس فإن كليهما كانا يعدمان وهنا نحن نتوقع وجود جثتين في كل قبر ولكن لم يكن هذا هو الواقع. فإذا اعتقدنا أن الإله الرئيسي في أور قد ذهب إلى عروسه من بني البشر شخصياً أو إذا كان الملك الممثل للإله قد نام مع تلك العروس فإن المرأة هي التي سوف تُعْدم. وفوق ذلك فإن "وولي" يشير إلى أن العروس المختارة للإله ينبغي أن تكون عذراء، وذات منظر حسن وشابة، إلا أن شب –حدد كانت في الأربعين من العمر.

ولم يكن (وولي) كريماً أو عادلاً بالنسبة للنساء في الأربعين من العمر ولم يكن عادلاً مع الحقائق إلا أن وجهة النظر التي مفادها أنه كان هناك عدد أكبر من الرجال في المقابر ربما كان صحيحاً فقد كان هناك في الحقيقة أربع من ست عشرة مجموعة من القبور التي اكتشفها الأستاذ وولي وفي حالتين كان الجسم الرئيسي هو جسم امرأة وفي حالتين كان الجسم هو جسم رجل وفي إحدى القبور التي كان الجسم الرئيسي فيها هو جسم رجل كان هناك بعض المظاهر القديمة ويلاحظ الأستاذ وولي بنفسه أنه لم يكن من السهل فهم الشواهد. إذ إنه وبالنسبة لسلسلة المقابر الاثني عشر الأخرى فإن ثلاثة لها علاقة بالحفر التي لم يكن من

الممكن معرفة من كان فيها بينما بالنسبة للتسعة الباقية فإنها قد نُهبَت من زمن قديم. وفي أحد هذه القبور وجد ختم أسطواني يحمل اسم أ – كالام – وَغْ ملك أور ولكن لم يكن هذا كافياً لمعرفة الأشخاص الذين دفنوا في هذه المقبرة ولا لزوم لذلك. وأما العالم الألماني أ. مورتجات Moortgat فقد قبل نظرية الزواج المقدس لتفسير ظاهرة القبور الملكية في أور وهو يعزوها إلى طقوس تموز الدينية.

وعلى ذكر تموز (وهو دوموزي السومري) فإننا سوف نصادف واحدة من أعقد الأمور بالنسبة للديانة في منطقة ما بين النهرين وقد كان تموز من الآلهة السحرية الذين كانوا يمثلون ديناً له شعبيَّة مرموقة منتشرة في جميع الميادين. وهو يمثل إله الخصب الميت وقد انتشر في هذه الطقوس التي كان أصلها في سومر في أوائل الألف الثالث إلى ما هو أبعد من وطنها وفي منتصف الألف الأول وجد أنها قد وصلت إلى أورشليم حيث رأى حزقيال المرأة وهي تبكي على تموز. وإن اتساع رُقعة ظواهر الاعتقاد بالخصب في الطقوس بالنسبة للآلهة العظام يمكن تفسيرها بطريقتين متناقضتين وطبقاً لإحداهما فقد كان هناك في منطقة ما بين النهرين فضلاً عن العبرانيين معارضة قوية ما بين الديانة الرسمية والديانة الشعبية، إذ إن طقوس الإله تموز كانت تمثل الديانة الشعبية. وأما وجهة النظر الأخرى (التي قد قبلها الكاتب لهذا الكتاب) وهي أن كثيراً من آلهة المدن السومرية كانت لها مظاهر سحرية وتختص بالخصوبة.

وهناك شاهد آخر ربما أتى من الألف الأول ق.م، مفاده أن الملك وحيث كان على فراش الموت كان يتمثل بالإله الذي كان على وشك الموت وهو تموز. هذا وإن تفسير الأستاذ مورتجات Moortgat لظاهرة وجود القبور الملكية في أور إنما تربطها بهذه الفكرة.

ويشير الأستاذ مورتجات إلى بعض الحقائق بالنسبة إلى قبر الملك المجاور لقبر شود – آد ويدعي أن الأستاذ وولي Woolley لم يفسر هذه النقطة بشكل مُرْضٍ أولاً لأن الجثة الموجودة في المقبرة الرئيسية لم تكن مبعثرة كما يقول وولي بل كانت غير موجودة في القبر إذ ربما قام لصوص القبور بسرقة الجواهر مثلما

كـانوا يفكـرون بـسرقة الجثـة أو الهيكـل العظمـي. ثانيـاً لقـد تـرك اللـصوص المزعومون بعض الأشياء الثمينة مثلاً قارب من الفضة طوله حوالي قدمين وارتفاعه ثمانية إنشات (انظر اللوحة ٢ب) وهذا القارب لا يمكن نسيانه مهما كان اللصوص في عجلة من أمرهم. ثالثاً إن أدوات الزينة في القبر هي زينات ثمينة وهي تعود إلى طقوس تموز (انظر اللوحة رقم ١١ب أو اللوحة المذكورة في الصفحة المقابلة). وأخيراً وبالنسبة للأهمية الكبرى الطقوسية الملازمة لدفن شوب – آد وإذا تذكرنا سيطرة الكهنة على كل التفاصيل الصغيرة بالنسبة للاستعدادات التي تحدث أثناء الاحتفالات الرئيسية، عندها ليس من المعقول أن نتخيل أن بعض العمال قد عملوا بجد لحفر وتحضير القبر الملكي، ويصدق هذا عندما لا يكون القبر معروفاً تماماً فحسب بل عندما يتم الكشف عن القبر وخصوصاً عند وضع قبر شوب - آد بجانبه بشكل مباشر.

ولم يخف على الأستاذ وولي Wooley معرفة الاتصال المباشر ما بين قبر شوب – حدد وقبر الملك وقد فسر الأستاذ هذا بأنه مسبب عن تلك الرغبة العاطفية للملكة شوب – آد أن تدفن بجوار زوجها الذي طالما نَدبَتْه وبكت عليه، ومع ذلك فإن الأستاذ مورتجات يعتبر أن لهذين القبرين علاقة مشتركة صحيحة.

ويشير الأستاذ مورتجات أن عدم احتمال دخول اللصوص لإزالة جثة الملك من قبره بينما نَسوْا القارب الفضي.

هذا وإن غياب الجثة يتطلب بعض التفسير ولذلك فإن مورتجات يستنتج أن القبر لم يتعرض للنهب. بل إن الجثة قد سرقت من حجرتها من خلال السقف وهو يؤكد وجود منشار ذهبي في القبر وبعض الأزاميل.

ويشير الأستاذ مورتجات إلى أن هذا يشير إلى أن هذه المعادن ليست ذات فائدة عملية (إذ إن الذهب ليِّن جداً) وهكذا فإن وجود هذه المعادن هو إشارة رمزية فحسب بالنسبة إلى بعض الطقوس ويشير مورتجات بصورة خاصة إلى أن هذه الطقوس تشير إلى إطلاق سراح ملك ميت. وهذا مشابه لنهوض الإله تموز من القبر

وهناك موضوع موجود في الأختام الأكادية والبابلية القديمة يظهر الإله (وهو إله الشمس عند شروقها) وهو ينبعث من الجبل ماسكاً منشاراً (انظر اللوحة رقم ٥٠أ) ويقترح مورتجات أن هذا الرسم إنما يمثل الإله (ومن الممكن أن يكون هو إله الشمس) وهو يرتفع من فوق الجبل أي جبل العالم السفلي الذي كان هو قبره ولذلك فقد عمد الأستاذ مورتجات إلى تفسير حالة القبرين أي قبر شوب – آد والقبر المجاور له بالشكل التالي: إن القبر الذي وُجد خالياً من أية جثة كان حقاً هو قبر الملك الذي كان يلعب دور تموز في عيد رأس السنة حين يحتفل بالزواج المقدس الذي كان يعتمد عليه خصب ورفاهية البلاد والمدينة. وقد أعدم هذا الملك بعد ذلك ودفن كما تموز ليقوم من الموت مرة ثانية. وكانت شب – آد وهي شريكة الملك في الزواج المقدس وقد كانت هي إحدى الكائنات أو الملكة ولقد وضعت بأنها تشبه الآلهة الأم أنين Innin ونظيرة الملك كتموز وقد احتل موت شب – آد نفس المكان في الطقوس كما احتله هبوط أنين إلى العالم السفلي الذي ذُكر في الأسطورة التي تحمل نفس الاسم. وهناك اعترافان قدمهما الأستاذ وولي بالنسبة للزواج المقدس لم يُجب عليهما الأستاذ مورتجات وهما أولاً أن شب – آد كانت امرأة في الأربعين من العمر وثانياً أنه بينما كان الزواج المقدس حادثاً جرى في الفترة التي نعرفها فإن هناك قبراً ملكياً واحداً لكل عام ولكن هذان الاعترافان ليس فيهما أي خطر على نظرية مورتجات. إذ إنه من المعروف من بعض الثقافات القديمة البدائية (بما فيها ثقافة مصر القديمة أن الملك المقدس قد أعدم ولكن ليس في نهاية العام ولكن بعد أن تزول منه قواه الجسمانية والجنسية التي كانت تعتمد عليها حالة الخصب في البلاد).

وهكذا فمن الممكن أن الملك لم يكن يوصف بأنه مشابه لتموز بل إنه كان مشابهاً لإله المدينة الأصلية ولكن عندما بدأت قواه في الانهيار كان يوصف إما بالإله الميت تموز أو بإله المدينة الذي يُفترض أنه تموز فإذا أعدم الملك المقدس ونظيرته الكاهنة العظمى فإن في مثل هذه الحالة يُختار زوجان جديدان في ريعان الشباب لتمثيل الإله والآلهة في حفلات الخصب السنوية وكان الرجل المختار ينبغي

أن يكون في العشرين من العمر والأنثى في الخامسة عشرة وذلك مراعاة للقوة الجنسية للطرفين، وهكذا ينبغي أن يكون الذكر والأنثى أثناء احتفالات الخصب من نفس السن تقريباً.

ومن الجدير بالذكر أنه وفي بداية الألف الثاني عندما بطلت عادة إعدام الملك والكاهنة العظمى هناك شواهد تدل أن الكاهنة العظمى قد بقيت في وظيفتها حتى تصل إلى سن اليأس وعندها كانت تتقاعد وتستطيع الزواج وهذه دلالة واضحة تدحض نظرية (وولي) التي لا أساس لها من الصحة. وهي أن الآلهة كانوا يفضلون العذراوات وأن الكاهنة العظمى كانت تترك خدمة الإله في الأربعينات من العمر.

وينبغي أن نضيف أن الأستاذ مورتجات قد أسس نظريته لكي يعتنق أحد الشواهد حول عملية الدفن الملكية من الأسرة الثالثة في أور (أي في نهاية الألف الثالث ق.م) ولا نستطيع معالجة هذا الموضوع هنا مع أنه من الممكن أن نلاحظ أن تفسير مورتجات قد تفوق على تفسير الأستاذ وولي بحيث لا تظهر القبور الأولى في الأسرة الأولى في أور كشيء خارج عن الموضوع بالنسبة للمفاهيم الدينية في جميع الفترات الأخرى من عصر سومر القديم.

ولكن نظرية مورتجات قد انتقدت بدورها وكانت النقاط الرئيسية التي انتقدت بها كما يلي:

١- من الصعب فهم لماذا كانت الجثة تزال خِلسة من خلال ثقب في السقف بدلاً من المدخل الرئيسي. (هناك صعوبة مماثلة في فهم السبب في أن بعض الفرق المسيحية المعاصرة الشرقية تنجز سراً بعض أجزاء القداس خلف الستائر ولكن هذه الصعوبات لا تلغي الحقائق، ولكن من الواضح أنه وفي علم اللاهوت الحديث فإن بابا نويل يعتقد أنه قد نزل من المدخنة ليلة عيد الميلاد مع أنه من الممكن أن يأتي من الباب الرئيسي ويجدر بنا أن نلاحظ أيضاً أن استعمال فكرة الثقب السري من قِبَل الكهنة البابليين والذي كان مخفياً

بوضع طاولة على أرض الغرفة أو بالنسبة لقبر (شب – حدد) فكان يخفيه أحد الصناديق.

٢- إمكانية كون بعض القبور التي تحتوي جثة امرأة ينبغي صُنع بعض الثقوب في سطح القبر فيها.

٣- عدم قبول وجهة نظر مورتجات التي تقول إن تموز الإله الميت قد قام وعاد إلى الحياة ثانية.

٤- إن الاعتراض الثالث هو أقوى الاعتراضات فقد وجدت بعض النصوص التي تخدم في إلقاء بذور الشك بالنسبة لوجهة النظر التي تعتبر تموز إلهاً ميتاً رفع إلى الحياة مرة ثانية على يد الأم العظمى.

وهكذا ومع أن (أنين) عشتار قد نزلت بالتأكيد إلى العالم السفلي فقد وضح الآن أن غرضها من هذا العمل لم يكن إطلاق سراح تموز. إذ إن غرضها الحقيقي مشكوك فيه وربما كان غرضها إطلاق سراح الموتى. يبدو لكاتب هذا الكتاب أن القبور الملكية العائدة إلى السلالة الأولى في أور إنما تمثل نهاية الزواج المقدس هي خير تفسير لتلك الحقائق. ولكن تفاصيل الزواج المقدس معروفة تماماً في الألف الثالث ق.م. وذلك من بعض النصوص حول فترة (شولغي) وهو أحد الحكام من الأسرة الثالثة في أور. وهي العنصر الرئيسي في أعياد رأس السنة التي يلعب الملك في طقوسها دور الإله تموز (دوموزي) ويتخذ اسم آما – يوشومجال – آنا ويعني الاسم المصدر الوحيد لعناقيد التمر وهذا يمثل وفرة محاصيل التمر وربما يمثل هذا الاسم، الاسم الحقيقي لأحد حكام سومر وهناك نشيد يصف ذلك المنظر في قصر .... ملك البلاد.

لقد بنيت معبداً للآلهة نِنْ – إيغال

والملك وبصفته الإلهية موجود هناك

ومن الممكن تحليل حفلات رأس السنة في الفترة السومرية في ثلاثة عناصر. مشهد المقدمة والحمام الطقوسي، أغاني الخصب والزواج المقدس ثم تقرير القضاء

والقدر ولقد أشير إلى الدور الرئيسي في إحدى الصلوات التي تشير إلى أنشطة حفلات السنة الجديدة:

أيتها الآلهة: إنني سوف أقوم بإنجاز تام للطقوس التي تبرهن على ولائي وسوف أتمم من أجلك الواجبات الإلهية، وسوف أقدم الأضاحي المطلوبة في يوم القمر الجديد ويوم رأس السنة الجديدة. وسوف أقوم بإنجاز تلك الواجبات إكراماً لك.

وهناك نص آخر يعود إلى شولغي يظهر هذا الملك وهو يؤدي تلك الطقوس فعلاً. إذ يذهب أحد القوارب إلى المعبد ومعه خروف وبين يديه خروف صغير ويقف أمام (إينانا) في معبد إينا المقدس وقد استقبل الملك بالتصفيق والحفاوة ويملأ الحبور والسرور كل أرجاء المدينة. وعندما ترى إينانا الراعي الصالح شولغي لابساً رداءه الطقوسي الفاخر ولباس الرأس الرائع عندها يصيب إينانا الذهول. وتغني أغنية حب بحضور الكاهنة العظمى التي تمثل الإلهة وهذه الأغنية كانت إكراماً للملك الذي يُمثل الإله.

إلى الملك ... إلى السيد

وعندما أغسل نفسي

وعندما أغسل نفسي إكراماً للراعي الابن الحقيقي

وعندما يصبح جسمي مكتسياً بشكل ساحر

وعندما يتورد وجهي بلون الكهرمان

وعندما أضع على عيني أدوات التجميل

وعندما الإله الذي ينام مع إينانا النقية

عندها فإن الراعي دوموزي سوف يقول

سوف أفتح صدري

وعندما يقوم بممارسة الحب معي على السرير

عندها سوف أظهر حبي للإله بدوري

وسوف أثبت له قدراً ممتازاً

وسوف أثبت له إنني قد قدِّرت عليه

لأن يصبح راعي هذه الأرض

وهناك نص آخر يصف كيف حدثت هذه الأشياء وهو يعطي التفاصيل حول قيام إنانا بالاستحمام الطقوسي وبعدها كيف تلبس نفسها بتلك الملابس الخلابة انتظاراً لمجيء الإله الملك حبيبها. وهناك نص آخر يعود إلى الفترة البابلية القديمة (حوالي ١٨٥٠ق.م) يقدم لنا قائمة مستفيضة للملابس والزينات التي تتمتع بها عشتار في إحدى المدن وهي تشمل خاتمَين من الذهب وأسواراً من الذهب وتسع عشرة خرزة من الذهب. وزخارف للصدر من الذهب وقرطين من الفضة وستة أختام أسطوانية وستة زخارف من العاج وخاتماً كبيراً من العقيق الأحمر وتنورتين وثلاثة أردية من الكتان وستة شرائط من الصوف وتمثالاً فضياً للأم وجلد أسدين.

وقد كانت الاتصالات الجنسية ما بين الإله والإلهة تحدث في الحجرة المقدسة في المعبد التي تدعى إيغي بار:

وبعد الزواج المقدس وكما يذكر النص كانت الآلهة هي التي تثبت القضاء والقدر للملك للسنة التالية وهي التي تحول السلطة العظمى الإلهية لتأكيد الخصب والأمان في البلاد، وبعد إنهاء هذه الأعمال تحدث الأفراح الشعبية والمرح بما فيه مائدة طعام وموسيقى وكانت تحدث بعض الألعاب التي كان يشترك فيها الملك.

وكما هو الحال في المجتمعات الأخرى، هناك في منطقة ما بين النهرين أصبحت بعض الأعياد ملتحمة بينما كانت واضحة ومتميزة سابقاً مثلاً عيد رأس السنة المتحركة في الزواج المقدس أصبح الآن ممثلاً للطقوس أو حتى اتخذ اسم عيد أكيتو.

إن اسم أكيتو الذي كان يذكر للدلالة على عيد رأس السنة جميعه أصبح مطبقاً على جزء من ذلك العيد وفي الألف الثالث ق.م كان متميزاً تماماً. فقد كان عيد أكيتو معروفاً في مدينة أور في فترة ما قبل سرجون وفي نيبور وفي لاغاش وأوما في نهاية الألف الثالث ق.م وفي زمن بابل القديمة كان عيد أكيتو قد انتشر فيما بين المزارات المختلفة في بابل وآشور.

وقد حدث عيد أكيتو مرتين سنوياً في الشهر الثاني عشر والشهر السادس والشهر الرابع وكان العيدان متميزين باسم عيد أكيتو لزرع البذور وعيد أكيتو لجني الشعير. وقد انتقل هذا العيد من الخريف إلى الربيع ولا تعرف تفاصيل ما كان يحدث في عيد أكيتو فقد كان ذلك مرتكزاً حول زيارة إلى بيت أكيتو وهو نوع من المعابد وكان مبنياً فوق أو قرب قناة في الأرض الغضاء. خارج سور المدينة وقد حدث موكب كان تمثال الإله يترك المدينة والمعبد ويوضع في سفينة ويقوم برحلة إلى بيت أكيتو. وبعد ذلك يعود إلى معبده بنفس الطريق وكان اشتراك الملك في هذا الموكب ضرورياً ومن الواضح أن الشعب قد اشترك فيه ووجده فترة من فترات السرور والحبور وذلك لأن أوناشتم (نوح) وهو بطل قصة الطوفان البابلية يروي وهو يبني سفينته انتظاراً الطوفان ما يلي:

لقد ذبحت العجول لأجل الشعب

وذبحت الأغنام كل يوم

وقدّمت للعمال النبيذ الأحمر والزيت والنبيذ الأبيض

وكأنها مياه النهر

وقد أقاموا عيداً كما لو كان الزمن هو يوم أكيتو

ولقد قيل إن عيد أكيتو الذي كان يحدث في الفضاء في فصل الخريف يعود إلى أعمال كانت تحدث في المجتمع الزراعي الذين كانوا يذهبون لمراقبة الحقول في أواخر الصيف عندما كان الهواء الرطب يجلب الراحة من الحرارة اللاهبة التي

كانت تهب على منطقة ما بين النهرين فيما بين شهر أيار وشهر أيلول تعلن قدوم الزمن الذي تحدث به حراثة الأرض وبذر الحبوب.

يبدو من المؤكد أنه لم يكن هناك أية علاقة ما بين عيد أكيتو والمظهر الرئيسي بالديانة فيما يتعلق بالشؤون الزراعية الأمر الذي ناقشناه سابقاً أي قضية الزواج المقدس ومع ذلك وفي الألف الأول ق.م اقترب هذان المفهومان اقتراباً شديداً بحيث أصبحا عيداً عظيماً يلف حول الملك ويحدث في فصل الربيع أثناء الأيام الأحد عشر لاحتفالات رأس السنة ولقد كتب الكثير من الباحثين وناقشوا هذه الأعياد ومن الممكن تلخص عيد رأس السنة بما يلي:

لقد حدث هذا العيد في الأيام الأولى الأحد عشر من نيسان وهو الشهر الذي يشمل الاعتدال الربيعي وهو ٢٠آذار، ولم نجد بعض الطقوس التي كانت تحدث في اليوم الأول. أما في اليوم الثاني كان الشيشاغالو الكاهن ينهض قبل شروق الشمس ويقوم بالاغتسال ويقف أمام تمثال الإله مردوخ ويصلي له صلاة طويلة يشير بها إلى انتصار الإله على أعدائه ويسأل الإله أن يعطف على المدينة والشعب والمعبد وبعد ذلك كانت تفتح الأبواب ويدخل الكهنة الآخرون لتقديم الأضحيات أمام مردوخ وقرينته وكانت الطقوس في اليوم الثالث تبدأ بنفس الأسلوب وبعد ذلك كان الحرفيون يستلمون بعض المواد لعمل تماثيل من الخشب والذهب والأحجار الكريمة ويلبسون التماثيل ملابس حمراء. وقد كان واحد من هذه التماثيل يمسك ثعباناً في يده اليسرى، وكان الآخر يمسك عقرباً بيده اليمنى. وكانت هذه التماثيل مخصصة للاستعمال في اليوم السادس. وفي اليوم الرابع كان الشيش غالو ينهض باكراً قبل شروق الشمس بمدة ثلاث ساعات وعشرين دقيقة. وبعد قيامه بصلاة خاصة أمام الإله والإلهة كان يخرج إلى باحة المعبد حيث كان ينتظر شروق بعض النجوم المعروفة باسم أكري Acre وهي مقدسة لدى البابليين وكان يحيي النجوم بتلاوة بعض الأدعية. وفي مساء اليوم الرابع كانوا يتلون صلاة خاصة. ويظن بعض الباحثين أن هذه الصلوات كانت تتم بشكل درامي أكثر منها من رواية تمثيلية كالتي كانت تتم في العصور الوسطى.

وفي اليوم الخامس وبعد إقامة الصلاة الروتينية كالعادة وتقديم الطعام كانت تحدث بعض الاحتفالات التطهيرية وكان الشيش غالا يغيب عن هذه الاحتفالات خوفاً من التلوث الطقوسي، وكان المعبد جميعه يُرَشُّ بالماء المقدسة والزيت المقدس وبعد ذلك يتم ذبح شاة بمصاحبة احتفال سحري خاص. وكانوا يقطعون رأس الشاة ثم يبدأ أحد الكهنة بمسح جسم الشاة التي قطع رأسها بجدران المعبد وذلك لامتصاص الشر. وبعد ذلك كان الكاهن المختص بالتراتيل ومعه حامل السيف الذي قطع به رأس الشاة، يذهبان ومعهما بعض الأحمال إلى النهر ويلقون برأس الشاة وجسمها في النهر، وكانوا يعتبرون أن هذين الشخصين قد فقدا النقاء والطهارة لذلك فهما يبقيان في العراء حتى انتهاء أعياد رأس السنة.

وأيضاً وخلال اليوم الخامس كانوا ينصبون غطاءً شفافاً بشكل ظلة ويدعى السماء الذهبية فوق كنيسة معينة في المعبد وكانوا يطلبون من الآلهة القضاء على جميع نوازع الشر وذلك استعداداً لمجيء الإله نابو من بورسيبا.

وهنا يظهر الملك الذي يمشي أمامه الكهنة، حيث تمثال مردوخ وكانوا يتركون الملك لوحده ثم يوافيه الشيش غالو ويأخذ منه الشارة الملكية ويضعها أمام مردوخ ثم يركع الملك أمام الإله ويتلو اعترافاً سلبياً يقول فيه إنه سوف لا يقوم بأي عمل يسيء إلى الإله:

إنني لم أذنب يا سيد البلاد ولم أهمل أي واجب من واجباتي تجاه الألوهية

إنني لم أتلف أو أخرّب بابل ولم أقم بأي عمل يسيء لها

إنني لم أزعج إيجيلا (بناء المعبد في بابل) ولم أنسَ أي طقس من طقوسه

إنني لم أخرب وجنات الناس الذين هم تحت حمايتك.

ولم أسعَ في إذلالهم.

لقد اعتنيت بشؤون بابل ولم أخرب أسوارها.

وبعدها كان الشيش غالو يصفع الملك على وجهه ويشد أذنيه وكلما كان هذا العمل مؤلماً للملك كان مفيداً لبابل وإذا صادف وانهمرت الدموع من عيني الملك كان ذلك سبباً لسرور مردوخ وبعد ذلك كان الكاهن يعيد إلى الملك شارات الملك.

وفي ذلك المساء وعند هبوط الليل كان الملك يشترك في إحدى الطقوس الدينية في باحة المعبد وكانوا يحفرون خندقاً ويضعون داخل الخندق مجموعة من أربعين خرزة مربوطة في غصن من أغصان النخيل وبعدها كانوا يربطون عجلاً أبيض بجانب الخندق وبعدها كان الملك وبمصاحبة الشيش غالو يضرم النار بالقصب ويضحي بالعجل وبعدها يبدأ الملك والكاهن بتلاوة دعاء يبدأ كما يلي:

أيها العجل المقدس إنك أنت النور الباهر الذي يضيء في الظلام.

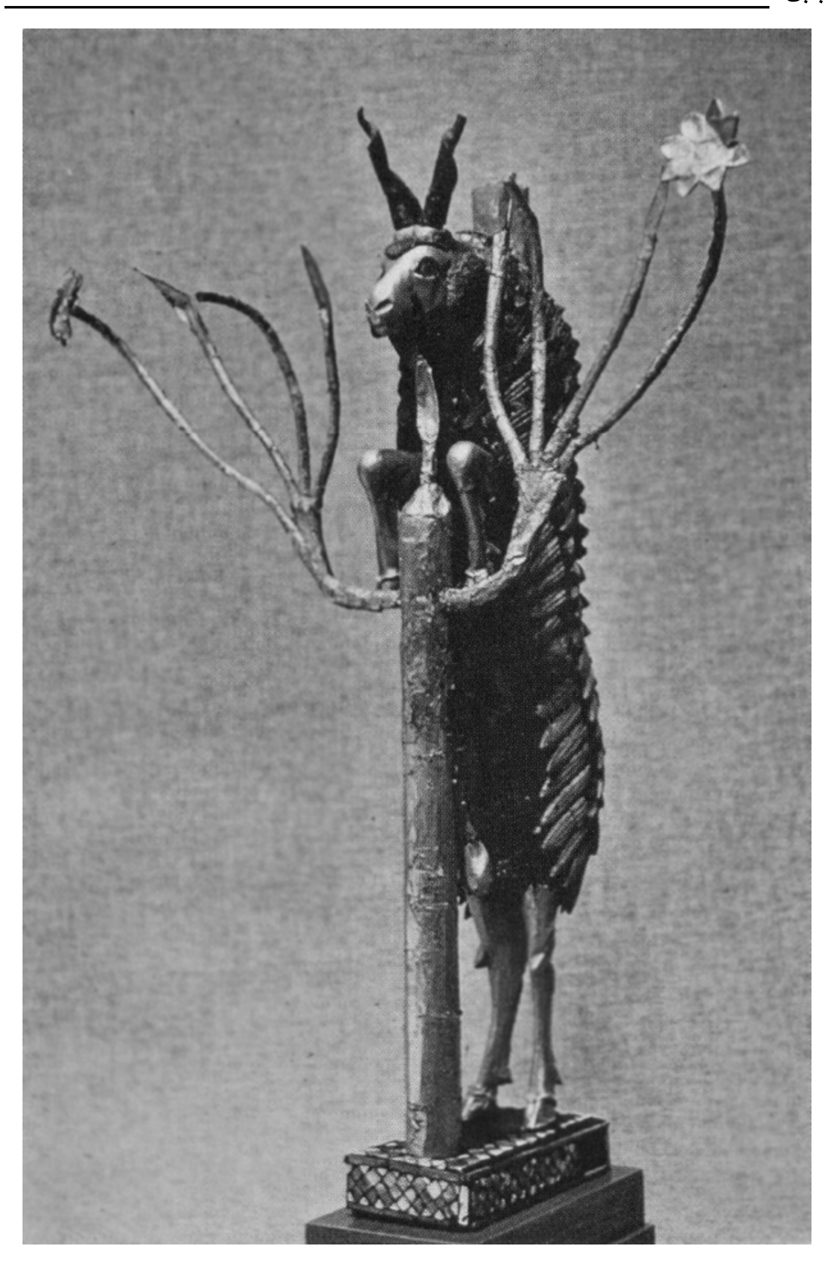
وفي اليوم السادس يحدث الحدث الرئيسي وهو قدوم نابو ابن مردوخ من مدينة بورسيبا المجاورة وهناك ينصبون التماثيل الصغيرة، التي حزموها في اليوم الثالث بحيث تتجه رؤوسها إلى نابو القادم الجديد وعند وصول نابو كانوا يقطعون رؤوس التماثيل بالسيف من قبل حامل السيف، ثم يرمى بها في النار، وإن معنى هذا العمل الطقوسي غامض ولكن التماثيل تشير إلى بعض الشرور التي قد تغلب عليها نابو وقهرها، ولقد فقدت الأعمال الطقوسية لبقية الأيام الأحد عشر يعيد رأس السنة ولكن هناك إشارات كثيرة لهذا العيد في بابل، بحيث نعرف بشكل عام ما كان يحدث هناك: أولاً:- من الواضح أن وجود الملك ضروري ولا يمكن الاستغناء عنه. وفي حالة تخلي الملك عن الحضور كان العيد يُلغى كلياً. ثانياً: - نحن نعلم أنه في بقية أيام العيد كانت تقام مواكب متجهة إلى بيت أكيتو واحتفالات بالزواج المقدس وتثبيت مقادير ومستقبل الناس في تلك السنة وكذلك تمثيل درامي حول الأساطير.

هناك شيء قد عرف عن الموكب المتجه إلى بيت أكيتو وذلك من الحفريات التي جرت في بابل نفسها، إذ إن علماء الآثار الألمان (وهم مجموعة لامعة ومجتهدة لإتمام العمل) قد وجدوا بقايا الطريق المقدس التي كانت المواكب تسير فيها فقد

كانت الطريق مبلطة بالأحجار وكانت تمر خلال بوابة عظيمة تدعى بوابة عشتار (انظر اللوحة رقم ٦) وعلى جدران مزينة بالطوب المطلي الذي كانت تظهر عليه صور الثيران والتنين بالنقش النافر ويظهر الملك وهو يتناول يد مردوخ ويقوده من مزاره ولقد استكشفت بعض الأدعية والابتهالات التي تذكر الرحلة المقدسة إلى بيت اكيتو وقد توجت تلك المواكب بالتعظيم والبهاء ولا يُعرف ماذا كان يحدث عندما يصل الملك ويدخل إلى بيت أكيتو ويقال إنه كان هناك منازلة وصدام ما بين مردوخ والوحوش التي كان يتحداها مردوخ ويهزمها وذلك كما روي في ملحة الخلق. ولا تعرف تفاصيل الزواج المقدس الذي احتفل به في بابل في الألف الأول ق.م. وربما كان مختلفاً تماماً عن الاحتفالات التي ذكرناها والتي حدثت في الألف الثالث ق.م نظراً لأن الرواية التي رواها هيرودوتس في القرن الخامس ق.م تدل أن الكاهنة العظمى لم تقضِ ليلتها مع الملك بل في وضع منفرد في حجرة العروس حيث نزل الإله بنفسه من السماء لكي يمارس الجنس معها.

وهناك أحد الطقوس الأخرى المختصة بالخصب وهي متميزة عن الزواج المقدس حين كان الملك هو المشترك الوحيد ومن الممكن أن ندعو هذه الطقوس بطقوس طلاء المخروط وهو متمثل في الأنصاب وخصوصاً النقوش النافرة الآشورية التي تعود إلى الألف الأول ق.م. وهي معرضة إلى مختلف أنواع التفاسير ويظهر في اللوحة رقم ٣١ مثال لذلك المنظر وهو يظهر جزءاً من الإفريز الكامل. وفي الإفريز الأصلي بدا الملك يواجهه جسم ثانٍ رأسه رأس صقر مجنح والمجموعة واقفة أمام شجرة مقدسة. هذا وإن التفسير الشائع لهذه الطقوس أنها تروي تلقيح شجرة النخيل. ولكن هذا التفسير غير مقبول نظراً لأن الشجرة المصورة لم تكن شجرة نخيل بينما المخاريط التي يفترض أنها تعبر عن كافور الطلع في النخيل المذكر ولكنها وكما يظهر في اللوحة رقم ٣١ لم تكن تمثل الزهرة المؤنثة بل كان الملك ومعه أسلحته ويبدو أنه من المحتمل أن تكون الشجرة هي شجرة الحياة نظراً لأنها كانت تنتشر بشكل قرص مجنح. ولهذا فإن غرض تلك الصورة الإشارة إلى الملك ومعه شجرة الحياة، وهكذا فإنه قد حول سلطة العناية بخصب الشجرة وطول بقائها.

وأخيراً يمكننا الإشارة إلى أنه مع ما كل ما قيل حول مكانة الملك فـي الديانـة فـي منطقـة مـا بـين النهـرين إلا أنـه لـيس لـدينا إلا القليـل ممّـا يمكـن اعتبـاره فاتنـاً بالنسبة لمنزلة الملك بين العبرانيين القدماء ولقد بذلت محاولات لرؤية ما هو مُوازٍ لتلك المنزلـة، إلا أنـه وطبقـاً لوجهـة نظـر مؤلـف هـذا الكتـاب، فـإن المحـاولات حـول هـذا الموضوع لا ترغمنا بالتسليم بصحة تلك الأفكار. وبصورة خاصة ومع أنه كان هنـاك عاهرات طقوسيات في المعبد فـي أورشليم فـي إحـدى الفـترات التاريخيـة إلا أنـه لـيس لـدينا أي إثبـات مـن أي نـوع كـان أن طقـوس الـزواج المقـدس كانـت تمـارس أثنـاء احتفالات عيد الميلاد فـي العبرانيين فـي أي فترة من الزمن، ولقد رأينا أن وضع الملك المقدس والإلهي إنما أتى عند تمثيله بالإله فـي الزواج المقدس. ولـو لم يكـن هنـاك أي من التقاليد فـي العبـرانيين حـول اشـتراك الملـك فـي الـزواج المقـدس فليس هنـاك مـن سبب يدعونا للاعتقاد بقداسة الملك وألوهيته وحتى بالنسبة لمثل هـذا المعنـى المحـدود فـي منطقة ما بين النهرين.



تمثال لكيش من أور (النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد) والتمثال مطلي بالذهب والصدف واللازورد (ذو علاقة بآلهة الخصب السومرية (قارن مع الصورة ١١ب، الإطار العلوي))

الفصل الثاني عشر

الآداب

تشمل الأعمال النموذجية للأدب البابلي والآشوري بعض المواضيع مثل التنبؤات، والأناشيد والحوليات الملكية والنقوش على الأبنية والنصوص الطبية والكيماوية والإنسانية فضلاً عن الموضوعات التي تخص الأساطير والملاحم، وإن لكل هذه الأسماء ما يبررها نظراً لأنه (وباستثناء الأساطير والملاحم وبعض نصوص الحكمة) لم يكن في المفاهيم القديمة أية فئة من النصوص تقابل موضوع الأدب في المعاني الضيقة المستعملة في هذه الأيام. ولكن من المناسب أن نميز هذه الأعمال التي من الممكن دعوتها بالأدب طبقاً لتصنيفاتنا الحديثة. ولكن ينبغي أن نوضح أنه مع أن هذه النصوص قد اعتبرت أفضل النصوص المسمارية المعروفة، إلا أنها ومن جهة نوعية لا تشكل إلا كسراً صغيرة من جميع الكتابات المسمارية الموجودة، ولم تُبذل أية محاولة للتمييز ما بين الأدب السومري والأكادي وبالنسبة للمعنى المحدد لكلمة أدب فإن أعظم وأطول عمل أكادي هو ملحمة جلجامش التي تدعى باللغة الأكادية (الشخص الذي رأى الشيء العميق) وقد عُرف هذا الاسم من البقايا الموجودة في مكتبة آشور بانيبال في نينوى ولكن لقد بقيت نُتَفٌ من مواقع أخرى ومن فترات زمنية أقدم لتدلّ على أن هذا العمل بصفته ملحمة أكادية فإن تاريخه يعود إلى الفترة البابلية القديمة. وهناك بعض النّتف من بوغاز أكوي في تركيا تظهر أن هذا النص قد تُرجم إلى اللغة الحثية واللغة الحورية. ومن الممكن تقصي بعض عناصر هذا النص وإرجاعه إلى زمن أقدم من ذلك الزمن نظراً لأنه قد يثبت أن هناك حوالي أربع قصص منفصلة سومرية عدا عن الملحمة الأكادية وهي ملحمة جلجامش التي نظمها الشاعر الأكادي القديم بشكل مذهل وجعلها قصة موحدة وكان آخر الألواح الاثني عشر التي قسم إليها موضوع الملحمة الأكادية مع أنها كانت عبارة

عن ترجمة حرفية لقصيدة سومرية أخرى، إلا أنها لا تؤلف جزءاً من الإنشاء البابلي الأصلي القديم ولكن كانت إضافة ذميمة ألفت فيما بعد.

إن تلك القصة تدعى ملحمة أكثر منها أسطورة، نظراً لأن المشتركين الرئيسيين فيها هم عبارة عن البشر أكثر منهم آلهة وبموجب الاصطلاحات في علم الآثار فإن هذه القصة قد أتت من الفترة الأسرية القديمة الثانية عندما ظهرت التحصينات الأولى والأسوار في بابل. وقد كان جلجامش نفسه هو باني التحصينات في إيريش وقد وُصف بأن ثلثه إنسان وثلثيه إله وكانت والدته الإلهة نين سون وكان والده الكاهن الأعظم (أو الكاهن الملك) في كولاب Kullab، وهذه الرواية تعكس قضية الزواج المقدس حيث كانت الكاهنة في المدينة تضاجع الإله، وكان الكاهن يضاجع الإلهة وذلك تأكيداً لخصوبة الأرض وتأمين خصب السكان والحيوان في الدولة، وكان جلجامش نفسه عين En أو كاهناً ملكاً.

وتبدأ الملحمة بتلخيص مختصر للمفاخر والأعمال البطولية لجلجامش وبعدها تنتقل إلى المشهد، فقد كان جلجامش ظالماً لإيريش وكان يسلب الابن من أبيه والفتاة من حبيبها ولقد سمع الآلهة شكوى السكان في إيريش فأرسلوا الآلهة أرورو Aruru كي تخلق منافساً لجلجامش. وهذا الشخص المنافس هو إينكيدو Enkidu وقد صنعته الآلهة أرورو من الصلصال ولقد كان رجلاً متوحشاً وهو من مخلوقات

كان جسمه جميعه مغطى بالشعر

وكانت خصلات الشعر على رأسه تنمو بغزارة وكأنها الشعير

ولم يكن ليعرف الناس ولا البلاد.

وكان يأكل العشب مع الغزلان

وكان قلبه يرغب بتناول الماء مع المخلوقات البرية المتوحشة.

ولقد اكتشف أحد الرعاة إنكيدو ولقد ذُعر هذا الراعي عندما رأى أنكيدو وشكاه لوالده قائلاً إن هذا الرجل المتوحش كان يتلف له أفخاخه ويمنعه من الإمساك بالحيوانات البرية. ولذلك فقد نصحه والده أن يخبر جلجامش الذي أرسل إحدى بغايا المعبد لاصطياد ذلك الرجل المتوحش بسحرها:

دعوها تنزع ثيابها ودعوها تضطجع وتُظهر جمالها ووسامتها

فإنه سوف يراها ويقترب منها.

وبعد أن فقد براءته وجد أنكيدو أن الحيوانات البرية لم تعد تقبله بينها.

وبعد ذلك فكت العاهرة القماش عن منطقة العانة وعورتها وفتحت ساقيها

ولذلك فقد تمكن إنكيدو من مضاجعتها

ولم تُظهر أي تحفظ بل قبلت بحماسة

ثم خلعت ملابسها واضطجع أنكيدو فوقها

وقد ألقت بسحرها على هذا الرجل المتوحش

وأما هو فقد استجاب لإغرائها

وظل مدة ستة أيام وسبع ليال في مقاربة ومضاجعة هذه العاهرة

وبعد انتهاء شهر العسل تعب أنكيدو من هذه اللعبة واتجه مرة ثانية لغزلانه ولكن هذه الغزلان أوجست خيفة منه وهربت. والآن لم يعد أنكيدو قادراً على الركض واللحاق بالغزلان رجع إلى العاهرة التي خاطبته وهو جالس تحت قدميها:

يا أنكيدو تركض مع وحوش الغابة

دعني أوصلك إلى إيريش

ولهذا فقد قبل أنكيدو عرضها وهكذا قدّمته للحضارة حيث تعلم لأول مرة أن يأكل الطعام الطبيعي الذي كانت تأكله البشر.

لقد كان معتاداً أن يمتص الحليب من الحيوانات البرية

وعندما وُضِع الخبز أمامه شعر بالعجب فقد نظر وحدق

إذ لم يكن أنكيدو يعلم شيئاً عن تناول الخبز ولم يكن قد تعلَّم شراب المواد الكحولية

ومع ذلك فقد وثق بهذه المرأة فأكل وشرب حتى شعر بالسرور وهو يدخل إلى قلبه والتمع وجهه وبعد ذلك وبدلاً من أن يظل رجلاً عارياً ، فقد ألبس نفسه واستعمل العطور كإنسان عادي. وأخذ في مساعدة الرعاة في حماية قطعان الماشية. وقد استمر الحال على هذا المنوال حتى أتاهما رسول يدعوهما للذهاب إلى إيريش لحضور عيد الزواج المقدس الذي كان جلجامش يقوم فيه بإخصاب آلهة القضاء والقدر وحالما وصل أنكيدو إلى المدينة تعرَّف عليه الشعب المجتمع واعتبروه نِدّاً لجلجامش وهكذا نشأت المبارزة بين البطلين

وعند بوابة المبارزة ما بين جلجامش وأنكيدو تصارعا حتى ارتجفت الجدران وتصوّر الأختام الأسطوانية هذه المبارزة التي لم يكن غرضها إلقاء الخصم على الأرض بل أن ترتفع قدماه فوق سطح الأرض وأخيراً كان أنكيدو هو الخاسر.

كان جلجامش هو الذي مال إلى الخلف ولكن قدمه لازالت على الأرض

وعندها قهر جلجامش منافسه ، إلا أنه لم يحقد عليه وأصبح البطلان صديقين حقيقيين. وبعدها قاما بحملة معاً ضد أحد الغيلان وهو حارس غابة الأرز ويدعى هواوا وكان صوته يشبه صوت العاصفة وفمه كفم إله النار ونفسه هو الموت وكان قوياً لم يَنَمْ. وهكذا انطلق الصديقان وقد سلَّحا نفسيهما بالفؤوس الكبيرة والخناجر الثقيلة رغم نصائح الشيوخ في إيريش وتوقها إلى غابة الأرز ، وقد وضع جلجامش نفسه تحت حماية إله الشمس (شمش) وعند وصولهما إلى غابة الأرز اعترى جلجامش شيء من الخوف ولكن صديقه شجعه وكذلك شجعته الأحلام التي أرسلتها الآلهة إليه:

لقد ركز جلجامش ذقنه على ركبتيه

وهكذا نزل عليه النوم الذي كان ينصبّ على البشر

وبعد نصف ساعة أنهى نومه

ونهض وتكلم مع صديقه قائلاً

يا صديقي إنك لم تكلمني ومع ذلك فإني قد نهضت

وإنك لم تلمسني ومع ذلك فإني أشعر بالنشاط

ولم يصادف أن مرَّ أحد الآلهة بجانبي ومع ذلك فإن أطرافي مشلولة

يا صديقي إني قد رأيت حلماً ثالثاً

وكان الحلم الذي رأيته مشوّشاً.

ولقد وصف الحلمين السابقين، وقد فقد الحلم الأول بالنسبة لنا. أما الحلم الثاني فهو أن جبلاً قد سقط وأوقع جلجامش في الفخ من قدميه، ولكن صادف أن ظهر رجل ذو جمال عظيم عمل على إنقاذه فجذبه وأخرجه من أسفل ذلك الجبل. وأعطاه ماءً ليشرب أما الحلم الثالث المُريع فقد رواه جلجامش لصاحبه:

ولقد انتصب الجبل قوياً وهادئاً وساد الظلام في أرجائه

والتمع البرق وحدث الحريق

وأمطرت الدنيا موتاً

وتحوَّل كل من يسقط إلى رماد

أصغى أنكيدو لصديقه وأقنعه أن يُبعد الفأل السيئ عن نفسه وأن يستمر في مغامرته وبعد ذلك تقدم جلجامش ليقطع شجرة من شجرات الأرز، وهكذا اقترب من مجال رؤية الوحش هواوا. ولقد هاجم جلجامش الوحش بعد أن أعانه إله الشمس الذي أرسل إلى الوحش ثمانية من الرياح فأصبح غير قادر على المقاومة، وهكذا فقد عرض التسليم ولكن أصَرَّ أنكيدو على قتل الوحش.

وهكذا رجع جلجامش منتصراً إلى إيريش وغسل خصلات شعره المسترسلة ولبس أحسن الملابس وخصوصاً غطاء الرأس. وعندما رأته الآلهة عشتار في ذروة جماله قدَّمت نفسها له فقد كانت هي آلهة الحب والخصب.

أرجو أن تهبني ثمارك

وأن تصبح زوجي وأصبح أنا زوجتك

ولسوف أهبك عربة من اللازورد والذهب

وسوف تكون عجلات العربة من الذهب والحجارة الكريمة

وسوف تستخدم الرياح والعواصف لتسوق تلك العربة بدلاً من الخيول والبغال

إن السهوب والأراضي سوف تقدم لك الجزية

وسوف تلد الماعز لك ثلاثة مواليد والأغنام مولودين

وسوف يستطيع حمار الجر التابع لك أن يسبق الحمار الوحشي في سيره

وسوف تسبق خيول عرباتك جميع الخيول المشهورة

ولهذا فقد رفض جلجامش الشرف الذي عرضته عليه الآلهة بوقاحة وأخذ يحط من قدرها بهذا الشكل

إنك كالباب الخلفي الذي لا يمنع الرياح أو التيارات الهوائية.

وإنك كالزفت الذي يوسخ الرجل الذي يحمله

وإنك مثل زق الماء الذي يرشح فوق الرجل الذي يحمله

وإنك مثل الحذاء الذي يرميه صاحبه إلى الأسفل

وقد أشار إلى تقلباتها قائلاً:

من هو العاشق الذي أحببته بشكل دائم؟

تعالي إنني سوف أعد عشاقك

أما تموز الذي كان يعشقك أيام الشباب

فلقد سبَّبْتِ له البكاء المتكرر عاماً بعد عام

ولقد كنت تحبين طائر الأللالو

ومع ذلك فقد ضربت هذا الطائر وكسرت جناحه

وهو واقف في الغابات صارخاً: آه يا جناحي

وقد اعتدْت أن تحبي الأسد ذا القوة الشديدة

ومع ذلك فقد حفرت له الحفر التي لا تُعَدَّ ولا تحصى

وكنت تحبين الحصان المشهور في المعارك

ومع ذلك فقد حضرت له السوط والمهماز

وكنت تحبين راعي المواشي والقطيع

الذي كان يكوّم الكعك أمامك

وكان يذبح الأغنام لأجلك

ومع ذلك فلقد ضربتِه وحوّلتِه إلى ذئب

بحيث أصبح شباب الراعاة يطاردونه

ولكنه أصبح يعوي كلما رآه

وبعد ذلك يقول جلجامش:

إنك تريدين أن تحبيني ولكن مصيري سوف يكون كمصير هؤلاء

وعندما سمعت عشتار هذا الكلام أسرعت إلى والدها آنو طالبة مساعدته للانتقام للإهانات التي سمعتها. وتحت ضغط عشتار خلق آنو العجل السماوي الذي نزل إلى النهر لمعاقبة جلجامش وبعد أن قتل المئة شخص الأوائل الذين صادفهم هجم العجل على أنكيدو ولكن

قفز أنكيدو وأمسك بالعجل السماوي من قرنيه

وأمسك بذنبه

وبعد ذلك أغمد جلجامش خنجره ما بين عنق العجل وقرنيه.

ولذلك عندما قتلا العجل السماوي. أخرجا قلبه ووضعاه أمام شمش، وكإهانة أخيرة لعشتار نزع جلجامش عظمة الفخذ (ربما كنا به عن الأعضاء الجنسية) للعجل المقدس ورماها على الآلهة بازدراء

وأما لو استطعت أن أصل إليك

فإني سوف أضع ما صنعته بك

وتلا ذلك فترة من السرور والحبور

وفي تلك الليلة رأى أنكيدو حلماً تلاه على جلجامش

لقد اجتمع آنو وإنليل وشمش معاً وبدأوا يتشاورون

وقال آنو لإنليل

إنه وبسبب قتلهما العجل المقدس وقتل هواوا

فإن أحدهما ينبغي أن يموت

ولا ينبغي أن يموت جلجامش

ولكن شمش أجاب إنليل البطل

ألم تقتلا العجل المقدس وهواوا بناءً على أوامري

وهل ينبغي أن يموت أنكيدو البريء بسبب ذلك

ولكن إنليل غضب من شمش

وكان ينبغي تنفيذ قرار أنو وإنليل

ولهذا فقد مرض أنكيدو ووصل إلى درجة الموت مما سبب الحزن العظيم لجلجامش

لقد اضطجع أنكيدو على فراش الموت أمام جلجامش

وحالما سالت دموعه صاح

يا أخي – يا أخي العزيز لماذا برؤوني أنا بدلاً منك

هل يجوز أن لا أرى أخي العزيز مرة ثانية بعيني

وهكذا فقد عبّر أنكيدو عن أسفه لتلك النهاية التي سوف ينتهي بها وأصبح يكيل اللعنات على بوابة إيريش والصياد والمومس ولكن عندما بدأ جلجامش في تعداد محاسن الحياة المدنية وطقوس الدفن الرائعة في المجتمع المتحضر هدأ أنكيدو وحوَّل لعناته إلى بركات تصيب تلك المومس.

إن الأمراء والملوك والنبلاء سوف يحبونك

لأنك أنت الرجل التام الرجولة سوف تهجر بيته

ولأجلك سوف يُرخى حزامه

وسوف يهبك اللازورد والذهب

وبسبب حبِّك سوف يهجر الزوج زوجته الأولى والدة السبعة أطفال.

وهنا رأى أنكيدو مناماً أخيراً عن حالة ساكني العالم السفلي وبعد ذلك وبعد بقائه على فراش المرض لمدة سبعة أيام توفي ولهذا بدأ جلجامش يندب حظ صديقه.

والآن ما هو النوم الذي ألَمّ بك؟

لقد أصبحت سبباً لخوفي لأنك لا تسمعني

ومع ذلك فلم يستطع جلجامش أن يوجه عينيه عنه

وقد لمس قلبه ولما لم ينبض قلبه، لذلك فقط غطى وجهه بوشاح كالعروس

وأصبح يصرخ كالأسد

واللبؤة التي خسرت أشبالها

وظل ملتفتاً نحو صديقه

ولكن خوف الموت استولى على عقل جلجامش

بدأ جلجامش بالجري في أراضي تلك السهوب

وهو يبكي بمرارة على صديقه أنكيدو

إنني سوف أموت بنفسي، فهل سوف أصبح مثل أنكيدو

لقد تطرق الحزن إلى داخلي

إنني أخشى الموت وإنني وحيد في تلك السهوب

وأنا أريد أن أذهب واتخذ ممر أونابشتم (نوح) ابن أدبار توتو وجهتي

ولسوف أذهب إلى هناك بالسرعة الممكنة

وهكذا ذهب جلجامش لاستشارة سلفه أونابشتوم الرجل الذي لن يصيبه الموت. مرَّ بجبل ماشو في نهاية العالم والذي كانت الشمس تمر فوقه صباحاً ومساءً وهنا وجد ما يلي:

وجد شعب العقارب الذين يمارسون المراقبة ليلاً ونهاراً على بوَّابته

والذين كان نورهم وبهاؤهم يسبب الذعر وإن أية نظرة على أحدهم تسبب الموت

والذين تنتشر أصواتهم فوق الجبال الكونية

والذي عند شروق الشمس وغروبها تقف حارساً فوق الشمس.

ولكن شعب العقرب اعترفوا بجلجامش بصفته ثلثي مقدس أو إلهي وهكذا سمحوا له بالمرور خلال بوابة الجبل لكي يتبع ممر الشمس عندما تختفي عن الأنظار في الأرض وقد سافر خلال الظلام مسافة أحد عشر فرسخاً حتى ظهرت

الأشعة الأولى من أشعة الشمس وفي الحال ساد النور فوجد جلجامش نفسه في حديقة تحمل أشجارها الحجارة الثمينة وهنا تكلم مع إله الشمس الرحيم الذي حذّره بما يلي قائلاً:

ما هو هدفك من هذا التجوال يا جلجامش

إنك سوف لا تحب تلك الحياة التي تتوق إليها

استأنف جلجامش رحلته وتقدم في طريقه فوصل إلى مسكن السيدة سيدوري صاحبة الفندق وكانت تعيش على طرف الهاوية وعندها تطلعت هذه السيدة فرأت جلجامش آتياً

كان لابساً الجلود

مع أنه يحمل في جسمه لحوم الآلهة

هناك كان الحزن بادياً في داخله

وتدل هيئة وجهه وكأنه شخص قد مشى طويلاً من أمكنة بعيدة

ولكن سيدوري شعرت بالانزعاج لدى رؤيتها رجلاً غريباً

لقد بدأت تفكر بنفسها

ربما كان هذا الرجل سوف يغتصبني

وعندما رأته أغلقت الباب

وبعدها أغلقت الباب الخارجي وأنزلت المزلاج

ولكن جلجامش هددها بأنه سوف يحطم الباب والبوابة ولكن وبعد أن فسر لها جلجامش غايته، قامت باستقباله وعندها روى لها جلجامش مغامراته فسألته سيدوري:

إذا كنت قد فعلت كل هذه الأعمال

لماذا يظهر الحزن على وجهك؟ ولماذا أصبحت ملامحك ...

ولماذا يظهر الحزن في داخلك؟

عندها أخبرها جلجامش عن حزنه لخسارة صديقه وكيف أنه رفض مواجهة حقيقة موته حتى أصبحت الديدان تزحف على وجهه وأخبرها عن خوفه عند تفكيره بالموت وعن عزمه على استشارة أونابشتم وقال: أخبريني كيف يمكنني الوصول إلى أونابشتم

فإذا كان ذلك ممكناً فإني سوف أعبر فوق الهاوية

وإذا كان ذلك غير ممكن فإني سوف أتجول في البراري والسهوب

وعندها قالت سيدوري لجلجامش:

ليس هناك مجال للعبور يا جلجامش في أي زمان من الأزمان

وإن أي شخص ومنذ أقدم الأزمنة قد وصل إلى ذلك المكان فهو لا يستطيع عبور الهاوية

ولا يستطيع عبور الهاوية سوى إله الشمس العظيم ولكن من يستطيع عبورها سوى إله الشمس

إن العبور مُتعب والطريق متعبة

ومع ذلك فقد أخبرت سيدوري جلجامش عن مكان وجود أونابشتم الرجل الذي كان ينقل الناس عبر النهر في مركب أو معدية وأخبره عن وجود مستودع مملوء ببعض الأشياء الغامضة التي تدعى الأشياء المصنوعة من الحجر؟ وبعدها يذهب جلجامش ويجد أونابشتم ويخبره عن رحلته غير العادية ويخبره أونابشتم أنه نظراً لأنه قد حطم بعض الأشياء المصنوعة من الحجر والتي كان لها تأثير سحري بحيث تساعد حاملها على عبور مياه الموت وذلك مما جعل وصوله إلى غرضه محفوفاً بالصعوبات ومع ذلك قال له أونابشتم:

انزل إلى الغابة واقطع أغصاناً تشبه الأعمدة طول الواحد منها ثلاثين ياردة

ثم ادهن هذه الأعمدة بالتيامين واجلبها لي.

وهكذا فقد نفّذ جلجامش هذه التعليمات ثم أنه نزل إلى القارب الذي أسرع بسرعة خيالية تبلغ خمسة عشر ضعفاً من السرعة العادية، وهكذا وصلا إلى مياه الموت، حيث أمر أرشاناي جلجامش أن يستعمل الأعمدة كمجاديف يستعملها في القارب الذي سوف ينقلهم عبر مياه الموت، وقد كانت التعليمات تقضي بأن لا تمس مياه الموت يدي جلجامش وينبغي أن يستعمل كل عمود أثناء تجديفه في مياه الموت، وأخيراً فقد استهلك جلجامش الأعمدة المئة والعشرين التي كان قد جلبها معه من الخارج والآن لقد أصبحا على مرمى النظر من الشاطئ الآخر حيث بدأ أونابشتم بالمراقبة باستغراب.

ينظر أونابشتم إلى الأمام وإلى مسافة طويلة

وهو يفكر بنفسه وبعدها يُعلّق على الأحداث

حالما كان يتشاور مع نفسه

لماذا حطمت الأدوات المصنوعة من الحجر.

ولماذا يركب القارب شخص غير صاحب القارب

إن الرجل الآتي ليس هو من رجالي

وأخيراً وصل جلجامش وفسّر لأونابشتم طبيعة مهمته فأجابه أونابشتم مشيراً إلى تفاهة الأنشطة البشرية وتفاهة الطبيعة وقال:

هل نحن نبني البيت حتى نعيش إلى الأبد؟

وهل نحن نختم الوثائق ونظل نختمها إلى الأبد؟

هل يقسّم الأخوة أملاكهم بحيث يظل التقسيم سارياً إلى الأبد؟

هل تستمر كراهية العدو إلى ا لأبد؟

هل يحدث الطوفان في النهر ويظل ذلك إلى الأبد؟

لقد اجتمع الأنوناكي وهم الآلهة العظام

وقرروا شؤون الحياة والموت

ولكنهم لم يكشفوا وقت الموت

لم يقتنع جلجامش فقد أشار لأونابشتم أن أونابشتم لا يختلف عنه في طبيعته ومع ذلك، فإنه يستطيع الاستلقاء براحة دون القلق المزعج عند التفكير بالموت ثم سأله كيف استطعت أن تكتسب هذه الحياة الأبدية؟ وعند الإجابة روى له أونابشتم قصة الطوفان

سوف أكشف لك يا جلجامش سراً من الأسرار

نعم سوف أخبرك سراً من أسرار الآلهة

هناك مدينة شورياك تعرفها أنت نفسك

كانت تلك المدينة متوضعة على ضفاف نهر الفرات

كانت تلك المدينة قديمة وكان الآلهة يسكنون داخلها

ولقد شعر الآلهة العظام أنهم مساقون لعمل الطوفان

وهنا يُعدد أسماء الآلهة العظام وبينهم كان الإله الحكيم والكريم أيا ويدعى نين – إيجي – كو أي سيد العين اللامعة أي السيد الذكي الذي عرف الحماقة التي سوف تتسبب في فناء الإنسانية جميعها وقد اقترح هذا الإله الذكي استراتيجية يمكن بواسطتها ودون كسر هيبة الآلهة فإنه يستطيع أن يُنذر أحد الرجال من بني البشر من الموهوبين والمرضى عنهم:

إنه يكرر كلماتهم الموجهة إلى الكوخ المصنوع من القصب

أيها الكوخ القصبي أيها الكوخ القصبي الجدار، الجدار

أيها الكوخ القصبي اسمع أيها الجدار انتبه

أيها الرجل من شورياك ابن أوبار توتو

اهدم بيتك، وابْن سفينة

اترك بضاعتك وأغراضك وانْجُ بحياتك

وأخبر كل كائن حي أن يصعد إلى السفينة

وعندما فهم أونابشتم تعليماته، وعد أن يطيع أيا ولكنه كان مهتماً بأن يفهم الرجال الآخرين في المدينة بنيته وما سوف يفعل. ولكن أيا الذكي علمه جواباً يخدع به أولئك الذين يسمعونه دون أن يتورط أونابشتم بقول أية كذبة فعليه فكان عليه أن يقول:

لقد علمت أن إنليل يكرهني

ولهذا فلا أستطيع الاستمرار بالمعيشة في مدينتكم

بل علي أن أنزل إلى الهاوية وأعيش مع سيدي أيا

وعندما أذهب فإن إنليل سوف يصبّ عليكم وابلاً من مطر الكيباتي

إن كلمة كيباتي غامضة فهي تعني إما القمح أو المصيبة العظيمة.

وهنا يبدأ بوصف السفينة بالتفصيل فقد كان قارباً مرموقاً مبنياً بسبع طبقات أما مساحة القاعدة فتبلغ فداناً وكان ارتفاع القارب مساوياً لطول أحد جانبيه ولهذا فقد ظن بعضهم أن شكل القارب كان مخروطياً ولكن هذا ليس استنتاجاً ضرورياً ذلك لأنه ربما كان ظهر المركب مدرجاً وبذلك يظهر القارب في أبعاده والحالة هذه أقرب إلى شكل الزقورة العائمة. ولقد عمل العمال دون راحة حتى انتهى العمل وبعدها حمل أونابشتم السفينة بالفضة والذهب والدواجن والمواشي ثم أنزل عائلته وما يرتبط بها والمخلوقات البرية والحرفيين وبعد أن أنذره إله الشمس نزل إلى السفينة بنفسه وتفقدها وبعدها سلم إدارة السفينة لبوزور أموري وهو ربان السفينة

وفي الصباح بدأت العاصفة

وعندها ارتفعت من الأفق غمامة سوداء

وكان حدد إله العواصف يزمجر داخلها

وقد سبقه الإلهان شولات وحانيش

وقد أتيا للنداء فوق التلال والوديان

وعمد ايراغال (وهو نيرغال إله العالم السفلي) إلى هدم

أعمدة السد الذي يمنع المياه تحت الأرض

وبعدها أتى نينورتا وسمح للسدود أن تنساب مياهها

ورفعت الأنوناكي مشاعلها

فلمعت الأرض وتوهجت بفعل تلك المشاعل

وتلا ذلك حلول الظلام وأصبح الظلام مخيفاً لدرجة أنه

حتى ا لآلهة بدأت تخاف من هذا الطوفان

لذلك انسحبوا وصعدوا إلى سماء آنو

وقد تجمّع الآلهة كالكلاب وقبعوا في الزوايا

وبدأت عشتار تبكي وكأنها امرأة في حالة المخاض

وبدأت سيدة الآلهة الحلوة بالصراخ

لقد تحول البشر القدماء إلى صلصال

وذلك لأني أنا الذي قضيت حول الشرور في المجمع الإلهي

وكيف قضيت بالشر في المجمع الإلهي

هل لكي أبيد شعبي؟

والآن هم يملأون البحر كالسمك المعد للقلي

ولكن الآلهة أي أنوناكي بدأوا بالبكاء معها

ولقد شعر الآلهة بالذل فجلسوا وهم يذرفون الدموع

وبعد سبعة أيام هدأت العاصفة واستطاع أونابشتم أن يخرج ليطلع على ما حدث من خراب فقد كان حوله ومن جميع الجهات الماء والبحر وبعد ذلك ظهرت بعض الجزر وكانت هي قمم الجبال وعلى قمة أحد هذه الجبال وهو جبل نيير رست السفينة. وبعد سبعة أيام وحالما خفّت حدة المياه أرسل أونابشتم حمامة ولكن الحمامة لم تجد مكاناً ترتاح فيه فرجعت وبعد ذلك أطلق طائر السنونو ولكن هذا الطائر لم يجد مكاناً للراحة فرجع وأخيراً أطلق غراباً وهنا رأى أن الحياة قد رجعت إلى مستواها الطبيعي وقد رأى أونابشتم أن الغراب

كان يأكل ويطير هنا وهناك ويصرخ ولم يرجع

ولهذا استطاع أونابشتم أن يطلق سراح كل من كان في السفينة واستعد لذبح أضحية للآلهة الرابضة على قمة الجبل وقد اشتم الآلهة رائحة عطر الغابات.

وتجمع الآلهة كالذباب حول السيد الذي ذبح الذبائح.

وبعدها وصلت عشتار وهي لا تزال تندب حماقة هذا العمل الذي أدّى إلى تخريب شامل وقد تبعها الإله إنليل الذي أظهر غضبه نظراً لأن قراره لم ينفذ كما يجب.

رأى إنليل السفينة وكان في غاية الغضب

وقد امتلأ غضباً من الآلهة في الأعلى

فهل نجا أي مخلوق حي من هذا الطوفان؟ إذ لا يفترض أن يكون أي شخص من البشر قد نجا وهنا تكلم ابن نينورتا مع والده وسأله قائلاً:

من يستطيع أن يقوم بأي عمل دون أيا؟

وذلك لأن أيا يفهم جميع ما هناك من أعمال

وعندها خاطب أيا إنليل بلهجة قاسية مشيراً إلى أن كلا الظلم والجهل هما سبب هذا الخراب الذي حل في العالم ككل:

على المذنب يقع الذنب وعلى المعتدي يقع الاعتداء

إذ بدلاً من صنع الطوفان دعوا أسداً يأتي ويقتص من البشرية

وبدلاً من صنع الطوفان دعوا ذئباً يأتي ويقتص من البشرية

وبدلاً من صنع الطوفان أطلقوا المجاعة ودعوها تقتص من البشرية

وبدلاً من صنع الطوفان دعوا الطاعون يأتي ويضرب البشرية

وعندما سمع إنليل كلام الإله الحكيم هدأ غضبه، وصعد إلى السفينة وأخذ بيد أونابشتم وأمر أونابشتم زوجته بالانحناء والسجود وعلامة الخضوع والرضا وقد لمس جبهتها ووقف بين هذين الزوجين وباركهما:

لقد كان أونابشتم من بني البشر سابقاً

أما الآن فقد أصبح أونابشتم زوجته من الآلهة حقاً مثلنا

ولسوف يسكن أونابشتم بعيداً عن مصب الأنهار

وهكذا انتهت قصة الطوفان التي خدمت بالتأكيد الموقف الفريد والحظ السعيد لأونابشتم وزوجته إذ لم يكن جلجامش يتوقع مثل هذا الخلاص لبني البشر:

من يستطيع أن يجمع الآلهة على حسابك الشخصي

بحيث تستطيع أن تجد الحياة التي تروق لك والتي تبحث عنها؟

ولكي نؤكد كيف كان جلجامش مستخفّاً بالبشرية، فقد تحدّاه أونابشتم أن يبقى مستيقظاً ستة أيام وسبع ليال. ولكن سرعان ما داعب النوم جفنيه بعد أن جلس القرفصاء هناك.

لقد هبط النوم عليه وكأنه غمامة

ولكن زوجة أونابشتم أشفقت على البطل التّعب وحثت زوجها أن يوقظه حتى يستطيع أن يعود بسلام إلى إيريش ولكن أونابشتم كان قد خطط أن يوضح لجلجامش تفاهته فقال:

إن البشرية غشاشة ، إنه سوف يسعى لأن يغشك

تعالي واخبزي له إعاشته من الخبز وضعي الخبز فوق رأسه

وبعد ذلك اكتبي على الجدار عدد الأيام التي نامها

ولقد فعلت ذلك يوماً بعد يوم وبعد سبعة أيام نهض جلجامش بعد أن أيقظه أونابشتم وبسرعة اعتذر وقال إنه قد أصابته غفوة

لم يكد النوم يتملكني

حتى أتيت أنت ولمستني ثم أيقظتني

وبعد ذلك أمره أونابشتم

يا جلجامش أرجوك أن تعد أرغفة الخبز

وهكذا سوف تعرف عدد الأيام التي قد نِمْتَ فيها

وهنا أصاب القنوط جلجامش وفعل ذلك فوجد أن مقادير الخبز كانت تتدرج من الخبز المخبوز حديثاً إلى الخبز الذي أصبح حامضاً ومتلبداً والخبز الذي أصبح جافاً بعد أن ظل معرّضاً لأشعة الشمس مدة أسبوع كامل. ولذلك اعترف أنه قد سقط في الامتحان وقد قبل الموت مصيراً له.

إن القناص هو الذي أمسك بلحمي

والموت يجلس في حجرة نومي

وحيثما أضع قدمي أجد الموت قبالتي

وعندها أعد أونابشتم جلجامش للرحيل إلى مدينته

وقد أوعز إلى أوشانابي أن يغسل جسمه وأن يزيل الجلود الفاسدة التي كان يرتديها ويُلبسه ملابس فاخرة جديدة ، وأن يضع عمامة جديدة على رأسه وحالما كان جلجامش وأورشانابي يستعدان للرحلة إذا بزوجة أونابشتم تقنع زوجها أن يقدم لجلجامش مكافأة على قيامه بتلك الرحلة المتعبة وهكذا أشار أونابشتم على

جلجامش أن يحصل على نبات سحري فيه أشواك وهو موجود تحت البحر ويدعى النبات الذي يبدل الشيخ إلى شاب. وهكذا فقد ربط جلجامش بعض الحجارة في قدميه وغطس في البحر حيث حصل على النبات رغم وجود الأشواك، وبعد أن أزال الحجارة من قدميه رَمَتْه الأمواج على أحد الشواطئ حيث التحق به أورشانابي وقد مشيا مسافة خمسين فرسخاً ثم توقف لقضاء الليل وعندها:

رأى جلجامش بركة كانت مياهها باردة

فنزل إلى البركة واستحم بمياهها

ولقد اشتمت إحدى الأفاعي رائحة النبات

فخرجت وأخذت النبات

وهكذا فقد استبدلت جلدها بجلد جديد

عندما وجد جلجامش أنه قد خسر النبات الذي أتعب نفسه في الحصول عليه جلس وأجهش بالبكاء. إذ إنه لم يستطع أن يحصل على أية فائدة لنفسه. فالثعبان الذي سماه جلجامش أسد الأرض قد كسب تلك المكافأة التي كانت سوف تجدد شبابه وربح جائزة تغيير جلده كل عام.

وصل جلجامش وأورشانابي إلى إيريش فارغي اليدين. وقد أظهر جلجامش عظمة تلك المدينة لمرافقه ودليله. وكانت المدينة نفسها مؤلفة من ثلاثة أجزاء وهي المنطقة المسكونة ثم أراضي البساتين ثم الحقول الفضاء. فضلاً عن الأراضي التي كانت تخص معبد الإلهة الحامية عشتار وكان إظهار التحصينات التي أقامها جلجامش في تلك المدينة هو ما بقي له من عزاء.

ولقد أظهر الأستاذ س.ن كرامير Kramir أن هناك عدداً من القصص الأكادية تكمن تحت ملحمة جلجامش في شكلها الأكادي الحالي. وبالإضافة إلى ذلك هناك عدة ملاحم أخرى باللغة الأكادية لها علاقة ظاهرة بملحمة جلجامش سواء في الموضوع أو المحتوى. وهكذا فإن الملحمة المعروفة لنا باسم أتراحاسيس

Atrahasis وللبـابليين باسـم أنيومـا – إيلـو – أويليـوم الموجـودة في النتـف مـن الألـواح المسمارية في بابل القديمة وآشور الحديثة إنما تتركز حول قصة الطوفان وهي مدونـة في ثلاثة ألواح واللوح الأول لم يكتشف مضمونه بعد وهـذه الملحمة تعطي معلومات أوفى حول قصة الطوفان في ملحمة جلجامش نظراً لأنها توضح تماماً الغرض من قرار إنليل لإبادة البشرية كلياً.

إن الخوف من زيادة عدد السكان ليس جديداً ففي ملحمة أتاشاسيس نتعرف على وضع زاد فيه العنصر البشري في سومر إلى درجة أن سبب ذلك الانزعاج لدى الآلهة.

لقد توسعت الأراضي وزاد عدد السكان

ولقد شعر الإله بالكآبة من شدة ضجيجهم

ولقد سمع إنليل ضجيجهم

فهتف منادياً الآلهة العظمى قائلاً:

إن ضجة البشر أصبحت عبئاً عظيماً علي

وبسبب ضجتهم لم يعد باستطاعتي النوم

ولذلك قرر الآلهة أن يخلقوا مجاعة فقد أوقف حدد نزول المطر وأمرت نيسابا إلهة الحبوب بأن لا ينتج حبوب في البلاد أو ذرة وهكذا بدأت البيورات الملحمية تظهر على الأرض كما يحدث في العراق في الوقت الحاضر ولمدة ست سنوات واستمر القحط والمجاعة حتى اضطر الشعب المسكين إلى الانحطاط لدرجة أكل لحوم البشر.

عندما حلت السنة السادسة كانا يحضرون إحدى بناتهم لتكون وجبة طعام لهم

وكانوا يحضرون الطفل ليأكلوه طعاماً

وكان أحد البيوت يفترس أفراد البيت الآخر

وأخيراً أشار الإله الرحيم أيا على الرجل أتراحاسيس فصنع أتراحاسيس شيئاً (لم نستطع قراءة هذا الشيء كون قطعة اللوح قد كسرت) لكي يلغي اللعنة وينتج المطر.

ومع ذلك فقد ازداد عدد السكان الأمر الذي كان منغصاً لحياة الآلهة فقام الآلهة بالتحرك للمرة الثانية وقد كانت العقوبة هذه المرة هي الطاعون وهكذا فقد أخبر إنليل الآلهة بما يلي

إن الطاعون سوف يوقف ضجتهم

ولسوف يهب الدمار والأمراض والحمى عليهم كأنها عاصفة

وهكذا حدث الطاعون ولكن ما لبث أتراحاسيس أن اشتكى إلى الإله أيا الذي أخبره عن الإجراءات التي ينبغي اتخاذها لإيقاف الطاعون.

ومرة ثانية عادت البشرية للازدياد وهكذا قرر الآلهة البدء بالعمل ثانية وفي هذه المرة كان القرار أن يكون الخراب كاملاً وهو بواسطة الطوفان وقد قرروا أن يكون الطوفان هذه المرة بشكل وحش ولكن أنكي قرر أن يحفظ بعض أفراد البشر من الفناء التام.

وهناك عمل كان موضوعه ملحمة أوابا وكان هذا يشير إلى رغبة الإنسان بالخلود وقد عرف هذا العمل من بعض القطع الصلصالية المأخوذة من مكتبة آشور بانيبال في نينوى، ومن قطعة وجدت في القرن الرابع عشر في محفوظات الكتابة المسمارية في تل العمارنة في مصر، وكان أدابا (الذي ربما كان يشير إلى الاسم التوراتي آدم) وقد خرج من قاربه في أحد الأيام لصيد السمك عندما أتت الريح الجنوبية وقلبت القارب، وعندها غضب أدابا وأمسك بالريح الجنوبية وكسر جناحها، وهكذا توقفت الريح عن الهبوب مدة سبعة أيام وقد لاحظ الإله العالي المقام آنو ذلك ودعا وزيره لتغيير ذلك.

وقد أجابه وزيره إيلابرات Ilabrat قائلاً: يا سيدي إن أدابا ابن أيا قد كسر جناح الريح الجنوبية. ولهذا فقد دعى أدابا للمثول أمام الإله آنو ولكن إيا وقف

مناصراً لأدابا ونصحه بالعمل الذي ينبغي عليه إتمامه لتأمين نجاته. فقد أخبره أن ينفش شعره ويلبس ملابس الحداد على ميت وعند دخوله إلى أبواب الإله آنو سوف يجد هناك إلهين حارسين سوف يسألانه لماذا يلبس ملابس الحداد وكان عليه أن يجيب:

هناك إلهان قد اختفيا من بلادنا

لذلك فإني قد أصبحت في هذه الحالة

وعندها سوف يسأله الحرس

من هما الإلهان اللذان قد اختفيا من بلادك

وكان على أدابا أن يجيب بما يلي:

إنهما تموز وغيزيدا

وكان هذان هما أسماء الحارسين نفسهما وقد كان هذا المديح سبباً في فرحهما ولذلك فقد أمّنا مقابلة محمودة مع آنو. وفي أثناء المحاكمة أنذر أيا أدابا بأنهم سوف يقدمون خبز وماء الموت ولهذا فلا ينبغي عليه أن يأكل ويشرب:

حالما تقف أمام آنو وعندما يقدمون لك خبز الموت فلا تأكل منه

وعندما يقدمون لك ماء الموت فلا تشرب منه

وهكذا فقد أمن أدابا مقابلة محمودة مع آنو حسب الخطة المرسومة وقد قدم لآنو الظروف التي سببت قيامه بما قام به من الذنب. وقد تكلم تموز وغيزيدا ودافعا عنه وهكذا تلطف غضب آنو قال:

اجلبوا له خبز الحياة حتى يأكل منه

ولكن أدابا تذكر نصيحة أيا. وليس من الواضح أن النصيحة كانت تقصد منع أدابا من كسب الخلود أم كانت لجهل أدابا ما ينويه آنو من نصيحته ولكن وبالنتيجة

عندما جلبوا له خبز الحياة رفض أدابا أن يأكل منه

وعندما جلبوا له ماء الحياة رفض أدابا أن يشرب منه

وعندما رفض أدابا نظر إليه الإله آنو ضاحكاً وقال:

حسن يا أدابا لماذا لم تأكل ولم تشرب؟

لذلك فسوف لن تحصل على حياة الخلود

وعندما خسر أدابا فرصة حياة الخلود أرجعوه إلى الأرض

ومع ملحمة جلجامش هناك عمل آخر عظيم الذي يمكننا اعتباره موضوعاً إنشائياً أدبياً وهو الأسطورة التي تدعى ملحمة الخلق ويتألف هذا العمل من سبعة ألواح، وكان يُتْلى في بابل بمناسبة اليوم الرابع من أعياد السنة الجديدة، وأما في آشور فقد استعمل عند استبدال اسم الإله الوطني الآشوري ووضعه بدلاً من اسم الإله البابلي مردوخ.

ولا يعلم بالضبط تاريخ نشوء هذا العمل مع أن بعض العلماء ينسبونه إلى الفترة البابلية القديمة ولكن لم تثبت هذه الحقيقة بعد.

وتقدم لنا الأسطورة قصة أصل النظام العالمي الحالي الذي كان مجمع الآلهة هو المسؤول عنه وكان الإله المتسلط في هذا المجمع هو مردوخ فقد خلق البشر لخدمة الآلهة فحسب ولكن لم يكن الحال بهذا الشكل ففي إحدى المرات وطبقاً للأسطورة لم يكن هناك في الكون سوى أبسو وهو إله الحياة الحلوة الهادئة وكذلك تيمات وهو المحيط الذي يمثل المبادئ الذكورية والأنثوية بالتوالي، ويوجد أيضاً من هذا القبيل اسم مومو وهذا يقدم لنا بعض المصاعب إذ إن بعض الكتاب الحديثين يعتبرون مومو هو العنصر الثالث في الثالوث المقدس وهو الأب والأم والابن ولكن وجهة النظر هذه غير موثوقة إذ إن هذا الاسم يوجد كما سوف نرى أدناه بشكلين مختلفين من النصوص ففي إحدهما يأتي هذا الاسم قبل اسم تيمات والشكل الثاني يمثل بعض الكائنات أو المبادئ التي اشترك فيها أبسو. ومن وجهة

نظر لاهوتية ربما اتخذ هذا اسماً يشبه خالق قوى الحياة وهذا المفهوم يشبه الروح المقدس في الأفلاطونية الحديثة وتوصف حالة الشؤون قبل عملية الخلق في بداية الأسطورة كما يلي:

عندما لم يطلق أي اسم على إحدى السموات العالية

وفي الأسفل لم يطلق أي اسم على أقطاب الأرض

وعندما أبسو لوحده وهو منذ البداية قد خلق هذه السموات والأرض

وممو تيمات التي ولدت هؤلاء جميعاً

مزجت جميع البحار والمياه بشكل بحر واحد

وعندما لم تكن المستنقعات الراكدة قد تمازجت ولم توجد بعد أجمات القصب

وعندما لم تظهر قدرة أي إله من الآلهة

وعندما لم يطلق بعد أي اسم على أي إله وعندما لم تثبت مصائر الناس

عندها خلقت الآلهة داخل الأمواج والمياه التي كانت تخص الإله أبسو وتيمات

وظهر لامو ولاهامو وأصبحت لهم أسماء

وقد نمت أكواز البلوط ونضجت

وعندها خلقت عشتار وكيشار اللذان تفوقا على الإلهين السابقين

وعندها امتدت الأيام وطال أمدها وأضيفت السنون إليها

وخلق أنشار طفلاً شبيهاً به وهو آنو أول ولد وُلِدَ له وكان أنو ينافس والده

وأنجب آنو طفلاً شبيهاً به وهو نو – ديم - مد.

وإن نو-ديم- مد كان هو الخالق

وكان حكيماً وذا ذكاء خارق

وكان أقوى من أنشار بكثير وهو خالق والده

ولم يكن له مثيل بين إخوته من الآلهة

وسرعان ما أصبح هؤلاء الآلهة الصغار عبئاً أو أزعاجاً للآلهة الكبار بما كانوا يحدثون من ضجة وسلوك.

وعندها قام أبسو الذي خلق الآلهة العظام

صرخ ونادى مومو وزيره

يا مومو، يا وزيري الذي يُفرح قلبي

تعال ودعنا نذهب إلى تيمات

وهكذا ذهبا وجلسا أمام تيمات

ثم بدؤوا يتشاورون عن موقفهم بالنسبة للآلهة الصغار الذين وُلدوا لهم أولاً

وعندها فتح أبسو فمه

وقال بقوة وعنف لتيمات

إن ذهاب وإياب هؤلاء الآلهة يشكل ضرراً بالنسبة إلي

ففي النهار لا أستطيع الراحة وفي الليل لا أستطيع النوم

دعيني أوقف وأُتلف ذهابهم وإيابهم

بحيث يسود الصمت والهدوء لكي نستطيع أن نرتاح

ولكن تيمات عارضت بشدة وسألت

ماذا تقول هل علينا أن نتلف ما خلقناه لأنفسنا بأيدينا

إن حركات ذهابهم وإيابهم لا شك أنها مؤلمة ولكن دعونا نستمر في علاقات سليمة معهم

ومن جهة أخرى فإن مومو وزير أبسو كان موافقاً على إتلاف الآلهة الصغار المتمردين وتآمر الاثنان على البدء بالعمل ولكن سرعان ما علم الآلهة العظام بالمؤامرة فبادر أيا إلى اختراع تعويذة ورقية قولية وتلاها وجعلها تسكن في المياه وبهذه الطريقة صبّ النوم في عيني إبسو وشلّ حركة مومو وبعد ذلك ذبح إبسو وأسس قصره الذي أقام فيه ومزاره فوق أشلاء إبسو المذبوح أما مامو فقد أبقاه سجيناً عنده

لقد سكن الإله دامكينا مع قرينته داخل مسكن إبسو وأيا وهناك أنجبا إلهاً صغيراً وهو مردوخ الذي يصفونه بأنه أحكم وأقوى الآلهة وهذه القصيدة تمجّد الإله الجديد

إن أبعاده وتقاطيع جسمه قد خُلقت بشكل لبق ولم يكن لها مثيل

وكان من المستحيل فهمها ومن الصعب رؤيتها

وكان له أربع أعين وأربع آذان

وعندما تتحرك شفتاه كانت النار تنبثق وتلمع...

وكان طويل القامة حقاً وكانت قامته مرتفعة عن قامات بقية الآلهة

كل هذا قد أسهم في زيادة الانزعاج لدى الآلهة العظام وخصوصاً تيمات وقد ذكرها مستشاروها بمصير أبسو ومامو وحرّضوها على الانتقام، بحيث أن كلماتهم قد راقت لها وهكذا فقد أعدت سلسلة من الوحوش ليحاربوا ضد الآلهة الصغار.

ولقد أضافت الأم جوبور (وهذا أحد ألقاب تيمات) وهي التي كانت تشكل كل شيء

أضافت سلاحاً جديداً لايقاوم فقد ولدت بعض التنينات

التي كانت ذات أسنان حادة وأنيابها لا تقاوم ولا توفر أحداً

وقد ملأت أجسامهم بالسم بدلاً من الدم

وجعلتهم يحملون الهالات وأصبحوا كالآلهة

ثم جلبت الأفعى السامة والتنين الأحمر ووحش لاهامو

وجلبت الأسد العظيم والكلب السّعران والرجل العقرب

وجلبت العواصف الهوجاء والرجل السمكة والثور الهائج (البيسون).

وكان هؤلاء يحملون أسلحة فتاكة ولا يهابون الدخول في معركة

ولقد خلقت تيمات أحد عشر وحشاً من هذا النوع وعلى رأسهم نصبت كنجو أول طفل ولدته ثم قالت لكنجو:

لقد صنعت تعويذة لك ولقد جعلتك من العظماء بين مجمع الآلهة

ولقد وضعت بين يديك القدرة على هداية جميع الآلهة

إنك حقاً إله عظيم وأنت وليفي.

علم الآلهة الصغار أن تيمات كانت تستعد للمعركة وقد سمع أيا بهذا الخبر وصُدِمَ بما قد سمع وأخيراً ذهب إلى جده أنشار وأخبره بما قد سمعه

يا جدي إن تيمات التي ولدتنا أصبحت الآن تكرهنا

ولقد عقدت اجتماعاً لجماعة الآلهة وهي الآن في غاية الغضب

ولقد تجمّع الآلهة جميعاً حولها

وحتى إن بعض الآلهة الذين خلقتهم أنت قد أصبحوا بجانبها

لقد انزعج أنشار لسماعه هذه الأخبار واقترح على أيا الذي عالج قضية أبسو ومامو أنه ينبغي أن يعمل ضد كنغو ولكن أيا لم يكن قادراً على قبول التحدي. وعندها التفت أنشار إلى آنو. وهكذا فقد بادر آنو لمعالجة ذلك العدو. ولكنه لدى مشاهدته قوى تيمات الهائلة انخلع قلبه وفر راجعاً إلى أنشار. وهكذا جلس

الأنوناكي (الآلهة الكبار) في فزع وصمت وأخيراً اقترح أنشار أن مردوخ ينبغي أن يكون البطل ونظراً لأن مردوخ كان صغير السن ولم يسمح له بالحضور إلى المجمع الإلهي، لذلك فقد استدعوه عن طريق والده أيا الذي أمره أن يقدم نفسه أمام أنشار وقد فعل هذا مما سبب السرور العظيم في نفس أنشار. ولكن مردوخ قدم شرطاً:

إذا كنت حقاً سأصبح المنتقم لكم

وأن أكسر شوكة تيمات وأبث فيكم الحياة

عندها ينبغي عليكم أن تقرروا في هذا المجمع تعلنوا أنني أنا العالي المقام

وأنه يجوز لي أن أجلس فرحاً في هذا المجمع وفي قاعته

ودعوني أقرر مصائر البشر بكلمة ألفظها من فمي مثلكم

بحيث يصبح كل من أخلقه بنفسي غير قابل للإلغاء

وحتى لا تتحول الكلمات التي ألفظها ولا تتبدل

ولهذا أرسل أنشار وزيره غاغا إلى لاهامو وحضر لاهامو مع الآلهة الأخرى إلى قاعة الاجتماع

الآلهة العظام الذين يقررون مصائر البشر

دخلوا أمام أنشار وملأوا القاعة

وعانقوا بعضهم بعضاً في المجمع

وبدأوا يتحادثون ثم جلسوا لتناول الطعام في الوليمة

وقد أكلوا الخبز وشربوا النبيذ

وسال السائل الحلو خلال أنابيب الشراب

وبعد أن شربوا الخمور بدا عليهم الحبور

وشعروا بالحرية وغادرتهم كآبتهم

وبالنسبة لمردوخ المنتقم فقد قرروا مصيره

وأعدّوا له عرشاً يليق بالأمراء

وجلس من آبائه وأمامه لكي يقدم رأيه ونصيحته.

وبعد ذلك أعلنت جماعة الآلهة الموافقة على حالته الرفيعة المقام

إنك المفضل ما بين الآلهة العظام

إن ما تقرره لا يرده أحد وإن ما تقوله هو ما وافق عليه آنو

وابتداءً من هذا اليوم إن أوامرك سوف لا يتطرق لها أي تغيير

وإن تُعِزَّ من تشاء أو تُذِلَّ من تشاء إن هذا مطروح بين يديك

وإن ما يلفظه فمك سوف يتحقق وسوف لا تخيب آمالك

ولن يستطيع أي إله من الآلهة أن يتجاوز حدودك

ولقد وهبناك الملكية فوق جميع الكون

اجلس في مجمع الآلهة ولتكن كلمتك هي العليا

وبعد ذلك حدثت تجربة بسيطة ساذجة لاختبار قدرة مردوخ فقد وضعت قطعة من القماش في المجمع وكان على مردوخ أن يأمر باختفاء تلك القطعة ثم ظهورها مرة ثانية وقد نجح هذا الاختبار وابتهج الآلهة لرؤيتهم نجاح خطتهم.

لقد ابتهجوا وقدموا بركاتهم وقالوا إن مردوخ هو الملك

وبعدها أضافوا له الصولجان والعرش والبالو **Palu** وهي شارة الملكية.

وبعد ذلك سلموا مردوخ وأرسلوه لكي يقضي على تيمات ثم إنه أخذ معه قوساً وسهاماً وأمسك بيده اليمنى قضيباً شائكاً لكسر الدروع وبعدها انطلق.

ولقد أرسل البرق أمامه

وملأ جسمه بالنار اللاهبة

وأخذ معه شبكة لكي يحصر تيمات في داخلها

وأرسل الرياح الأربعة التي لا تسمح لها بالهرب

الرياح الجنوبية، الرياح الشمالية، الرياح الشرقية، الرياح الغربية

وكانت الشبكة وهدية والده آنو بجانبه

وخلق بعض الرياح السيئة، والعواصف والدّوامات

الرياح الأربعة، الرياح السبعة، الإعصار والرياح التي ليس لها مثيل

وبعدها أطلق الرياح التي خلقها كل الرياح السبعة

ولقد تبعوه لكي يزعجوا قلب تيمات

وعند ذلك أمسك السيد بسلاحه

وركب في عربة العاصفة التي ليس من الممكن مقاومتها والتي تسبب الفزع

وقد التحق بهذه العربة فريق من الأربعة:

القتلة، المخربون، والملاحقون، والمجنحون

وكانت أسنانهم حادة وهي مفعمة بالسموم

وهنا اقترب مردوخ ومعه الآلهة الآخرون من تيمات الهائجة. وقد أمسك بين شفتيه رقية سحرية حمراء وأمسك بيده نباتاً مضاداً للسم وحالما تقابل قطعان مردوخ وتيمات رمى الفريقان اللعنات والإهانات ضد بعضهما بعضاً. وهنا تحدّى مردوخ تيمات بأن يتقابلا معاً في قتال منفرد.

وعندما سمعت تيمات قوله

أصبحت وكأنها شخص أصيب بمس من الجنون وخرجت من توازنها وعقلها

وصرخت وهي في أقصى حالات الهياج

وقد ارتجفت ساقاها حتى الجذور

ثم تَلَتْ إحدى التعاويذ وظلت ترمي

وبعدها التحم فريقا مردوخ وتيمات في المعركة

ولقد نشر مردوخ شبكته لاصطياد تيمات

وأطلق الرياح العاتية في وجهها

وعندما فتحت تيمات فمها لتلتهم مردوخ

أطلق عليها الرياح السيئة التي دخلت في فمها فلم تستطع إغلاق شفتيها

وعملت الرياح الهوجاء على تضخيم بطنها

وهكذا فقد كان داخلها منتفخاً وفمها مفتوحاً

ثم أطلق سهماً فتح ثغرة في بطنها

فقطع بطنها ، وشق جسمها نصفين

عندها ربطها مردوخ وأزهق روحها

ثم رمى جثتها ووقف فوق الجثة

وبعدها بدأ مردوخ الظافر بمعالجة أعوان تيمات ولقد أسرهم جميعاً ومن بينهم رئيسهم كنجو الذي أخذ منه ألواح القضاء والقدر وشدّ هذه الألواح على صدره، وبعدها توجه مردوخ إلى جثة تيمات ومن هذه الجثة خلق السماء والأرض.

استراح السيد وتقدم لمعاينة جثتها

وقد رغب في تقسيم جثة تيمات وخلق أشياء جديدة

وقد قسمها جزأين مثل الحلزونة

وقد وضع نصفها ونشره تحت السماء

ثم أنه أطلق سهماً قصيراً ثم أنه وضع بعض الحرس

وأمر الحرس أن لا يدعوا مياهها تخرج إلى الخارج

وهكذا خلقت السماء والأرض وتذكر الأسطورة أن المهمة الثانية كانت خلق الظواهر الفلكية وقد ذكرت القصة تثبيت مجموعات النجوم ومواقع بعض الأجرام السماوية وبعد أن أجاد خلق السماء خطرت ببال مردوخ الآن أن يخلق ذلك المخلوق الذي سوف يسمى إنساناً وكان غرضه أن يقوم هذا الإنسان بخدمة الآلهة حتى يبعث السرور في نفوسهم وقد أفضى بخطته إلى والده أيا الذي وافق على الخطة ولكنه قال إنه ينبغي أن يموت أحد الآلهة لكي يخلق الإنسان.

ولهذا فقد أجابه أيا وأراد أن يتكلم كلمة معه

وإكراماً للآلهة وصف له بعض تفاصيل خطته له وقال:

دعوا واحداً من أخوانهم يُنزع منهم

وينبغي أن يُقتل هذا الشخص لكي يستطيع البشر به أن تتدبر أمورها

وينبغي أن يجتمع الآلهة العظام

حتى يُظهروا الشخص المذنب ويسلموه للعدالة وحتى يتحملوا هم نتيجة أعمالهم؟

وهكذا استدعيت جماعة الآلهة وطلب مردوخ إجراء تحقيق لمعرفة من الذي جعل تيمات تثور ضد الآلهة وتعاديهم فأجاب الآلهة العظام أنهم يتهمون كنجو وهكذا ألقى مردوخ القبض عليه وربطه وقاده للمثول أمام الإله أيا.

وقد فرضوا عليه عقاباً لقاء جرمه وهو أن يسيلوا دمه

ومن هذا الدم خلقوا البشر

هذا وقد فرض أيا الخدمة على البشر وحرّر الآلهة وجعلهم يذهبون

وبعد ذلك قسم مردوخ ستمائة من آلهة الأنوناكي بشكل مجموعات تعمل ما بين السماء والأرض واعترافاً بجميله قرر آلهة الأنوناكي بناء مزار مرموق لمردوخ وقد عملوا مدة عام كامل، وفي السنة الثانية أتموا بناء المعبد العظيم في بابل واسمه

ايساغيلا Esagila (بين الرأس العظيم) وبنوا مع المعبد زاقورة كانوا يعتبرونها مرآة تعكس صورة أبسو Apso التي كانت متواجدة تحت الأرض.

وبعد ذلك هناك مقطع يعالج تكديس الطقوس في إيساغيلا وأما بقية المقطع فهي تذكر إعلان مردوخ الإله العالي المقام ذي الخمسين لقباً.

إن أسطورة إينوما إيليش، مع أنها أطول أسطورة وأكثر الأساطير حفظاً وسلامة ليست هي الأسطورة الأولى حول الخلق والباقية من الثقافة البابلية (ميليو) وإن موضوع خلق البشرية من دم أحد الآلهة المقتولين إنما نراه في أسطورة أخرى والتي تذكر أن آلهة مؤنثة هي التي خلقت البشرية وقد استعملت هذه الخرافة التي وجدت قطع منها في بابل القديمة كانت تستعمل بشكل جزء من الطقوس لتسهيل عملية الولادة وفي النسخة البابلية القديمة يخاطب الآلهة زميلتهم الإلهة مامي العاقلة قائلين:

أنت الرحم البدائي أنت خالقة البشرية

نرجوك أن تخلقي لنا لوللو ودعيه يحمل المسؤولية

وهكذا فتحت نينتو (وهو لقب آخر للآلهة خالقة البشر) فمها

وقالت للآلهة العظام

بالنسبة إلي إنني مستعدة أن أفعل كل شيء مناسب

وهكذا فقد قررت أن يأتي لوللو إلى هذه الحياة

ولسوف يصنع جسمه من الصلصال

وسوف يدهن بالدم

ولكن أنكي فتح فمه وقال للآلهة العظام

ينبغي أن يذبحوا أحد الآلهة

ومن لحمه ومن دمه يستطيع نين هورساغ أن يمزج الصلصال

وأما النسخة الآشورية المتأخرة فهي تروي التفاصيل حول قيام الآلهة لوللو بتشذيب أربع عشرة قطعة من الصلصال.

لقد شذَبت أربع عشرة قطعة من الصلصال ووضعتها في الجهة اليمنى

ووضعت سبع قطع في الجهة اليسرى ووضعت بينهما قطعة من الطوب

والأرحام السبعة كانت أصل الإناث

وقد خلقهم الرحم بشكل أزواج

وجعلتهم أزواجاً ووضعتهم أمامها

وهكذا شكلتهم مامي بشكل أشخاص من البشر

وقطعة الطوب المشار إليها من الواضح أنها كانت تستعمل في طقوس وضع المرأة للطفل بعد الحمل نظراً لأن النص يستمر:

ينبغي أن تكون القابلة مسرورة وهي في بيت المرأة الحامل وهي في وضع المخاض

وحالما تضع الأم الحامل طفلها

ينبغي لأم الطفل أن تشد عضلاتها.

وهناك أسطورة أخرى حول الخلق (وفي هذه المرة الأسطورة سومرية تعود إلى الألف الثالث ق.م) وهي تقدم تفسيراً لأصل مجموعة من الآلهة الثمانية ولقد تحدد عمل الأسطورة في أرض تلمون وهي البحرين أو بالأرض الواقعة على الجانب الشرقي للخليج العربي وقد كانت تلمون تعتبر مركزاً قديماً للثقافة والحضارة وهي اقدم من أريدو) وربما كانت تشير إلى استيطان السومريين الأول قبل هجرتهم إلى منطقة ما بين النهرين. وفي هذه الأسطورة تتمتع تلمون بعصر ذهبي.

إن أرض تلمون نقية. إن أرض تلمون نظيفة

فالأسد هناك لا يقتل أحداً ولا يلمس الذئب الشاة

ولا يعرف عن وجود بعض الطيور التي تلتهم الذرة

وليس هناك من امرأة كبيرة في السن تقول إنني قد أصبحت عجوزاً

وليس هناك من رجل كبير السن يقول إنني قد أصبحت شيخاً.

وهكذا فقد كانت هذه البلاد سعيدة وخصبة. وهنا جامع الإله أنكي الإلهة نين هورساج وجعلها في حالة حمل.

لقد قبلت في رحمها مني أنكي

وكان اليوم الواحد بمثابة شهر واحد

وهكذا فقد تم حملها في تسعة أيام تمثل تسعة أشهر وقد ولدت بنتاً وهي نين مو ولقد وقعت عينا أنكي على نين مو فاستظرفها وجامعها بدورها وبعد تسعة أيام ولدت بنتاً وهي نين كورا وقد جامع أنكي هذه البنت أيضاً فولدت له بنتاً هي أوتو Uttu ولكن عندما أراد أنكي مجامعة هذه اعترضت نين هورساج ولذلك أخطر أنكي أن يجلب لها هدية من الخيار والتفاح والعنب وعندما قدم هذه الهدية قبلته أوتو فوراً فجامعها ونتيجة لذلك فقد ولدت عدداً من النباتات وقد ذهب أنكي مع وزيره لفحص النباتات وليقرر مصيرها السحري ولكي يقرر فوائدها، بدأ بأكلها ولهذا فقد لعنته نين هورساج فأصابه المرض فوراً مما سبب انزعاج الأنوناكي ولم يكن بمقدور أحد شفاء أنكي سوى نين هورساج التي اختفت ولذلك فقد تعهد الثعلب أن يجلب نين هورساج إلى إنليل رئيس جماعة الآلهة وقد نفذ الثعلب تعهده وأقنع نين هورساج بشكل ما غير معروف تماماً أن تشفي أنكي. ولذلك وضعوا أنكي أمام مهبلها فولدت ثمانية آلهة كان من بين واجبهم شفاء أنكي من النباتات التي أكلها.

وضعت نين هورساج أنكي أمام مهبلها
يا أخي ما خطبك؟ إن سني يؤلمني
لقد أمرت أن تولد نين سوتو لتشفيك
يا أخي ما خطبك؟ إن فمي يؤلمني

لقد أمرت أن تولد نينكاسي لتشفيك؟

يا أخي ما خطبك؟ إن أضلاعي تؤلمني

لقد أمرت بأن تولد (نين تو) لتشفيك

وتستعمل صيغة مشابهة لكل من الأمراض الثمانية الباقية وإن ذكر الأضلاع ربما له صلة بالقصة التوراتية أن المراة قد خُلقت من ضلع الرجل. وكان اسم المرأة هي حواء أي الحياة.

هناك عدد من الأساطير معروفة بشكل أو بآخر. ولقد ذكرنا سابقاً أسطورة أخرى ذات علاقة بإديش كيغال أو العالم السفلي وهي موجودة في كل الأشكال السومرية والأكادية.

وبسبب ما لم يتضح بعد، رغبت إينانا بالنزول إلى العالم الأسفل وكان من المفترض أنها أرادت إطلاق سراح الأسير تموز (دوموزي) وهو إله الخصب الميت. ولكن النسخة السومرية تظهر أن هذا لم يكن الحقيقة. وللبدء في رحلتها لبست إينانا جواهرها وشارتها وغادرت مدن سومر وأكاد لتذهب إلى الأرض التي لا رجوع منها. وكان وزيرها نين شوبور مرافقاً لها وقد قدمت له التعليمات بما عليه أن يفعله إذا لم ترجع، إذ كان عليه أن يبدأ بالندب والبكاء ويلبس ملابس الحداد وأن يذهب إلى إيكور وهو مزار إنليل في نيبور ليشرح له الخطر المحيق بإنانا فإذا لم يتصرف إنليل ويعمل كان على نين شوبور أن يذهب إلى إيكي شنوغال وهو معبد نانا إله القمر في أور فإذا لم يتصرف نانا ويعمل فكان على نين شوبور أن يتقدم أخيراً إلى الإله إنكي في إيريدو. وإن أنكي الذي يعلم طعام الحياة والذي يعلم مياه الحياة سوف يقدم المساعدة بالتأكيد.

وبعدها تقدمت إينانا إلى البوابة الأولى في العالم السفلي وقالت إنها تود حضور جنازة غوغالاتا وهو زوج اختها الكبرى إيديش كيغال ملكة العالم السفلي وقد أوصل البواب هذا الكلام لسيده واستلم التعليمات بأنه يسمح لإينانا بالدخول شريطة أن تسلم تاجها.

لقد أطاع نيتي بواب العالم السفلي أوامر ملكته

ففتح أبواب العالم السفلي السبعة

وقال لإينانا النقية الصالحة تعالي يا إينانا – ادخلي

وحالما دخلت أزالوا تاجها عن رأسها

فقالت لماذا هذا التصرّف

صمتاً يا إينانا إن هذه هي قرارات العالم السفلي الملزمة

يا إينانا لا تسألي ولا تستهجني عادات العالم السفلي

ولقد تبع ذلك إرجاءات مشابهة في كل من البوابات الست الأخرى في العالم السفلي، ولقد فقدت إينانا قلادتها المصنوعة من اللازورد وفقدت الأحجار الكريمة الموضوعة على صدرها وفقدت خاتمها الذهبي ورداءها، وهكذا دخلت العالم السفلي وهي عاجزة وعارية، ثم إن إيديش كيغال جلست على عرشها وأطلق قضاة الأنوناكي السبعة نظرة الموت على إينانا فأصبحت هذه جثة هامدة وقد ظل جسمها معلقاً مدة ثلاثة أيام بلياليها على خازوق، عندها بدأ وزيرها نين شوبر في تنفيذ وصيتها في حال عدم رجوعها فبدأ البكاء وذهب إلى إنليل.

ولكن الأب إنليل لم يوافقه في وجهة نظره بالنسبة لهذه القضية ولذلك ذهب إلى أور وفي أور رفض إله القمر نانا تقديم المساعدة وهكذا انطلق نين شوبور إلى أنكي في أسيدو وكان أنكي هذا متردداً بالنسبة لهذه القضية كما كانت إينانا قد توقفت وقد أجاب الأب أنكي قائلاً:

ماذا سوف يحدث لابنتي؟ إنني منزعج جداً؟

ماذا سوف يحدث لابنتي؟ إنني منزعج جدا؟

وهكذا فقد أخرج التراب من بين أظافره وعمل من هذا التراب شخصين منزوعي الجنس يدعيان كورغارو Kurgarru وكالاتور Kalatur من العالم

السفلي أي الأرض التي لا رجوع منها ولا أحد قد ولد من رحم امرأة يستطيع الخروج منها إلى الأرض ولكن هذين المخلوقين اللذين لا شعور جنسياً لديهما أي المحرومين من الجنس كانا الاستثناء لقاعدة منع الدخول إلى العالم السفلي. ولقد أعطى الإله الحكيم لكورغارو طعام الحياة ولكالاتورو ماء الحياة، وأرسلهما ليستعيدا إينانا، وعندما وصلاها رشّ عليها ماء الحياة وطعام الحياة، وهكذا رجعت إينانا إلى الحياة وصعدت من العالم السفلي يحيط بها جمهور من الشياطين. وهناك قابلها وزيرها نين شوبور وقد رغب الشياطين بالإمساك به وقتله ولكن إينانا منعتهم نظراً لخدماته السابقة لها وهكذا تقدموا إلى معبد أوما Umma حيث رمى الإله شارا نفسه على الأرض أمام إينانا التي منعت الشياطين من الإمساك به. وفي اليوم التالي، وفي مدينة تاليه وهي باد ن- تيبيرا Bad Tibira حدث أمر مشابه فقد استمرت إينانا وحولها بطانتها من الشياطين في سيرها في مدينتها إيريش في مقاطعة كولاب وهنا لم يظهر الإله (دوموزي) تموز أي احترام لإينانا بل بقي جالساً على عرشه، وهكذا غضبت إينانا وسلمته للشياطين الذين أمسكوا به وكانوا يريدون إنزاله إلى العالم السفلي ولكن لم نستطع معرفة نهاية هذه الأسطورة.

هناك أسطورة أخرى عرفت من عدد لابأس به من القطع الصلصالية هي أسطورة (زو) وكان زو إلهاً بشكل طائر كان قد سرق ألواح القضاء والقدر من الإله إنليل ولا يعرف موقع زو هذا في مجمع الآلهة السومرية الأكادية وليس المعنى اللاهوتي للأسطورة واضحاً تماماً. وربما تشير إلى مرحلة من مراحل التطورات الدينية عندما كانت إحدى الشرائح من السكان تفرض مفاهيمها في منطقة ما بين النهرين. وفي هذه الأسطورة نجد أن زو لسبب ما قد ارسلوه لمرافقة إنليل ولقد غلب عليه الحسد والطموح:

لقد حدق وحملق بعينيه عند رؤية الحاكم العالي المقام

وظل ينظر إلى تاج الملك وإلى أثوابه الإلهية وألواح القضاء والقدر لديه

نعم لقد ظل محدّقاً في والد الآلهة وإله دورانكي (أي إنليل)

وبدأ يفكر في قلبه في الاستيلاء على الحكم المطلق.

نعم ينبغي أن آخذ لنفسي ألواح المشيئة الإلهية

ولسوف احتفظ لنفسي بأوامر الآلهة جميعها

ولسوف استولي على العرش وسوف أتحكم بالطقوس

ولسوف أوجه جميع ذلك الجيش من آلهة الإيجي جي

ولقد سنحت له فرصة السرقة عندما كان إنليل يغتسل

عندما كان إنليل يغسل نفسه بالماء الصافي

بعد أن نزل عن عرشه وخلع ملابسه

عندها تسلل زو واستلم السلطة العليا

وطار راجعاً والتجأ إلى الجبال

لقد انزعج الآلهة من عمل زو واستدعى آنو أحد المتطوعين ليذهب ويقتل زو وقد أعلن أن من يقتل زو سوف يصبح ذا النفوذ في مجمع الآلهة وهكذا استدعي إله الطقس حدد ولكنه رفض وقال لآنو والده:

من هو الذي يشبه زو من بين الآلهة أولادك أجمعين؟

فلقد خطف ألواح القضاء والقدر في يده

وبهذا فقد استولى على الحكم

فأصبحت كلماته ذات كلمات الإله دوراكي

ولذلك فإن أي شخص يعاديه سوف يصبح كالصلصال

وبعدها استدعوا إلهاً آخر ولكنه رفض أيضاً، وأخيراً ظهر أحد أبطال الآلهة ومع أنه لم يكن معروفاً تماماً، ويقال إنه شارا أو مردوخ أو لوغال باندي أو نين

غيرسو هو الذي ملأ هذا الفراغ ولكن التفاصيل الدقيقة عن هزيمة زو لا تزال تنتظر الاكتشاف.

وهناك أسطورة أكادية أخرى وهي معروفة من نسخة وجدت في مكتبة آشور بانيبال وهي أسطورة إيتانا ، ويشار إلى إيتانا في سلسلة ملوك السومرية بأنه أحد ملوك كيش في الزمن الذي تلا الطوفان وكانت كيش هي المركز الثقافي الشمالي المقابل لإيريش في الجنوب.

وبعد أن غطى الطوفان الأرض ونزلت الملكية من السماء

أيضاً من السماء لقد كانت الملكية قد بدأت أولاً في كيش (وبعدها تأتي قائمة مؤلفة من اثني عشر ملكاً كل منهم كان يحكم ما بين ٦٠٠ و١٢٠٠ عام.

وكان إينا راعياً قد صعد إلى السماء وكان بمقدوره تثبيت ملكية كل الأمراض وقد أصبح ملكاً وحكم ١٥٦٠ عاماً وتبدأ أسطورة إيتانا بإشارة غامضة مكسرة إلى الآلهة الذين أرسلوا الملكية إلى الأرض وبعدها تشير الأسطورة إلى العلاقة ما بين النسر والثعبان فقد أقسم كلاهما أن يصبحا صديقين أمام إله الشمس شماش:

وأمام البطل شماش أقسما قسماً قائلين:

إن من يتجاوز حدود شماش فإن شماش سوف يضربه

ونظراً لهذا الاتفاق فقد اعتاد النسر والثعبان الذهاب إلى الصيد معاً وكانا يتقاسمان ما يصيدانه.

لقد نهضا ثم سارا نحو الجبال

وعندما كان النسر يصطاد ثوراً برياً أو حمار وحش

كان الثعبان يأكله وبعدها ينسحب ويبدأ أطفاله بالأكل

وعندما يصادف أن يمسك الثعبان ماعزاً أو غزالاً

كان النسر يأكله ثم ينسحب ويأتي أطفاله للأكل

وهكذا استمر الحال على هذا المنوال حتى كبرت النسور الصغيرة عندها بدأ النسر بالتفكير بخيانة صديقه.

كان النسر يستلم الطعام وقد كبرت صغاره وترعرعت

وعندما كبرت صغاره وترعرعت

بدأ النسر بتآمر ودخل الشر إلى قلبه

وفكر بأكل صغار صديقه الثعبان

وهكذا فقد فتح النسر فمه وقال لصغاره

إنني سوف افترس صغار الثعبان ولسوف لا يستطيع الثعبان الإمساك بي

لأنني سوف أصعد إلى السماء وأسكن هناك

ولسوف أنزل إلى الأرض لآكل الأثمار الموجودة في أعلى الشجرة

ولقد حذر أحد الصغار والده النسر من خطر الخيانة

لقد قام أحد الصغار الحكيم بإسداء نصيحة لوالده النسر

لا تأكلهم يا والدي إن شبكة شماش سوف تمسك بك

ومصائد وأفخاخ ولعنة شماش سوف تصيبك وتمسك بك

ولكن النسر

لم يستمع لولده الصغير ولم يستمع لآية كلمة قالها ولده الصغير

فنزل وأكل أحد صغار الثعبان

عاد الثعبان ووجد أحد صغاره مفقوداً فذهب وهو يبكي إلى شماش وشكا له مصابه

وطلب الانتقام من النسر ووصفه بأنه فاعل الشر زو

لقد وثقت بك يا شمش الشجاع

ولقد وثقت بالنسر وكانت نواياي حسنة تجاهه

ولقد حافظت على القسم الذي أقسمته أمامك

ولم أضمر أي شر تجاه النسر صديقي

ولقد ظل عشه سالماً أما عشي فقد تبعثر

وإن صغاره سالمة أما صغاري فقد اختفوا

فلقد نزل وأكل أولادي

وأنت تعلم يا شمش أنه هاوٍ من هواة الشر

ولهذا فإنه سوف لا ينجو من شبكتك يا سيدي

وافق شمش على الانتقام للثعبان المسكين وقدم له بعض التعليمات تمكنه من الإمساك بالنسر بنفسه.

فتح شمش فمه وقال للثعبان

تابع هذا الممر واصعد فوق الجبل

ولسوف أربط عجلاً برياً لك

اقتله وافتح خاصرته ومزق بطنه

ثم ادخل في بطنه واسكن هناك

ولسوف تنزل جميع أنواع الطيور في السماء لتأكل من لحمه

ولسوف يأتي النسر ليأكل اللحم معهم

ونظراً لأنه لا يعلم الخطر المحدق به

فهو سوف ينشغل بالتهام اللحم

وعندما يصل إلى داخل البطن عندها فسوف تمسكه من جناحه

وتمزق مخالبه وتنتف ريش القوادم من جناحيه ثم تمسك به وترميه في إحدى الحفر

وهكذا فسوف يموت بسبب الجوع والعطش

وهكذا فقد نفذ الثعبان ما أمره به شمش وأمسك بالثور البري واختبأ في داخله وعندما وجد النسر الحيوان الميت دعا صغاره ليأتو ويأكلوا ولكن أحد الصغار وكان ذكياً جداً أنذر والده بما يلي:

لا تنزل إلى الأسفل يا والدي ربما سوف تجد الأفعى وقد التف حول نفسه داخل الثور البري ولكن النسر لم يستمع لكلام الصغير ولم يسمع كلام ابنه.

وهكذا فقد وضع النسر نفسه تحت رحمة الثعبان وهكذا أمسك به وقد رجا الثعبان طالباً الرحمة ولكن الثعبان فعل ما أمره شمش والقى بالنسر في حفرة.

وبدأ النسر يطلب الرحمة من شمش ولكن شمش قال له إنه وبسبب أعماله السيئة فهو لن يأتي لمساعدته بنفسه بل سوف يرسل رجلاً آخر لمساعدته.

وهنا تقدم لنا الأسطورة الرجل إيتانا وقد كان إيتانا يتوسل كل يوم من شمش أن يهبه ولداً.

لقد ظل إيتانا يتقدم بنفسه يومياً أمام شمش

يا شمش، لقد أكلت أغنامي السمينة ولقد شربت الأرض دم كل جميل من ابنائي ولقد احترمت الآلهة ووقرت الأشباح

يا سيدي أرجو أن تأمر بكلمة من فمك وأن تعطني نبات الولادة

أرني نبات الولادة وخفف الأعباء عن كاهلي وهبني ولداً

وإجابة لتوسلاته فقد وجهه إلى الممر فوق الجبل الذي يوصل إلى الحفرة التي كان النسر محصوراً فيها ولسوف يُري النسر إيتانا نبات الولادة. وهكذا استطاع

إيتانا أن يجد طريقه إلى الحفرة وأطلق سراح النسر الذي كان شاكراً له، ولقد تعهد النسر بعد أن علم ما يريده إيتانا أن يحمله إلى السماء وهي سماء آنو

تعال سوف أحملك إلى سماء آنو

أرجوك أن تضع صدرك فوق صدري

وأن تضع كف يدك على الريش في أجنحتي وضع ذراعيك حول جوانبي

وهكذا فقد فعل إيتانا ما أمر به

ولقد كان النسر قوياً جداً وقد كان عبئه ثقيلاً جداً وظل ساعتين وهو يحمل الرجل صاعداً في السماء

وبعد ذلك تكلم النسر قائلاً لإيتانا

لاحظ يا صديقي الأرض تحتك

لاحظ البحر المحيط بالجبال الكونية

فالأرض يحيط بها الجبل ولقد ظهر البحر وهو قد تحول إلى إحدى الأقنية

قد استمر في حمله ساعتين إلى الأعلى

وهنا تكلم النسر مع إيتانا

لاحظ يا صديقي الأرض وقد ... (النص غير مقروء)

وبعد ذلك استمر في حمله ست ساعات

ثم إن النسر تكلم مع إيتانا

لاحظ يا صديقي منظر الأرض

ولقد اتجه البحر إلى خندق أحد المزارعين

وأخيراً وصلا إلى سماء آنو ووصلا إلى بوابة آنو وإنليل وأيا وعند هذه النقطة تتوقف القصة ولا نعلم إذا كان الطلب قد صادف النجاح أم لم يصادف. من المؤكد

أن قائمة الملوك السومريين تذكر أن إيتانا قد وُلد له ولد كما كان ينبغي وأصبح له وريث ولكن من جهة أخرى فإن هناك قطعة أخرى من اللوح المسماري تشير إلى أن النسر وإيتانا معه قد سقطا معاً إلى الأرض.

إن الفرق الرسمي ما بين الأساطير والملاحم هو أن الأولى تختص بالآلهة بينما تختص الثانية بمغامرات الأبطال من بني البشر ولكن هذا التمييز لن يظل ساري المفعول بالنسبة لمنطقة ما بين النهرين القديمة نظراً لأن مثل هذا البطل وهو جلجامش أو حتى دومزي (تموز) قد كان يعامل كأنه إله إنما كان يمثل شخصية تاريخية كإنسان ولكن هناك بعض الملاحم أو الأساطير من الممكن تصنيفها في فئات مختلفة ولكن لا يجوز اعتبارها كتاريخ بالمعنى الصحيح فهي تنمو وتتكاثر حول بعض الأشخاص التاريخيين الحقيقيين بشكل تاريخي مختلف وهناك اصطلاح (نارو) الذي يعني المسلة التي نحتها الملك لتسجيل الحوادث التي حدثت أثناء حكمه وتدعى الأساطير من هذا النوع بأدب النارو من الحقيقة التي مفادها أنها تمثل نقوش النارو القديمة التي صُنعت في أوائل الألف الثالث ق.م باسم بعض مشاهير الملوك في الأزمنة القديمة وإن أشهر قصة من هذا النوع هي قصة سرجون ملك أغادي وتبدأ القصة كما يلي:

أنا سرجون الملك القوي، ملك أغادي

لقد كانت والدتي كاهنة عالية المقام ولم أعرف والدي

وكانت مدينتي أدوبيرانو وهي واقعة على ضفاف نهر الفرات

ولقد حملت بي أمي الكاهنة وولدتني بشكل سري

وقد وضعتني في سلة المهملات وسدت غطاءها بالبيتومين

ثم رمتني في أحد الأنهار ولكن الماء لم يرتفع فوقي

ولقد حملني النهر وأوصلني إلى أكي Akki

وهو فلاح يروي الأرض بالمياه

ولقد رفعني أكي من الماء حالما أدلى بسطله في الماء

ولقد اتخذني أكي ولداً ورباني كولد من أولاده

وعندما كنت بستانياً أحبَّتني الإلهة عشتار

وبعد بضع سنوات مارست الحكم كلملك

ومن بين ملوك أسرة أغادي الذين رويت عنهم الأساطير كان نارام سِن وهو أحد أحفاد سرجون الذي كان أعماله المزعومة تعتبر من النبوءات. وأن الأسطورة الشهيرة حول نارام سن معروفة جداً. شأنها شأن الجزء الأعظم من أدب منطقة ما بين النهرين القديم وذلك من مكتبة آشور بانيبال في نينوى ولكن هناك أيضاً نتفاً قديمة بابلية وقطعة محفوظة في السلطنة العثمانية في تركيا وقطعة باللغة الحثية من بوغازكيوي.

وبعد المقدمة التي يعرف نارام سن بنفسه كما ينبغي يُشار إلى غزوة حصلت من قبل قطيع من المحاربين لهم وجوه كوجوه الغربان:

كانوا محاربين أجسامهم تشبه أجسام الطيور التي تعيش في الثقوب ووجوههم تشبه وجوه الغربان ولقد خلقتهم الآلهة العظام وأرضعتهم تيمات.

ولقد نموا وكبروا في أواسط الجبال وأصبحوا رجالاً في تمام الرجولة وأصبحت لهم قامات الرجال وكان عدد عساكرهم ٣٦٠,٠٠٠ عسكري.

وكان والدهم الملك أنوبانين ووالدتهم كانت تسمى ميليلي.

وهنا يذكر اسماء سبعة من الأخوة الذين كانوا يعملون قوّاداً. وهذا القطيع من الناس الذين أتوا من الجبال الشمالية هاجموا في أول الأمر بوروشر خاندا وهي محطة تجارية أكادية واقعة فيما يدعى الآن تركيا ، وبعدها اندفعوا نحو سوبارتو (آشور) ونحو غوتيوم (أواسط كردستان) وعيلام (جنوب غرب إيران) وأخيراً وصلوا إلى الخليج العربي واستمروا في تخريب تلمون (البحرين) وماغان (عمان) وميلوها

(ربما بلوخستان) ولم يعرف نارام سن أن هؤلاء كانوا رجالاً أم شياطين ولكنه أرسل ضابطاً للقيام بتجربة.

المسهم بسلاح اللودو واطعنهم بالرماح

فإذا سال الدم منهم فهم بشر مثلنا

وأما إذا لم يسل الدم منهم فإنهم شياطين يجلبون الطاعون

وهم أشباح وأرواح شريرة وهم من مخلوقات إنليل

وبعد ذلك عاد الضابط بالتقرير التالي:

لقد لمستهم بسلاح اللودو وطعنتهم بالرمح فسال الدم منهم.

وعندها استشار نارام سن الآلهة لتسمح له بالهجوم على هذه القطعان من البشر ولكن الآلهة لم تأذن ولهذا فقد قرر العمل من تلقاء نفسه ولكن النتيجة كانت كارثة. فقد أرسل لهم جيوشاً هائلة يبلغ عددها ١٢٠,٠٠٠ و٩٠,٠٠٠ و٦٠,٧٠٠ جندي كسروا جميعهم، وبالإضافة إلى ذلك فقد تسلط على بلاده القحط والمجاعات والطاعون والطوفان. وفي السنة الرابعة أقنع أيا الآلهة العظماء أن تلين قلوبهم وقدم لنارام سن فألاً حسناً في عيد رأس السنة الجديدة بأن استطاع أن يأسر اثني عشر أسداً منهم وقد استأذن من الآلهة أن يقتل هؤلاء ولكن كان الجواب الرفض وإنهم ينبغي أن يعفى عنهم. وذلك كما فسرا الكوكب فينوس (وهو عشتار).

في الأيام القادمة سوف يقوم إنليل باعتبارهم أشراراً.

وهم بانتظار قرار إنليل الغاضب

ولسوف تدمر مدينة هؤلاء المحاربين

وسوف تحرق بيوتهم وتحاصر

وإن رجال المدينة سوف يستبيحون دماءهم

والأرض سوف تنقص محاصيل الذرة عنهم

ولسوف تفنى مدينة هؤلاء المحاربين

وكل مدينة وسوف تظهر العداوة للمدينة الأخرى وكل بيت لبيت آخر

وتأتي جميع الأساطير المذكورة أعلاه شأنها شأن معظم الأدب الديني، نهائياً من بابل (أو سومر) وهناك ملحمة هامة وهي عمل آشوري وطني وتعرف باسم ملحمة توكولتي – نينوترا وهي تصف وجهة النظر الآشورية كيف أن الملك الآشوري النقي توكولتي نينوترا الأول (١٢٤٤ – ١٢٠٨ق.م) قد ساعده إنليل على التغلب على كاشي تيلياش الرابع الملك الكاشي في بابل الذي حنث بإيمانه فهجرته الآلهة.

أدب الحكمة

لقد اطلع القراء الإنكليز على أدب الحكمة من التوراة والعهد القديم حين زارت ملكة سبأ سليمان لتطلع على حكمته بينما كان صدوم ومصر مشهورتين بالحكمة ولقد ترجمت عدة أساطير وملاحم تحتوي الحكمة من لغة إلى أخرى في الزمن القديم.

أما في منطقة ما بين النهرين فالأدب هناك يعود إلى فترة لارسا (قبل ١٩٠٠ق.م) أو بشكل أدق إلى الفترة الواقعة ما بين حكم نارام سن للارسا وزمن أمي – صادوقا في بابل ومن هذه الفترة وجدت كميات كبيرة من أدب الحكمة في سومر.

ويقسم هذا الأدب السومري للحكمة إلى ما يقرب من خمس إلى أحد عشرة فئة. وإن أكثر أنواع الأدب المختص بالحكمة في سومر هو الأمثال ويمكننا اقتباس الأمثال الآتية:

السرور بعد تناول المشروبات الكحولية والتعب بعد الرحلة.

وقد عرفوا قيمة المشروبات الروحية في تهدئة حالات الضغط النفسي والتوتر كما يلي:

إن من لا يعرف المشروبات لا يعرف شيئاً جيداً في هذه الحياة فالمشروبات تجعل البيت فَرِحاً (وكان من مثالب أنكيدو أنه لم يعرف طعم الخبز والمشروبات الروحية).

إذا مدحت الشاب الصغير فإنه سوف يعطيك كل ما تريد.

وإذا رميت قطعة من الخبز إلى كلب صغير فإنه سوف يبدأ في هزّ ذنبه والاتجاه إليك.

إن الرجل الذي لا يُسأل ولا يعيل زوجة أو طفلاً فإن أنفه لم ....

وإن الزواج من أكثر من امرأة متروك أمره للرجل نفسه. وأما تربية أكثر من ولد ، فهو متروك للإله فقط.

الزانية للزاني والزاني للزانية.

إن وضع الحمل بالنسبة للمرأة قضية جميلة ولكن مشاكل الحمل بعد ذلك متعبة.

إن الفقراء هم الأشخاص الصامتون في سومر.

وهناك المبادئ الأخلاقية والحكم وهي مشابهة للأمثال في روحها ولكنها متميزة عنها ، والمبادئ الأخلاقية تتالف من سلسلة من الجمل الجارحة التي تعلق على السلوك البشري وهي تقدم بشكل نصيحة من الوالد إلى ولده وكان هذا النوع من الإنشاء معروفاً في العهد القديم من التوراة وكذلك في مصر وهناك مثال جيد عنها في اللغة الآرامية (كلمات أجيكار) وليس هناك أكثر من اثنين أو ثلاثة من هذه المبادئ معروفة في سومر وهناك بعض المقاطع من هذه النصوص كما يلي:

انتبه لكلمات أمك كما تنتبه لكلمات الإله.

عندما تتورط في نزاع أو قتال لا تجعل وجهك يظهر غاضباً أو متجهماً.

عندما يستهلك القتال والخصام الإنسان وكأنه النار، تأكد أنك تعلم كيف تطفئ هذه النار.

إذا صادف وخاطبك شخص بكلام بذيء فلا تردّ له هذا الكلام بالمثل لأن ذلك له نتائج خطيرة.

عندما يصدر حكمك على قضية لا ترافق هذا الحكم بتعليقاتك الشخصية بعدم الموافقة عليه.

وكمثال على ما ندعوه الحكم والأمثال السائرة والتي نجدها في الأدب الأكادي أكثر منها في الأدب السومري من الممكن أن يقتبس المرء الحكم التالية التي ترجمها الأستاذ جاكوب سون من شيكاغو:

إن الملك الذي يراعي الحق والعدل سوف يفرض العقوبة على المذنبين، وعندما يسمع الشهود ويصدر حكمه إلا أنه لا يطلب من الشخص المذنب دفع أجور ذنب عظيم.

هذه الحكمة وجدت في أحد النصوص التي تمدح الإلهة نانشي بصفتها حامية للنظام. وهناك مثال آخر مكتوب بلغتين وهما السومرية والأكادية كما يلي:

إن من ينام مع زوجة رجل آخر يقترف ذنباً عظيماً.

إن من يقسم أن يفعل أشياء قبيحة ومن يفتري على الناس، ومن يشير بإصبعه بشكل شرير خلف رفيقه ، وإن من يشتم عائلته بكلمات نابية، ومن يعمل كأنه عبد مأمور، ومن يسلّم الضعفاء إلى الأقوياء، مثل هؤلاء يستحقون اللوم والاحتقار.

وهناك من يدعوه السومريون آدامان – دو – غا ومعناه التكلم بين شخصين مناقضين لبعضهما وهذا يعني النزاع الكلامي بين فريقين ذوي خصائص متميزة مثلاً الصيف والشتاء، الراعي والمزارع، النحاس والأحجار الكريمة، الفأس والمحراث، وكانت هذه تقال في مناسبات لتسلية البلاط الملكي في الأعياد، ويتلو ذلك قضية النزاع ما بين فريقين يشرح كل فريق في النزاع فضائله أو يشير إلى

مثالب ونقائص خصمه وأخيراً يلجأ الفريقان إلى الإله الذي يُصدر حكمه الفاصل بين الفريقين وهذان يقبلان الحكم عن طيبة خاطر ويصبحان أصدقاء من جديد وهناك سبع قضايا من هذا النوع معروفة في سومر وأطولها هي قضية الصيف والشتاء وهي كما يلي:

لقد قرر الإله إنليل أن يشجّع الزراعة في البلاد مع ما فيها من بركات الوفرة وبهذا فقد خلق أخوين وهما الصيف والشتاء وقد خصصت لهما بعض الواجبات. فقد كان الشتاء سبباً في ولادة الخراف والحملان والعجول مما تسبب في زيادة الحليب وقد تسبب في اخضرار الحدائق وإزهار وإثمار الأشجار، وقد جعل السمك يفرِّخ والحبوب تنبت. أما الصيف من جهة أخرى فقد ملأ المزارع بالمحاصيل وجلب مراسيم الحصاد وملأ المخازن بالذرة وتسبب في بناء البيوت، والمعابد والمدن. وبعد أن أتمَّ كل فصل منهما واجباته اتجه الأخوان إلى نيبور لكي يقدما الشكر لإنليل وجلبا معهما هداياهما ويظهر أن الترجمة الصحيحة معرّضة للشك ولكن يبدو أن الشتاء قد جلب مختلف الخضروات بينما:

الصيف وهو ابن البطل إنليل

فقد جلب تقدمة لإينانا تيلا (بيت الحياة) بيت إنليل: حَمَلاً، وماعزاً وشاة من الجبل ونتيجة لذلك أصاب الأخوان الحسد بعضهما بعضاً فبدأا بالخصام

لقد أصبح الصيف يتحاشى لقاء الشتاء وكأنه عدو ولم يمشِ إلى جانبه.

لذلك فقد فَقَد الشتاء أعصابه وبدأ بالخصام مع الصيف قائلاً:

أيها الصيف، يا أخي...

وهنا يبدأ الخصام وبدأ كل منهما بالجدال وتثبيت سيادته، ويشير الشتاء إلى الدور الهام الذي يلعبه في الطقوس:

أيها الصيف يا أخي

عندما الملك وهو إيبي سوين الإلهي

يرتدى رداءه الاحتفالي وعباءته الملكية

لكي يشترك في أعياد الآلهة.

وعندما وفي بيت الحياة الذي كان المسكن الملكي الرائع والذي خلقه آنو

وكانت الآلات الموسيقية ذات الأوتار تعزف له.

فإنني أنا الذي يهتم بإعداد الزبدة الحلوة

وهنا يحاول الصيف أن يجيب ذاكراً المساوئ التي يقوم بها الشتاء:

أجاب الصيف مخاطباً الشتاء

أيها الشتاء يا أخي، إن الغيوم السوداء الكثيفة تتقلب في السماء

وفي داخل المدينة تبدأ شفاه الناس بالارتجاف بسبب البرد

ولا يجرؤ أحد على المشي في الشوارع وحتى في منتصف النهار

ويجلس السيد والعبد وهما يتمتعان بدفء النار وينتظران حلول المساء

وأخيراً يلجأ الخصمان إلى إنليل ليفصل بينهما. ويشرح كل منهما قضيته ويبدأ الصيف بمدح إنليل والتملق له أما الشتاء فهو يتكلم بشكل مباشر وأخيراً يصدر إنليل حكمه:

أجاب إنليل الصيف والشتاء

إن الشتاء هو الذي يجلب الماء الذي يَهبُ الحياة للأرض

وهو وبصفته فلاح الآلهة يكوّم جميع محاصيله

ولكن أنت أيها الصيف كيف تقارن نفسك بأخيك الشتاء

يقبل الفريقان الحكم ويتصالحان كما يلي:

من يجرؤ على مخالفة حكم إنليل فكلمته العالية المقام، ذلك الحكم الذي أصدره؟

وهكذا فقد اعترف الصيف بفضل الشتاء وأظهر خضوعه له

الصيف تقدّم الذهب والفضة للشتاء

يجلب إلى بيته البيرة والخمور.

وهناك فئة أخرى من أدب الحكمة السومري تتالف من اليودوبا Eudobba وتعني هذه الكلمة بيت الألواح أي مدرسة الكتبة، وهناك عدد من المواضيع الأدبية المتميزة التي كانت تروى بشكل انتقادي إنما تشير إلى تعليم الكتبة وبعكس الفرضية التي كانت معروفة في الماضي بإن مدارس الكتبة لم تكن لها علاقة بالكهنة ولا بالمعابد ولم توجد معظم النصوص الأدبية في المعابد بل في البيوت الخاصة.

وفي الفترة البابلية القديمة عندما انحطّت قيمة اللغة السومرية كلغة محكية، فإن مدارس الكتبة قد ازدهرت خصوصاً بالنسبة لتعليم الكتبة الكتابة السومرية التي كانت لا تزال السائدة في الأدب والدين. وتساعدنا النصوص في استنباط ملخصات تنظيمات مثل هذه المدارس. وفي المرتبة الأولى كان المدير أو العميد ويأتي بعدها في المرتبة الثانية أستاذ الصف المدرس وهو باللغة السومرية آدا – إيدوبا أي والد بيت الألواح) وكان هناك أساتذة مختصون بكل موضوع على حدة مثل معلم الحساب أو معلم الهندسة وكان الأهم هو كاتب اللغة السومرية، وكان هناك أحد معلمي التلاميذ الذي كان يؤدي التعليم الفعلي ويدعى الأخ الأكبر. وكانت قضايا الإدارة تخص أمين سر المدرسة الذي كان يعتني بإقامة النظام في المدرسة.

ولقد قام الأستاذ كرامر .Kramer بنشر النصوص التي أخذت منها معظم المعلومات المذكورة أعلاه إذ إنها تعطي وصفاً رائعاً للروتين المطلوب من الطالب في سنته الدراسية الأولى، ويبدأ الموضوع بذكر الأسئلة التي تُلقى على التلاميذ:

يا ابن بيت الألواح إلى أين كنت تذهب في أيامك الباكرة

وهو يجيب:

لقد كنت أذهب إلى بيت الألواح

وكنت أقرأ لوحي وأتناول طعامي

وأحضر لوحي وأنقشه وأنهي كل ما هو مطلوب مني

وعندما كان بيت الألواح يغلق أبوابه كنت أذهب إلى البيت

وكنت أدخل بيتي فأجد والدي جالساً هناك

وكان هذا الشاب يقدّم لوالده وصفاً لأعماله خلال النهار وبعدها يستعد للعشاء والنوم.

إنني عطشان أعطوني شربة ماء

إنني جوعان أعطوني بعض الطعام

اغسلوا قدمي ورتبوا فراشي إنني أريد أن أنام

أيقظوني باكراً في الصباح

إذ لا ينبغي أن أتأخّر وإلا فإن مدير مدرستي سوف يعاقبني

وفي الصباح التالي كانت الأم تعطي ولدها رغيفين وكان يهرع إلى المدرسة ولكن كان هذا اليوم من الأيام السيئة الحظ، إذ رغم كل شيء فقد تأخر مما سبب له الإزعاج فقد ضربه معلم الصف بالقصبة بسبب وضعية لوحه السيئة في المساء الماضي ولقد ضرب هذا الشاب مرة أخرى بسبب المواضيع الأخرى وبسبب سوء سلوكه، وقد كان هذا اليوم سيئاً بالنسبة له ولذلك رجا والده أن يكرّم مدير المدرسة. وعندما وافق الوالد دُعي مدير المدرسة إلى البيت وقدّم له الوالد ملابس جديدة كهدية وهكذا فقد صلح حال الابن وتنبأ له المدير بمستقبل سعيد.

وهناك لوح آخر يحتوي نفس النص، وفيه تذكر قصة ولد جديد جبان وكان هذا الولد في السنة الثانية وقد أصبح شاباً مشاغباً وغشاشاً، مما سبب له المتاعب بالنسبة لسلطات المدرسة. وفي هذه المحاورة كان المتكلمان هما التلميذ وأخوه الأكبر فقد دُعي التلميذ ليقترح ما يجب عليه عمله عند كتابة هذا التمرين، ولكنه يجيب أنه ليس على استعداد للقيام بعمل أي تمرين روتيني آخر:

لقد قررت أن أكتب شيئاً من نفسي إذ إنني أنا الذي سوف يعطي الإرشادات ولكن الأخ الأكبر يوبّخ الشاب المغرور:

إذا أردت أن تعطى التعليمات فإني لن أصبح أخاك الأكبر

من أين تأتي حالة وسلطة أخي الأكبر (في مثل هذه الأحوال)

إن غش الكاتب يسبب إساءة العلاقات مع الأخ الأكبر

أيها الرجل العالي الذكاء والعضو البارز في بيت الألواح

ربما كانت يدك رشيقة وماهرة ولكنها ليست ماهرة عند عمل أي موضوع على اللوح.

وهنا تذكر مثالب الشاب بالتفصيل:

إنه ينقش اللوح ولكنه لم يتمم هذا العمل بكفاءة

وهو يكتب رسالة ولكنه يكتب العنوان الخطأ

فإذا أراد أن يقسم أرضاً فلا يستطيع قسمة تلك الأرض

وهناك صفات ذميمة أخرى تصب في نفس الموضوع وأخيراً يسأل الأخ الأكبر بسخرية:

أيها الرجل الذي لا ينبغي مدحه أمام الكتبة

بأي شيء تدعي أنك ماهر

ولكن الطالب لا ينظر إلى هذا نظرة سلبية لكنه بعد أن دافع عن نفسه وعن قدرته التقنية يوجه الهجوم نحو الأخ الأكبر ومهارته وينتقد معرفته الحساب والهندسة. ودقة نسخ النصوص الدينية، وقد اشتد النزاع بينهما. إلى أن تطور النزاع أخيراً إلى القتال المباشر، وهناك لوح آخر يقدّم نهاية القضية، وهنا يظهر المدير الذي يزمجر ويصرح بالطالب الجانح:

لماذا تسلكان أنتما بهذا الشكل

واحدكما يرمي الآخر على الأرض

لماذا وجد أخوك الأكبر وما هو عمله

إنه متفوق عليك في فنون الكتابة

يستطيع المدير أن يفعل شيئاً

وهو حائز على الاحترام التام مهما فعل

ولكن إذا فعلت ما تريد

فإن أي شخص مثلك سوف يصطدم في نزاع من الأخ الأكبر

هناك هراوة في غرفة المخازن وسوف أضرب أي ولد من هذا النوع بها

ولسوف أقيد قدميه بسلسلة من النحاس

ولسوف يكون قادراً على التمشي في أرجاء البيت ولكنه لن يخرج إلى الخارج مدة شهرين

ويقول النص إنه وبعد ذلك وبعد أن تلفظ المدير بهذه التهديدات أخذ بيدي الشابين وصالحهما. وهناك نوع آخر من أدب الحكمة كان معروفاً لدى العالم اليهودي والمسيحي وهو يأخذ بعين الاعتبار مشكلة الشرور والمعاناة.

وهناك طبيعة جديدة لجميع أنواع الأدب والحكم المعروفة في أكاد وهي تلخص بالقصة التالية:

إن إحدى الأعمال المرموقة المعروفة ابتداءً من السطر الأول بالعنوان التالي: «إني سوف أمدح رب الحكمة أو معاناة المظلوم أو أيوب البابلي»، ولكن اللقب الأخير قلما لقي الاهتمام، إذ مع أن هذه القصيدة تعالج مشكلة المعاناة إلا أن النص التوراتي كان أكثر بلاغة من النص البابلي، تتألف قصيدة «المظلوم المحق» من أربعة ألواح وهي عبارة عن محاورة تبلغ خمسمائة سطر يقال إنها من كلام بعض النبلاء البابليين، وتدل خصائصها الأدبية أنها كانت من نتاج الفترة الكاشية وفي هذه القصيدة نجد أن الراوي التقي قد هجرته جميع الآلهة بحيث إن غضب عليه

الملك وتآمر رجال البلاط ضده، فأصبح منبوذا ولم يستطع المتنبئون ولا السحرة أن يساعدوه وهو يتذكر تُقاه وأعماله الصالحة سابقاً ويستنتج وهو حزين أن الإنسان لا يعرف ما الذي يُرضي الآلهة:

كيف لي أن أعلم أن هذه الأشياء قد أصبحت محبوبة لدى الآلهة؟

وأن الشيء الجيد بالنسبة إلى الإنسان فهو عبارة عن إهانة للآلهة

وأن ما هو ذو سمعة سيئة في قلب الإنسان فهو جيد بالنسبة للآلهة

ومن يعلم رأي الآلهة وهم في منتصف السماء

وهكذا فقد أصيب ذلك الرجل السيئ الحظ بالمرض فقد خرج من العالم السفلي سلسلة من الشياطين لعقابه بإعطائه أمراض الشلل والديزونطاريا والسل والملاريا.

أما الرجل فقد رأى ثلاثة أحلام وفي الحلم الأول ظهر له شاب وسيم ولكن النص الذي يحتوي على رسالة هذا الرجل الوسيم قد كسرت. وفي الحلم الثاني ظهر له رجل شاب بشكل متنبئ قام بطقوس فوق الرجل المتألم بناءً على تعليمات الإله. وفي الحلم الثالث ظهرت أرملة تشبه الملكة أو الإلهة ووعدته بالخلاص وتبعها كاهن يتلو التراتيل وهو يحمل لوحاً من مردوخ مع وعد بالازدهار وبعد ذلك رحلت سيدته ورجع الشياطين إلى العالم السفلي، واستعاد الرجل صحته وهناءه وتوجه إلى معبد مردوخ.

والنوع الثاني الرئيسي من أدب الحكمة وتاريخه متأخر قليلاً وهو المعروف باسم تيوديست Theodicit البابلي وهو يشكل محاورة ما بين المتألم وصديقه. وهي مؤلفة من سبعة وعشرين مقطعاً شعرياً وكل مقطع من أحد عشر سطراً تبدأ جميعها بنفس المقطع وهي تؤلف جملة معناها: إنني أنا ساغيل كينام أوبيب كاهن التراتيل وعابد الآلهة والملك. ومن الممكن تلخيص العمل بما يلي وهو ينص على ما قاله المتألم وصديقه:

المتألم: لقد كنت طفلاً وتوفيت والدتي وأنا طفل صغير فأصبحت يتيماً

الصديق: إن الموت هو مصير جميع البشر

المتألم: إن صحتي سيئة وإني رجل تعس وليست معنوياتي جيدة

الصديق: سوف تكافئ الآلهة جميع الأتقياء

المتألم: هناك أناس قد نجحوا وازدهرت حالتهم وهم ليسو أتقياء ولكني كنت تقياً ولم أزدهر.

الصديق: نحن لا نفهم طرق الآلهة إذ إن الأرذال الذين يزدهرون مؤقتاً سوف ينالون ما يستحقونه أخيراً.

المتألم: إنه وطبقاً لملاحظاتي لا أرى القضية هكذا

الصديق: إنه من التجديف بحق الإله أن تشك بقرارات الإله (هناك أربع مقاطع شعرية مفقودة أو مصابة بضرر فظيع).

المتألم: هناك بعض المحاسن للمعيشة كالمتسول دون وجود التزامات تجاه المجتمع

الصديق: إن هذا جنون

وهكذا تستمر المحاورة وهي تشكل نظرية الثواب والعقاب الإلهي ضد التجارب المشهورة للحياة الفعلية. ولكن يتفق المتحاوران أخيراً على الاعتقاد بأن الناس لا يتمتعون بالعدل وإنهم كذلك لأن الآلهة قد جعلتهم كذلك. وهنا نذكر ترجمة لإحدى الفقرات وهي عبارة عن مقدمة بلاغية للخطاب:

يا صديقي إن عقلك عبارة عن ينبوع ومصدر مائه لا ينقطع

وهي عبارة عن تراكمات ذلك البحر الهائل الذي لا حدود له.

سوف أقدم لك سؤالاً وأرجو أن تنتبه لما سأقوله:

انتبه لحظة، اصغ لكلماتي

إن بهائي وعظمتي الجسمانية قد أنهكت ويحيط بي الإحباط والحزن

ولقد مضى حظي بعيداً ومضت أيام هنائي

ولقد تحوّل حماسي إلى الضعف ولقد انتهت أيام بهائي

ولقد شوّه النواح والأحزان وجهي

ولم تعد الأغذية والمحاصيل من مزرعتي كافية لسد الرمق

ولم يعد النبيذ وهو حياة الإنسانية كافياً لسد حاجتي منذ زمن طويل

هل هناك وقت من أوقات الغفران قد رُتّب لي فأنا أرغب بالتوصل إليه.

وهناك عمل آخر من أشكال المحاورة ولكن من نوع مختلف وهو المعروف بمحاورة التشاؤم، وهذا عبارة عن سلسلة من المحاورة ما بين سيد وأحد عبيده وكان السيد يقترح في كل مرة السير ضمن نوع من العمل ولكن العبد يخالفه في رأيه دوماً وفي الحال يبدأ السيد في تغيير كامل ومفاجئ في موقفه بالنسبة وبالمقارنة مع كلام العبد الذي كان مستعداً دوماً لاتخاذ الموقف المخالف، ولكن وفي النهاية يتخذ العبد رأياً مستقلاً. ولكن عندما سُئل عن العمل الواجب اتخاذه فعلاً كان جوابه ما يلي:

أن يُكسر عنقي ويُكسر عنقك

ويلقى بالعنقين في النهر، هذا هو الصواب

وليس بالإمكان إنكار أنه كان هناك معنى لا يخلو من الفكاهة في هذا العمل وربما كان ذا معنى بالهجاء ولكن كان هناك بعض الاعتبارات الفلسفية مثلاً ما هو الغرض من هذه الحياة؟

أيها العبد حاول أن تجعل نفسك مقبولاً. نعم يا سيدي. نعم.

اذهب واجلب الماء لأغسل يدي واعطني الماء

«وذلك لكي أقوم بعمل أضحية لإلهي» «أفعل ذلك يا سيدي، افعل»

إذ إن الشخص الذي يقوم بعمل الأضاحي لإلهه فإن قلبه يظل مطمئناً

إذ إنه يقوم بفعل استثمار وبعده استثمار.

«كلا أيها العبد فإني سوف لا أقوم بعمل أضحية لإلهي أبداً».

«لا تفعل ذلك يا سيدي، لا تفعل ذلك».

«وبالنسبة للإله فإنك تستطيع أن تدرِّبه بحيث يظل يجري وراءك كالكلب».

سواءً كانت هذه طقوساً يريد منك إجراءها أو أي شيء آخر.

وهناك نصوص تعليمية أخلاقية تتمثل في النصوص الأكادية والسومرية وهناك مثال نموذجي وهو ما يدعى »عظة الحكمة« وهي تتخذ شكل النصيحة من أب وربما كان وزيراً أو شخصية مرموقة إلى ولده ولا يعرف تاريخ هذه العظة ويقترح أن تكون زمن حكم البابليين القدماء أو الكاشيين القدماء. وتؤلف أنواع التعاليم الأخلاقية نصيحة عملية مؤسسة على الاعتبارات البراغماتية أكثر منها الأنظمة الأخلاقية، وفي هذه النصائح يحرِّضون الابن على تجنب رفقة السوء وذلك لئلا:

إذا أنت اجتنبت العادات الحسنة، فإنك سوف تقع في مطبات وآراء الأشرار

وبهذا فسوف تنقص قيمة خدماتك وتتجنَّب طريق الصواب

وبذلك تسمح لعقلك الذي كان غزير الفهم وحساساً أن يصبح مشوّهاً.

وينصح الابن أيضاً أن يحترس في كلامه ويتجنب الشتم والكذب والبُهتان وأن يتجنب التورط في إقامة الدعاوى القانونية ولا ينبغي أن يسمح لأَمَةٍ أن تصبح سيدة البيت، ولا ينبغي أن يتزوج من إحدى عاهرات المعبد، حيث فضلاً عن أنها معتادة على استقبال رجال آخرين إلا أنها غير حنونة ومن الصعب الوصول إليها كزوجة. فإذا وضع قيماً على أموال سيده فينبغي أن يكون أميناً خوفاً من أن يكشف في آخر الأمر وفوق ذلك ينبغي أن يعبد الآلهة بانتظام ويقدم لهم الأضحيات الواجبة، فإنهم بدورهم سوف يكافئونه

ينبغي أن تقوم كل يوم بالصلاة والخضوع

وعندها فسوف يزيد أجرك

عمل الأضحيات يطيل العمر

والصلاة تزيل الآثام

وهناك أدب المقاومة الذي يعود إلى العهد السومري والذي يتمثل دوماً في الأدب الأكادي وهناك ستة أمثلة معروفة في الوقت الحاضر، وأفضلها هو قصة النضال ما بين شجرة الطرفاء وشجرة النخيل، ويبدأ العمل بمقدمة خرافية توضح الزمن والظروف التي خلق فيها المناضلان وبعد ذلك:

لقد غرس الملك شجرة النخيل في قصره

ومعها غرس شجرة الطرفاء

واقام وليمة تحت ظل شجرة الطرفاء

وعندها بدأت الشجرتان بالمنافسة فقالت شجرة النخيل

أنت يا شجرة الطرفاء شجرة عديمة الفائدة

ماذا تحمل أغصانك؟ الخشب دون الثمر

ولكن البستاني يمدحني ويتكلم بالأشياء الجميلة عني

ويقول إني مفيدة للعبيد والأسياد بوقت واحد

وهنا تقوم شجرة الطرفاء بوصف فوائد خشبها:

فكري بالمفروشات في قصر الملك

لا شيء سواي يوجد ويقدم في قصر الملك

فالملك يتناول الطعام على طاولتي

وتشرب الملكة من كأسي المصنوع من خشب الطرفاء

وإن معظم الأمثال الأكادية تتواجد في نصوص بلغتين بجانب الأصل السومري وهناك بعض الأمثلة:

الأمثال:

الرجل الجائع سوف يبحث في بيت مبني من الطوب

لا تسلّم رجلاً قطعة من الطين وهو يرمي كل شيء حوله دون تعقل

على بوابة بيت القاضي فإن فم المرأة الخاطئة أقوى من فم زوجها

التعاليم الأخلاقية:

لا تقم بفعل أي جريمة عندئذ فإن خوف الإله سوف لا يتعبك

لا تلفظ أي أقوال شريرة عندها فسوف لا يصيب الحزن قلبك

لا تفعل الشر عندها فسوف لا يصيبك أي مكروه دائم

الحكم والأمثال:

عندما تكون صالحاً فإن الإله سوف يكون معك

وعندما لا تكون صالحاً فإن إلهك سوف لا يكون معك.

المقالات المصغرة أو القصص:

عندما أتى الحصان القوي وركب أتانا

وهمس في أذنيها

ينبغي أن يكون الفلو الذي في بطنك عداءً مثلي

ولا تجعليه مثل الحمار الذي عليه أن يحمل السل الكبير فوق ظهره.

دخل النمس في مجرور للمياه القذرة ليهرب عن طريق الكلب

وعندما قفز الكلب عَلِق في فوهة المجرور

وهكذا هرب النمس.

جلست بعوضة صغيرة على ظهر الفيل

وقالت يا أخي في الدم هل آذيتك وإذا كان الأمر كذلك فسوف انتقل بعيداً

فأجاب الفيل البعوضة:

أنا لا أعلم أنك تجلسين على ظهري ولا أعلم عندما تغادرين.

الفصل الثالث عشر

الرياضيات وعلم الفلك، الطب والتقنية الكيماوية، الفنون

إن ما أدخل السرور إلى قلبي من بين المتحدثين كان السيرج إينت (رئيس كلية الفيزيائيين) عندما تحدث عن عملية التنفس والتي لا تزال حتى هذه الأيام مجهولة لدى الفيزيائيين، وهو كيف أن الطبيعة تدبّر هذه الأمور أو ما هي فائدتها (صموئيل بيبس، مذكراته: ٢٢ كانون الثاني ١٦٦٥-١٦٦٦).

الأرقام والرياضيات

إن إحدى المعارضات التي قابلها الباحثون في الآثار الآشورية عندما توفّرت النصوص المسمارية حول الشؤون التاريخية والطقوسية والاقتصادية، كانت تلك المرحلة المتقدمة من التطور التي وصلت إليها علوم الرياضيات البابلية في فترة باكرة وقديمة.

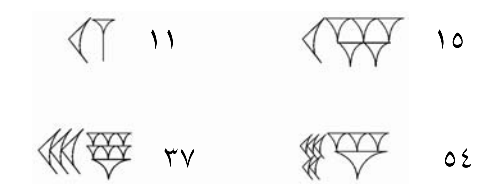
كان أصل الكتابة كما أشرنا وفيما مضى لم تكن لها علاقة بالأدب بالمعنى الضيّق لهذه الكلمة بل الحاجة العملية لحفظ الحسابات لأملاك المعبد ومنتوجاته، وقد كان هناك حاجة لمعرفة رموز الأرقام ولقد وجدت هذه منذ عهد بداية الكتابة في منطقة ما بين النهرين، وكانت الإشارات المسمارية للأرقام بسيطة جداً فقد كان الأسفين العمودي المفرد 𒁹 في الفترات الباكرة بشكل ⬭ وهو عبارة عن طبقة إهليليجية (بيضوية) ناتجة عن الضغط بشكل مائل بواسطة النهاية

المستديرة لقلم مستدق الطرف وهذا الشكل يدل على الرقم (١) أما الوحدات من المجموعات من الأرقام الأكبر من الأسافين فكانت تستعمل هذا الشكل.



وكانوا يرمزون إلى الرقم (١٠) بواسطة إسفين عريض منحرف وأما مضاعفات الرقم ١٠ حتى الرقم ٥٠ فكانت تكتب بشكل مجموعات من الأسافين المنحرفة العريضة هكذا:

وأما الأرقام حتى ٥٩ التي ليست مضاعفات الرقم ١٠ فكانت تكتب بواسطة مجموعات من الأسافين العريضة للعشرة ويتبعها مجموعة من الأسافين العمودية للوحدات هكذا:



وعند الوصول إلى رقم ٦٠ كانت تظهر التعقيدات فهناك نظامان للعد. النظام العشري والنظام الستيني أي المتعلق بالرقم ٦٠ وكان هذان النظامان يستعملان في بابل ابتداءً من بدء الحضارة البابلية فالنظام العشري لا يحتاج إلى شرح. أما النظام الستيني فقد كان مستعملاً في الحسابات الرياضية والفلكية فهو يستعمل مضاعفات العدد ٦٠ أي (من رقم ١، ٦٠، ٣٦٠٠) مقابل مضاعفات الرقم ١٠، ومنه كان يتمتع بمحاسن تفوق النظام العشري وذلك لأن العدد ٦٠ يحتوي على عدد كبير من الأرقام الصغيرة، مثل ١-٢-٣-٤-٥-٦-٧-٨-٩-١٠-١٢-١٥-٢٠-٣٠) وفي الأماكن الأخرى كان النظامان يستعملان جنباً إلى جنب كما هو الحال في بريطانيا هناك النظام العشري المستعمل مع نظام آخر مؤسس على مضاعفات العدد ١٢.

نظراً لأن العدد ٦٠ هو وحده في النظام الستيني لذلك كان من الممكن تمثيله عن طريق أسافين عمودية متميزة بحجمها الكبير بالنسبة للأسفين الذي يدل على رقم (١) مع أن التمييز عن طريق الحجم قد اختفى فيما بعد وهكذا نرى بالنسبة للأرقام ما بين ٦٠، و٩٠ مثل المجموعات التالية:



وهكذا وبموجب هذا النظام يصبح العدد ١٠٠ هكذا وكان يكتب بهذه الطريقة. والحقيقة أن العدد ١٠٠ كان يكتب بشكل دائرة كبيرة (تدل على النظام العشري الذي يعتبر الرقم ١٠٠ أكبر مضاعفات الرقم عشرة أو بواسطة علامة خاصة تلفظ مي ME والتي هي أصلاً تمثل اللفظ الفعلي لكلمة مئة باللغة السامية، وهناك تعديلات أوسع وإضافات للدلالة على أرقام أكبر وهكذا يمكن كتابة الرقم ١٢٠ بالشكل التالي:

= ٢ X ٦٠ (وكانت الأسافين المستعملة في هذه الأرقام أكبر من الأسفين للرقم (١))

أو بالنسبة للفترة السومرية الأولى هكذا = ١٠٠ + ١٠ + ١٠

أو = واحد مي ME + عشرين

وكان للرقم ١٠٠٠ إشارة خاصة وهي مؤلفة من و ، وهكذا تدل على ١٠×١٠٠ وأما الأسلوب الستيني فإن أعلى رقم هو ٣٦٠٠ أي مربع ٦٠ وكانوا يرمزون إلى هذا الرقم بواسطة دائرة كبيرة جداً (وكانت تستعمل أيضاً حسب النظام العشري لتدل على مربع الرقم ١٠ وهكذا بالإشارة .

وسوف نرى من الأمثلة المذكورة أعلاه أن أصول وضع قيمة الأرقام (وهو النظام الذي يعتمد فيه قيمة العدد على المركز أو الموضع الذي يوضع فيه الرقم بالنسبة للأرقام الأخرى) وكانت هذه الطريقة موجودة أيضاً في النظام العددي البابلي منذ

أقدم الأزمنة، إذ ربما أنه وبالنسبة للنظام الذي تستعمله في الوقت الحاضر هناك قيمة لموضع الرقم وهكذا هناك فرق في موضع الخمسة بالنسبة للرقم ١٥ و ٥١ ففي الحالة الولى نجد أن الرقم ٥ هو خمسة أما في الحالة الثانية فإن رقم ٥ يعني خمسين وأما في الأرقام الرومانية فهي لا تعتمد على الموضع وهكذا فإنه بالنسبة للمجموعة IV وVI فإنها لا تعني قيماً مختلفة فالرمز V يعني خمسة دوماً ولا شيء آخر أما في الأرقام المسمارية فإن هو رقم متميز عن الرقم نظراً لأنه وفي الرقم الأول فإن تعني (٦٠) بينما وفي الرقم الثاني فهي تعني رقم (١) وهكذا فإن المجموعتين اللتين يشترك فيهما هذا الرقم ويصبح جزءاً منهما بالتوالي هما رقم (٦٠) ورقم (١) ولقد قام الملك أسرحدون باستعمال سياسي لتلك الحقيقة التي مفادها أن هذين الرقمين يختلفان في اللغة المسمارية في المركز الذي يحتله كل من الرمزين.

ولقد تطورت فكرة تغيير قيمة الرقم بالنسبة لمركز الرقم وقد استعمل علماء الرياضيات في بابل في التعبير عن أرقام الأوزان المستعملة في الموازين وهي موجودة في الوثائق الاقتصادية ابتداءً من فترة السومريين فصاعداً. وكان أساس نظام الأوزان السومري هو المينا Mina وهذه الوزنة تتدرج من بين رطل أو رطلين، وقد قسمت إلى أقسام صغيرة تبلغ ٦٠ شيكل بينما كانت ٦٠ مينا تؤلف وحدة أكبر. وهكذا فقد كان البابليون مغرمين باستعمال الأرقام X, Y, Z وكانت قيمة (X) تفوق قيمة (Y) ستون ضعفاً بينما كانت Y تساوي ستين ضعفاً بالنسبة Z ومن هذا المفهوم ظهرت إمكانية وجود تدوين قيمة الرقم حسب موضعه وهي مؤسسة على النظام الستيني الذي يمكن لـ X, Y, Z أن تعني إما X × 60 × 60 + Y × 60 + Z

$$(X \times 60 \times 60) + (Y \times 60) + Z$$

أو

$$(X \times 60) \times (Y) + \left(\frac{Z}{60}\right)$$

أو حتى

$$(X) + \left(\frac{Y}{60}\right) + \left(\frac{Z}{60 \times 60}\right)$$

ولكن هناك عائقين لهذا النظام وهما يظهران من غياب الصفر أو أية إشارة موازية إلى النظام العشري أو الستيني: إذ إنه بالنسبة لنظامنا العشري فإن رقماً مثل ٣٥٨,٤ هو رقم غامض نظراً لأنه من المعروف أن الرقم الأول إلى السيار يمثل الوحدات والثاني يمثل العشرات والثالث يمثل العشرات هذا وإن الأشخاص ذوي العقول الرياضية سوف يتغاضون عن إيضاح بعض الأشياء التي يعتبرونها بالنسبة إليهم واضحة ولكن ربما كان هناك بعض القراء الذين من المفيد لهم التأكيد أن النظام العشري الذي نستعمله ليس جزءاً من طبيعة الرقم نفسه بل هو مجرّد اختراع. وعندما نكتب الرقم ٥٣٨ فهناك ثلاث عشرات تتمثل بالرقم (٣) والخمسمائة تتمثل بالرقم (٥) وبهذا الشكل يزول الغموض. إذ إن الغموض ربما يظهر إذا لم يكن هناك عشرات أو وحدات للرقم. وفي مثل هذه الحالة يمكن أن يزول هذا الغموض عن طريق وضع علامة الصفر في المكان المناسب فإذا لم يكن هناك عشرات أو وحدات عندها. وإذا أردنا أن نمثل الرقم خمسمائة وثمانية وخمسائة وثلاثين فإننا عادة لا نكتب ٥، ٨ و ٥، ٣ حيث يظهر الغموض بل إن وضع الصفر ضروري بحيث يصبح الرقم ٥٠٨ أو ٥٣٠ ومن الممكن أن نجد استثناءات لهذا الوضع في عمليات الضرب حسب النظام العشري، حيث من الممكن لرقم مثل ٥٣ أن يعني ٥,٣ و ٥٣٠ دون أن يقع الحاسب بأي خطأ.

أما إذا طبقنا النظام العددي البابلي ربما ظهر الغموض المشار إليه بالأشكال التالية مثلاً في كتابة فإن الأسافين العمودية من الممكن أن تعني إما وحدات أو عمود الستينات، أما الأسافين الأربعة العريضة فإنها تعني إما الأجزاء من ستين أو عمود الوحدات، وهكذا فإن الأرقام التالية (بشكل ٢,٤٠) من الممكن أن تعني إما: $40+(60\times 2)$ أي 160 .

أو $2+\frac{40}{60}$ أي $2\frac{2}{3}$

فالغموض التالي هو أن المجموعتين من الأسافين ربما لا تعني قوى متتالية للنظام الستيني. أي وبحسب الكتابة المسمارية المذكورة أعلاه، إذا كانت الأسافين

الأربعة تمثل أربعين وحدة فإن الأسافين العمودية لا تمثل ستينات بل (اثنين) أي مربع ستين × ٢ أي ٢×٣٦٠٠؛ وهـذه سوف تمثل ٧٢٠٠ + ٤٠ = ٧٢٤٠، وكانوا يتجنبون مثل هذا الغموض في الفترات الباكرة وذلك بكتابة رقم يكون فيه عنصران مفترقان عن بعضهما بشكل واسع، وذلك عندما لا يمثلان مضاعفات العدد ٦٠. وهكذا إن الممكن كتابة العدد ٧٢٤٠ الذي يساوي (٢×٦٠×٦٠) + (صفر×٦٠) + (٤٠×١). بالشكل التالي مع وجود فراغ واسع بين الرقمين وفي الفترة السلوقية استعملوا إشارة خاصة بالصفر وهي ( ) ومن الواضح أنه ربما نشأت بعض الأخطاء وفي مثل هذا النظام كانت تحدث فعلاً.

إن النصوص الرياضية التي تعرفنا عليها تنتمي إلى فترتين زمنيتين يفصل بينهما نحو ألف عام، وتأتي الفترة الأولى من العهد البابلي القديم والباقي من العهد السلوقي بعد عام ٣٠٠ق.م.

ولقد افترض أنه كان خلف هذه الرياضيات البابلية كان هناك فترة طويلة من التطور، ويجدر بنا أن نعيد التأكيد في هذه المرحلة أن الأكثرية الواسعة من مئات ألوف الألواح المسمارية المعروفة حتى الآن هي اقتصادية في مضمونها تتعامل مع قضايا عدة، مثل الإيصالات والقروض وقضايا الإعاشة ويبلغ عدد هذه المئات التي يؤلف مئة منها نصوص المشاكل ومئتان من نصوص الجداول فالنصوص المختصة بالمشاكل المختصة بعلم الجبر أو الهندسة، بينما كانت نصوص الجداول تحتوي جداول الضرب والقسمة والمربعات والجذور والمكعبات والجذور التكعيبية وهلم جرا وكثيراً من هذه النصوص التي أتت من مدينة (نيبور) كانت عبارة عن تمارين مدرسة وكانت نيبور مركزاً ممتازاً لتعليم الكتبة في الأزمنة البابلية القديمة وكانت الرياضيات جزءاً من المنهج الدراسي.

وبالنسبة للمستوى الفعلي للإنجازات الرياضية في بابل القديمة (حوالي ١٨٠٠ق.م)، فإن نيوجيباور Neugebauer يقارنها بما حدث أثناء عصر النهضة في أوروبا إذ كانت كلها مختصة بعلوم الجبر وكانوا يعرفون عدداً من العلاقات

الهندسية ومن الواضح الآن أن نظرية فيثاغورس وهي في حالة المثلث القائم الزاوية فإن مجموع مربع ضلعي الزاوية القائمة يساوي مربع قطر هذه الزاوية، هذه النظرية كانت معروفة لدى البابليين مع أنهم لم يعرفوا كيف يبرهنون على هذه النظرية، وكانت المعارف البابلية تعتمد على المعرفة التجريبية أكثر من المعرفة المؤسسة على إيراد البراهين وكان هناك ألواح تحتوي على الجذر التربيعي والجذر التكعيبي، وهنا نذكر رواية مختصرة تشمل مثالين بسيطين عن المشاكل البابلية القديمة. الأول مثال عن معادلة من الدرجة الثانية وقد حاولوا تبسيطها على القارئ العادي الذي قد أتقن إلى درجة ما مبادئ الجبر:

لقد جُمعت مساحة السطح وضلع المربع ٤٥.

وبعدها تكتب رقم (١) وهو الوحدة

ثم تقسمها على اثنين ٣٠

وبعدها تضرب ٣٠ × ٣٠ : ١٥

وبعدها تجمع ١٥ + ٤٥ : ١

أي مربع (١)

وبعدها تطرح (٣٠) الذي ضربته بنفسه من ١ : ٣٠ أي ضلع المربع

وعندما يعرف المرء أن النظام الستيني كان مستعملاً في المسائل الهندسية فإن هذا سوف يتوضح

عندها العدد ٤٥ يمثل $\frac{45}{60}=\frac{3}{4}$ ، والعدد ٣٠ يمثل $\frac{30}{60}=\frac{1}{2}$ ، ويمثل العدد ١٥ $\frac{15}{60}=\frac{1}{4}$. ويمكن أن يبين المجموع كما يلي:

مساحة المربع جمع ضلع المربع = ٤/٣

خذ معامل (القياس الخطي) كوحدة.

نصف المعامل =١/٢

مربع الـ ١/٢ = ١/٤

١/٤ جمع ٣/٤ =١

الجذر التربيعي لـ ١ = ١

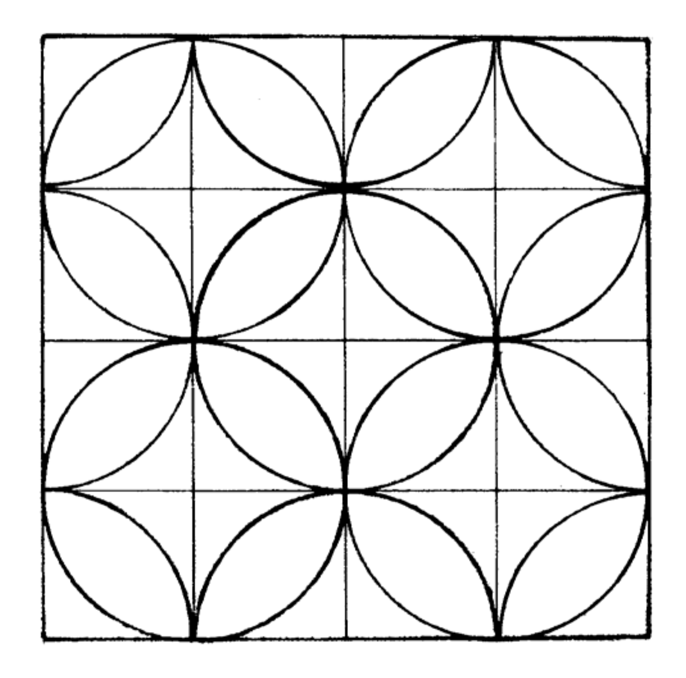
١ طرح ١/٢ = ١/٢

أخيراً وبعد أن تظهر بالرموز الحديثة، يمكن أن نعبر عن هذه العمليات بما يلي:

$$X^2 + X = 3/4$$
$$X^2 + X + (1/2)^2 = 3/4 + 1/4$$
$$(X + 1/2)^2 = 1$$
$$X + 1/2 = \sqrt{1} = 1$$
$$X = 1 - 1/2 = 1/2$$

ولكن عالم الرياضيات البابلي لم يهتم بقيمة (X) السالبة.

هناك لوح بابلي قديم يعالج بعض العلاقات الهندسية وهو يظهر في اللوحة ٢٣ ، ٢٤ ويقسم هذا النص إلى قسمين وكل منهما يتألف من شكل وتحته ملاحظة عن التركيب، وكان من الواضح أن يُطلب من الطالب أن يحسب مساحة الأشكال المختلفة المركبة، وهناك قسم يذكر ما يلي:



إذا كان هناك مربع ضلعه (١) وفي داخله ربعية أي قوس مقسم إلى تسعين درجة عددها أربعة و١٦ شكلاً قاربياً لقد رسمت شكلاً مربع الأضلاع ومربع الزوايا له جوانب مقعرة ما هي المساحة.؟

علم الفلك

نسبياً فإن أشخاصاً قلائل من الأوروبيين يعيشون خارج المدينة لما فيها من التلوث البيئي في الشوارع المضيئة وكلاهما عاملان يؤثران على صفاء المدينة ليلاً. إلا أن هذين العاملين لا وجود لهما في العراق حيث من الأمور المبهجة أن تجلس خارج المنزل بعد حلول الظلام لتستمع برطوبة المساء. وهكذا فإن السائح الأوروبي أو عالم الآثار

الـذي ينتقـل إلى العـراق وتتبـدل أسـاليب معيـشته، فإنـه يـرى الـسماء لـيلاً لأول مـرة ويـنـدهش لمـا يـرى وقـد عمـد كـثير مـن المـؤلفين الأوروبـيين إلى تـاليف الكتـب الـتي تصف بهـاء الليـالي والـسماء في بابـل وذلـك كمـا يـذكر أحـد العلمـاء الـدانماركيين كما يلي:

لقد أخبرنا السواح الحديثون بذلك المنظر الرائع الذي يظهـر أمـام العـين البـشرية عند رؤية مجاميع النجوم والكواكب في الليالي الجافة والباردة والصافية في منطقـة مـا بـين النهـرين ويمكـنني أن أؤكـد هـذه الروايات مـن فحوصـاتي الشخـصية فلقـد أجبرت تلك الإشارات الصامتة في السماء الناس على شدة الملاحظة منذ أقـدم الأزمنـة ولا شك أن الزقورات كانت مراصد نموذجية.

ويـشير (نيوجيـور) إلى أن هـذا اللمعـان الاسـتثنائي في الـسماء البابليـة مـا هـو إلا صور أكثر منه حقيقة واقعة وهـي نتيجـة قـد توصـل إليهـا المراقبـون بـشكـل مـستقل. فالاختلاف في الرأي هو أكثر من قضايا جماليـة وذلـك لأنـه يـؤثر علـى دقـة ملاحظـة البابليين لتلك الظواهر القريبة من الأفق وخصوصاً شروق وغروب الكـواكـب.

لقد كـان الاعتقاد الـسائد أن علم الفلك هو وليد علم التنجيم. ولكـن الـشواهد من منطقة بابل لا تؤيد هذا الـرأي. ولكـن بالتأكيد كـانـت بعض الملاحظـات تقـدم بعض النذر الطقوسـية ولكـن علينـا أن نفـرّق مـا بـين هـذه النـذر والنبـوءات وبـين علـم التنجـيم المؤسـس علـى المراسـلات مـا بـين الـسماء والأرض. ويقـسم علـم التنجـيم إلى قـسمين: إذ إن علـم التنجـيم يـستند إلى الحقيقـة الـتي مفادهـا أن أقـدار الإنـسان لهـا علاقة بمراكـز الأجـسام الـسماوية في لحظـة ولادتـه. وكـانـت هـذه الفرضية متـأخرة تعود إلى الألف الأول ق.م ولكـن قبل هذا وجدت هناك أصناف عامة من علم التنجيم وتدعى التنجيم الناتج عن قضاء إلهي المميز عن التنجيم الناتج عن خريطة الـروح الـتي كـانـت تتنبـأ لمستقبل الملـك والـبلاد بالنـسبة لقـضايا الحـصاد والطوفـان والغـزوات. وفيما يلي مثال عن علم التنجيم المتصل بالقضاء والقدر:

إذا وقعت الشمس في موقع القمر، فإن هذا يدل على أن الملك سوف يظل آمناً ومتسلطاً على عرشه أما إذا توضعت الشمس فوق أو أسفل القمر فإن أسس العرش ستظل آمنة ولسوف يبقى ملك البلاد محافظاً على العدالة. ولكن إذا لم يعد الشمس والقمر مرئيين فإن حكمة ملك البلاد سوف تزداد.

وفي الليل إذا اقترب كوكب زحل من القمر مع أن زحل هو نجم الشمس. تفسير هذا أن الملك سوف يظل في وضع مريح وذلك لأن الشمس هي نجمة الملك.

إذا صادف وسمع الرعد في شهر آب وأصبح النهار مظلماً. وهطلت الأمطار من السماء ولمع البرق عندها سوف يصب الماء بشكل مخيف. فإذا سمع الرعد في يوم مشمس لا غيوم فيه فسوف يسود الظلام في البلاد فإذا أمطرت السماء في شهر آب سوف تحدث مذبحة ويقتل فيها الناس. وإذا أتت العاصفة من الغرب فإن الناس سوف يقتلون في الغرب. فإذا سمع هزيم الرعد مرتين فإن البلاد التي كانت معادية لك سوف تصبح موالية وصديقة لك وتطلب السلام.

وقبل وجود تقارير من هذا النوع كانت تحدث تنبؤات تنجيمية وهي تعود إلى الألف الثاني ق.م وحتى إلى زمن الملك سرجون حسب رأي بعض الباحثين وقد جمعت هذه التنبؤات بشكل مجموعات تدعى إينوما آنو إنليل التي وصلت إلى شكلها النهائي في أواخر الألف الثاني أو أوائل الألف الأول ق.م ومن المحتمل أن ذلك قد تم في عهد الكاشيين وفيما يلي المقتطف التالي الذي يخدم كمثال:

إذا حدث خسوف للقمر في شهر صيوان وفي اليوم الرابع عشر من ذلك الشهر وإذا أظلم إله القمر في الجانب الشرقي من حجمه وكان مقيماً في الجانب الغربي، فإن رياحاً شمالية تهب في أول الليل وتتلاشى في منتصف الليل، فإن إله القمر الذي يظلم جزؤه الشرقي في الأعلى ويضيء جزؤه الغربي في الأسفل فإن هذا علامة موجهة إلى مدينة أور وملك أور ولسوف يرى ملك أور المجاعة ولسوف يكثر عدد الموتى. وأما بالنسبة لملك أور فإن ولده سوف يقوم ضده ولكن الإله شمس سوف

يمسك هـذا الابـن ولـسوف يمـوت جـزاء أعمالـه الفاسـقة ضـد والـده، وبعـدها سـوف يتولى العرش أحد أولاد الملك الذين لم تعلن أحقيتهم بالعرش.

وليس هناك أية شواهد في الوقت الحاضر تثبت اتخاذ الرصد الفلكي المنتظم في الألف الثالث ق.م لاسيما أن أقدم أمثلة مسجلة تمثل هذه الأرصاد وتعود إلى حكم آمي – صادوقا وهو أحد ملوك الأسرة الأولى في بابل. وفي السجلات تهتم بشروق وغروب الكوكب فينوس (الزهرة) وقد كانت تستخدم أساساً للتنبؤات مع أنها كانت تستخدم في إيجاد التقاديم وتثبيت علاقتها بالأعياد الدينية. هذا وإن وضع الزهرة وتحديداً في تواريخ معينة ربما كان يعود إلى الألف الثاني ق.م. وهكذا تصبح هذه الأرصاد البابلية للزهرة عائدة إلى سنوات معينة خلال حكم آني – صادوقا وتخدم كمفاتيح لعملية التأريخ القديمة ويُعقد الأمور الحقيقية التي مفادها أن الزهرة تكرر دورتها خلال فترة من السنوات بحيث تصبح نفس السنوات من الممكن أن تعود إلى سلسلة من التواريخ، بينما نجد أن الأرصاد البابلية نفسها ليست ذات نظام عالٍ من الدقة أي ليست دقيقة كما يجب.

وعدا عن تلك السجلات حول شروق وغروب الزهرة في دورانها حول الشمس، فإن أقدم وثائق فلكية وجدت في منطقة ما بين النهرين هي ما تدعى بالأسطرلاب. وهذه ألواح من الصلصال منقوشة بشكل ثلاث دوائر مركزية مقسومة إلى اثني عشر أنصاف أقطار، وهناك في كل من الأقسام الست والثلاثين التي تنتج أسماء كوكبه من النجوم مع بعض الأرقام، وليس من الواضح غرض هذه الأسطرلابات. ولكن من الواضح أنها كانت تشكل خريطة سماوية لها علاقة بأصل علم الأبراج. هذا وإن الأرقام المذكورة في الأسطرلاب متصلة بعضها ببعض في متوالية حسابية.

وفي النسخ التي تعود إلى حوالي ٧٠٠ق.م ولكنها مؤسسة على مواد أقدم لدينا نصان يدعيان أصول أبين Apin وفي هذين النصين نجد النجوم الثابتة مصنّفة في ثلاثة طرق تتألف من روايات وصفية لهذه المفاهيم الفلكية المنبثقة عن علم الأساطير.

وعند حلول عام ٧٠٠ق.م نجد لدينا تقارير منتظمة عن الأرصاد الفلكية المقدمة إلى البلاط والتي قد أشرنا إليها سابقاً. وكان الغرض الفعلي لهذه التقارير يعود إلى علم التنجيم الفضائي الإلهي، وهي لا تهمل أية معالجة رياضية للظواهر الفلكية فحسب، بل هي تفشل في التمييز ما بين الظواهر الفلكية وظواهر الأرصاد الجوية. ومع ذلك فإنها تظهر بالتأكيد أن من المعروف أن الكسوف الشمسي إنما يحدث في أول الشهر القمري والخسوف القمري إنما يحدث في منتصف الشهر القمري، عندما يكون القمر بدراً وهذا يدل على التسجيل المنتظم لمثل هذه الحوادث. ويتفق مع هذا التقرير الذي قدّمه الفلكي اليوناني بطليموس (الذي عاش في الإسكندرية في القرن الثاني الميلادي) والذي يذكر أنه كان متوفراً لديه التسجيلات المختصة بالخسوف والكسوف ابتداءً من عام ٧٤٧ق.م فصاعداً. وهكذا ومع أن الغرض الأصلي للأرصاد من هذا النوع كان غرضاً تنجيمياً، إلا أن مثل هذه الأرصاد المنتظمة ابتداءً من عام ٧٠٠ق.م فصاعداً إنما قدّمت مدلولات يمكننا أن نشتق منها بعض القيم الدقيقة نسبياً والتي تفسر مختلف الظواهر الموسمية. وبكلمة أخرى وعلى أساس مثل هذه السلسلة من الأرصاد الممتدة عبر القرون كان من الممكن حُسبان الحركات الظاهرية للشمس والقمر والكواكب. ويذكر نيوغيبور أن هذه المعرفة لم تتحوَّل إلى نظرية رياضية منتظمة قبل عام ٥٠٠ق.م وإن الأسس التي يعتمد عليها في وجهة النظر هذه هي أنه وابتداءً من عام ٤٨٠ق.م لم يكن هناك سوى زيادات وإقحامات عشوائية فحسب، ففي خلال التاريخ البابلي كان التقويم قمرياً حيث كان الشهر القمري يبدأ (كما هو الحال في السنة العبرية والإسلامية) عند غروب الشمس في المساء الذي يظهر فيه القمر الجديد بعد غروب الشمس بقليل. ويبلغ عدد أيام الأشهر القمرية ٣٥٤ يوماً تقريباً وهي تقل بقدر ١١,٢٥ يوماً عن السنة الشمسية. وهكذا كان هناك حاجة لإضافة شهر إضافي في كل ثلاث سنوات وذلك لكي تتوافق السنة القمرية مع السنة الشمسية. وفي القرن الرابع ق.م تمّ هذا العمل على أساس رياضي أضافوا سبعة إضافات وزيادات كل تسعة عشر عاماً. وكان النظام المتبع في الزيادات في الدورة المؤلفة من تسعة عشر عاماً كما يلي:

تمثل النجمة السنة التي تحتوي على شهر قابل للزيادة

١ ❖	٢	
٣ ❖	٤	٥
٦ ❖	٧	٨
٩ ❖	١٠	
١١	١٢	١٣
١٤ ❖	١٥	١٦
١٧ ❖	١٨	١٩

ففي العام الأول لهذه الدورة تحدث الزيادة في منتصف السنة وفي الحالات الأخرى تحدث في نهاية السنة. وبعد أن حلّوا مشكلة قيم مبدأ الظواهر الموسمية كانت الخطوة التالية المطبقة على القمر بصورة رئيسية هي اعتبار الحركات المعقدة للأجرام السماوية، أنها مؤلفة من عدد من التأثيرات الموسمية استعملت لاعتبار الانحرافات الموسمية كتصحيح للحركة في المعدّل الوسطي. وبكلمة أخرى إذا تحرك القمر والشمس بسرعة ثابتة فإنه من السهل حساب ومعرفة مراكزها النسبية في أي زمن، ومن ثم إن فصل في اللحظة التي يصبح فيها القمر بدراً. والحقيقة أن الحركة الظاهرية للقمر تختلف عن الحركة النموذجية أي المعدل الوسطي لتلك الحركة: ولهذا فقد سجلت مثل هذه الاختلافات ووجد أنها موافقة لاعتبارها ظاهرة موسمية تطبق بهذا الشكل مع المعدل الوسطي لحركات القمر. ويستنتج نيوغيبور Neogebour من تفاصيل الطريقة التي تتم بها هذه العملية في النصوص الفلكية التي اخترعها شخص واحد في القرن الرابع أو الثالث ق.م. والحقيقة أنها كانت موجودة في عام ٢٥٠ق.م فلم تُطبّق هذه الطريقة على حركات القمر فحسب، بل على حركات الكواكب. هذا وتوضح النصوص المسمارية من القرنين أو القرون الثلاثة ق.م، أن الطرق التي استعملها البابليون هي من أدق وأفضل المنجزات في العلوم القديمة إذا قورنت مع أعمال هيباراخوس وبطليموس، بينما كان لدى البابليين أدوات بدائية للأرصاد، إذ لم نتعرف على أي أثر يشير بوجود المنظار

الفلكي مع أنه قد وجدت عدسات من الصخور المتبلورة. وقد كانت الأرصاد الفردية تفتقر إلى الدقة، وهكذا فقد أصبحت المنجزات العالية الأهمية في علم الفلك عند البابليين كانت نتيجة تطبيق التقنيات الرياضية المتقدمة التي تطورت خلال ألف عام لتصبح نوعاً من الأرصادالبدائية. ولكنها كانت تقدم نتائج أكثر دقة من الأرصاد التي يقوم بها شخص واحد.

إن النصوص التي أشرنا إليها التي تحتوي على ألواح تشير إلى مراكز الشمس والقمر والكواكب المحسوبة بالنسبة لفترات زمنية منتظمة وتعرف باسم التقاويم الفلكية التي كانت غرضها الأساسي التنبؤ بالقمر الجديد، وبالخسوف والكسوف، وربما بشروق وغروب الكواكب. وهناك فضلاً عن التقاديم الفلكية النصوص الراهنة التي تعطي قواعد لحساب التقاويم الفلكية وهناك حوالي ثلاثمائة من النصوص من هذا النوع معروفة مئة واحدة منها من إيريش والباقي من بابل، وتمتد الفترات التي تغطي هذه الحسابات من حوالي عام ٢٣٠ ق.م حتى عام ٤٩م. وقد وجدت بعض هذه النصوص وبها اسم الناسخ وزمان النسخ ومكانه. وهذا يظهر أن الألواح قد كتبت في تاريخ قريب من بداية الفترة التي غطتها الحسابات، وهكذا فإن أحدث النصوص من هذا النوع والتي تنتهي فيها فترة الستة وخمسين عاماً المغطاة في عام ٤٩م. قد كانت قد كتبت في العقد الأول ق.م. وقد كانت إحدى النصوص المسمارية المعروفة تعود إلى عام ٧٥م.

وأخيراً ربما نشير أنه وحتى في أحدث الفترات عهداً كانت أغراض النصوص علمية أما الحسابات المذكورة فقد كانت تشمل بعض النتائج الدينية والسحرية. وهذا ما تذكره بعض المخطوطات كالآتي: **لقد كتبها إكراماً لحياته ولطول أيامه ولمصلحة إحضاره ولكي لا يقع في الحظ السيئ.**

الطب

وفي العراق وقبل ثورة عام ١٩٥٨ كانت بغداد تحتوي على حوالي خمس السكان في البلاد وحوالي ثلاثة أرباع الأطباء، ولكن الوضع الآن لا يختلف عما

كان عنه زمن بابل القديمة وهناك ومع أنه كان هناك عدد من الأطباء فعلاً إلا أن توفر عدد الأطباء لم يمنع هيرودوتس في القرن الخامس ق.م من أن يضلل عندما كتب ما يلي حول البابليين:

هم يجلبون جميع مرضاهم إلى الشوارع نظراً لأنه لم يكن لديهم أطباء منتظمون وكان المارون في الشوارع يقدمون النصيحة للرجل المريض إما من معلوماتهم الخاصة أو من شخص آخر قد شفي بطريقة ما ولا يتركون أحداً يمر في الطريق دون أن يسألوه عن الأمراض.

والحقيقة أنه وفي نهاية الألف الثالث كان هناك أشخاص يمارسون الطب ويستعملون طرقاً من الغش في شفاء المرض، كانت تقليدية. وكانت كلمة (آسو) باللغة الأكادية مشتقة من الكلمة السومرية آ – زو أو إيد – زو التي تعني الرجل الذي يعرف الماء أو الزيت. وكانت بعض التضمينات تدل أصلاً أن الرجل الذي كان يتنبأ عن طريق الماء وذلك بمساعدة إله الماء (أيا) ولقد كان الطب تحت حماية الإلهة غولا وكان هناك إله يدعى نيجيزيدا Niggizida وكان رمزه العصا التي يلتف عليها الثعابين والتي أصبحت تستعمل رمزاً لمهنة الصيدلة في الوقت الحاضر. وتشير القوانين القديمة إلى الأشخاص الذين كانوا يمارسون الطب وعلى مظاهر مهنة الطب والرسائل والنصوص الأخرى بينما تظهر النصوص السحرية والتنبؤات مملوءة بالإشارات للأمراض. وتأتي معرفتنا الرئيسية عن الطب البابلي من ذلك العدد الكبير من النصوص الطبيعية الموجودة الآن ومعظمها يعود إلى القرن السابع من مكتبة آشور بانيبال في نينوى (كيونيجيك) ولكن هناك نصوصاً أقدم قد وجدت في آشور من المحفوظات التي تعود إلى القرن الثالث عشر في بوغازكوي بشكل ترجمات حثية ومن الفترة الكاشية، وقد وجد أحد الأمثلة السومرية للوصفات الطبية في فترة السلالة الأولى في أور.

هناك فئتان رئيسيتان من النصوص التي من الممكن للإنسان أن يدعوها طبية وفي إحدى هذه الفئات هناك وصف للأعراض أي أعراض المرض وفي الفئة الأخرى هناك قائمة من الوصفات الخاصة بشكاوى مرضية مختلفة، وهاتان الفئتان ليستا

منفصلتين تماماً ومن الممكن أن يرى المرء وصفات طبية في النصوص التشخيصية أو أن يجد تشخيصاً ما بين الوصفات.

وتلقى الألواح التي تقدم التشخيصات اهتماماً خاصاً نظراً لأنها تلقي الضوء على الأفكار الرئيسية خلف النظريات الطبية بالنسبة لبابل القديمة وهي تؤكد كما يستطيع المرء أن يستنتجه من النصوص السحرية والدينية أن الأمراض كانت مسببة إما عن تدخل الآلهة أو الإصابة المباشرة من قبل أحد الشياطين. وبموجب وجهة النظر هذه كان الرجل المريض يعالج إما عن طريق الأدوية التقليدية أو ربما عن طريق الجراحة لإزالة أعراض المرض، أو عن طريق بعض الإجراءات السحرية لطرد نفوذ وتأثير الأرواح الشريرة المزعومة.

لقد قام العالم الفرنسي ر. لابات R. Labat بنشر النصوص المتعلقة بأعراض الأمراض وعلاجها. ولا تعرف هذه النصوص من عدد المدن البابلية والآشورية التي وجدت فيها فحسب، بل حتى من منطقة مملكة الحثيين. ومن الممكن أن ندعو تواريخ النسخ الموجودة الآن أنها قانونية ومقبولة وتتراوح ما بين عام ٧٢١ق.م وعام ٤٥٣ق.م مع أن هناك ثلاثة نصوص لا تنتمي إلى التقاليد الخاصة الرئيسية الأقدم عهداً ويمكن للمرء أن يفترض أن هذه النصوص تعود إلى الفترة الكاشية ولكن لم يثبت ذلك بعد.

والعمل الذي نحن بصدده يحتوي على نحو أربعين فصلاً وهو مقسَّم إلى خمسة أجزاء وسوف نعالج مضامين هذه الأجزاء فيما يلي، ولسوف نذكر بعض المقتطفات من كل منها.

إن الجزء الأول الذي يتألف من لوحين أو فصلين لا علاقة له بالطب أبداً مع أن الكتبة القدماء قد اعتبروه جزءاً من السلسلة وهو يحتوي على نصوص من التنبؤات التي تحتوي تفسير العلاقات التي تظهر في الوقت الذي يتوجه فيه الطبيب إلى بيت المريض.

إذا كان باب بيت الشخص المضيف للمريض يصرّ وتصدر منه أصوات كأصوات زئير الأسد ، فإن هذا المريض قد تجاوز حدود الممنوعات من قبل الإله ولسوف يستمر في المرض ثم يموت.

إذا رأى المعالج كلباً أسود أو خنزيراً أسود فإن المريض سوف يموت

إذا رأى المعالج خنزيراً أبيض فإن المريض سوف يعيش

إذا رأى المعالج بعض الخنازير التي أذنابها إلى الأعلى فإن المريض سوف لا يعاوده القلق

إذا زعق غراب بشكل محزن خلف أي رجل فإن خصم هذا الرجل سوف يذرف الدموع

إذا سقط ثعبان فوق فراش المريض فإن هذا المريض سوف يشفى ويصبح في صحة جيدة.

أما الجزء الثاني فهو يحتوي على اثني عشر لوحاً وهو يعالج قضايا الأعراض المشاهدة في الجسم وقد جمعت هذه القضايا طبقاً لأعضاء الجسم المختلفة. وهذه الألواح تهتم بالأعراض وليس بالمرض.

إذا استمر المريض بالصياح قائلاً: يا رأسي، يا رأسي، فإن هذا المرض من عمل الإله.

إذا شعر المريض بألم في رأسه أو في الجانب الأيمن من الرأس فإن هذا من فعل الإله أداد.

إذا ضرب المريض على رأسه وأخذ بالسعال مع نزيف دم فإن هذا من فعل التوأمين ولسوف يموت المريض.

إذا شعر المريض بألم في رأسه وفي عضلاته وحاجبيه ويديه ورجليه وأصبحت يداه ورجلاه حمراء اللون وحارقة فإن هذا من فعل الإله ولسوف يعيش المريض.

إذا ظهرت بعض البثور الحمراء ابتداءً من رأس المريض حتى قدميه وأصبح جسمه أبيض اللون فإن امرأة قد هاجمته وهو في فراشه وهذا من فعل الإله سن.

إذا ظهرت بعض البثور السوداء ابتداءً من رأس المريض حتى قدميه وأصبح جسمه أحمر اللون، فإن ذلك من فعل الإله شمش.

إذا شعر المريض بانتفاخ بسيط في ناحية الصدغين وأصبحت أذناه عاجزتين عن السمع فإن أيدي الإله قد تسلطت عليه ولسوف يموت.

إذا أصبح جبين المريض أبيض اللون وكذلك لسانه فإن مرضه سوف يدوم طويلاً ولسوف يشفى.

إذا ارتجفت يدا المريض ورجلاه فإن هذا من فعل الإله سن وسوف يموت المريض.

إذا شعر المريض بطنين في أذنه اليمنى فإن مرضه خطر ولكنه سوف يعيش. أما إذا طنت أذنه اليسرى فإنه سوف يصاب بالعطن، فإذا طنت كلتا أذنيه فإنه سوف يموت.

إذا أصبح وجه المريض أبيض مختلطاً بالأخضر. وامتلأ فمه وشفتاه بالقروح وارتجفت عينه اليسرى فإنه سوف يموت.

إذا ظلت رقبته متجهة إلى اليسار ومدّ يديه وقدميه وجحظت عيناه وسال اللعاب من فمه وأصدر صوت حشرجة فإنه يصاب بإغماء ورجفان فإنه مصاب بالصرع وهو تحت رحمة الإله سن.

إذا ارتجفت عنقه وظل رأسه مترنحاً وظلت يداه وقدماه منتفختين وظل يفرك يديه وقدميه على الأرض فإن الشيطان (هاندميد) من ليلو قد تلبس به.

ويستمر الكتيب بهذه النغمة ذاكراً أعراض الحنجرة والبلعوم والذراعين واليدين والأصابع والصدر والأثداء والعانة والظهر والبطن والأوراك والشرج والقضيب والبول والخصيتين والأفخاذ والقدمين وأجزاء الجسم الأخرى هكذا.

إذا سال الدم من قضيب المريض فإن هذا من فعل الإله شمش وهي إشارة إلى أنه سوف يذهب إلى الأرض التي لا رجوع منها.

إذا التهب قضيب الرجل وخصيتاه فإن يدي الإلهة ديلبات (فينوس) قد أصابته وهو في فراشه.

إذا التهبت خصيتا الرجل وتغطى قضيبه بالبثور والقرح، فإنه قد أصبح تحت رحمة الكاهنة العظمى لإلهه.

أما الجزء الثالث (وهو يحتوي على عشرة ألواح) فإن التكهنات قد جمعت طبقاً لتقدم مرضه من يوم لآخر وفي نهاية هذا الجزء تذكر مجموعات الأعراض بالنسبة لأمراض خاصة.

وإذا ظل المريض مدة ثلاثة أيام وهو في حالة المرض فإنه سوف ينهض ليلاً ويشعر بالراحة وزوال المرض، فإذا ظل المرض مدة أيام وأصبح الدم سائلاً من فمه في اليوم السادس فإنه سوف يرتاح من مرضه في اليوم السادس وهنا المرض يسمى حُمّى سيتو.

إذا ظل المرض مدة خمسة أيام وأصبح لون جلده أصفر وامتلأت عيناه بالدم فإنه سوف يموت.

إذا استمر المرض مدة خمسة أو عشرة أيام وأصبح يعاني صعوبة بالتنفس فإنه سوف يموت.

إذا استمر المرض خمسة أو عشرة أو خمسة عشر يوماً وظلت أصابعه ويداه منكمشة ولم يستطع فتح فمه، فإن هذا من فعل الإلهة عشتار، ولكنها سوف تطلق سراحه وسوف يعيش.

إذا أصبح جسم المريض بارداً فإنه مرضه سوف يطول وسوف يموت.

إذا بدأ المرض في الصباح وتوقف بعد الظهر وعاد بعد ذلك بسرعة فإنه سوف يشفى.

وهناك مثال من نوع هذا النص في نهاية الجزء الثالث توصف فيه بعض متلازمات المرض يمكن أن يُلاحظ ما يلي: إذا أصبح جسم المريض أصفر ووجهه أخضر وعيناه صفراوين فإن مرضه هو اليرقان، إذا نزل به الحزن وأصبحت حنجرته

جافة ولا يطيق بلع الطعام ويقول آه يا قلبي، ويستمر بالتنهد فإنه مصاب بمرض الحب وهذا المرض مشترك بين الرجال والنساء.

أما القسم الرابع من هذا العمل وهو مؤلف من عشرة ألواح فقد أصابه عطب شديد، ولكن الألواح السليمة تذكر أعراض ما يلي من المتلازمات:

إذا انتابه نوم مفاجئ وأصبحت أطرافه غير متوازنة وأصبحت أذناه تطنان ولم يستطع الكلام فإن هذا من فعل شيطان خبيث، وإذا سقط على الأرض بعد الاغتسال في النهر فإن شيطان النهر قد ضربه.

وإذا أصابه الحزن وأصبح يشتهي كل شيء يراه وإذا شعر بالتعرُّق يومياً وشعر بالغضب والرغبة بالتملك أي تملك الأشياء وأخذ يسعل ويشكو حتى يجلبوا له ما يريد وعندما يجلبون له ما يريد يراه ولكنه لا يفهم شيئاً، فإن هذا من فعل الشبح الذي ضربه وهو في الماء.

وفي القسم الأخير المؤلف من ستة ألواح مهتم بالنساء والأطفال الصغار كما يلي: **إذا أصبح وجه وجبهة الأم الحامل بيضاء، فإنها سوف تلد بنتاً وسوف تصبح غنية أما إذا أصبحت جبهتها حمراء، فإنه سوف تلد ولداً ذكراً ولكنه سوف يموت.**

إذا أصبحت اطراف المرأة الحامل صفراء فإنها سوف تجهض. إذا تمدد فرج المرأة الحامل فإنه سوف تلد ولداً أصمّ. إذا تمدد فرج الحامل إلى الجهة اليمين من المعدة فإنها سوف تلد ولداً ذكراً. إذا استمرت المرأة الحامل بالتقيؤ فإنها سوف لا يتم حملها بشكل طبيعي.

وتخبرنا التكهنات الأقدم عن ولادة التوائم وبعض التفاصيل حول صحة المرأة الحامل وطفلها، وهناك فقرات تذكر الاتصال الجنسي أثناء مدة الحمل. مثلاً الاتصال الجنسي ما بين الشهر الخامس من الحمل وثلاثة أيام وما بين الشهر الخامس من الحمل وعشرة أيام فإن العملية ناجحة ما عدا الاتصال بعد خمسة أشهر من الحمل وثمانية أيام أو تسعة أيام عندها سوف يتسلط على المرأة الماميتو، وهذا

يعني اللعنة أو يعني بعض الأمراض الخاصة أو أنها سوف تموت. والقسم الأخير من هذا الجزء يختص بالأطفال.

إذا استلم الطفل الثدي ولم يشبع وبدأ بالصراخ فهذا يدل على فتق في البطن، إذا التهبت معدة الطفل وامتنع عن تناول الثدي فإن ساحرة قد تسلطت على هذا الطفل. ولسوف نفهم من هذه النصوص التشخيصية والتكهنات أنه بينما نرى بعض الفقرات معقولة. وتقدم بعض الخرافات المجردة فإن المقارنة العامة لهذه النصوص كانت مجرد خرافات، غامضة بالإضافة إلى الملاحظة الدقيقة، ومن الشائع كما رأينا في الفصل المختص بالديانة وجود عدد من الخرافات المكتظة. مثلاً يطلب الكاهن من المريض أن ينزع قلب الخروف الصغير ويمسك بالقلب الذي لم يزل يتحرك ويضعه في يد الرجل المريض في الوقت الذي تتلى به بعض التعاويذ.

وهناك في بعض التعاويذ ثلاثة أمور هامة وهي (١) ملاحظة حول أعراض المرض (٢) قائمة بالمواد الصيدلانية (٣) تعليمات حول إعداد وتطبيق استعمال الدواء. ويظهر من النصوص السومرية عدم وجود العنصر الأول. وقد صنفت الخمس عشرة وصفة الموجودة في اللوح طبقاً لكيفية التعامل مع الدواء. وكانت المعالجة تتمحور حول الآتية:

الكمادات - الجرعات – الاستحمام

وفي الجزء الثالث من الوصفات يؤمر القارئ بتناول عدة مواد طبية وتشمل التين الجاف ونوعاً من أنواع الأملاح.

هذا وإن القسم الأعظم من النصوص تهم إصابات المعدة. مثلاً: **إذا أصبحت معدة الإنسان حارة ولم يعد باستطاعته تناول الطعام أو الشراب فإن ولي أمره ينبغي أن يأخذ بدوره الطرفاء ويمزجها بالعسل واللبن الرائب ويأكل منها وبذلك يشفى.** هذا وقد استعملت الحقن الشرجية في الفترة الآشورية الجديدة (حوالي ٦١٢ق.م) وفي وصفة أخرى كانوا يمزجون أربعة وعشرين عقاراً (معظمها من الخشب أو الراتنج وكانوا يمزجونها مع البيرة ثم تغلى وتصفى وبعدها يضاف إليها العسل والزيت

الصافي وبعدها... وعندما تكون لا تزال دافئة تصب في داخل الشرج وبعدها يفرغ المريض أمعاءه ثم يشفى.

وهناك مجموعة أخرى من الألواح تعالج متاعب الرئتين والصدر:

إذا أصيب رجل بالسعال فعليك أن تطحن الميعة الجامدة (وهي مادة صمغية ناشفة) وتخلطها بالبيرة والعسل والزيت الصافي. ويتناولها المريض عن طريق الشراب وبعد ذلك يطلب منه أن يتقيأ عن طريق وضع ريشة في فمه وبعدها يأكل مزيجاً من العسل وخثارة اللبن ثم يشرب نبيذاً حلواً وبعدها سوف يشفى.

وقد استعملت طريقة التبخير.

حضر وعاءً كبيراً وضع في جانبه عجينة من طحين القمح ثم تغلي عدداً من المواد الخضارية مع الزيت والبيرة واللبن الرائب على نارٍ حامية ثم تضع فمه في الوعاء ويطلب من المريض أن يسحب البخار بحيث يمس شغاف رئتيه فإنه سوف يشفى.

هذا ولم يكن لدى البابليين معرفة بعلم التشريح أو الفسيولوجيا ولم يعرفوا وظائف الأعضاء الداخلية في الجسم التي كانوا يعتبرونها مراكز للعواطف المختلفة مثلاً كانت الأذن مركزاً للفهم والقلب مركزاً للذكاء.

وفي مثل هذه الأحوال لا ينتظر الإنسان وجود مرحلة من الجراحة المتقدمة مع أن كان هناك جراحون من نوعٍ ما وذلك من زمن حمورابي الذي حدد أجور الجراحين في شريعته وحدد العقاب المفروض على الجراح في حالة فشله.

ولم تكن مهنة الجراحة سهلة أي بدون مخاطر فإذا سبب الجراح موت مريضه أو أصابه بالعمى كانت يد الجراح تقطع.

وهناك نصان أو ثلاثة نصوص مكسرة ربما كان فيها الإشارة إلى العمليات الجراحية وأمراض العين ربما الكاتاراكت.

التقنيات الكيماوية

لقد كانت المعرفة التقنية شأنها شأن النصوص والطقوس الدينية سراً من أسرار يحتفظون به ويجد المرء في إحدى الشروح بعض التعليمات الآتية:

ينبغي على الرجل العالم أن يظهر معرفته لرجل عالم أما غير العالم فلا ينبغي أن يعرف شيئاً. فالمعرفة تخص الأشياء الممنوعة التي يتميز بها الآلهة العظام ولهذا فلم تكتب شيء عن هذه التقنيات، بينما كانت بعض التقنيات الأخرى تكتب بشكل غامض لم يستطع المستكشفون الحديثون تفسيره في الوقت الحاضر.

وقد وجدت بعض آلات التقطير التي تتألف من قدور من الصلصال ذات حواشٍ مزدوجة تعود إلى عام ٣٠٠٠ق.م. وكان هناك وعاء ملحق وبه ثقب يستخدم لتصريف السوائل في الحافة الداخلية وقد اعتبره العالم ليفي Levy بأنه وعاء للتقطير، فقد كانت المواد الخام توضع ما بين الحافتين وقد وضع غطاء فوق الإناء وكانت بعض المواد المذيبة (مثل الماء أو الزيت) تغلى وهي في أسفل القدر وبعدها يتكاثف البخار على الغطاء ويجري فوق المواد الخام ويستخلص المواد المطلوبة ثم يتساقط إلى الأسفل بشكل قطرات، وكان المبدأ يشبه عملية صنع القهوة.

وقد استعملوا عدة أنواع من الأفران لتحسين المواد الكيماوية، ويقال إن عود الثقاب المصنوع من الكبريت كان معروفاً فهناك نص نقرؤه بالشكل التالي:

سوف تشعل الجمرة (أو عود الثقاب) بواسطة نار من الكبريت.

وقد استطاع الآشوريون في الألف الأول ق.م إنتاج حامض الكبريت الذي ينتج بخاراً وربما استطاعوا إنتاج الأكواريغا (مزيج من حامض النتريك وحامض الهايدروكلوريك) وقد استعملوا العمليات الأخيرة في استخدام الذهب لإعطاء اللون الأحمر على الزجاج ولكي يتمموا هذا العمل كانوا يذيبون الذهب بمادة الأكواريغا (وهو مزيج من حامض النتريك وحامض الهايدروكلوريك).

وهناك قضية دبغ الجلود التي تعود إلى الألف الثالث ق.م فقد كانت الجلود تنقع أولاً في الماء أو المحلول من الملح وبعدها كانت تكشط لإزالة اللحم الزائد والشعر والشحوم وبعدها تستحم الجلود بروث الحيوانات وذلك لتحسين بُنية الجلود. وقد كانت عملية الدبغ تتم بنقع الجلود في محلول من الشب ومستخرج من العفص وكان كلا الشب والعفص من المواد التجارية الرائجة في منطقة البحر الأبيض المتوسط.

وكان الجلد المدبوغ يتعرض لعملية الصباغ وكانت عملية الصباغ تتم بالنسبة للصوف ابتداءً من الألف الثالث ق.م.

وابتداءً من عام ٢٠٠٠ ق.م عُرف الصابون المحضر من زيوت الخضار والقلي الذي كان يخفف بإضافة الكبريت، والراتنج الذي كان معروفاً ابتداءً من عام ٢٠٠٠ق.م.

الفنون

الفنون في منطقة ما بين النهرين هي إحدى التظاهرات الفعلية التي نستطيع من خلالها اكتساب بعض التنوير بالنسبة للحضارة في منطقة ما بين النهرين، وفوق ذلك بالنسبة للديانة وربما كانت الأختام الأسطوانية أكثر هذه الفنون انتشاراً وتعود إلى فترة أوروك الخامسة وتستمر حتى النصف الثاني من الألف الأول ق.م، عندما استبدلت الأختام الأسطوانية بالأختام العادية، هذا وكان النحت يتمثل بالنقوش النافرة ثم تأتي العجول المجنحة ذات الرؤوس البشرية. ولقد حفظ لنا الحظ كميات كبيرة من العاج المحفور. وهناك فئات أخرى تتمثل بالآجر المزين بصور وزينات حسنة أو المخاريط الصلصالية الملونة والمطوّقة بإحكام بالجص والأعمال المعدنية كالمجوهرات. وقد وجدت لوحات زيتية جميلة مرسومة على جدران مطلية بالجص. ولم يُعرف عن وجود السجاد في منطقة ما بين النهرين القديمة.

ومن خلال الألفين والخمسمائة عام التي هي مجال بحثنا نجد أن جميع الأعمال الفنية كانت مجهولة وغير مسمّاة بالنسبة لصانعها فقد كانت الفنون جميعها تقوم بخدمة الديانة فقد كانت القطعة الفنية تُقدم لإرضاء الإله واجتناب ضرر الشياطين.

وكانت الحِرَف تحتل مكاناً مرموقاً وفي حالة الأختام الأسطوانية التي كانت تصنع بشكل جماعي بينما تدل بعض المنحوتات والأبنية على ذوق فني. وإن صانعيها كانوا فنانين مَهَرة.

إن أقدم الفنون المعروفة لدينا في تلك المنطقة هي الفخار المزين من فترة حسونة وسمارة وحلف وحاجي محمد وأريدو وعبيد. وكانت معظم هذه التصاميم الفنية ذات جمال عظيم حتى بالنسبة للناقد الحديث.

وكانت هناك وسائل تزين الأعمدة والجدران فقد كانت هذه الأعمدة والجدران تطلى بالجص والصلصال المبلل بالماء حيث توضع مخاريط من الصلصال المشوي طول الواحد منها حوالي أربع إنشات وكانت هذه تطمس في أصبغة مختلفة بحيث تظهر قممها المنبسطة سوداء اللون أو حمراء وكانت تظهر نماذج ملونة على الجدران ناشئة عن ترتيبات مناسبة مما يعطي تأثيرات في الزينة والبهاء كما أنها تشكل غطاء يحتمل عاديات الزمان.

وهناك فنون النحت التي وجدت من الفترة الأولى الفنية وكان الفن مرتبطاً بجدران المعبد بشكل حيوانات منحوتة في الحجر بقصد إلصاقها بتلك الجدران بواسطة أسلاك وكانت تلصق بعض الرؤوس البشرية بالجدران وكان بعضها رؤوس آلهة.

وقد عرفت المسلات ابتداءً من أوائل فترة السلالات وأهم الأمثلة عليها هي مسلة إينانتوم في لاغاس والتي تدعى عادة بمسلة الطيور الجارحة ويُظهر هذا النصب التذكاري الذي قد تطرق إليه الغناء وهو موجود في متحف اللوفر مناظر من معركة حدثت ما بين مدينة لاغاس ومدينة أوما وهنا يرى المتفرج الكتائب المتراصة من الجنود يقودها الملك ويرى الطيور الجارحة وهي تلتهم الموتى.

وهناك شكل فني آخر هو التطعيم وهناك لوح حربي ولوح سلمي مرصعان ومطعمان ويمثلان معركة وحفلة النصر التي تبعث المعركة، وفي اللوح الحربي تتمثل المعركة بأساليب الكرتون في مراحل متتالية، وينبغي قراءة اللوح من الأسفل إلى الأعلى ويظهر القسم الأسفل من اليسار إلى اليمين عربة حربية تجرها حيوانات الجر. وبعدها تشاهد الحيوانات وهي تمشي بشكل قفزات بينما سليم الفايس أحد رجال العربة رمحاً قصيراً يستعمل للعمل الحربي. وفي القسم الثالث يظهر قائد العربة وقد انتهت المعركة. وقد كان عدد الضحايا هائلاً ونرى حيوانات الجر في حركة دائمة. وفي القسم الرابع نرى رجال العربة وقد اشرفوا على استهلاك رماح أخرى ويظهر في الصورة الوسطى أسرى الحرب وهم واقفون امام حاكم المدينة، وقد كانوا أكبر حجماً من أي من الجنود الحاضرين.

وكانت المسلات معروفة منذ فترة أغادي ولكن وفي زمن نارام سن أصبحت الصور المتعددة صورة واحدة طلباً للوحدة الفنية. وهناك مثال وهو المسلة المحفورة في صخرة عالية في أحد الممرات بين الجبال بينما هناك مسلة أخرى تسمى مسلة النصر. وهي موجودة في متحف اللوفر وهنا يرى المحاربون يصعدون جبلاً لمطاردة الأعداء، وقد ظهر نارام سن وهو يلبس لباس الرأس المخصص للإله.

وهناك في خلال فترة إيسين لارسا نجد إنتاجاً بالجملة لبعض التماثيل الصلصالية وبعض النقوش النافرة على الألواح. ويأتي من آشور وماري وبعض المدن الأخرى عدد من التماثيل لعدد من الحكام المحليين أو الآلهة.

وعدا عن الأختام الأسطوانية الموجودة في جميع الأمكنة، هناك الكودوروس وهي الحدود التي تتمثل ببعض الحجارة التي تظهر اقطاع الأراضي وحدود الحقول وكان الحجر غير منتظم الشكل وارتفاعه حوالي قدم أو قدمين وهو يحمل رموز الآلهة التي وضعت تحت حمايتها تلك الأراضي أو الإقطاعات. وهناك الأنصاب المنحوتة بشكل نقوش نافرة ولكن الأمثلة الأكثر تأثيراً هي التي أتت من منحوتات الألف الأول ق.م. ولكن الفترة العظمى كانت واقعة ضمن حكم آشور ناصر بعل (وهو مؤسس العاصمة كالخ) وشلمناصر الثالث أي الفترة ما بين ٨٨٣-٨٢٤ق.م.

وخلال الألف الأول أصبح فن الحفر الآشوري أقل أهمية فنياً حيث التماثيل التي تمثل الآلهة تظهر فيها المهابة والكرامة ولكنها تفتقر إلى الحياة.

وإن التماثيل التي يعتبرها معظم الناس من مميزات الفن الآشوري هي الثيران ذات الرؤوس البشرية والمجنحة، والأسود المحفورة على ألواح من الصخور يبلغ وزنها عدة أطنان وقد صممت لحماية بوابات القصور الملكية.

إن أعظم المنجزات في الفترة الآشورية المتأخرة هي النقوش النافرة التي استحدثت في مستهل الألف الثالث ق.م. وقد اضيف إليها وجود المسلات المنفردة التي لا تزال في حكم المستعملة لتمثيل بعض الأعمال الطقوسية الخاصة بالمفاهيم الأسطورية. وبعض هذه النقوش النافرة جميلة ومؤثرة.

إن المناظر التي تمثلها النقوش النافرة نوعان فهي تظهر حوادث حدثت خلال الحملات العسكرية أو مناظر الصيد، حيث يرى الملك وهو يذبح الطرائد، وهناك آثار من الألوان لإظهار صورة الملك ورجال البلاط وهي لا تزال ماثلة للعيان.

وفي هذه النقوش النافرة نجد البراعة في تصوير الحيوانات، ففي الإفريز الذي يحتوي على صيد الخيول البرية تبدو الخيول وكأنها في حركة حقيقية، بينما نجد الأسد المحتضر واللبوة في مشهد صيد الأسود المشهور والموجود في المتحف البريطاني هي من بين الأمثلة الحية للنحت في جميع العصور.

وهناك مظهر آخر من مظاهر الفن الآشوري، كان له وقع استحسان لدى الذوق الحديث وهو النحت على العاج. وكانت المنحوتات العاجية تطعم بالذهب وتستخدم لتزيين المفروشات، وقد قيل إن الملك سليمان كان يملك عرشاً مطعّماً بالذهب بينما يقال إن آهاب قد بنى بيتاً من العاج وكان الحرفيون الحقيقيون في كل من فلسطين وآشور هم سوريون. وعندما نُهِبت القصور الملكية في كالخ فقد عُريت الألواح العاجية ونزع ما عليها من الزينة وذلك للحصول على الذهب الذي كان مطعّماً بالعاج.

ولقد كوّم العاج ووضع فوق نار ملتهبة تعمل على الاحتفاظ بالعاج سليماً دون إتلافه وهكذا وجد الأستاذ مالوين العاج المنحوت الذي استخلص بكميات كبيرة عند إجراء تلك الحفريات التي أدارها الأستاذ مالوين المذكور.

وبالنسبة للرسوم الزيتية فلا نستطيع الإسهاب مع أنه وفي معظم الأبنية القديمة فإن الجدران المطلية بالجص أصبحت مغطاة بالصور الجدارية وبعد انهيار الأبنية التي تحمل الأعمال الفنية من هذا النوع فإن هناك فرصاً ضئيلة جداً لبقائها صالحة في الأرض الرطبة، ولكن ولحسن الحظ لقد بقي البعض منها في حالة حسنة، وإن أقدم الأمثلة المعروفة هو معبد تل عقير الذي ينتمي إلى الفترة الأدبية الأصلية، ولم توجد لوحات زيتية على مقياس واسع حتى أوائل الألف الثاني ق.م. وفي قصر الملوك في ماري وجد عدد من التماثيل الصغيرة من هذا النوع فهي تؤلف تصاميم فنية تقليدية ومناظر حربية ومناظر طقوسية، نجد فيها أحد الكهنة أو الملك يقود عجلاً مُعدّاً للذبح كأضحية وكذلك مشاهد خرافية.

ولقد استعملت المعادن من المواد التي من الممكن صهرها واستعمالها مرة ثانية، ويستطيع المرء أن يعود إلى النصوص التاريخية للملوك الآشوريين وهذه النصوص تذكر نهب كميات كبيرة من الأدوات المعدنية بما فيها الأواني المعدنية والمفروشات.

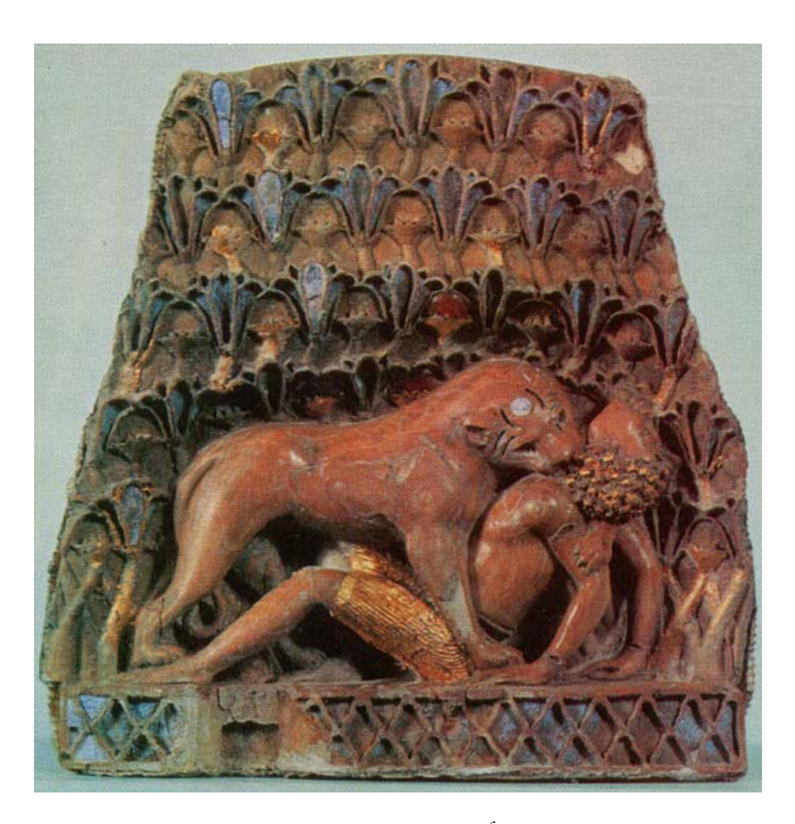
لقد عرفت التماثيل المصنوعة من النحاس أو البرونز اعتباراً من فترة الأسرة الثانية فصاعداً. وإن أكثر الأنواع شيوعاً تمثل شخصاً بشرياً أو إلهياً واقفاً على منصة أو مستنداً إلى نوع من الحاملات مما يشكل نوعاً من المنصات الطقوسية المستعملة في خدمة الآلهة ولقد وُجد قدم من النحاس ربما كان يخص تمثالاً بحجم إنسان طبيعي.

ويشير فرانكفورت إلى أن التماثيل المصنوعة من الحجر وتلك المصنوعة من المعدن مستقلان بعضهما عن بعض، وبينما نجد أنه وبالنسبة للأعمال المعدنية في منطقة ما بين النهرين فقد تمتعت هذه الصناعة باحترام وتقدير عظيمين مما أثر على

طراز الأعمال المصنوعة من الحجر وذلك بفرض بعض التقنيات التي لم تكن مناسبة للأعمال الحجرية.

إنه وفي فترة أسرة أغادي لقد ظهرت وخُلقت أروع الأمثلة للأعمال المعدنية في منطقة ما بين النهرين. وهناك تمثال رأس من البرونز (انظر اللوحة ١٤) يقال إنه يمثل رأس سرجون ملك أغادي ويبلغ حجم هذا الرأس ثلاثة أرباع حجم الرأس الطبيعي ويتصف بالوقار والنشاط الذي لم يسبق له مثيل في جمع الأمثلة الواردة من منطقة ما بين النهرين.

وتعرف الأعمال المعدنية من الأواني والأوزان بشكل حيوانات (انظر اللوحة ٥٨ب) والأشرطة البرونزية الموجودة على أبواب القصور.



عاج منقوش مزين بالذهب والأحجار الثمينة ، من موقع نمرود (القرن الثامن قبل الميلاد)

الفصل الرابع عشر

التراث والبقاء

إن أعظم فائدة للسفر هي رؤية سواحل البحر الأبيض المتوسط، فلقد نشأت حول هذه السواحل أربع إمبراطوريات ظهرت في العالم. وهي الإمبراطورية الآشورية والفارسية واليونانية والرومانية، فلقد أتت لنا جميع دياناتنا وجميع شرائعنا تقريباً وجميع فنوننا وكل ما يضعنا في مرتبة حضارية تعلو على الوحوش، كل هذه قد أتت من منطقة البحر الأبيض المتوسط.

بوزويل – حياة جونسون الخميس ١١ نيسان ١٧٧٦.

لقد كان هناك حين من الدهر ليس بالقديم عندما كان بالإمكان كتابة كل ما هو معروف من تاريخ منطقة ما بين النهرين في صفحات قليلة من التاريخ المتميز والخرافات. والآن وبعد أن أصبح لدينا معرفة من الدرجة الأولى حول تلك الحضارة فمن الممكن أن نرى كم حضارتنا مدينة لمنطقة ما بين النهرين. فلقد انتقلت لنا الأفكار السومرية البابلية والتقنيات من خلال عدة مصادر وقد وصلت إلينا من خلال التوراة بعض الأساطير القديمة فضلاً عن الأفكار المتصلة بالسحر وعمل السحرة، بينما وصلت إلينا أساطير يونانية. ومن خلال بلاد اليونان وروما وبيزنطة والعرب أتت إلينا العناصر التي أثرت في أنظمة الموازين لدينا وكذلك التقاويم وكذلك وصل لنا علم التنجيم من خلال نفس القنوات، وفوق الجميع نجد أن علم الفلك وعدة مفاهيم فلكية أخرى هي من التراث المباشر من منطقة ما بين النهرين. وتقع العناصر الآتية من منطقة ما بين النهرين في صلب معرفتنا القانونية والتجارية بينما نجد أن المواصلات البرية الطويلة كانت لها جذورها في منطقة ما بين

النهرين. هذا وإن الاهتمام بمحو الأمية له ما يقابله في منطقة ما بين النهرين، فإذا تعلم العالم الحديث شيئاً من روما حول الإدارة وحفظ النظام فإن هناك أيضاً نوعاً من الديون التي في أعناقنا للشرق الأدنى.

عناصر منطقة ما بين النهرين في التوراة

إنه لا مجال للشك أن بعض القصص المذكورة في التوراة كقصة الخلق وقصة الطوفان لها علاقة وأوجه شبه بقصة الطوفان في بابل أو سومر والتي تحدثنا عنها سابقاً في هذا الكتاب. وهناك ذكر السحر وأعمال السحرة في العهد القديم من التوراة ولا يعني هذا أن هذه المعتقدات قد أتت من منطقة ما بين النهرين نظراً لأن أعمال السحر ليست حكراً على شعب واحد من شعوب البشرية، ومع ذلك فإن تفاصيل مثل هذه المراجع تشير بقوة إلى نفوذ منطقة ما بين النهرين المباشر. وعدا عن هذا ليس هناك من سبب يدعونا للافتراض أنه في المجتمعات غير العلمية، كانت الشياطين تعتبر شبيهة بالوحوش الحقيقية.

إننا نجد فصلين من فصول التوراة لهما علاقة بالأفكار الدينية في منطقة ما بين النهرين، وهما الفصل عن ناحوم ونشيد الإنشاد وهما يشبهان طقوس تموز في بابل ويقول العالم الاسكندنافي أ. هالدار أن الفصل عن ناحوم يشبه حفلات السباق التي كانت تحدث في عيد رأس السنة في بابل ويقول كاتب هذا الكتاب أن نشيد الإنشاد في التوراة ذو علاقة أوضح بالطقوس البابلية. وهذا وإن الاعتقاد بتلبّس الشياطين الذي يعود إلى وجهة النظر البابلية حول نظام العالم. هذا الاعتقاد لا يزال سائداً بين بعض الطبقات الثقافية والذكية في هذا العالم.

وهناك بعض الحالات يعجز فيها الطب عندما لا يستطيع الأطباء اكتشاف أسباب الاضطرابات الجسمانية، عندها يعمد الكاهن إلى طلب موافقة المطران الذي يستطيع الحصول على نصائح الخبراء، فإذا حصلت الموافقة فإنه من السهل طرد الروح الشريرة. ولكن ربما دخلت هذه الروح في الكاهن ولذلك فقد كانوا يضعون كاهنين اثنين قد مارسا بعض الاستعدادات الروحانية. وهناك بعض

القصص في التوراة التي تشير إلى وجود الشياطين التي تطوف حول العالم، وهذه القصص مستوحاة من النفوذ البابلي القوي الذي تعرّض له اليهود أثناء فترة النفي إلى بابل. هذا ولقد لعبت فكرة الشياطين التي كانت سائدة عند الساميين دوراً طفيفاً في الأفكار العبرية قبل عملية النفي.

ومع أن العهد القديم في التوراة لا يشير إلا بشكل قليل إلى دخول الشياطين في الجسم البشري، إلا أن هناك إشارات في النصوص العبرية إلى عمل السحر أكثر من المعتاد.

وهناك عدد لا بأس به من الأمثلة الموجودة في النصوص العبرية للعهد القديم وهي تستعمل نفس الكلمات الموجودة في النصوص الأكادية السحرية. وكلها تظهر أوجه الشبه الوثيقة في التفكير مع السحر البابلي، الذي عمل بشكل غير مباشر في العالم الغربي. ففي الدين العبري كان هناك اعتقاد تقليدي بالسحر وكانت تفاصيل هذه المعتقدات تشير إلى أنها قد تشكلت من بعض المقاطع من الأشكال المشار إليها، وهكذا فإن الاتصال مع اليهود الذي كان متأثراً بمنطقة ما بين النهرين بطريقة أو بأخرى، ما هو إلا قناة جديدة من خلالها تسربت الأفكار الدينية التي لها جذورها في أوروبا في العصور الوسطى وعصر الإصلاح الديني، وقد أصبح لها الشكل الخاص الذي اتخذته أخيراً.

هناك أحد المفاهيم الدينية التي وصلت إلينا عن طريق التقاليد المستمرة من الشرق الأدنى وهي فكرة التتويج. ففي الشرق الأدنى القديم لم يكن التاج مجرد رمز بل كان ذا قوة سحرية وكذلك كان الزيت الذي دهن الملوك به أنفسهم. ولقد بقيت هذه المفاهيم واضحة المعالم في قضية التتويج المستعملة في إنكلترا في الوقت الحاضر.

علم التنجيم وعلم الفلك والتعداد وتقسيم الوقت

هناك مظهر واحد من مظاهر الخرافات البابلية وصل إلينا من خلال الرومان واليونان، وهو علم التنجيم الذي يصعب محوه من الحضارة في الوقت الحاضر، فقد كانت التنبؤات تحدث من عدة أنواع من الحوادث في بابل وهناك نوعان رئيسيان من هذه التنبؤات، إذ منها ما يؤثر على أفراد معينين وهي منتزعة من الحوادث مثل حادثة سقوط ثعبان من سقف البيت المصنوع من التراب على فراش أحدهم. ومن جهة أخرى، كانت بعض التنبؤات لا تختص بشخص معين بل بالبلاد بأجمعها أو ممثلها الطقوسي وهو الملك. وهذا النوع من التنبؤات يدعى بالقانوني أو الشرعي وقد اعتبر التنجيم من هذه الفئة. وعلى ضوء اللاهوت البابلي العالمي كان من الواضح أن الحوادث التي تحدث في السماء أو الأرض كانت تروى. وتذكر ملحمة الخلق أن الأرض هي نظير السماء، ولذلك فإن أي حادث يحدث في السماء فإن له ما يشابهه على الأرض.

والخطوة الأخيرة تجاه التنجيم والبروج هي أن هذه الخطوة من الصعب إتمامها حتى تخترع بعض التقنيات التي تمكن الظواهر السماوية من أن تعود لفرد معين من الأفراد. وهناك طريقة لعمل هذا وهي أن نلاحظ أي من الكواكب كانت ظاهرة وأي كانت مختفية عند ولادة هذا الشخص. إذ هناك نص من النصوص المسمارية يذكر أن هذا كان معروفاً قبل القرن الخامس ق.م. ومع ذلك فإن من يعتبر هذه الإجراءات شكلاً منظماً يجعلها في مصاف العلوم عليه أن ينتظر اختراع فنون البروج، فالبروج لم تخترع لأغراض تنجيمية، ولكن وبعد أن عرفت، ساد استعمالها للتنبؤ بالمستقبل على أساس تحرّك الأجرام السماوية ثم إلى التنبؤ بمستقبل الإنسان بالنسبة لوضع الكواكب في البروج عند مولده. وإن التفاصيل التي تذكر كيف حدثت هذه الخطوة لا تزال غامضة ولقد كثر اللغط فيما إذا كان هذا التطور قد حدث في بلاد اليونان أم في مصر أم في منطقة ما بين النهرين. إذ إنه كان في كل بلد من هذه البلدان أبطالها ولكن هناك اعتبارين يفضلان بابل. إذ هناك الاعتبار النظري وهو أن الفكرة إنما ظهرت في الميليو Miliew حيث كانت الأجرام

السماوية تعتبر بأنها آلهة تؤثر على حياة البشرية، وهناك الحقيقة العملية التي مفادها أن كثيراً من أمثلة البروج قد عرفت في بابل قبل اليونان أو مصر. ويشير العالم ب. ل. فان دير ويردين Waerden. إن هناك مفهومين ينبغي تمييزهما عند مناقشة أصل البروج وأحدهما هو حزام البروج أي الحزام المؤلف من ١٢ درجة تتحرك فيه الشمس والقمر والنجوم، وتقع مجموعة النجوم أو إشارات البروج ضمن هذا الحزام. وهناك عدد من الأسماء المذكورة والتي تشبه الأسماء والتي لا تزال مستعملة للدلالة على إشارات البروج. مثلاً الثور والتوأم (جيميني) والأسد والسرطان والقوس والجدي. وأما المفاهيم الأخرى، فكانت حول الخسوف والكسوف التي يعرفها فان دير ويردن أنها خط واقع في منتصف حزام البروج وخلال خسوف القمر وكسوف الشمس وهي مقسمة إلى اثنتي عشرة إشارة بروجية كل منها يبلغ ثلاثين درجة. ويشير فان دير وردن أن هذا كان اختراعاً بابلياً استخدم عام ٤١٩ق.م في نص Mul-Ap IN مول أب إن من اثني عشر شهراً وكل شهر مؤلف من ثلاثين يوماً وعن طريق استخدام اثنتي عشرة إشارة بروجية، فإن الشمس تنتقل ما بين هذه الإشارات مدة شهر مخطط.

لا نجد هناك منطقة البروج في بلاد اليونان وبالنسبة لأوراق البردى وأدب التنجيم في الفترة الرومانية، فإن أقدم ذكر لها هو عام ٦٢ق.م. وإن البروج في مصر تعود إلى النصف الأول من القرن الأول ق.م. وهناك نص من النصوص المسمارية يذكر أن طفلاً قد وُلد بتاريخ ٢٩ نيسان عام ٤١٠ق.م بينما هناك أربعة أمثلة أخرى من القرن الثالث ق.م.

وفي عام ٤٨ق.م في ليلة الثالث والعشرين ولد الطفل وفي ذلك الوقت كانت الشمس في برج الحمل ١١,٣٠° والقمر كان في برج الدلو، وكان المشتري في أول برج الأسد. وكانت الزهرة مع الشمس وكانا سائرين في برج السرطان والمريخ في نهاية برج السرطان، فإن هذا الطفل سوف يكون مفتقراً إلى المال ولسوف لا يرضي طعامه حالة الجوع. وإن الثروة التي جمعها في شبابه سوف لا تبقى وبعد ستة وثلاثين عاماً سوف تصيبه الثروة والمال وسوف يطول عمره.

إن فكرة تعيين الأسبوع تعود إلى تأثير منطقة ما بين النهرين. ومنذ فترة قديمة كانت الطقوس الدينية تبدأ في اليوم الأول القمري وكذلك في اليوم الخامس عشر عند ظهور البدر وفي يوم المحاق يوم اختفاء القمر وفيما بعد اعتبرت أيام نصف الشهر القمري أيام أعياد. وهناك نظرية مختلفة حول أصل الأسبوع العبري وهذا يُظهر أن الدين الموسوي كان تحت نفوذ الكنعانيين الذين كانوا إحدى القبائل السامية التي كانت لديها موانع ضد استعمال النار في اليوم السابع.

إنه ليس بالنسبة إلى التقويم فحسب، بل بالنسبة إلى طريقة الأرقام وبصورة خاصة عند قياس الزمن، فإن الإجراءات في منقطة ما بين النهرين تركت آثارها التي لا تزال ظاهرة في حضارتنا. ولا يزال النظام السومري الستيني ظاهراً في تقسيم الدائرة إلى ٣٦٠ درجة وتقسيم الساعة إلى ستين دقيقة و٣٦٠٠ ثانية، وهذا ما يمثل بعض التقاليد المستمرة التي وصلت إلينا من خلال الفلكيين القدماء. وإن عدداً يكتب باللغة السومرية هكذا:

إنما يشير إلى الرقم ستين مضروباً بثلاثة +٢ ويبدو أن المبدأ الخاص بتدوين القيم البابلية المكانية لم يفقد بل إنه قد انتقل إلى علم التنجيم الهندي الذي دخل إلى الحضارة الإسلامية وبعدها إلى الحضارة الأوروبية بما يدعي الأرقام العربية التي تصبح العدد ٣٢ يعني عشرة مضروبة بثلاثة +٢.

هذا وإن تقسيم النهار إلى ساعات يرجع أيضاً إلى منطقة ما بين النهرين مما دعا إلى إلغاء النفوذ المصري والبابلي. فقد استعمل علماء الفلك المصريون والبابليون أنظمة مختلفة لتقسيم النهار فقد قسم المصريون الفترة من شروق الشمس إلى غروبها إلى اثني عشر جزءاً. وهكذا فقد جعلوا على ساعات تعتمد أطوالها على الفصول. أما شعب ما بين النهرين فقد قام بنفس العمل في الحياة العادية، بحيث أن قسموا الليل ابتداءً من غروب الشمس إلى شروقها إلى ثلاث ورديات كل منها يؤلف (بيرو) واحداً ويختلف قيمة (البيرو) حسب الفصول. أما علماء الفلك البابليون فقد قسموا اليوم بكامله نهاراً وليلاً إلى أقسام ثانوية ذات أطوال متساوية. وفي فترات متأخرة تبنى الهيلينيون النظام والوسائل البابلية عند تقسيم الليل والنهار إلى أقسام متساوية

ولكنهم قسموا (البيرو) إلى أربعة وعشرين قسماً ثانوياً – من النهار إلى الليل وذلك كما هو الحال في النظام المصري ولكن الأطوال كانت متساوية وهكذا ظهرت فكرة اليوم المؤلف من ٢٤ ساعة.

المترادفات

لقد ظهر أن المؤلفين الكلاسيكيين قد أكدوا أن الحضارة الحديثة مدينة لمصر أكثر منها لبابل ومع ذلك فإن معرفة عدد العقاقير الطبية (من أصل نباتي ومعدني) قد أتت من مصادر منطقة ما بين النهرين، نظراً لأن كثيراً من الأسماء اليونانية قد استعيرت من الأكادية، ومن هذه الأسماء المندرجة تحت هذه الفئة ما يلي:

English	Greek	Akkadian
Carob	Charrouba	Kharuba
Crocus	Knokos	Kurkana
Commin	Kuminum	Kamanu
Gypsum	Gypsas	Gassu
Hyssop	Hussopa	Zupu
Ladanum	Ledanon	Ladanu
Myrrh	Murra	Murru
Naphtha	Naphtos	Naptu
Soffran	-	Azupiranu

ومن بين الكلمات من فئات أخرى قد أتت من اللغة الأكادية أو السومرية، إلا أننا لا نستطيع استنتاج أمثلة كثيرة من اللغة الإنكليزية أو من اللغات الحديثة الأخرى. وهناك محاولات جادة لإيجاد بعض الكلمات السومرية في أماكن غير منتظرة وخصوصاً في اللغة الهنغارية، ولكن من الممكن تجاهل ذلك نظراً لأنها تعتمد على معرفة غير كافية للغة السومرية. أو الفهم الخاطئ للتطورات التاريخية للغة، إذا قورنت معها، وفيما يلي نذكر الكلمات التي لها علاقة بمنطقة ما بين النهرين بما يلي:

الكحول: من اللغة العربية الكحل ومن اللغة الأكادية Guhlu وقد كان معنى الكحل أولاً المسحوق المطحون جيداً وبشكل ناعم وبعد ذلك أطلق على المواد المتطايرة ثم على المشروبات الروحية.

الكالي Alkali وتأتي من خلال اللغة العربية من اللغة الأكدية Kalati أي الأشياء المحروقة وذلك بالإشارة إلى رماد النباتات التي كانت تحرق لعمل البوتاس.

كلمة Cane قد أتت من الكلمة الأكادية Kanu بمعنى القصبة وتأتي Canon من نفس الاشتقاق تعني عصا القياس أو النموذج.

كلمة Chrusos اليونانية بمعنى الذهب قد أتت من الكلمة الأكادية Khurasu بمعنى الذهب ومن الممكن أن تكون الكلمتان اليونانية والأكدية ذات أصل واحد ليس بالأصل السامي ولا الهندوأوروبي. كلمة Dargoman قد أتت من خلال اللغة العربية والآرامية من الكلمة الأكادية Targumanu. كلمة Horn (باللاتيني Cornu واليوناني Keras) وربما كانت متصلة من بعيد بالكلمة الأكادية Karnu التي لها نفس المعنى.

كلمة Jasper مشتقة من خلال الكلمة اليونانية Laspes من الكلمة الأكادية Iashpa.

كلمة Meguin الفرنسية Mischinos الإيطالية التي تعني فقير أو وضيع هي مأخوذة من كلمة عربية (المسكين) التي هي بالآكادية Mushkin بمعنى من طبقة دنيا.

كلمة Mina تأتي من اللغة السومرية Mana وهي تمثل كلمة سامية مؤسسة على الفعل Manu بمعنى يَعد وقد أتت من الأكادية.

كلمة Plinet قد أتت من الكلمة اليونانية Plinthas بمعنى طوبة أو قرميد وهي مشتقة من اللغة الأكدية Libittu وتعني الطوب المقولب.

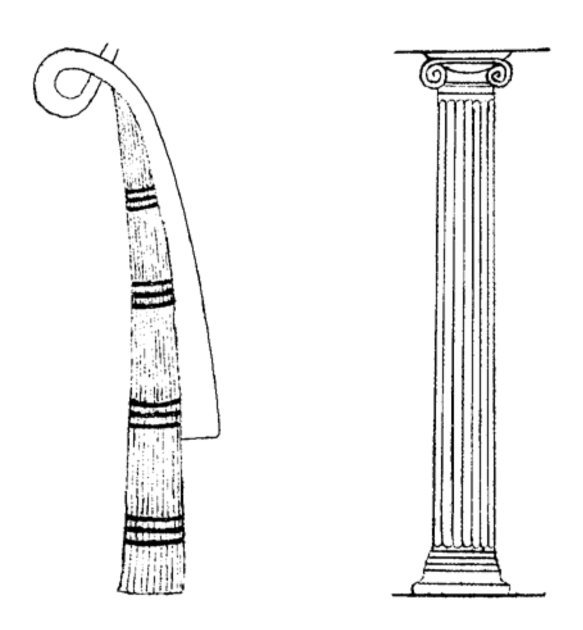
كلمة Rachel قد أتت من العبرية Rahel أي ابن النعجة وهي تعود إلى الكلمة السومرية Lahra وهي اسم أحد الآلهة الذي له علاقة بالغنم.

كلمة شيكل تأتي من خلال اللغة العبرية من الكلمة الأكادية Shiklu.

وهناك نوعان من الفواكه في أوروبا قد اشتقت أسماؤها من منطقة ما بين النهرين وهذا يدل انها قد وصلت إلى أوروبا من هذه المنطقة وأحدها هو المشمش ويدعى باللاتينية Armeniaca مما يدل أن هذه الفاكهة قد أتت من أرمينيا. ولهذا ونظراً لأن المشمش كان معروفاً لدى الآشوريين والبابليين باسم Armuna وهذا يدل أن الاسم اللاتيني قد أخذ من الاسم الأكادي وأن الفاكهة والشجرة قد وصلت إلى أوروبا عن طريق منطقة ما بين النهرين. والشجرة الأخرى هي شجرة الكرز وكذلك الفستق والتين والتفاح والرمان والسفرجل والحمضيات والليمون والتوت وتأتي الشواهد من النصوص ومن البقايا التي وجدت بعد بداية أعمال الحفر، وهذا يدل بأنه كثيراً من الملوك البابليين والآشوريين قد اهتموا بالنباتات والزراعة في مزارعهم وأن الكرز هو الشجرة الوحيدة التي يظهر أن اسمها قد اشتق من الأكادية وهو Karsho وهو يشير إلى الأصناف ذات الروائح العطرة كالكرز التي صادفها الآشوريون في جبال كردستان.

فن المعمار

يمثل العمود الأيوني تراثاً معمارياً وصل من خلال بلاد اليونان وهو نوع من الأعمدة التي تمتاز بوجود تاج في أعلاه وهذا التاج محاط بزينة حلزونية جانبية. ولقد استعمل هذا النوع في الفترة Protolitarate كرموز دينية في بابل وكان عبارة عن حزمة من القصب الطويل والمرتبط بعضه ببعض وقد استعمل بشكل عمود في الكوخ الطقوسي. ولا تزال مثل هذه الوسائل مستعملة في صنع الأكواخ بين سكان المستنقعات من عرب العراق والجنوب.



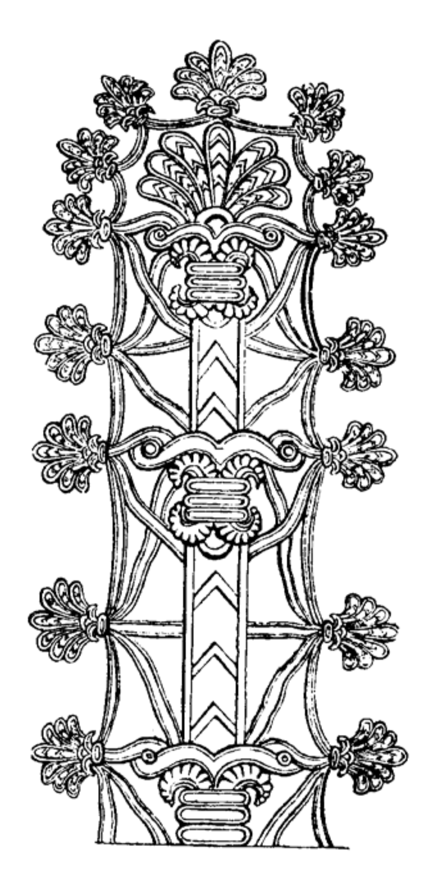
عمود إيواني (جهة اليمين) وسابقه (سلفهُ)

الرموز في الفنون الدينية

نلاحظ وجود تأثير ونفوذ الفن الذي كان موجوداً في منطقة ما بين النهرين في الفنون المسيحية والإسلامية. مع أننا لا نستطيع إثبات ذلك وكلما كان الرمز بسيطاً كلما أصبح من الصعب برهنة علاقته بالفنون الأخرى. مثلاً هناك قضية الصليب والهلال فقد كان كلاهما معروفين تماماً كرموز دينية في منطقة ما بين النهرين. ومع ذلك فإن الصليب اليوناني البسيط قد ظهر بشكل مستعمل في مناسبات عدة. وأما بالنسبة للصليب المالطي الأنيق فإن القضية مختلفة وإن الحقيقة التي مفادها أنه كان مستعملاً كرمز ديني في جمدت نصر في آشور في فترة عام ٢٩٠٠ق.م هي قضية معروفة وليس من الممكن اعتبارها مجرد مصادفة. ومن المؤكد أن الصليب بشكله المالطي (انظر اللوحة ٢٧) كان رمزاً دينياً قديماً انتقل إلى المسيحية وهناك رمزان يهوديان يعودان إلى الفنون الدينية في منطقة ما بين النهرين

القديمة، وهما المينوراة أي المصباح الطقوسي أو درع داود وهذان قد وجدا في الأختام الآشورية القديمة في أوائل الألف الثاني ق.م.

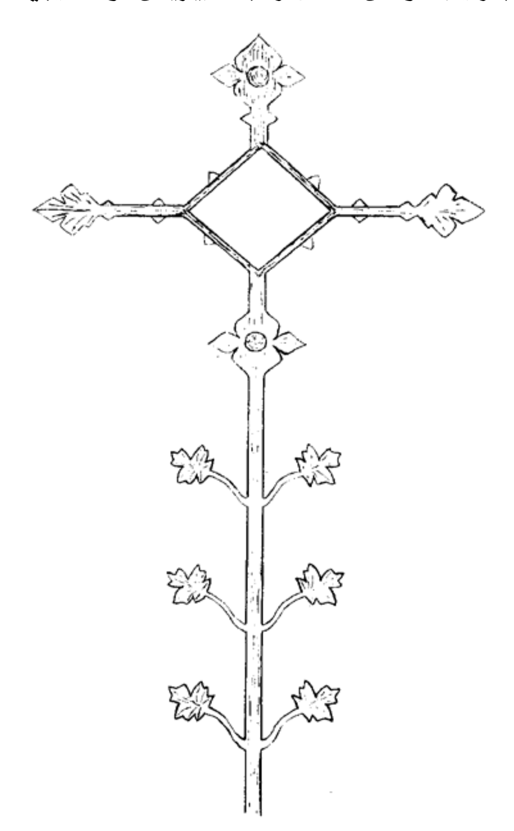
وفي بعض الحالات نجد أن أوجه الشبه ما بين المواضيع المعقدة في منطقة ما بين النهرين القديمة وما بين الفنون المسيحية هي أوجه شبه صارخة ولقد قبل مؤرخو الفنون المسيحية هذه الحقيقة. وإن نقاط الاختلاف ما بين المؤرخين ليست محصورة بالنفوذ البابلي بل بالقنوات التي وصل من خلالها هذا النفوذ من منطقة ما بين النهرين إلى بيزنطة وإلى أوروبا في العصر الوسيط.



الشجرة المقدسة الآشورية

إن هناك رمزاً دينياً قد أتى دون شك من الشرق القديم هو شجرة الحياة. وقد وجدت هذه ضمن الفنون السومرية القديمة واستمرت من خلال تاريخ منطقة ما بين النهرين وظهرت بشكل بارز في الأفاريز الآشورية في الألف الأول ق.م (انظر اللوحة ٣٢) وتوجد المفاهيم الأسطورية لشجرة الحياة في سفر التكوين في التوراة ويتمثل هذا الرمز في السجاد الشرقي ويوجد في الفنون المسيحية منذ أقدم الأزمنة.

وهناك عدد من المواضيع القديمة التي كانت يقبلها مؤرخو الفنون الجميلة بأنها كانت موجودة في الفنون المسيحية ولكنها قد أخذت من منطقة ما بين النهرين القديمة من خلال البارتيب أو من خلال رهبان إيريش أو نصيبين.



الصليب في شكل الشجرة المقدسة، بعد وجود لوحة تذكارية نحاسية في كاتدرائية انكليزية.

وقد ألحق عدد من هذه الرموز في منطقة ما بين النهرين القديمة بالإله تموز ولا يسع كاتب هذا الكتاب إلا أن يحذر القارئ من الاعتقاد أن الديانة المسيحية كانت تطوراً لطقوس تموز مع أن هذا هو رأي الميتراسبيين الذين عاصروا ونافسوا الديانة المسيحية الأولى هذا وقد قبلت المسيحية فكرة تموز وكونها رمزاً للمخلص يسوع المسيح الذي نهض وقام مرة ثانية.

إن (اللوحة ٥٧ب): تشير إلى تسجيلات مفصلة عن عملية الصلب وهي مملوءة بالمواضيع التي تظهر تشابهاً كبيراً مع المواضيع في منطقة ما بين النهرين وليس هناك من سبب يدعونا للافتراض أن هذه قد قدمت في عملية الإصلاح الديني التي حدثت في عام ١٨٢٥م. إذ هناك رمز الشمس (وهي الأشعة الموجودة في الصليب) ورموز القمر والنجمة فهي رموز لا يتطرق إليها الشك أو الخصام. بينما نرى الشيطان الصغير المجنح وهو يختطف روح اللص الذي لم يتب عن فعل الصوصية وهذه تظهر نقاطاً صارخة من أوجه الشبه بالشيطان في منطقة ما بين النهرين وبابل المعروف باسم بازوزو.

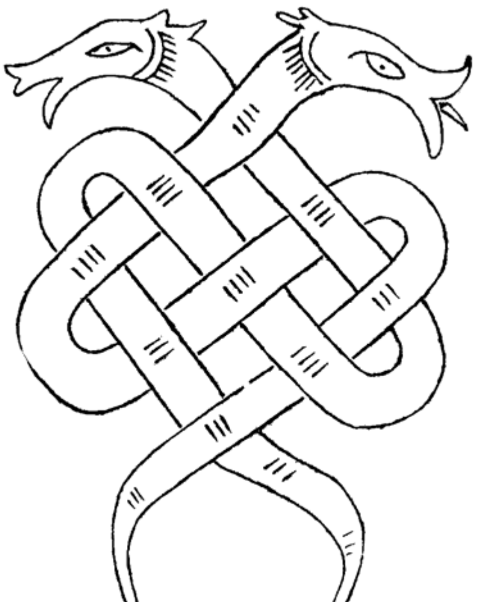
ليست المواضيع الفردية فحسب بل إن نقاط الأسلوب الظاهرة في الفنون المسيحية تدل على انتقال هذه النقاط من منطقة ما بين النهرين القديمة. وهناك ظاهرتان من ظواهر الأسلوب بصورة خاصة تندرج تحت هذه الفئة. الأولى هي استعمال المنظور العمودي أي وضع المناظر الخلفية فوق المناظر الأمامية. أما الثانية هي أن الصورة الرئيسية في المشهد تظهر بشكل كبير نسبياً مع الأشكال الأخرى التي تظهر أقل حجماً. وحتى الطريقة التي يتمثل بها المسيح في الفنون المسيحية تظهر أحياناً النفوذ في منطقة ما بين النهرين. إذ هناك صورتان مأخوذتان من الفنون البيزنطية. إذ يظهر المسيح بشكل ساحر من الشباب أما في الصور الشرقية فيظهر ملتحياً وغامضاً ذا جلال واحترام متميز في الآلهة القديمة في منطقة ما بين النهرين، وطبقاً لما ذكره الأستاذ كرويسويل Creswell وهو المؤرخ الثقة لفن المعمار الإسلامي، فإن بعض المآذن الإسلامية تظهر النفوذ من منطقة ما بين النهرين. والأهم

هي المئذنة الحلزونية في سامراء وفي العراق التي بُنيت فيما بين ٨٤٩ و٨٥٢م ولا تزال ماثلة للعيان والصورة إلى اليسار تظهر فكرة تقريبية عن مظهرها.



مئذنة سامراء

إن شكل هذه المئذنة مؤسس على شكل الزقورة مع أن مخطط البرج دائري بدلاً من أن يكون مربعاً وإن استعمال هذا الطراز الحلزوني قد انتشر من العالم الإسلامي إلى الصين حيث استخدم نفس الشكل المعماري فيما بين القرن الحادي عشر والثالث عشر الميلادي.



أفاعي مضفورة في الفن الإسلامي

لقد بذلت محاولة للإثبات أن كثيراً من المواقع والأشكال الموجودة في الفنون الإسلامية مأخوذة من فنون منطقة ما بين النهرين وعلى العموم فلا يجد كاتب هذا الكتاب برهاناً مقنعاً على ذلك (بسبب جهله للفنون الإسلامية) ولكن هناك بعض أوجه الشبه الصارخة وهي الثعابين المتشابكة التي ترى صورتها إلى اليسار (وهي مأخوذة من إحدى القواعد الإسلامية في القرن الحادي عشر م) وهي تذكرنا بشكل صارخ بالثعابين التي نجدها في (اللوحة ١١) التي تمثل غطاء مصباح من نهاية الألف الثالث ق.م في آشور.

إن رمز الثعابين المتشابكة قد نُقل من العالم القديم إلى العالم الحديث نظراً لأنه في المنظرين نجد رمزاً للشفاء، ففي بابل كانت صورة الثعابين المتشابكة مرافقة لصورة نين غنزيدا Mingizzida وهو ابن الإله الحامي لمراسم الشفاء بينما وبالنسبة للعالم الحديث فهي مرافقة لنظام الصيدلة.

الأدب والأشكال الأدبية والفولكلور

تعتبر الأسطورة جزءاً من الأشكال الأدبية التي تعود إلى منطقة ما بين النهرين القديمة، مع أن أسطورة الفيل والبعوضة وليست قصص التوتر والشدة، هي التي ينبغي أن تعتبر الجدة أو الأساس للأسطورة الإيسوبية. ويخبرنا السيد موندي المدرّس الأول للغة التركية في جامعة لندن، إن هناك قصصاً في الأدب التركي مشابهة لقصة الفيل والبعوضة وهي التي تمثل الفولكلور في الأدب التركي الحديث. هناك عدة مظاهر من أمثال وأقوال فولكلورية ومن المستحيل أن نبرهن أو ننقض البرهان أنه كان هناك انتقال للأفكار. ويمكننا القول إنه حيث هناك مادة مشتركة يمكن تفسير ذلك في أحد الشكلين: إما أن تكون نتيجة التشابه في أسلوب التفكير حينما يمثل هذا إشعاعاً ثقافياً كائناً لم يختفِ بعد، أو أن يكون نوعاً من تقاليد موروثة مستمرة ومباشرة. هذا ومن الممكن استنتاج حالات قليلة من التشابه مع أنه لم يتقدم أحد للإدلاء برأيه حول وجود أية علاقة عدا العلاقة الفطرية الفسيولوجية المتشابهة فيما بين البشر القدماء منهم والحديثين. وفي الفولكلور

الحديث هناك مبدأ مفاده أن الأحلام تفسر بالعكس وقد كان الآشوريون يعتنقون نفس الفكرة إذ يقولون ما يلي:

إذا صادف في الأحلام أن منح الإله بركته لشخص ما، فإن هذا الشخص سوف يعاني من غضب الإله.

أما إذا لعن الإله شخصاً ما، فإن هذا الشخص سوف يتمتع بوضع جيد تجاه الإله وسوف تكون صلاته مستجابة.

وفي المفاهيم التي كانت سائدة في منطقة ما بين النهرين نرى أن سلوك الحيوانات المختلفة مشابهة لسلوك البشر. فالنسر كان ملك الطيور وكما هو الحالة لدينا فهو مشهور بالطيران إلى مسافات عالية في الجو. أما الثعلب فهو مشهور بالخبث. وكان من المعتقد أن الثعبان لا يواجه الشيخوخة وهذا الاعتقاد لا يزال سائداً في بعض أجزاء أوروبا والمخلوق الذي يدعى فرس النبي التقي قد أوجد تصورات مشابهة لدى البابليين الذين دعوا هذا المخلوق باسم كاهن الشاكيو الريفي.

وفضلاً عن القصص ذات الأصل الذي يعود إلى منطقة ما بين النهرين (أي قصة الطوفان) التي وصلت إلينا عن طريق التوراة، فإن هناك قصصاً أخرى عرفناها من الأدب اليوناني وأشهرها قصة هيركوليس وجلجامش مع العلم أنه ليس هناك من أوجه تواز حقيقية حسب رأي مؤلف هذا الكتاب: وفضلاً عن شخصية هيركوليس نفسه، إلا أن هناك عدة مظاهر أخرى مأخوذة من علم الأساطير اليونانية التي تظهر كصدى لملحمة جلجامش. فهناك على سبيل المثال قصة التامبان والنبات الواهب للحياة الخالدة السحرية التي تذكرنا بقصة الثعبان الذي سرق النبات الواهب للحياة الخالدة وقصة الشيخ الذي يعود إلى صباه.

هذا وإن قصة العقرب العملاق الذي كان مسؤولاً عن موت أوريون بعد قيامه برحلة إلى مشرق الشمس، إنما تذكرنا بقصة الرجل العقرب الذي وجده جلجامش في أحد أطراف العالم وهو في طريقه إلى موطن أجداده.

وهناك أسطورة أقل شهرة في علم الأساطير اليونانية ربما كانت ذات علاقة بعيدة عن منطقة ما بين النهرين وهي القصة التي رواها هسيور حول أورانوس (السماء) فقد ضاجع أورانوس (السماء) غيا Geia (الأرض) ولكنه لم يسمح لها أن تلد التيتان الذي حملت به غيا. وأخيراً وعندما اقترب أورانوس من غيا قام أحد التيتان بإيعاز من غيا بإخصاء أورانوس بسكين من الصوان. وإن هذا العصيان ضد أورانوس عن طريق أداة صوانية. ربما كان صدى ضئيلاً لتلك الأسطورة البابلية حين تمرد الإله الصوان ضد الإله نينوترا لهذا فقد قضي عليه بأن يتقطع إلى رقائق. وهذه الأسطورة شأن الأساطير الأخرى المذكورة أعلاه) قد انتقلت من بابل إلى بلاد اليونان عن طريق الحثيين الذين تواترت لديهم إحدى الأساطير التي تذكر أن أحد الآلهة قد عض وقطع الأعضاء الجنسية التناسلية لأحد الآلهة الذي يشبه الإله أورانوس.

ولقد قيل إن الظاهرتين الأساسيتين اللتين تعتبران من أصول الفكر الغربي الحديث هما أن هذا الفكر هو فكر علمي وتاريخي. وأما منطقة ما بين النهرين فمع أنها قد قدمت لنا جزءاً كبيراً من التقنيات بالإضافة إلى أسس الرياضيات وعلم الفلك إلا أنه لا يجوز لنا أن نعطي لهذه المنطقة قصب السبق في إيجاد أسس علمية للحياة الحديثة.

ولكن هناك جديلة أو سلكاً مجدولاً متواجداً في تقاليدنا الحديثة في التفكير. ربما قد اشتقت من منطقة ما بين النهرين. وحيث يفتش المرء عن بداية التاريخ إنما يعتمد هذا التفتيش على مقدار ما يفهمه الإنسان من معنى للتاريخ، فإذا ظن المرء أن معنى هذا المصطلح هو الاهتمام بأصول وتطور المجتمع البشري، فإن من الممكن رؤية ومعرفة هذه التطورات من خلال الأساطير السومرية والبابلية القديمة. ولكن إذا كنا نعني من وجهة أخرى أن علم التاريخ يدل على شيء أكثر تخصصاً أي جلب الحاضر بشكل واعٍ للاتصال مع الماضي، وهكذا وكما ذكر الباحث الأميركي هـ. ليوي فإن التاريخ هو أصلاً من خلق الآشوريين مع أنه من المحتمل أنه قد نشأ وبشكل منفصل في مناطق أخرى خارج منطقة ما بين النهرين. وبالنسبة للنقوش

الملكية التي وجدت في منطقة ما بين النهرين فهي نقوش مخصصة لفن البناء والتي ظلت متواجدة في بابل حتى النهاية. ففي النقوش النموذجية كان الملك يذكر اسمه وألقابه وأناشيد لمدح الإله ثم إشارة موجزة إلى الزمن والظروف التي تم بها البناء وبعدها حسابات عملية البناء. وفي آشور وفي الألف الثاني إلى حوالي عام ١٣٠٠ق.م بدأ الملوك بالاهتمام بالزمن فلم يقدموا الحادث الذي سبق وأدى إلى المباشرة في عمليات البناء فحسب، بل ذكروا أيضاً خلاصة لحملات الملك العسكرية، وبعد ذلك أصبحت هذه الحملات ترتب بشكل نظامي طبقاً لسنوات حدوث الحملات. ومن ثم تطور هذا إلى كتابة الحوليات المعروفة لدى الحكام الآشوريين في الألف الأول. ولم تكن هذه الحوليات محددة بذكر الحقائق المجردة فحسب، بل لقد قدمت بعض الانتقادات لبعض الأعمال وملاحظات حول التغيرات السياسية وتصحيحات حول تاريخ حكم أحد الملوك أو خصائص أحد الأجناس فضلاً عن القضايا المرافقة للتاريخ مثلاً المظاهر الجغرافية والطوبوغرافية والاستراتيجية والتكتيكية المختصة بالحملات، ولهذا يمكننا اعتبار الآشوريين من المؤرخين الأوائل. ومع ذلك فإن إمكانية تأثر المؤرخين اليونان بشكل مباشر بالموقف الآشوري هي إمكانية حقيقية ومقبولة. ولكن يكفي أن نقول إن المؤرخ اليوناني هيرودوتس الذي عاش في القرن الخامس ق.م قد سافر بنفسه إلى منطقة ما بين النهرين. مع أن آشور كانت قد اختفت في ذلك الوقت كوحدة سياسية، إلا أنه ليس من السهل اختفاء عادات التفكير. وهكذا فإن هيرودوتس ربما قد وصل من خلال الباحثين البابليين المتأخرين الذين قد ورثوا هذه التقاليد، إلى درجة الوقوع تحت نفوذ الفلسفة الآشورية لتفسير التاريخ.

هناك مواقف أخرى كثيرة وأعمال وطرق في التفكير يستطيع المرء من خلالها أن يلمس أوجه الشبه ما بين الحياة الحديثة وحياة سكان منطقة ما بين النهرين القدماء، ولكن قلما كان هناك باحثون لديهم معرفة كافية بالتاريخ الثقافي لتلك الفترة الطويلة المؤلفة من ألفين وخمسمائة عام التي كانت تغطي ذلك البرزخ الذي لم تحدث فيه سوى بحوث ضئيلة حول بعض النقاط الخاصة... مثلاً لقد ذكر أحد

الثقات في علوم القانون في حديث له مع مؤلف هذا الكتاب إن القانون الذي يعالج قضايا الرهن. إنما يعود إلى أعمال الأديرة والمرابين اليهود في العصور الوسطى ومن خلالهم يعود إلى الشرق الأدنى القديم. إذ هناك عدة حالات مشابهة تشير إلى كوننا لا نزال مدينين إلى منطقة ما بين النهرين. وحتى وبالنسبة للبنية التحتية لحياتنا اليومية والعائلية فإننا نجد أن هذه البنية قد تقولبت في إطار منطقة ما بين النهرين.

وبعكس الشعوب الأخرى بما فيهم اليهود حتى القرن الثاني عشر الميلادي والمسلمون حتى يومنا هذا فقد كان سكان منطقة ما بين النهرين القدماء (عدا الملوك) أحاديي الزواج أي كانوا يتزوجون زوجة واحدة فقط. وكما هو الحال في حضارتنا الغربية فقد كانت النساء أكثر حرصاً على وحدانية الزواج من الرجال.

الفهرس